الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الحاج لخضر- باتنة -
كلية اللغات والآداب
قسم اللغة العربية وآدابها

بناء القصيدة في شعر ابن الأبار القضاعي

595هـ - 658 هـ

أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه العلوم في الأدب الأندلسي

إعداد الطالب:
شاكر لقمان

إشراف الدكتور :
علي عالية

لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الرتبة العلمية	الجامعة	الصفة
محمد زرمان	أستاذ اللتعليم العالي	جامعة باتنة	رئيسا
عي عالية	أستاذ محاضر	جامعة باتنة	مشرفا ومقررا
الربعي بن سلامة	أستاذ التعليم العالي	جامعة قسنطينة	عضوا مناقشا
إسماعيل زردومي	أستاذ التعليم العالي	جامعة باتنة	عضوا مناقشا
مختار قطش	أستاذ التعليم العالي	جامعة تبسة	عضوا مناقشا
العلمي مكي	أستاذ محاضر	جامعة أم البواقي	عضوا مناقشا

السنة الجامعية : 1433هـ/1434هـ- 2012م/2013م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلا ة والسلام على أكرم الخلق أجمعين ، وعلى آله وصحبه الغرّ الميامين ، ومَنْ تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد :

كانت عناية الباحثين على مر العصور بالتراث الأندلسي كبيرة ، ولعل من الأسباب الداعية إليذلك طبيعة هذا الإرث ومميزاته وخصائصه التي انماز بها في هذه الفترة بوصفه جزءا من التراث العربي الإسلامي . وهذا ما سنجده في شعر ونثر شاعر أندلسي بلنسي قضاعي يدعى

" ابن الأبا ر " الذي عاش بين فترتي (595 هـ و 658 هـ) .

أهمية البحث وأهدافه :

بقي التراث الذي خلّفه الشاعر ابن الأبار بعامة ، والشعر بخاصة على مرّ العصور مادةً خصبة للدرس والبحث ، وظل معينه لا ينضب ، على الرغم من الدراسات المتعددة والمختلفة التي انصبت حول حياته في مرحلتيها الأندلسية والإفريقية ، وعلى شعره الغزير الذي نظَمَه في شتى الأغراض ، إلا أن ذلك لم يشبع نهم الباحثين ، الذين مافتئوا يتطلعون إلى المزيد من آثار هذا الأديب الموسوعي ، الأمر الذي شجعنا إلى الإقبال على دراسة شعره من جديد قصد الكشف عن خصائصه وبُناه الفكرية والفنية ، عسانا نضيف ولو لبنة إلى صرح الدراسات السابقة .

وحتى يتحقق ذلك حددنا **إشكالية** ، يتغيّا البحث الإجابة عن أسئلتها ، وتتمثل في :

- كيف بنى الشاعر ابنُ الأبّار موضوعاتِه؟وما هي الأداة التي وظفها في نقل تجربته الشعرية فنيا؟

- كيف تمكّن الشاعر من أن يتمثل (شعرًا) واقعَه التاريخي المتأزمَ الذي عايشه في العدوتين (الأندلسية والإفريقية) بهذا القدر الذي نجده في ديوانه ، في حين أن ميدانه الحقيقي هو التاريخ والتراجم بصورة خاصة ؟ بل كيف استطاع أن يوفق فيبدع في مرحلة قضاها مُهجّرًا ومنفيا تارة ومشغولا بمهمات رسمية بجنب الحكام ورجال السياسة تارة أخرى ؟
- وإلى أيِّ مَدًى بلغت شهرته الواسعة في العصر الحاضر ، على الرغم مما كُتب حول قديما ، أو بفضل ما كُتب عن آثاره حديثا ؟
- وإلى أي حدٍّ يصل الأمر بأن تكون نهايته مأساوية ، وهو الرجل ، الذي قضى حياته خادما للحكام ، الذين أزهقوا في النهاية روحه ، وأحرقوا كتبه ؟

من دوافع الاختيار :

يعود اختياري لهذا الموضوع الموسوم بـ :**بناء القصيدة في شعر ابن الأبار القضاعي** (595.هـ ـ 658. هـ) إلى اهتمامي بموضوع الأدب الأندلسي بعامة ، وبإبداع الأندلسيين في شتى المجالات بخاصة منذ دراستي بالجامعة في مرحلة الليسانس ، حيث كنت حينها مشدودا لهذا الأدب ولا سيما في فتراته الحرجة التي تعتبر جزءا من حياة المسلمين في الأندلس التي تقارب ثمانية قرون .

وقد أتيحت لي الفرصة في هذه المرحلة أن أتلقى هذه المادة على أيدي أساتذة ؛ بصّرونا بحقيقة هذا الأدب ، وبمراحل تكونه و خصائص تشكله ، وعلاقته بالأدب المشرقي ليستمر المشوار بعد ذلك مع الدراسات العليا في تخصص الأدب الأندلسي لينتهي في هذه المرحلة بمذكرة " ماجستير" التي كانت حول شعر ملوك الطوائف في القرن الخامس الهجري .

كما زاد من إصراري على اختيار موضوعي الاطلاع على حياة الشاعر ابن الأبار ، ومعرفة مأساته مع الحفصيين ، الذين وقّعوا شهادة وفاته قعْصًا بالرماح ، حتى لا تقوم له عندهم قائمة و قراءة شعره الغزير والمتنوع ، وعلى بعض الدراسات المتعددة والمتعلقة بهذه الشخصية الموسوعية ، أثناء مطالعاتي المستمرة لأدب الأندلسيين الممتع.

من هنا كانت رغبتي شديدة في دراسة شعره ، ومعرفة ملابسات هذه النهاية المأساوية لرجل علم وأدب وتاريخ ، كان يسعى إلى أن يكون لسان حالهم ، ومروّجا لسياستهم التي بسطوها بالقوة وبغير القوة على جيرانهم بخاصة ، في محاولة مني الإلمام قدر المستطاع بكل ما يتعلق بهذا الإبداع الغزير ، الذي أفرزته ظروف معينة خلال ثلاث وستين سنة والذي ضمّنْه دفتاَ ديوانٍ بلغ عدد صفحاته ستًّا وتسعين وأربعَمائة صفحة .

كما استندت الدراسة إلى صنفين من المراجع ؛ منها ما تناول حياةَ وأدب الأديب ابن الأباراستقالا ، ومنها ما بحَثَ في جانب ، أو جوانب معينة من ذلك :

أ ـ بعض الدراسات التي كُتبتْ في الموضوع استقلالا :

لقد تناول حياةَ الأديب ابن الأبار آثاره أكثرُ من دارس ، نذكر منهم :

ـ عبد العزيز عبد المجيد في دراسة أعدّها سنة 1951 ، موسومة بـ : " ابن الأبار ، حياته وكتبه" وهو الباحث ، الذي أكّد عدَم وجود ديوان مجموع للشاعر . وإن كانت بحثه يعد من أولى الدراسات التي ركز فيها على حياة ابن الأبار وعلى أدبه بشكل عام .

ـ و دراسة أخرى لعبد الله أنيس الطباع ، أعدت سنة 1959 ، حول كتاب " الحلّة السيراء " لابن الأبار، طبعته أول مرة دارُ الأحرار ببيروت ، وأعاد تحقيقه والتعليق على حواشيه للمرة الثانية " حسين مؤنس " ، وطبعته دارُ المعارف بمصر .

بالإضافة إلى مقدمات المحققين ، الذين تصدوا إلى مؤلفات ابن الأبار بالبحث والدراسة وقدموا لها بمقدمات أبانت عن حياة الشاعر ومراحلها المختلفة ، طالت صفحاتها عند البعض وقصرت لدى آخرين ؛ من مثل :

ـ إحسان عباس وكتاب " **تحفة القادم** " .

ـ و إبراهيم الأبياري وكتاب " **المقتضب من تحفة القادم** " .

ـ وصالح الأشتر وكتاب " **إعتاب الكتاب** ".

وقد غلب على هذه الدراسات التوصيف العام لكتب المؤلف ابن الأبار ، باستثناء ما قام به حسين مؤنس لمّا أعاد التحقيق والتعليق على حواشي كتاب" **الحلة السيراء** " والذي يجعله أحسن

كتُب ابن الأبار وأعظمها فائدة ، ويتعرض في مقدمة هذا التحقيق إلى أغلب مَنْ كتبوا عن الشاعر ؛ عربًا ومستشرقين ، مع استفاضة في حياة الشاعر وفي مؤلفاته ، استغرق منه هذا التقديم سبعا وخمسين صفحة .

ودراسات أخرى ؛ هي أطروحات دكتوراه مخطوطة ؛ كتلك التي أعدها :

ـ عدنان محمد غزال ، **ابن الأبار البلنسي ـ حياته وأدبه** ـ جامعة دمشق سوريا ـ مخطوط ـ 1997 ـ 1998.

ـ وأخرى لـ : ماهر، زهيرجرار ، **ابن الأبار الأندلسي الأديب** ، الجامعة الأمريكية ، بيروت ـ مخطوط ـ زيران 1983 . وقد عنيت الدراسة بالأسهاب في التطرق إلى الحياة السياسية والاقتصادية والقافية ، وفي سيرة الأديب وثقافته وشيوخه الذين اغترف من معينهم .

ـ وثالثة للباحث : سعود غازي محمد الأجودي ، **شعر ابن الأبار البلنسي القضاعي** (595 ـ 659هـ) **دراسة في مضامين الخطاب ومكونات المتن** ، جامعة أم القرى ، المملكة العربية السعودية ـ مخطوط ـ 1421 ، غلبت الناحية التأريخية على الموضوع الأمرالذي جعل الاهتمام بدراسة شعر الشاعر قليلة ، لم تتعدّ في كثير من الأحيان ذكر الأغراض وأبياتها كنماذج لها .

ـ ورابعة لـ : أحمد محمد الشوادفي محمد ، **شهيد الشعراء "ابن الأبار"** ، **دراسة في الخيال** مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، مصر ، ط1 ، 2008 . اهتم فيها الباحث بالاستعارة وتحليلها في شعر الشاعر ، والوقوف على أبعادها الدلالية .

ـ إلى جانب بعض الدراسات التي أعدت حول الأديب ابن الأبار و جُمعت في مجلات مثل :

" **مجلة دراسات أندلسية** " التي يشرف على إعدادها الباحث التونسي : جمعة شيخة ، مطبعة المغاربة للطباعة والنشر والإشهار تونس ، العدد الثاني،1989.

ـ ومجلة خاصة بيومين دراسيين ، نُظّما حول شخصية الشاعر ابن الأبار وأعماله تحت عنوان : " **قراءة في أعمال ابن الأبار البلنسي الأندلسي** " بإشراف الباحث المغربي مصطفى الغديري منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، وجدة ، المغرب ، 2002 .

ب ـ مصادر ومراجع تناولت جانبا (أو جوانب) من الموضوع، ومنها :

ـ الغبريني أبو العباس ، في كتابه المشهور " **عنوان الدراية** "

ـ ابن خلدون عبد الرحمن في **تاريخه**

ـ المقري التلمساني في "**نفح الطيب**" و في " **أزهار الرياض** "

ـ الزركشي أبو علي بن محمد في" **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية** "

ـ الكتبي محمد بن شاكر في " **فوات الوفيات** " .

ـ جرجي زيدان في كتابه القيم " **تاريخ آداب اللغة العربية** " أين اختص ابن الأبار بمادة قصيرة أشار فيها إلى أربعة من مؤلفاته في الجزء الثالث من الكتاب .

بالإضافة إلى :

ـ محمد مجيد السعيد في كتابه " **الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس** " .

ـ وفوزي عيسى في كتابه " **الشعر الأندلسي في عصر الموحدين** " .

كما كان للمستشرقين إسهامات غيرُ قليلة ، ولا يمكن إغفالها بحال من الأحوال ، انبرت بدورها إلى التعريف بالشاعر ، ودراسة شعره مثلما قام به المستشرق الهولندي راينهارت بيتر آن دوزي (Reinhart Pieter Ann Dozzy) أثناء نشر كتاب "البيان المغرب " ، لابن عذارى المراكشي ، الجزء الأول والثاني منه ، أول مرة سنة 1268هـ/ 1851م .

وعكف المستشرق الإسباني فرانسيسكو كوديرا (Fraciscus Codera)على نشر مخطوطين لابن الأبار " المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي " و " التكملة لكتاب الصلة "بالإضافة إلى الإسباني مكسيميليانو أغوسطين ألاركون صانطون (Maximiliano) Augustin Alarco Santoon ،وجنثالث بالنثيا (Gonzalez Palencia) والمستشرق الفرنسي ألفريد أكتاف بل (Alfred Octave bel) والفرنسي إيفاريست ليفي بروفنسال (Evariste Levi-Provençal) .

والملاحظة التي يجب إبداؤها ـ هنا ـ هي أنني لم أعتمد كل هذه المصادر والمراجع المذكورة لسبب عدم العثور على بعضها ، أو تكرار المعلومات قي بعضها الآخر ، وأخذ اللاحق فيها من السابق ، ولكن اعتمدت على مراجع منها لِمَا لها من علاقة بالموضوع .

وبعد الاطلاع على هذه الدراسات المطبوعة والمخطوطة التي استفدنا منها ـ ما أمكننا ـ حاولنا بدورنا أن نلمّ بكل ما يتعلق بشعر الشاعر ـ ما استطعنا ـ إذْ خصصنا الباب الأول كاملا في بناء موضوعات شعره التي نظَمها الشاعر في مرحلتي حياته في العدوتين الأندلسية والإفريقية متتبعين نِسَبَ وُرود كل غرض ، ومحاولين الوقوف على أسباب غلبة بعضها وانحسار آخر .

وبقصد التعمق أكثر خصصنا الباب الثاني ـ وقد كان أطولَ من الأول ـ للبناء الفني للكشف عن بعض السمات الجمالية التي طبعت شعره من خلال الصور الشعرية المختلفة و موسيقاه المتنوعة التي نقلت تجربة الشاعر .

أقسام البحث :

سارت خطة هذا البحث مجملا في بابيْن ، وضمَّ كل باب أربعةَ فصول ثم خاتمة وفهارس للآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، وأخرى للأعلام المترجم لهم ، وثبتًا للمصادر والمراجع المعتمدة ، وأخيرا فهرس الموضوعات .

الباب الأول : في بناء الموضوعات

الفصل الأول : خُصص ـ أولا ـ لغرض **المدح** في مرحلتي حياة الشاعر ابن الأبار، والذي يعد أوسع الأغراض الشعرية ، التي نظَمَ فيها قصائده ، مع الإشارة إلى صفات الممدوح فيها في شعره وغرض **الاستنجاد** ـ ثانيا ـ من خلال " همزيته وسينيته " اللتين ذاع صيتهما ، ثم غرض **الاستعطاف** ، الذي لجأ إليه ابن الأبار في محنته بتونس كوسيلة لاسترضاء الغاضب عليه من الأسرة الحفصية ؛ قصد إقالة عثراته المتكررة .

الفصل الثاني : وفيه تناول البحث الوصف ، الذي تطرق إلى وصف مختلف المائيات من أنهار ومنابع سائلة ودواليب تسقي النباتات ، ورياض للسلطان بهيجة ، وأزهار و ورود تزين حدائقهم ، وموصوفات أخرى من مثل " الحمامة والخسوف والشمعة وغير ذلك .

الفصل الثالث : وقد ركز البحث فيه على **الغزل** ،الذي يرد ماديا حسّيا ، وعفيفا طاهرا ، كما ورد بأشكال مختلفة ، وفي مواضع متنوعة .

الفصل الرابع : وقد تضمن أغراضا أخرى ، غير التي ذُكرت ، توزعت بين الذكريات و الأشواق لبلده ، الذي ترعرع فيه والشؤون الأخرى ، وبين الحِكم ، التي تعتبر خلاصة تجارب الشاعر في حياته بمرحلتيها(الأندلسية والإفريقية)بخاصة وأنه امتحن امتحانات متكررة.

والزهد، الذي ظهر كردة فعل للحياة اللاهية ، التي كان يحياها الأندلسون بخاصة والنبويات التي يعدها النقاد فرعا من فروع الشعر الديني .كما تم التطرق إلى غرض الرثاء الذي كان له حظه الوافر بفضل البكاء على الأحباب والأقارب والخلان ، والهجاء للرد على خصومه ، الذين أرادوا النيل من عرضه وكرامته ، وأخيرا الألغاز .

الباب الثاني : في البناء الفني

الفصل الأول :ويعرض فيه البحث إلى نهج ابن الأبار ، الذي سلكه ، وقد عُني بهيكل القصيدة : المركبة منها والبسيطة ، بدءا بالمطلع ، وانتهاءً إلى المقطع ، مع نسبة ورود كل نوع ، وكذلك المقطوعة ومدى تواترها في أغراض معينة ، والنتفة والبيت اليتيم ، الشكلين اللذين يُنْظَمان في ظروف خاصة ، تقتضي ذلك .

الفصل الثاني: الذي عُنون "**بالتعالق النصي** "، متناولا في ذلك الاقتباس من القرآن الكريم والحديث النبوي الشرف ، كمرجعية دينية (إسلامية) للشاعر و**التضمين** من الشعر بدءا بالعصر الجاهلي،إلى غاية عصر الشاعر،و**المعارضات**الشعرية؛الصريحة منها والضمنية باعتبار الشعرالعربي رافدا أدبيا غزيرا تشكل منه وعيُ الشاعر الشعريُّ ، وكذلك استحضار **الأحداث** من خلال استيحاء مختلف الوقائع التاريخية المشهورة ، واستدعاء **الشخصيات التاريخية** ؛العربية وغير

العربية في إطار ربط حلقات الأجيال ببعضها ، وتأسٍّ بماضي الإنسانية وكذا توظيف **الأمثال العربية** ، ومصطلحات **العلوم** المختلفة ، التي تصب جميعها في ثقافة الشاعر .

الفصل الثالث : تناول فيه البحث الصورة في شعر ابن الأبار، وتشكلها من صورة مباشرة و بيانية ، وأخرى رمزي ورابعة نفسية وأخيرة حركية .

الفصل الرابع : درست فيه الموسيقى و الإيقاع حيث خصصت هذا الفصل لـ : الوزن والقافية والروي ، والتصريع والتصدير والترديد والتجنيس والموازنة والتقسيم والترصيع باحثا في علاقة هذه الإيقاعات ، ومدى تأثيرها في المتلقي .

منهج البحث :

إن القراءة الواعية لديوان ابن الأبار تكشف عن حقيقة فنية ، تؤكد أن شعره موضوع خصب لدراسة تطبيقية في البناء الفني ، وهذا ما يطمح إليه هذا البحث . ولا شك أن عنوان الأطروحة يكشف عن أبنية الدراسة التي أقوم بها ، فهي ـ كما يوحي العنوان ـ تُعنَى بعملية الأداء الفني الذي يشمل البناء والنسيج بمختلف عناصرهما الجزئية في القصيدة .

ولمّا كان اكتشاف الطاقات التعبيرية والجمالية لمثل هذه الآثار الأدبية العظيمة أمرا مستعصيا على الباحث في كثير من الأحيان ؛ لأن العمل الفني لا يبوح بكل أسراره لدارس واحد ، ولا يَكتشف غِناه وثراءَه منهجٌ واحد ، فقد تظافر في هذه الدراسة أكثرُ من مَنهج ؛ إذ استعنتُ **بالمنهج التاريخي** لمعرفة المهاد التاريخي لصاحب المدونة ، والوقوف ـ بخاصة ـ على ظروف وملابسات بعض النصوص الشعرية ، التي تمثل علامة فارقة في حياة الشاعر التي لم تكن عادية ـ كما سنرى ـ

وبالمنهج الفني : للكشف عن جماليات النص الإبداعي للشاعر من خلال تشكل هذا البناء الفني كمرجعية المبدع ، وتكوّن صوره ، وطبيعة موسيقاه ، مع الاستعانة **بالمنهج الإحصائي** الذي تتبعت من خلاله تواتر مقاطع موسيقية معينة ، وغلبة بعضها على بعض ، للتمكن من تفسيرها ومعرفة حقيقتها .

بعض المصادر والمراجع الأساسية المعتمدة :

ـ **نفح الطيب** ، **الجزء الثاني** ، للمقري التلمساني

ـ **الحلة السيراء** ، **الجزء الأول** ، لابن الأبار

ـ **التكملة لكتاب الصلة** لابن الأبار

ـ **البيان المغرب** لابن عذارى المراكشي

وبعض الدراسات الحديثة ،ومن أهمها :

ـ **مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الأول** لـ : حسين عطوان .

ـ **ابن الأبار الأندلسي الأديب** ، للباحث : زهير ماهر جرار بإشراف الدكتور : إحسان عباس وأمام اللجنة المتكونة من : د. محمد يوسف نجم من جهة ، و د. وداد القاضي من جهة أخرى.

ـ مجلة " **دراسات أندلسية** " التونسية ، من إعداد : جمعة شيخة .

ـ مجلة الملتقى بالمغرب " **قراءات في أعمال ابن الأبار البلنسي الأندلسي** " .

الصعوبات المواجَهة :

لا يمكن أن يخلو أي بحث ـ مهما أُعِدَّ له من الظروف الممكنة ـ من الصعوبات المختلفة التي قد تحول دون تحقيق الأهداف المرجوة ، وتقف حجر عثرة في وجه الباحث . وقد يُتغلَّب على بعضها ، في الوقت ، الذي يظل البعض الآخر يؤرق مسار البحث إلى النهاية.

فبالإضافة إلى بعض هذه العوائق ، التي يشترك فيها جميع الباحثين ، تعذر عليَّ الوصول إلى رسالتين مخطوطتين ، أُعِدَّتا في الجامعة الأردنية . كان عنون الأولى: " ابن الأبار حياته وشعره" نوقشت عام 1982.م ، وعنوان الثانية : " ابن الأبار حياته وأدبه " ، نوقشت عام 1998 .م .

خاتمة : تضمنت أهم النتائج ، التي توصل إليها البحث .

شكروتقدير:

ولا بد من وقفة أترحم فيها على أستاذي المرحوم الأستاذ الدكتور " **محمد زغينة** " ـ رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه ـ

كما أتقدم فيها بالشكر الجزيل والامتنان العظيم إلى أستاذي الفاضل الدكتور " **علي عالية** " الذي أشرف على هذا العمل من البداية حتى النهاية ، ومنحني من الوقت والتوجيهات ما أنار لي الطريق ، وذلل أمامي الصعاب .

وأخيرا ، فلست أدعي الكمال لدراستي هذه التي بين أيديكم ، ولا الإلمام التام بالموضوع ولكن أعتقد أنني حاولت أن أتناول فيه ما استطعت الإحاطة به ، ولي في كل ذلك جهدُ المقل.

والله نسأل أن يوفقنا و يسدد خطانا .

والله الموفق .

شاكر لقمان

❖ ❖ ❖ ❖

الباب الأول

في الموضوعـــــــــــــات

الفصل الأول: المدح والاستنجاد والاستعطاف

الفصل الثاني: الوصف

الفصل الثالث: الغزل.

الفصل الرابع: أغراض أخرى

الفصل الأول

المدح والاستنجاد والاستعطاف

1- المدح:

- المرحلة الأندلسية.
- المرحلة الإفريقية.
- صفات الممدوح.

2- الاستنجاد:

3- الاستعطاف

يمثل غرض المدح والاستنجاد والاستعطاف الحظ الأوفر في ديوان الشاعر ابن الأبار قياسا بالأغراض الأخرى . وقد آثرنا أن نستهل الحديث حول هذه الأغراض الثلاثة والجمع بينها ثلاثتِها لسببيْن ؛ أما الأول فلأن الأولين منها ؛ (المدح والاستنجاد) مرتبطان ببعضيهما أشد الارتباط ، وأما الثاني فلضرورة منهجية ، قصدتُ منها تحقيق التوازن بين فصول البابين (الأول والثاني) .

وإذا رجعنا إلى الغرضين الأولين (المدح والاستنجاد) فنجد شعراء الأندلس بعامة ((**وهم يستصرخون ملوك المغرب الإسلامي عامة والمسلمين مضطرين إلى كثير من المدح ، ولهذا فإننا قلَّما نعثر على قصيدة أو رسالة استصراخ تخلو من مدح المستغاث بهم**)) .[1]

وشعر الاستنجاد أو الاستصراخ عدَّه بعض الدارسين فنا مستحدثا في الشعر العربي [2] تفرَّد بها الأندلسيون دون غيرهم . يقول عبد العزيز عتيق : ((**وهو شعر يقوم على استنهاض عزائم ملوك المغرب العربي في المحل الأول ، وهمم المسلمين في شتى أقطارهم كي يهبُّوا بباعث الأخوة الإسلامية لنجدة إخوانهم بالأندلس ، ومَدِّ يَدِ العون لهم في جهادهم ضد أعدائهم**))[3] . والحقيقة أن هذا النوع من الشعر ، قد عُرف من قبل المشارقة أيضا ، إلا أن التناول كان مختلفا بعض الشيء ؛ ذلك أن ((**المشارقة لم يكن بينهم وبين بلادهم من الحب والعاطفة ما كان بين الأندلسيين وبلادهم من الحب و العاطفة**))[4] .

ولعلَّ الفارق بين العاطفتين يكمن في أن المشارقة لم يُطْرَدُوا من ديارهم مثلما طُرد الأندلسيون ولم يُرغَمُوا على إمضاء وثيقة تسليم الأرض صاغرين مثلما حصل للأندلسيين

---

(1) الربعي بن سلامة ، أدب المحنة الإسلامية في الأندلس ، جامعة الجزائر ، 1991 ـ 1992 ، أطروحة دكتوراه (مخطوط) ، ص 97 .

(2) ينظر : عبد العزيز عتيق ، الأدب العربي في الأندلس ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان ط2 ، 1976 ، ص 413 .

(3) عبد العزيز عتيق ، الأدب العربي في الأندلس ، ص 413 .

(4) محمد كامل الفقي ، في الأدب الأندلسي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، مصر ، دط ،1975، ص 65 .

وأما غرض الاستعطاف ، كما يُقال له أيضا " الاعتذار" [1] ـ كما فعل عبد العزيز عتيق ـ فلم يكن في الحقيقة لونا جديدا ؛ ذلك أن الشاعر الجاهلي "النابغة الذبياني " قد عُرف باعتذارياته التي تحمل في طياتها الاستعطاف من الملك النعمان بن المنذر؛ مِلك المناذرة ، وطلب العفو والصفح .

والجدير بالذكر هنا الإشارة إلى الفرق بينهما (الاستعطاف والاعتذار) ؛ إذ أن كل شعر قيل في الاعتذار يمكن إدراجه ضمن الاستعطاف ، ولكن العكس ليس صحيحا ؛ لأن الشاعر المعتذِرَ يدرك أنَّ مَنْ يخاطبه ويقدم إليه اعتذاره لن يقبل عذره إلا بعد ما يعطف عليه ويرحمه .

أما الاستعطاف ، فليس بالضرورة أن يسبقه اعتذار .

كما كان في الفترة الأندلسية شعرٌ غيرُ قليل في الاستعطاف ؛ وذلك ما نجده في عصر الخلافة و الإمارة إلى عصر ملوك الطوائف[2] وذلك ما سنجده عند الشاعر الأندلسي ابن الأبار القضاعي البلنسي .

وقد اختلفت آنئذٍ دوافع شعر الاستعطاف ؛ منها ما كان طلبا للعفو مِن محكوم عليه بالموت أو بالسجن ، إلى منفي عن وطنه وأهله ، يطمع بالعودة إلى بلاده وذويه ، إلى فقير مُعدَمٍ يطلب القوت والطعام مِمَّنْ يَملكه ، إلى غير ذلك من الأسباب والدوافع المختلفة والمتنوعة .

إلا أن شاعرنا ابن الأبار ـ محل الدراسة ـ قد كان استعطافه ذاتيا ؛ لأنه عانى مِن نفي آل حفص والتضييق عليه ـ لسبب أو لغير سبب ـ معاناة شديدة .

ويتفق المستعطفون جميعُهم في مدح الحاكم المستعطَف ، والمبالغة في ذلك إلى درجة تَخرجُ بالمستعطِف إلى المساس بالدين الإسلامي أحيانا ، وذلك ما سنشير إليه لاحقا في شعر ابن الأبار .

وسنعرض فيما يلي إلى هذه الأغراض ، التي احتلت مساحة كبيرة من مدونة الشاعر بدْءاً بأهم الموضوعات ، التي سيطرت على نسبة 65 ٪ والتي كانت ممزوجة بالاستنجاد ثم ننتقل إلى آخر

---

(1) ينظر : عبد العزيز عتيق ، الأدب العربي في الأندلس ، ص 230 .

(2) ينظر : لسان الدين بن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق:محمد عبد الله عنان ، الشركة المصرية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ط1 ، 1977 ، 4/ 231 ـ 232 ـ 233.

غرض في هذا الفصل ، ويتعلق الأمر بالاستعطاف :

1 ـ المدح

ورد في لسان العرب لابن منظور، في مادة مدح : ((**المدح : نقيض الهجاء وهو حسن الثناء يقال: مَدَحْـتُهُ مِدْحَةً واحدةً ومَدَحَهُ يمدحُهُ مَدْحاً ومِدْحَةً ، هذا قول بعضهم والصحيح أن المدح المصدر، والمِدْحَة الاسمُ ، والجمع مِدَحٌ ، وهو المديح والجمع المدائح والأماديح**))[1].

وكان معناه عند مرتضى الزبيدي (ت :1205 هـ/ 1790م) في قوله : ((**مدحَهُ يمدَحُهُ مَدْحاً ومِدْحَةً...أحسن الثناءَ عليه ، ونقيضُه الهجاءُ...والمدح بمعنى الوصف الجميل يقابله الذم وبمعنى عَدُّ المآثر ويقابله الهجوُ...ومدحْتُهُ مَدْحاً أثنيتُ عليه بما فيه من الصفات الجميلة خِلْقيةً كانت أو اختياريةً...**)).[2]

والمدح من الأغراض الشعرية التي عُرفت منذ القديم ، فيه يتوجه الشاعر إلى ممدوحه بالثناء عليه وإسباغ أجمل الصفات على المستحقين ـ في نظره ـ لذلك كان لجبور عبد النور تعريف لغوي: ((**مدحٌ: مديحٌ ، تقريظ، تمجيدٌ، إبراز الحسنات**))[3].

وفيما يتعلق بمدى تناول الشعراء الجاهليين لقصيدة المديح فإن باحثين محدثين يؤكدون أن هذه القصيدة تُنُووِلت على استحياء في بداية الأمر باستثناء شعراء معدودين كعمرو بن قميئة والمثقب العبدى ؛ فهذا وهب رومية يتحدث عن بدايتها المبكرة ، التي كانت : ((**مشهدا ضيقا شاحب الضوء ، يحتل جانبا يسيرا في لوحة الشعر الزاخرة بالألوان والظلال**)).[4]

---

(1) ابن منظور: جمال الدين أبو الفضل الأنصاري الإفريقي ، لسان العرب ، الجزء الحادي عشر ، ضبط نصه وعلّق حواشيه:خالد رشيد القاضي ، دار صبح ـ إديسوفت ، بيروت ، لبنان ، الدار البيضاء المغرب مادة (مدح) ، ص 46.

(2)الزبيدي ، محمد مرتضى: تاج العروس من جواهر القاموس ، دار مكتبة الحياة ، مصر ط، 1 ، 1306هـ مادة (مدح) ، ص220 ـ 221.

(3) عبد النور ، جبور : المعجم الأدبي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1984 ، ص245.

(4) وهب رومية ، قصيدة المدح حتى نهاية العصر الأموي، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ص28.

أما شوقي ضيف فيوجه هذا المديح إلى القبيلة في كرم جوارها ، وعزتها ، وفي شجاعة أبنائها.

فانتقلت بذلك هذه القصيدة من الثناء على القيم والفضائل التي كان أهلها يتحلَّون بها كما حددها قدامة بن جعفر بأربع فضائل هي: العقل ، العفة ، العدل والشجاعة، يضاف إليها قيم أخرى كالقوة ، الكرم ، حسن الجوار ، النسب ، وغيرها...وكلها تنسحب على القبيلة ، إلى ذكر مناقب الفرد ؛ باعتباره عضوا في جسم هذه القبيلة .(1)

ولما كان الممدوحون ، ليسوا كلهم في درجة واحدة ، كان لزاما على الشاعر مراعاة مثل هذه الفروق ، التي كثيرا ما تنتمي إلى مستويات اجتماعية أو ثقافية معينة ، لذات السبب لا يمكن أن يُمدح ملكٌ بمثل ما يُمدح عامة الناس ؛ بل يختلف الأمر ـ هنا ـ حتى في طريقة الكلام يقول ابن رشيق: ((**وسبيل الشاعر ـ إذا مدح مِلكا ـ أن يسلك طريقة الإيضاح والإشادة بذكره للممدوح وأن يجعل معانيَه جزْلةً، وألفاظَه نقية ، غيرَ مبتذلة سوقية ويجتنب ـ مع ذلك ـ التقصير والتجاوز والتطويل؛ فإن للملِك سآمةً وضجراً...**)).(2)

بل الأكثر من ذلك ، فقد أبان الناقد ذاته في ما يمدح به الكاتب والوزير ، والقائد والقاضي وما يعاب على الشعراء المادحين لهذه الفئات جميعا.

أما فيما يتعلق بقصيدة المديح في شعر ابن الأبار ـ محل الدراسة ـ فقد غطت قرابة ثلثي المدونة بنسبة تقارب 65٪ ، من مجموع شعره ـ كما أسلفنا ـ .

وسنحاول تتبع سيرورة هذه المدائح خلال مرحلتين اثنتين ،عاشهما ابن الأبار ؛ المرحلة الأندلسية التي قلَّت فيها أشعار المديح ، قياسا مع الفترة اللاحقة ، التي سنجدها تغطي أكثر من ثلثي أمداح الشاعر ، بل من شعره كله، والمرحلة الإفريقية في(تونس) بخاصة :

---

(1) ينظر: قدامة بن جعفر: نقد الشعر ،تح: عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، دط دت ، ص96.

(2) ابن رشيق، القيرواني، أبو علي الحسن، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، الجزء الأول ، تحقيق:عبد الحميد هنداوي ، المكتبة العصرية ، صيدا ـ بيروت ـ ط1 ، 2001 ، 2/ 128.

- **المرحلة الأندلسية:**

إنَّ المُطَّلعَ على ديوان الشاعر ، يجد مدائحه في هذه الفترة قد خص بها كلا من :

- سعيد بن حكم القرشي ، حاكم منورقة(1).
- أبي الحسن يحي الخزرجي، حاكم شاطبة(2).
- أبي زيان بن مردنيش ، أمير بلنسية(3).

---

(1) هو: **أبو عثمان سعيد بن حكم بن عمر بن حكم بن عبد الغني** القرشي، المتوفى سنة680هـ ، أصله من طبيرة بغرب الأندلس ، وبها ولد.له علم بالعربية والأدب ، وله نظم ونثر وكتابة مستحسنة،وله رواية عالية وكان فصيح القلم واللسان، ومن شعره: أما الهوى فسَجيتي إضمارُه لولا الدموع لَمَا فَشَتْ أسرارُه

ما عيل بالكتمان صبري إنما عَظُمَ الغرامُ فضـاقَ عنه قرارُه

وقال في موضع آخر: إني لأعجَبُ من ملوكٍ أصبحوا وهُمُ مَوَالٍ أعبدُ الشهـواتِ

لو وُفِّقُوا وَقَفُوا اجتماعَهم على نَفْيِ الهوى فضلاً عن الخَلَوات.(ينظر: ابن الأبار، الحلة السيراء حققه وعلّق على حواشيه حسين مؤنس دار المعارف ، القاهرة ط 2 ، 1985، 2/ 318 ، 320) و (الغبريني ، عنوان الدراية ، تح: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 2 ، 1981 ص254).

(2) **يحي بن أحمد بن عيسى الخزرجي، أبو الحسين** : وُلد بدانية ، وبها نشأ، ثم أوطن شاطبة ، ومال إلى خدمة السلطان وساد بطموحه أهلها ، و وليها إلى أن توفي سنة 634هـ .لأبي الحسين فضائل مذكورة ، ومآثر مأثورة ورُزق قبولا لكرمه وحسن أخلاقه،وهو القائل معتذرا إلى بعض الأمراء :

إنْ قصَّرَت في خدمةٍ محسوسة فيما مضى من دهريَ المتقــدم

لَنَيَّتِي مَكْنونُ خدمتهــا التي عُقِلَتْ وإنْ حُجِبَتْ لِمَنْ لم يفهمِ

(ينظر:ابن الأبار، الحلة السيراء ، الجزء الأول ، تح : حسين مؤنس ، دار المعارف ، القاهرة ، ط2 ، 1985 ص 303 ، 306 ، 307) .

(3) **أبو زيان بن مردنيش** (... ـ 637هـ/ ... ـ 1240م):هو زيان بن مدافع بن يوسف بن سعد بن مردنيش الجذامي ، أبو جُميل ، أمير أندلسي . كانت له بلنسية ودانية ،وأخرجه الروم من الأولى في أوائل سنة 636هـ فاحتل مرسية ،وقتل صاحبها ابن خطاب ، ولكن أهلها ما عتموا أن ثاروا عليه وقتلوه وكتبوا بيعتهم إلي أبي زكراء صاحب تونس . (ينظر : الزركلي ، الأعلام ، 3/ 56) .

- وأبي زيد ، أمير بلنسية[1].

فمن الأبيات التي قالها ابن الأبار في سعيد بن حم الرئيس ، مخاطبا إياه في قطعة[2] [مجزوء الرجز][3]

إنّ سعيدَ بْنَ حَكَمْ صِنْوُ العُلَى نجلُ الكَـرَمْ
رِئـاسَةٌ بِمِـثْلِهـــا يُـفاخرُ السَّيْفَ القَلَــمْ
وسُؤْددٌ مجموعــةٌ فـيهِ محاســنُ الشِّيــمْ
مُعتَمَدٌ مِن شــأنه رَعْـيُ العهـودِ و الذِّمَمْ
فَأنْـحَني مُـمَهِّــدا إلـى جوابِهِ القــلَــمْ

إن جميع الصفات المحمودة التي ذكرها الشاعر في حق ممدوحه كانت متأصلة فيه مذْ عُرف فقد عُرف عن (الرئيس) سموُّ أخلاقه ، ومحمود سيرته ، وكان يُنتفع به في جزيرته وهو ممن لا يُنكر له فضل ، ولا يُجهل له نُبل، كما كان مقصد الطلبة وأصحاب الحاجات ، صاحب مجد وسليل كرم ، وفيا ، حسن الشيم ، مما جعل الشاعر ينحني له احتراما وتقديرا[4].

---

(1) **أبو زيد** : في سنة 607 .هـ/ 1210.م أقام محمد الناصر أبا عبد الله بن أبي حفص عمر بن عبد المومن واليا على بلنسية ، ثم خلفه عليها ابنُه أبو زيد عبد الرحمن ـ ولأبي زيد هذا عمٌّ باسمه نفسه كام أميرا على ميورقة سنة599.هـ ـ وكان المسلمون في بلنسية كارهين له يتربصون به الدوائر ؛لأنه كان وبقية أهله فريقل قليلي الإخلاص ، شديدي الأنانية ، حريصين على الحياة والمُلك بأي ثمن ، ففكر في اللجوء إلى أنصاره من النصارى وبخاصة "خايمة الأول" (Jaime؛ صاحب "أرغون" وكان ابن الأبار قد خرج معه ، لكنه عاد دونه لمّا أحس منه تفضيل مباينة دار الإسلام.(ينظر: ابن الأبار ، الحلة السيراء ، 1/ 29 ـ 30 .) .

(2) سيرمز في هامش البحث كله للقطعة بـــ : ق ، والصفحة بـــ : ص

(3) ابن الأبار ، ديوان ابن الأبار، قراءة وتعليق: عبد السلام الهراس ، الدار التونسية للنشر وديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، القطعة 32 ، الصفحة 459 .

(4) ينظر: (الغبريني ، أبو العباس أحمد بن أحمد ، عنوان الدراية فيمَنْ عُرف مِن العلماء في المائة السابعة ببجاية تح: رابح بونار ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر، 1970 ، ص 254.و ابن الأبار الحلة السيراء ص 319 ـ 320) .

وله فيه أيضا أبيات أخرى [الخفيف]:[1]

(سيِّدٌ أَيِّدٌ رَئيسٌ بئيـ)سٌ   في أساريرِه صفاتُ الصّباح

قـمَرٌ في أُفْقِ المعالي تجَلَّــى   وتحلَّى بالسُّؤددِ الـوضَّـــاح

سَلَّمَ البحرُ في السماحةِ منه   لَجِوادٍ سَمَّوْهُ بحرَ السّمـاح

والشخصية الثانية في محور مديحه بالأندلس ، هو حاكم شاطبة ؛ أبو الحسن يحي الخزرجي الذي يضع بين يديه أبياتا ، عند لجوئه إليه ، بعد تركه سيدَه عند الأراغونيين ؛ إذْ يقول في واحد وثلاثين بيتا ، نذكر منها :[الكامل]:[2]

بُشراىَ هذا مبدأُ الإقبـــال   في قـصدِ غاياتي وفي استقبـــالِ

وَافَانِي الزّمنُ المُسِيءُ مُحَسِّـناً   آثـارَهُ بِمـثابَةِ الإجمـــــــالِ

وذممْتُ تَرْحالا وحِلاًّ قبلَـها   فحمدْتُ عُقبى الحِلِّ و التَّرحال

وفي هذه الأبيات نراه يستبشر خيرا بوفادته على صديقه القديم ، الذي كان غايتَه ومنتهى أوبته ، من رحلة أفسدت حياته ، وألحقت به تُهَمًا كبيرة بعد لجوئه مع سيده إلى النصارى .

فهاهو يذم زمانا ربطه بسيد ـ قيل إنه أرعنُ مرتدٌّ ـ وبجوار كفار ـ على الرغم من حسن معاملتهم لهما كأمير وكاتبه ـ إلا أنه لم يكن يحس بالراحة التي كان ينعم بها في بلنسية . ويحمد زمانا ردَّه إلى دار الإسلام ، وقرّبه من صديق عزيز، ماكان ليلتقي به لولا هذه الفرصة العظيمة، التي أتيحت له ليجد نفسه عزيزا مكرما ، ومبجلا ، بعد هون وإذلال وآمنا في سربه بعد روع وأوجال.

ويبدو في الأبيات التالية مدى الآثار الكبيرة التي خلفتها الأيام في نفسية ابن الأبار لمّا كان بجوار الأراغونيين ، وما البيت الثالث إلا تعبير صادق ، وتلخيص كافٍ ، شافٍ لِما عاناه المتألم من متاعب لم يَلْقَهَا أحدٌ:[الكامل] [3]:

---

(1) ابن الأبار ، الديوان ، القطعة 54 ، ص 129 .

(2) السابق ، القطعة 13 ، ص 249 ـ 250 .

(3) نفسه ، القطعة 113 ، ص 250.

وعَزِزْتُ بعدَ الهَوْنِ والإذلال   وأَمِنْتُ بعدَ الرَّوْعِ والأوجــالِ
وثويْتُ في خَفْضٍ وفي دَعَةٍ بما   كابدْتُ من شَظَفٍ ومِن زلزالِ
ولَقيْتُ ما لم أستَقِلَّ بِوَصْفِــه   وإنِ ادَّعيْتُ مَزيَّةَ استقـــــلالِ

كيف يهنأ وهو في جوار كفار جاثمين على صدر البلدان الإسلامية؛ ومنها موطنه ومسقط رأسه بلنسية ، ليُضاف همُّهم إلى همِّ الدهر الذي تحيَّفه ، وعلى الرغم من أنه كان حرا طليقا إلا أنه كان تأسره أغلال الهموم والحسرات، فهو في سجن نفسي يقيده ، ويحد من حركاته وتطلعاته، إلى أن أزف الرحيل ونادى الشوق إلى منازل الصبا ومرتع الأحلام فخرج ملبيا النداءَ قاصدا دياره [الكامل] (1):

وكفاكَ أنّ الرومَ كانتْ جِيرتي   مِن جَوْرِ دَهْرِي واسْتِحالةِ حَالي
كنتُ الطليقَ هناكَ لكنْ لم أزلْ   مِن شدّة الحسَرات في أغـلالِ
أبكي على استئصالِ مَنْ خَلَّفْتُهُ   وأُطيلُ في الأسحارِ والآصـالِ
حتَّى إذا فارقْتُ أرضَهم التي   كانـتْ عِقالا ثانيا كَــــعِقالي
ودعاني الشوقُ المُذيبُ جوانحي   لِمنـازِلي فأجبْتُهُ وجِـــــلالي
لاقَى بي الجَــدُّ العَثُورُ عصابةً   ذهبَـتْ بِمَالي كيْ يَسُــوءَ مآلي

ثم يسرد قصة عودته وحيدا ، أين تمكنت منه في الطريق عصابةٌ ، سلبته ماله وقُوته ، ونجا بجلده متجها إلى أبي الحسن ، بعد أهوال قطعها ، وهو في طريقه إليه، وفرارٍ من الروم ، الذين لم يهنأ وسطَهم ،ولم يرتحْ بالاً، إلا بعد أن وَافَى صديقه القديم أبا الحسن الخزرجي[الخفيف](2):

مازلتُ منها في خَبَالٍ مُتْلِفٍ   حتى غدوتُ مُفارقاً لِخبـــالِ
بِأبي حُسينٍ سيدِ العربِ الذي   أدنى حُلاَهُ (.................)*
بالماجِدِ المِفضالِ أو بالعارضِ   المِهطالِ أو بالقـائلِ الفَــعَّالِ

---

(1) السابق، القطعة 113 ، ص 250.

(2) نفسه ، ق 113 ، ص250.

* بياض في صفحة النسخة المعتمدة (الديوان)، وقد أشار إلى ذلك المحقق: عبد السلام الهراس .

بالقَيْلِ مِن أبناءِ قَيْلَةَ والـذي لا ينتمي إلاَّ إلى الأقيــــــالِ

....

ورِثَ السيادةَ عن أبيه وجَدِّه الطاهرِ الأقــوالِ والأعــمالِ

وأتى بِمَا أرْبَى على ما نَـالَهُ إرْثاً فما أعيَاهُ نَـيْـلُ كمــــال

هو واحدُ الدنيا ومَنْ لمْ يَرْضَهُ فَلْيَأْتِ في الدنيا لهُ بِمِـــثـــالِ

هيهاتَ ليسَ على البسيطةِ مِثْلُهُ في سؤددٍ ورجاحةٍ وجـــلال

إلى أن يختم قصيدته بالتوجه إلى الزمان ، يحادثه شخصا ماثلا أمامه ، يسمعه ويعي كلامه ليعرف أنه بِبابِ خير البشر ، عادل في حكمه ، سمح في معاملته ، كريم في العسر واليسر [الخفيف](1):

قُلْ لِلزمانِ وقد مثَلْتَ بِبابــــهِ فلحِقْتَ بالنُّظَرَاءِ والأمثـالِ

إنَّ ابنَ عيسى مَنْ علِمْتَ مَضاءَهُ وسخاءَهُ في الرَّوْعِ والإمحـال

يكفيكَ جَوْرَكَ عَدْلُهُ بـي عادلا عَمَّا ذهبْتَ لهُ مِن استئـصالِ

لازالَ دافعَ كُلِّ خـطْبٍ واقــعٍ وثُمالَ مَنْ أضحى بغيرِ ثُمـالِ

وفي قصيدة ثانية للشاعر، يمدح بها أيضا أبا الحسين الخزرجي ، ويضمنها شوقه واشتياقه إلى موطن الصبا (بلنسية) وجنانها . وبعد مقدمة نسبية مثّلتْ ثلث القصيدة في بلدته ورياضها الزاهية، وشمسها الساطعة يخلص في الأخير إلى مدح الأمير، الذي يعتبر وصوله إليه نصرا محققا، كيف لا وهو الذي لاَذَ بالفرار من أيدي الأراغونيين ، لتُلْقِي به الأيامُ في أيدي قطاع الطرق ليجردوه ما يملك [الوافر]:(2)

أمَا إنَّ الليالي غــالـباتٌ ولوْ يُغْرى بِنَصْرِي الفَرْقَدَانِ

إذا لم أَلْقَهَا بِـعُلى ابن عيسى وحسْبِيَ مِن حُسامٍ أو سِنانِ

(1) ابن الأبار، الديوان، ق 113 ، ص 251.

(2) نفسه، ق 152 ، ص 323 ـ 324 ـ 325.

وحتى يلقى الشاعرُ الفارُّ مِنْ بلاد النصارى الإسبان ـ على الرغم من الحظوة التي لقيها عندهم ـ إلى دار الإسلام ، حيث صديقُه ، ها هو يدغدغ عواطفه مبديا وفاءه وتقربه منه وكُـلّهُ أملٌ في أن عند هذا المجير الأمانَ والاطمئنانَ ؛لأنه مهتم لأمره ، وراغب في مساعدته على جور الزمان [الوافر] :(1)

فلستُ من الإيــــابِ على يقينٍ ولستُ من الذهـابِ على أمانِ
فإنَّ أبــا الحســين ينالُ منــها مَنالَ الذعرِ في قـلبِ الجبــانِ
يُنَهْنِهُهَا متى نهدتْ لحــــربــي ويأخذُ لـي الأمانَ من الزمانِ
(وعلمْتُ أبا) الحسينِ عناهُ أمري فإنِّــي أمْرُ خِدمتِهِ عَنَـــــاني

ولم يكن ابن الأبار يشك في يوم من الأيام أن ينسى الأميرُ صداقةَ الشاعر ؛ لأنه يعرفه بخصاله المحمودة ، وأخلاقه الدمثة ؛ لأنه من أصل كريم ، ومَحْتِدٍ عظيم، ولهذه الأسباب ولغيرها يطلق الشاعر عنان مدائحه [الوافر](2) :

يُفيضُ على الوليِّ غَمامَ رُحْمَى ويُغْضِي عِزَّةً عن كلِّ جـانِ
سعيدٌ مِن قيسِ بْنِ سَـعْـدٍ مكينُ الحمدِ محمودُ المكـانِ
يُقَيِّدُ في منائحِـه جفُــــوني وأُطلِقُ في مدائحِه عِنـاني

وقد تجسدت ـ فعلا ـ رعاية صاحب اليد الطولى ، بما أسبغه على صديقه من كرم وعناية في الوقت الذي قست عليه الليالي ، وتحيَّفه الزمان ، ثم يستطرد الشاعر في ذكر سجاياه وجميل عطاياه ؛ لأنه جَبرَ جنَاحَه المهيض ظلما ، وأنساه حتى أحبته ومغانيه [الوافر](3):

أبا الأمجادِ وَافَـــــاكُـمْ ندائـي يهُزُّكَ هِزَّةَ العضْبِ اليمــــــاني
دعوتُكَ والكريمُ النَّدْبُ يُدعى لِبكْرٍ من خُطــــوبٍ أوعَوَان
....

---

(1) السابق ، ق 152 ، ص 324.

(2) نفسه ، ق 152 ،ص 324.

(3) نفسه ، ق 152 ، ص 325.

ومِثلُكَ رَقَّ سُـــــؤدَدُهُ لِمِثلي فأجنى راحتي شُـــــمَّ الأماني

وراشَ جناحي المقصوصَ ظُلمًا وأنْسَاني الأحبّـــــةَ والمغَـــاني

ليتوجه إليه في الأخير بالدعاء والتمني بأن يبقيه الله ـ أبدا ـ مِعْوانا في الشدائد ، مُجيرا للقاصي والداني ، وربيعَ أمانٍ وشتاءَه [الوافر] (1):

فدُمْتَ أبَاالحسينِ لـنـاَ مَلاذاً يُجيرُ على الأقاصِي والأدَاني

ودمْتَ أبا الحسين لنا ربيعـا نَصِيفُ بهِ ونَشْـتُو في أمـان

وإذا انتقلنا إلى ثالث شخصية ، كان لها هي الأخرى نصيبٌ من مِدَحِ ابن الأبار في المرحلة الأندلسية ، نجد أبا زيد عبد الرحمن الذي تولى الحكم بعد وفاة أبيه عبد الله بن أبي حفص الموحدي المتوفى سنة (620 هـ / 1223 م) الذي التجأ إلى بلاد النصارى.

وقبل أن ينفصل الكاتب عن سيده المخلوع ، مدحه بمناسبة انقياد أهل (بيران) لابنه السيد أبي يحي أبي بكر سنة 622 هـ/ 1225م بمقطوعة ، استهلها الشاعر بتعظيم القلعة . وهذا الصنيع في حقيقة الأمر ينسحب على الأمير الممدوح أبي زيد .

وفي هذا البناء الأَبَّاري لفتة ذكية ، وحسن تصرف من لدنه ؛ حينما قلب الفكرة ؛ فعِوضَ أن يبدأ بمدح ممدوحه مباشرة كما سبق وأن فعل مع ممدوحين آخرين ، بدأ بمدح وتعظيم البناء المقابل لغرضه هذا وإن لم يكن أول مَنْ استن هذه السنة ، إلا أنها طريقة محمودة تضاف إلى مهارته في نظم الشعر وهي تذكرنا ـ أيضا ـ بالتشبيه المقلوب عند علماء البلاغة والبيان(2)

---

(1) السابق ، ق152 ، ص 325.

(2) التشبيه المقلوب : ويعبر عنه أيضا بالتشبيه المعكوس أو المنعكس؛ وفيه يُجعَل المشبَّه مشبَّها به ، ويُجعَل المشبَّه به مشبها ، كقول البحتري : في طلْعَةِ البدرِ شيئٌ مِنْ محَاسِنِها ولِلقضيبِ نَصيبٌ مِنْ تَثَـنِّيها. (ينظر: أحمد مطلوب ، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت لبنان ، ط2 2007 ص348).

[البسيط][1]:

لله قلْعــةُ بِـــــيرانٍ وعِزَّتِـها ... على الأعاصيرِ في مَاضي الأعاصيرِ
عَنَتْ ودانتْ على حُكم المُنى فَرَقًا ... مِن سيِّدٍ قد هَوَتْ مِن أرفعِ السُّورِ
وأذْعَنَتْ وهي الشَّمـــّاءُ ذُرْوَتُـها ... على حجاجٍ لها مِنْ قبلُ مذْكـورِ

وقد أورد جمعة شيخة في مجلته مقولة في معنى بعض الأبيات: ((**وذكَر ابن الأبار في قصيد مدَح فيه أبا زيد ما كان ينتظر القلعة من تدمير وتخريب لو أصرَّت على المقاومة وهو في مدحه لا يُخْفي ابتهاجه بهذه النتيجة التي أدت إلى فوز الأمير بطاعة القلعة ونيل القلعة عفوَ الأمير**))[2].

وكان الباحث يقصد بكلامه هذا أبيات الشاعر :[البسيط] [3]:

ولو أصرَّتْ على الإعـراضِ ثانيـةً ... لأَصبحَتْ بينَ تخريبٍ وتدميرِ
مَدَّتْ إليكَ أبـا زيدٍ بِطَاعَتِـــها ... يَداً مَخافةَ صَوْلٍ منكَ مشْهورِ
وأكَّدَتْ في الرِّضَا والصفْحِ رغْبَتَها ... كما تقدَّمَ تأييــــدُ المــقاديـرِ
فَجُدْتَ جودَكَ بالنُّعمى بما سَألتْ ... مِنَ الأمانِ لها طلْقُ الأسَاريـرِ

وكان أبو زيانَ بْنُ مدافع بن مردنيش ؛ أميرُ بلنسية آخرَ ممدوح لابن الأبار في هذه الفترة الأولى من حياة الشاعر ، لماَّ أقفل راجعا، تاركا سيدَه المخلوعَ عند النصارى ((**استقبله أبو جميل زيانُ ابنُ مردنيش استقبالا حسنا إذْ لم يتنكرْ لصداقته وعشرتِه القديمة في بلاط الحاكم الموحدي حيث كانا يعملان جنبا إلى جنب في خدمته. ومدحه ابن الأبار بقصيدة جميلة وطويلة تبرأ فيها من أبي زيد المخلوع وعرض به تعريضا حاول أن يكون خفيفا كما هنّأ أبا جميل على مكانته واعتراف العباسيين به ، فألحقه زيان بحكومته وعيَّنه وزيره في تلك الظروف الحرجة الخطيرة...**))[4].

---

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق8 ، ص442.

(2) جمعة شيخة ، مجلة دراسات أندلسية ، مطبعة المغاربة للطباعة والنشر والإشهار، تونس ، العدد الثاني 1989، ص 39 .

(3) ابن الأبار ، الديوان ، ق8 ، ص 442.

(4) نفسه ، (المقدمة) ، ص 10 ـ11.

وكانت هذه القصيدة التي مُدح بها أميرُ بلنسية، بعد الحديث عن قلعة (بِيران)[1] تبلغ اثنين وأربعين بيتا .

ودون مقدمة ، يدخل الشاعر مباشرة إلى جو القصيدة (مدح الأمير) ، ولعل لهذا الولوج أسبابَه الوجيهة ، ومبرراتِه القويَّـةَ ، خاصة وأنه كان خارجا مع سيده أبي زيد إلى الأراغونيين تاركا بلنسية يتحين العدو ـ الذي اختاراه ـ فُرَصَ الانقضاض عليها . ومن الطبيعي أن الآيبَ لم يكن ينتظر استقبالا من أحد ، لا سيما أن البلنسيين اتخذوا موقفا تجاههما (الأمير وكاتبه) واعتبروا هذا الصنيع عيبا ومنقصة وردة أيضا ، وقد حاول الشاعر أن يبرر فعلته بأنها كانت طاعة ولا يمكن له أن يَعصي وليَّ أمره ، حتى وإن طلب منه ما لايريد ويشتهي فقال:[البسيط] [2]:

قالوا: الخروجُ لأرضِ الرُّومِ مَنْقَصَةٌ   فقُلتُ: كَلاَّ ولكنْ صادُها باءُ

إذا خرجْتُ وَفاءً ثمَّ عُـدتُ تُـقًى   أثْنَتْ بِفِعْلي عُدَاتي والأحِبَّـاءُ

وكانَ لي في قريشٍ أسْـوةٌ وكَـفَى   مع النَّجاشِيِّ ترضاهَا الألِبَّـاءُ

وصدقَ محقق الديوان " عبد السلام الهراس" لمَّا علَّق على هذا المسوّغ ، واعتبره قياسا فاسدا لأن أولئك الصحابة هاجروا من أجل عقيدتهم ، وفرارا من الشرك ، . وهو التجأ من بلاد إسلامية إلى بلاد الكفر مع أمير أرعنَ ، قيل إنه ارتدَّ[3]،إلا أن تخريج الشاعر ـ هنا ـ يدل على ذكاء متقد وحسن تصرف ، للخروج من أزمته مع أهله ،و محاولة إطفاء نار الغضب المتأججة في قلوبهم. وأمام هذا الوابل من اللوم و العتاب ، حُقَّ للتائب أن يحسن الدخول ، ويوظف أسباب الدفاع بأسلحة فعّالة ، لا تنثني ؛ لينال الرضا ، ويحظى بالقبول لدى أمير مسقط رأسه الذي لا يمكنه أن

---

(1) **فتنة بيران:** قام بها أهل هذه القلعة ضد السيد أبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن والي بلنسية.ولكن سرعان ما أذعنت هذه القلعة لابنه أبي يحي وأعلنت طاعتها سنة 622 هـ/ 1225م (ينظر: جمعة شيخة مجلةدراسات أندلسية، مطبعة المغاربة للطباعة والنشر والإشهار، تونس، العدد الثاني 1989 ص39.

(2) ابن الأبار ، الديوان ، ق9 ، ص 55.

(3) ينظر : ابن الأبار ، الديوان (الهامش) ، ص 55.

يفرط في هذا المكان مهما كانت الأسباب . يقول الشاعر:[الطويل][1]:

تُناضلُ عن دينِ الهُدى وتُدافــعُ　　　كأنكَ في الهيجَا أبوكَ ((مدافعُ))

وتَثْبُتُ يومَ الرَّوْعِ في حَوْمةِ الوغى　　　كأنَّكَ((ثهلانٌ)) بها أو((مُتالِعُ))

وتَغزُو العِدَى في عَقْرِها متتابعــا　　　وحَسْبُكَ غزْوٌ في العِدى مُتَتَابِعُ

فتُلفِي ديارَ المشركينَ ولم تَــزَلْ　　　أواهِلَ قد أصبَحْنَ وهي بلاقِعُ

وعلى الوتر الديني ، الذي يلقى صداه في كل الآذان يعزف الشاعر في مسمع الأمير ليسترضيه وينال مراده ، خاصة وأن الممدوح كان يسعى إلى أن يقيم مُلْكًا لا يتهدم مستغلا أريحيته فيجعله في الحرب أمام أعدائه الكفَرة صامدا صمود جبل (ثهلان) و(متالع)[2]

لا يَكلُّ من قتال هؤلاء الأعداء ، ولا يملّ ؛ لأن الغاية المرسومة الذي زُكّيت من قبل العباسيين باعترافهم به كانت تمده بالقوة والتصدي لكل الظروف ، شعاره القتال تلوَ القتال حتى يفنى العدو .

وفعلا كانت ساحات المعركة وديار المشركين بَلاَقِعَ بعد أن كانت أواهلَ .

وفي البيت التالي يتناص مع الشاعر لبيد بن ربيعة[3] ، مبينا أن الأمور في نهاية المطاف لا بد أن تعود إلى نصابها ، وفيه تمنٍّ بأن مدن الأندلس الإسلامية ستعود إليها أيامُها ، بسْمتُها وحياتها الطبيعيةُ ، بفضل الأمير أبي زيان بن مردنيش:[الطويل][4] :

وما هُم ولا البُلدانُ إلاَّ وَدائِـعٌ　　　وعَمَّا قريبٍ تُسْتَرَدُّ الـوَدائـعُ

ثم يعود ابن الأبار ثانية إلى ممدوحه من الزاوية الدينية ؛ الذي كانت مصدر قوته وشجاعته بل وبسالته أمام أعدائه ، حاميا للدين الذي ضاع بين أيدي بعض الحكام وتقاسمه النصارى

---

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق168 ، ص 359.

(2) قال الأزهري :**مُتالِع**: ـ بضم الميم ـ جبل بناحية البحرين بينَ السودة والأحساء .(ينظر: ابن منظور لسان العرب، مادة(تلع) ، 2/ 38). قال لبيد: دَرَسَ المنايا بِمُتالِعٍ فأبانَ　بالحِبْسِ بينَ البَيد والسوبان.

(3) ابن الأبار، الديوان (الحاشية) ،ص359 .وبيت الشاعر لبيد المقصود هو :

وما المال والأهلون إلا ودائع　　ولا بُدَّ يوما أن تُردَّ الودائع.

(4) نفسه ، ق168 ، ص 359 .

المعتدون ، وقائما بمسؤوليات إمارته بلنسية ، يرد عنها الأعداء وينافح من أجلها فنطق شكرا لأعماله الخُرسُ ، وخضع إلى أمره المخطئُ واتضع فقال : [الطويل](1) :

يميناً بما قدَّمْتَ مِن حَسَنٍ لقــدْ حميْتَ ذمارَ الدينِ والدِّينُ ضائعُ
وقُمتَ بأعباءِ الإمارةِ نــاهضًــا تُجالِدُ عنها مَنْ عَتَــــا وتُقَــارِعُ
فلا صامِتٌ إلاَّ بِشُكْرِكَ نــاطِقٌ ولا خالِعٌ إلاَّ لأمْـرِكَ خـانِعُ

ولا تزال إشادة الشاعر بمحامد ابن مردنيش أميرِ بلنسية متواصلةً ، بلغت حد تعداد العبادات والطاعات التي كان يداوم عليها ممدوحه كاملة غيرَ منقوصة ؛ صلاة ، يتبعها صوم لله واحتساب له وخشية منه ـ تعالى ـ مقرونة هذه الفضائل الإيمانية بالعدل في تسيير شؤون رعيته ، وإحسان لهم ، وسابعُها غزو العدو؛ وكلها عبادات مفروضة ، يتقرب بها العبد إلى ربه أوّابًا، طائعا ، فينال من خالقه التوفيق والرضا ، والنصر والتأييد: [الطويل] (2):

عُنِيتَ بمـا يُعْنىَ بهِ كلُّ خـاشعٍ فَلِلَّهِ بَـرٌّ منـــــــكَ للهِّ خـاشعُ
صلاةٌ وصَومٌ واحتسابٌ وخشيةٌ وعدلٌ وإحسانٌ لهـا الغزْوُ سابعُ
وفي كلِّ حالٍ لا تــزالُ مُوفَّقــا تُواصلُ في مَرضاتِـــه وتُقَـاطِـعُ

وإشادةً بقوة الأمير وعظيم بطشه بأعدائه ،الذين فقدوا الانتصارات في ظل زيان بن مردنيش كما فقدوا معه الراحة والاطمئنان ، وهجر أعينَهم النومُ ، في الوقت الذي خلَدتْ أعينُ جنود الأمير إلى النوم وهدأت [الطويل](3):

إذا بطَشَتْ يُمناكَ يـوما فإنَّهـم لِـراحتها العُـــليا هنـاكَ أَصَابعُ
أيرجو النصارى في زمانكَ نُصرةً وقد كَثُرَتْ فيهم لَعَمْري الوقائعُ
فأعيُنُهم بعدَ الهجُوعِ سَــوَاهِدٌ وأعيُنُنَـا بعـدَ السُّهادِ هـــــواجِعُ

---

(1) السابق ، ق 168 ، ص360.

(2)نفسه ، ق 168 ، ص 360.

(3) نفسه ، ق168 ، ص 361.

وكيفَ يَرومُ الرّوُمُ طـولَ تَمتُّـعٍ وأنتَ رَداها والمَواضِي[1] القواطعُ

كما أنه يذكر استعداد جند الأمير ، ووقوفهم إلى جانب قائدهم ، وهم رهن السمع والإشارة يحلقون به ، ويحفونه كأنه القلب وهم الأضلع ، يكسونه بالجميل ؛ لأنه أهل لذاك الصنيع محمود الفعال :[الطويل][2] :

وجنْدٌ كُماةٌ لا العُداةُ أوامـنٌ بأسيافهم ولا الوُلاةُ جـوازعُ

تحُفُّ بزيَّانَ الأمـيرِ كـأنَّه فؤادٌ وهم فوق الفؤادِ أضالـعُ

أمـيرٌ كَسَوْهُ بالجميلِ لأنَّـه جميلٌ حميدٌ كلُّ ما هو صـانـعُ

وفي آخر القصيدة يبسط الشاعر نداءَه بين يدي ممدوحه ، بعدما أبلى البلاء الحسن في السلم كما في الحرب ليسامحه عن كل خطيئة وهو السامح ، وعن كل تقصير وهو السامع ويشبه شدوه لجميل صنائع الأمير بشدوِ الحمام الساجع ، في تصوير بياني بديع ، وتركيب لغوي دال على حسن التصرف في الكلمات ، وتوفيقه في التوازنات ، متمنيا له في الختام دوام الرحمة والعصمة للعالمين ولا خوف عليه ؛ لأن عدوَّه ـ أبدا ـ مهزوم ، وبأسَه دائما هازم [الطويل][3]:

أميرَ العُلَى أرجو ومِثلُكَ سامحٌ أميرَ العُلى أدعو ومِثلُكَ سامــعُ

وأشدُو بما طوَّقْتَني مِن صنائـعٍ جِسامٍ كما تشدو الحَمامُ السواجعُ

فيصدعُ مِنّي باعتمادِكَ صـادحٌ ويصدحُ مِنِّي بامتداحِكَ صـادعُ

وَدُمْ رحمةً للعالمينَ وعِصمـــةً عدوُّكَ مَصروعٌ وبأسُـكَ صارِعُ

هذه هي قصائد المديح التي نظَمها الشاعر ابن الأبار في حق الحكام والأمراء الأندلسيين الذين كان المادح قريبا منهم ، صاغ معانيها أثناء الرضا وخلال الغضب . كما كان هذا الشاعر مبجلا في كل الحالات ، هنيئا ، سعيدا مع أهله ، وأبناء بلدته بلنسية ؛ مرتعِ الصبا ولحظات جميل

---

(1) **المواضي**: جمع الماضي : السيف .(ينظر: مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، المنجد في اللغة والأعلام ،دار المشرق ،بيروت،لبنان،ط26 ، 1973 ، ص 766).

(2) ابن الأبار ، الديوان ، ق168 ، ص 361.

(3) نفسه ، ق 168 ، ص 361.

الأحلام ،ينعم في ربوعها ، ويتفيأ من وارف ظلالها، بين أهلٍ يُكِنُّون له الحب وحكامٍ يجزلون له العطايا والمنح ،لولا إفساد العدو النصراني صفو حياته، ومحاصرة مدينته بلنسية في: 5 رمضان635هـ/ 21 أفريل1138م بعد أن كانت تمثل الدرع الواقي والحصن المنيع لكل المدن المجاورة التي تهاوت أركانها ، ودبّ بسقوطها الهلع والفزع إلى قلوب البلنسيين الذين انهارت قواهم ، وهم يرون المدن تسَّاقطُ كحبات اللؤلؤ ، وظلوا على الرغم من ذلك صامدين قرابة سبعة أشهر ، إلا أن المقاومة فشلت بعد أن نضبت الأقوات والمؤن فاضطُرُّوا إلى التفاوض القسري مع ملِك (أراجون) لتسليم المدينة، ودَخَلَها النصارى في 27 صفر636هـ/ 9 أكتوبر1238م وكان كل ذلك على مرأى ومسمع ابن الأبار شاعر بلنسية.

المرحلة الإفريقية :

كان حديثنا الذي سبق هذه الأسطر متعلقاً بمدائح الشاعر ابن الأبار لأمير بلنسية أبي زيان ابن مردنيش ، فألحقه بحكومته ـ كما أسلفنا ـ وعيّنه وزيرا له ، في ظروف كانت بلنسية يتهددها النصارى من كل مكان ، ولم يجد البلنسيون من حل ـ بعدما حوصروا بَرًّا وبحرا ـ إلى طلب العون والاستنجاد ، وكانت الوجهة المناسبة آنئذٍ تونسَ الحفصيةَ ، بعد أن تبخرت الأحلام في الدولة الموحدية بمراكش .

واختار أميرُ بلنسيةَ شاعرَه و وزيره رئيسًا للوفد الذي يسافر ، طلبا للمدد والغوث من الحفصيين الذين كان يحكمهم ـ آنئذ ـ " أبو زكريا الحفصي ". وغادر الوفد بلادهم المحاصَرة في رمضان سنة 635 هـ / أفريل أو ماي 1238م .

وصل الوفد المستغيث برئاسة الشاعر ابن الأبار تونس ، فأُحسنتْ وفادتهم ، وألقى الشاعر قصيدته السينية المشهورة بين يدي الأمير ، تبدأ بـ [البسيط] [(1)]:

أَدْرِكْ بِخَيْلِكَ خَيْلِ اللهِ أندَلُسَا إنَّ السَّبيلَ إلى مَنْجَاتِهَا دَرَسَا

وكان لهذه القصيدة الطويلة ـ التي سنرجئ العودة إليها مع " الهمزية " حين تناول غرض الاستنجاد لاحقا ـ الأثرُ البالغُ في الأندية الأدبية ، وفي نفس الأمير أبي زكريا الحفصي الذي طلب من شدة إعجابه بها سمع احتذاءَها ، فحاول بعض الشعراء هنالك ، إلا أنهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

وكان نتيجة تأثر أبي زكريا بها ، أن هبَّ مسرعا إلى نجدة المستغيثين ((**فبادر السلطان بإعانتهم ، وشحن الأساطيل بالمدد إليهم ، من المال والأقوات والكُسى**[(2)] ، **فوجدوهم في هوة**

---

(1) السابق ، ق 185 ، ص 395.

(2) كان المَدَدُ المقدم من قِبل السلطان الحفصي في (الديوان ، (مقدمة ،ص 11) ، تحقيق:عبد السلام الهراس): عبارة عن معونة ضخمة من السلاح والمواد الغذائية والكسى ،وكذلك أشار ابن خلدون في : (ديوان المبتدإ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومَنْ عاصرهم مِن ذوي الشأن الأكبر ضبط المتن ووضع الحواشي والفهرس:خليل شحادة مراجعة:سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشروالتوزيع بيروت،لبنان دط، 2000 ،2001 ، 6/ 418 . و في (إعتاب الكتاب لابن الأبار ، بتحقيق وتعليق وتقديم صالح =

الحصار ، إلى أن تغلّب الطاغية على بلنسية ، ورجع ابن الأبار بأهله إلى تونس وكان تغلب العدو على بلنسية صُلحا يوم الثلاثاء السابع عشر لصفر من سنة ست وثلاثين وستمائة))[1] .

وقبل مغادرة ابن الأبار بلنسية ، يصف لنا بنفسه سقوطها[2]، ذلك أنه كان حاضرا للمرة الأخرى في موقف حرج كالمواقف السابقة، من مثل خروجه مع سيده أبي زيد إلى النصارى.

انتقل ابن الأبار إلى العدوة الإفريقية ، بعدما ما لقيه من ترحاب وتقدير أثناء وفادته عليها مستصرخا ، وألقى بين يدي السلطان سينيته التي وجدت لديه الإعجاب الكبير.

وكان سفره هذه المرة بحرا ، رأسًا من بلنسية إلى بجاية ، ثم إلى تونس ، أين لقي من السلطان أبي زكريا ـ أول الأمر ـ أحسن استقبال ، وقدّر مواهبَه وعهد إليه بالكتابة في ديوانه ثم أسند إليه كتابة الإنشاء والعلامة ، إلا أن حظه التعس لاحقه هذه المرة أيضا ، وأخفق في عمله الجديد[3]. إلا أن تقربه من حكام الحفصيين مدحا واستشفاعا واستعطافا كان هو الصورة الغالبة على شعره في هذه الفترة .

فمَن الممدوح في هذه العدوة الإفريقية ؟ ومَن كان أوفر حظا من مِدَحِ الشاعر ؟ .

إذا كانت قصيدة المدح في العدوة الإفريقية قد اقتصرت على[4] :

= الأشتر) . بينما كان في(نفح الطيب للمقري ، 4/ 460) عبارة عن مال وأقوات وكُسى(دون الأسلحة). (ينظر: ديوان ابن الأبار، قراءة وتعليق عبد السلام الهراس، الدار التونسية للنشر ود.م.ج الجزائر (المقدمة)ص11. وإعتاب الكتاب لابن الأبار، تح:صالح الأشتر ، دار الأوزاعي، بيروت، ط2 1986،ص11.

(1) المقري ، نفح الطيب ، 4/ 460.

(2) ((خرج أبو جميل زيان من المدينة ـ وهو يومئذ أميرها ـ في أهل بيته و وجوه الطلبة والجُنْد ، وأقبل الطاغية ، وقد تزيَّا بأحسن زيّ، في عظماء قومه ، من حيث نزل بالرصافة أول هذه المازلة ، فتلاقيا بالولجة واتفقا على أن يتسلم الطاغية البلد سلماً لعشرين يوما ينتقل أهله أثناءها بأموالهم وأسبابهم ، وحَضَرْتُ ذلك كلَّه ، وتوليتُ العقدَ عن أبي جميل في ذلك...)) ثم ابتدأ الجلاء . (ينظر : ابن الأبار ، إعتاب الكُتّاب تح: صالح الأشتر، ط2 ، 1986 ، ص 11 ـ 12.

(3) ينظر : الملحق ، ص 416 .

(4) ينظر : هذا البحث ، عنصر المرحلةالاندلسية ،ص17

سعيد بن حكم القرشي ؛ حاكم منورقة ، وأبي الحسن يحي الخزرجي؛ حاكم شاطبة وأبي زيان بن مردنيش ؛ أمير بلنسية و أبي زيد أمير بلنسية، فإن هذه القصيدة ذاتها قد شقَّت طريقها ، وسافرت مع ناظمها من الأندلس إلى تونس ؛ لتحط رحالها في بلاط الحفصيين .

وسنرى ـ في هذه المرحلة ـ قصيدة المديح أغزر ، وأثرى ، وستتجه رأسا إلى كل من:

- السلطان أبي زكريا الحفصي(1) .
- وابنيْه ؛ المستنصر ، وأبي يحي زكريا ولي العهد وأمير بجاية(2) .

---

(1) **أبو زكريا الحفصي**: هومؤسس الدولة الحفصية ،عاد إليه الأمر بعد أن عرض عليه سلطان الموحدين تولية إفريقية ، ولم يقبل بالمسؤولية إلابعد محاولات ثلاث ، كانت الأخيرة منها طريفة ، أثبتها عبد الله التيجاني في رحلته. وخرج الوفد مبتهجا بالنتيجة ، ولكن مقابل شروط ، وأن تكون له كامل الحرية في التصرف والعزل لِمَنْ كانت له مسؤولية سابقة . وكان من أعماله أن عقد لابنِه أبي يحي زكريا على ثغر "بجاية" وسائرأعمالها "الجزائروقسنطينة وبونةوالزاب" سنة633 هـ ، وكتب إليه بوصيّة عظيمة ، شاملة عظاتٍ وعبراً و دعوة إلى الحذر ، مع سداد النظر :((..فلْيَكْفِكَ مِنْ دُنياكَ ثوبٌ تلْبِسُهُ وفرسٌ تذُبُّ به عن عباده.وأرجُو بكَ متَى جعلْتَ وصيّتي هذه نصْبَ يَنيْكَ، لمْ تُعْدَمْ مِن ربِّك فتحا يُيَسِّرُهُ على يديْك..)). وفي إحدى خرجاته من تونس إلى قسنطينة للإشراف على أحوالها ،وأثناء هذه الرحلةأصابه المرض إلى أن وصل إلى " بونة" فاشتد عليه وهلكَ لِسبعٍ جُمادي الآخرة ، سنة سبع وأربعين وستِّمائةٍ،لاثنتيْن وعشرين سنة من ولا يته.ودُفن بجامع "بونة". ثم بقِينَ من نُقل شِلْوُه بعد ذلك إلى قسنطينةسنة 666هـ.لتنتقل الخلافة إلى ابنه أبي عبد الله المستنصر ، على الرغم من تواجد أخويه(محمداللحياني لطول لحيته وكان أسنَّ منه) و(أبي إبراهيم).(ينظر: ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ،6/ 399 ـ 400 ـ 402)). و(التيجاني أبوعبد الله ، رحلة التيجاني دط ، 1958 ، ص 360 ، 362 .) .

(2) **المستنصر(الأول)**: (625 ـ 675هـ/ 1228ـ 1277م) محمد بن يحي بن عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاني أبو عبد الله ،أميرالمؤمنين المستنصر بن السعيد :من ملوك الدولة الحفصية بتونس.بويع له فيها بعد وفاة أبيه سنة 648هـ ببونة.وأخذ له البيعةَ عمُّه محمد اللحياني على الخاصّة وسائر أهل المعسكر وارتحل إلى تونس فدخل الحضرة ثالث رجب من السنة ، فجدَّد بيعتَه يومَ وصوله وتلقّب "المستنصر بالله".ثم جدّد البيعة بعد حين، واختار لِوضع علامته :"الحمد لله ،والشكر لله" وقام بأعباء مُلْكِه. (ينظر:الزركلي ،خير الدين ، الأعلام ، دار العلم للملايين ،بيروت لبنان ، ط15 ، 2006 ،138/ 7 .

=

فبالنسبة للسلطان أبي زكريا الحفصي، الذي عمل على توطيد دعائم ملك عائلته ، وقد ساعده في ذلك مركز عائلته وقبيلته من جهة ، وضعف شأن الموحدين ـ في تلك الأونة ـ من جهة أخرى وهو الذي حكم تونس ، وحاول جاهدا أن يعيدها إلى سالف عهدها المجيد يقول ابن الأبار فيه مادحا ، بعد مقدمة غزلية طويلة ، بلغت اثنين وعشرين بيتا [الكامل](1):

مَلِكٌ أقام الحقَّ عـــــندَ قعـوده   وأعادَ فيضَ الجُودِ بعدَ نضوبه

حسَّتْ(2) خلافتُه الخِلافَ وصيَّرتْ   مِن حزبِه مَنْ لَـــجَّ في تحزيبـه

وكذلك مَنْ لَحَظَ العواقـــبَ لُبُّـهُ   حَذِرَ العِقابَ فكفَّ عن تأليبِه

وبعد أن يجعله مَلِكًا يعود إليه فضل رأب الصدع الذي كان قبل خلافته ، بما أوتي من حكمة وحنكة ، جعلتاه يقضي على كل الفتن ، ينتقل إلى ذكر عدله ، الذي أرساه في خلافته في الوقت الذي طغا فيه الجور و تنوع الظلم ، فاستحق مدح المادحين [الكامل](3):

وافىَ الزمانُ به إماماً عــــــادلا   والجَوْرُ قد عمَّ الورى بِضُروبـه

وخليفة في الأرضِ لكنْ بـيتُــه   فوقَ السماءِ يُمــــدُّ في تـطْنِيبِـه

يَرمي فيُصمِي قاصياتِ مَـرامِـه   مِن رأيه بِسدِيدِه ومــــُصيبِـه

لوْ أنَّ لِلأملاكِ فضْلَ نِصابِـــه   مَلكُوا مِن الأمداحِ مثلَ نصيبِـه

وفي قصيدة أخرى نظَمها الشاعر بمناسبة تولي أبي يحي الابن ولاية العهد، وذلك يوم الخميس: 2 رجب 638 هـ [الكامل](4) :

=

و ابن خلدون ، عبد الرجمن ،ديوان المبتدإ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومَنْ عاصرهم مِن ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهرس:خليل شحادة ، مراجعة:سهيل زكار دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ، لبنان ، دط،2000 ـ 2001 ، 6/ 402) .

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق 24 ، ص 78.

(2) **حسَّتْ** : استأصلتْ.(ينظر: مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، المنجد في اللغة والأعلام ، ص 132 .)

(3) ابن الأبار ، الديوان ، ق24 ، ص 78 ـ 79 .

(4) نفسه ، ق84 ، ص 182.

مَلِكٌ يُريكَ بِحِلمِه وبِعلمه قيسا يُحاضِرُ مُنْقِرًا ومُعاذًا[1]

قَدْ قَدَّمتْه إلى الإمامةِ صَفوةٌ زَانُوا الزمانَ أئمةً أفـذاذا

....

لِلصالحاتِ نصيرُهُ و مسيرُه يَسْتَنفِدُ الإهذابَ والإهباذا[2]

هزَّتْ معاطفَها المنابرُ حَبْرَةً بِفتًى يَفُوتُ شهامةً ونفاذا

إلى أن يقول [الكامل] [3]:

شِدْتُـمْ بِإفريقية مُلكًا عَـفَــا لَمَّا اصْطَفَتْكُمْ مَلْجا ومَعَاذا

وطردْتُمْ عن جانبيها كُـلَّ ذي دعْوى تهادَى بينها وتَهاذَى

ومحاولة من الشاعر إلصاق كل المعاني السياسية بالدولة الحفصية ، زيادة في التقرب منهم أكثر و كسب مودتهم ، باعتبارهم الأمل الوحيد الذي بقي لهذا الوافد من بلاد خرّبها النصارى واستحلوا أعراضهم،خاصة وأن لأخلاقه تتزين الليالي العواطل ، وبدعائه ؛ دعاء المؤمن يستجيب الله له ، ويرزقهم أمطارا، والكل آمن بجواره ، غيرُ قانط في كرمه وجُوده يقول [الطويل][4] :

تَحلَّتْ بِعَلْياكَ الليَــالي العــواطِلُ ودانَتْ لِسُقْيَاكَ السَّحابُ الهواطِلُ

وما زينةُ الأزمانِ إلاّ منــاقــبٌ يُفَرِّعُها أصـــْلانِ : بـأسٌ ونـائلُ

إذا الصَّوْلُ والطَّوْلُ اسْتَقَرَّا براحةٍ تَرَقَّتْ لها نحــوَ النجومِ أنامــلُ

---

(1) يعني **قيس بن عاصم بن سنان المنقري،** عُرف بفروسيته وحِلمه وشاعريته.كان سيدا في الجاهلية والإسلام. ويعني بالثاني **معاذ بن جبل** ، المشهور بعلمه بين الصحابة .وهو مِمَّن جمع القرآن على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ توفي بالطاعون في الشام سنة 17 هـ .

(2) **الإهذاب:** من أهذب ، أسرع.(ينظر: مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، المنجد في اللغة والأعلام ، ص 860) **والإهباذ:** الإسراع في المشي والطيران . (ينظر: مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، المنجد في اللغة والأعلام ، ص 851).

(3) ابن الأبار ، الديوان ،ق 84 ، ص 183 ـ 184.

(4) نفسه ، ق108 ، ص235 ـ 236.

ومنْ دَانَ هذا الدِّينَ حَـقًّا بِنَصْـرِه فليسَ لهُ مِن أهــلِ دُنياهُ خـاذلُ

....

فلا خائفٌ إلا بِمَثـــواكَ آمِـنٌ ولا آيِسٌ إلا لِجَـــدْواكَ آمـــلُ

هنيئاً لكَ التمكينُ دهرُكَ حافِـدٌ[1] يُجيبُ إذا تَدْعُـــو و درُّكَ حافـلُ

إلى أن يختم أبياته الطويلة بقوله [الطويل][2] :

جزَى اللهُ ذاكَ الفضلَ أفضلَ ما جزَى فعنْ طَوْلِه المذكورِ تُنْسَى الطوائلُ

تغَمَّدْتَ صفْحًا عَثْرَتي وإقالـــــةً فما أنافي تلكَ الإقـــالةِ قائـلُ ؟

وأوْرَثْـتَني إثْـرَ الخـمولِ نـبـــاهةً وما يستوي قدْرا نَـبِيــهٌ وخامـلُ

وأنشأ معارضا أبا بكر الصابوني[3] بعد مقدمة غزلية أخرى ، مزج بينها وبين أدوات الحرب [الطويل] [4]:

إمامٌ أجَارَ الحقَّ لَـــَّما استجارَهُ وقد رسَخَ الإذعانُ لِلغَمْطِ والغَمْصِ [5]

وهَبَّ هُبوبَ المَشْرفِيِّ مُصَمِّـــمًا لِتأمينِ ما يَخْشَى مِن الوقْم والوقْص [6]

فهو الخليفة الذي يجير بعدله الحق ، ويُؤَمّن الضعفاء والمستضعفين . وهذه إشارة واضحة إلى أن إخوانه في العُدوة الأندلسية بحاجة إلى مَنْ يحميهم من ظلم العدو ، واعتداء المعتدي ويرفعه

---

(1) **حافد** : خادم . (ينظر: مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، المنجد في اللغة والأعلام ، ص 141 .)

(2) ابن الأبار ، الديوان ، ق108 ، ص238.

(3) **ابن الصابوني** : هو أبو بكر محمد بن أحمد بن الصابوني الصدفي ، مِن أهل إشبيلية ، شاعر عصره المجيد والمبدئ في محاسن القريض المعيد ، الذي ذهبت البدائع بذهابه ، وختمت الأندلس شعراءها به ، توجّه إلى المشرق فتوفي في طريقه من الإسكندرية إلى مصر سنة أربع [وثلاثين] وستمائة . (ابن الأبار ، تحفة القادم أعاد بناءه وعلّق عليه:إحسان عباس ، دار الغرب الإسلامي ،بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1986 ص230) .

(4) ابن الأبار ، الديوان ، ق107 ، ص 332.

(5) **الغمط والغمص** :الاحتقار والازدراء به. (ينظر: مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، المنجد في اللغة والأعلام ص559 ـ560 .)

(6) **الوقم** : القهر. **والوقص** : العيب (ينظر: مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، المنجد في اللغة والأعلام ص 913ـ914 .).

الشاعر في أعلى المراتب، ومناقبه لا تُعدّ ولا تحصى، فاق بها جميع الملوك [الطويل][1] :

وما اشتبهتْ حـالُ الملوكِ وحالُه ... أ لمْ ترَ أنَّ الفضلَ ليسَ مِن النَّــقصِ
أَغَرُّ مِنَ الغُرِّ الجَحَاجِيحِ في الذُّرى ... مَناقِبُهُ بُسْلٌ[2] على الحصْر والخَرص
تمَلَّكَ أفرادَ المكارِمِ والعُــلــى ... ولم يُبْقِ لِلأملاكِ فيهِنَّ مِن شِقْصِ[3]

وعن جود السلطان، الذي أفاض فيه الشاعر في جل قصائد مادحا له يختم قصيدته [الطويل][4]:

إلى جُودِهِ تَثْني الأماني وُجـو هَها ... ومَنْ يَتَعَدَّ القبْضَ أفْضَى إلى القبْصِ[5]
فلا يرْجُ ظمآنٌ سِــواهُ لِرَيِّــهِ ... مُحالٌ وجودُ الظِّلِّ في عَدمِ الشخْص

هذا فيما يتعلق بقصائد المدح التي خُصَّ بها السلطان أبو زكريا .

أما ابنه المستنصر، فقد كان له هو الآخر نصيب من ثناء الشاعر، نبدؤها بيوم لقائه الذي سيكون مع هذا الأمير شأن خطير بمعنييه ؛ في سعادته أولا وفي نهايته ثانيا [الكامل][6]:

بُشْراي باشَرْتُ الهُدَى والنُّــورَا ... بِلِـقائِيَ المُسْتنصَرَ المنصورَا
فإذَا أميرُ المؤمنـــــينَ لَقِيــتُهُ ... لمْ ألْقَ إلاَّ نـضْرَةً و سُرورَا

وقال في الأمير المستنصر ـ على الأرجح ؛ لأنه لم يذكر اسم الممدوح، كما أوضح المحقق ـ الذي كان لقاؤه به فألَ خير بالنسبة للشاعر:[البسيط] [7]:

يا شدةَ اليأسِ إنْ يُئِّسْتُ فيكَ فقد ... أضحى رجاءَ وليِّ العهدِ لي فَرَجا

---

(1) ابن الأبار، الديوان، ق 159 ، ص 336 ـ 337 .

(2) **بُسْل** : ممتنعة . (ينظر: مجمع اللغة العربية، القاهرة ، المنجد في اللغة والأعلام، ص 38 .)

(3) **شِقْص** : نصيب و سهم . (ينظر: مجمع اللغة العربية، القاهرة، المنجد في اللغة والأعلام، ص 397 .)

(4) ابن الأبار، الديوان، ق159 ، ص337 ـ 338.

(5) **القبص**: التناول بأطراف الأصابع، وهو دون القبض. (ينظر: مجمع اللغة العربية، القاهرة، المنجد في اللغة والأعلام، ص 605 .)

(6) ابن الأبار، الديوان، ق17 ، ص 447.

(7) نفسه، ق 42 ، ص104.

سليلُ يحي بنِ عبدِ الواحد بنِ أبي ... حفصِ بنِ يحي فَيَا لَلسُّؤددِ اتَّشَجَا(1)
مَلْكٌ تَبَحْبَحَ(2) في العليـاءِ مُقتَفيـا ... ما سَنَّ آباؤُه فيـها ومُنتهــــجا
بين السماحِ وبينَ البأسِ مُنقَـسمٌ ... فالعالَمُونَ على خوفٍ له ورَجَـــا

كما سنجد الصفاتِ ذاتَها ، التي كان ينعت بها الأبَ ، استمر على الطريقة نفسها ، مع شيء من الاهتمام أكثر ، بفضل الكمّ الأكبر من المديح الذي خصّه به ؛ من مثل الشجاعة والمكانة الرفيعة ، والعمل على إصلاح ما أفسد الأولون ، يسبق كلَّ ذلك شرفُ الأصل باعتباره صاحب الفضل في تأسيس كيان للأسرة الحفصية منذ قضائه على ثورة ابن غانية واستقلاله بإفريقيا ليقف النّدّ للندّ في وجه السلطة الموحدية في مراكش [البسيط] (3) :

لا يحسبُ الحربَ إلاَّ روضةً أُنُفـا ... ماجَتْ دماءُ الأعادِي وَسطها خُلُجا
كالمُشتري أَسْعُداً لكنْ مكانـتُه ... فاتَتْ مَدَى زُحَل يا شَـدَّ ما عـرَجَا
حسبُ الخلافةِ تفويضٌ لدَى حسبٍ ... مُؤَثَّلٍ سَبَقَ الأحقـابَ والحِجَـجَا
....
هـادٍ لِقصْدِ أبيهِ المُرتَضَـــى عَلَـمًا ... لِجَبْرِما انْهَاضَ أو إصلاحِ مَا مَرِجَا(4)
....
همُ المُلوكُ وأبنـاءُ المُلوكِ فـــــلا ... زالَ الزمـــانُ بهِم يزدانُ مُبْتَهِـجا

وأنشد لمّا مثَل بين أيدي المستنصر [الوافر] (5) :

أميرُ المؤمنينَ لنَـا غِيـــاثٌ ... فعندَ المحْلِ تُسْتَسْقى الغيوثُ
فلا جُوعٌ ويُمناهُ الغوادي ... ولا خَوفٌ وقتلاهُ اللُّيـــوثُ

---

(1) **اتشج** : توشح. (ينظر: مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، المنجد في اللغة والأعلام ، ص 901 .)
(2) **تبحبح** : كان في مجد واسع . (ينظر: مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، المنجد في اللغة والأعلام ، ص 27 .)
(3) ابن الأبار ، الديوان ، ق42 ، ص 105 .
(4) **مرِج الدين والأمر**: فسَد واضطرب واختلط. (ينظر: مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، المنجد في اللغة والأعلام ، ص 754.)
(5) ابن الأبار ، الديوان ، ق 3 ، ص 439.

وفي قصيدة مطولة بلغت أبياتها أربعة وأربعين ، يمدح المستنصر ويهنئه بالإبلال ويسترضيه وذلك حوالي 657. هـ بسبب عفو الحاكم عليه، وبعد مقدمة عامة ، تطرق فيها الشاعر إلى مناقب ممدوحه الكثيرة ، وآرائه الجليلة ، وتهنئته بالإبلال من مرض أصابه ليصل إلى قوله [الكامل] [(1)] :

مَلِكٌ تَقدَّسَ في المُلوكِ مقامُــه فخصائصٌ مَلَكيَّةٌ وطبائعُ

أَضْحَى لهُ شَرفُ الكمالِ مُسَلَّمًا هيهاتَ ما في العالَمِينَ مُنازِعُ

في المُونِقَيْن : رُوَائِـهِ وثَـــنَائِهِ ما تشْتَهيهِ نواظِرٌ ومسَامِعُ

إلى أن يقول [الكامل][(2)] :

إنْ تفخرِ الدُّنيَا بــِهِ وبِمُــلْكِهِ فمُلُوكُها خَوَلٌ[(3)] له وَصنَائعُ

مولايَ عبدُكَ في الرِّضى مُسْتَشْفِعٌ وبناتُ خاطِرِهِ إليكَ شَوافِعُ

هو ذَا ببابِكَ ليسَ يسأمُ قرْعَــهُ ولَطالمَا وَلَجَ المُلِظُّ القـــارِعُ

يَرُدُّ السرورَ مُهَنِّئاً و مُهَنَّــئـاً عِدًّا يُطيلُ العَبَّ فيه الكارِعُ

ويودُّ لوْ مُنِحَ الإجادَةَ ناظِـــماً لِتسيرَ عنهُ بَدَائِهٌ وبَدَائـــعُ

إنَّ الضَّراعةَ لِلقَبولِ ذريعــــةٌ والحقُّ في تخليدِ أمرِكَ ضارِعُ

وبالنسبة للابن الثاني ، و وليّ العهد زكريا أبي يحي ؛ أمير بجاية ، فقد نظم ابن الأبار في مدحه قصائد طوالا.

ومن إحدى هذه القصائد ،تلك التي أنشأها عند التجائه إلى الحفصيين ببجاية في طريقه إلى تونس، أواخر سنة 636. هـ يمدح أبا زكريا أبا يحي ولي عهد أبي زكريا وأمير بجاية.

حيث يبدؤها بمقدمة في عشرين بيتا ،وصف فيها رحلته المتعبة ، الشاقة ، والتي خاضها بحرا على غير العادة ، وكل ذلك كان هينا ـ بالنسبة له ـ لطالما أن المقصود وليّ العهد الذي سيلقى عنده

(1) السابق ، ق165 ، ص356.

(2) نفسه ، ق165 ، ص 356 ـ 357.

(3) خَوَلٌ : خدَم . (ينظر: مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، المنجد في اللغة والأعلام ، ص 199.)

الراحة والأمان ،وما أحوجه إلى ذلك وهو الفارُّ مع أسرته من بلدة حُطام ، وفي أيدي الأعداء النصارى ! ليتخلص بعد هذه المقدمة إلى غرض المدح المقصود فيقول [الرمل](1):

حَسْبُهُ مَعْلُـوَةً ،خِدمَتُـــــهُ لِلأميرِ ابنِ إمامِ الأُمَـــــرَا
زكرياءَ بْنَ يحيَ المُرتــــضى ابن عبد الواحدِ بنِ عُمَـــرَا
نَسَبٌ أبهرُ مِن شمسِ الضُّحَى ليسَ ماءُ المُزْنِ منهُ أَطْهَـــرَا
وأبٌ يَخْلُفُهُ ابْنٌ في الـــــعُلَى كالجَنَى يَعْقُبُ بعدُ الزّهــرَا
إنّما آلُ أبي حفــــصٍ هُـدًى يَكشِفُ الغَيَّ ويَجْلُو السَّرَرَا

ونجده في هذه الأبيات يشيد بالأصل الشريف لأسرة الممدوح ، والمحتد العريق ، الذي يربطهم بعُمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وقد ورد هذا النسب الشريف في قصائد ابن الأبار بكثرة ، خصّ بها تحديدا أسرة أبي زكريا الحفصي .

ولم يكن مضمون هذا النص الذي بين أيدينا حديثا عن شرف الأصل فحسب ، بل تعداه إلى صفات محمودة متعددة كان يتصف بها الممدوح ؛ فمن ذلك صفة الكرم التي بفضلها فاق كل الملوك ؛ لأن دعوته إلى قِراه كانت عامة، ولا يَستثني منها أحدا، بينما لم تقتصر دعوة باقي الملوك حتى على خاصتهم وأقليتهم، ففي حضرته لايخشى عائلٌ جوعا ، موسراً كان أو مُعِسرا [الرمل](2):

وانْـتَجِعْهُمْ مُوسِرًا أو مُعْسِرا تَــرِدِ الجُودَ زُلالاً خَـصِـــرَا
كيفَ يَخْشَى عائلٌ تَهْلُــكَـةً وأبـو يحي (مُعِيلٌ) لِلْـــورى
مِلِكٌ يـدعُو نَداهُ الـجَفَلَــى حين لا تدعُو الملوكُ النَّقَرَى(3)

وتتعدد أبيات الشاعر الخاصة بالكرم ، وفي كل المجالات .

(1) ابن الأبار ،الديوان ، ق85 ، ص 186.

(2) نفسه ، ق85 ، ص 187 .

(3) **النَّقَرى** : الدعوة الخاصة إلى الطعام . و**الجَفَلَى** : الدعوة العامة . (ينظر: مجمع اللغة العربية ، القاهرة المنجد في اللغة والأعلام ، ص 831 .)

أما عن صفة الشجاعة ، التي استحوذت على أبيات عدة في هذه القصيدة ، والتي تزين بها الأمير فمرد ذلك طبيعي ؛ لأن الشاعر الوافد على قوم ،ليسوا بقومه ، ولاجئ إليهم يطلب قُربى ومكانةً ، فارًّا من مجاورة عدو نصراني ،استباح بلدته ، وأرغم أهلها على تسليمها قسرا حُقَّ لهذا المكلوم أن يتحدث عن الشجاعة والقوة ، اللتين لو توافرتا عند البلنسيين ماكان ليكون هذا حالَه ، وأما ممدوحه كان في منعة من العدو بفضل ما شاده الأولون على أسنة الرماح [الرمل] (1):

ليسَ يرجُو مَنْ عَصَى مُعتصَمًا مِن عوالِيهِ ولا مُعتصَرَا(2)
هذه الأحياءُ قد دَوَّ خَــهَـا فَسَلِ البِيضَ بها والسُّمُرَا
زارَهَـا ليـثًا مَهِــــيبا زَأْرُهُ لا يُهابُ اللَّيثُ حتّى يَزْأَرَا
مُهْدِراً مِن دمها ما حـقَـنَتْ ودَمُ المرّاقِ يمضي هَـدَرَا
أوْحَـدٌ تَخْـدُمُـهُ أيامُــــــه وتُوَالِـيهِ نَهَى أو أَمَــــرَا

وإعجابا بيحي الأمير ، الذي تقلد الحكم ، بعد وفاة أبيه ،يطلعنا الشاعر على مبالغة في وصف ولي العهد بالكعبة التي إذا ما التجأ إليها طائف ،ومسَّح بأركانها ، فلا خوف عليه من أي شيء ؛ لأن يحي الأمير مصدر الأمان والاطمئنان ، وإمام الهدى وبحر الندى [الطويل] (3):

وَمَنْ رَامَ يحيَ كعبةً لِـطـــــوافِهِ غدَا لا يَهابُ الهضْمَ في ذروةِ الهضـمِ
إمامُ هُدىً أفنَى الضَّلالَ مُسَلّطا عليهِ بِأَوْحَى القَضْبِ ماضية القُضُبِ
وبحْرُ ندىً مَنْ يَرْجُ فِيضَ عُبَابهِ يَفُزْ بالنُّضَارِ السَّبْكِ والوَرِقِ السَّكْبِ

إلى أن يقول [الطويل](4) :

خِلافةَ يحيَ زَانَ عهــدُ محــــمدٍ ولا شَكَّ أنَّ الزنْـــــدَ يَزْدانُ بالقُــلْبِ(5)

---

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق85 ، ص 188 .
(2) **معتصَرا** : مَلاذاً وملجأ . (ينظر: مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، المنجد في اللغة والأعلام ، ص 509.)
(3) ابن الأبار ، الديوان ، ق 26 ، ص 84 .
(4) السابق ، ق26 ، ص 86 .
(5) **القُلْب** : السِّوار . (ينظر: مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، المنجد في اللغة والأعلام ، ص 648.)

هما القَمَرانِ النّيّرانِ دائمــــا ... مدارُهما لِلمعلوماتِ عـــــلى قُـــرْبِ
أمّا ولـيُّ العهدِ أزكى أَلِيَّـــــةً ... لقد أحرزَ العليا(ء) بالإرثِ والكَسْـبِ
وجَمَعَ أشتاتَ الكمالاتِ فالنُّهى ... مع (الطبعِ) مَشْفُوعانِ(بالرَّأْبِ والشّعْبِ)[1]
هَنِيئاً لنا ريعـانُ دولتِـه الــتي ... بها يَأْمَـنُ المُرتـاعُ حتى مــن العَـــتْبِ
وهلْ هي إلاَّ رحمةُ اللهِ يُسِّـرَتْ ... لِموهبةِ الحُسْنَى ومَغفرةِ الذَّنــــــبِ

وأثناء زيارة الشاعر الحضرةَ ، حيث وليُّ العهد أبو يحي، قال فيه أبياتا ومنها [الوافر][2]:

وليُّ العهدِ أم عهدُ الـوليِّ ... أَتَى يُرْوِي البسيطةَ كالأَتِـيِّ[3]
فَمَا أَحْبَبْتَ مِنْ خُلُقٍ رَضِيٍّ ... ومَا أَحْبَبْتَ مِن خَلْقٍ وَضِـيٍّ
على نفحاتهِ تُبْـنَى الأمـاني ... كما يُبْنى القريضُ على الرويِّ

والتذكير بصفة (ولاية العهد) كان أمرا مفروضا ، ولا سيما أن ابن الأبار كان يؤسس في أشعاره لدولة الحفصيين ، الذين آووه ، وأكرموه مع باقي الوافدين ، وكان أفضل المرحب بهم بخاصة بعدما ألقى سينيته التي دُهش لها الجميعُ ؛ عامة الناس وخاصتهم .

لذلك السبب ، لابد للشاعر أن يشيد في كل مرّة تُتاح له بمحامد آل حفص ، ولاسيما إذا كان المقصود وليّ العهد (وهو الابن الأكبر لمؤسس الدولة الحفصية) ، الذي يجعل منه مِن أحبّ خَلق الله ، وأطهرهم . وكل آمال المتطلعين مبنية على نفحاته ، كما تُبنى القصيدة على حرف الرويّ .

ليختم أبياته في الأخير، مبينا أنه لم يدّخر جهدا في صوغ عبارات المدح التي تليق بصاحب

---

(1) **الرأب**: من قولهم : رأب الصدع أي أصلحه .**والشعب**: مماثل له في المعنى . (ينظر: مجمع اللغة العربية القاهرة ، المنجد في اللغة والأعلام ، ص 242 ، 390 .)

(2) ابن الأبار ، الديوان ، ق202 ، ص 425 .

(3) **الأتِيّ** : سيل أتى أتاوي مِن حيثُ لا يدري ولا يدرك . (ينظر: مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، المنجد في اللغة والأعلام ، ص 3 .)

الإمارة، و ولاية العهد الجديد ، ومتمنيا من الممدوح القَبول والرضا : [الوافر][1] :

وَفَيْتُ بِمَا اسْتَطَعْتُ مِن امتداحٍ فَهَلْ لِلحُرِّ مَعْذِرةُ الوَفِـــيِّ

وأرجُو أنْ يُسَوِّغَنِي قَـــبُولاً بِهِ أُهدِي المديحَةَ كالـــهَدِيِّ

وبالنسبة للحفصيين ـ بشكل عام ـ فإن مِدح الشاعر لهم كانت في تضاعيف كل القصائد ـ تقريبا ـ التي تتعلق بهذا الغرض الشعري ، ولم يكن يعنى بالأسرة الحفصية الكبرى إلا بعائلة المولى أبي زكريا الحفصي ؛ مؤسسِ الدولة الحفصية ، وابنيْه أبي يحي زكريا ابن أبي زكريا يحي الحفصي ، وأبي عبد الله محمد المستنصر (وهو الابن الثاني لأبي زكريا) .

يقول الباحث ماهر زهير جرار: ((**ابن الأبار كان أكثر مِن مُجرّد كاتب " الخليفة" بل تعدى هذا الدور ليحاول أن يضطلع بدور سياسي أكبر يرتبط بوعي تاريخي في تلك الفترة الحالكة من عمر الجماعة الإسلامية ، وكان يصدر في شعره عن هذا الوعي محاولا أن يكون شاعر الحضرة الذي يرسخ في شعره " أيديولوجية الدولة " عن طريق إبراز معاني الفتوح والجهاد والانتصارات والدفاع عن الجماعة الإسلامية وعقيدتها التوحيدية في وجه قوى الشرك والكفر كما كان يحاول أن يستنهض همة " الخليفة" لنصرة أهل الأندلس.**))[2] .

---

(1) ابن الأبار ، الديوان ، 202 ، ص 429 .

(2) ماهر، زهيرجرار ، ابن الأبار الأندلسي الأديب ، الجامعة الأمريكية، بيروت ، أطروحة دكتوراه، مخطوط حزيران 1983 ، ص105 .

صفات الممدوح عند ابن الأبّار:

اهتم النقاد القدامى بالصفات التي أطلقها العرب على الناس استحسانا واستقباحا ، وعُني الشعراء بخاصة بإطلاق صفات معينة ، ونعوت حببوها في ممدوحيهم ، وقد حدّدها ابن طباطبا العلوي : ((**منها في الخَلْق : الجمالُ والبسْطَةُ.**

ومنها في الخُلُق: السخاءُ، والشجاعةُ،والحِلْمُ ، والحَزمُ ، والعزمُ ، والوفاءُ،والعفافُ والبِرُّ والعقلُ والأمانةُ... ، وما يتفرعُ من هذه الخلال التي ذكرناها من قِرَى الأضياف ، وإعطاءِ العُفَاة ، وحمل المغارم ، وقمع الأعداء...))[1].

ولم يكن ابن طباطبا الوحيد الذي أشار إلى هذه النعوت التي درج عليها العرب وصاروا يطلقونها على الناس . فها هو قدامة بن جعفر يورد في نعت المدح فضائل الناس كآدميين مختلفين عن سائر المخلوقات ، والمتميزين بالألباب ، التي كرمهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بها وحصرها في أربع صفاتٍ فقال : ((**إنما هي العقلُ والشجاعةُ والعدلُ والعِفَّةُ**))[2].

واعتبر المادح بهذه الخصال الأربع مصيبا ، وبغيرها مخطئا .

أما ابن رشيق القيرواني ، فقد كنا أشرنا إلى ذلك في مدخل هذا البحث ، وفي ذات الشأن عرفنا كيف بيّن الناقد سبيل الشاعر في المدح ؛ كيفية مدح الملوك والسوقة والكُتَّاب والوزراء والقضاة ومثَّلَ لكل هذه الحالات المتعلقة بهذا الغرض ، كما نبَّه على ما يعاب فيه مع هذه الأصناف من الناس وفئاتها .

والناظر إلى قصيدة المدح عند ابن الأبار يجد ما أشار إليه النقاد القدامى ؛ أي أن الممدوح لدى شاعرنا كان متصفا **بالكرم** [الرمل][3] :

---

(1) ابن طباطبا العلوي ، أبو الحسن محمد بن أحمد ، عيار الشعر ، تح: عبد العزيز ناصر المانع ، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ، دط ، 2005 ، ص 17 .

(2) قدامة بن جعفر، أبو الفرج ، نقد الشعر، تح : كمال مصطفى ، مكتبة الخانجي للطبع والنشر والتوزيع القاهرة ، ط 3 ، 1978 ، ص 65 ـ 66.

(3) ابن الأبار ، الديوان ، ق85 ، ص 187 .

مَلِكٌ يَدْعُو نَدَاهُ الجَفَـــلَى حينَ لا تَدعُو المُلوكُ النَّــقَرَى

....

فَجَّرَتْ يُمْنَاهُ يُنْبوعَ النَّدى فَجَرَى يَرْوِي الصَّدَى ما فَجَّرا

وبالشجاعة [الكامل] (1) :

يَغْشَى الخِطارَ إلى الخطيرِ مِن العُلَى قبلَ الصَّلادِمِ(2) لِلعزائم راكِبا

مُتبَسِّماً يُزْجِي سَحائبَ عِثْــيَرٍ(3) تنــهَلُّ مِنهُنَّ الدِّماءُ سَــواكِبا

وبحامي الدين الإسلامي [الطويل] (4) :

هُو القائمُ المَنْصورُ بالدِّينِ والدُّنَى وصَافيهَا في قومِهِ الصَّفْوَةِ الخُلْصِ

وبالحليم [الكامل] (5) :

مِنْ زَاهِراتِ حُلاَهُ حِلْمٌ بارِزٌ أعْيَا مُعاوية وعِلمٌ بارِعُ

وبشريف الأصل والنسب [الوافر](6) :

إلى الفاروقِ تَنْمِيهِ السَّـجَايَا سَمِيُّ أبيهِ يا لَكَ مِن سَميٍّ

....

ومَا طِيبُ الأُرُومَةِ منهُ بِــدْعًا زكاةُ الفرعِ لِلأصْلِ الزَّكيِّ

---

(1) السابق ، ق20 ، ص 69 .

(2) صِلدم : الأسد أو الفرس الصلب الشديد الحافر. (ينظر: مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، المنجد في اللغة والأعلام ، ص 433.)

(3) عِثْيَر : التراب و العجاج . (ينظر: مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، المنجد في اللغة والأعلام ، ص 487.)

(4) ابن الأبار ، الديوان ، ق159 ، ص 335 .

(5) نفسه ، ق165 ، ص 357 .

(6) نفسه ، ق 202 ، ص426 .

وبالعادل [البسيط][1]:

إلى العَدلِ والإحسَانِ يَهْدِي ويَهْتَدِي فَتَأْتَمُّ بالفاروقِ منهُ ولا فَرْقا

وبالسَّمْح [الطويل][2]:

أميرَ العُلَى أرْجُو ومِثْلُكَ سامِحٌ أميرَ العُلَى أدْعُو ومِثلُكَ سامِعُ

وبالعَفوّ [مُخلّع البسيط][3]:

كُنْ لي شفيعًا إلى إمامٍ ليسَ على فضْلِهِ مَزِيدُ
عادَتُهُ العَفْوُ والمَوالِي تَعْفُو إذَا أخْطَأَ العَبِيـدُ

إلى جانب هذه الصفات ، وظف الشاعر ابن الأبار نعوتا لممدوحيه ، جريا على عادة العرب من مثل : **الأسد ، السيف ، الشمس ، القمر ، البدر، الغيث** ، ...إلى غير ذلك من النعوت التي كان الشاعر يُفضِّل إسباغَها على مَنْ يمدحهم ؛ لنيل مودتهم ، وكسب ثقتهم ، والتقرب إليهم أكثر بخاصة وأن هؤلاء ، الذين يصفهم ، بل يتخير لهم الصفاتِ المناسبةَ هم الذين آووه يومَ طردهُ النصارى عن بلاده ، وقرّبوه ، حفظا لكرامته ـ التي كان عليها ـ في بلنسية الأندلسية ؛ لأنه العالم الشاعر ، الحافظ ، الذي ينبغي إحلاله المكانة التي يستحقها ، ضمن مَنْ وفد إليهم ، وكانوا من وجهاء القوم ، مكانة وعلما .

---

(1) السابق ، ق 177 ، ص 385 .

(2) نفسه ، ق 168 ، ص361 .

(3) نفسه ، ق 73 ، ص 173 .

2 ـ الاستنجاد :

تناول الشعراء الأندلسيون غرض الاستنجاد تناولا جعلهم يتخصصون فيه ، على مدار بقاء الإسلام في الأندلس قرابة ثمانية قرون كاملة . وليس هذا الأمر غريبا ، إذا علمنا أن الحيف الذي طال هؤلاء المسلمين طوال هذه المدة لم يكن بسيطا ، والفقر والتسلط ،الذي أُذيقَه هؤلاء السكان كان مريرا ،والأراضي المسلوبة من أصحابها كانت أمرا فظيعا ، فمست بذلك هذه الأزمة الناحية الإنسانية والاجتماعية والجغرافية والاقتصادية .

فهبَّ الشعراء لأجل إنقاذ ما يمكن إنقاذه مسرعين إلى العدوة الإفريقية ، أين يتواجد إخوان لهم أقوياء في المحن ، أشداء على الكفار ، يَدٌ واحدة من أجل النصر أو الاستشهاد.

وكان لابن الأبار قصيدتان (السينية والهمزية) في الاستصراخ بالأمير الحفصي أبي زكريا الذي قَويَ شأنُه وعظُم أمره ، بعد أن التفت من حوله المدن والقبائل تبايعه في السرّاء والضرّاء ، وحين البأس فازدادت قوته ، وتهيّب العدوُّ جانبه .

وألقى الشاعر بين يدي المستغاث به ما اختار نظمه في مناسبة ليست ككل المناسبات وبعبارة مقنعة ليست كباقي المعاني والعبارات ، فطرب لها الحضور . قال عنها المقري :

((فهزت هذه القصيدة من الملِك عطف ارتياح ، وحركت من جَنانه أخفضَ جناح ولِشغفِه بها وحُسْن موقعها منه أَمَرَ شعراءَ حضرته بمجاوبتها، فجاوبها غيرُ واحد .

وحال العدو بين بلنسية وبينه ، وتعاهد أهلها مع النصراني على أن يُسْلِمَهم في أنفسهم وذلك سَنةَ سبع وثلاثين وستِّمائةٍ ، أعادها الله تعالى للإسلام .)) .[1]

قال الشاعر [البسيط] [2]:

أدْرِكْ بِخيلِـكَ خَـــــيلِ اللهِ أندُسـاَ إنَّ السبيلَ إلى مَنْجَاتِـها دَرَسَـــا

---

(1) المقري التلمساني ، أحمد بن محمد، نفح الطيب تح:إحسان عباس ، دار صادر، دط ،1988،بيروت 4/ 460.

(2) ابن الأبار ، الديوان ، ق185 ، ص 395 .

وَهَبْ لها مَن عزيزِ النصرِ ما الْتَمَسَتْ فلمْ يَزَلْ منكَ عِزُّ النَّصـرِ مُلتَمَسا
و حَاشِ مِمَّا تُعانِيه حُـــــتشَاشَتَـها فطالما ذاقتِ البَلْـوَى صَباحَ مـسَا

قَدِم الشاعر الموفد من قِبل ابن زيان بن مردنيش أمير بلنسية بعد حصارها ، مستنجدا وألقى قصيدة ، لم يستهلها كعادة شعراء العرب ـ وهو الذي لا يخرج عن إطار القصيدة العربية القديمة ـ وإنما بالطلب ؛ ليعرف الحاضرون ، وعلى رأسهم حاكمُهم أبو زكريا أن الأمر لا يحتمل التأخير والتأجيل ، كيف لا وخيول العدو مرابضة على أسوار المدينة يتأهبون للدخول ، ومُنعت على الأهالي الأقواتُ والكُسَى . وبهذا الطلب غير المنتظر ـ على الأقل أمام سلطان الحفصيين ـ يستحثّه بأن يعدّ خيله ، وهي في الحقيقة خيل الله التي تدل على الجهاد في سبيله ـ تعالى ـ ثم ينتقل إلى وصف عامّ لِما يجري في أرض الجزيرة كلها أين يصبح أهلها على المصائب والمحن ، ويمسون على الكوارث والآلام :

يا لَلْجزيرةِ أضحَى أهلُهـا جَـــزراً لِلحادِثاتِ وأمسَى جَدُّها تَـعسا
في كلِّ شـارقةٍ إلمامُ بارقـــــةٍ يَعُودُ مَأتَـمُها عندَ العـِـدى عُرُسا
وكلِّ غاربةٍ إجــحافُ نائـــــبةٍ تَثْني الأمَانَ حِذاراً والسـرورَ أسىَ
تقاسمَ الرومُ لا نالتْ مـقاسِمُهم إلاّ عـقائلَها المحجـوبـةَ الأُنُـسا
وفي بلنسيـةَ منها وقـــرطبـــةٍ ما يَنْسِفُ النفْسَ أومايَنزِفُ النّـفَسَا

ونزعت القصيدة منزعا عميقا،بالعزف على نغمة الوتر الديني،بغية تحريض المستغاث بهم،وتفجير طاقات الحمية في نفوسهم،وأي سطوة أكثر سيطرة على الجوارح من سطوة الدين؟!..حيث يكون الدين الرابط القوي ، الذي يلوذ به كل مَن أراد النجاة .

وحتى يؤدي الشاعر مهمته على أكمل وجه ، وهو الموفَد ، والمعول عليه في إقناع الخليفة الحفصي ، التجأ إلى نقل واقع الأمر ، لَمَّا رسم صورة المدائن التي حلّها الشرك والمشركون فرحين مسرورين ، وغادر الإيمان عبوسا مبتئسا ، وعن طريق المقابلات اللفظية استطاع ابن الأبار أن ينقل الحدث إلى الأسماع، معيدا إليها ماضي الجزيرة السعيد ،وحاضرها في ظل النصارى التعيس

في مقابلة تدمي القلوب ، وتعصر النفس ، وتوقف النَّفَس ، بخاصة حينما يعرض صورة المساجد التي صارت بيعا ، ومآذنها التي كانت تملأها أصوات المؤذنين الجميلة ، قد عُوضت بأجراس ونواقيس صماء ، تملأ الأفق بطنينها:

مدائنٌ حلَّها الإشراكُ مُـبْتَسِـمًا جذْلانَ وارتحَلَ الإيمـانُ مُبتئسـا
وصيَّرتْها العــوادِي العابثاتُ بهـا يسْتوْحِشُ الطَّرْفُ منها ضِعفَ ما أنِسا
فمِن دساكرَ كانتْ دونــها حَرَسًا ومِن كنائسَ كانتْ قبْلَـهاكُنُسـا
يل لَلْمسـاجدِ عادتْ لِلعِدى بِيَعاً والنِّداءِ غـدَا أثناءَها جَـرَسـا

يعرض الشاعر هذه اللوحات من متحف الحقيقة ، متلهفا إلى الأيام الخوالي ، ومتحسرا على ما آلت إليه أرض الإسلام والمسلمين ؛ من مدارس أُغلقت أبوابها ، وحلق العلم عُطِّلت أشغالها وحدائق كانت غنّاءَ ، فيبست أزهارها ، وأشجارها كانت مورقة ، فجفّت واسَّاقطتْ أوراقها :

لهفي عليها إلى استرجاعِ فـائِتِها مَدارسًا لِلمثَاني أصبحـتْ دُرُسا
وأربعًا نَمْنَمَتْ يُمْنى الربيعِ لـهـا ما شِئْتَ مِن خِـلَعٍ مَوشيّـةٍ وكُسَى
كانتْ حدائقَ الأحـداقِ مـؤنِقـةٍ فصوَّحَ النَّضْرُ مِن أدواحِـها وعسَا
وحالَ ما حولها مِن منظـرٍ عَجَـبٍ يسْتَجْلِسُ الرَّكْبَ أو يستركِبُ الجُلُسَا
سُرعانَ ما عاثَ جيشُ الكُفرِ واحَربا عَيْثَ الدَّبَى في معـانيها التي كَبَسـا
وابْـتَزَّ (بزَّتَها مِمَّا تـحيَّفَهـا تَحيُّفَ الأسَدِ الضَّاري لِما افْتَرسـا
فأينَ عيشٌ جـنَيْناهُ بها خَـضِـرا وأينَ غُصْنٌ جَـنيْنـاهُ بها سَـلِسا
محَـا محاسِنَها طاغٍ أُتيـحَ لهـا ما نامَ عن هضْمِـها حِينًـا ولا نَعَسا
و رَجّ أرجاءَها لَـمَّا أحـاطَ بـها فـغادرَ الشُّمَّ مِن أعلامـها خُنُسـا
خلاَ لـه الجوُّ فامتَدَّتْ يـداهُ إلى إدراكِ ما لمْ تَطَـأْ رِجْـلاهُ مُختلِسـا
وأكْثَرَ الزَّعْمَ بالتثلـيثِ مُنفـرِداً و لو رَأَى رَايـةَ التَّـوحيدِ مـا نبسـا

ليصل إلى معاودة الطلب ، الذي بدأ به أبياته ، حاثا المِلِكَ على إيصال حبل المساعدة والرحمة لإخوانه المسلمين ، لِيُحْيِيَ هذه البلدة مثل دعوة المهدي :

صِلْ حبْلَـها أيُّها المولى الرَّحيمُ فما أبْقَى المِراسُ لــهاَ حبْلا ولا مَرسا
و أَحْيِ ما طمَسَتْ مـنهُ العُداةُ كما أحْيَيْتَ مِن دعوةِ المهديِّ ما طُمِســا

....

وابن الأبار حينما يتوجه بهذه العبارات المختارة ؛لأنه ((**علي يقين أن الدولة الحفصية الفتية تتوق إلى أن تحل محل الدولة الموحدية المحتضرة في دورها الدفاعي عن الإسلام والمسلمين . فها قد حانت الفرصة لها لِتبرهن على أنها قادرة عن جدارة على القيام بهذا الدور.**))[1] .

وزيادة للإقناع ، وكسبا للمودة والتعاطف معه ، ذكر ابن الأبار جانبا من الرحلة البحرية التي كانت شاقة من أجل الوصول والامتثال أمام أبي زكريا لعرض قضيته المصيرية والتي تُعدّ في الآن نفسه قضية المستغاث به ، آملا في العودة بما يفرح المنتظرين ، ويقضي على المعتدين.

هَذي وسَائلُها تدْعوكَ مـِن كَثَـــبٍ وأنتَ أفضلُ مَرْجوٍّ لِمَـنْ يئِـــسا
وَافَتْكَ جاريَةٌ بِالنُّـــجْحِ راجِيــــةً مِنكَ الأميرَالرّضى والسَّيِّد النَّدِسا[2]
خاضتْ خُضارةَ[3] **يُعْليها ويُخْفِضُها عُبابُـه فتُعاني اللّيِّنَ والشَّرَسَـــا**
ورُبَّما سبَحَتْ والريحُ عاتـيــــةٌ كما طلبْتَ بأقصى شِدَّةِ الفَرَســا
تَـؤُمُّ يحيَ بْنَ عبدِ الواحدِ بنِ أبـــي حفْـصٍ مُقَبِّلَـةً مِن تُرْبِهِ القُدُســا

ولّما كان موضوع الاستصراخ والاستغاثة مرتبطا برباط متين بغرضي الرثاء والمدح بخاصة كان على الشاعر أن يفيض في مدح المستغاث به ((**وهذه ظاهرة بارزة في شعر الاستصراخ والنجدة**

---

(1) جمعة شيخة ، مجلة دراسات أندلسية ، مطبعة المغاربة للطباعة والنشر والإشهار، تونس ، العدد الثاني 1989 ، ص 45 .

(2) **النّدسا** : الفطن الفهم الكيّس.(ينظر: مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، المنجد في اللغة والأعلام،ص 799).

(3) **خُضارة** : البحر .ينظر :ابن منظور ، لسان العرب ، دار صبح بيروت ، لبنان ،وإديسوفت، الدر البيضاء المغرب ضبط نصه وعلّق حواشيه :خال رشيد القاضي ،ط1 ، 2006 ، 4/ 116 .

فالمقام يتطلب إثارة النخوة والحمية لدى المستغاث به.ولا يكون ذلك بغير هَزِّ أريحيته وبثّ الزهو والخُيَلاَءِ لديه...))[1]، يقول الشاعر :

مِلكٌ تقلَّدتِ الأمــلاكُ طاعَتَــه ... ديناً ودُنـيَا فغشَّها الرِّضى لبِسا

....

يا أيُّها الملِكُ المَنصورُ أنتَ لَــهَا ... عَلْياءُ تُوسِعُ أعْداءَ الهُدى تَــعَسا

وقد تواترتِ الأنبــاءُ أنَّـكَ مَنْ ... يُحْيِ بِقتْلِ ملوكِ الصُّـــفْر أندلُسا

استغرق الشاعر في إسباغ الصفات الجليلة على ممدوحه ثلثَ القصيدة ، أفرغ فيها نعوت الكرم والشجاعة والنخوة ، والتأييد من الله سبحانه وتعالى ، طالما يسعى إلى إعلاء كلمته لدرجة أن جعله مَصُوغا مِن نوركالملائكة ، لا من الطين كباقي البشر ، عندما قال[2] :

مِنْ ساطِعِ النُّورِ صَّاغَ اللهُ جَوْهَـرَهُ ... وصَانَ صِيغَتَهُ أنْ تَقْرُبَ اَنَسَا

في المقطع الأخير ، يعود إلى فعل الأمر ، الذي يؤكد به على ضرورة الإسراع في نجدة الأندلس بما يمكن من وسائل لتطهير البلاد ، وعتق العباد من نجاسة النصارى الأراغونيين فيُقضى عليهم بجيش لأبي زكريا جرّار ، يَدكُّ صروح الظالمين ، ويخلّص عبادا كانوا تحت وطأة المعتدين ، وهنا لا ينسى الإشارة إلى تخليص بلنسية موطنِه ، ومرتعِ صباه من رِبقة هؤلاء العداة.

وحتى لا يُنْهِي الشاعر قصيدته ، وقد بقي في الأمر شيء ، هاهو في آخر بيت يريد أن يفتكَّ من المستغاث به موعدا ؛ لِلقاء البلنسيين المنتظرين أملهم على أحرّ من الجمر من جهة ومن جهة أخرى لِصدِّ العدو في الوقت والمكان القريبيْن كما يتمنى كل أندلسي .

فالشاعر " الرسول " ـ هنا ـ أراد أن يطْمئنّ بنفسه قبل أن يغادر تونس ، حاملا بشارة القائد المخلِّص ؛ لأن الثقة التي وُضعتْ فيه والمسؤولية التي حُمِّلَها كبيرة وخطيرة والنتائج فيهاغير

---

(1) محمد مجيد السعيد ، الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس ، الدار العربية للموسوعات ، بيروت لبنان ، ط 2 ، 1985 ، ص 315 .

(2) ابن الأبار ، الديوان ، ق185 ، ص399 .

مضمونة ، و بخاصة وأن الرسول لم يسبق أن وفد على هذا الملِك الحفصي[البسيط][1] :

طَهِّرْ بلادَكَ منهمْ إنَّهم نَجَسٌ ... ولا طهارةَ ما لَمْ تغسِلِ النَّجَسا
وأوْطِئِ الفيلقَ الجرَّارَ أرضَهمُ ... حتَّى يُطَأْطِئَ رأسًا كُلُّ مَنْ رَأسَا
وانْصُرْ عَبِيداً بأقصَى شرقِها شَرِقَتْ ... عيونُهم أدمُعًا تَهْمِي زَكًا وخَسا[2]
هُمْ شِيعةُالأمرِ وهْيَ الدارُ قد نُهِكَتْ ... دَاءً وما لَم تُباشِرْ حَسْمَهُ انتكَسَا
فَامْلأْ هنيئاً لكَ التمكينُ ساحتَها ... جُرْدًا سَلاَهِبَ أو خَطِّيَةً دُعِسَا
وَاضْرِبْ لَهَا مَوعِدًا بِالفتحِ تَرْقُبُهُ ... لَعَلَّ يومَ الأعادِي قد أَتَى وعَسَا

وأما قصيدة الاستنجاد الثانية فهي هَمْزِيَّةُ ابن الأبار، التي بلغت أبياتها تسعين بيتا نُظِمَتْ تالية لِلسِّينيَّة ، وفي ظرف جديد ، عاشته بلنسية موطنُ الشاعر ، كانت أطول نَفَسًا من الأولى ولعل لذلك أسبابا ، سنحاول أن نتطرق إليها حينما نعرض إلى الأبيات .

قال فيها المقري: ((**ولم يزل أهل الأندلس بعد ظهور النصارى ـ دمرهم الله تعالى ـ على كثير منها يستنهضون عزائم الملوك والسوقة لأخذ الثار ، بالنظم والنثار، فلم ينفعهم ذلك حتى اتسع الخرق ، وأعضل الداءُ أهلَ الغرب والشرق ، فمن القصائد الموجهة في ذلك قول بعضهم لما أُخذت بلنسية يخاطب صاحب إفريقية أبا زكريا بن عبد الواحد بن أبي حفص**))[3] .

وهو بذلك لم ينسبها إلى ابن الأبار((...**قول بعضهم**)) ، وكذلك فعل دارسون آخرون جريا على رأي المقَّري وتأييدا له ، إلا أن محقق ديوان ابن الأبار: عبد السلام الهراس ، الذي قدَّم للباحثين وللمكتبة خدمة جليلة ببعث ديوان الشاعر من رفوف المكتبات ، قد جعلها أولى قصائد الديوان ، على اعتبار حرف الروي (الهمزة) .

أما الطاهر أحمد مكي فقد صرّح في مؤلفه (دراسات أندلسية) بأنه كان مترددا من نسب هذه

---

(1) السابق ، ص 399 ـ 394 .

(2) **زكا وخسا** : أي زوجا وفردا .والعرب تقول للزوج زكًا وللفرد حسًا.ينظر:ابن منظور، لسان العرب 6/ 59.

(3) المقري ، نفح الطيب ، 4/ 479 .

القصيدة الطويلة إلى ابن الأبار ، حتى عثر عليها في خزانة القصر الملكي ضمن ديوانه خلال إحدى زياراته للمغرب(1).

وقارئ هذه القصيدة المطولة ، يلاحظ التقارب الكبير في طرح الموضوعات ، على الرغم من أن الظروف المحيطة مختلفة إلى حد ما ، ذلك أن صورة الممدوح ـ هنا ـ ((**لا تختلف كثيرا عن صورته في القصيدة الأولى، من حيث الصفاتُ التي اجتمعت لها ولكنها تختلف عنها في درجة تلك الصفات وأبعادها؛ بحيث جاء الممدوح في القصيدة الثانية أكثر ضخامة وأقوى جبروتاً مما هو عليه في القصيدة الأولى.**))(2).

وهذا الكلام تترجمه الأبيات التي منها :[الكامل] (3) :

ملِكٌ أَمَدَّ النيّرات بنوره   وأفادَها لألاَؤُهُ لألاَءَهَا

والاستهلال الذي فضّله الشاعر في همزيته لا يختلف عما كان في سينيته ؛لأن الهدف المنشود واحدٌ ، وإن اختلفت ـ بعض الشيء ـ المناسبة ؛ ذلك أن الأولى يستصرخ فيها أبا زكريا قبل سقوط بلنسية ، أما الثانية فقد جاءت بعد سقوطها .

تسليمها بيده ؟!..

ونحن نقول : إن كانت بلنسية قد ضاعت أسباب الحفاظ عليها ، على الرغم من مساعي الاستنجاد بالحفصيين ، فإن الأمل في استرجاعها لا يضيع لطالما أن نية المستغاث بهم كانت خالصة ، ولا يساورها شك ، وما الأسطول الذي عبَر البحر ، وأفرغ حمولته من المؤن والكُسى وعاد بالأموال ؛لأنهم لم يجدوا مَن يستلمها منهم ؛لأنهم كانوا محاصَرين ومضيَّقًا عليهم تضييقا خانقا ، إلا دليل توافر نية المساعدة والإغاثة ، هذا مِن جهة .

---

(1) ينظر : الطاهر أحمد مكي ، دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة ، ص 270 ـ 271 .

(2) الربعي بن سلامة ، أدب المحنة الإسلامية في الأندلس ، جامعة الجزائر ، أطروحة دكتوراه ـ مخطوط ـ 1991 ، 1992 ، ص 116 .

(3) ابن الأبار ، الديوان ، ق1 ، ص 38 .

يُضاف إلى ذلك أن ابن الأبار ، وإن أريد تقييم نجدته الأولى (بسينيته) بالناجحة ، لا يزال في نفسه شيء منها يؤرّقه ، ويعيد سيناريو النكسة التي مُنِيَ بها وطنُه ، لذلك فأمله عاد من جديد ليحقق أحلامه وأحلام البلنسيين ،الذين يَرجُون من الملِك نجدة ثانية ، يرتفع في أرجاء المدينة آذان المساجد ، وتسكت أصوات النواقيس [الكامل] [1] :

نَادَتْكَ أَنْدَلُس فَلَـــبِّ نِـدَاءَهــا   واجْعَلْ طواغِيتَ الصَّليبِ فِداءَها

صَرَخَتْ بِدعْوتِكَ العليةِ فَاحْـبُهَا   مِن عاطِفاتِكَ ما يَـقِي حَوْبـاءَها

واشْدُدْ بِجَلْبِكَ جُرْدَ خيلِكَ أزْرَهَا   تَرْدُدْ على أعقَـــابِها أرْزَاءَهـــا

ويشير الشاعر إلى العلاقة الوطيدة التي تربط الأندلسيين بالعدوة الإفريقية، وبالدولة الحفصية تحديدا ،وما بينهما من ولاء [2] ؛ ليثير همته أكثر، فيقول :

هيَ دَارُكَ القُصْوَى أَوَتْ لإِيـالَةٍ   ضمِنَتْ لها مع نَصْرِها إيوَاءَها

ثم يصف أحوال البلنسيين ، الذين يرفعون أكفّ الضراعة إلى الله لكي يستجيب لدعائهم ويمَكِّن الخليفة من إغاثتهم ، بعد أن فقدوا صبرهم بتسليم مدينتهم ، وهم خائفون على الأندلس برمتها ما لم يسرع إلى إنقاذها :

وبها عبيدُكَ لا بقـاءَ لهم سـوى   سُبُلِ الضّراعةِ يسلُكون سَـواءَها

خَلَعَتْ قلوبُهم هـناكَ عَزاءَهـا   لَمَّا رأتْ أبصـــارُهم مـا سـاءَها

دُفِعُـوا لِأبكـارِ الخطوبِ وعُونِها   فهُمُ الغَدَاةَ يُصـابـرون عـناءَهـا

....

تلكَ الجزيرةُ لا بقاءَ لهـــا إذا   لـم يَضْمَنِ الفتحُ القريبُ بقاءَهـا

رِشْ أيها المولى الرحـيمُ جناحَها   واعـقُدْ بأرشيةِ *النجاةِ رِشاءَها

....

حاشاكَ أن تفنى حُشاشتُها وقد   قَصَـرَتْ عليكَ نداءَهـا ورجاءَها

---

(1) السابق ، ق 1 ، ص33 .

(2) ينظر : ابن الأبار، الديوان : ق 25 ، ص 80 ـ 81 ـ 82 .

طافتْ بطائفة الُهدى آمالُـــها   تَرجُو بِـيحي المرتضى إحيـــاءَهـا
واسْـتَشْرَفَتْ أمصارُها لإمارةٍ   عقدت لِنـصرِ المستضــــامِ لِواءَهـا
يَـا حسرَتي لِعقائلٍ معقـــولةٍ   سئمَ الهـدى نحوَ الضلال هِداءَها

والتأسف على بلنسية " القضية " صار أمرا واقعا ، يؤرق الشاعر ، وهو الذي أمضى بالأمس وثيقة تسليمها إلى الكافر ، صاغرا ، مستضعَفاً ، لذلك نجده في هذه الجولة الثانية طويل النفَس مديد الزفرات ، ساكب العَبَرات على رُبًى خرِبة ، ومدارس كالطلول دوارس ولم يعد يسمع على أغصان أشجارها شدوُ وُرقها ، بعدما عاث فيها العلوج فسادا...وكلها أوصاف حاول من خلالها الشاعر أن ينقل نقلا أمينا لِما جرى ، ويجري فيها. كما يطلب من المستغاث به أن يجرد ظباه لتخليص إخوانه المسلمين ، الذين ينتظرون وصوله بِمَدَدِهِ الذي أَلِف أن ينجد به إخوانه .[1]

وإلى رُبًى وأباطِحٍ لن تَعـــرُ مِـنْ   خلَع الربيعِ مَصيفَهـا وشتاءَهـا
طابَ الُمعَرِّسُ والمقبلُ خلالـــها   وتطلَّعَتْ غُـرَرُ الُمنَى أثـناءَهـا
بِأبي مدارسُ كالطُّـــلولِ دوارسٌ   نَسَخَتْ نواقيسُ الصليبِ نِداءَها
ومصانعُ كسَفَ الضلالُ صباحَها   فَيَخالُهُ الـــرَّائي إليه مســـاءَها
راحَتْ بها الوَرْقاءُ تُسْمِعُ شَدْوَهَا   و غَدَتْ تُرَجِّعُ نَوْحَها وبُكاءَهـا
عجبًا لأهلِ النارِ حلُّـــوا جَنَّةً   منهـا تَمُدُّ عليهُـمُ أفيـــــاءَهـا
أمّا العُلوجُ فقدْ (أحَالُوا حَالَـهَا)   فَمَنِ الُمطيقُ عِلاَجَـها وشِفَاءَها
أَهْوَى إليهَا بالمكارِهِ جَـــارِحٌ   لِلْكُفْـرِ كَرَهَ مَـــاءَهَا وهَـواءَها
وَكَفَى(أسًى أنَّ) الفَواجعَ جَمَّـةٌ   فَـمَتَى يُقَاوِمُ أَسْـوُهَا أَسْـوَاءَهَا
هَيْهَاتَ فِي نَظَرِ الإمَـارةِ كَفُّ مَا   تَخْشَاهُ لَيْتَ الشُّكْرَ كانَ كَفَـاءَهَا
مَـوْلايَ هَاكَ مُـعَــادَةً أنْبَـاءَهَا   لِـتُنِيلَ مِنكَ سَعادَةً أبْــــنَاءَهَا
(جَرِّدْ) ظُبَاكَ لَمِحْـوِ آثَارِ العِدَى   تَـقْتُلْ ضَرَاغِمَهَا وَتَسْبِ ظِبَاءَهَا

(1) السابق ، ق 1 ، ص 34 .

وَاسْتَـدْعِ طَائِفَـةَ الإِمَامِ لِغَزْوِهَا ... تَسْبقْ إلى أمْثَالِهَا اسْــتِــدْعَاءَهَا
لاَ غَرْوَ أنْ يُعْزَى الظُّهُـورُ لِمِلَّـةٍ ... لم يَبْرَحُوا دُونَ الوَرَى ظُهَرَاءَهَا
إِنَّ الأعَـاجِمَ لِلأعَارِبِ نُهْبَـةٌ ... مَهْمَا أَمَرْتَ بِغَزْوِهَـا أحْـياءَهَـا
تَاللهِ لوْ دَبَّتْ (لهَا) دبَـابُـــهَا ... لَطَوَتْ عَليْـهَا أرضَها وسَمَاءَهَا

....

ثم يدعو من خلال الخليفة كلَّ المسلمين ، ضاربا مِن جديد على الوتر الديني ، الذي لابد أن يفعل فعلته في النفوس ولو كانت كالحجارة ، أو أشد قسوة ،ومهوِّلاً من الأوضاع المزرية التي آلَ إليها الناس وأمام ظهرانيهم عدوٌ متربص بهم في كل حين ، وداعيا إلى الجهاد والترغيب فيه بذكر ما أعدَّه الله للمجاهدين من أجر وثواب وخلود :

(هَـبُّوا لهَا يَا مَعشـرَ التَّوحِيدِ قَدْ ... آنَ الهُبُوبُ وَأَحْرِزُوا عَلْيَـاءَهَا)
أَوْلُواالجَزِيرَةَ نُصْرَـــةً إنَّ العِدَى ... تَبْغِي عَلى أَقْطارِهَا اسْتِيــلاَءَهَا
نُقِصَتْ بِأهلِ الشِّرْكِ مِنْ أطرَافِهَا ... فَاسْتَحْفِظُوا بِالمؤْمِنينَ بَقَــاءَهَـا
حَاشاكُمْ أنْ تُظْـــهِرُوا إِلْقَاءَهَا ... في أزْمَةٍ أوْ تُضْمِرُوا إقصَــاءَهَـا
خُوضُوا إليْهَا بَحْرَهَا يُصْبِحْ لَكُمْ ... رَهْوًا وجُـوبُوا (نَحْوَهَا) بَيْدَاءَهَا
وَافَى الصَّرِيخُ مُثَــوِّباً يَدْعُو لهَا ... مَنْ يَصْطَفِي قَصْدَ الثَّوَابِ ثَوَاءَهَا
دَارُ الجهادِ فَلاَ تَفُتْكُمْ سَــاحَةٌ ... سَاوَتْ بِـهَا أحْيَاؤُهَا شُهَـدَاءَهَـا
هَذِي رَسَائِلُهَا تُنَــاجِي بِالَّتي ... وَقَفَتْ عليهَا رَيْثَـهَا ونَجَاءَ هَـا

....

ولم يغفل الشاعر تذكير الخليفة بدعوته إلى الخروج بنفسه على رأس جيش ، يتوجه به إلى الأندلس التي تنتظره ، وتتشوق إلى رؤيته ، كما يحب هو نفسه لقاءها :

بُـشْرَى لِأَنْدلُسٍ تُحِبُّ لِقاءَهُ ... ويُحِبُّ في ذَاتِ الإلَهِ لِـقَاءَهَـا

إذ يُعد هذا البيت دعوة صريحة ، وغيرَ مُعلنة من قبلُ .

ثم يختتمُ مطولته بتقديم الاعتذار بكل تواضع أمام المستغاث به ؛ لأن آلاءه لا تُعد ولا تُحصَى آملا في الصفح عن الزلاّت ، والتجاوز عن الهفوات ، فالقوافي تعجز عن إيلاء هذه النعم حقها:

صَفْحًا جَمِيلاً أيُّهَا المَلِكُ الرَّضِيُّ — عَنْ مُحْكَمَاتٍ لم نُطِقْ إِحْصَاءَهَا

تَقِفُ القَوَافِي دُونَهُنَّ حَسِيرَةً — لاَ عِيَّــهَا تُخْفِي وَلاَ إِعْيَاءَهَا

فَلَعَلَّ عَلْياكُمْ تُسَامِحُ رَاجِيًا — إِصْــغَاءَهَا و مُؤَمِّلاً إِغْـضَاءَهَا

وبعد هذه الجولة مع قصيدة الاستصراخ (السينية والهمزية) ، يمكن أن نقف على حقائق لا يختلف حولها اثنان ، وأهمها :

ـ أن عاطفة الشاعر كانت صادقة ، ولا يمكن إلا أن تكون كذلك ؛ لسبب بسيط ألا وهو أن حصار بلنسية ، الذي كان قائما ، بلغ حالُ الأهالي أثناءه أن أكلوا الجلود والزقوق فخارت قواهم من شدة الجوع ،الذي أحكم قبضته .

ـ أن نفَسَ ابن الأبار كان فيهما طويلا ؛ إذ بلغت " **السينية** " سبعةً وستين بيتا، بينما بلغت " **الهمزية** " تسعين بيتا ، أفرغ ابن الأبار المكلوم في أبياتهما دموعا حارة ، جاءت في أفكار مرتبة ونظْم محكمٍ ، باستثناء بعض الصنعة البديعية ، التي زيّن بها الشاعر كلامه ، مع تسجيل اختلاف وتباين لِمَنْ سبقه وبكوا أوطانهم ،واصفين ما دَرَسَ من الممالك والديار كابن عبدون في رثاء بني الأفطس(1)، أو لِمَنْ جعلوا الغزوَ عقابا لأهلها على معاصيهم التي اقترفوها كما فعَلَ راثي طيطلة(2)

(1) يقول الكتبي ؛ صاحب " فوات الوفيات " : ((عبد المجيد بن عبدون ، أبو محمد الفهري ، روَى عن أبي عاصم ابن أيوب وأبي مروان بن سراج والأعلم الشنتمري ، توفي سنة عشرين وخمسمائة ، رحمه الله تعالى وكان أديبا شاعرا كاتبا مترسلا ، عالما بالخبر والأثر ومعاني الحديث ، أخذ الناسُ عنه ، وله مصنف في الانتصار لأبي عبيد على ابن قتيبة . ومن شعره قصيدته الرائية التي رثَى بها ملوك بني الأفطس وذكر فيها مَن أباده الحدثان مِن ملوك كل زمان وهي: **الدهرُ يفجع بعد العين بالأثر فما البكاء على الأشباح والصور**)) .
(ينظر: الكتبي، فوات الوفيات، 3/ 404 ـ 405) .

(2) ينظر : المقري ، نفح الطيب ، 4/ 483 .ومن ذلك قول بعضهم يندب طليطلة :

لِثُكلِكِ كيفَ تبْتَسِمُ الثُّغُورُ — سُروراً بعدما سُبِيَتْ ثُغُورُ

=

والوقشي في رثاء بلنسية أيام السيد [1].

ـ أن الأفكار كانت في كلتا القصيدتين متشابهةً ؛ لأن المناسبة واحدة ، والمصيبة المستغاث إليها أيضا كانت من أجل بلنسية موطن الشاعر بخاصة ، وللأندلس بعامة . بل قد يكون ابن الأبار اعتمد في الهمزية على الأولى (السينية) في ذلك .

ـ أن بناء القصيدتين يكاد يكون نفسه .

=

أما وأبي مُصابٌ هُدَّ مـنه ثَبيرُ الدِّينِ فاتصلَ الثّبـور

(1) **الوقشي** : العلامة البحر ذو الفنون أبو الوليد هشام بن أحمد بن خالد بن سعيد الكناني الأندلسي الطليطلي عُرف بالوَقَّشي ، و وقّش :قرية على بريد من طُليطلة. مولده سنة ثمان وأربع مئة . قيل عنه : هو من أعلم الناس بالنحو واللغة ومعاني الشعر والبلاغة ، بليغ ، شاعر ، حافظ للسنن وأسماء الرجال...

(ينظر ، الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ، سير أعلام النبلاء ، حققه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه : شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة بيروت ، ط1 ، 1984 ، 19/ 134 .

3 ـ الاستعطاف (والاستشفاع) :

إن شعر الاستعطاف (الاستشفاع) في ديوان الشاعر ابن الأبار ، قد أخذ نصيبا من حيزه لتعرّضه للإبعاد أكثر من مرة ؛ لأنه أَغْضَبَ بِقَصْد ، أو بغير قصد السلطان أبا زكريا الحفصي . ويجب لفت الانتباه ـ هنا ـ إلى أننا اقتصرنا في هذا اللون الشعري على الحياة السياسية ، التي وسمت معيشة الشاعر ، دون التطرق إلى الحياة العاطفية ، التي أفردنا لها فصلا مستقلا لنقف على هيام ابن الأبار ، وحالات استعطافه لمحبوبه ، وهذا جانب آخر نظَم فيه شعراء ـ قبل ابن الأبار ـ قصائدَ متعددةً ، يبثون فيها لواعج الحب ، وفرط الصبابة في قالب استعطافي ليرق قلبُ المحبوب المستعطَف ، ويلين فؤاده ، مذكرا إياه بالأيام السعيدة الخوالي واللحظات الهنيئة ، التي كان ينعم فيها بوصالها ، راجيا في الأخير أن تعود إليه وتخلّصه من عناء البعد وألم الفراق .

ولم يكن السلطان يأمر برحيل المغضوب عليه دائما ، بل كان أحيانا يحرمه من الامتيازات التي كان غيره من المقربين يتمتع بها . ولنا أن نتصور حال الشاعر ، الذي لا يملك بين يديه حرفة إلا قرض الشعر في قصور الأمراء والسلاطين .

وفي موقف ـ كالعادة ـ لا يُحسَدُ عليه يتوجه إلى ولي العهد ليستشفع له أباه الحاكم الغاضب على الشاعر، معترفا صراحة بخطئه الذي لن يعود إليه ، ومعتبرا أن الموت في أرضهم خلود له ويكفيه رضاه وعفوه عنه ؛ لأنه أَلِفَه عَفُوًّا ، وحاكما، شيمتُه الصفحُ عن المخطئين .

قال [مخلع البسيط] [1] :

مَولايَ دانَتْ لكَ السّعود — أخطَأْتُ أخطاْتُ لا أعُودُ

ما لِي بَراحٌ ولا انتــــزاحٌ — مَوْتِي في أرضِــكُم خلـودُ

كُنْ لي شَفيعًا إلى إمـــامٍ — ليسَ على فضْلِــهِ مَزيــدُ

عــادتُهُ العفوُ والمَــــوالي — تَعْفُو إذاَ أخْطأَ الــعَبيــدُ

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق 123 ، ص 274.

وفي معاني الاستشفاع ذاتها، من أبي زكريا ، يرفع إليه خطابا آخر يسترضيه ، بعد أن وصل به الأمر إلى أسوإ حال ،آيبًا ، تائبا ، راجيا عفو (مولاه) السلطان ، الذي عهده رحيما برعيته سمْحا . **((فصدر ما أثلج الصدر من إعفاء، وظهر إبقاء أوفى على الأمل أيَّ إيفاء ، ثم في صبيحة اليوم الثالث هجَم عليَّ الكارب الكارث ، أُصَيَّرُ إلى الإقصاء من التقريب ، وأُخيَّر بين التشريق والتغريب ،..شرعت في المسير، وضرعت إلى الله في التيسير،جاليا للجلاء والرحيل أوجها تصلاه وتاليا من محكم التنزيل ((لاتقنَطُوا مِن رحمةِ الله)) وحَسْبِي السَّمِيعُ والبَصِيرُ((نِعْمَ المولَى ونِعمَ النَّصِير))... وخلال ذلك من حسن الظن بالخلال الكرام ما حمل على أن قلْتُ في بدء الحال مرتقبا خفايا الألطاف ومقتربا بهدايا الاستعطاف،لاتضاح دليل الحدب ونجاح رسائل الأدب))**[1] فقال أيضا : [الكامل] [2]:

لِمُبَشِّري بِرضاكَ أنْ يتحَــكَّما ... لا المالَ أَسْتَثْنِي عليهِ ولا الدَّما

....

نَدَمِي عَلَى مَا نَدَّ مِنِّي دائـــمٌ ... وعلامَـــةُ الأَوَّابِ أنْ يتَنَدَّ مـا

يا طُولَ بُؤْسِي مُبْسَلاًبِجريرةٍ ... إِنْ لَمْ تُجْزِنِي بالتَّجاوُزِ مُنْعِـــــــما

مَولايَ رُحْماكَ التي عَــوَّدْتَني ... إِنِّي اعْتَمَدْتُكَ خاضِــعًامُسْتَرْحِما

فَأحَقُّ مَنْ تُولِي الإقالَةَ عاثِرٌ ... لم يسْتَحِبَّ عَلى الهُدَى قَطُّ العَمَى

....

مَولايَ عبدُكَ ما لهُ مِن مَعْدِلٍ ... (عن دارِ) عدْلِكَ مُنذُ حَلَّ وخيَّما

وفي ذات السياق ، وبعد مقدمة ، بيّن فيها الشاعر تسليمه للأقدار، التي تفعل فعلتها معه مُشرَّقا تارة ، ومُغرَّبا أخرى ، فقـلْـبُه أثقله اللوم ، وصار مُذنبا حتى وإن لم يفعل شيئا ، ينتقل إلى وصف أحوال أبنائه ، الذين هدَّهم الجوع ، وتمكن منهم العُري ، فحينما تنظر إليهم تحسبهم حماما يغرد

---

(1) ابن الأبار ، إعتاب الكتاب ، ص251 ـ 252 .

(2) ابن الأبار ، الديوان ، ق 123 ، ص 274 .

على الأفنان ـ لا طربا ولكن حسرة وحاجة ـ .

وكأن بالشاعر هنا يعيد صورة أطفال الحطيئة لمّا أُلقي بأبيهم في قعر مظلمة ، في إحدى سجون عمر بن الخطاب . يقول ابن الأبار[الطويل][1] :

ولولاَ أُطَيْفَالٌ طَواهمْ طواهُمُ — فَأَعْظُمُ ما يبقَى جُلُودٌ وأعْظُمُ

أَسَا في الأَسَى عادتهم والدتهم — فَمَا مِنهم إلاَّ يتيمٌ وأَيِّـــــمُ

هُمُ أَبَدًا هَـمِّي ، فَلَيْلِي أَلْيَـــلُ — بِمَعْجِزَتِي عنهم ويوميَ أَيْوَمُ

جوانحُهمْ تذْكُو لهيبًا وتَلْتَظي — وأعيُنُهم تَهْمِي نجيعاًوتَسْجُمُ

تَخَالُهم في شَجْوِهم وانتحابِهم — حَمَامًا على أفْنَانِها تَتَـــرَنَّم

إنَّ الناظر في أشعار الاستشفاع، التي نظمها ابن الأبار- وقد وردت في مؤلَّفِهِ (إعتاب الكُتَّاب)[2] ـ يتبين أنها تعود في مجملها إلى حدّة في الطباع والخُلق ، وكان قد أشار إلى ذلك كُلٌّ مِن ابن خلدون في مقدمته الذي قال عنه : ، يقول ابن خلدون عن بأوه: ((**وكان في ابن الأبار أَنَفَةٌ وبَأْوٌ**[3] **وضيقُ خُلق ، فكان يُزري على المستنصر في مباحثه ويستقصره في مداركه فخشن له صدره مع ما كان يسخط به السلطان من تفضيل الأندلس وولايتها عليه.))** .[1]

---

(1) السابق ، ص258 ـ 259 .

(2) ألّف ابن الأبار **(إعتاب الكُتَّاب)** ليقدمه إلى السلطان الحفصي ، وكان ذلك في حياة ولده أبي يحي ولي العهد.والغاية من تأليفه هو بيان صريح للسلطان أمثلة عن حِلم الملوك وعفوهم عن أخطاء كُتَّبهم، فبحث عن هذه الأمثلة في تراجم كتاب الشرق والغرب الإسلاميين ، ومن هنا كان الكتاب ـ في هيكله العام ـ تراجم مختصرة لهؤلاء الكتاب وأخطائهم، عفوسادتهم عنها.قسم صالح الأشتر محقق الكتاب المؤلَّف إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول : مقدمة المؤلف وفيها موضوع الكِتاب والغرض منه. وأما القسم الثاني : تراجم خمسة وسبعين كاتبا(كُتَّاب مشارقة وكُتَّاب الغرب الإسلامي)، تختلف طولا وقصرا.أما القسم الثالث : فهو عبارة عن خاتمة المؤلف ، يعلن فيها الكاتب غايته من تقديم مؤلَّفه إلى السلطان أبي زكريا.ثم ينهي الخاتمة بإيراد عدة قصائد فيمديح السلطان ، و وليّ عهده ، والاعتذاروالحمد.(ينظر:إعتاب الكُتّاب لابن الأبار ، تحقيق وتعليق وتقديم صالح الأشتر،دار الأوزاعي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط2 1986 ، ص24...38).

(3) **البَأْو** :الكِبْر والفخر . (ينظر ابن منظور ، اللسان ،1/ 288 .) .

والمقري ،الذي يقول في نفحه ،ناقلا عن ابن سعيد المغربي من "القدح المعلى":((...**إلا أن أخلاقه لم تُعِنه على الوفاء بأسباب الخدمة ، فقلصت عنه تلك النعمة ، وأخر عن تلك العناية..))**.(2)

يضاف إلى ذلك نشاط ابن الأبار لدى العائلة الحفصية ، وأشعاره التي كان يُدَبِّجُهَا كل مرة في وصف منشآتهم العمرانية ـ بخاصة أعمال وإصلاحات المستنصر ـ فحظي بذلك بمكانة مرموقة لديهم ، على الرغم من لحظات الفتور التي وسمتْ علاقته بهم . فكان من الطبيعى ـ على رجل وافد ـ أن يَكْـثُرَ حُسّادُه ، الذين كان في مقدمتهم الوزير ابن أبي الحسين (3)وكان من ألد أعدائه الحاقدين عليه.

إنّ استقراءً بسيطا للشعر العربي في الأندلس ، يبين مدى انغماس الشاعر الأندلسي في طبيعة بلاده الخلابة ، الفاتنة ؛لأن طبيعة هذا البلد لها من الجمال والأسر ، ما جعلت الشعراء يهيمون في حبها ، ويسترسلون في وصفها ، وهم في كل ذلك يعبّرون عن هيامهم بها وعشقهم لأرضها وسمائها ، ...نُور شمسها ونَوْر بساتينها ؛ لذلك كانت الزهور والورود هي من أهم موضوعات ابن الأبار .

وبالرجوع إلى ديوان الشاعر ، نجد أن نسبة الوصف قد احتلت المركز الثاني ، بنسبة بلغت 14.28 ٪ بخمس وثلاثين قصيدة ، من مجموع خمسٍ وأربعين ومائتي قصيدة ،بعد مدائحه ـ كما

=

(1) ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، 6/ 419 .

(2) المقري ، نفح الطيب ، 3/ 304 .

(3) وكان سبب حقد هذا الوزير على ابن الأبار يعود إلى فترة نزول الشاعر بأسطول من بلنسية إلى بنزرت وخاطب ابن أبي الحسين بغرض رسالته ، ووصف أباه في عنوان مكتوبه بالمرحوم ، ونُبه على ذلك فاستضحك وقال: إن أبا لا تعرف حياته من موته لأَبٌ خامل ! ونُميت إلى الوزير فأسرّها في نفسه وراح يكيد له المكائد. (ينظر: ابن خلدون عبد الرحمن، ديوان المبتدإ والخبر في تاريخ العرب والبربرومَنْ عاصرهم مِن ذوي الشأن الأكبر ضبط المتن ووضع الحواشي والفهرس:خليل شحادة ،مراجعة:سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، لبنان دط2000 ، 2001 ، 6/ 419 .

عرفنا ـ ومن هذه الأوصاف كانت المائيات ؛ أنهارا وغدرانا ، تشقها جداولُ ودواليبُ تسقي النبات ، وأزهارا و ورودا تملأ البساتين ، وتحيط بالقصور.

كما أن غرض الوصف في شعر ابن الأبار كان حاضرا مع باقي الأغراض الأخرى ؛ من مدح و وصف ، وأشواق وسهر ليل ...

وقد وردت في قصائدَ طويلةٍ، وفي مقطوعات ونُتَفٍ ، بحسب المناسبة ، والظرف الذي قيلت فيه هذه القصيدة أو الأخرى ، وكان لكل شكل أسبابه وخلفياته ؛ منها كثرة الموصوف وتعدده وتنوعه ، أوكثرة الواصفين والوصّافين ، بالإضافة إلى تنوع المواقف وتباينها على مستوى الشاعر الواحد ، أو مع شعراء متعددين .

ويتناول من مجال الطبيعة موصوفاتٍ متنوعةً ؛ من وصف المائيات ، التي كانت تنساب بين الحقول والمزارع ، و الورود والأزهار والرياض المنبسطة ، إلى موصوفات أخرى مختلفة:

الفصل الثاني

الوصـــــــــف

1 –وصف المائيات:

2 – وصف الورود والأزهار والرياض.

3 – موصوفات أخرى.

1 ـ وصف المائيات :

لقد حَبَا الله تعالى أرض الأندلس بطبيعة خلابة ، تنتشر على مساحاتها البُسطُ الخَضِرة تنساب وسطَها جداولُ وغدرانٌ ، تلتقي في النهاية مع أنهار رقراقة .

وافتتن الشعراء بهذه المناظر الطبيعية ، وتغنوا بها واندمجوا معها أي اندماج. وكان الماءُ مصدرُ هذه النعم من أكثر الموجودات التي كتب فيها الأدباء ، ونظَم على ألوانها وعطرها الشعراء واصفين أصولها ، وانسيابها ، وأدواتها التي تُسقى بها الحقولُ والبساتين.

فمن هذه الأوصاف قول ابن الأبار في نهرٍ [مجزوء الكامل] [1] :

لِلّهِ نهْــرٌ كـالْحُبَـــاب ... تَرْقِيشُـهُ سـامِي الحَبَـاب[2]

يَصِفُ السَّماءَ صَفا(ؤُ)هُ ... فَحَصَاهُ لَيْسَ بِذِي احتِجَاب

وكأنَّــما هو رقَّـــــة ... مِن خالِصِ الوَرِقِ[3] المُـذَاب

غازَلْتُ في شَطّيْـــهِ أبْـ ... ـكَارَ المُنَى عَصْـرَ الشّبـاب

والظِّلُّ يبْدُو فَـوقَـــهُ ... كالخَـالِ في خَــدِّ الكَـعَاب

وقال أيضا [الطويل][4] :

وَمَنْبَعِ سَلْسَالٍ حَبَاهُ بِطِيبِهِ ... أغَـرُّ لِغاياتِ الأُلَى هـو ســـابِقُ

تَلاَقَى انْهِلاَلٌ منهُما وتَهَلُّلٌ ... فَيَا قُرْبَ ما لاَحَ العُذَيْبُ وبارِقُ

والمتمعن في هذه الأبيات ، يلاحظ أنها لا تخرج ـ في عمومها ـ عن أشعار الأندلسيين كالرصافي البلنسي[5]

---

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق36 ، ص 94 .

(2) **الحُباب** :الحيّة . **الحَباب** : الطرائق التي في الماء ، كأنه الوشي .(ينظر :ابن منظور،اللسان ، 3/ 9 .).

(3) **الورِق** : الدراهم المضروبة .(ينظر : ابن منظور ، اللسان ، 15/ 265) .

(4) ابن الأبار ، الديوان ، ق 184 ، ص 393 .

(5) **الرصافي**:هو أبو عبد الله محمد بن غالب الرصافي ، من رصافة بلنسية ، وهي بساتين بخارجها.هو جملة من الشعراء الذينأنشدوا عبد المومن حين جاز الأندلس.وسُمي بالرَّفّاء ؛لأنها مهنته ، والرّصافي نسبةإلى رصافة بلنسية، التي ولد فيها ،ثم خرج منها صغيرا ،وسكن مالقة .وفي المشرق أكثر من رصافة ؛ واشتهر في =

وابن خفاجة [1]، وابن الزقاق [2] في مثل هذه الموضوعات ؛ إذ أنهم شبهوا النهر بالحُباب (الأفعى) أو بالسيف، وبالورِق وبسبائكها ، وبالخال ، أو بإعطائها صورة السماء أو المجرّة .. وكذلك فعل ابن الأبار في هذه الأبيات ؛ إذ ينقل لنا صورته في تكسّر صفحة مائه كثعبان أو أفعى في ترقيشها ولون جلدها ، أو فضة خالصة في ذوبانها أو خالٍ في خد امرأة زادها حسنا وجمالا.

وكان يرمز إلى النهر بالمرأة ؛ مصدر النمو والعطاء ، ومعها يلتقي النهر الذي يُحيي موات الأرض، ويبعث النماء ، وينشر الطمأنينة .

ولعل الشاعر ـ هنا ـ يعود مع الماء إلى أيام الصبا و(عصر الشباب) ،أين كان متمتعا بالرصافة (بلنسية) ، يجوب بين منتزهاتها ،ويتفيأ ظلال أشجارها ،أيامَ كان قُرْبَ حبيبه يتعاطيان كأس الود

الأندلس رصافة قرطبة ورصافة بلنسية ، وقيل هي بين بلنسية والبحر. وتنقل في الأندلس والمغرب.اتصل بعبد المومن بن علي وأنشده قصيدة في جملة الشعراء الذين استقبلوه عند جبل طارق(الفتح) لكنه انقطع عن التكسب بالشعر ،واكتفى بمهنته وعمله.وكانت وفاته سنة 572 بمالقة ويقدر إحسان عباس في مقدمة ديوانه أن ولادته كانت نحو 536هـ .(ينظر أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد الأندلسي رايات المبرزين وغايات المميزين ، حققه وعلّق عليه :محمد رضوان الداية ، دار طلاس للدراسات و الترجمة والنشر ، ط1 ، 1987 ، ص 211 .) .

(1) **ابن خفاجة**(450 ـ 533هـ/ 1058 ـ 1138م): إبراهيم بن أبي الفتح بن خفاجة الهواري الأندلسي: شاعر غزل ،من الكتاب البلغاء . غلب على شعره وصف الرياض ومظاهر الطبيعة.وهو من أهل جزيرة "شقر".له ديوان شعر.(ينظر:الزركلي،خير الدين ،الأعلام،قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ،دار العلم للملايين،بيروت،لبنان،ط15 ،2006 ، 1/ 57).

(2) **ابن الزقاق** : هو علي بن عطيةبن مطرف ، أبو الحسن اللخمي البلنسي ، الشاعر المشهور، وهو شاعر بليغ أخذ عن ابن السيد البطليوسي وبرع في الآداب ، وتقدم في صناعة الشعر ، وامتدح الكبار ، ودون شعره في ديوان..توفي في حدود الثلاثين وخمسمائة ،ولم يبلغ أربعين سنة. (ينظر : ابن دحية ، المطرب في أشعارأهل المغرب دار العلم للجميع ، سوريا ، مطبعة الأميرية تحقيق: إبراهيم الأبياري وحامد عبد المجيد وأحمد أحمد بدوي ، راجعه: طه حسين ، دط ، 1955،ص100 وما بعدها .) .و (محمد بن شاكر الكتبي ، فوات الوفيات والذيل عليها، دار صادر ، بيروت ، لبنان ،إعداد الفهارس وداد القاضي وآخرون تحقيق : إحسان عباس ، المجلد الثالث ، دط ، 1974 ، ص 47 ، وما بعدها .) .

والصفاء .

كما قال يصف نهرا ، فاءَ عليه ظِلُّ الدوح [الطويل] (1) :

وَنَــهْرٍ كَمَـا ذابَتْ سبـائِكُ فِضَّةٍ — حَكَـتْ بِمَحَانِيهِ انْعِطَافَ الأراقِمِ
إذا الشَّفَــقُ اسْتَولَى عليهِ احمراره — تَبَدَّى خَضِيـبًا مِثْلَ دَامِ الصَّوارِمِ
وتَحْسِبُـهُ سُنَّتْ عليهِ مُـفَـاضَـةً — لإِرْهَابِ هَـبَّاتِ الرّياحِ النَّواسِمِ
وتَطْلَعُـهُ فِي دُكْنَةٍ بعدَ زُرْقـــــةٍ — ظلالٌ لأَدْواحٍ عليـهِ نَواعِـــــم
كما انْفَجَرَ الفجْرُ المُطِلُّ على الدُّجَى — ومِن دُونِهِ في الأُفْقِ سَحْمُ الغَمائِم

وإلى جانب التشبيهات التي تطرقنا إليها في الأبيات السابقة ، هاهو الشاعر يجمعنا إلى نهره الذي تلتقي فيه ظواهر طبيعية متنوعة ؛ ومنها الشفق واحمراره ، الذي يربطه بالسيوف الملطخة دماءً ، والجديد ـ هنا ـ هو إضافة نزف الجرح ، وهي صورة مستوحاة من قلب المعارك ، التي يظل يتشوق إليها ، حتى يتحقق حلمه ؛ فيحمل المسلمون على الكافرين حملة تقضي عليهم وتعيد المُهَجَّرين إلى أوطانهم، التي حنُّوا إليها .لذلك كان ربط احمرار الشفق بالدماء تارة وبالخضاب أخرى نغمة طالما ردّدها ابن الأبار.

والشاعر ـ دوما ـ في صراع مع غيره ؛ لأنه تغرّب أو غُرِّب من ساحة الحياة التي يحياها بين أهله ـ في أول الأمر ـ وهو غريب عنهم ؛لأنه يرى ما لا يرون ويستوعب ما لا يستوعبون فهو الشاعر، العالم الفقيه، المؤرخ ..

والمناسبة التي قال بشأنها هذه المقطوعة ، هي منظرُ نهرٍ فَاءَ عليه ظلُّ الدَّوْح ، الذي حلّ عليه بصفحته ، كما يحل الفجر بقوة فيطرد الدجى، فأعطى هذا المنظر انطباعا لدى الشاعر جميلا .

وقدرة ابن الأبار تبرز في تمكنه من جمع كل هذه الصور: (فضة ، الأراقم ، الصوارم الرياح الظلال ،الفجر والدجى) والألوان (الحمرة والدكنة والزرقة) على صفحة نهره .

وفي الجمع دلالة على التنفيس مما يكابده ، وحياة التناقض التي يحياها.

---

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ص 291 ـ292 .

كما كلِف الشاعر بوصف الدولاب ؛ وهو ظاهرة حضارية ، يُصنعُ لأجل ريّ البساتين والحدائق . ولم يكن ابن الأبار الوحيد الذي اعتنى بهذه الآلة ، وإنما سبقه إليها شعراء كالرصافي البلنسي ، الذي يقول [1]:

وذِي حنينٍ يكَادُ شَــجْــواً ... يختلسُ الأنفسَ اختلاســا

إذَا غَدَا لِلـــرِّياضِ جـــاراً ... قال لهل المحلّ: لا مساسـا

تبسّم الزهــرُ حينَ يبـــكي ... بِأدْمُعٍ مــــا رَأينَ بَاســا

مِن كلِّ جَفنٍ يسلُّ ســيفا ... صارَ لـــهَا غمــــدُه رئاسا

أما ابن الأبار فيقول[2] :

يا حَبَّـذَا بِحديقَــــةٍ دولابُ ... سَكَنَتْ إلى حركاتِه الألبابُ

غَنَّى ولم يَطرَبْ وسَقَى وهوَ لمْ ... يَشْرَبْ ومنهُ اللّحنُ والأكوابُ

لَوْ يَدَّعِي لُطْفَ الهَواءِ أو الهَوَى ... ما كُنتَ في تَصْدِيقــهِ تَـرْتَـابُ

لِلعُــودِ مَحْتِدُهُ ومِلْءُ ضُلوعــهِ ... لإغاثَةِ الشَّجَرِ اللّهيفِ ربابُ

كأنّه مِمَّا تَرَنَّـمَ مــاجـــــنٌ ... وكأنّه مِـــمّا بَـكَــــى أوّابُ

وكأنّه بِـــنـــثَارِه ومــــدارِهِ ... فَـــلَكٌ كواكبُهُ لَهَا أذنــــابُ

وقال [الطويل][3] :

بنَاتُ الرّياضِ العِينُ مِنْ أَخَواتِهَا ... فَتبْكِي عَلَيْهَا بِالدُّمُوعِ السَّواكِبِ

وتجعلُ تَرْدَادَ الحنينِ لأَصْلِــها ... دلالَةَ طِيبِ المُنْتَمَى والضَّــرَائِبِ

فَإنْ يَكُ لِلماءِ السُّلاسِلِ رُوحُها ... فجُثْمانُها في الدَّوْحِ عالِي المَنَاسِبِ

كان الأندلسيون معتادين على الخروج إلى المنتزهات متى سمحت لهم الفرصة ، أو متى رأوا ضرورة لذلك ؛ للترويح عن النفس ، والتمتع بمرأى الطبيعة الساحرة ، وتنسم عبير أزهارها

---

(1) الرصافي ، ديوان الرصافي البلنسي ، جمعه :إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، دط ، 1960 ، ص 102 .

(2) ابن الأبار ، الديوان ، ق15 ، ص 65 .

(3) نفسه ، ق 14 ، ص 63 .

وشذى ورودها ، كل ذلك ما كان ليكتمل إلا بسريان الماء وسط الرياض والبساتين والذي كان يجلب بطريق الدولاب . وكان لمرأى هذه الآلة الحديثة وقعٌ خاص على نفوس الشعراء يبعث فيها الراحة والأمان .

والدولاب عند الشاعر كالباكي الذي يذرف الدموع ، لكن في بكائه بعث حياة في النبات فهو يُغَنِّي ، لكنه لا يطرب ، ويسقي ولكنه لا يشرب .

والدولاب رمز للحياة والحركة التي لا تتوقف ، ورمز للخصب والنماء ، والشاعر معه يأمل في حياة غير التي يحياها ، وأيامٍ غير التي يعيشها ، فهو إن فَقَد السعادة الآن ، فهو لن يفقد الأمل الذي يعيد إلى الجميع بسمتهم في (رصافتهم) غدا ، وهو غير يائس مادام الدولاب في حركة دائرية دوما .

فالشاعر لا يقف عند شكله ومظهره الخارجي ، وإنما أثارَه صوتُه ، وحركته وجريانُ مائه ((**ثم توسعتْ رُؤْياه وانسحبت على الرياض والأزهار، موجدة تجاذباً وترابطا بين الدولاب والنبات**)).[1] واندمج الشاعر مع الدولاب يسمع شجوه فيطرب ، ويصغي إلى أنينه فيشدو ويسرّي عن نفسه ، بعد أن يطارح كل منهما الآخر آلامه وآماله .

(1) محمد مجيد السعيد ، الشعر في ظل المرابطين والموحدين بالأندلس ، ص 145 .

2 ـ وصفُ الورود والأزهار والرياض:

أَوْلَى الأندلسيون عناية فائقة للأزهار على اختلاف أنواعها، و ظل الناس ـ غنيُّهم وفقيرهم ـ يوجهون اهتماما خاصا لزراعة الزهور و تنظيم الحدائق ، فكثرت الحدائق والرياض التي ازدانت بها أرض الأندلس برمتها؛ فكان منها : الآس، الياسمين والبهار البنفسج الخيري النمام ، الخيري الأصفر، النرجس الأصفر، الورد ، السوسن ، الخرم ،النيلوفر ، نور اللوز الأقحوان ، وغيرها.

و قد انعكس هذا الاهتمام بالأزهار في الأندلس على الأدب ؛ فألّف في ذلك الأدباءُ ونظَمَ الشعراء الأندلسيون في أسماء الأزهار و الورود و الرياض، وكان من أبرز ما ألّفه أبو الفرج الجياني[1] ما أسماه "الحدائق" للحكَم المستنصر بالله ، معارضا به كتاب "الزهرة" لأبي بكر محمد ابن داود بن علي الأصفهاني وكتاب "البديع في وصف الربيع" لإسماعيل بن عامر الحميري (ت. 440هـ)، و"المقتطف من أزاهر الطرف" لابن سعيد و "روضة النسرين في دولة بني مرين" لابن الأحمر، و روضة التعريف بالحب الشريف" و"ريحانة الكتاب" ،و" الزهرات المنثورة في نكت الأخبار المأثورة" لابن سماك العاملي وغيرها.

ومن بديع ما نظَم الشاعر ابن الأبار في هذا المجال ، أبياتٌ في السوسن ـ وهو نبت أعجمي معرّب ، وأجناسه كثيرة ، وأطيبه الأبيض ـ[2] .

بلغت هذه المنظومات وحدها ثماني مقطوعات ونتفًا ، نظَمَها الشاعر خلال جلسات ، اقتضت وصف زهرة على البديهة ، مُجِيزًا شطراً من بيت قاله شاعرٌ آخرُ ، أو أثناء خرجات إلى منتزهات كانت للشاعر، مفردا ، أو مع أقرانه في ظلال الطبيعة الأندلسية الخلابة . فقال من ذلك [البسيط][3]:

---

(1) هو **أبو عمر أحمد بن محمد بن فرج الجياني** ، وافر الأدب ، كثير الشعر ، معدود في العلماء..(ينظر: ابن دحية المطرب في أشعارأهل المغرب ، دار العلم للجميع ، سوريا ، مطبعة الأميرية ، تحقيق: إبراهيم الأبياري وحامد عبد المجيد وأحمد أحمد بدوي ، راجعه: طه حسين ، دط ، 1955 ، ص4 ـ 5 .)

(2) ينظر : ابن منظور ، لسان العرب ، مادة (سوسن) ، 6/ 405 .

(3) ابن الأبار ، الديوان ، ق30 ، ص 89 .

يَاحُسْنَهَا سَوسَناتٍ أَطْلَعَتْ عَجَبًا مَدَاهِنًا مِنْ لُجَيْنٍ تَخْبأُ الذَّهَبَا
لَمَّا سَقَاهَا الحَيَا مَا شَاءَ مُـــنْبِتُهَــا لَمْ تَعْدُ أنْ مَزَّقَتْ أَثْوَابَهَا طَرَبا

وقال [مجزوء الرجز][1] :

يَا حُسْنَهَا سَــوْسَنَةً تَصْبُو إِلَيْهَا الحَـدَقُ
فِي حُقَّةٍ مِنْ فِضَّــةٍ عَلى نُضَارٍ تُطْبَـقُ
وَرُبَّمَا تَفــتَّحَــتْ عَنِ العَبِيرِ يَعْبَــقُ

وقال [الوافر] [2] :

أَسَوْسَنَةٌ أَمْ عَيــــبْةٌ لِســـلاَحِ بَدَا كَبُنُودٍ وَسْطَهَا وَرِمَـاحِ
خَلاَ أَنَّهَا فِي الرَّوْضِ مِنْ صَنْعَةِ الحَيَا لِلَهْوِ مَراح لاَ لِحَرِّ كِفَـاحِ

وتعددت أوصاف الشاعر ؛ من فضة وعيبة سلاح ، إلى زبرجد وعقيان . وكلها جواهرُ ثمينةٌ ، ومعادن غالية ، استطاع ابن الأبار أن يوجد بينها وبين موصوفه علاقة كبيرة.

فالسوسن بغضارته وجميل قامته يمثل القوة ، التي يفتقدها موطنه لردّ العدو ، وفي القوة الرفعةُ والسموُّ ، وهذا ما ظل ينشده ابن الأبار ، إلى أن لقي حتفه ، فيقول [الكامل] [3]:

لمْ أَدْرِ وَالسَّوْسَانُ قَدْ أَوْفَى عَلَـى سَاقٍ يَمِيلُ مِنَ الزَّبَرْجَدِ أَغْيَدُ
أَبِذَابِلٍ مِنْ فِضَّةٍ مَسْبُوكَـــةٍ أَمْ أَنْمُلٍ تُومِي إليكَ بِـهِ يَـدُ

وقال أيضا في الصفات ذاتها [المجتث] [4]:

للهِ سَوْسَنُ رَوْضٍ مِنَ الغَضَارَةِ أَغْيَدُ
كَهَامَةٍ مِنْ لُجَيَنٍ فِي قَامَةٍ مِن زَبَرجَد

---

(1) السابق ، ق180 ، ص 391 .
(2) نفسه ، ق57 ، ص 130 .
(3) نفسه ، ق 60 ، ص 138 .
(4) نفسه ، ق61 ، ص 138 .

واعتماد شعراء الأندلس ـ بعامة ـ على ظاهرة التشخيص غدا ديدنهم ومطلبهم ؛ حيث أضفوا على موضوعات الطبيعة بأنواعها الصفاتِ الإنسانيةَ وحادثوها ، وتبادلوا معها الأشواق وبث الهموم . وقال الشاعر ابن الأبار بَدِيهًا ، بعد أن أتحف في مجلس المستنصر بغصن سوسن اجتمعت فيه سوسنات سبعٌ ، فاستغربه المستنصر والحاضرون، وكان من بينهم ابن الأبار، فقال في هذا الموقف أبياتا ، مشبها السوسن بالثريا ، معتمدا على التشخيص [البسيط] (1) :

وَسَوْسَنَاتٍ أَرَتْ مِنْ حُسْنِهَا بِدَعًا ... ولَمْ يَزَلْ عَصْرُ مَوْلاَنَا يُرِي بِدَعَهْ
شَبِيهَـةٌ بِالثُّــــرَيَّا فِي تَأَلُّفِهَـــا ... وفِي تَأَلُّقِهَا تَلْتَــاحُ مُلْتَمِعَـــهْ
هَانَتْ بِيُمْنَاهُ تَبْغـــي أَنْ تُقَبِّلَـهَـا ... وَاسْتَشْرَفَتْ تَجْتَلِي مَرْآهُ مُطَّلِـعَهْ
ثُمَّ الْتَقَى بَعْضُهَا مِنْ بَعْضِهَا غَلَبًا ... عَلَى البِدَارِ فَوَافَتْ وَهْيَ مُجْتَمِعَهْ

ويستمر الشاعر في تشبيه سوسنَه ، مع التفصيل وتتبع دقائق الأوصاف ؛ ليقدمه إلى القارئ على أحسن صورة وأبهى شكل ، بخاصة وأنه أفرد له من الأبيات ما لم يفرد لغيره من أترابه فقال [الكامل] (2) :

للهِ سَوْسَانٌ تَرَاكَـبَ نَـــوْرُهُ ... فَأَتى بِمِـاَ أَعْيَا عَلى الحُسْبَانِ
يَحْكِي ثُرَيا أُسْرِجَتْ كَاسَاتُهَا ... فِي جَمْعِـهِ وَرِقاً إلى عِقْيَـــانِ
لاَ تَعْجَبُوا لِـــمُؤَلَّقٍ مِنْـهُ بَدَا ... كَسَوَالِف رُكِّبْـنَ فِي جُثْمَـانِ
سَعِدَتْ لِمَوْلاَنَاالبَسِيطَةُفَاقْتَدَى ... فِيهَـا النَّبَاتُ بِأُلْفَـةِ الحيَوانِ

وقال [المنسرح] (3) :

سَوْسَنَةٌ مُــزِّقَتْ غَلاَئِلُهَـــا ... أَمْ رَاحَـةٌ فُتِّحَتْ أَنَامِلُهَـــا
كَأَنَّهَا لِلصِّبَا مُلاَعِبَــــــة ... هَيْفَاءُ تَهْفُـو بِـهَا شَمَـــائِلُهَا
قَدْ رُكِّزَتْ وَسْطَهَا نَيَازِكُهَا ... لَوْ لَمْ تَغُلْهَــا قَطْفًا غَوَائِلُهَا

---

(1) السابق ، ق 192 ، ص 410 .
(2) نفسه ، ق 142 ، ص 301 .
(3) نفسه ، ق 196 ، ص 414 .

فليس غريبا أن يُنعت ابن الأبار، بعد هذا الاهتمام بالسوسن ، " **بالأديب المشهور بالسوسن** ".[1]

وتلذذا بحديقة ابن الأبار، المختلفة الأشكال والألوان ، نجد له أبياتا أخرى في الخيري الذي يتفتح ليلا ، وينشر طيبه وأريجه، وهذا هو القاسم المشترك بينه وبين الأديب(الشاعر) ولهذا سماه " أديب النَّوْر " ، فالشاعر كثيرا ما يبيت سهرانَ ، يفكر في البيت والبيتين ويقول القصيدة والقصيدتين ، فينتشي ويُسَرّ ، كذلك الخيري ، الذي يجعل ليله نهارا بطيب عُرفه وعندما يهجم عليه الصباح، يطوي عَبَقَه ويُخفي أريجَه ،وينأى كالمحب الذي يبتعد عن حبيبه. فعلاقة الحب بين أديب النَّور والشاعر غدت طبيعية .

و في ذلك يقول [الطويل] [2] :

لَكَ الخيرُ أَمْتِعْنِي بِخَيْـرِيِّ رَوْضَةٍ لأنْفاسِهِ عندَ الهُجُوعِ هُـبُوبُ

أَلَيْسَ أدِيـــبُ النَّـوْرِ يَجْعَلُ لَيْلَـهُ نَهاراً فَيَذْكُو تَحتَـهُ ويَطِيــــبُ

و يَطْوِي معَ الإصْبَاحِ مَنْشُورَ نَشْرِهِ كما بَانَ عن ربيعِ المُحِبِّ حَبيبُ

أَهِيمُ بِهِ عن نِسْـبَةٍ أدبيــــــةٍ ولا غَرْوَ أنْ يَهْوَى الأديبَ أديبُ

ومن شعر ابن الأبار ، قوله يصف الياسمين ، الذي يسلب الألباب ويغري الحدق [مجزوء الوافر] :[3]

حديـــقةُ ياسمينٍ لا تَهيمُ بغَيرِهِل الحُدَقُ

إذا جَفنُ الغَمامِ بكَى تبَسَّمَ ثَغْرُها اليَـقَقُ

كأطرافِ الأهِلَّةِ سا لَ في أثنائِها الشَّـفَقُ

وفي صورة تشخيصية ـ كما عوّدنا الشاعر ـ يُؤَنْسِنُ الغَمامَ فيجعله كالآدمي يبكي فتسقط حبات المطر على الياسمين فتفتر أسنانه وينفتح فمه لتلقيه الماء ، مشبها إياه بمنظر طبيعي ربط فيه بين الهلال والشفق .

---

(1) ينظر : المقري ، نفح الطيب ، 1/ 21 .

(2) ابن الأبار، الديوان ، ق 19 ، ص 67 .

(3) ابن الأبار ، الديوان ، ق 24 ، ص 453 .

ويبقى ديوان ابن الأبار في وصف الطبيعة زاخرا بأفانينَ من الألوان ، عبّر عنها مُبدِعا ومحاكيا وتناول أجزاءها مستقلة ومجتمعةً لتُشَكِّلَ في الأخير روضةَ الشاعر ، التي يرمز بها إلى بلنسيةَ مسقطِ رأسه وذكريات صباه وشبابِه .

وكانت تشبيهاته لا تخرج عمَّا عرفه مَنْ قَبْلَه ، إلا أن له بعض الإضافات ؛كتلك التي شبّه فيها لُمَعَ الظلال بقطع جامدة من بقايا دماء ، حينما يقول [الكامل] (1) :

سَقْيًا لِمَنْ رُدْتُهُ رَأْدَ الضُّحى ... وحَـمامُه طَرَبًا يُنـاغِي البُلْبُلا
شَتّى مِحَنِه فَمِن زَهــــرٍ على ... نهـرٍ يَسيلُ كالحُبابِ تَسَلسُلا
وكأنّما فَاحَ الربيعُ لِــــقَـطفِه ... واسْتَوَى منه يَذُودُ عنهُ مُنْصُلا
غَرُبَتْ بهِ مِن الظَّهيرةِ لاَ تَني ... إحْراقَ صَفْحتِهِ لَهيبًـا مُشْعَلا
حتّى كساهُ الدَّوْحُ مِن أفيائِه ... بُرْدًا تَمَزَّقَ بِالأصائِلِ هَلْهَـلا
وكأنّما لُمَعُ الظِّلالِ بِمَــــتْنِهِ ... قِطَعُ الدِّماءِ جَمَدْنَ حِينَ تَخَلَّلا

كما كان للسلطان أبي زكريا رياضُ(أبي فهر) ، يستدعي إليها الشعراء ؛ لينْظِموا في وصفه وكان الشاعر ابن الأبار من ضمن المدعوين ـ مرارا ـ إلى ذلك .

وكانت رياض أبي فهر من أجمل ما نَظَّمتْ أيدي الأندلسيين ، وأبدعتْ فيه أناملُها .

فقد كانت هذه الجنان من أهم إنجازات المستنصر الحفصي ، وكانت تقع بمقربة من مدينة تونس . ولابن خلدون وصف بديع لهذه الجنان ، الذي ـ حسْبَه ـ يُعدُّ جنّاتٍ معروشات وغير معروشات ، غَرِسَ فيها أصناف التين والزيتون ، والرمان والنخيل والأعناب وسائر الفواكه وأنواع الشجر والثمر، متخذًا وسطها البساتين والرياض ، جلب إليها الماء من الحنايا القديمة التي كانت تجلب الماء من" زغوان" إلى " قرطاجة " ، بعد أن بنى لها حنايا جديدة .

وعندما نتتبع أوصاف ابن خلدون نعرف مدى ضخامة الإنجاز ، ومقدار التكلفة ،التي صُرفت لأجل هذه الرياض البديعة ، التي صيَّر الأنهار تجري أمواهُها تحت الغرف والقصور المصنوعة

---

(1) السابق ، ق 29 ، ص 457 .

هي الأخرى من أثمن الأحجار والرخام . وقد أطنب الشعراء في وصفها ، وكان من بينهم حازم القرطاجني وابن الأبار، اللذين كثيرا ما أُسْتُدعِيَا إلى مَأدبات على شرف الأمـــير أبي زكريا وبحضور جمع من الشعراء ، الذين تبارَوْا في وصفه ، والنظم في جميل صنيعه[1]

وهذه المقطوعة ، التي بين أيدينا من قصيدة طويلة في مدح أبي زكريا ، لَمَّا استضافه إلى روضته حيث بدأها بمقدمة غزلية ، ثم تخلص بعدها إلى غرض (المدح) الرئيس ، ثم انتقل إلى وصف روضة من رياض أبي فهر المشهورة ، التي يرتاح بِمرآها المرءُ روحا وجسدا ، لِما نُشِر على مساحتها من بُسط خضر ونِعَمٍ لا حصْرَ لها ـ وهي في حقيقة الأمر أفضال أبي زكريا ـ في مبالغة منه دلَّت على أسْرِها له وسيطرتها على جوارحه ، لا سيما وأنه في مجلس صاحب الروض وبجانبه شعراء لكل واحد منهم بيتٌ وأبيات فيه يسترضي به السلطان قبل النفس وسائر الأنام [مجزوء الوافر]:[2]

وَيَـــــوْمٍ في (أبي فهرٍ) يُؤَرِّخُ فخرَهُ الأبَـدُ
تُغَـذَّى الرَّوْحَ والرّيـحا نَ منهُ الرُّوحُ والجَسَدُ
أفانينٌ مِـن النُّعـــمى إذا مَا أُصْدِرَتْ تَـرِدُ
وجنَّـاتٌ مُزَخْرَفَـــةٌ يَشُوقُ حَمامُها الغرِدُ
رَبِيعٌ قَيْظُـهَا الحَامِـــي فلاَ صَخْدٌولا وَمَـدُ
ورَغْدٌ عـيشُها الرّاضــِي فَلاَ كَبَدٌ و لاَ نَـكَدُ
جَرى العَذْبُ الفُراتُ بها فَماحِلُ تُربُهـا ثَمِـدُ
وجَرَّتْ ذيْـلَـها أرِجـاً صباحًا وهــي تَـتَّئِدُ
فخِلْتُ خـِلاَلَ مَـولانَا على أرجائِها تَـفِـدُ

---

(1) ينظر : ابن خلدون ، عبد الرحمن ، ديوان المبتدإ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومَنْ عاصرهم مِن ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهرس:خليل شحادة ،مراجعة:سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت لبنان ، دط، 2000 ، 2001 ، 6/ 404 ـ 405 .

(2) ابن الأبار ،الديوان ، ق63 ،ص 146 .

و وصْفُ الشاعر لهذا الروض ، إنما ينبع من اندماج كبير بينهما ، وحالة نفسية مريحة أكثر ما يكون ابن الأبار بأحوج إليها من غيره ، خاصة وأنه يُجالس في حضرة السلطان شعراءَ بلديّين في موطنهم ، وهو الغريب بينهم . وما أحوجه إلى أن يتفيأ ظلال رياض (بلنسيته) ويستنشق هواء ها العطر، ويعيش ربيعها المورق !..

3 ـ موصوفات أخرى :

وللشاعر في غرض الوصف موضوعات أخرى متنوعة ، نشير إلى بعضها من باب ذكر ما وقعت عليه عينا ابن الأبار ، وأحس به ، فنَقَلَه ، مصورًا إحساسه تجاهه ، فيه من الإيماءات الحزينة ، القلقة ، التي سيطرت عليه ؛ فمن ذلك صورة التناقض التي يعبّر عنها في أكثر من مقطوعة (خسوف القمر ومرآة صقيلة) ، وصورة فقدان الحبيب والقلق ، الذي يصاحب هذا النأي (صفحة الحبيب ..حجّبها برقع أدكن) ، بخاصة وأنه دائم الطموح والتطلع إلى الأفضل ولكنه تطلع مشبوب بالقلق أبدا ؛كتلك التي يصف فيها خسوف الهلال مرة وكسوف القمر مرة أخرى ، حينما يقول في الأولى [الوافر][1] :

أَلَمْ تَرَ لِلخسُوفِ وكيفَ أَوْدَى   بِبَدْرِ التَّمِّ لَمّاع الضّيّاء
كَمِرْآةٍ جَلاَهَا الصَّقْلُ حــتّى   أَنَارتْ ثُمَّ رُدَّتْ في غِشاء

و في الثانية [المتقارب][2] :

نَظَرْتُ إلى البدر عندَ الخُسُوفِ   وقد شِينَ مَنظَرُهُ الأَزْيَنُ
كَمَا سَفَرَتْ صفحَةٌ لِلحبيـبِ   فَحَجَّبَهَا بُرْقُعٌ أَدْكَـنُ

لم يجفَّ دمعُ ابن الأبار أبدا ، وإن كان لا يصرح بذلك ، إلا أنه كان يبكي عن طريق الحمامة التي عندما يجف دمعها من كثرة نحيبها ،يسعفها ماءُ المزن ، فيُعِيرُها قطراتِه ؛لتخفف عن آلامها . وما بكاء الحمامة إلا بكاء الشاعر ، الذي يشرك الطبيعة في إحساسه ، علَّه يجد متنفسا وله في حمامة مبلولة [السريع][3] :

لَمَّـا بَكَتْ مِن غيرِ دَمْعٍ جَرَى   أَعَارَهَا أَدْمُعَهُ الُمـزْنُ
فكُلَّمَا اهْــتَزَّ جَناحٌ لــــهَا   نَظَّمَ مَا يَنْثُرُهُ الغُصْنُ

ولم يكن ابن الأبار بعيدا عن الأحداث السياسية المحيطة به ولا الأوضاع الاجتماعية التي يعيشها

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق 7 ، ص 54 .
(2) نفسه ، ق 154 ، ص 326 .
(3) نفسه ، 148 ، ص 319 .

الناس في العدوتين (الإفريقية والأندلسية) ؛ كونه قريبا من السلطة ، يرضى بِرضاها ويسخط بسخطها إن أراد الأمان والوصول إلى غايته .

وتنفيذا لسياسة الحفصيين ، الذين ينعم بين قصورهم ، لا يتأخر في إعلان سياستهم والذود عنها ، في مواجهة العصابات والخارجين عن طوع السلطان ، الذي قَطَف رؤوس عصابة قطْفَ البَنان لأزهار البستان ، فيصف بمناسبةِ قتْل أبي عبد الرحمن يعقوب الهرغي وعصابته بطرابلس حين تمرد على أبي زكريا الحفصي ، وكان ذلك في شهر شوال سنة 639 .هـ [الكامل] [1] :

وَعِصابَةٍ قَطَفَتْ رُؤُوسَهُمُ الظُّبَـــى ... قطْفَ البَنانِ أزاهِرَ البُسْتَانِ

غَدَرُوا ومَا شَعُرُوا بِأَنَّ وراءَهـــُـمْ ... لِلحَقِّ أنصارًا على البُهْتَانِ

فَانْظُرْ إلى هاماتِهِـمْ مُســـــــوَدَّةً ... كاللّيلِ غيرَ بوارقِ الأسنانِ

لاحَتْ مِن السُّورِ المُنِيفِ بِصفحةٍ ... بيضاءَ كالشَّاماتِ والخِيلانِ

وتبعا لتأييد سياسة الدولة الحفصية ،والإشادة بقوتها منذ الاستيلاء على الحكم ، سار الشاعر في ركبها ، يمدح حكامها ، ويصف قوّتهم ، وكم كان لهذا الموضوع من معنى لدى الشاعر الفارِّ من ذلّ النصارى ! .. فهاهو يصف قوة أبي زكريا الحفصي ؛ لأنه وأهلَه يُعوزهم هذا العنصر(القوة) ، ولو كانوا أقوياء ، ما كان هذا حال الشاعر ولا حال البلنسيين ، بل ولا حال الأندلس برمتها !..

ولم تكن عناية شعراء الموحدين للسفن والمراكب والأساطيل تقل عن عنايتهم بتصوير ما سلف التطرق إليه في وصف المائيات ، فقد أسبغوا على ذلك أوصافا ، وألبسوها تشبيهات كثيرة ومتنوعة ؛ فقد يأخذ الأسطول صورة الطائر (الفتحاء) في سرعته،وهو (ابن أو بنت الماء) أو الغراب أوالفرس،ويشبه صدره بجؤجؤ الشاهين في قوته . فقال في قصيدة مطولة يمدح فيها أبا زكريا الحفصي عند احتلاله تلمسان ، وفرار يغمراسن وذلك سنة 640 .هـ ويصف أسطول الخليفة [البسيط] [2] :

---

(1) السابق ، ق 136 ، ص 293 .

(2) نفسه ، ق 2 ، ص 42 .

للهِ جيشُكَ والأسطولُ قد ضَمنَا ... لِلمُقـتَدِي بالهُدى سيْراً يُهَدِّئُــــهُ
تَسَاوقَا في سبيلِ اللهِ واسْتَــبَقَا ... فاسْتَوْسَـقَ النّصرُ أوْفَاهُ وأبْطـؤُهُ
هذا على أغْبَرِ البيداءِ يَسْـجُرُهُ ... وذاكَ في أخـضَرِ الدَّأْماءِ [1]يَمْلَؤُهُ
يا حَبَّذَا مِن بناتِ الماءِ سـابحةٌ ... تَطْ(فُو لِمَا شَـبّ أهلُ)النارِ تُطْفِئُهُ
تُطيرها الريحُ(غِرباناًبأجنِحةِالـ ... ـحَمائمِ البِيضِ لِلإشراكِ تَــرْزَؤُهُ)
يُدْعَى غُراباً ولِلْفَتْحاءِ سُرْعَتُهُ ... وهو ابنُ ماءٍ ولِلشّاهينَ جُؤْجُؤُهُ[2]

إلى جانب أوصاف أخرى لـ : السيف ، المشتري ، حفلة سيرك ، شمعة ، مشط آبنوس أحزان فراق ، وطن ، تفضيل السواد ، والمجبنات [3].

وفي ختام هذا الفصل ، وبعد تتبعنا أوصاف الشاعر ابن الأبار ، وجدنا أن نسبة غرض الوصف قد بلغت 14.28 ٪ بخمس وثلاثين قصيدة تالية ، لغرض المدح ، وقد وردت في شكل قصائدَ طويلةٍ ، وفي مقطوعات ونتف .

كما يُسجَّل ُ للشاعركَلَفُه بوصف الدولاب ؛ وهو ظاهرة حضارية ، يُصنعُ لأجل ريّ البساتين والحدائق ، و وصفُه للسوسن ، الذي أبدع في فيه ،إلى جانب ورود أخرى ؛من مثل: الآس الياسمين ، البهار ، البنفسج، الخيري ، النرجس الأصفر، الورد ، السوسن .

كما كانت عنايته وصف السفن والمراكب والأساطيل ، التي غَدَت وسيلتَه في الرحلة إلى ممدوحه طلبا للعون والمدد لوطنِه .

---

(1) **يسجره** :أي يملؤه .(ينظر: ابن منظور ، اللسان ، 6/ 165) * **الدأماء** :البحر.(ينظر:ابن منظور، اللسان 4/ 269)

(2) **الفتحاء** :العقاب اللينة الجناح . * **جؤجؤه** : صدر السفينة .(ينظر: ابن منظور ، اللسان،2/ 143)

(3) ينظر : ابن الأبار ، الديوان ، الصفحات بالترتيب : 284 ، 414 ،39 ، 45 ، 81 و187 ، 135 ، 438 ، 443 .

الفصل الثالث

الغزل

ليس غريبا أن ينتشر هذا الغرض ، ويتربع على عرش باقي الفنون الشعرية الأخرى في الأندلس ، وقد وجد في هذه البيئة ـ بيئة الشاعر ابن الأبار ـ جمالا ، يغري بالحب ويدعو إلى الغزل ،لاسيما وجودها بين البساتين المترامية ، والمياه الرقراقة المتدفقة .كل ذلك كان له عظيم الأثر على القلوب الشاعرة ومن الطبقات الاجتماعية المتباينة ؛ وزيرا كان أو فقيرا فقيها كان أو محدود الثقافة والعلم .

كلٌّ تغنى بهذه الطبيعة الساحرة ، وهام بحبها ، وقال فيها شعرا في مجالس خمر وغناء أو هائما بين طبيعة الأندلس الخلابة ، أو غيرها من المناسبات ولحظات الإبداع .

لذلك كان: ((**كل شيء في بيئة الأندلس الجميلة يغري بالحب ، ويدعو للغزل ، ومن ثَمَّ لم يكن أمام القلوب الشاعرة إلا أن تنقاد لعواطفها فأحبّت وتغزلت ، ثُم خلّفت وراءها فيضا من شعر الغزل الرائع الجميل.**)).(1)

وكان الغزل من أهم الموضوعات ، التي اهتم بها الشعراء في العصر الأندلسي((**يستمد قوته ونشاطه من الحياة الأندلسية ، التي رشحت لازدهاره بما توافر فيها من ترف وتحضر. ومَن يقرأْ شعر العصر يتبينْ أنه ما من شاعر أندلسي إلا وكان يضرب بسهم فيه وليس هذا بغريب لأن الغزل تعبير عن عاطفة الحب الإنسانية التي تسيطر على الناس جميعا.**)).(2)

وكان الغزل ـ عامة ـ ضربيْن: مادي حسّيّ ، وعفيف طاهر، وكان الأول الأغلب نظرا لموجة التحرر والتحلل الذي شهدتها بعضُ البيئات الأندلسية، وسط الجواري والمغنيات اللائي كن يملأن قصور الحكام ودُور الملاهي.

لقد كانت طبيعة شعر القضاعي الغزلي نسيبا ، كما ورد في شكل مقطعاتٍ ونُتَفٍ ، كما ورد قصائدَ كاملةً مُكتملةً ، شأنه في ذلك شأن الشعر الأندلسي عامة.

وكان ورودُ المقطعات والنتف في الديوان بشكل عام أكبرَ ، وبنسبة 56.32٪ .

---

(1) عبد العزيز عتيق ، الأدب العربي في الأندلس ، ص 169 .

(2) فوزي عيسى ، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين ،دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية ، مصر ط1 ، 2007 ، ص 105 .

وكان حظ غرض الغزل من هذه النسبة أيضا وافرا بثمانٍ وثلاثين ومائة(138) قطعة ، من مجموع خمس وأربعين ومائتين (245) قطعة ، بينما كان عدد القصائد سبعا ومائة قطعة (107) وبنسبة 43.67 ٪ .

وإن كان أغلب غزليات ابن الأبار مقدماتٍ لقصائد المديح ، التي غطّت ديوان الشاعر إلا أن هذا لا ينفي وجود قصائد ومقطعات ونتف خالصة في هذا الغرض ، بلغ عددها أربعاً وثلاثين قطعة ؛ أي بنسبة 13.87٪ إلا أنها قليلة ، قال بعضَها أوَّلَ ما قَال الشعر ؛ منها مقطعتان ، نظمهما وهو ابن خمس عشرة سنة [1] بالإضافة إلى ثلاث و عشرين مقطعة ونُتْف أخرى ، وتسع قصائد نظَمها في مناسبات مختلفة.

وأما موضوعات شعره ، فلم تخرج عما ألفناه عند شعراء العرب ، الذين وصفوا المرأة وصفا حسيا ؛ فصوروا الأرداف والخصور والنهود ،والسيقان والبطون ، واللَّمَى والأسنان والمقل والشعر والجبين ، والحلي والطيب والخضاب... ونعتوها بالهيفاء ،والمها والظبية وغير ذلك من نعوت القدامى ((**و وقف الشعراء طويلا يصوّرون حبهم للمرأة ، وما يذرفون من دموعهم على شاكلة قول بشر بن أبي خازم :**

فظَلَلْتَ مِن فرط الصبابة والهوى طرِفًا فؤادُكَ مثلَ فعلِ الأيْهَمِ[2]))[3]

فقال الشاعر يصف امرأة تحمل تفاحة شبيهةَ خدِّها ، و قد لَفَتَ انتباهَه يدُها المخضبة وأومأتْ بها ، فخالها دماءَ قلبه جَرتْ ، ولم يكن لقناعته بما تجود ورضاه عمّا تفعل، يَطلُبُ منها الكثير ، بل يكفيه ويقنعه في ذلك القليلُ [الكامل][4] :

حَملَتْ بِراحتِها شَبيهَـةَ خَدِّهـــا تُفاحَةً لبِسَتْ حُلَى الصَّهْبَاءِ

---

(1) ينظر : ابن الأبار ، الديوان ، ق :5 ، ص 52 . وق:76 ، ص 175 .

(2) **طَرِفا** : يطرف هنا وهناك .(ينظر:ابن منظور ، اللسان،8/ 137) * **الأيهم** : المجنون .(ينظر :ابن منظور اللسان ،15/ 450)

(3) شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ـ العصر الجاهلي ـ دار المعارف بمصر، ط 8 ، د ت ،ص 213 .

(4) ابن الابار ، الديوان ، ق 8 ، ص 54 .

وَرَمَتْ إلى جِهتِي بها بَلْ أَوْمَأَتْ   وجَلَتْ يَدًا مَخْضُوبَةً بِدِمائي
فَقَنِعْتُ منها بالزَّهيدِ تَعَلُّــلاً   والحُبُّ يُقْنَعُ فيهِ بـالإِيـماءِ

وفي أخرى حَامِلَةٍ عُنَّابًا ، فَرَاعَهُ مَرْأَى حُمْرة العُنّاب في حمرة الخضاب ، واحتار بينهما إلى أن قاده قلبه إلى ذات الخضاب . وكثيرا ما افتتن الشاعر بالألوان ، ولا سيما اللون الأحمر كالأيادي المخضبة [الخفيف] (1):

نَاولَتْنِي العُنَّابَ أَنْمُلُ خُودٍ   خَضَبَتْهاَ بِحُمــــْرَةِ العــنَّابِ
(فَـ)تَحَيَّرْتُ فيهما ثـم أَهْوَيْـ   ـتُ بِحُكمِ الهوَى لِذاتِ الخِضابِ
صَبْـوَةٌ لا أَمِيـلُ إلاَّ إلـيهـا   رُبَّ طَبْعٍ يكـونُ طَوْعَ التَّصـابي

وفي تشبيه المرأة بالبدر ـ كما عودنا شعراء العرب القدامى ـ وقد علاه الخسوف يقول [الطويل](2):

تناولتِ المِرآةَ وَهـيَ صَقِـيلةٌ   تَأَمَّلُ وَجْهًا دُونَهُ ذَلِكَ الصَّقْلُ
....
فَشَبَّهْـتُـها بَدْرًا علاهُ خُسُوفُهُ   فـأَظْلَمَ مِنْهُ مَا أَنَارَ لَهُ قَبْـلُ

وعن خِصْرِ المرأة الممشوق والرِّدف ، الذي كَلِفَ الشعراء به أيَّما كلَفٍ ، وهما من أمارات الجمال الفتان عندها، والحسن الآسر للقلوب ، ينشد ابن الأبار:[البسيط](3) :

تَفُـوتُ كلَّ فتَاةٍ في محاسِنِها   بِمَا تَفُتُّ بِهِ الأَرْوَاحَ والمُـهَــجَا
فالخِصْرُ يُنْهِضُها ظَمْآنَ مُنْدَمِجًا   والرِّدْفُ يُنْبِضُهَا رَيَّانَ مُنْتَفِجا(4)

كما تغنوا بالألحاظ الفاتنة ، القاتلة دون سلاح ، وبالمقل التي تشبه السنان الحادة ، تسبي الناظر

---

(1) السابق ، ق 16 ، ص 65 .
(2) نفسه ، ق 114 ، ص 251 .
(3) نفسه ، ق 42 ، ص 103 .
(4) **مُنتفجا** : متكبّرا .(ينظر:ابن منظور ، اللسان ،14/ 214)

إليها [الكامل] (1) :

لاَ تطلُبُوا بِدَمِي سِوى أدْمَاء   في السّرِّ (2) مِن تَيْم وتَيُماء

رَمَتِ الفؤادَ فأَقْصَدَتْهُ سهَامُها   لم تَحْنُ رَامِيةً عَلى أَحْنَاء

كَالصّعْدةِ السّمراءِ لَكِنْ فُضِّلَتْ   عِوضَ السِّنانِ بِمُقلةٍ كَحْلاَء

ويقول في موضع آخر [البسيط] (3) :

ياربَّةَ القَلْبِ كَيْفَ القَلْبُ ؟ كَيفَ به   مَعَ المُخِيفَيْنِ مِنْكِ الدَّلُّ والغَنَجُ

كَأَنَّما رُكِّبَتْ عَيْنَاكِ في ظُبَتَيْ   أَمْضَى السّيوفِ برسْمِ الفتْكِ بالمُهَجِ

وفي قصيدة خالصة في الغزل ، بلغت أبياتها ستة وثلاثين ، يصور فيها زيارتها له ،على الرغم من الحرس المضروب عليها إلا أنها تجاوزت ذلك مذعورة ، ولم تكن تعلم أنها صائدةٌ بلحظها الليوثَ الكاسرة :[الطويل] (4):

وَجَاءَتْ بِنَا مَذْعُورَةً مِن شعَارِنَا   كجَازيةِالرّملِ (5) تَتْبَعُ رِبْربا

ومَا عَلِمَتْ أنَّا قَنائِصُ لَحْظِها   ورُبَّ مَهاةٍ تَقْنِصُ اللَّيْثَ أغْلَبَا

وفي تصويرٍ آخرَ بديعٍ ، ينقلنا الشاعر إلى ساحات المعركة ،حيث يكون فيها الاقتتال على أشده بحد السيف والقنا ، وبأيدي رجال شجعان ، أبطال ، يمتطون سَلاهِبَ ، ويملأ أيديَهم الدماءُ ثم يقارن هذا المنظر المروّع بمرأى ظباء مخضبات الأيدي ، تَصْرَعُ بعيونها الرجال وتُدمي قلب الصَّبَّ المتيم ، ولا يستطيع لذلك دفاعا ، فيكون الموت حقيقة بين فوارس كما هو بين أوانس [الكامل] (6):

فالمَوتُ بينَ فَوَارسٍ وأوَانسٍ   جَارُوا عَليَّ أعاديًا وحَبَائِبا

---

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق5 ، ص 52 .

(2) **السر** : ـ هنا ـ الأصل والنسب .(ينظر :ابن منظور ، السان ،6/ 221)

(3) ابن الأبار ، الديوان ، ق 44 ، ص 109 .

(4) نفسه ، ق37 ، ص 96 .

(5) **جازية الرمل** : بقر الوحش المجتزئة أي المكتفية بالعشب .

(6) ابن الأبار ، الديوان ، ق 20 ، ص 67 ـ 68 .

هُنَّ الظِّباءُ العــاطياتُ سَوالفـــا ... وهُمُ الأسودُ الضّــارياتُ مَخالِبا
جَعَلوا الدِّماءَ خَلوفَهم وخِضَابَهم ... مُسْتَأْصِــــلِينَ مُسَالِماً ومُحَارِبا
أَنْهَاكَ لا تَغْشَ المَضَاربَ خِيفَـــةً ... مِن أعْيُنٍ تَهَبُ الصّفاحَ مَضَارِبا
لم تَــرْمِ إلاّ أقْصَدَتْ لَحَـــــظَاتُها ... فجَرَى دَمُ الصَّبِّ المُتَيَّمِ صائبا

ولم تكن النساء اللواتي تغزل بهن ابن الأبار ـ في كثير من الأحيان ـ مبتذلاتٍ ، ولا رقيب عليهن ، وإنما كن من بين اللائي يحرسهن العسسُ ، ويمنعهن الرقباء ، فهن من الكريمات وذوات الحظوة والمكانة عند أهاليهن .

لذلك كان الشاعر العاشق لَمَّا يزورهن ، يعود أدرَاجه حياءً و وفاء ، لا خوفا وجبنا حفاظا على أعراضهن المصونة ،ويتجلى ذلك المعنى في قوله:[الطويل] (1) :

إذَا زُرْتُهَا لاقَيْتُ حجُـــبًا مِن القَنَـا ... وبِيضُ الظُّبَى تحمِي البَرَاقِعَ والحجبَا
فأرْجِعُ أدرَاجِي ولوْشِئْتُ خاضَ بِي ... لِقُبَّتِها طِرْفي جَنَبــــــــاتِها القَــبا
ومَا ذَاكَ جُـبْنًا بلْ حَيَاء وعِــــفَّــة ... مِن الحَيِّ أنْ يَدْرُوا بِمَنْ شَفـــنّي حُبّا

وإلى جانب الحراسة المضروبة على كريمات الشاعر وحبيباته ، نجد فئة أخرى لا تتوانى على توجيه سهام اللوم والعتاب في صدره ، يريدون منه أن يسلوَ بغير(العامرية) ، ويرتد عن حبها ولكن قلبه مخلص لها ، مصمم على حبها [الطويل](2) :

يُفَنِّدُنِي في العامــــريةِ لُــوَّمِي ... وليسَ هَوَاها بالحديثِ المُرَجَّـمِ
يُرِيدُونَ بِي عن شِرْعَةِ الحُبِّ رِدَّةً ... ومِنْ دُونِها إخلاصُ قلبٍ مُصَمِّمِ

وقد كانت سهام هؤلاء العذال أشد وقعا ،وأكثر إيلاما من ضربات السيف وطعنات الظبى فالحسد والغيرة تأكل قلوبهم ، والمنافسة عليهن تعتصر نفوسهم ، ولم يرحموا الشاعر المتيم الولهان

(1) السابق ، ق17 ، ص 66 .

(2) نفسه ، ق 131 ، ص 289 .

ولم يكتفوا بذلك ، بل كانوا يُسَرُّون ويستبشرون عندما يتركه حبيبه وينأى عنه الذي ما استطاع أن يكبح جماحه أمام ظبيات [الكامل] [1]:

قَصَرَتْ مسافةَ عُـمرهِ حَسْناؤُهُ فأطالتِ البُشْرَى بِهِ حُسَّـادُهُ
وغَدَتْ تَشُوبُ له المودَّةَ بِالقِلَى وهو الصّريحُ صفاؤُهُ و وِدَادُهُ
....
لا تَعْذَلُوهُ على الهوَى فَمَـدارُهُ وكَفَاهُ عُذْرًا حيثُ طابَ مُرادُهُ

أما الصبابة وألم الفراق فقد أخذا من نفس الشاعر وقلبه مأخذا عظيما ؛ فلا نجد له بيتا إلا ويرتسم فيه ألم البعاد والصّدّ ، الذي طال أمده ، ولم يزده ذلك البَيْن إلا تمسكا ووفاء لِمَنْ يعتبر هواها توفيقا ، وخيالها ماثلا أمامه ، على الرغم من مسافة الليالي ، التي باعدت بينهما وكان أكثر خوفه أن يجفوَ قلبها ، فتسلمه بيدها إلى الضَّنَى والموت فيقول [الكامل] [2]:

مَهْلاً أُمَامةُ كمْ تَطُولُ نَوَاكِ والقلبُ قد هَجَرَ الحِسانَ سِواكِ
يَهْواكِ دونَ الغانياتِ وعندهُ أنّ الموفَّقَ مِنْ غَـــدَا يَـهْواكِ
ويَرَاكِ ماثلةً لهُ بِـضمِيـــرهِ وإنَّ الليـالي باعَـــدَتْ مَـثْواكِ
....
إيّاكِ أن تَدعِي الضَّنَى يغْتَالُني ومِن الجَـفاءِ مقالتِي ((إيـاكِ))

وحتى تَرِقّ لحاله ، وتعلم بحقيقة أمره ،وآثَارَ بُعْدها وصدّها عنه ، يدعوها إلى الالتفات إليه وحينها سيرقُّ قلبها ، وتجود بالدموع عيناها ، فيقول [الكامل] [3] :

وَاللهِ لوْ أَبْصَرْتِنِي تحتَ الدُّجى مُتَمَلْمِلاً أشْـكُو أَلِيمــَ نَـوَاكِ
لَصَبَا فؤادُكِ لِي ورَقَّ فما قَسَـــا وسَخَتْ بِمَاءِ شُؤونِك عينَاكِ

(1) السابق ، ق 75 ، ص 174 .
(2) نفسه ، ق101 ، ص 222 .
(3) نفسه ، ق101 ، ص 222 .

وكثيرا ما كانت محبوبته تضِنُّ عليه بالوصال ، وتحرمه القربى كلما حاول الدنو منها دلالا ولا مبالاةً ، لذلك نجده يشكو النأي والإعراض المتعاقبيْن عليه ، وكلما حاول استرضاءها نفرتْ منه وغضبت [الطويل] (1) :

لها اللهُ لِمَ ضَنَّتْ عليَّ بِوصْلِها　　　ولِمَ حَرَمَتْنِي القُرْبَ دُونَ ذُرَى القُربى

....　　　.................................

بِعَـادٌ وإعراضٌ عليَّ تَعَـاقَبَا　　　فَيَا فاتَنِي بالحُسْنِ حَسِّـنْ لِيَ العُقْبَى

....　　　.................................

ولِلهِ ذاتُ القُلْبِ والحَجْلِ كُلَّمَا　　　أحاولُ أن تَـرْضَى تَطَلَّعُ لِي غَضْبَى

ولم يكن قلب الشاعر العاشق يهنأ ، ولا يرتاح ، لطالما أن الحبيب هجَره ، فزاد من شجونه وأحزانه ، مما جعله يتمنى و يتشوق إلى رؤيته ؛ ليَذهَب أرقُه ويَسكُن قلقُه [البسيط] (2)

واللهِّ مَا قَرَّ قلبِي بَعْدَ فُرْقَتِـــهِ　　　شَوقًا لِرُؤْيَتِهِ حِينًا ولا سَـكَنَا

وَاهًا لهُ سَكَنًا لوْ أذْهَبَتْ أَرَقِي　　　أوسَكَّنَتْ قَلَقِي وَاهًا لَهُ سَكَنا

فالقلق أذهب عنه النوم ، و زاده همُّ حبيبه عبئاً لا يُطاق ، ومزّقه الحب كلَّ ممزق ، حتى اسودّ قلبه ، وابْيضَّ من طول البعاد مَفرقُه ، من فرط تذكّره له [الكامل] (3):

حَمَّلْتِ نفْسِي ما تَنُـــــوءُ بــهِ كما　　　مَـزَّقْـتِنِي بالحُـــبِّ كُلَّ مُمَزَّقِ

فَاسْوَدَّ مِن (طُولِ)التذكُّرِ مُضْمَرِي　　　وابْيَضَّ مِن هَولِ التَّفَرُّقِ مِفْرَقِي

هذه من أهم الموضوعات التي نظَم فيها الشاعر ابن الأبار مقطعاتِه ونُتَفَهُ .

وقد بدأنا بها ؛ لأنها تشكل الغزل (النسيب) الصافي في شعر ابن الأبار القضاعي.

---

(1) السابق ، ق 17 ، ص 66 .

(2) نفسه ، ق151 ، ص 322 .

(3) نفسه ، ق 182 ، ص 392 .

أما مضامين المقدمات الغزلية ، التي تضمنتْها قصائد الشاعر المدحية ـ وهي الغالبة على مقدمات القصائد الأخرى ، سنرجئها إلى حين الحديث عن هيكل القصيدة بشكل عام في الباب الثاني من هذا البحث .

وصفوة القول إن القصائدَ والمقطّعاتِ والنُّتَفَ التي نَظَمَها الشاعر في غرض الغزل كانت كلها في إطار النسيب ؛ أي الجمع بين اللقاء والفراق ، وبين القرب والنأي ، وبين اللذة والألم فلم يكن ابن الأبار يهنأ بلحظات السعادة والمتعة ، حتى يفاجَأ بالصّدّ والبعاد وكيد اللائمين والحسّاد فَحُبُّه مهدد ـ دوما ـ بالانفصال والانقطاع في كل الأوقات ، وحياته كلها هجر وقطيعة ، يشكو منهما ، حينما يقول [الطويل] [1] :

حَياتِي هَجْرٌ كُلُّهَا وقَطِيعَةٌ أَمَا آنَ أَنْ تَفْنَى القَطِيعَةُ والهَجْرُ

لعل هذا البيت يلخص كل ما كان الشاعر المتيم يعانيه في حبه ، ويكابده من أجل أن يتسلّى لينسى واقعه المرير ، الذي يحياه في موطنه ، وما هذه الشكوى الفردية إلا تعبير عن شكاوى مجتمعه كله .

(1) السابق ، ق97 ، ص 201 .

الفصل الرابع

أغراض أخرى

1- ذكريات وأشواق وشؤون.

2- حِكم.وزهد ونبويات

3- رثاء.

4- هجاء.

5-ألغاز.

كان لابن الأبار ـ إلى جانب الأغراض الرئيسة التي نقلتْ تجربتَه الشعرية ـ أغراضٌ أخرى متنوعةٌ . كان لها هي الأخرى حضور في منظومته الشعرية . ولا نعني بهذا الكلام أننا نفاضل بين المجموعة الأولى وبين الثانية ، وإنما هي ضرورة المنهجية ، وأقسام الخطة ،التي جعلتنا نبوّب هذه الأغراض بما يتناسب و البحث . وستظهر أهمية هذه الأغراض الأخيرة من خلال دراستها والكشف عن قيمتها في مدونة الشاعر .

فسنتناول موضوع : **الذكريات ، الأشواق والشؤون ، ثم الحِكم والزهد والنبويات فالرثاء** وأخيرا **الهجاء والألغاز** . وقد اعتمدنا هذا الترتيب تبعا لحظ كل غرض من عدد القطع ، التي نظَمها في كل موضوع :

1 ـ ذكريات وأشواق وشؤون :

كانت **الذكريات** التي توزعت على حياة الشاعر وسرت في عروقه دماء دفاقة ، نصبَ عينيه علَّها تروي عطشه وتخفف عنه أحزانه ، التي تعددت أسبابها ومسبباتها .

وعندما نقرأ أبيات ابن الأبار المتعلقة بذكرياته ،لا نعثر له إلا على "الرصافة "، التي يعني بها موطن الصبا" بلنسية " .

وهو في هذه الأبيات يتحسر على ماضيها ، الذي وَلَّى لِلاَرَجْعة ؛ يروح ويجيء بينها وبين غديرها، ضاربا مع السعادة والفرح موعدا لا يخلف ولا يخون، ولا يخطئ ، ها هو النوى يتلاعب بهما ، فانقضى اللعب و أقفر الملعب .

ثم يعود الشاعر إلى مغاني بلنسية ؛ إلى ليلها، الذي شبهه بالكافور والمسك في سواده ونهارها الوضاح ، يزيدهما حسنا صبحُها الجميل. يقول الشاعر[الكامل](1) :

مَا لِلـهوَى إلا الرصافةَ مَــأْرَبُ بعدَ الغديرِ [فكيف] يصْفُو مَشْرَبُ

كانَا مرادًا للنَّعيمِ مــــــورِداً إذْ كُنتُ بينَهـا أجِـيءُ وأَذْهَـــبُ

والإلْفُ لِلمِيعَادِ بـي مُتَرَقِّــبٌ والدَّهرُ بالإسعَادِ لِي مُتَقَـــرَّبُ

---

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق 13 ، ص 59 .

(وتلاعبتْ)أيدِي النَّوَى بهما وبي حتَّى انْقضَى لعِبٌ وأَقْفَرَ مَلْعبُ
للهِ (أَسْحارٌ) بهاوأَصَائل كانتْ تُفَضَّضُ صِبغةً وتُذَهَّبُ
وكأنَّ كافورًا ومِسْكًا ليلُها ونهارُها مِمَّا يَرُوقُ ويعْجبُ
يزدادُ حُسْنًا صبْحُها بِرُوَائِها ويكادُ يُشْرِقُ منْ سَنَاها الغيهَبُ
....
وَلأَنْدُبَنَّ بها الشبابَ وشَرْخَهُ إنَّ الشبابَ أحقُّ فانٍ يُنْدَبُ
....
كمْ جِئتُ بينَ خمائلٍ وجداول منها أُصَعِّدُ في المُنَى وأُصَوِّبُ
....
هلْ تُرجِعُ الأيامُ عصْرَ شبيبةٍ مازِلْتُ فيها بالحِسانِ أُشَبِّبُ
حيثُ النّسيمُ بِمَا يمرُّ عليه مِنْ حُقِّ الريّاضِ مُضَمَّخٌ ومُطَيَّبُ
أمَّا الرّصافةُ فهي سمتي لا الحِمَى ولِوَى الصّريمِ ولا العُذَيْبُ وغُرّبُ(1)

ينثر هذه الأبيات نثر الحب على الأرض، نادبا شبابه الذي سُرق منه عنوة، وأرغم على التخلي على موطنٍ ترعرعَ فيه بين خمائلَ، يتفيأ ظلالها، وجداولَ يلعب بعذب مائها، متحسّرا على هذه الأيام، التي كان فيها يشبّب بالفتيات الحسان، متنسما بصافي هوائها.

وقال [الكامل](2):

للهِ عهدٌ لِلرُّصافةِ سالفٌ يَصِفُ الشبيبةَ وهيَ في ريعانها
أَبْقَى بِقلبِي لَوْعَةً لوْ لم يكُنْ يَسْقِيهِ ماءٌ ذَابَ مِنْ نيرانها
يَا شوقَ أحدَاقِي (هَفَتْ)لِحدائقٍ تُفْضِي جداولُهَا إلى غُدرانِها

---

(1) اللّوى : مستدقّ الرمل . (ينظر : ابن منظور ، اللسان ،12/ 356)الصّريم : قطعة معظم الرمل (ينظر : ابن منظور ، اللسان ،7/ 306).العُذيب : اسم مكان ـ ماء لبني تميم ـ (ينظر : ابن منظور اللسان 9/ 98). غُرب : جبل بالشام .(ينظر : ابن منظور ، اللسان ،10/ 35)

(2) ابن الأبار ، الديوان ، ق 194 ، ص 414 .

كالأُمَّـهاتِ أَوَتْ إلى أطفالِـها　　　فَرَمتْ عليها الرزقَ مِن قُمْصانِها

ولم تكن تختلف هذه القطعة عن سابقتها ، في بيان تَذكُّر عهد الرصافة الماضي ، الذي أبقى في قلبه لوعة لا تنطفئ ، باستثناء الصورة البديعة ،التي شبّه فيها إفضاءَ الجداول المائية إلى الغدران كالأمهات يرمين من قمصانهن طعاما لأطفالهن بعد إيوائهن إليهم . فحاول الشاعر بذلك أن يمزج بين صورة طبيعية وأخرى بشرية في تمازج بينهما رقيقٍ ، يدل عن انسياب من الجدول وانتظار من الغدير ليحتضن هذه المياه الرقراقة ، والتي تعد مظهرا مائزا للطبيعة الأندلسية عامة ، والرصافة بخاصة .

وفي القطعتين التاليتين يتحسر، ولكنه لا ييأس من العودة إليه وزيارتها ؛لأنه صار يتمنى مجرد زيارتها إن استطاع ؛ ليتذكر فيها مغانيها وساحاتها ، وأصيلها المذهب، وصباحها المشرق فغدت الرصافة أرَبَه ومذهبَه الوحيد الذي يدين به .

ولكنه في حقيقة الأمر لار جعة للشاعر إلى رصافته ، ولم يبق له سوى أن يزف تحيته إلى كل مَنْ وَدَّعَ تَوْديعَ شرخ الشباب ، والشباب لا يعود !.. وانطوى زمنه كما يطوى الكتاب .

فقال [الطويل] (1):

يَقَـــرُّ بِعيني أنْ أَزُورَ مَغانيًا　　　بِساحتِها كُنّـا نَخُوضُ ونلعَبُ
ذَا العيشُ غَـضٌّ والشبيبَةُ لَدْنَةٌ　　　وسافِرُ وجهِ الحُسْنِ ليسَ يُحَجَّبُ
فكُلُّ صباحٍ في الشروقِ مُفَضَّضٌ　　　وكلُّ أصِيلٍ في الغروبِ مُذَهَّبُ
ومَا أَرَبِي إلا الرصـــافةُ لو دَنَتْ　　　وهلْ لِلهوَى إلا الرصافةُ مَذْهَبُ

وقال [السريع](2) :

تحيَّـةُ اللهّ على مَعـــــشَـرٍ　　　ودَّعْتُهُمْ توديعَ شرْخِ الشّبابْ
كانُوا وكُنَّا زَمَنًا وانْقَضــَى　　　مَا بينَنا مثلَ انْطــواءِ الكِتـابْ
إنْ أَنْصَفُونِي لمْ أَسَلْهُمْ سِوَى　　　أَنْ يَجعَلُوا العُتْبَى مَكانَ العِتابْ

(1) السابق ، ق18 ،ص66 .

(2) نفسه ، ق31 ، ص 90 .

وقال في ذات الموضوع يندب بلنسيته ، وقد أخذ منه الشوق والهوى مأخذا عظيما متحملا في كل ذلك السهد والسقم .وحينما يتذكرها تفيض عيناه بالدموع شوقا ووجدا فيقول [الخفيف][1]:

لاَ تصُدُّوا فربما ماتَ صَدًّا مُستَهامٌ لِسَلوةٍ ما تصدَّى
جعلَ السُّهدَ في رضاكم كرَاهُ واكْتَسَى في هواكمُ السُّقْمَ بُرْدا
رامَ أنْ يُخْفِيَ الغرامَ ولكن لم يجِدْ مِن إبداءِ خافيهِ بُدّا
كُلّما هَبَّ الصّبا ذَكَرَ الشّو قَ ففَاضتْ عيناه شَوقًا و وجْدا
وإذاَ بارِقٌ تألّقَ في المُزْ نِ حَكَى ذاَ وذاكَ ودْقاً و وَقْدا

و من الشوق إلى الرصافة ، يحن الشاعر إلى ما كان يربطه بأشد رباط ،وهوالحنين إلى مجالس العلم ، ولا عجب في هذا الشعور تجاه العلم وأرباب المعارف ، فهو الذي كان يجلس بينهم يتلقى من أفانينه ما يُشبع به نهمَه ، ويجالسهم ؛ يعلّمهم ويبصرهم بما فتح الله عليه في هذا المجال ؛ لأنه تربّى في حجور العلماء ، بدءا بأبيه الذي رعاه أحسن رعاية وعلّمه وأعدّه أحسن إعداد ، وسلّحه بأقوى سلاح ؛ سلاح العلم والتقوى ، وانتهاءً بشيخه أبي الربيع الكلاعي الذي لازمه عَقْديْن من حياته ؛ قضى فيهما بياض نهاره وسواد ليله مُكبا على التلقي دون ملل والتثقف دون كلل فقد استطاع بعد وفاة معلمه الثاني أن يجلس بين الناس قاضيا ، وفي مجالس السياسة كاتبا ومستشارا مستنيرا بكلام الله الذي يحفظه ، يقول في ذلك [الطويل] [2]:

أَحِنُّ لأَرْبابِ المعارِفِ بالتُّرْبِ وأَرْجُو بهم شَفْعَ الصّنيعةِ بالرَّبّ
مكانَ اعْتمادِي واعْتدادِي جعَلْتهم وتُدَّخَرُ الأعلاقُ لِلحِقَبِ الشُّهبِ
وهلْ دَرَكٌ في أَنْ تقَرَّبْتُ منهم بِأَسْنَى أُناسٍ أحرزُوا دَرَكَ[3] القُرْبِ

(1) السابق ، ق 77 ، ص 175 .
(2) نفسه ، ق 33 ، ص90 .
(3) درَك (الأولى) : تبِعَة .(ينظر : ابن منظور ، اللسان ،4/ 326) * دركٌ (الثانية) : درَجَة .(ينظر : ابن منظور اللسان ،4/ 328)

تلَقَّوْا جَنَى القرآنِ غضًّا عن الذي   أتَـى خاتِمًا لِلرُّسلِ في خاتـــمِ الكُتب
أطُوفُ بِناديهم رجَاءَ نَـــداهم   كذاكَ انْتظامُ الطيرِ في مَنثَر الحــَبِّ
همُ القومُ لا يشقَى جليسهم بهـم   وحسبيَ أنْ يَغْشَى مجالسَهـم قلبــي

وقد أبان ابن الأبار عن شعور الشوق ، حينما تقدم به العمر ،ولم يعدم وسيلة الكشف عن حبه لأهله ووطنه في معرض حديث الذكريات . ويطالعنا في هذه المناسبة بعاطفة مشبوبة بالحكمة التي طالما استخلصها الشاعر في حياته السياسية والاجتماعية الطويلة ، فهو الذي تقلّب في مناصب الكتابة الديوانية في بلنسية ،وعايش هذه الظروف السياسية المحتنقة مع أكثرمن أمير . فها هو يسكب عبر أبيات دموعا غزارا على حاله الذي آلَ إليه بعد أن أُخرجَ هو وأهله من موطنه حنقا ، وزُحزحوا عن الجيران ضغنا ،تاركين أموالهم وأرزاقهم وبيوتهم يرتع في حماها الكفّار وجنةً حلّ بساحها أهلُ النار ..لهذه الأحوال المزرية يدعو الشاعر الثكالى والمرحَّلين من أهل وطنه أن يتمسكوا بالصبر ، الذي بقي لهم سبيلَهم الوحيد وملجأهم الفريد فيقول [البسيط][1]:

وَطِّنْ على الدّائبَيْن:الدّمعِ والشـجَن   يا نَادِبَ الذَّاهبَيْن:الأهــلِ والوَطَـنِ
وَاسْكُنْ إلى الصّبرِ في إلمَامها نُـــوَبا   أَوْدَت ْعلى عَقِبِ المســْكونِ بالسَّكَنِ
كزعْزَعِ الرّيحِ صَكَّ الدَّوْحَ عاصِفُها   فلم يُــدَعْ مِنْ جَنًى فيهِ و لا غُصُـنِ

....

بِـرَاحَتِي رَايةُ الأشْجَـــانِ أحْمِلُها   وإنْ غَدَا الجسْمُ وَهنًا ليسَ يحمِلُـنِـــي

....

همْ أخْرَجُونا مِن الأوطان عن حَنَقٍ   وزَحْزَحُونا عن الجِيرانِ مِن ضَـــغَن
فَكَمْ لَقِينَا على الأمصــارِ مِن فَـنَدٍ   وكمْ تَرَكْنا لَدَى الكُفَّار مِـــن فَدَن[2]
وَاهًا وآهًا يموتُ الصبـــرُ بينهـا   مـوتَ المَحامِدِ بينَ البُـــخل والجُبُنِ

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق 149 ، ص320 .
(2) فنَد : عجز وكفر للنعمة . والفنَد أيضا الخطأ في الرأي .(ينظر : ابن منظور ، اللسان ،10/ 318) و **الفَدَن** : البناء المشيّد .(ينظر : ابن منظور ، اللسان ،10/ 195)

لِجِيرةٍ أصْبَحُوا أيْدِي سَبَأً شــيَــعًا   هـذا ومَا عِرَّسُوا في عَـــــرْصَةِ اليَمنِ
وجنّةٍ حَلَّ أهلُ الـنَّارِ ساحتَــها   لم يُغْـنِ حمْلُ القـــنَا عنها ولا الجُنَنِ

كانت الغربة تجربة مفجّرة لينبوع شعر الشوق والحنين الحقيقي ، الذي غدا يستقل بقصائد خالصةٍ فيه . وكانت الغربة فيه أنواعا ؛ منها الخروج لأجل التكسب والاسترزاق في بلاط الأمراء والأعيان ، فكانت بذلك الحاجة الملحّة هي سبب غربتة الشاعر ومنها الخروج اضطرارا لأوامر يتلقاها الشاعر ، بحكم مسؤوليته ووظيفته ،وذلك ما حصل لابن الأبار حينما خرج مرغما مع سيده أبي يزيد إلى بلاد النصارى باعتباره كاتبا تابعا له . فلبّى الطلب على مضض وما يؤكد لنا ذلك تبرمه وضجره من هذه الأمرية غير المرغوب فيها ،خاصة وأنها جلبت عليه نقدا لاذعا وسخطا كبيرا من قبل أهل بلنسية، وقد حاول إقناعهم برد يحفظ له أمامهم ماء الوجه مبررا فعلته بأنها كانت طاعة لولي أمره ووفاء له ، لا خيانة وهروبا خاصة وأن سيده الذي رافقه بقي هناك عند النصارى ،دليلا على أن نيته كانت مبيّتة ، ولم يكن يُعلم رفيقَه الشاعر بما نوَى . فخامرَ الشاعر من الشوق إلى أهله وداره ما أحرق فؤادَه و جعله ينسى النوم والراحة ،فعبَّرعن ذلك في قوله ، في الشوق إلى دياره وأهله ، ولعل ذلك كان لمَّا خرج مع سيده إلى بلاد النصارى . [الوافر][1] :

إلى الإلْفَيْـنِ مِن أهــلٍ ودار   تأوَّبَني اشْتياقِي وادّكــاري
وحَنَّ القـلبُ أعـشاراً إليها   حنينَ الوالهاتِ مِن العشــار
فبِــتُّ كأنّي تَـوْقاً وشَـــوقاً   على مثلِ الأسنَّةِ والشّفـــار
وما حشْوُ الضّلوعِ سِوى أوَارٍ   وما نومُ الجُفونِ سوى غِرارِ

وإن كان ابن الأبار قد هاجه الشوق إلى أهله وأحبابه ، وهو بعيد عنهم ، فلم يُنسِه ذلك إخلاصَه ووفاءه لهم ولأيامهم ،حتى وإن كان في أحلك الظروف . وفي الوقت ذاته يُلقي باللوم على الذين يَبِينون عنه ، وهومنهم مقرب لا ينزح ، قال [الكامل] [2]:

---

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق 89 ، ص199 .

(2) نفسه ، ق55 ، ص130 .

يا أَهـلَ وَدِّي لِمَ أَرُومُ تَـــدَانيا ... منكمْ ودارُكُم تَبِينُ وتَنْــزَحُ
إِنْ كانَ جِسْمِي شّطَّ عن مَثْواكمُ ... فالقلبُ ثاوٍ بيــنكم لا يَبْرَحُ
هذِي الجوانحُ بالجَوَى مـمْلوءةٌ ... مِمَّا أَمِيلُ لكم ومِمَّا أَجــنَحُ
لا تحسَبُوا الريحَ السَّمُوم هي التي ... هَبَّتْ عليكم في الهواجرِ تلفَحُ
أنفَاسي الصُّعَدا(ءُ) تِلكم هَاجَها ... شوقٌ إليكم بالفؤادِ مَبَــرَّحِ

وفي مجال الشعر الديني ، الذي لوحظ انتشارُه أكثر في الأندلس على عهد الموحدين : **((فقد ازدهر هذا اللون من الشعر ازدهارا كبيرا ، وغدا من أوسع الموضوعات التي تناولها الشعراءُ ...وكان وراء ازدهار الشعر الديني بواعث عديدة ، لعل أهمها يكمن في تلك المحن السياسية والاجتماعية التي تعرضت لها الأندلس في هذا العصر ،بالإضافة إلى الطابع الديني الذي كانت عليه دولةُ الموحدين ،والذي أسهم في نمو بعض الموضوعات الدينية ...))** .[1] يُنشد متشوقا إلى البقاع الحجازية ، طالبا من الأمير الحفصي أبي زكريا أن يخلي سبيله ؛ لأجل تحقيق أمنيته ، وطلبا للراحة التي ينشدها ودفعا للهموم والأحزان التي أثقلتْ كاهله ، فيقول [الطويل][2] :

ويرتاحُ لِلرَّوْحاءِ قَلْبِي وفَجِّهَا ... إذَا سَلَكَتْ شِعبًا رِكابِيَ أو فَجّا

وإلى جانب الموضوعات السابقة ، التي أفرد لها الشاعر قطعا متفاوتة الطول ، يطالعنا في نُتفٍ وأبيات مفردة عن تجاربَ شعريةٍ متنوعةٍ ؛ ومنها تسجيل شعوره بأزمته لَمَّا كان بأرض النصارى مع سيده . فعلى الرغم من حُسن الاستقبال الذي حظيا به (الشاعر وسيده)، إلا أن ابن الأبار ـ الشاعر ـ لم يكن يهدأ له بال ، ولا ارتاح له ضمير ، ولا غمض له جفن ؛ لأن السلم بين الكفار حرب ، وهو الرجل المسلم !.. ولعلَّ البيت الذي يقول فيه :

فَعَلَيَّ فَلْتَبْكِ البواكِي إنَّــني ... أُخْرِجْتُ مِن وَطَنِي ولَسْتُ بِمجرِمِ

ينقل بكل أمانة حقيقةَ مشاعر الرجل وهو بين أهل غيرِ أهله ، وفي وطنٍ غيرِ وطنه ، ويسمع لغةً

(1) فوزي عيسى ، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، . ص 192 .
(2) ابن الأبار ، الديوان ، ق 4 ، ص 439 .

غيرَ التي تعوَّد سماعها . وحظه التعس ـ دائما ـ أنه كان برفقة سيده طاعة ووفاءً . إلا أنه يحمد الله على أنْ لاَ ولدَ يصحبه ، ولا أهل معه ، وإلا لكان العذاب مضاعَفا ، و في ذلك يقول [الكامل][1]:

لاَمَ المُحِبُّونَ الفـــــراقَ ولُمْتُهُ لكنَّهم سَئِـمُـــــوا ولَمَّا أَسْـأَمِ
ظَعَنُوا وَهُمْ قد ودَّعُوا أوسَلَّمُوا وظَعَنْتُ غـيرَ مُـوَدِّعٍ ومُسَـــلِّمِ
فَعَلَيَّ فَلْتَبْكِ البواكِي إنَّـــــنِي أُخْرِجْتُ مِن وَطَنِي ولَسْتُ بِمجرِمِ
وأُضِعْتُ يومَ وُضِعْتُ بِأرضٍ بهَا يغْدُو الفصيحُ مُعَظَّـمًا للأعْـــجَمِ
لا أسْتَرِيحُ بِـــغيرِ لِيْـلِ أَلْيَـلٍ أَشْكُو تَطـــــاولَـهُ ويـوْمٍ أَيْـوَمِ

و يقول أيضا [البسيط] [2]:

الحمدُ للهِّ لاَ أهْلٌ ولاَ وَلَدُ ولاَ قَرارٌ ولاَ صبرٌ ولاَ جَـلَدُ
كانَ الزمانُ سِلماً إلى أبَدٍ فعادَ حرْباً لَنَا لَمَّا انْقَضَى الأمَدُ

ويذكر المؤرخون أنه جرى في بعض الأيام ذِكْرُ مَولد الواثق وليّ العهد وطالعـه وسـاءَل عنـه السلطان بعضَ مَنْ حضَر، فاستبهم ، فغدا عليه ابن الأبار بتاريخ الولادة وطالعها فـاتُّهِمَ بتوقّـعِ المكروه للدولة الحفصية والتربص بها .

ولكن هذه المرة لم ينْفِهِ السلطانُ ، نظرا إلى تقدّمه في السنّ ، بلْ احتقره وأهمله ، فآلمَ ذلك الشاعرَ المغضوبَ عليه كثيرا ، فأنشأ قائلا [الوافر][3] :

عَلَتْ سِنِّي وقَدْرِي في انْخِفَاضِ وحُكمُ الرَّبِّ في المَربُوبِ مَاضِ
إلى كَمْ أُسْخِطُ الأَقْـدار َحَـــتّى كأنّي لم أكُـــــنْ يَـومًا بِراضِ

وكان لذلك عظيم الأثر على حياة الشاعر ، مسَّته حتى في صنعته ، التي يجيدها ، وبها يعرف ويبجّل ؛ لقد تبرّأ منه شعره ونثرُه ؛ بسبب الوضع المأساوي ،الذي وُضع فيه .

---

(1) السابق ، ق135 ، ص292 .

(2) نفسه ، ق 80 ، ص178 .

(3) نفسه ، ق18 ،ص448 .

ولعلّ السبب الوجيه في ما آل إليه يكمن في أنه يعاني أزمة نفسية خانقة ، حاك خيوطَها العدوُّ البغيض ، الذي عكّر صفو حياة الشاعر . وما أزمته إلا تمثيلٌ لأزمة الأندلسيين برمتهم فحاله البائس يترجم أحوال إخوانه المسلمين ، الذين طُردوا من ديارهم ، بعدما سُلِبُوا أقواتهَم وأموالهم وكلَّ ما يملكون ، وما حسرة ابن الأبار إلا حسرة الآلاف من أهله وأبناء وطنه . لذلك لم يعد الشعرُ يطاوعه ، ولا النثر يواتيه [الطويل] (1) :

تبَرَّأَ مِنِّي ،وَيْحِي النَّظمُ والنَّثْرُ فَلا خُطبةٌ مِمَّا أُجِيدُ ولا الشِّعْرُ
وأَيَأَسَنِي مِنْ ذاَ وذاكَ تبَلُّدِي وَمَا لامرِئٍ ذَنْبٌ إذا وَضَحَ العُذْرُ

ولم يكن شيخُه ، الذي تَلقَّى على يديه العلم والمعرفة ذا مكانة عادية في قلبه ، وإنما كان بالنسبة إليه بمثابة الأب الثاني ، بخاصة لمّا افتقد الأول ؛ فهو المدافع عنه وحاميه، يتحدى به حتى الدهر، كما يقول [المجتث](2) :

إنْ شِئْتَ يا دَهْرُ حَارِبْ أو شِئْتَ يا دهرُ سَالِمْ
فـصَارِمِي و مِجَنَّتِـي أَبُو الربيعِ بن سالِمْ

وقال رادا على قومه، الذين يعيبون عليه كلَّ تصرفاته ، ويَعُدُّون توقفَه واستراحته خمولا وكسلا ، ولكنها في الحقيقة نباهة ورجاحةُ عقل ، يقول [الطويل](3) :

يُعَيِّرُنِي قومٌ بِجَفْوَةِ سُلْطَانِي ويَشْفيهمْ شكْوَى بِنَبْوَةِ أوطانِي
يَرُمْنَ خُمولاً عُطلَتِي لِتوقُّفِي وتلكَ على مَحْضَ النّباهةِ بُرهَانِي
وقَالُوا:خفُوفٌ ،قُلْتُ:لا بلْ رجاحةٌ كَفَتْنِي إلْقَاءً بِكَفِّي لإِذْعانِ
إذاَ عَهِدُونِي لِلنّزاهةِ راكِباً فَصَعْبُ الأَسَى سَهْلٌ وإنْ هَدَّ أركانِي

لقد كُتب للشاعر ابن الأبار أن يعيش غربتين ؛ غربة عن أهل عصره مذْ كان في بلنسية واشتدت عليه سهام اللّوّام أكثر لَمَّا خرج مع سيده إلى بلاد النصارى ، فكادت تكون القطيعة بينه وبين أهل

(1) السابق ، ق96 ، ص215 .
(2) نفسه ، ق31، ص458 .
(3) نفسه ، ق34 ، ص460 .

وطنه بهذا الصنيع ، وغربةٍ غُرِّبها كَرهًا لَّما خرج من بلنسية لِلاَرجعة إلى العدوة الإفريقية (تونس تحديدا) بعدما سُلِّمت مراتع صباه وعنوان شبابه ، وصورة أحلامه :

((...وخَرجت بنا الروم إلى حيث الأعراب ، أيامَ دُفِعْنا لأعظمِ الأخطاروفُجِعْنا بالأوطان والأوطار، فإلامَ نُداري برْحَ الألم ، وحَتَّامَ نُسَاري النجمَ في الظُّلم ،جمع أوصاب ما له مِن انفضاض ، ومضض اغتراب شذّ عن ابن مُضاض[1]،فلو سمع الأول بهذا الحادث ما ضرب المثل بالحارث... وأما الأوكان المحبّبُ عهدُها بِحُكم الشباب،الُمشبَّبُ فيها بِمحاسنِ الأحباب، فقد ودَّعْنا معاهده وداعَ الأبد ، وأخْنَى الذي أخنى على لُبَد،أسلمها الإسلام وانتظمها الانتثار والاصطلام ،حين وقعتْ أنسُرُها الطائرة ،وطلعتْ أنحُسُها الغائرة ، فغلبَ على الجذلِ الحزنُ وذهبَ مع المسكن السَّكن..)) [2]. ممَّا زاد الأمر عليه محنةً ، وغربة على غربة.

فكانت لذلك أنفاسه تعبيرا عن ذكريات الصبا والشباب ، يتفيأ ظلال رصافته ، التي بقيت محفورة في ذاكرته ، مهما غُرِّبَ أو أُبْعِدَ .

كما كان حظه التعس يسوقه دوما إلى المشاكل ،التي كثيرا ما أغضبت حكام الحفصيين لاسيما أبو زكريا الذي كان أول مَنْ قرّبه إلى جواره ، والمستنصر الذي كانت على يديه نهايته .

---

(1) يريد الحارث بن مضاض الجرهمي ، وله في تفرق جُرهُم قصيدة باكية (ينظر : المقري ،النفح ، 4/ 497).

(2) هذا مقتطفٌ من رسالة ممتعة لابن الأبار ، التي أجاب أبو المطرف عنها. (ينظر: المقري ، نفح الطيب من ص496 إلى ص 499) .

2 ـ حِكَم و زهد ونبويات :

لقد كان لابن الأبار تجاربُ في الحياة ، في العدوتين (الأندلسية والإفريقية) ، فهو الذي امتُحن امتحاناتٍ ، في ظروف صعبة ،وفترات عويصة ، في السلم مع أهله ، والحفصيين وفي الحرب مع النصارى الأراغونيين ، متأسيا في كل ذلك بفرج من الله قريبٍ ، يخفف الوطءَ إذا وثق في لطفه ـ جلّت قدرته ـ قال الشاعر [الرمل][1] :

يا شقِيقَ النَّفسِ أُوصِيكَ وإنْ شَقَّ في الإخلاصِ مَا تنْتَهِجُهْ
لاَ تَبِتْ في كَمَدٍ مِن كـــــبَدٍ رُبَّ ضِيقٍ عَادَ رَحْبًـا حَرِجُهْ
وبِلُطْفِ اللهِّ أَصْبِـحْ واثِـقــاً كُلُّ كَرْبٍ فَعَلَـــــيْهِ فَرَجـهْ

وبعد مغادرة ابن الأبار لبجاية وجوّها ، الذي كان مليئا بالفوائد العلمية ، أخذا وعطاءً متوجها إلى تونس ، بجانب الدولة الحفصية ؛ هذه المكانة التي ساعده فيها شيخُه وصديقه " أحمد بن عميرة " أين وجد أتمَّ الترحاب وأحسن الاستقبال من قبل (أمير المؤمنين) ، غير أن النحس باتَ يلاحقه في كل مرة ، ومع كل خطوة يخطوها ؛ فكِيدَتْ له المكائد ، واتُّهم بأبشع التهم فكانت نهايته . وأدرك ابن الأبار ـ ولكن بعد فوات الأوان ـ أن خدمته للحكام وتفانيه من أجلهم وتنازله لهم عن بأوه وأنفته بلغ درجة الإذلال والاحتقار، وليته فعل كل ذلك مع المعبود الذي لا يرد عبده!.. ـ كما صرح ـ و لم ينلْ رضاهم وعطفهم في كثير من الأحيان ،كان غلطة كبرى فيقول [المتدارك][2] :

حُرِمْتُ الرَّشَادَ لأنِّي سَفاهاً خدَمْتُ الملوكَ وهمْ أَعْبَدُ
وَفِي رَغَبَاتِي لهــم جئْتُ إِدًّا فَهـلاَّ رغِبـــْتُ لِمَنْ أَعْبُـدُ

ولم يكن يغيب على الشاعر، وهو الذكي ، الفطِنُ ،أن يستوعب حياة المجتمع الذي يتعامل معه وأقصد به مجتمع الساسة ورجال الحكم ، الذين يغدقون في المنح إذا أحبوا ورغبوا ويبالغون في

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق46 ، ص110 .
(2) نفسه ، ق82 ، ص178 .

لمنع إذا كرهوا ورهبوا ، فيقول [الكامل] (1):

الجُودُ يَنْفَعُ في الوجُودِ ولنْ ترَى   مَنْ يَكْفُرُ النُّعْمَى سِوى الإنسانِ
فإذَا رأَيْتَ مِنَ الأكارِمِ مُحْسِناً   فاحْـرُزْ عليـــهِ آفـةَ الإحْسَانِ

وفي سياق الصّد ، الذي يلاقيه الشاعر باستمرار من قبل خصومه الذين أقلقهم نجاحه وحُسّادِه الذين أزعجهم تقربُه من أولي الأمر ،ومكانته التي يحتلها بين مجالسهم يقول [مجزوء الكامل] (2) :

أَمْرِي عجيبٌ في الأمُورِ   بينَ التَّواري والظُّهورِ
مُسْتَعْمَلٌ عنـدَ المَغِيبِ   ومُهْمَلٌ عندَ الحُضُورِ

كان من أسباب شيوع شعر الزهد الحياةُ اللاهية ، التي كان يحياها الأندلسيون .

ولعل هذا الكلام ينسحب على كل الأطوار في الحضرة الأندلسية ، إلى جانب كثرة الحروب والفتن التي تؤدي في كثير من الأحيان إلى الموت ـ والموت خير واعظٍ للإنسان ـ واضطراب الأحوال السياسية ، ومحاولة النصارى القضاء على المسلمين أو على الأقل التقليل من شأنهم .

فكان من الطبيعي أن يكون لكل ذلك ردةُ فعل من قبل الزهاد ، الذين كان صوتهم حاضرا منذ العصور الأولى السابقة لعهد الموحدين، مستمدين قوتهم من مؤسس دولتهم محمد بن تومرت الذي عُرف بالزهد ، وله شعر فيه.(3)

---

(1) السابق ، ق155 ، ص326 .

(2) نفسه ، ق12 ، ص445 .

(3) **ابن تومرت** : هوأبو عبد الله محمد بن تومرت ، المنعوت بالمهدي الهرغي ،صاحب دعوة عبد المؤمن بن علي بالمغرب . وكان ينتسب إلى الحسن بن علي بن أبي طالب ـ رضي الل عنهما ـ وهو من جبل السوس في أقصيبلاد المغرب،ونشأ هناك ثم رحل إلى المشرق في شبيبته طالبا للعلم ، فانتهى إلى العراق ،واجتمع بأبي حامد الغزالي والطرطوشي وغيرهما..وكان ورعا ، ناسكا ، متقشفا ،مخشوشنا ، مخلولقا ،كثير الإطراق بسّاما في وجوه الناس مقبلا على العبادة ،لا يصحبه من متاع الدنيا ألا عصا وركوة.وكان شجاعا ،فصيحا في لسان العربي والمغربي.توفي إلى رحمة الله تعالى في سنة أربع وعشرين وخمسمائة ،ودلإفن في الجبل ، وقبره هناك مشهوريزار .(ينظر : ابن خلكان وفيات الأعيان لأنباء أبناء الزمان ، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر، بيروت ، لبنان ، دط ، دت ، 5/ 45 ، وما بعدها) .

وإن كان ابن الأبار يشترك مع كثير من الشعراء ، الذين يميلون إلى شعر الزهد عندما يبلغون من الكبر عتيا ، ويحسّون بخوار قواهم ، وضعف حواسهم ، فيكون بذلك تقدم العمر سببا مباشرا للجوئهم إلى حياة الزهاد ، فتنبع من أفواههم الحكمة بليغة ، وتخرج من صدورهم النصائح والتوجيهات بأن لا شيء يستحق تقديم حياة المرء فداءً مِن أجل منصب أو ترضيةِ حاكم ، مادامت السعادة في غير كل هذه الأشياء ؛ وإنما هي في البر والتقوى الذي يؤدي إلى النعيم والفوز بالمقام الكريم . كما يتوجه الشاعر الزاهد إلى الغافل عن الحقيقية الجوهرية في هذا الكون ، أن الذي يستحق العمل من أجله ،والسعي لإرضائه ليس الورى ولكن إِلَه الورَى الذي له القدرة عل المنح مثل المنع . يقول [الكامل](1) :

دُنْيـاكَ لِلأُخرى سبيلٌ سابـــــلُ   واعْملْ لها إنَّ الموفَّقَ عامـلُ
واحْرِصْ على نيلِ السّعادةِ جاهداً   بِالبرِّ والتقوى فَنِعْمَ النَّائـلُ
وأَعِـدَّ زاداً لِلرّحـــــيلِ فإنـما   أَيّامُ عُمرِكَ لوْعَقِلْتَ مراحلُ
إِيَّاكَ والأَمَلَ الكَذُوبَ فــرُبَّـما   أَوْدَى بِمَطْرودِ الغُرور الآمِلُ

وقال [الرجز](2) :

إلاَمَ في حَـلٍّ وفي رَبْـــطِ   تَخْبِطُ جهلاً أَيّما خَبْـــطِ
دَعِ الوَرَى وارْجُ إِلَهَ الوَرَى   فإِنَّهُ ذُو القبْضِ والبسْطِ
ليسَ لِمَا يُعطِيهِ مِن مـانـعٍ   ولا لِمَا يَمْـنَعُ مِن مُـعْطِ

ولو أمعنا النظر في أبيات ابن الأبار الزهدية ، لوجدناها نابعة من روح متشبعة بالمعاني الدينية؛ لأنه بنى هذا الأساس المتين منذ صباه ، يوم كان يتلقى هذه التعاليم من يدي أبيه الحانية حفظا للقرآن الكريم ، ودراسة لأحاديث الرسول ﷺ وحفظها حتى بلغ محفوظه منها حوالي

(1) ابن الأبار ، الديوان، ق115 ، ص252 .
(2) نفسه ، ق19 ، ص449 .

خمسة آلاف حديث ، إلى جانب ملازمته لشيخه أبي الربيع الكلاعي مدة طويلة ، قاربت العشرين سنة ؛ فأخذ منه الكثير من العلوم والمعارف وشؤون الحياة ، وتأثر به وبشخصيته ووقاره أيّما تأثر يقول الشاعر [الطويل][1] :

نَمُوتُ على الدُّنيا فَنَحْيَا بِلاَ دينٍ   هَوًى لِهَوَانٍ قَــادَنَا ولتوهِــين
وهَلْ هيَ إلا لِلمساكِنِ وَنَحْـنَا   مَساكِنَ فيها يَرتَعُــونَ إلى حِين
فَمَا بالُنَا لاَ نتَّقِـــي اللهَ رَبَّـــنَا   ونَدْعُوهُ في تحسِينِ عُقْبَى وتَحْصِين

ويقول [البسيط] [2]:

نَادَى المَشِيبُ إلى الحُسْنَى به ودَعا   فَثَابَ يشْعَبُ بالإقلاعِ مَا صَدَعَا
وبَاتَ يَخْلَعُ مَلْذُوذُ الكَرَى ثِقَــةً   بأَنَّهُ لابِسٌ مِن سُندُسٍ خِـــلَعَـا
مُستَبْصِراً في اتِّخاذِ الزُّهدِ مَفْزَعَـةً   لِيأْمَنَ الرَّوْعَ يومَ العرضِ والفَزَعَا
يسْعَى إلى صالِحِ الأعمالِ مُبْـتَدِرًا   وليسَ لِلمرءِ إلا ما إليهِ سَـــــعَىَ

فبالإضافة إلى نزعة الشاعر الدينية ، نلحظ من خلال أشعاره ـ هنا ـ كأنما يكفّر عن وقت ثمين ضَاعَ منه ، قضاه تزلفا من الأمراء وتقربا من الحكام لأجل نيل الحظوة ، وهو الذي لم يتعود على الهوان و ذل الحياة . فلأجل أن يحافظ على مستواه المعيشي ،الذي كان يحياه في العدوة الأندلسية نزل من بُرجه العاجي ،وتنازل عن بأوه وكبره ، وهو المعروف عنه ذلك كي يبقى بجانب أولي الحل والربط . اختار ابن الأبار هذا المسلك لنفسه ،وهو واعٍ لِما يفعل ومدركٌ لما يقوم به مع علية القوم ؛ لأنه يعترف في الأخير بأن ما كان له أن يضيّع كل هذا الوقت في خدمة الملوك سفاهة منه ، إلى درجة العبادة ؛ ليصل إلى رغباته ويحقق مصالحه نادما على ذلك ،ومتمنيا لو كان كل ذلك التعب والحرص الشديد على الحياة من أجل المعبود الذي وسعت رحمته كل شيء فيقول في هذا المعنى [المتدارك][3] :

---

(1) السابق ، ق157 ، ص327 .

(2) نفسه ، ق169 ،ص362 .

(3) نفسه ، ق82 ن ص178 .

حُرِمْتُ الرَّشَادَ لأنّي سَفاهاً   خدَمْتُ الملوكَ وهمْ أَعْبَدُ
وَفِي رَغَبَاتِي لهـــم جئْتُ إِدًّا   فَهَـــلاَّ رغِبْتُ لِمنْ أَعْبُدُ

فسارت بذلك قصائد الزهد الأبّارية في موكب القصائد " المكفِّرات " ، التي نظمها أصحابها تكفيرا عن ذنوب اقترفوها لمّا أغرقوا في الغزليات دون رعاية للذمم والأخلاق ، أو لمّا بالغوا في مدح ممدوحيهم إلى درجة تنزيههم عن كل الخطايا ، وجعلهم معبودين يُسجَد لهم ويطاع أمرهم . وقد كنا أشرنا إلى بعض هذه المبالغات في أمداح ابن الأبار لأبي زكريا الحفصي.

ويبقى ابن الأبار ، على الرغم من طموحه الجارف وراء إدراك غايته ، والتقرب من الحكام والأعيان ، واعيا بالأمور ،وبخاصة إذا ما تعلقت بالأقدار ، التي لا تخطئ إذا أرادت أن تصيب ولا راد لقضاء الله وقدره ، فيقول [الطويل] [(1)]:

أَمَا إنَّهُ قدْ خُـــطَّ في اللَّـوحِ مَا خُطَّ   فلا تعْتَقِدْ لِلدَّهرِ جَوْراً ولا قِسْـطَا
ولا تُسْخِطِ المقدُورَ وارْضَ بِما جرى   عليكَ به إنَّ الرِّضَى يَفْضُلُ السَّخْطَا

وفي النبويات كفرعٍ من الشعر الديني بصفة عامة ، يطالعنا الشاعر بمدائح نبوية ، شأنه شأن الشعراء الموحدين ، الذين إن لم يُعتبَروا مؤسسي هذا النوع من الشعر ، فإنهم يُشهَد لهم بأنهم توسعوا في موضوعاته ، وبرعوا في تناولها [(2)]، وانقطعوا إليها ، حتى غدا عند البعض فنَّهم الوحيد ؛ من مثل "ضياء الدين أبي الحسن علي بن محمد بن يوسف بن عفيف الخزرجي الساعدي" ؛ من أهل غرناطة قال عنه المقّري ((**ولا يُعرَف له نظمٌ في أحدٍ من العالم إلا في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم**)) . [(3)]

ويذكر المقري أيضا " أبا زيد الفازازي " ((**صاحب " الأمداح " في سيّد الوجود صلى الله عليه وسلم ، وهو كما قال فيه بعضهم : صاحب القَلَم الأعلى ، والقدح المعلى...له في مدح النبي ﷺ ، بدائعُ قد خضَع لهاالبان وسلّم ، أعجز بتلك المعجزات نظما ونثرا...**)).[(1)]

---

(1) السابق ، ق20 ، ص449 .

(2) ينظر : فوزي عيسى ، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، ص 192 .

(3) المقري ، نفح الطيب ، 2/ 195 .

ونظَم الشعراء قصائد خالصة في صفات النبي ﷺ وأخلاقه وفي مناقبه وآثاره .

وها هو ابن الأبار يقول في مدح نعل النبي ﷺ تبركا بصاحبه وتوسلا به ـ عليه الصلاة والسلام ـ [الكامل] [2]:

لِمِثالِ نعْلِ المصطفَى أُصْفِي الهوَى ... وأَرَى السُلُوَّ خـطيئةً لنْ تُغـــفَرَ
وإذاَ أُصَافِـحـُهُ وأَمْسَحُ لاثِمـًا ... أركانَـــهُ فـــمُعَـزِّزاً ومُـوقِّـرا
سِرُّ اعــتـزازي في جَهَار تَـذَلُّلي ... لِجلاَلِهِ أَثَــراً بِقـلـــبـي أَثَّـــرا
إنْ شَاقَ ذاكَ المثــــالُ فـطالَمَا ... شاقَ المُحِبَّ الطيفُ يَطْرُقُ في الكَرَى
لي أُسْوَةٌ في العاشقِينَ وقصـدِهم ... لَثْمَ الطّلولِ لأهــلِـهنَّ تَذَكُّــرا
وبُكائهم تلكَ المعاهــدَ ضِلَّـةً ... تحتَ الظَّلامِ على الغــرامِ تَوَفُّــرا
أَفَـلاَ أُمَرِّغُ في شَيْـــبِي راشِـداً ... وأُرِيقُ دمعِي وسْطَهُ مُسْتـــبْـصِرا
ثقةً بِإثـرائي من الخيراتِ فــــي ... شَغَفِي بِنَعْلَيْ خيرِ مَنْ وَطِئَ الـثّـرى

وأنشأ في التشوق إلى الضريح الشريف على الدفين به ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أبياتا يبدو أنها تدل على حرمانه من زيارة البقاع المقدّسة . ولم نقع من خلال البحث في حياة ابن الأبار أنه حجّ . لذلك نجد شوقه إلى هذه البقاع كان جارفا ، ولوعته في عدم إتاحته فرصة الزيارة كانت حارّة ، بل يُذكر أن أبا زكريا كان قد منعَه من ذلك [الكامل] [3]:

لوْ عَنَّ لِي عَـونٌ مِن المِقــــدارِ ... لهَجَرْتُ لِلـدَّارِ الكريمةِ دارِي
وحَلَلْـتُ أطْيبَ طِــينةٍ مِن طينةٍ ... جاراً لِمَنْ أوْصَى بِحِفـظِ الجـارِ
وركَعْتُ في صَحْـنٍ هُنالكَ طاهراً ... وكَرَعْتُ في مَعنٍ هُنالكَ جاري
حيثُ اسْتَنارَ الحـــقُّ لِلأَبْـصارِ ... لَمَّا اسْتَثَار حفائـــظَ الأنصـارِ
....

=

(1) السابق ، 4/ 468 .

(2) ابن الأبار ، الديوان ، ق10 ، ص443 ـ444 .

(3) نفسه ، ق11 ، ص444 .

يا زائرينَ الــقـــبرَ قبرَ محـــمدٍ بُشْــرَى لكُم بِالسَّبْقِ في الزُّوَّار

....

فُوزُوا بِسبْقِـــكُم وفُوهُوا بِالذي حَمَّلْتُكُم شَــوقاً إلى المُخـــتار

أَدُّوا السَّلامَ سَـــلِمْــــتُمْ وبِرَدِّهِ أَرْجُو الإجارةَ مَن ورودِ النَّـارِ

ثمّ اشْفَعُوا لي فالشّـــفاعةُ عندهُ فيها أُبَوَّأُ رُتبـــــةَ الأبــــرارِ

والمتتبع لأبيات الحِكم والزهد والنبويات يلحظ بأن الشاعر يعبّر عن حالة نفسية ، تُظهِر ندمَه على التقرب من الحكام والتودّد إليهم إلى درجة عبادتهم ـ كما عرفنا في مبالغاته التي أشرنا إليها ـ كأنه يحاول أن يراجع تصرفاته ويكبح جماحه التواقة إلى العيش الرغد ، الذي أَلِفَه في موطنه؛ لأنه العالم ، والشاعر والأثير عند الحكام ، وهو الذي يرى نفسه أفضلَ حتى من حكام الحفصيين عِلمًا وتجربة وحُسْنَ قراءة للأحداث والمستقبل .

ولم يكن نظْمُه في النبويات ، والتشوق إلى الضريح الشريف في حقيقة الأمر مجرد التلهف لأنه حُرِمَ زيارتها ، بقدر ما كانت ملجأً إليها لأجل الاغتسال من الذنوب وسوء التصرفات التي طالما تعامل بها مع المخلوقات ، التي لم تُقِلْ عثرته إلا بعد التشفع والبكاء بين أيديهم ونسي خالق هذه المخلوقات ، الذي يصفح ويغفر ويقبل التوبة من عباده ، حتى ولو بلغت عَنان السماء بمجرد أن يتوب العبدُ ، ما لم يأتِ الكبائر .

3 ـ رثـــاء:

كانت موقعة (أنيشة) يوما من أيام المسلمين المشهورة ؛ حيث خرج أمير بلنسة زيان ابن مردنيش في جيش للقاء الأعداء النصارى ، وكان ذلك يوم الخميس 20 من ذي الحجة 634 هـ / 14 أوت 1237 م ، وقد حاول المسلمون في هذه المعركة الاستيلاء على حصن (أنيشة) الذي كان يُعد جدارًا منيعا . وانتهت المعركة بهزيمة المسلمين هزيمة نكراء .

وكان شيخُه أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي من بين الشهداء الذين سقطوا في هذه المعركة الطاحنة ، عن عمر يناهز سبعين عاما، بعدما أبلى البلاء الحسن ، فانبرى التلميذ ـ الذي لم يحضر الموقعة ـ يرثي شيخه ، الذي كان له عليه عظيم الفضل،فيقول في قصيدة بلغت بيتًا ومِائةَ بيتٍ ؛ أفرد منها خمسين بيتا لشهداء الموقعة ، وواحدا وخمسين بيتا أخرى في رثاء أستاذه الربيع الكلاعي .

يستهل الشاعر الحزين قصيدته المطولة باستيقاف صاحبيه ـ كما فعل امرؤ القيس في معلقته ((قفا نبكِ...)) ولكن ليس على الأطلال ، وإنما على أجساد العُلى والمكارم التي لقيت حتفها بالقنا و الصوارم .

ولقد علّق الباحث " ماهر زهير جرار " على هذه القصيدة في أطروحته قائلا : ((**ولم يعُد قضية أطلال أصابها البلى والفناء ، وإنما غدت قضية في التبصّر الفكري...لقد استبدل بفعل البكاء فعلا يمثل الفرح والإيمان " فعُوجَا عليها مأربا وحفاوة...نُحَيِّ " ...ليستخلص معادلة الفرح في قلب الموت...**)) [1].

وشتان مابين الطللين ؛ طللِ امرئ القيس ، والصراع الوجودي الذي كان يؤرّقه صراع الموت والحياة ، وبين ما يثيره هذان الطللان لديه (البكاء)[2] ولدى ابن الأبار (الفرح) .

---

(1) ماهر زهير جرار ، ابن الأبار الأندلسي الأديب ، أطروحة(مخطوط) ، ص263 .

(2) إشارة إلى البيت الذي ينسب إلى امرئ القيس:

عُوجَا على الطللِ المحيل لعلنا　　　نبكي الديار كما بكى ابن حذام.

=

وشتان ما بين بِلى رسوم الشاعر الجاهلي ودارَسِ دياره ، وبين فناء أجساد المجاهدين في سبيل الله ، والتحاقها به ـ تعالى ـ لأنها حية ، مصداقا لقوله ـ عز منْ قائل ـ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ . [آل عمران : 169]

فيقول من ذلك [الطويل] [1]:

أَلِمَّا بِأشلاءِ العُـــلى والمكـارمِ تُـقَـدُّ بأطـرافِ القَنَا والصَّوارمِ

وعُـوجا عليها مَأرَباً وحفـــاوةً مَصارعَ غصَّتْ بالطُّلَى والجماجمِ

نُحَيِّي وجوهاً مِن الجِنان وجيهةً بِـها لَقِيَتْ حُمْراً وجـوهَ الملاحم

وفي سبيل الموت سار هؤلاء المجاهدون ، يحدوهم الأمل في نيل الشهادة ، وتسابقوا إلى الاستشهاد في سبيل الله قدما، مسرعين ؛ لأنهم يوقنون بجزاء مَنْ خرج في مثل هذا اليوم .

فهم قوم لا يخافون الموت ، وإنما يخافون أن يتأخروا عنه ،و يفوتهم أجرُ ذلك اليوم :

هـمُ القومُ راحُوا لِلشَّهادةِ فاغْتَدَوْا وما لهم في فوزهم مِن مُقاوِمِ

تَسَاقَوا كُؤوسَ الموتِ في حَومةِ الوغَى فمالَتْ بهم ميْلَ الغصونِ النَّواعمِ

مَضَـوْا في سبيلِ الله قُـــدْماً كأنَّـما يَطِـــيرونَ في أقدامِهم بقوادمِ

وفي البيتين التاليين ،نجد الشاعر يؤرخ لهذا اليوم العظيم ، الذي التقى فيه دعاة الحق ، مع دعاة الضلال ، واستشهد فيه خيرة رجال المسلمين ، وفاز بالشهادة شيخه وسميُّه أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي ،فكان ذلك يوم الخميس: 20 من ذي الحجة 634هـ وبمكان يسمى (أنيشة):

أَضَـاعَهُمْ يومَ الخـميسِ حفاظُهم وكَـرُّهم في المَـأزَقِ المتلاحم

سَقَى اللهُ أشلاءً بِسفْـحِ ((أنيشة)) سَوافِحَ تُزْجِـيها ثِقالُ الغمائم

(ينظر: ـ ابن سلام الجمحي ، طبقات الشعراء ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان إعداد اللجنة الجامعية لنشر التراث العربي ، دط ، 1968 ، ص 13) .

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق124 ، ص275 .

وبعد أن بيّن الشاعر مُضيَّ هؤلاء المجاهدين قدما ، من أجل النيل من العدو أو الشهادة في سبيل الله ، باذلين في ذلك الغالي والثمين ،شيبُهم وشبابُهم ، جهادا واحتسابا ينتقل إلى رثاء شيخه بواحد وخمسين بيتا معددا آثاره القيمة ، التي غارت بغيابه ،وانطفأ الكوكب المنير في الظلمات ليتركهم في ظلمات الجهل يتخبطون ، ويسيرون على غير هدى .

وافتقدته دور العلم التي كانت تمتلئ بصوته وجميل حديثه ،وانطفأ سناه ، وغاب طالعه .

ولم يبق في الدنيا شيء يُذكر بخير ، ولا متعة بعد غيابه ، فيقول [الطويل] (1):

قَضَى حاملُ الآثـارِ مِن آلِ يَعْرُبٍ ... وحامِي هُدَى المختارِ مِن آل هاشم

خَبَا الكوكبُ الوقَّادُ إذْ مَتَعَ الضُّحَى ... لِـنَخْبِطَ في ليلٍ مِن الجهلِ فاحـم

وخَابَتْ مَسـاعِي السامعينَ حديثَهُ ... كـما شاءَ يومُ الحادِثِ المتفاقـم

فأيُّ بَـهَـــاءٍ غَــارَ ليسَ بِطالِعٍ ... وأيُّ سَـناءٍ غـابَ ليسَ بِقـــادم

سلامٌ عـــلى الدُّنيا إذا(لم) يَلُحْ بـها ... مُحَيًّا سليمانَ بْنِ موسى بنِ ســـالم

وهلْ في حَيَاتِي مُتْعَةٌ بعـــدَ مــوتِهِ ... وقدْ أسْلَمَتْني لِلدَّواهِي الدَّواهـم

ولا غرو أن يكون هذا شعورَ التلميذ تجاه الشيخ العالم، الذي سلب لبَّه سهلُ منطقه مع شكيمته ، وسحرُ بيانه ، الذي فاق به كل بليغ ، وقارع به كل لسِنٍ:

لَهُ مَنطِقٌ سَهلُ النَّواحي قريبُــها ... فإنْ رُمْـتَهُ أَلْفَـيْتَ صعْبَ الشَّكائم

وسِحْـرَ بيانٍ فَــاتَ كُـلَّ مُفَوَّهٍ ... فبـاتَ عليـهِ قـارِعاً سِنَّ نـــادم

ثم يتوجه بالنداء إلى روح فقيد العلم والإسلام ، وشيخ الدين والعرفان ، مبديا له وفاءَه من قبل سادات القوم ، العارفين قيمته ، والواعين لفقده ، وخسارة الناس فيه ، ومهنئا له بدار النعيم التي لا يلج بابها إلا المتقون والمتخلقون :

فــيا أيُّها المخْــدُومُ عالٍ محلَّهُ ... فِـدًى لكَ مِن ساداتنا كُلُّ خادم

ويــا أيُّها المَختُومُ بالفوزِ سَعْيُهُ ... ألا إنَّـمَا الأعــمالُ حُسْــنُ الخواتِم

---

(1) السابق ، ق 124 ، ص280 .

هنيـــئاً لكَ الحُسْنَى مِن اللهِ إنها لِكُـلِّ تـقيٍّ خِـيمُهُ [1] غـــيرُ خائـم
تَبَـوَّأْتَ جنَّـاتِ النعيـمِ ولم تزَلْ نـزيلَ الثُّـريَّا قبلــها والنَّعــــــائم

وإظهارا للوفاء و تأكيدا عليه يحضر(أنَا) الشاعر في هذه الأبيات بقوة ؛لأنه أراد أن يفرد لشيخه الذي لن يراه بعد اليوم عبارات الإخلاص في أسمى معانيها ، وعَبَرات هامية وهو الأعرف بالفقيد ، والأعلم بمكانته ؛لأنه رافقه مدة عشرين سنة ،فاستوعب منه كل كلام وأفاد منه أيما إفادة ،مشبها بكاءه ببكاء النابغة الذبياني للنعمان بن المنذر ، وتأبينه بتأبين الشاعر عبدة بن طبيب في رثاء قيس بن عاصم . وما هذه بالنسبة إلى الشاعر المؤبن إلا عبارة عن إسهام بسيط تعبيرا عن جهد المقلّ ، وتحسّر شديد عن عدم اللقيا به في ساحة المعركة لأن الشاعر لم يكن فيها حاضرا ، بل بلغه استشهاده ،لأجل ذلك يقول [الطويل] [2] :

يُطالِبُـنِي فيكَ الوفاءُ بِغـــــايـةٍ سَمَوتَ لـها حِفْظاً لِتلك المواسمِ
وأبكِي لِشِلْوٍ بالعراءِ كما بَــــكى زيادٌ لِقبـرٍ بينَ بُـصْرَى وجاسمِ [3]
وأَعْبَـدُ أن يمتازَ دُونِي عَــبْدَةٌ [4] بِعلياءَ في تأبـينِ ((قيسِ بنِ عاصم))
وهذي المَراثِي قد وفَيْتُ بِرسمِها مُسَهَّمَةً جُهْدَ الوفـيِّ المُســـاهم
فَمُـدَّ إليها رافِـعاً يَـــدَ قابلٍ أَكَبَّ عليها خافِضاً فَـمَ لاثِـــــم

وقال يرثي أم الخطيب الفاضل أبي عبد الله بن قاسم ويعزي ابنها [5] [الطويل] [6] :

لَعلَّ قَسيمَ الفضلِ مِن آلِ قاسمٍ يُصيخُ إليـها نُدْبَةً مِن مُقاسـم

---

(1) خِيمه : بكسر الخاء: خُلُقه . * **غير خائم** :غير جَبَان . (ينظر : ابن منظور، اللسان ،4/ 264)
(2) ابن الأبار ، الديوان ، ق124 ، ص 283 .
(3) يعني قول زياد النابغة الذبياني في رثاء النعمان بن الحارث الغساني :
سقَى الغيثُ قبرا بين بُصرى وجاسم بغيث من الوسمي قطر و وابل
(4) **أعبد** : آنف .(ينظر : ابن منظور ، اللسان ،9/ 11) **وعبدة** : هو الشاعر عبدة بن طبيب القائل في رثاء قيس ابن عاصم: وما كان قيس هلكه ملك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما.
(5) هو محمد بن عبد الله بن قاسم شيخ ابن الأبار ، توفي سنة640هـ .
(6) ابن الأبار ، الديوان ، ق 129 ، ص 285 .

تَقَيّـَلَ فيها رأيُـــــهُ غيرَ آثـم وكمْ نادِبٍ مُسْتَصْحِبٌ حالَ نادم
وأَحسنُ ما أُعْطِيتَهُ علمُ زاهـدٍ وأَزيَنُ ما رُدِّيتَـــهُ زُهـدُ عالـم

....

سَقَى اللهُ قبراً أُودِعَ البِرَّ والتُّـــقى كما تُودِّعُ الأزهـارُ طَيَّ الكمائم
ويَمَّمَـها الرضــــوانُ أُمّاً كريـمةً لأوحَدَ مخصُوصٍ بِغُرِّ المكـــارم

....

مُباركَةٌ جاءتْ بِنجلٍ مُبـــارَكٍ له في المَعـــالي ساميات المَعـالم
نَهُوضٌ بِأعباءِ الديانـةِ مُـقْــــدِمٌ على الحقِّ إقدامَ الليوثِ الضراغم
تَنَسَّكَ لا يرجُو زمـاناً مـــلائما ولا يَتَّقـي في اللهِ لومـةَ لائـــم

....

فليسَ إذا صَـامَ النــهارَ بِمُفــطِرٍ وليسَ إذا قـامَ الظلامَ بِنـائـم
لهُ بسْـطَةٌ في العلم والحِلْم زانـهَا بِقَبْضِ الخُـطَى إلا لِكَفِّ المظالم

....

ومَنْ كَأبي عبدِ الإلَـهِ بنِ قاســـم لِصبرٍ وتفويـضٍ لدَى كُلِّ قاصـم
لكَ الخيرُ خُذْها مُغْضِياً عن قصورِها قـــوافِيَ أَعْيَا وصفُها كُلَّ ناظـــم
بَعَثْـتُ بـها أُبقِي رضاكَ مُساهِماً ومِثْلُكَ مَنْ أَرْضَاهُ سعيُ المُساهم

ولعلَّ المتمعن في هذه الأبيات يلاحظ أن الكلام كله كان موجها إلى شيخه أبي عبد الله ابن قاسم ، مسبلا عليه جميل الصفات ، وعظيم المكرمات ؛ من علم زاهد زيّنه بزُهد عالم ومكانة رفيعة بين القوم ، فهو القائم بأعباء الدين ، المقدم على الحق إقدام الأسود ، غيرَ هيَّاب والمتنسّك المتقي اللهَ ، الصائم بياضَ نهاره ، القائم سوادَ ليله ،مع بسْطةٍ في العلم وسعة في الحِلم ، وهي كلها صفات يعجز النظم عن إيفاء حقها ، يرسل بها الشاعر إلى شيخه ومعلّمه ترضية منه ووفاء لحق مَنْ يرضيه سعيُ المساهم .

والأبيات كما صاغها الشاعر على منوال الشعراء القدامى ؛ من مثل أبي تمام وغيره موظفا عبارة السقيا لقبر المُتوفّى ، كما فعل العرب قبلَه .

وقال الشاعر في رثاء أبي زكريا الحفصي المتوفى ببونة 22 جمادى الثانية 647هـ ومهنئا المستنصر بالخلافة [الكامل] [1] :

بِـينِي ثـلاثاً سَـلـــــْوَةَ الأيـامِ   أَوْدَى الحِمـامُ بِناصرِ الإسلامِ
ودَعَــا دِعامَـتَهُ إلى تعــــويضِـــها   تأْسِيسُهُ بالتُّربِ دارَ مَـــقــام
(و) دَهَى الورَى مِن ثُكْلِ هـاديهم بِمَا   أَعْـيَا على الأفهـام والأوهـــام
هذي الشُّجـونُ الجُونُ قد أّخذَتْ على   وَفْدِ العـزاءِ مَطـــالعَ الإلمـام

ويبدأ الشاعر قصيدته بإعلان واضح، صريح إلى الأيام ـ التي كان يتسلى فيها ويتمتع بها ـ بالطلاق ثلاثا ، وكان السبب في هذا القرار المفاجئ الموت الذي اختطف منهم ناصر الإسلام وحامي الدين والإيمان .وهو الذي أسس في الدنيا بأعماله دار بقائه حيًّا في الآخرة . ولم يكن المصاب عظيما على نفس الشاعر فحسب ، وإنما الأثر كان بليغا على كل الورى في ثكلهم بإمامهم وقدوتهم ، وخيّم عليهم الحزن، وأطبق على أنفسهم الغم والهم ،ثم يقول [الكامل] [2]:

تاللهِ لو قَتَلُوا عليهِ نُفُوسَهم   أَسَفاً لَمَا وَفُّوا قـضاءَ ذِمـام

وبيانا لعلاقة المودة والمحبة ، التي كانت تجمع الإمام برعيته ،نجد ابن الأبار في هذا البيت على درجة كبيرة من المبالغة عندما يُبيح للرعية قتلَ أنفسهم أسفًا ، وحتى وإن فعلوا ذلك ما كانوا ليوفوه حقه يوم كان حيًّا. وهذا دليل واضح على مدى تأثر الشاعر بفقدان الفقيد الذي كان يقربه منه ويُدْنيه من مجلسه لَمَّا كان بينهم .

---

(1) السابق ، ق 120 ، ص 262

(2) نفسه ، ق120 ، ص263 .

وبعد أبيات بيّن فيها صراع سيف الهدى (المتوفى) مع سيف الردى (الموت) وكيف انتصر الثاني الذي لا يُهزَم وذكر فيها فضائل الإمام المفقود ، ينتقل إلى ناموس الطبيعة وآيات الكون التي لا تتبدل قوانينها بتبدل الأحداث ، ورحيل البشر في تساؤلات وحيرة كبيرة .

وهو في هذه الحالة مِنْ أدرى الناس بقوانين الطبيعة التي يسيرها الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ إلا أنه أراد أن يشركها في حزنه وألمه ؛ لأن المصاب كان عليه جَلَلاً ، والمصيبة كانت فادحة كيف لا وهو الذي استضافه وأكرمه ، وفي حِماه يرتع ـ على الرغم من أخطائه ـ وفي رحاب ابنه المستنصر سيبقى معززا ، مكرما ،فحُقَّ له بأن يظهر التياعه ، ولو بالغ في تكثيف صور الحزن والوجد .

ثم يعود بعد هذه التساؤلات إلى الحقيقة الماثلة أمامه ، والمتمثلة في جسد يوارى التراب في (بونة) ، ومعه تبين حياته إلى لا رجعةَ [الكامل][1]:

مـا لِلنُّجومِ ، طـوالِعاً ؟ مـا لِلجبا ... لِ ، رَواسِيًا ؟ ما لِلبحارِ طَوامِيَ؟

لِمَ لـمْ تغُرْ ، لِمَ لَمْ تزَلْ ،لِمَ لَمْ تَغِـــضْ ... مِن شِـــدَّةِ الحسَـراتِ والآلام ؟

في بـونةٍ[2] بانَـتْ حياةُ المرتــضّى ... يَحْيَ وقِـيدَ إلى الثَّــرَى بِـزِمام

إلا أن هذا الواقع الماثل أمامه ، لا يمنعه من العودة مرة أخرى ـ وقبل أن يخلص إلى تهنئة القادم إلى الحكم ـ إلى الفقيد ليعدد أفضاله ، وحسناتِه التي غارت بأفول نجم الإمام وحامي الإسلام ،إلى مثواه في تربة وسلام:

لَمَّا ثَـوَى دارَ السَّـلامِ تَــــرَحَّـلَتْ ... عَنَّا مَحاسِنُ دَهرِنا بِسـلام

لا طِيبَ في الأسحارِ والآصـالِ مُــذْ ... طَابَ الثَّرى منهُ بَخيرِإمـام

عَطَّلَتْ ظُهورُ الأرضِ مِن تلكَ الحُلَى ... إذْ حُلِّيَتْ منها بُطُونُ رِجام

كانَ الزمـانُ يَضِيقُ عنـه جَــلالـةً ... فإذاَ بـه في تُربةٍ وسـلام

وبعد ثمانية وثلاثين بيتا خصها لرثاء فقيد الدين والدنيا ، يخلص في الأبيات المتبقيات إلى

(1) السابق ، ق120 ، ص263 .

(2) **بونة** : مدينة بالشرق الجزائري (عنابة ـ حاليا ـ) .

تهنئة الخليفة الجديد ، الذي طالما تشفع له عند أبيه ، لمّا كان الخصوم يؤلبون قلبه عليه ويوغرون صدره، فيغضب منه ويعاقبه بالطرد أو الاحتقار والترك .

ويعود بعقله قبل قلبه إلى الاهتمام بالحيّ ، الذي سيقضي معه من العمر ما كُتب له يمدحه ويبشر الناس بمقدمه ،إلى أن يختم مصرِّحا باقتفاء أثر الشاعر العباسي أبي تمام بقوله [الكامل] (1):

يـا خَجْلَتِي لِلفـكرِ أَقْعَدَهُ الأسَـى عن نهضـةٍ بِحقـــوقِها وقيام

كُنْتُ المُطِيلَ مُـهَـنِّئاً ومُـعَـزِّيـًا لـكنْ كَفانِيـــــها أبو تـمّام(2)

((تِلكَ الرَّزيَّــةُ لا رزيَّـةَ مِثْـلُـها والقِسْمُ ليسَ كسائرِ الأقسام))

وله مرثيات أخرى متنوعة ، خص بها إحدى قريباته ، وعزيزين عليه ومقربين ، وأبا زكريا الحفصي بقصيدة أخرى .(3)

ومن الغريب أن هذا الإخلاص من الشاعر لأبي زكريا ؛ حامي الإسلام ،وفقيد الأنام لا نجد له مقابلا لدى أهله وأبنائه ، الذين لم يودعْه أحدٌ منهم ؛ ويروي ابن عذارى المراكشي أنه لمَّا مات الأمير الحفصي ببلد العناب (بونة) سنة 647 هـ كان أولاده بتونس ، فأمر أن ينادَى على قبره بالصلاة على الغريب ، وقد خلَّف من الأولاد الذكور أربعة منهم كبيرهم

" أبويحي "الذي كان وليّ عهده ،توفي في حياته وكان " أبو عبد الله " وأخوه " أبو حفص " بتونس ، وأمهما رومية ، وأخوهما " أبو إسحاق " معهما ، فلم يحضر أحد منهم وفاته .

وأما وليُّ العهد أبو يحي ،الذي توفي في حياة أبيه ، فلم يتمالك عليه الأب أبو زكريا صبرا وحزن على فراقه حزنا شديدا ، إلى أن صار في أثره فقيدا ، وفيه يقول هذه المرثية التي طالتْ بها أنّاتُ

---

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق 120 ، ص265 .

(2) يشير إلى قصيدة أبي تمام ، يمدح فيها الواثق ويهنئه بالخلافة ويعزيه في ابنه المعتصم .والبيت الأخير من قصيدة أبي تمام (ينظر : الخطيب التبريزي ، شرح ديوان أبي تمام، قدّم له ووضع هوامشه وفهارسه :راجي الأسمر ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط3 ،1994 ، ص 101) .

(3) ينظر : ابن الأبار ، الديوان ، القطع :10، 27 ، 29 ، 35 ، 59 ، 94 ، والصفحات بالترتيب: 57 ، 88 ، 89 ، 94 ، 137 ، 209 .

الأب ،وامتدت جراحاته بعدما ضاع منه الأنيس ففقَدَ معه المال والولد والأهل لذلك سيبكي حتى يحدث الله بعد ذلك أمرا ،رادّاً إلى المولى العلي القدير الشأنَ في الأول وفي الآخر ؛ لأنه الحاكم العدلُ .[الطويل] :

ألاَ جازعٌ يبكِي لِفـقْدِ حبيبِــه فإنِّي لَعَمْري قدْ أَضَرَّ بـيَ الثكلُ
لقدْ كانَ لِي مالٌ وأهْلٌ فقدْتُهُمْ فأَصْبَحْتُ لا مالٌ لديَّ ولا أهْلُ
فلَهْفِي لِقومٍ فرَّقَ الدَّهرُ شمْلَهُم ألا راحةٌ تُرْجَى فينْتَظِمُ الشَّـمْلُ
سأبْكِي وأبْكي حسْرَةً لِفراقِهم بُكاءَ قريحٍ لا يُـملُّ ولا يســلّ
وإنِّي لأرْضَى بِالقضَاءِ وحُكمِه وأعلمُ ربِّـي أنَّه حاكِـمٌ عـدْلُ

والمتمعن في هذه الأبيات البسيطة لفظا ، الحسنة تركيبا يحس مدى ما تحمله من أحاسيس الأبوة تجاه الابن ،وعظيم التأثر بفقده ، كبير حزنه عليه .[1]

ومن جميل ما ترك أبو زكريا في مجال التأليف ،وبيان بلاغته وعلو مكانته في الأدب وطبقات الشعراء ، مطابقا للأدباء والنبهاء رسالتُه النبوية ، التي أنشأها إلى الحضرة االشريفة ؛ حضرة خير البريّة ـ صلى الله عليه وسلم ـ التي كان فيها : ((**فَذاًّ في البلاغة والبراعة ، بارعَ النظْم والنثر حسَن الألفاظ في البلغاء ، كثير الأدب واللغة في طبقات الشعراء ، وقد أثبتتْ هذه الرسالة النبوية ليستدلّ بها على فضله وبديع قوله رحمه الله تعالى**)) .[2]

لقد سار ابن الأبار في رثائه لشيوخه وأقرب الناس إليه على درب الشعراء القدامى بتوظيف بعض العبارات التي دأب العربي على استعمالها؛ كالدعاء بالسقيا لقبر الميت ،ومزج التعزية بالتهنئة بالخلافة الجديدة كما فعل أبو تمام في قصيدة يمدح فيها الواثق ويهنئه بالخلافة ويعزيه في

(1) ينظر : ابن عذارى المراكشي ، البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمَغرب ـ قسم الموحدين ـ تح:محمد إبراهيم الكتّاني وآخرون ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، الدار البيضاء،ودار الغرب الإسلامي ، ط1 ، 1985 ص391 ـ 392 .

(2) ابن عذارى المركشي ، البيان المغرب ، من ص 392 إلى ص 395 .

الآن ذاتهِ في ابنِه المعتصم ، إلى جانب المعاني والعبَرات ، التي أَلِف الشعراء الأوائل أن يسكبوها في مثل هذه المناسبات .

4 ـ هــجاء :

لم تتعدَ أبيات الهجاء في ديوان الشاعر أربعة أبيات ، قالها في مناسبات متنوعة ؛ أي أن ابن الأبار لم يكن هجّاءً ، على الرغم من مكائد الحساد وأفاعيل الحاقدين .

فقد حصلت بين الشاعر ابن الأبار وبين أبي الحسن علي بن شلبون المعافري البلنسي(1) مُهاجاةٌ ، فقال فيه هذا [الكامل] (2) :

لاَ تَعْجَبُوا لِمَضَرَّةٍ نالتْ جَمِيــ ـعَ النَّاسِ صادِرَةٍ عن الأَبَّارِ
أَ وَليسَ فَأْراً خِـلْقَةً وخليقــةً والفَـأْرُ مَجْبُولٌ على الإِضْرارِ

فأجابه ابن الأبار [الكامل]:(3)

قُـلْ لاِبْنِ شَلْبـونَ مَقالَ تَنَزُّهٍ : غَيْرِي يُجارِيكَ الهِجاءَ فَـجَـارِ
(إِنَّا اقْتَسَمْنَا خُطَّـتَيْنَا بَـيْنَـنَا فَحَمَلْتُ بَرَّةَ واحْتَمَلْتَ فَـجَارِ)(4)

ولعلَّ لتضمين الشاعر لبيت النابغة الذبياني إصرارًا على الإيقاع والنيل من خصمه نيلا كبيرا،

---

(1) **ابن شلبون** : هوأبوالحسن علي بن لُب بن شلبون المعافري ، من أهل بلنسية ،وكتبَ لِوُلاتها ، ثم وزَر لِمحمد ابن يوسف بن هود أول ثورته، سنة خمس وعشرين وستمائة. وكان من الأدباء النجباء . وتوفي بمراكش سنة تسع وثلاثين وستمائة. له قصائد متنوعة ؛منها قصيدة يرثي فيها الشيخ أبا الربيع الكلاعي،ومنها: خطْبُ الخطوب دها العلا مصابُه فَارْبأْ بِدمعكَ أن يقلّ مَصَابه .
(ينظر:ابن الأبار المقتضب من كتاب تحفة القادم ، تح : إبراهيم الأبياري ، دار الكتب الإسلامية ،دار الكتاب المصري ، القاهرة ، دار الكتاب اللبناني ،بيروت ، ط2 ، 1982 ص203 ـ 204 .) .

(2) ابن الأبار ، الديوان ، ق13 ، ص 445 .

(3) نفسه ، ق 13 ، ص 445 .

(4) البيت الأخير للنابغة الذبياني ، يتضمن مثلاً ؛أي كانت لي ولكَ خُطّتان ، فأخذتُ أنا البَرّة ، وأخذتَ أنتَ الفاجرةَ.والخُطة: القصّة والخصلة . وإنما قال هذا ؛لأن زُرعةَ دعاهُ إلى الغدر بِبني أَسَد ونقض حلفهم فأبى ذلك ، ولزم الوفاء والبرّ، ونسب زرعة إلى الغدر والفجور .وبرَّة : اسم عَلَم ،وصفة من البر، فلم يصرفه لأنه معرفة مؤنث ؛لأنه اسمٌ لِلخطة .وفَجَارِ : اسم معدول ، معرفة من الفجور؛ فبَنَاهُ كما بُنيتْ حَذامِ وقَطامِ (ينظر : ديوان النابغة الذبياني ، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ، ط2 ، دت ص 55) .

كما نال النابغة من (زُرعة بن عمرو بن خويلد) الذي لقيَ الذبياني بِعُكاظ وأشار على قومه بأكل بني أَسَد وترك حِلفهم ،فرفض النابغة الغدر ، وبلغ أن زُرعة يتوعّده فهجاهُ [الكامل] (1) :

نُبِّئْتُ زُرعةَ والسّفاهة كاسمِها   يُهدِي إليَّ غرائبَ الأشــعــار
فحلفْتُ يا زُرعَ بْنَ عَمْروٍإنَّني   مِما يَشُــقُّ على العدوِّ ضِــراري
أرأيْتَ يومَ عُكاظَ حينَ لقِيتَني   تحتَ العَجَاجِ فما شَقَقْتَ غُبارِي

وتتوالى المآسي على الشاعر متعاقبة، وهذه ضريبة النجاح والتفوق التي يقدمها الشاعر إلا أن بأوه وأنفته تفرض عليه في كل مرة أن يصدع بالحق ،ولو كان أمام وليّ النعمة لا ناكرا للمعروف الذي يُسدى إليه ،وإنما تعبيرٌ عما يحس ،بعدما يرى ويسمع ويعايش .

فالحاكم لم يكن يتأخر عن توقيع أقصى العقوبة ، حتى وإن كان المذنب أقرب الناس إليه خوفا على مصالحه ، التي لا يمكن بأي حال أن يتنازل عنها ، ولو كان ذلك يتطلب قطع الرؤوس لأي كان ، لذلك نجد ابن الأبار يلخص هذه الغلظة والشدة في قوله [السريع](2) :

عَصَى أَبَـاهُ وجَفَا أُمَّهُ   ولمْ يُقِلْ مِنْ عَثْرَةٍ عَمَّهُ

ولهذا البيت الشعري دلالته التاريخية في حياة أمير المؤمنين المستنصر بالله ـ كما كان يُتسَمّى في حين كان والده يُدعى بالأمير .

فبعد أن توفي الأب الأمير أبو زكريا ، بويع ولده أبو عبد الله بتونس ، وبعد مرور سنة وأشهر من ولايته أراد بعض الموحدين أن يخلعوه، ويبايعوا بدلَه عمَّه " أبا عبد الله اللحياني" وهو في بيته، والموحدون يتفاوضون في أمر توليته . وبلغ المستنصرَ ولي العهد الخبرُ ، فأمر باستدعاء بعض الفرسان ، وحضر " ابن أبي الحسين " خاصته ، وأبو جميل مردنيش وغيره من رؤساء الأندلسيين فأجمعوا أمرهم على الخروج إليهم للانتقام ، متسلحين بسلاح الغدر وكان لهم ما أرادوا ؛ وقبضوا مع العمّ على مَنْ كان معه ، وقتلوهم جميعا ، واجتمعت من رؤوس تلك الجماعة سبعةٌ وأربعون

---

(1) النابغة الذبياني ، ديوان النابغة الذبياني، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ،القاهرة ، ط2 ، دت ص 54 .

(2) ابن الأبار ، الديوان ، ق 39 ، ص 462 .

رأساً ، وحُملت إلى القصبة ،وعاين المستنصر رأسَ عمّه فتأسّف عليه حين سِيق إليه ،ثم أمر بدفنه، في حين عُلّقتْ باقي الرؤوس على السور ، إيذانا بالعقاب لكل مَن يفكّر في الخيانة والخروج على طاعة أمير المؤمنين فاستقامت للمستنصر الأمور ، ودامت خلافته قرابة سبع وعشرين سنة .[1]

كما نُسِب إلى الشاعر بيتٌ ، كان في النهاية من أسباب مقتله ،في الوقت الذي كان ينتظر فيه العفو من السلطان، إلا أن الحاسدين هذه المرةَ كانوا له بالمرصاد ، واستغلوا هذه الجفوة بين السلطان والشاعر في ظل التنافس الكبير الذي تشهده الساحة السياسية بين البَلَديّين من جهة، باعتبارهم الأولى في أي استحقاق ، وبين الأندلسيين بحكم مؤهلاتهم العلمية وتفوقهم على غيرهم واستحواذهم على المناصب الهامة في البلاط الحفصي ، فأوغروا صدر المستنصر ـ شديد المراس والبطش ـ على ابن الأبار ـ حاد المزاج وضيق الخلق ـ فدسُّوا على ما يَذكر بعضُ المؤرخين ـ على لسانه بيتا من الشعر يقول [المجتث][2] :

طَغَـا بِتُونُس خـلْفٌ   سَمَّوْهُ ظُلماً خَلِـفَه

فاستشاط لها السلطانُ ، وأمَرَ بامتحانه ، ثـم بقتْلـه ، فقُتِـل قعصًـا بالرمـاح ، وكـان ذلـك يـوم الثلاثاء :20 محرم سنة 658هـ/ 6 ـ1 ـ1260 م ، ثم أُحرقَ شلوُه ومجلداتُ كتبه وأوراقُ سماعه ودواوينه.

---

(1) ابن عذارى المراكشي ، البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمَغرب ـ قسم الموحدين ـ تح:محمد إبراهيم الكتّاني وآخرون ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، الدار البيضاء ، ودار الغرب الإسلامي ، ط1 ، 1985 ص395 ـ 396.

(2) ابن الأبار ، الديوان ، ق 23 ، ص 452 .

5 ـ ألـغـاز :

تعد الألغاز الشعرية مظهرا من مظاهر الإبداع والتفنن في طرح اللغز في شكل بيت أو أبيات شعرية ، تتضمن تورية خفية ، يعرضها الشاعر أمام المتلقين ؛ليختبر ذكاءهم ،أو ليشير إلى أسماء لا يريد الإفصاح عنها ، متخذا في ذلك التلميح ، لا التصريح .

واللغز الشعري قديم عُرف قبل عصر الشاعر ، يلجأ إليه صاحبه بصياغة ،يُعمِل السامع فكره لحلِّها، وبيان المقصود منها ؛ ومن ذلك ما قاله ابن الأبار،مُلغِّزًاباسم جارية[1] [الكامل] [2]:

أَمَّا التي أَهْـوَى فَلِي شَطْرُ اسْمِها   وإنْ يُصَحَّفْ لم يَكُنْ إلاَّ لَـهَـا
و تَفُـــوهُ بِالـباقي إذاَ قَـلَّبْتَــهُ   غَضْبَى فَلأَلْقَى بالرِّضا إذلالَهَا

أو ما أنشده [مجزوء الرمل] [3] :

جَـارَ مَنْ أَهْوَى على لُبْنَى   كمَــا جَارَ مُسَمَّى
وإذَا صُحِّفَ بعدَ القَـلْبِ   لمْ يَـخَفْ مُـعَمَّـى

ومما يمكن الوقوف عنده في ختام هذه الأغراض المتفرقة ، أن الشاعر قد تناولها في مناسبات مختلفة ، وبحجم متباين ؛ فباستثناء قصيدتي الرثاء الطويلتين ، اللتين كانتا في شيخه الربيع الكلاعي ، الذي استشهد في موقعة (أنيشة) ، و الثانية في أبي زكريا الحفصي ، فإن كل القصائد الأخرى وردت في مقطوعات ونتف ، حملت ـ فيها حملتْ ـ نزواتٍ عابرةً وأحاسيس ظرفية انتابته في مرحلته الثانية ، عندما كان في تونس .

كما يمكن أن نسجل قيمة هذه الأبيات ـ وإن كانت قليلة العدد ـ التي نحسُّ معها أن الشاعر كان فيها أصدق ، وللنفس أكثر صراحة ؛ ذلك أنه عبَّر عن شوقه لأهله ووطنه من جهة و حنينه إلى النبي ﷺ وزيارة قبره الشريف ولثم نعله ـ عليه الصلاة والسلام ـ من جهة أخرى ، وأطلق

---

(1) **الجارية** : اسمُها ليلى (محقق الديوان عبد السلام الهراس) .

(2) ابن الأبار ، الديوان ، ق 198 ، ص 415 .

(3) نفسه ، ق 199 ، ص 415 .

حِكما ، دلَّت على ثقافته الغزيرة ، وأبانت عن معاناته الشديدة في غربته ، إلى جانب تلك الردود الهجائية ، التي جاءت في قطعة فريدة و التي كان فيها مضطرا للردِّ على ابن شلبون .

الباب الثاني

في البناء الفنـــــــي

الفصل الأول: هيكل القصيدة.

الفصل الثاني: التعالق النصي.

الفصل الثالث: الصورة.

الفصل الرابع: الموسيقى والإيقاع.

الفصل الأول

هيكل القصيدة

1- القصيدة المركبة:

- المطلع.
- المقدمة(الغزلية، مقدمة في الشكوى من الدهر والأيام، الطللية، البحرية، الخمرية، الحماسية).
- التخلص.
- الخاتمة.

2- القصيدة البسيطة.

3- المقطّعة.

4- النتفة والبيت والمفرد.

1 ـ القصيدة المركبة :

إن المقصود بالقصيدة المركّبة في النقد العربي ، هي تلك التي تشتمل على غرضين والتي تتكون من أقسام ، عبّر عنها النقاد بـ: المطلع ، المقدمة ، الرحلة ، التخلص ، الخاتمة .

يقول حازم القرطاجني : ((**والقصائد منها بسيطة الأغراض ، ومنها مركبة . والبسيطة مثل القصائد التي تكون مدحا صرفا أو رثاءً صرفا. والمركبة هي التي يشتمل الكلام على غرضين مثل أن تكون مشتملة على نسيب ومديح ، وهذا أشد موافقة للنفوس الصحيحة الأذواق**)).[1]

وبالرجوع إلى ابن قتيبة ، في كتابه " الشعر والشعراء " نجده يشير إلى هذا النوع دون أن يسميها بالتسمية المتفق عليها الآن (القصيدة المركبة) في صدد حديثه عن بناء القصيدة العربية القديمة.[2]

و الناظر في مدونة الشاعر ابن الأبار يستنبط أنه سار في قصائده على منهجين:

منهج اتبع فيه مسار القصيدة العربية القديمة، كما رسمها ابن قتيبة ((**وسمعت بعض أهل الأدب...ولم يقطع وبالنفوس ظمأٌ**)).[3] مع التخفف في تناول بعض أقسام هذه القصيدة وقد يطول نفَس الشاعر ـ هنا ـ وقد يقصر، كما يرى ذلك الباحث عدنان محمد غزال.[4]

ومنهج ، تملّص فيه من هذا العُقال ، أين دعا إلى التخفيف من النسيب ، لا سيما في بعض المواقف التي تستدعي ذلك ، ولا تحتمل التأخير ؛كالتهنئة والرثاء والزهد ، والاستنجاد والوصف فيقول [المديد]:[5]

دَعْ أساليبَ النَّسيبِ وَ خُذْ　　في أساطيرِ الأساطيلِ

---

(1) حازم القرطاجني ، المنهاج ، ص303 .

(2) ينظر : ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ص 31 ـ 32

(3) نفسه ، ص31 ـ 32 .

(4) ينظر : عدنان محمد غزال ، ابن الأبار البلنسي ـ حياته وأدبه ـ جامعة دمشق ، سوريا ،أطروحة دكتوراه (مخطوط) ، 1997 ـ 1998 ، ص 463 .

(5) ابن الأبار ، الديوان ، ق 107 ،ص233 .

كما وجدناه يطرح ويتخلى عن فكرة الوقوف على الأطلال [الطويل]:[1]

أَشِدْ بالقوافي ذِكْرَ عَلْوَةَ أو عَلْيَا ودَعْ لِلسَّوَافِي دَارَ مَيَّةَ بالعَلْيَا

ومهما يكن من أمر ، فإن القصيدة المركبة ، التي يتضمنها ديوان ابن الأبار ، قد تكونـت ـ كـأي قصيدة مركبة أخرى ـ من أقسام ؛ هي : المقدمة ، والتي تستهل بالمطلع والرحلة وكانت الرحلـة البحرية من أنواعها ، والتخلص إلى الغرض الرئيس ، الذي كان في أغلبه مدحا ، انتهاءً بالخاتمة.

وسنعرض فيما يلي إلى هذه الأقسام :

- **المطلع:**

إن مطلع القصيدة هو أول ما يفتتح به الشاعر قصيدته. فهو أول مـا يسـمعه المتلقـي لـذلك اشترطوا فيه شروطا ومعـايير حتـى لا يكـون ممجوجـا ؛ لأنـه يشـد السـامع ويدفعـه إلى متابعـة الاستماع، وفي المقابل كرهوا الابتداء بمطالع معينة ؛ لأنها تنفر السامعين وتصرف المتلقين.

كما يجدر بنافي هذا المقام ، أن نشير إلى الاختلاف ، الـذي واكـب هـذا المصـطلح ونـذكر بعـض المعايير النقدية التي صحبته منذ وجود القصيدة العربية.

إذلم يَحُزْ مصطلح " المطلع " ـ كغيره من المصلحات المتعددة ـ عند النقاد اتفاقا معينـا فبعضـهم يرى أنه ليس البيت الأول ، بل ولا البيـت الكامـل في القصـيدة . والـبعض يـرى أن المطلـع هـو الكلام المبني على آخرَ سابقٍ له ومرتبط به ، فنهاية الكـلام السـابق ـ عنـدهم ـ تُسـمّى " فصـلا " وبداية الكلام اللاحق له والمبني عليه تسمى " مطلعا " لذلك نجد ابن رشيق قـد أشـار إلى هـذا الاختلاف بين أهل المعرفة وعلماء النقد فقال :

((اختلف أهل المعرفة في المقاطع والمطالع ..قال بعضهم هي الفصول والوصول بعينهـا فالمقـاطع أواخر الفصول والمطالع أوائل الوصول.وهذا القول هو الظاهر من فحوى الكلام والفصل آخر جزء من القسيم الأول كما قدمت وهي العروض أيضا والوصل أول جزء يليه من القسيم الثاني .. وقال غيرهم المقاطع منقطع الأبيات وهي القوافي والمطالع أوائل الأبيات.)).[1]

---

(1) السابق ، ق 203 ، ص429 .

كما يبدو من اهتمام صاحب العمدة بهذا الركن الركين من القصيدة العربية وصف الجودة فيه والحسن فيقول:((**ومعنى قولهم حسن المقاطع جيد المطالع أن يكون مقطع البيت ـ هو القافية ـ متمسكا غير قلق ولا متعلق بغيره فهذا هو حسنه والمطلع ـ وهو أول البيت ـ جودته أن يكون دالا على ما بعده كالتصدير وما شاكله.**))[2] .

و في سياق الاعتناء بقضية المطلع نجد الناقد ذاته يتحدث عن هذا العنصر من القصيدة وأهميته ، باعتباره مغلاقا ، إذ لا يمكن الولوج إلى عالم القصيدة إلا عن طريقه . كما يبين ضرورة تجويده ؛ لأنه أول ما يقرع السمع ،ثم يحذر من استعمال بعض الألفاظ ، التي تشوه المعنى باعتبارها دالةً على الضعف ، وينصح في المقام ذاته بأن يكون هذا المطلع حلوا سهلا وفخما جزلا فيقول: ((**وبعدُ ، فإنّ الشعرَ قُفْلٌ، أولُه مفتاحُه وينبغي للشاعر أن يُجوّد ابتداءَ شعره ؛فإنه أولُ ما يقرع السمعَ ، وبه يستدل على ما عنده من أول وهلة ولْيتجنّبْ " ألاَ "**
و " خليليّ " و " قدْ " فلا يستكثر منها في ابتدائه ؛ فإنها من علامات الضعف والتكلان إلا للقدماء الذين جرَوا على عُرف وعملوا على شاكلة ولْيجعلْهُ حُلواً سهلاً ، وفخما جزْلاً...)).[3]

ومن المفيد أن بداياتِ الكلام أمرٌ ، حُثَّ عليه ونُصح بالاهتمام به أيما اهتمام ؛ لأنه هو الذي يجلب الانتباه ، كما قد يكون سببَ النفور والانصراف عن الكلام ، لذلك كان القدماء يقولون : ((**أحْسِنُوا معَاشِرَ الكُتَّاب الابْتِدَاءَاتِ فإنّهُنَّ دَلاَئِلُ البيَانِ**)).[4]

وكما لم يُتَّفقْ على دلالة كلمة "المطلع" وموضعها من القصيدة ، لم يتفقوا ـ أيضا ـ على توحيد المصطلح ، وهذه فكرة وسَمتْ مصطلحاتٍ كثيرةً ، فَتُدُووِلَتْ أسماءٌ متعددة للدلالة على أول القصيدة، ومنها: المطلع ، الابتداء ، الافتتاح ، الاستهلال ، البَسْط .
عُرفَ ذلك عند العلماء والنقاد القدامى .

(1) ابن رشيق ، العمدة ، 1/ 193 .
(2) نفسه، 1/ 193.
(3) نفسه ، 1/ 218 .
(4) العسكري ،كتاب الصناعتين ، ص 431.

ولكي يكون المطلع موفقا ، حَدَّدَ النقادُ بعض العيوب التي ينبغي تجنبها فيه ، ومن ذلك :

ـ التعقيد ؛ لأنه أول العيّ ،ودليل الفهّة.

ـ عدم قطع المصراع الثاني من الأول إذا ابتدأ شعرا.

ـ عدم إغفال أحوال المخاطبين لمعرفة ما يكرهون سماعه فيتجنب ذكره.

لذلك عابوا على بعض الشعراء بعضَ مطالعهم ، ومنهم الشاعر جرير، الذي دخل على عبد الملك بن مروان فقال [الوافر]:(1)

أَتَصْحُو أَمْ فُؤَادُكَ غَيرُ صَاحِ ... عَشَيَّةَ هَمَّ صَحْبُكَ بِالـرَّوَاحِ

ومطلع قصيدة أبي نواس في الفضل بن يحي [الطويل]:(2)

أَرَبْعَ البِلَى إنَّ الخُشُـوعَ لَبَادِي ... عَلَيْـكَ وإنِّي لمْ أَخُـنْكَ وِدَادِي

وعابوا على المتنبي مطلع قصيدته في أول لقاء له بكافور الإخشيدي حين قال [الطويل] :(3)

كَفَى بِكَ دَاءً أنْ تَرَى الموتَ شَافِيا ... وحَسْبُ المنَايَا أنْ يَكُنَّ أَمَانِيـا

كما استحسنوا مطالعَ جاءت موافقة لشروط النقاد ؛ من الفخامة والروعة ، والبعد عن التعقيد وسلامة التركيب ، ومن ذلك مطلعُ سينية أبي تمام الفخم [البسيط] :(4)

السَّيفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءً مِنَ الكُتُبِ ... في حَدِّه الحَدُّ بَينَ الجِدِّ واللَّعِبِ

ومطلع المتنبي النادر، المنفرد باختراعه [البسيط] :(5)

الرأيُ قبلَ شجَاعةِ الشُّجْعَانِ ... هُو أوَّل، وهيَ المحَلُّ الثَّاني

ومطلع أوس بن حجر في الرثاء [المنسرح] :(6)

---

(1) ينظر : ابن رشيق ، العمدة ، 1/ 222 .

(2) ينظر : ابن رشيق ، العمدة ، 1/ 224 .

(3) المتنبي ، ديوان المتنبي ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، دط ، 1983 ، ص 441 .

(4) الخطيب التبريزي ، شرح ديوان أبي تمام ،1/ 32 .

(5) المتنبي ، ديوان المتنبي ، ص 414 .

(6) أوس بن حجر ، ديوان أوس بن حجر ، دار صادر ـ بيروت ، لبنان ، تحقيق وشرح:محمد يوسف نجم =

أيتُهَا النّفْسُ أَجْمِلِي جَزَعَـــا　　　إنَّ الّذِي تَحْذَرِينَ قدْ وَقَعَـا

وإن كان من الدارسين مَنْ يربط هذه المطالع بـدلالات نفسـية ؛ تهيـئ نفـوس السـامعين إلى الانفعال بمعاني القصيدة ، وكذلك سائر الأغراض ، قصد التأثير فـيهم ، وهـذا مـا سـنحاول أن نتطرق إليه حينما نتناول أشعار الشاعر ابن الأبار ـ محط الدراسة ـ

فاهتمام القدماء بمطلع القصيدة ينبغي ألا يفهم على أنه تعاطف مع بعض أجـزاء القصـيدة دون البعض الآخر ؛ وإنما الأمر فيه منبثق عن إدراك كلي لوحدة القصيدة ، التـي يمثـل المطلـع غرتهـا وعنوانها ، لذلك نجد كل النقاد يُجمعون على أهمية هذا المفصل من جسم القصـيدة وبـه يسـتدل على أجود الشعر وأردئه ، بل هو العتبة التي إذا تجاوزها بسلام وصل إلى بر الأمان وإذا قُـدّر لـه أن تعثر كان ذلك عيّاً ونقصا ، يجب استكماله حتى يبلغ مراده .

ولم تكن هذه العناية متعلقة بالشعر فحسب ، وإنما انصبّت على النثر أيضا ، بل حتى الكلام العادي يُفَضَّل أن يكون حَسَن البداية ، حتى يُهتم به ، ويُنْصَتَ إليه ، ويجد طريقه من الآذان إلى القلب .

ولعل لهذه الشروط مكانًا في إحدى أبيات الشاعر ابن الأبار ، الذي يبدو اهتمامه بالمطلع واضحا من خلال قوله [الطويل]:[1]

تهُابُ السُّيُوفُ البِيضُ والأُسْلُ السُّمرُ　　وأَقْتُلُ منْهُنَّ الغَلائلُ والخُمرُ

فهذا المطلع غزليّ ، ينم عن عاطفة أسىً متقدةٍ ، وحرمانٍ ، كان يعاني منه الشاعر . ابتدأ به الشاعر ليصل إلى مدح السلطان أبي زكريا ، مضمنا أبياته فخرَه بقومه قضاعة .

وفي سياق المطالع الغزلية التي تصدّرت قصائد المديح ، التي سيطرت على باقي الابتداءات نذكر مطلعين لقصيدتين مختلفتين ؛ فأما الأولى فقد نظَمها مادحا أبا زكريا ، ومعارضا في الوقت نفسه الشاعر أبا بكر محمد الصابوني ، وبلغ عدد أبياتها سبعةً وسبعين بيتا.

=

ط3 ، 1979، ص53 .

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق97 ، ص215 .

وأما الثانية فالأرجح ـ لدى المحقِّق ـ أنه أنشأها بمناسبة تقليد أبي زكريا ولدَه يحي إمارةَ بجاية وكان ذلك سنة 638 . هـ ، وقد وفدت لأجل المناسبة وفودٌ تهنئ وتبارك ، وكان في مقدمتها موكب بني هلال. ويبلغ عدد أبياتها ستين بيتا .

و قد ورد المطلعان متشابهتين في المقدمتين من حيث التوظيفُ لأدوات الحرب والفروسية فيقول في المطلع الأول [الطويل]:[1]

أَتَجْحَدُ قلبي رَبَّةُ الشَّنْفِ[2] والخِرْص وذاكَ نَجِيعي في مُخَضَّبِهَا الرّخْص

والمتتبع لهذا المطلع الغزلي ، الذي يشكو فيه الشاعر جحود فتاته لِحُبِّه ، وقتلها قلبَه ، يجده مربوطا بخيط الوطن ، الذي يتشوق إليه شوق الورق إلى شدوها ،والقضب إلى أشجارها دون أن ينسى ممدوحه ،الذي من أجله نظَم الأبيات في تخلص جميل ، شديد الارتباط بالغرض الرئيس (المدح) حين يقول:

كِلانَا على أقْصى الهَوادةِ والهــوى فلاَ عذْلٌ يُقْصــي ولاَ غزلٌ يُفْـصِي
كأنَّ جَنَاها مِنْ جَنَى العيشِ بعْدَها لِيحي بْنِ عبدِ الواحدِ بْنِ أبي حفصِ

ويقول في الثانية [الكامل]:[3]

أهْلاً بِهِنَّ أهِلّةً وكَواكِبا زَحَفَتْ هلالٌ دونَهُنَّ مَواكبا

وفي هذا المطلع ـ أيضا ـ يفلح ابن الأبار في ربط أول القصيدة بالغرض الرئيس بخاصة إذا عرفنا أن مناسبة نظْم هذه الأبيات كانت تهنئة القبائل والوفود بتقليد أبي زكريا الأبِ ولدَه أبا يحي إمارةَ بجاية ، حيث جاءت مسرعةً ، متنافسة ؛ لأجل كسب السبق وإرضاء السلطان ، الذي تخلص إليه الشاعر بقوله :

أمّا الهوى فأَخُو الوغَى لَمْ أَسْتَرِحْ مِنْ ذَا لِذاكَ (مُراوِحاً)ومُناوِبا
فكَأَنَّ عهْداً مِن ولـيِّ العهدِ لـِي أنْ تُسْفِرَ الغَمَراتُ عَنِّي غالِبا

---

(1) السابق ، ق 159 ، ص 329 .

(2) **الشَّنْف** : قرط يُعلّق في أعلى الأذن .(ينظر : ابن منظور ، اللسان ،7/ 193) .

(3) ابن الأبار ، الديوان ، ق 20 ، ص 67 .

وتبعا للمطالع الغزلية ، يقول ابن رشيق : ((**وللشعراء مذاهب في افتتاح القصائد بالنسيب لِما فيه عطف للقلوب ، واستدعاءُ القبول بحسب ما في الطباع من حب الغزل والميل إلى اللهو والنساء، وإنَّ ذلك استدراجٌ إلى ما بعده**))[1] .

وفي ذلك يمدح ابن الأبار المستنصرَ ـ الذي كان وسيط الشاعر عند أبيه أبي زكريا ليقيل عثراتِه المتكررةَ ـ بمناسبة إعذار ولده، بادئاً بالنسيب ، استمالةً للقلوب ،وتطويعا للنفوس كما يطلب النقاد [البسيط]: [2]

ذكَرْتُ بَلْجَاءَ بِالإصْباحِ مُنْبَلِجا وقدْ تنَفَّسَ عن أنفاسِهَا أرَجا

و أما في مطلعه ، الذي يقول فيه :[الكامل]:[3]

مُهَجٌ تُسَاقُ إلى الرَّدَى فَتُشَاقُ ما لا يُطَاقُ يُكَلَّفُ العُشَّاقُ

فهو تصريح ،لا تلميح بأن هجرحبيبه له ،وبُعدَه عنه قد ساق مهجته إلى الموت الحقيقي. وفي البيت أشواق حارة،تهيج الشاعر ، وتكاد تقتله ،لو لمْ يكن بجوار خليفة ، جعل الشاعر بيده ـ عفا الله عنه ـ الآجال والأرزاق في قوله :

لَمْ تَدْرِ أَنّي في جِوارِ خليفةٍ بِيَمِينِهِ الآ(جـ)ـالُ والأرزَاقُ

ويقول مادحا يحي المرتضى في عيد الأضحى بمناسبة شفائه من مرض ، مبتدئا بنسيب ومتخيرا فعلاً فجائياً (طَلَعَتْ) ، وكأنها لا تريد أن يحسّ بطلعتها أحدٌ ،متمنّعةً ،متخفية ، إلا أن مشيتها المتميزة قد تمكّن منها النسيم وفضحَهاحينما تتبع خطواتها،دون أن تعلم [الكامل]:[4]

طَلَعَتْ عليكَ معَ المساءِ صَباحا فَوَشَى بِمِشْيَتِهَا النَّسيمُ وبَاحَا

إن المتدبر مطالعَ الشوق لابنِ الأبار يمسك ـ بلا شك ـ بدلالات كان يرمز إليها الشاعر فهو حينما يحنُّ إلى رياض أبي فهر ،وأشجارها ،وإلى أزهارها وأطيارها ، ومائها المنساب بين نباتاتها

---

(1) ابن رشيق ، العمدة ، 1/ 225 .

(2) ابن الأبار ، الديوان ، ق 42 ، ص 103 .

(3) نفسه ، ق178 ، ص 386 .

(4) نفسه ، ق49 ، ص 116 .

إنما يتشوق إلى رياض بلنسية ، التي افتقدها ، بل وحينما يشكو بُعْدَ حبيبه،ونأيه عن قلبه ،إنما يريد وصال وطنه ، الذي غادره مُكرَهاً .

فهو حينما يقول في مدح للسلطان ووصف للحديقة [مجزوء الوافر]:(1)

نَأَتْ ومَزارُهَا صَدَدُ　　　فَهَلْ لَكَ بِالمَعَادِ يَدُ ؟!

وما هذا الاستفهام الإنكاري الذي تضمنه البيت إلا دليل على ما ذهبنا إليه وكذلك هذا المطلع الغزلي في ظاهره ، لم يعد غزلا حقيقيا ،بل استحال كلاما، فيه شوق وحنين إلى ربوع بلنسية ومرتع صباه ويافع شبابه . ويأسه من استحالة عودة الأيام إليه ضاحكة ـ وهو الشاعر ـ يُقرّ بأن الوعد ستخلفه بلنسية كما أخلفته أسماءُ وغير أسماءَ ؛ لأنه لن يتحقق ولن يفي أحدٌ بوعده بعد الآن وقد صدقت رؤية الشاعر ، على الرغم من أنه لا يصرح بذلك ويبقى يُمَنِّي النفس ولكن هيهات ! فهو متيقن في قرارة نفسه بأن بلنسية لن تعود إلى سالف عهدها كما ألفها . أليس هو الذي أُضطُرَّ على إمضاء وثيقة التسليم وخرج بعد ذلك مكبا على وجهه إلى تونس ، حيث تخبّئ له الأقدار ما لم يكن يتصوره أحد .

وقال في مطلع مشابه آخر في وصف الحديقة ذاتها في مناسبة أخرى [الطويل] :(2)

إلى وَعْدِهَا أَصْبُو وهلْ ينجزُ الوَعْدُ　　　ومَا سَئِمَتْ أَسْماء مِنْ خُلْفِهَا بعْدُ

فمِن شدة ما أرَّقه البينُ وخُلفُ الوعد ، صار يهذي بالوصال وهو عنه بعيد ، بل مُبعَدٌ ؛لأن الغاية التي يتمناها ويترقبها لن يبلغها ؛لأن أسماء ألِفت نقض العهد ، وبلنسية ما أريد لها أن تفي بالوعد .

ولَمَّا كان ابن الأبار كثير العثرات ـ لطبعه وكِبره ـ أمام الأسرة الحفصية ، التي أوتْه ، وأحسنت وفادته ،كان الحاكم دائما بالمرصاد له ولسقطاته ؛ فهاهو يتعرض إلى العقاب بالإبعاد ، فيدرك الخطر المحدق به ، ويسرع إلى استرضاء أبي زكريا ، مستشفعا بوليّ العهد ، وهو يحاول في الوقت

(1) السابق ، ق 63 ،ص 143 .

(2) نفسه ، ق 64 ، ص 147 .

ذاته اسرضاء نفسه الجموح ،والتخفيف من الوطء عليها بعد أن أيقن بأن الرحيل قـدَرُه، فيقـول [الكامل] :[1]

جَلَدًا خَليليَّ ما لِنفسِكَ تَجْزَعُ آنَ الرَّحيلُ فأينَ منهُ المَفْزَعُ

وفي سياق الاستهلالات الشعرية ، يطلع علينا ابن الأبار برأيـه الفنـي الصريـح، ومبدئـه مـن الوقوف على الأطلال ، كما فعل بعضُ مَنْ سبقَهُ ؛ إذْ نجده يدعو إلى التخلي عن هذا التقليد الـذي عفتْ أطلاله وصمَّتْ وما أسْمعتْ ،تاركا ذلك إلى أهله (النابغة) ، فيقول [الطويل] :[2]

أَشِدْ بالقَوَافِي ذِكْرَ عَلْوَةَ أو عَلْيَا ودَعْ لِلسَّوَافِي دَارَ مَـيَّـةَ بِالعَلْيا[3]

لِكُلٍّ مِن العُـشَّاقِ رأيٌ يُجِـلُّهُ وإنْ جالَ في الأحداقِ ما يُبطِلُ الرَّأيَا

ألَمْ ترَهَا عيَّتْ جواباً و لمْ يَجِــدْ مُسائلُهــا إلاَّ الأواريَّ والنُّــ(ؤْيَـا)

بِحسْبِ زيادٍ نَدْبُهُ طَـللاً عَـفَـا وحسْبِي اقتِداحٌ لِلغـرامِ زَكَا(وَرْيَا)

هذا فيما يتعلق بالمطالع الغزلية ، التي كادت تغطي أشعار ابن الأبار كلها .

أما فيا يخص المطالع الأخرى فقد كان حظها قليلا جدا . ومن بينها ما كان إشادة بالحكام والأمراء وأبنائهم ؛ كأبي زكريا الحفصي ،الذي كان المقصود عند الشاعر ، فيما أنشأه في مدحه مُعجبا برأيه السديد ، وحكمه الرشيد ،فهو ـ حسبَه ـ الذي دانت له الأمور ، وبيده أن يبغي أو يلغي ، أو يحسن أو يجور [الوافر]:[4]

لِرأْيكَ كانتِ الأزمانُ تُصْغِي وإيَّاها غَدَا الإيمانُ يَبْــغِي

لَكَ الأقدارُ أنْصارٌ وجُنْــدٌ على إمضَاءِ ما تَبْغِي وتُلْغِي

---

(1) السابق ، ق164 ، ص351 .

(2) نفسه ، ق203 ، ص429 .

(3) وفي البيت إشارة إلى بيت النابغة الذبياني : يادار ميَّةَ بِالعلياءِ فالسَّنَدِ أقْوَتْ وطَالَ عليهَا سَالِفُ الأبَدِ .
(ينظر :النابغة الذبياني ، ديوان النابغة الذبياني ، تح : محمد أبو الفضل إبراهيم ، طبعة:دار المعارف، القاهرة ص 14) .

(4)ابن الأبار ، الديوان ، ق 173 ، ص 369 .

كما قال ـ أيضا ـ يمدح أثيرَه ووالده أبا يحي ، بمناسبة زيارة هذا الوالد لتونس ، إذ جعله وحيد زمانه ، وفريد عصره [الوافر]:(1)

أَعِدْ نَظَراً إلى الزَّمنِ النَّضيرِ   تَرَ الفَذَّ الوحيدَ بِلا نَظيرِ
وما أنْ لاحَ وضَّاحُ المُحَيّا   فَقُلْ:إشراقُ بدْرٍ مُسْتنير

وفي مناسبة الإشادة بزيان بن مدافع بن مردنيش أمير بلنسية ، عند رجوعه إليها ، مفارقا سيده أبا زيد ، معتذرا ومشيدا بالدعوة العباسية ، التي انتهجها ابن مردنيش ، يبدأ الشاعر قصيدته باستهلال مناسب للغرض المقصود ، لا سيما وأنه عائد من عند النصارى ، بعدما لحقته لعنة البلنسيين واتهامهم له بالتخلي عنهم والهروب مع سيده ، باعتباره كاتبه . وتلطيفا للجو الذي كان معكرا ، اختار ابن الأبار البَارُّ معانيَ يرفع بها من شأن أمير بلنسية ،ويجعل منه المدافع عن دين الله والصامد أمام كل القوى صمود جبل " ثهلان" أو "متالع" [الطويل]:(2)

تُناضِلُ عن دِينِ الهُدى وتُدافـــعُ   كأَنَّكَ في الهيجا أبوكَ "مُدافِعُ"
وتَثْبُتُ يومَ الرَّوعِ في حَوْمةِ الوَغَى   كأَنَّكَ" ثَهْلانٌ" بها أو " مُتالِعُ"
وتَغْزُو العِدى في عقْرِها مُتَتَابِعــاً   وحسْبُكَ غزْوٌ في العِدَى مُتَتَابِعُ

كما قال يمدح المستنصر ، ويهنئه بالإبلال ويسترضيه ، وكان ذلك حوالي 657هـ لأن المستنصر عفا عنه حوالي هذا التاريخ [الكامل] :(3)

اللهُ عن تلكَ المَناقبِ دافِعُ   ولها مِن المَحذورِ وَاقٍ مانِـــعُ
لو لا اليقينُ بأنها مَعْصُومةٌ   لَتفَجَّرَتْ بِدمِ القُلوبِ مَدامِعُ

وفي إطار العفو الذي شمل الشاعر من قبل أبي زكريا ، ها هو يتوجه إلى صاحب الصفح والسماح ، مسلّما أمره ، شاكيا حاله في صورة رقَّ لها مولاه [الرمل]:(4)

---

(1) السابق ، ق 87 ، ص193 .
(2) نفسه ، ق 168 ، ص 359 .
(3) نفسه ، ق 165 ،ص 355 .
(4) نفسه ، ق 138 ، ص 295 .

رَقَّ مولانَا لِــــعبْدٍ زَمِنٍ　　　دَنِفِ الجِسْمِ لِشِكْوٍ مُدْمِنِ
لَمْ يَكُنْ يَبْعُدُ عهدًابالصِّبى　　　وهْوَ في ضعْفِ الكبيرِ اليَفَنِ

وفي المعنى ذاته أنشأ مستشفعا بولي العهد [الوافر]:(1)

كَفَانِي الحُرُّ مُنْتجَعُ الغَمَامِ　　　فَشُكْراً ثُمَّ شُكراً لِلإمامِ
أَيَادٍ ما أعَمَّتْ في ازْديادٍ　　　كما انْتَثَرَ الفريدُ مِن النّظام

وتتبعا لانتصارات السلطان الحفصي ،من باب التأييد لسياسته التي أرضخت العدو والصديق قال الشاعر يمدح المرتضى ويهجو السعيد، الذي كان مواليا للنصارى ،وعدوا للممدوح [الطويل]:(2)

والفتْحُ أدْنَى حوزِهِ المغربُ الأقصَى　　　عنِ الصَّوْلِ يُسْتَقْضَى وبالعدلِ يُسْتقْصَى
تنافسَ في إهْدائهِ المـــــاءُ والثرى　　　بِــمَا عَــــــمَّ لإسْعاداً مُعاداً ومَا خَصَّا

وأنشأ الشاعر يبكي وطنه بلنسية، بادئا بالدعوة إلى الصبر والتصابرعلى المحن ، التي أسالت الدموع والأحزان المضنية ، التي أصابت ما بين الضلوع، بسبب ضياع الوطن وفقدان الأهل وجفاف الضروع [البسيط]:(3)

وَطِّنْ على الدَّائبيْنِ:الدَّمْع والشَّجَنِ　　　يانادِبَ الذَّاهبَيْنِ :الأهلِ والاوطَنِ
واسْكُنْ إلى الصَّبـــْرِ في إلمَامِها نُوَبا　　　أوْدَتْ على عَقِبِ المسْكُونِ بالسَّكَن

ومن جميل بداياته الوصفية،ما قاله يذكر خروجه إلى بستان أبي زكريا ، واصفا حدائق أبي فهر جاعلا من ممدوحه جزءًا لا يتجزأ من موصوفه (البستان) ، مسبغا عليه نعمة البركة التي حلّت معه ما وطئت قدماه البستان [الكامل]:(4)

زَارَ الحَيَا بِمَزارِهِ البُسْتانا　　　وأَثَارَ مـن أزهارِهِ ألوانا

---

(1) السابق ، ق 119 ، ص 260 .
(2) نفسه ، ق 160 ، ص 338 .
(3) نفسه ، ق 149 ، ص 320 .
(4) نفسه ، ق 145 ، ص312 .

فغَدَاَ بهِ وبِصِنْوِهِ يَخْتالُ في　　　حُلَلِ النَّضارةِ مُونِقاً ريَّانا

وأنشأ الشاعر يمدح أبا الحسين يحي الخزرجي ، حاكم شاطبة عند التجائه إليه ،وقد كان صديقه المفضل ،الذي لا يتصور صده عنه بعد تركه سيده عند الأراغونيين ، فارًّا من الكفار ، مستبشرا بلقاء ، يُعتبر غاية الغايات ومقصد المقاصد [الكامل] :(1)

بُشْـرَايَ هذا مَبدأُ الإقبالِ　　　في قصْدِ غاياتِي وفي استقبالِ

وافانِي الزَّمَنُ المُسيءُ مُحسِّنًا　　　آثارَهُ بِمـــــــــثَابَةِ الإجْمالِ

وبمناسبة رثاء إحدى قريباته نجد الشاعر يحذر من الليالي وغدرها ، ومن تشتيتها الشمل في السر والعلن ، وإيقاعها بالخلان والأصحاب [الطويل]:(2)

رُوَيْدَ اللَّيالِي كمْ تُصِرُّ على الغدرِ　　　أَتَجْهلُ إتلافَ النَّفائسِ أمْ تـــــــدْرِي

تَدبُّ بِفَجْعِ الخِلِّ بالخِـــلِّ دائباً　　　وتَسْرِي لِشَتِّ الشَّمْلِ في السِّرِّ والجهرِ

وحينما غضب السلطان الحفصي عليه ،نظَم أبياتا ، يستعطفه بها في إطار غرض المدح الرئيس تأكيدا على سوء حظه ،الذي يلاحقه أينما حلَّ وحيثما ارتحل [الرمل]:(3)

أَسْرَفَ الدَّهْرُ فهلاَّ قصَـــدَا　　　ما عليهِ لوْ شَفَى بَرْحَ الصَّدَى

ينقضِـي يومِي كأمْسِـي خيبةً　　　أبداً أقْرَعُ باباً موصَــــــــدا

وفي مناسبة عيد الفطر المبارك ، مدح الشاعر أبا زكريا ،مبتدئا قصيدته بحكمة ، أقل ما يقال عنها إنها تنطبق عليه ، وتعطي صورة لشخصه وتهافته ، وكثرة أخطائه ، التي يلجأ لأجلِ محوها إلى الاستعطاف المتكرر،والاستشفاع كالذليل المهان ، رابطا مطلعه بممدوحه وانتصاراته وفتوحه[الكامل]:(4)

أعْمَى البصيرَةِ مَنْ تقَدَّمَهُ الهوَى　　　وحِجَاهُ بِالرَّأْيِ الرشيدِ بَصيرُ

---

(1) السابق ، ق 113 ، ص 249 .

(2) نفسه ، ق 94 ، ص 209 .

(3) نفسه ، ق 67 ، ص 159 .

(4) نفسه، ق 92 ، ص 202 .

سلْ عن مَغازيهِ البلادَ وأهلَها   يُنْبِئْكَ عن سَرْدِ الفُتُوحِ خَبيرُ

هذه هي أهم المطالع ،التي أرادها ابن الأبار أن تكون استهلالاتِ قصائده المتنوعة والتي تمكّن المتلقي من خلالها ، أن يقف على حقيقة مفادها أنَّ :

ـ قصائد المديح " الأبارية " قد أُسْتُهِلَّ أغلبها بمطالع غزلية.

ـ معجم هذه المطالع ينتسب إلى التراث العربي القديم ؛ وأن معشوقته (الحقيقية أو المتخيلة) كانت بدوية، عربية ،ذات نسب وشرف أصل ، ولم تكن في كل أشعاره جارية، وهذا ما يتناسب مع بأوه وطبعه وأنفته.

ـ الشكوى في هذه المطالع كان من حُبٍّ لم يتحقق ، وحبيب غيرِ مدرَك ، كله غنج ودلال ومن وطأةِ الزمن وسوء الحظ ، الذي بات يلاحقه في كل مكان يحل به .

ـ غزل الشاعر يتماشى وقول ابن قتيبة المشهور : ((...**لِيُمِيلَ نحوه القلوب ويصرف إليه الوجوهَ، وليستدعيَ به أصغاءَ الأسماع إليه...**)).[1]

ـ للشاعر طولَ نَفَس في هذه القصائد ، التي أشرنا إلى مطالعها ؛ إذ بلغت ما بين أربعين بيتا وسبعةٍ وسبعين .

ـ قلة ورود المطالع غير الغزلية ؛ من مثل مطالع الوصف ، الشكوى ، والحكمة ، وغيرها ـ تخلصت هذه القصائد من نهج ابن قتيبة في الافتتاح بالأطلال...واستبدلت بموضوعات أخرى مناسبة نوعا ما لبيئة الشاعر وعصره. سنعرض إلى كل ذلك في العنصر التالي ،عندما نتناول المقدمات ونوعها في شعر الشاعر .

- **المقدمة :**

لقد حظيت المقدمة باهتمام بالغ لدى القدامى ، ولم يكن ابن الأبار يَشَذُّ عن قاعدة الشعراء القدامى ، الذين كانوا يهتمون بمقدمات قصائدهم ، على غرار أقسام القصيدة الأخرى إلا أن

(1) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ص31 .

البيئة الأندلسية ، التي تختلف تمام الاختلاف عن البيئة الجاهلية ، فرضت على الشاعر أن يُحوّر من عناصر هذه المقدمة التقليدية البدوية ؛ ليجعلها منسجمة مع بيئته ومعبّرة عن اندماجه مع عصره.

كما أُهمل الشاعر وصف الظعن ، و كل التفاصيل الخاصة بالرحلة إلى الممدوح ، باستثناء رحلة المحبوبة ، التي أخذت حظّا غيرَ قليل من قصائده بشكل عام ، ومن مقدماته بشكل خاصّ .

ولم يكن وقوفهم على الأطلال طويلا ـ كما عُرف عند الجاهليين ـ ((**بل وصفوها وصفا عاما بالتبدل والتغير، واكتفوا بتحديد مواقع باصطناع المرور على الأماكن والوديان العربية القديمة مشاكلة لعروبة الممدوح، كما لم يعرضوا لآثار تبدّل هذه الديار بعد مغادرتها لأنهم عنَوْا بوصف ما تثيره تلك الرسوم في نفوسهم من ذكريات ماضٍ سعيد تمتزج فيها اللذة بالألم والمتعة بالحزن.**)).[1]

ولم تظفر مقدمات القصائد بالعناية والاهتمام اللازمين ، على غرار المطالع التي حظيت بهذه الرعاية الكاملة ؛ بعد أن درسوا الشعر فاستحسنوا منه مطالع ،وأشادوا بها واستقبحوا أخرى واستهجنوها. ولعل السبب في إغفال المقدمة ـ نسبيا ـ هو ما يراه "حسين عطوان" راجعا إلى اشتغال النحويين والبلاغيين واللغويين على هذا الشعر من زاوية واحدة ـ تقريبا ـ عندما صاروا يفتشون فيه عن البيت الواحد لوضعه محل الشاهد في قصائدهم . وهي الظاهرة التي لفتت انتباه لجاحظ ، إذ يقول : ((**لم أرَ غايةَ النحويين إلا كلّ شعر فيه إعراب ، ولم أرَ غاية رُواةِ الأشعار إلا كل شعر فيه غريب ، أو معنى صعبٌ يحتاج إلى الاستخراج**)) .[2]

كما يؤكد الدارسون أن مقدمة القصيدة في العصر الجاهلي لم تكن واحدة ، بل غلب عليها نوعان هما المقدمة الطللية والمقدمة الغزلية. ويُرجع "حسين بكار" الاقتصار عليها ودون غيرها إلى تفسيرين ؛ فالأول نقص استقراء القدماء ، والثاني ـ وهو عنده الأرجح ـ كثرة هذه المقدمات

---

(1) أشرف محمود نجا ، قصيدة المديح في الأندلس ، قضاياها الموضوعية والفنية ،عصر الطوائف، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، مصر ، ط1 ،2003 ، ص 134 .

(2) الجاحظ ، البيان والتبيين ، تحقيق : عبد السلام هارون ، طبع مكتبة الخانجي بمصر ، ط2 ، 1960 4/ 24.

الغزلية والطللية ، مما جعل اهتمام النقاد ينصب عليهما على الرغم من وجود مقدمات أخرى في هذه القصيدة الجاهلية[1].

أما حسين عطوان فقد أشار إلى هذا الموضوع محددا أن المقدمات على نوعين ؛ مقدمات أساسية ويذكر لذلك المقدمة الطللية والمقدمة الغزلية ، وأخرى ثانوية كبكاء الشيب ووصف الطبيعة.[2]

وبالرجوع إلى النقاد القدامى ، نجدهم يتحدثون عن المقدمتين ؛ الطللية والغزلية واللتين تناسبان ـ حسب ما جاءوا به ـ قصيدة المدح فقط ، ملزِمين الشعراء اللاحقين بالسير على هذا المنهج ، ودون الخروج عنه ، وإلا وقعوا تحت طائلة الممنوعات .

ولهذا الكلام ما يبرره عندما نعود إلى مقولة ابن قتيبة: ((**وسمعتُ بعض أهل الأدب يذكر أن مقصّد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار فبكى وشكا وخاطب الربع واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين عنها... ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجْد وألم الفراق وفرط الصبابة والشوق، ليميل نحوه القلوب ويصرف إليه الوجوه وليستدعيَ به أصغاءَ الأسماع إليه لأن التشبيب قريب من النفوس لائط بالقلوب لِما قد جعل الله في تركيب العباد من محبَّة الغزل وإِلف النساء ...فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له عقَّب بإيجاب الحقوق ، فرحلّ في شعره وشكا النصب والسهرَ وسُرى الليل وحرَّ الهجير، وإنضاء الراحلة والبعير ،فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حقَّ الرجاء وذمامة التأمل،وقرَّر عنده ما ناله من المكاره في المسير بدأ في المديح ،فبعثه على المكافأة وهزَّهُ للسماح وفضّله على الأشباه وصغّره في قدره الجزيل...**)) .[3]

وبالمقابل نجد الناقد ذاته يعيب على الشعراء الذين يهجمون على الأغراض دون مقدمات. ولا يمكن أن يُنكَر أن في الشعر الجاهلي قصائدَ كثيرةً ، لم يفتتحها أصحابها ـ على غير المألوف ـ

(1) ينظر :حسين بكار ، بناء القصيدة في النقد العربي القديم (في ضوء النقد الحديث) ، ص 212 ، وما يليها .

(2) ينظر : عطوان ، حسين ، مقدمة القصيدة العربية في الشعر ، الجاهلي ، دار المعارف بمصر ، د.ط ، 1970 من ص 71 إلى ص 107.

(3) ابن قتيبة، الشعر والشعراء ، ص 31 ـ 32.

بنغماتهم التقليدية ، إذ يقول ابن رشيق: ((**من الشعراء مَن لا يجعل لكلامه بسطا من النسيب بل يهجم على ما يريده مكافحة ، ويتناوله مصافحة وذلك عندهم هو الوثب والبتر والقطع والكسع، والاقتضاب، كل ذلك يقال ، والقصيدة إذا كانت على تلك الحال بتراء كالخطبة البتراء والقطعاء**)).(1)

أما حازم القرطاجني عندما عرض للموضوع ، لم يذهب مذهب الأول ، بل نظر إليه بنظرة أخرى ، دون إلزام ولا اشتراط يُذكَر ، فيقول : ((**ويجب أن تكون المبادئ جزلة حسنة المسموع والمفهوم ، دالة على غرض الكلام ، وجيزة ، تامة...**)).(2)

ليأتي ابن الأثير ، تاركا الحرية للشعراء ، متحللا من القيود ، التي وُجدت عند الآخرين ولكن في حدود أن لا يؤدي ذاك التحلل إلى ضعف القريحة والقصور عند الشاعر فيقول عن القصيدة : ((**فإذا كانت مديحا صرفا ، لا يختص بحادثة من الحوادث ، فهو مخير بين أن يفتتحها بغزل أو لا يفتتحها بغزل ...وأما إذا كان القصيد في حادثة من الحوادث كفتح معقل أو هزيمة جيش أو غير ذلك ، فإنه لا ينبغي أن يبدأ فيها بغزل ، وإنْ فعَل ذلك دَلَّ على ضعف قريحة الشاعر وقصوره عن الغاية ، أو على جهله بوضع الكلام في مواضعه**)).(3)

وبتطور القصيدة العربية ، ومع مرور الزمن ، ظهر تيار يدعو إلى التخفف من هذه المقدمات مخالفين في ذلك بعض آراء النقاد القدامى كما فعل بشار بن برد ، وأبو نواس وغيرهما.

هذه الدعوة ، أعقبها إقدام شعراء على الثورة على هذه المقدمات كلية ؛ مثلما فعل المتنبي مع المقدمة الغزلية، إذ يقول [الطويل]:(4)

إذا كان مدحٌ فالنَّسيبُ المقّدَّمُ   أَكُلُّ فصيحٍ قالَ شعراً مُتَيَّمُ ؟

---

(1) ابن رشيق ، العمدة، 1/ 231.

(2) حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، ص 305.

(3) ابن الأثير ، أبو الفتح ، ضياء الدين نصر الله بم محمد، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ،تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد ، الباب الحلبي ، القاهرة ، د.ط ، 1939 ، 3/ 96 ـ 97.

(4) المتنبي ، ديوان المتنبي ، ص 302 .

أوما فعله أبو نواس في ذات الموضوع، حيث يقول [البسيط]:[1]

لا تبْكِ ليلى ولاَ تطْرِبْ إلى هِنْدِ　　　واشْرَبْ على الورْدِ مِنْ حمْراءَ كالورْدِ

أو كما يقول الشاعر نفسُه ، وهو عند " الحاتمي " فيما روى عن بعض أشياخه أفضلُ ابتـداء صـنعه شاعر من القدماء والمحدثين [الكامل]:[2]

صِفةُ الطُّلُولِ بلاغةُ الفَدْمِ[3]　　　فاجْعلْ صِفاتِكَ لِابنةِ الكَرْمِ

هذا فيما يتعلق ببعض آراء القدامى في مقدمة القصيدة .

أما فيما يتعلق بآراء المحدثين ، فنذكر ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ رأيَ المستشرق براونـة فـالتر (Braouna Walter) الذي نظر إلى رأي ابن قتيبة السابق ، مستغربا ممـا ذهـب إليـه ، فـردَّ عليـه مُخَطِّئاً ، ومبررا كلامه فيقول : ((**الشاعر عضو في المجتمع البدوي مشترك في حياة عـرب الجزيـرة وبيئتهم ، ومن المفهوم أن كل ما يسوقه وصفا للناقة والصـحراء ، ومـن فخـر بالقبيلـة ، وهجـاء للعدو ، جدير بجذب مجتمعه . فما الذي يلزمه بطلب الإصغاء وما الذي يوجب عليه الأبيات الغريبة ؟ أَلِزامٌ عليه أن يميل أهله بمقدمة لوصـفه ، مـع أنـه متأكـد أن وصـف البـداوة يعجـب أصحاب الحيّ ؟**)).[4]

أما الناقد العربي عز الدين إسماعيل ، فيذهب مذهب المستشرق "براونة"، ويرى ـ هو الآخـر ـ رأي ابن قتيبة غيرَ صحيح ، أو غيرَ كافٍ ـ على الأقل ـ معللا ذلـك بـأن فهمـه كـان متجهـا نحـو المتلقين وأسماعهم فحسب ؛ فهو يرى أن النسيب ـ كما يوضح حسين بكار ـ يعتـبر الجـزء الـذاتي

---

(1) أبو نواس ، ديوان أبي نواس ، حقّقه وشرحه وفهرسه : سليم خليل قهوجي ، دار الجيل ، بيروت ، دط 2003 ، ص 267 .

(2) نفسه ، ص 790 .

(3) **الفدْم** : الأحمق ، العيّ عن الكلام في رخاوة وقلة فهم .(ينظر:ابن منظور،اللسان ،10/ 194) . وقُرئت اللفظة بالقاف ؛ أي : (القدم) .

(4) فالتر براونة ، (Walter Braouna) ، الوجودية في الجاهلية (مقال) ، مجلة المعرفة السورية ، السنة الثانية العدد الرابع حزيران، 1963 ،ص161،156 . نقلاعن:عطوان،حسين ، مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي، ص217.

الذي يعبّر به الجاهلي عن موقفه من الحياة والكون المحيط بـه وعـن التنـاقض الـذي اصـطدم بـه حسّه[1].

فالاختلاف ـ إذا ـ بين النقاد القدامى والمحدثين ، كـان أساسـه أن الفريـق الأول يراعـي حـال المتلقي (الممدوح) ؛ لأن المعايير وُضعت تحديدا وفق قصيدة المدح) .

وأما الفريق الثاني (المحدثون) فيرى أن القصيدة ترجمان ما في نفسية الشـاعر ؛ لأنـه لم يكـن في ذلك الوقت يشعر بأدنى اطمئنـان إزاء الحيـاة ((**وعـلى الـرغم مـن اختلاف القـدماء في بعـض الجزئيات ، فإنهم متفقون على أن المقدمة يجب أن تراعي حال المتلقي أو الممدوح في كل الحـالات . ولكن بعض المتأخرين أو المعاصرين يرفضون هذا التفسير بدعوى أن مقدمة القصـيدة هـي التـي تمثل العنصر الذاتي للشاعر...**)).[2]

وأيًّا ما كان الكلام في مقدمات القصيدة العربية ، فإن اتجاهاتِها تطورت بحسـب الموضـوعات وتعددت على مَرِّ الأزمان ، فإلى جانب المقدمتين ؛ الطللية والغزليـة ، اللتـين دار حـولهما الحـديث السابق ، نجـد في هـذه القصـيدة العربيـة مقدمـةَ الظعـن ، الشـيب والشـباب المقدمـة الخمريـة الفروسية ، وصف الطيف ، ومقدمة وصف الطبيعـة . صـنفها الدارسـون إلى مقـدمات أساسـية وأخرى ثانوية.[3]

وبالنظر إلى مقدمات ابن الأبار نجدها طويلة ـ وهي الغالبة ـ ومتوسطة الطول في حالتها الوسطى، وقصيرته في القليل النادر . كما تنوعت بين المقدمات الغزلية ، التي تربعت على باقي الأنواع بخمسٍ وعشرين مقدمة ، استُهِلَّت بها قصائد المدح . ولم يكن هذا الأمر خاصا بِشاعرنا فحسب ، بل كانت ظاهرة شائعة في أشعار الأندلسيين بصفة عامة .

---

(1)ينظر : حسين بكار ، بناء القصيدة في النقد العربي القديم ، ص 219 .

(2)الربعي ابن سلامة،تطور البناء الفني في القصيدة العربية،دارالهدى،عين مليلة الجزائر، د.ط2006،ص14.

(3) ينظر : حسين عطوان ، مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي، ص 71 ، وما يليها .

إلا أن اللافت للانتباه أن هذه المقدمة الغزلية في شعر ابن الأبار، كانت في حالات غير قلية ممزوجةً بأدوات الحرب وذكر الدماء والقتلى .

كما نعثر في شعر ابن الأبار على مقدماتٍ أخرى ، ولكنها وردت قليلة ؛ من مثل مقدمة في الشكوى من الدهر والأيام ، والمقدمة الطللية ، والمقدمة الخمرية ، والمقدمة البحرية .

وفيما يلي عرض لهذه المقدمات المذكورة ، والتي وسمت القصيدة الأبّارية بخاصة :

أ- المقدمة الغزلية

سارت المقدمة الغزلية - وهي من المقدمات الأساسية في الشعر العربي - عند ابن الأبار وفق ما رسمه ابن قتيبة ، وألزم به الشعراء ، حين يقول في مناسبة النسب للمدح: ((...**ثُمَّ وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجد وألَمَ الفراق وفرط الصبابة والشوق لِيُمِيلَ نحوه القلوب ويصرف إليه الوجوه ولِيستدعي به أصغاءَ الأسماع إليه لأن التشبيب قريب من النفوس، لائط بالقلوب لِمَا قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النساء فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقا منه بسبب وضاربا فيه بسهم حلال أو حرام...**)).[1]

والمقدمة التي بين أيدينا تمثل نموذجا في الطول و التنوع ؛ فمن حيث الميزة الأولى فقد تضمنت ثلاثة وأربعين بيتا من مجموع أربعة وسبعين بيتا للقصيدة كلها . أما من جانب التنوع، فقد كانت ثريَّة ، متعددة الموضوعات ، وهذا الذي ساهم في طولها على حساب غرض المدح الرئيس ، الذي لم يكن نصيبه سوى واحدٍ وثلاثين بيتا .

وأما هذه الموضوعات التي أطالت من هذه المقدمة المتميزة فيتصدرها الغزل بامرأة رمت بسهمها فلم تُخطِئْ قلبَ الشاعر ، الذي هام من أجلها بِوَادٍ ينبت السدر والغضى، سُلُوًّا لِروضٍ ينبت الرند والسَّرْوَ ، بيانا لشوق إلى موطنه ، وحنينٍ إلى ملاعب الصبا ، التي افتقدها مذْ هاجر مُرغَما من طرف العدو ، الذي سلبه بلده ، وسرق منه أيام شبابه ولحظاتِ أنسه فيقول الشاعر [الطويل]:[2]

أبقْتُ لِصَحْوي مِن علاقتِها نشْوى   رَمَتْني بِسهْمِ اللَّحْظِ عَمْداً فَما أشْوَى

وهِمْتُ بِوادٍ يُنْبِتُ السِّـدْرَ والغضَى   سُلُوًّا لِروضٍ يُنْبِـتُ الرَّنْدَا والسَّـرْوَا

إذَا لاعَبَتْ فيهِ المَـــــاءُ ظِلالَـهُ   تَبَدَّتْ لآلي الــــدَّوِّ فيـهِنَّ والـروا

لَجَاجَـةُ مَنْ خَاضَ الصَّبــَابَةَ لُجَّةً   فَخَــلَّتْهُ إلاّ مِــن تباريحِه خِلْــوا

---

(1) ابن قتيبة ، الشعر و الشعراء ، ص 31 .

(2) ابن الأبار ، الديوان ، ق201 ، ص417 .

وقد شبّب بأعرابية ، تسكن الصحراء ، كما يعود نسبُها إلى " مُضَر " وقبائل عربية أخرى التي تَصِيفُ بها في " نَجْدٍ " ، وتَشْتُو بها في "حُزْوَى " . هذه المرأة التي تسبي النفوس بلحاظها ، وتقتل العُشّاق بغير سلاح ، بما أوتيتْ من جمال فتّان يفوق الشمس في طلعتها والقمر في نوره ، فتأسرُ القلوب وتسيطر على الجوارح .

ثم ينتقل إلى ذكر الأطلال التي تذكّره بحب سُرِقَ منه بعدما ظعنت المحبوبة ، وإلى بعض المواطن العربية المعروفة (الخلصاء) التي أقفرتْ ، والحادي الذي يمثل الرحلة ،يزيده شجنا وأحزانا ، ويثير في نفسه آلاما وأوجاعا [الطويل]:[1]

وعُلِّـقْتُ أعرابيةً دَارُهَـا الفَـــلاَ تَصيفُ على نَجْدٍ وتَشْتُو على حُزْوَى[2]

مُعَـوَّدَةً سَبْيَ النفــوسِ وقَـتْلَـهَــا وما عَرَضَتْ جيشًا ولا عرَفَتْ غَـزْواً

خَلاَ أنَّـها مِــــن أسرةٍ مُـضّريَّـةٍ تَهَابُ الدَّياجِي صُبْحَ غارتِها الشَّعْوَى

إذا طَلَعَتْ مِن خِـدْرِها أو تَلَفَّتَـتْ فَمَا القَمَرُ الأبْهَى ؟ وما الرَّشَأُ الأحْوى؟

تُطيعُ (شِغَافا)تُ القلوبِ جُفونَــها كـأنَّ لَهَا مُلْـكًا على مِلْكِها يَـــقْـوَى

ظلالاً لَِحاديها ظَـعـــائنُ أَسْلَمَــتْ بِـإرْشادِهِ الخَلْصَاءَ واسْتَقْبَلَتْ قَــوَّا[3]

مرَرْتُ بِأطلالِ الأحبَّـــــةِ بـاكـيًا فَدَهْـدَهَ مَطْلُولُ الدُّموعِ بها المَــــرْوا[4]

وقدْ كانَ أخْوَى النَّجْمُ واحْتَبَسَ الحَيَا فَشَكْواً لِسَيْلٍ منهُ يُرْعِبُ مَنْ أخْـوَى[5]

---

(1) السابق ، ق201 ، ص418 .

(2) **حُزوى** : موضع في ديار بني تميم .(ينظر : ابن منظور ، اللسان ،3/ 151) .

(3) **الخَلصاء** :ماء بالبادية .وقيل :موضع .وقيل : موضع فيه عين ماء.(4/ 170) * **قواء** : قفراء (ينظر : ابن منظور ، اللسان ،11/ 334) .

(4) **دَهْدَهَ** : دحْرجَ .(ينظر : ابن منظور ، اللسان ،4/ 412) * **المروا** :حجارة بيض برّاقة.(ينظر: ابن منظور اللسان ،13/ 84) .

(5) **شكوا : ما يُشتكى منه . (ينظر :ابن منظور ، اللسان7/ 162)* أخوى : جاعَ .** (ينظر :ابن منظور اللسان4/ 249) .

ومن المعاني ، التي احتوتها هذه المقدمة المطوّلة ذكر مطابقة الصبا مع الشيب ، الذي يحن من خلالها إلى الأيام السعيدة التي كان يتمتع بها في بلنسية ،وذكر الحمامة النائحة على اللحظات الخوالي ، فيتبادل معه الشدوَ بالشجوِ ، فيزيده ذلك المنظر همّا وكمَدا .

كما لا ينسى وهو في لحظات بث النجوى ، والشكوى من ألم فراق الأهل والوطن أن يفيق من صبوته ، ويثوب إلى رشده ، فيُبين عن إقدامه في الحرب إذا سعرت ، وجزعه من الفراق إذا حلَّ وأريدَ ، فيجد الهجران أعذبَ ، وهو أخطر من الموت ، كما يجد السلوان أفظعَ ، وهو ألذُّ من العسل .كما ذكر الأقوامَ في الحرب ، وحمد الكرم والجود والسماح للأيادي التي امتدت إليه وانتشلته من براثن الفقر والحاجة ، وذلك تمهيدٌ للتخلص إلى مدح الأمير أبي زكريا الحفصي و وليّ عهده أبي يحي في طالع سنة جديدة ، ويرجح محقق الديوان " عبد السلام الهراس " أنهاكانت سنة640هـ أو641هـ فيقول في هذه الموضوعات كلها [الطويل]:[1]

قدَرْتُ الصِّبَافيهامع الشيبِ قـــدْرَهُ ... ويَا رُبَّ عَمْدٍ في السُّجودِ تَلاَ السَّهْوا
ومِـمَّا شّجَانِي ساجِعٌ فوقَ سرْحِــهِ ... أَطَلَّتْ إلى ألْحَانِهِ في الدُّجَى صَـــغْوا
يُاجِعُني تحتَ الظَّـــلامِ مُـــراجِعًا ... فَـيُسْمِــــعُنِي شَدْوًا وأُسْمِعُهُ شَجْـوا
وإنِّي لَمِقْدَامٌ إذا الحربُ سَــــعَّرتْ ... لَظَاهَا ومِجْـــــزَاعٌ مِنَ البَيْنِ إذْ يُـنْوَى
فأستَعْذِبُ الِهجرانَ أدْهى من الرَّدَى ... وأَسْتَفْظِعُ السُّلْوانَ أَشْهَى مِن السَّلْوى
حبيبٌ إلى اللَّــــومِ فيـمَــنْ أُحبُّـه ... لِيمْتازَ صِدقُ العشقِ فيه مِنَ الدَّعـوى
وحَتْمٌ عليَّ الحمدُ لِلجُودِ والنَّـــدى ... فمازالَ يَغْـــذُونِي الرِّضى بها غـذْوا
أيَـادٍ كَفَتْ ما أتَّقِي واكفــــاتُها ... فَلاَ أرْتَضِي حَــــدَّ الثناءِ لـهاكُفْوا
وكـم بـــدْرةٍ بَادَرَتْ بِالغِنَى يَـدِي ... إلى إمَّةٍ قَدْ يَمَّمَـــــتْ كَنَفِي مَثْوى
رغـــــائبُ يُسْديها السَّماحُ غوائبٌ ... أَكلَّتْ جيَّادَ الشِّعرِ إذْ رَحُبَتْ شَـــأْوا
وَقَـتْنِي مِن شَكْوى الزَّمــــانِ وذَمِّهِ ... فمَا لي غير العَجْزِ عن شكرِها شكْوى

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق201 ، ص419 .

ومن المقدمات الغزلية الممزوجة بأدوات الحرب ، نقف على مقدمتين ؛ فالأولى منهما بلغ عدد أبياتها خمسة وثلاثين بيتا من مجموع سبعة وأربعين بيتا ،شكلت القصيدة ، التي بُتِرَ منها جزءٌ كان عبد السلام الهراس ـ محقق الديوان ـ قد أشار إلى ذلك .[1]

وقد كان للشاعر قصائد في المدح ، يستهلها بمقدمات ممزوجة بأدوات الحرب يوظف فيها لغة المعركة وألفاظ القتال من مثل : (السيوف ، البيض ، أقتل، صرعاها ، يصرع الدعس الهبر) .

ولم تكن هذه المرة الوحيدة التي يتحدث فيها الشاعر عن عنصر القوة ، ولاسيما أمام المرجوِّ استغلالُ قوّته ومكانته بين العرب ، وإنما تكرر هذا الصنيع ؛ لأن ابن الأبار يؤمن بأن القوة هي الحل ، والسبيل الذي يرضخ به الأعداء النصارى ؛وحديثه المكرور عن هذا العنصر إنما يؤكد أنه مفقود عند الأندلسيين ، ولو كان عندهم ما تشرذموا بين البلاد العربية (تونس المغرب والجزائر) تحديدا . فالقوة عند الشاعر استحالت معادلة يستعصي حلها لذا نجده في كل مرة يطرح فكرة القوة . وكثيرا ما كان ابن الأبار يقارن أدوات الحرب الفتاكة، التي يطعن بها الأسود الكواسر ، وبين ألحاظ المرأة التي تقتل بال سلاح وتسبي القلوب ولا تشفي الجراح ، كما مزج بين دماء القتلى وبين خضاب الأوانس فاللون واحد والنتيجة واحدة إلا أن الأدواتِ مختلفة ولكن القتيل واحد أيضا .

ويقول [الطويل]:[2]*

تُهابُ السُّيوفُ البِيضُ والأُسلُ السُّمْرُ وأَقْتُلُ منهــنَّ الغلائـــلُ والخــمْرُ

أَما تلكَ صَرْعَاها تَعِــزُّ نَجــاتُــها وكمْ قد نَجَا مَنْ يَصْرَعُ الدَّعْسُ والهَبْرُ[3]

---

(1) ينظر :ابن الأبار ، الديوان ، ق 97 ، ص 218 .

(2) ابن الأبار ، الديوان ، ق67 ، ص215 . * هذه القصيدة مبتورة ، غير كاملة . فبقية الصفحة والصفحة التي تليها بياضٌ .(ينظر : الديوان ، الحاشية 24 ، ص 218 .) .

(3) **الدعس** : الطعن بالرمح .(ينظر : ابن منظور ، اللسان ،4/ 345) * **الهبر** : الضرب والقطع .(ينظر : ابن منظور ، اللسان ، 15/ 13) .

بـها فَتَنَ الألبابَ حُسْـــنُ منَـــاظِرٍ لها طُرَرُ سُـــحْـــمٌ[1] لها غرَرٌ زُهْـــرُ
ولينُ قُـدُودٍ يُوجـدُ النَّوْر والجَـــنى لديهـا ولكـنْ يُعْـدَمُ العَطفُ والهَـصْرُ
بكَتْ لِبُكائي المـــالكيَّةُ فَـالْتَقَـــى بِحُكمِ النَّوى الياقُـوتُ أحمـرَ والـدُّرُّ
وما زَوَّدَتْنِي غيـــرَ إيمَـــاءَةٍ كَـفتْ وحَسْبِـــيَ عُـرْفٌ لا يقابـلهُ نُـكْرُ

....

حـياتِي هَجْـــــرٌ كــلُّها وقَطيعـــةٌ أَمَا آنَ أنْ تَـفْـنَى القطـيعةُ والهَـجْرُ

وبعد هذا الاستهلال الغزلي ، ينتقل الشاعر إلى الفخر بقومه " قضاعة " ، الذين يعودون إلى أصل اليمن ، والتي تربطهم ببني عدنان رابطة الحلف والصهر ، مشيدا بكرم هذا الأصل الرفيع ذي المجد الغالي ، وبشجاعة أبطاله وتضحيتهم وبسخاء أيديهم سمو أخلاقهم عزّهم في الجاهلية والإسلام ... إلى أن يخلص إلى يحي المرتضى ، الذي لو أنهم أُخِّرُوا ليخدموه لكان ذلك فخرا وذكرا ،يُضاف إلى مفاخرهم :

فَـخَرْتُ بِقُرْبِ العِزِّ مِن حَضْرةِ العُلَى ولولا مكانُ القُـرْبِ عَـزَّنِي الفَخْــرُ
فَإنْ عُـدَّ بيـتِي في قُـضـــاعـــةَ أوّلاً فَمَـنْ عُـدَّ مَولاها هو الماجِدُ الحُــرُّ
علـى أنّها جُـرثُومةُ اليَمَـــنِ التـي لها في بني عدنانَ الحِلفُ والصّـهــرُ
لقـد كَرُمَتْ في حالتيـها مَـغـــارِساً فَطالَ وكابَ النَّجْلُ ما شَاءَ والنَّجْرُ

....

ولوْ أنَّ يحيَ المرتضَى أُنْـسِئُـــوا مــعاً لِخدمتِه لمْ يُنْسَ يـوما لهـم ذِكْـــــرُ

أما القصيدة الثانية فقد وردت فيها مقدمة غزلية أخرى في عشرين بيتا ، مستمدة صورها من الاقتتال لنيل الأحبة ذكر فيها أدوات الحرب ؛ منها المضارب ، الرماح البيض الصفاح الأسنة والظبى ، وشُبهت الأحبة بالأهلة والكواكب ،وإسراع الخيول بالظباء والأسود.

---

(1) **سُحْم** : سوداء .(ينظر : ابن منظور ، اللسان ،6/ 185)

وما أبدع التقسيم والمقابلة في البيت الثالث ، الذي جعل فيه الموت بين الأوانس يعادل ويساوي الموت بين الفوارس ؛ فالأوليات بألحاظهن يقتلن الرجال عندما يتطلعْن بأعناقهن ويتطاولن بها ، والآخرون يسيلون الدماء بالسيوف والرماح ، فاستوى لون الدماء والخضاب يقول الشاعر [الكامل]:(1)

أهْـلاً بهِنَّ أهِلَّـةً وكــــــواكِبً ... زَحَفَتْ هلالٌ دونَهُنَّ مواكـباً

تَخدِي الرَّكائبُ والسَّلاهِبُ حولها ... تُرْدِي كأسْطارِ الكتاب كتائبا

فَالمــوتُ بينَ أوَانِسٍ وفـــــوارسٍ ... جَارُوا عليَّ أعـاديَّ وحبـائبا

هُنَّ الظِّبـاءُ العـاطياتُ سوالــــفا ... وهم الأسودُ الضارياتُ مَخالِبا

جـعَلُوا الدِّماءَ خَلوفَهم وخِضابَهم ... مُـسْتأْصِلِينَ مُســــالِماً ومُحاربا

....

وبعد أن يسترسل الشاعر في تشبيه خيوله بهؤلاء الظباء ، اللائي ملكن عنه قلبه وأسرْن فؤاده، فصرْنَ أمنيته الوحيدة ،ليجد في الأخير مبرر الهيام بالنواعم ، شأنه في ذلك شأن التعلق بالرماح، والتسويغ للخائض من أجلهن غمار المعركة مُطاعنا ومُضاربا ،بعد أن جعلت منه العامرية يلقى الأسنة كيفما شاء ، فتارة في ميدان الحب يلهو ، وأخرى في ساح المعركة يقاتل دون استراحة :

مَنْ رَاحَ بِالبِيــــضِ النَّـواعمِ هائمًا ... لمْ يَغْدُ لِلسُّـمْرِ الذَّوابلِ عائبا

والصَّبُّ مِنْ خَاضَ الأسِنَّةَ والظُّبِى ... نحـو الظِّباءِ مُـطاعِنًا ومُضاربا

....

قــد صَـيَّرَتـــــنِي العامريَّـةُ عامراً ... ألْقَى الأسنَّةَ كيفَ شِئتُ مُلاعبا

أمَّا الهوى فَأخُو الوَغــــى لمْ استرح ... مِنْ ذَا لِذاكَ (مُراوحا) ومُناوِبـا

وأما القصيدة الأخرى ، التي نظَمها الشاعر على منوال السابقة فقد كان عدد أبياتها سبعةً وسبعين ، كان للمقدمة منها ستة وعشرون بيتا ؛أي ما يعادل ثلث القصيدة .

---

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق20 ، ص67 .

استهلها كعادته بالحديث عن محبوبته ، التي صارت تنكر عليه كل شيء ، حتى وإن كان ضحية حبها ، والافتتان بها . فلم يعد الشاعر يلقى عندها إلا الصّدّ والهجران ، وما علمت أنها بنأيها المتعمد تزيد في آلامه ، وتنغص عليه حياته ، التي لا يتصورها بعيدةً عنه في كل الحالات ، يقول الشاعر : [الطويل]:(1)

أَتَجْحَدُ قَتْلِي رَبَّةُ الشَّنْفِ والخِرْص   وذاكَ نَجيعِي في مُخَضَّبِها الرَّخْصِ
تَوَرَّسَ ما تَعْـطُو بِهِ مَن عَـبِيطِهِ   كَمَا طَلَعَ السَّوسَانُ في صِبغَةِ الحُصِّ
وتَسْفِـكُهُ وهو المُحَرَّمُ سَفْـكُهُ   حلالاً كأَنَّ الظُّلْمَ ليسَ له مُـحْصِ
أمَا عَلِمَتْ أنَّ القِصَاصَ أمامَـها   فكيفَ أراقَتْهُ على النَّـحْرِ والقَصِّ(2)

....

ثم ينتقل إلى الإفصاح عن هذه المرأة ، التي سلبت قلبه ، وأسالت دمه ،دون أن تعير أدنى اهتمام لما تفعل ، وهي عربية أصيلة . ولقد تكرر عند الشاعر الاعتداد بالعربيات.

ولعل ذلك يوحي بأنه يفضلهن عن غيرهن ، إقرارا لعروبته ، التي ستحضر حتما في مقابل النصارى ،الذين حرموه من كل متعة ، كان يتمتع بها .

وفي هذا كله حنين إلى الوطن وشوق كبير ، يتأجج في صدره . ولعل الحنين إلى أيام السعادة لم يكن ابن الأبار يعبّر عنها من خلال بلنسية فحسب ، وإنما كانت عنده " نجد "
و " حمص النعامى " من المواطن التي يشتاق إليها ، ويدعو لها ـ على عادة العرب ـ بالسقيا متمنيا أن يطير إليها . ولكن هيهات ! لأن جناحه قُصَّ ، وحلَّ البين مكان القرب فصارت أيامه سودا في البادية بعدما كانت بيضا في حمص.وفي ذلك إشارة صريحة إلى انتمائه العربي الذي يفخر به بخاصة وهو المهجَّر عنوة من قبل النصارى الذين احتلوا بلاده . فهو لا يزال متمسكا بحبل

---

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق159 ، ص329 .

(2) **القصّ** : عظم الصدر .(ينظر :ابن منظور ، اللسان ، 11/ 172).

العروبة ،الذي يأمل أن يجد قوته ، يستعيد متانته على يد الأمير أبي زكريا حلمه وحلم الأندلسيين من ورائه في تخليصهم من ربقة هذا العدو الظالم :

شَمائلُ أعرابيةٌ فـي اعْتياصِـــها ... أَمْطَنَ عن الحُبِّ (المُبَرِّحِ) والمَـحْص[1]
سَقىَ اللهُ دارَ المُزْنِ داراً قَصيّـــَةً ... عـلى الشَّدِّ والتقريبِ والوخْدوالنَّصِّ[2]
يَسَائِلُ عن نجدٍ صَبَاها مُعـــاشِرٌ ... وأَسْأَلُ عن حِمْصَ النَّعامَى[3] وأَسْتَقْصِي
ولوْ كنْتُ مَوفورَ الجَناحِ لَطَـارَ بِي ... إليها ولكـــــنْ حَصَّهُ البَيْنُ بِالقَصِّ
فَشَتَّانَ ما أيّامِيَ السّـــُودُ أَوْجُها ... بِحِسْمَى[4] وما ليْلاتيَ البِيضُ في حِمْــصِ
بِحيثُ أَلِفْتُ الوُرْقَ لِلشَّدْوِ تَنْبَرِي ... على نهرِها والقُضْبُ تَهـتَاجُ لِلرَّقْـــصِ
وفي يَـدِي تشْبِيبِي قيادُ شَبِـــيبَتِي ... وخِلِّي وحِلْمِي مُسْتَـقِيدٌ و مُسْتَعْصِـــي
كِلانَا على أَقْصَى الهَوادة والهَوىِ ... فَـلا عَذْلٌ يُقْصِي ولا غَـزْلٌ يُفْصِـــي[5]

كما نظَم قصيدة أخرى طويلة في خمسة وستين بيتا ، كان نصيبُ المقدمة الغزلية فيها ثُلُثَها يمدح فيها أبا زكريا ، ويصف رياضَ أبي فهر المشهورة . وكانت هذه المقدمة خالصة في الغزل عبّر فيها ـ كما ألفناه ـ عن عذاب الهجر ، وألم الفراق ، مشبها إياها بالمهاة التي تفترس بلحاظها الأسود الكواسر ، فيتعدد قتلاها ، ولا دية تقدمها .

ويظهر الشاعر في هذه الأبيات مغرما بها ، معذبا بسببها ، هائما في حبها ، غيرَ صابر عنها متعجبا من قساوتها في تركه يتألم ولا تلتفت إليه ، ويئنّ ولا تشفيه ، ويقول [مجزوء الوافر]:[6]

---

(1) **المحص** : الخالص من العيب . (ينظر :ابن منظور ، اللسان ، 13/ 33) .

(2) **الوخد** : نوع من سير الإبل سريع. (ينظر :ابن منظور ، اللسان ، 15/ 235) . * **النصّ**: أن تستخرج أقصى السير من الناقة . (ينظر :ابن منظور ، اللسان ، 14/ 154) .

(3) **النُّعامى**: من أسماء ريح الجنوب ؛ لأنها أَبَلُّ الرياح وأرطبها.((ينظر :ابن منظور ، اللسان ، 14/ 203) .

(4) **حِسْمَى** : بالكسر اسم بلد جُذام . (ينظر :ابن منظور ، اللسان ، 3/ 166) .

(5) **يفصي** : ينقطع . (ينظر :ابن منظور ، اللسان ، 10/ 257) .

(6) ابن الأبار ، الديوان ، ق63 ، ص143 .

نَأَتْ ومَزارُها صّـــدَدُ فهلْ لكَ بالمَعَادِ يَـدُ
مَهاةٌ مِن بني أسَـــدٍ فريسَةُ لَحظِها الأسدُ
تَفُوتُ العَدّ قَتْـلاَهَا ولاَ ديَـةٌ ولا قَوَدُ
نَمَتْها الصّيدُ مِن مُضرَ وفيها البيتُ والعَدَدُ
ورَبَّتْها القُصُورُ البيـ ضُ لا العلْياءُ والسَّنَدُ

....

أَتَاها أنَّـني وَصِـــبٌ كمَا شاءَ الهوَى كَمِدُ
إذا ما النومُ نَعَّـمَها يُعذِّبُني بها السُّـهُدُ

....

أهيمُ بها ولا عَـذّلٌ يُنَهْنِهُـنِي ولاَ فَـنَدُ
هَواهَا جَلَّ في خَلَدِي فَيَا ما أُودِعَ الخَلَـدُ
وصَبري بَانَ مُذْ بانَتْ فَأَنّى الصَّبْرُ والجَلَـدُ
وكُنتُ أَصِيحُ:وَا كَبِدِي وكيفَ؟وليسَ لِي كَبِدُ
وقالوا: قلبُهَا حَجَـرٌ فقُلتُ : وثَغْرُهـا بَردُ

وقد عرفنا من خلال تتبع المقدمة الغزلية الأبَّاريَّة بأنها سارت وفق ما رسمها ابن قتيبة للشعراء. وهي من المقدمات الأساسية في الشعر العربي ـ عند ابن الأبار ، الذي نجده يتشبّب بأعرابية أصيلة ، يعود نسبُها إلى " مُضَر " وقبائل عربية أخرى ، وتسكن الصحراء.

كما ألفيناه في بعض قصائده يمزج هذه المقدمات بأدوات الحرب ، كأن الشوق إلى المعارك بات يؤرّقه ، ويطارده خياله ؛لأن هذه الحرب هي الوسيلة الوحيدة ،التي تعيد إليه أيامه الحلوة في بلنسيته ، وتسمح له بأن يلتقي من جديد مع أهله خلانه ، الذين أبعدهم عنه العدو.

ب ـ مقدمة في الشكوى من الدهر والأيام :

ومن المقدمات ، التي اعتبرها النقاد ثانوية ، نجد في ديوان الشاعر مقدمات في الشكوى من الدهر والأيام . ولم يكن هذا اللون حديثا ، بل هو قديم قِدم الشعر العربي ينقل الصراع الدائم بينه وبين الإنسان ، ينتهي في كل مرة بانهزام هذا المخلوق الضعيف لأن للدهر جبَروتاً لا يقاوَم ومفاجئاتٍ كثيرةً ، غير منتظرة ، يطل بها على البشر فيعكّر صفو حياتهم ، تاركا آثارا دليل القوة والجبروت ؛ من ظهور الشيب ، وتقوّس الظهر ونحول الجسم ، وغيرها من علامات القهر والغلبة.

وإن لم يتحوّل هذا الصراع الأزلي (الإنسان والدهر والأيام) إلى موقف فلسفي ، كما نجده عند طرفة بن العبد ولبيد بن ربيعة ، ولدى المتنبي والمعري إلا أن حضوره في الشعر الأندلسي بعمق فكرٍ وعميق تصورٍ كان له نصيبه.(1)

وكان ابن الأبار الشاعر الموحدي قد شكا الدهر والأيام في أكثر من مناسبة ، وقد تخللت هذه الشكوى أبيات الشاعر ؛ منها هذه القصيدة ، التي جعل الشكوى مقدمةً لها بمناسبة مدح أبي زكريا ،واستعطافه أثناء غضبه عليه. تمنى من خلالها الموت على أن يبقى بعيدا على ما يقيم الأودَ والمحبة ؛ لأن حاله لم يتغيّر ؛ فيومه كأمسِه خيبةً ، والأبواب في وجهه أبدا موصدةٌ بخاصة لمّا أغلق دونه باب الأمير ، الذي كان مفتوحا على مصراعيه ، يقول الشاعر [الرمل]:(2)

أسْرَفَ الدَّهرُ فهلاَّ قَصَـدَا   ما عليهِ لوْ شَفَى برْحَ الصَّدَى
يَنْقَضِي يومِي كأمْسِي خيبةً   أبَدًا أَقْرَعُ بـابًا مُـوصَـــــدا
طالَ قَدْحِي لأمَـانٍ أُخْلِفَتْ   وعَنـاءٌ قدحُ زَنْـدٍ صَلَـــدا
آهٍ منها نـبْوةً مُذْ سَدِكَــتْ(3)   لم تُلَبِّثْ نافــقاً أنْ كَسَـــدا
....

(1) ينظر : محمد مجيد السعيد ، الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس ، ص237 .

(2) ابن الأبار ، الديوان ، ق67 ، ص159 .

(3) **سدِكت** : لزمت . (ينظر :ابن منظور ، اللسان ، 6/ 203) .

كَـمْ تمَنَّيْتُ الرَّدَى في عيـشةٍ ضَـرَباً صارَ لها صُلْبُ الرّدى
لا أودُّ العُـمرَ ألقـــــــاهُ إذَا عَـزَّ فيهِ مـا يُقـــيمُ الأوَدا
....

إلا أن الشاعر يعود في آخر المقدمة ،وقبل أن يشرع في مدح ممدوحه يُمنِّي نفسه بصلاح الحال، وأن الأمل يبقى دوما مرجوًّا ، وثقته في الأمير وعفوه لا يمكن أن تتزعزع:

أنا جارُ البحْـرِ إلا أنَّ لي منـه في حالِ الورودِ الثّمدا(1)
وعلى ذلـك يا نفسي فَلا تَـيْأَسِي إنَّ مع اليومِ غَـدا

وتبقى الشكوى من الدهر والأيام عنوان أشعاره الكبيرَ ؛لأنـه لم يهنأ مـن الحيـاة إلا بقليـل حُلوها، أما باقي حياته ، فقد قضاه في هم وغم كبيرين ؛ من أهله تارة،الـذين لم يسـتطع إقنـاعهم بتصرفاته ،ومن الحكام الحفصيين ،الذين يترصدون بمساعدة الوشاة والحاقـدين لـه والحاسـدين له عن علمه ونجاحاته و خطواتِه أينما حـلَّ وارتحـلَ تـارة أخـرى ؛ فيبعدونـه أحيانـا ويهملونـه أحايين ، حتى جعلوه يندم على التقرب إليهم ، على الرغم مـن أنـه لا ملجـأ إلا إلـيهم ، فكانـت آلامه في ازدياد وأحلامُه معهم في ابتعاد .

---

(1) **الثمدا** : الماء القليل ، لا مادّ له . (ينظر :ابن منظور ، اللسان ، 6/ 114) .

ج ـ المقدمة الطللية

وفي قصيدة بلغت أبياتها سبعةً وسبعين في مدح أبي زكريا و وليّ عهده أبي يحي وأولاده الثلاثة الآخرين ،وكان ذلك في بداية التحاقه بتونس ، تضمنت المقدمة واحدا وعشرين بيتا ، استهلها بالوقوف على الأطلال على عادة الجاهليين[1] ، نادبا الرسوم الدارسة والأماكن الآفلة ، التي صارت مرتعا للنوق والجمال ،متذكرا أيامه السعيدة التي لا يكدر صفوها شيء يقول الشاعر [البسيط]:[2]

طَلَّتْ نجيعي [3] أطلاءٌ وأطلالُ   بِحيثُ يُعْقَدُ إحرامٌ وإحــلالُ

مَنازلُ كانتِ الأقمارُ تَنْـــزلُها   بِالخِيفِ خَفَّتْ بهم نُوقٌ وأجمالُ

ثم يستطرد في وصف محبوبته ، مشبها إياه بالثريا تارة وبالغزال تارة أخرى،ومحاسن جسمها؛ من قدها القويم وردفها ومعسول ريقها ، ومعاناته من صدها ، ويذكر كلام اللوّام والعذال الذين يترصدون خطاه ، ويتتبعون حركاته . وهو في كثير من مقدماته لا ينسى أن يذكر أدوات القتال الحربية بجنب أدوات الإغراء الجسدية ، وما تتزين به فيقول:

والسيفُ والرُّمحُ لا أرجُو دفاعهُما   إذا تَمَرَّسَ بِي قُلْبٌ وخَلْخَالُ

ومن خلال هذه القصيدة ، ذات المقدمة الطللية الفريدة يتبين مذهب الشاعر الفني تجاه هـذا النوع من المقدمات ، الذي يقف منه موقف أبي نواس وغيره مـن الشـعراء الـذين طرحـوا هـذه المقدمة الطللية ، فيقول ابن الأبار [الطويل]:[4]

أَشِدْ بِالقوافِي ذِكْرَ عَلْوةَ أوعلْيَا   و دَعْ لِلسَّوافِي دَارَ ميَّةَ بِالعلْيَا

---

(1) هناك قصيدة أخرى ، فيها حديث عن الأطلال في مقدمة غزلية .(ينظر : ابن الأبار ، الديوان ، ق93 ص205) .

(2) ابن الأبار ، الديوان ، ق 111 ، ص 243 .

(3) **طلّت نجيعي** : أهدرت دمي . (ينظر :ابن منظور ، اللسان ، 8/ 182) .

(4) ابن الأبار ، الديوان ، ق 203 ، ص 429 .

وعملا بهذا المبدإ الأبّاري ـ ههنا ـ اكتفى الشاعر بهذه المقدمة الوحيدة، إلى جانب حديث عن الأطلال في مقدمة غزلية أخرى.[1] لعلّ ذلك كان من باب بيان المقدرة على التأليف والبدء بمثل هذه المقدمات لا غير .

واللافت للانتباه أن ظاهرة وصف الطلل قد كان لها حضورها المتميز في الطورين اللّذيْن سبقا طور الموحدين؛ أي عصري الطوائف والمرابطين، عند كل مِن ابن شُهيد وابن زيدون وأبي إسحاق الإلبيري وابن عمار وغيرهم .[2] وعلى الرغم من ذلك لم يكن ابن الأبار في هذه القضية امتدادا لِمَنْ سبقوه كما ألفنا أن نجد لدى الشعراء بشكل عام.

---

(1) ينظر : ابن الأبار، الديوان، ق 93، ص 205 .

(2) ينظر : هدى شوت بهنام، مقدمة القصيدة العربية في الشعر الأندلسي، دراسة موضوعية فنية، دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، العراق، ط 1، 2000، ص 119، وما بعدها .

د ـ المقدمة البحرية

وتعد هذه المقدمة تطويرا لمقدمة الشعراء القدامى ، التي كانت على متن الإبل في البرّ إلى وصف الرحلة عبر السفن ، على نحو ما وُجد عند بشار ،وأبي الشيص ومسلم بن الوليد وأبي تمام وغيرهم.(1)

كما أنشأ الشاعر عند التجائه إلى الحفصيين ببجاية في طريقه إلى تونس، وذلك أواخر سنة 636.هـ ، يمدح أبا يحي وليّ عهد أبي زكريا ، وأمير بجاية ، مبتدئا بمقدمة، وصف فيها رحلته في واحدٍ وعشرين بيتا ، ذكر من خلالها سمو غايته ، الذي جعله يخوض غمار هذه الرحلة الشاقّة إلى الممدوح ، مستهينا بذلك ، مادامت المقاصد مشروعة ، والغايات ضرورية متسلحا بالصبر عازما على المضي قدُما ، معتزلا رغد العيش ولذات الكرى جادا في مسعاه، لا تنثني له عزيمة ولا يرده عن غايته سببٌ ، طامح الهمّة ، غيرَ مُبالٍ بالصعاب لافتا نظره إلى وطنٍ غادره مُكرَها ثوى فيه العدو ، فبدا المعروف منكرا وفتح الشرك فمه ليلتهمه بعد أن احتل مكان الإيمان في الأندلس فخلَق فيها أزماتٍ وانثنَتْ لأهلِهِ عزماتٌ ، لولا بشرى يستبشر بها بنجاحِه في سيره وبلوغه مرادَهُ ؛لأنه يكفيه بعد كل هذا العناء وصولُه إلى الأمير المرتَجَى عونُه وخدمتُه .

وقد أحسنَ الشاعر ههنا في ربطه بين هذه المقدمة ، التي وصف فيها خروجه بحرا فارًّا من العدو ، وقد لاقى في ذلك الصعاب والأهوال ، لائذا بالأمير المأمول منه المساعدة وتخفيف الوطء .

وهي القصيدة الوحيدة في الديوان ، التي ابتدأت بمقدمة بحرية ، وفي ذلك خروج عن تقاليد الشعراء القدامى ، لأنها تعد ابتكارا ، يضاف إلى التحوير في أقسام بُنى القصيدة التي أشرنا إلى بعضها في بداية الحديث عن المقدمة بشكل عام ، ولكن ليس ابن الأبار هو صاحبه [الرمل]:(2)

---

(1) ينظر:حسين عطوان ، مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الأول ،دار الجيل ، بيروت ، دط، 1981 ص 39، 42، 58 ، 216 .

(2) ابن الأبار ، الديوان ، ق 85 ، ص 185 .

عَبَرَ البحْرَ يَـؤُمُّ الأبحُــــــرا   آمـنًا في وردِهِ أنْ يُصْـــدِرا
وامْتَطَى اللُّجَّةَ خَضْراء بمــــا   أَلِفَ العيشَ لديهم أخْضَرا
خاضَ صَدْرَ الهَولِ جَهْمًا عابسا   يَنْتَحِيهُمْ ضاحِكًا مُسْتَبْشِرا
وسَمَا لِلغــايَةِ القُصْـــوى على   خطَرٍ أَحْرَزَ عنه الأخْـطَرا
....
فَــلَهُ البُشرى بِمَرْمَــــاهُ الذي   أَنْجَحَ السَّيْرَ عليهِ والسرى
و بِمَـرْقَــاهُ إلى مـــــــرتبَةٍ   هَوَتِ الأنجُـُعنها مظهرا

وبالمقدمة البحرية أراد ابن الأبار أن يخرج قليلا على قانون القدامى ،الذين كانوا يرحلون إلى ممدوحيهم عبر الإبل ، واختارأن تكون السفينة هي وسيلته إلى الحفصيين لأنهم كانوا الأقوى آنئذٍ، والأكثر مدًّا للعون والمساعدة لغيرهم من المسلمين ، بفضل تأييد المدن العربية الأخرى لهم واصفا هذه الرحلة البحرية الشاقة ،التي ساقته إلى أبي زكريا ليستعطفه ويستنجد به لنصرة الإسلام في أرضه والمسلمين بعامة .

وقد كانت هذه القصيدة الوحيدة ، التي قدم لها بمقدمة بحرية .

وقبل أن يتخلص ابن الأبار إلى ممدوحه يقتطع أبياتا قليلة ، لكنها في الحقيقة تلخص معاني كثيرة ؛ تحمل أمارات الحاضر ،الذي آلتْ إليه الأندلس بعامة ، وبلنسية ؛ مرتعِ صباه بخاصّة نذكر من ذلك ثلاثة أبيات كانت أصدقَ تعبير لِلآمِنِ المرحَّل والكافر المسيطر الذي يفغَر فاهُ ليلتهم وطنًا غيرَ وطنِه ، ويسلب أرضا لا حق له فيها ، وليتَهُ كان كلبا كُلَّمَا عوى أُلْقِمَ حَجَراً [الرمل]:[1]

يَا لَسَاحاتٍ ثَوَاهُنَّ العِدَى   فَبَدَا الانعروفُ منها مُنْكَرَا
راحَ مَنْ آمَنَ عنهاَ راحِلاً   وغَدَا يَحْــتَلُّهَا مَنْ كَفَــرَا
فَـغَرَ الشِّرْكُ عليْها فَمــَهُ   ليْــتَهُ أُلْقِمَ فيهاَ الحَجَــرَا

(1) السابق ، ق 85 ، ص 186 .

ضاربا في هذا الخطاب على الوتر الديني (الإيمان والشرك) ليحرك أريحة المستنجد به وملونا صوره البديعة بالمطابقة المناسبة(راح وغدا ، مَنْ آمن ومن كفر، راحلا ويحتلها ...

وما لهذه الطباقات من مفارقات دلالية ، تبين بوضوح أن الأمر جلَلٌ ، ولا يحتمل التأخر وأن القضية لم تعد قضية احتلال عادية لمدينة إسلامية ، أو من قوي لِضعيفٍ ، بل قضية صليبية لا بد أن ينظر إليها من منظار الدين (الأمانة) وضرورة الحفاظ عليه من طرف الجميع ، لاسيما إذاكان في يد أحدهم إمكانية ذلك ؟ !!.

وهذا ما سنحاول تناولَه حينما نتحدث عن القصيدة البسيطة ، وتحديدا (السينية والهمزية).

ولعلّ النمط الذي وجدناه لدى شعراء الموحدين ؛ ونخص بالذكر هنا أبيات ابن الأبار فقد كان هذا الهيكل لقصيدة سادت حقبة من الزمن ، وظلت تكرر صورتها ، إلى أن وصل إليه (النمط).

غير أن هذا لا يعني انغماسه الكلي فيه ؛ فلقد سجّلنا من خلال تتبعنا لقصائد الشاعر، أنه قد مالَ بعض الشيئ عن هذا التقليد ، غيرَ حافلٍ بالمنحى الفني السائد والمألوف ، وصار يسمح لنفسه بأن يخرج عن ذلك ؛ وما القصيدة ، التي قدّم لها بمقدمة بحرية - إلا دليل على ما ذهبنا إليه ؛ فهولم يغرم بوصف السفينة ، كما فعل الجاهلي مع ناقته ، ولم يسترسل في الكلام فيها . ولكنه قصدَ الغايةَ لا الوسيلة ؛ لأنها - بالنسبة إليه أهمُّ - وتتمثل في الوصول بشتى الطرق إلى ممدوحه ،الذي يسارع إلى لقائه مسارعة اللهفان ،لا لأجل كسب ودّ ، يتهافت عليه غيرُه وكان له أن يستغل الموقف ويفعل ذلك ، وينال ما يريد ويحظى وحدَه بما ينشده كل طامع ومنتهزٍ ،ولكنه أَبى ألاَّ يقع في مثل هذا (الشَّرَك) المُغري ؛لأنه ببساطة رَجُلُ دولة ، ومُوفَدٌ مِن قِبلِ مسْؤولٍ عن دولة (ابن مردنيش)؛ حاكم بلنسية ليحافظ على دولة ، لها مكانتها ،التي ضاعت أو كادت - آنَئذٍ - أن تضيع بين أيدي النصارى .

فالتقليد الفني هنا وصف الرحلة والراحلة (السفينة) ، قد حدَّد له أبياتا قليلة ،صارت غير ضرورية ؛لأنها لم تكن مقصودة بذاتها ؛ لأنها كانت الوسيلة ، لا الغاية لا غيرَ.

والثانية عنده وعند الأندلسيين المنتظرين أشرف وأغلى ،وأكثر قصداً من الأولى؛لأن المأمورية التي كُلِّفَ بها تُملي عليه حتى الإطارالفني، إلى جانب الإطار الموضوعاتي .

ولا نبعد على المقدمة من الجانب الفني ، التي تضم في حناياها **الرحلة**، التي أحسسنا أننا لم نفِهَا حقَّها ، بخاصة وأننا نتحدث عن أقسام القصيدة العربية ؛ من المطلع إلى غاية الخاتمة .

فالحقيقة ، التي تفرض نفسها ههنا ، وهي أن" الرحلة " كعنصرٍ فني تقليدي دأب عليه الشعراء القدامى ، وتناولوا أشكالها المختلفة ، أردنا من خلالها أن نوضح لمّا كانت عند الجاهليين ؛ فقد كانت وسيلتهم " الناقة " ؛ يصفونها ، ويحرصون على ذكر طائفة من النعوت كالصلابة والامتلاء أو الضمور، والتحمل والشدة والسرعة .

ويشيدون بها ؛ لأنها تحمل أمتعتهم وقلوبهم على هوادجها على السواء ؛ لذلك نجدهم يتتبعون خطواتها ؛خطوة خطوة ، وقلوبهم تهتز لذلك دفقة دفقة ، وهي تقطع لمصيرها وعبر مسارها المسطّر صحراء شاسعة ، واسعة ، يلفح وجوهَهُم حَرُّ شمسها ، وينير ظلامَ ليلِهم نُورُ قمرها .

هذه صور لا نجدها في شعرابن الأبار ؛ لأن البيئة غيرالأخرى ؛ فراحلتُه سفينةُ الماء لا سفينة الصحراء ، التي أَلِفَهَا [الرمل]:(1)

وامْتَطَى اللُّجَّةَ الخضْرَاءَ بِمَا أَلِفَ العيْشَ لدَيْهِمْ أخْضَرَا

وإذا كان الشاعر الجاهلي يصف راحلته (ناقتَه) باعتبارها جزءًا لا يتجزّأُ من كيانه وصورة لا تنقطع عن حياته ، بحُكم حياته الرعوية ، التي تفرض عليه ـ دومًا ـ الانتقال من مكان إلى آخر بحثا عن الماء والكلإ ، وليس تصويرا تخييليًا ، مجنحًا ، وإنما رسمٌ لِصورةٍ عاشها مُذْ عرفها (الناقة) فأَلِفَهَا وأَلِفَتْهُ ،ونشأتْ بينهما علاقة حميمة ، لايفرِّق بينهما ظرفٌ إلاالموتُ لأنها تَمْثُلُ أمامَ عينيْه صباحَ مساءَ ، وتحمل أوزارَه،آماله وآلامه وهودجَ حبيبته فصارحبُّه لِناقتِه من حبّه فتاته .

أما الشاعرالأندلسيُّ ابن الأبار فلا يعير اهتماما لراحلته المائية فحسب ـ كما أسلفنا ـ وإنما يُعرضُ عن ذلك ويسرد الأهوالَ وخطوب التي لقيها ـ باقتضاب ـ مقارنة سرد الجاهلي . ونظرا

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق 85، ص 185 .

للمهمة التي خرج من أجلها فلا نجده في مقدمته البحرية بخاصة ، إلا أن يتحدث عن أَنَاهُ : **امتطى خاضَ ، سما ، ياله معتزما ، أظفره الصبرُ ،جدَّ مجبولاً ، منه طامح الهمة ، لا مقتصدا ولا مقتصرا ، حالتيْه ، طعِمَ الشهدَ ، ذاقَ الصّبِرا لايبالي...**[1] ، وغيرها من الألفاظ الدالة على أنه كان المقصود بهذه الرحلة (الغاية) متناسيا الوسيلة ،التي لولاها ما كان ليصل إلى هدفه المنشود وغايته الأسمى (أبي زكريا) عكسَ ما كان يفعل الشاعر الجاهلي ؛ الذي يفؤرد لِلناقة كلَّ الموضوع . وهذا فارق كبير بين الجاهلي وبين الأندلسي .

(1) ينظر: ابن الأبار ، الديوان ، ق 85، ص 185 ـ 186 .

هـ ـ المقدمة الخمرية:

لم تكن المقدمة الخمرية عند الشاعر تقليدا يدعو إليه ،كما فعل بشار وأبو نواس وإنما هي عنده؛لأجل الثورة عليها وتركها .

وعلى الرغم من تأثر ابن الأبار بأبي نواس ـ وهذا ما سنعرض إليه لاحقا ،في الفصل الثاني من هذا الباب ـ إلا أنه خالفه في مقدمته التجديدية، التي دعا إليها هو ومَنْ ناصَرَه . والدليل على ذلك أنها المقدمة الوحيدة التي تضمنها ديوانُه .

وفيها يعرض إلى وصف مجلس الندامى ، الذين تُدار عليهم الكؤوس ، فينتشون . ولم يكن ذلك يُغري الشاعر ، ويجذبه إليه ؛ لأنه مأخوذ بالعسل الأبيض ، الذي يدمن عليه ويفضله .

والمتأمل في حياة الشاعر ، لا يجد في كل مراحلها حديثا عن مجالس الخمر ، التي كانت تقام على ضفاف الأنهار ، وفي قصور بعض الملوك . وبالمقابل كان يُعرف عنه تقواه و ورعُه ، الذي كان دليل قوة إيمانه ، وهو الإمام الحافظ،المحدّث ، والفقيه ، والعالم والقاضي في بعض شؤون الناس ، الذين يشتكونه مشكلاتهم ، ويستفتونه أمور دينهم .

يقول الشاعر [البسيط]:[1]

لا أعْصِرُ الخمرَ بلْ لا أغْرسُ العِنبَا   حَسْبِي ثُغُـورٌ تُبيحُ الظّلْمَ والشَّنبَا

إذاَ تُـدارُ على صـاحٍ سُلافتُـــــها   يومًا تَهَافَتَ سُكْراً وانْتَشَى طَـربا

وظلَّ يَهْـزِجُ في أثْـناءِ نشْـــوتـه   حتَّى كأنَّ دَمَ العُنْقودِ ما شـــربا

قُلْ لِلنّزيفِ بها : أَدْمِـنْ على ثِـــقَةٍ   فلاَ جُناحَ على مَنْ أدْمَنَ الضَّـَربا[2]

وقبل أن يشرع في مـدح الأمـير أبي زكريـا ـ وهـو الغـرض الـرئيس ـ يـردف المقدمـة الخمريـة بموضوع النسيب ، يذكره في سياق وصف الرحلة إلى ممدوحه ،عبر رحلة محبوبتـه (خولـة) التـي لا نعلم إن كانت امرأة حقيقية أحبها الشاعر ،أم أنها رمز لامراة ـ أيّ امرأة ـ فيصف رحلتها وقد

(1) السابق ، ق 23، ص 73 .

(2) **الضَّرَب** : العسل الأبيض الغليظ .يذكر ويؤنث. (ينظر :ابن منظور ، اللسان ، 8/ 33) .

علّقت معها قلبه ، فتأثر لذلك بدنُه ، بعـد أن أرادوا حجبهـا عنـه ونسـوا أن الشـمس لا تُحجَـب فيقول مخاطبا أهلها ، الذين حرموه منها وحجبوها عنه:

سارُوا به دون جسمي كيف صاحَبَهُم؟ ولا قَــوامَ له إلاّ إذا اصْطُحِـــــبَا
يا آلَ خَــولةَ لا آلُو مَضاربَــكـــم حَوْما عليها رجاءَ الـورد إذْ (عَذُ)بَا
وإنْ حَـجَبْـتُم عن الأنظارِ هَودَجَــها فحاجِبُ الشمسِ لا يَخْفَى وإنْ حُجِبَا
ما ضَـرَّكم لوْ قــفَعْتُم من تـعلُّــقِها بِأنْ يسُـوقَ (لها) المُهرية الـنُّجُـــبا
لَئِنْ بَخـلْتُم بِنَزْرٍ ليسَ يَـرْزَؤُكـــم لَـتَفْضَحُـنَّ بِما تأتــونه العَـــربا

وقد أحسن الشاعر في الربط بين هذه المقدمة ، ذاتِ الموضوعيْن ، وبين الموضوع الرئيس الذي جعله مدحا الأمير الحفصي حين يقول:

أَليسَ يُعْديكُم جُودُ الأميرِ على قَاصٍ ودَانٍ بِما يسْتغرِقُ الطَّلَبَا

إن مقدمة الشاعر الخمرية ، تندرج ضمن ما سبق وأن أشرنا إليه ؛ وهو أن الحـديث عنهـا لـيس من باب التمسك بها ، ولا الدعوة إليها ، وإنما من أجـل تركهـا وهجرهـا كـما فعـل مـع المقدمـة السالفة (الطللية) . ومن هذا يتبين أن الشاعر ، العالم ، الفقيه المحـدّث والحـافظ للقـرآن الكـريم منذ صغره يطرح فكرة المقدمة الخمرية تعففا على الرغم من تأثره بالداعي إليها (أبي نواس) .

والمتأمل في هذه المقدمة يجدها تفترق عن مقدمات غيره من الشـعراء ، الـذين يسرـفون في هـذا الموضع في الحديث عن مجالس اللهو والأنس والعربدة ، يصفون الخمر وعتقها ولونهـا كؤوسـها وساقيها أو ساقيتها وسلطانها وأثرها على شاربيها ،الذين يُقْبِلون عليها لقتل الهموم ونفي الأحزان وإحياء النشوة والسرور كما فعل ابن الرومي [1]، وأبو نواس وغيرهما.[2]

---

(1) ينظر : ابن الرومي ، ديوان ابن الرومي ،شرح :أحمد حسن بسج،منشورات دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، ط3 ، 2002 ، ص 126 . دَعِ الأجمالَ مُرْتَحِلَهْ تخب بركبها عَجِلَهْ [مجزوء الوافر] .

(2) أبو نواس ، ديوان أبي نواس ، ص 267 .

كم بين ناعتِ خمرٍ في دساكرها وبينَ بـاكٍ على نُؤَى ومُنـــتضِد [البسيط]
دَعْ ذَا وعدمتُكَ واشْربْها مُعتقةً صفراءَ تغرقُ بين الرّوح والجسَد

و- المقدمة الحماسية :

للشاعر ابن الأبار قصيدتان مشهورتان ؛ هما الهمزية و السينية. تدخل كلتاهما في باب الاستنفار لتخليص الأندلس .

فأما الأولى فهو لا يروي الأحداث بهدوء وحياد ، وإنما يُسمِع صوته عاليا ،مُدويا ؛لأن بلاده الأندلس تئنُّ تحت وطأة العدو الغاشم ، فهوحامل مسؤولية وطن مشرّد ، ومهمته تصب في قالب الفكر الحضاري العربي ، والدفاع عن الحضارة العربية الإسلامية ضد الغزاة الصليبيين . فكانت النزعتان في شعره نزعتين : حكائية سردية ملحمية ، يصف فيها المعارك ويرسم مأساة الوطن الأندلسي بشكل عام . ونزعة درامية حزينة ، يعبّر بها عن شحنة عاطفية تتأجج في صدره وتعتصر أنفاسه ، دالة على أهمية الموضوع ،الذي لا يجوز لأي كان أن يتأخر عنه كواجبٍ عالقٍ في صدر كل مسلم ، يغار على دينه ، ويبكي لحال أهل وطنه العربي

الإسلامي الكبير. إلى أن يصل إلى المستنجد به أبي زكريا ،فيجعله حامي الحِمى ، والذائد عن الدين ، مبشرا الأندلسيين بقرب الفرج ،الذي سيكون بمشيئة الله على يديه [الكامل]:[1]

بُشْـرَى لأَنَدلُسٍ تُحِبُّ لِقاءَهُ ويُحبّ في ذاتِ الإلَهِ لِقَاءَها

والشاعر في هذا الموقف يبين عن نهجه في الاستنفار ،بأن يتَفَادى الغزل والنسيب في مثلهذه المواقف التي تقتضي من صاحبها أن يتوجه مباشرة إلى وصف الأساطيل والجيوش الجرّارة،التي يكون بناصيتها الفلاح والنجاح ..، وذلك عندما يقول [المديد]:[2]

دَعْ أساليبَ النّسيبِ و خُذْ في أساطيرِ الأسَاطِيـلِ

أخواتُ الخيلِ سابـــحةٌ ذاتُ تَزْيينٍ وتزْييـــلِ

وأما في قصيدته السينية،التي كانت في الحقيقة التاريخية قد نظَمها الشاعر قبل الهمزية التي لم ينسبْها " المقَّري " إلى أحد من الشعراء - كما أشرنا نقلا عنه في مناسبة سابقة - فقد أنشأها بعد

---

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق 1 ، ص 37 .

(2) نفسه ، ق 107 ، ص 233 .

أن ركب السفينة وقصد أبا زكريا المنشود عونُه ، والمرجوَّ مَدَدُهُ وكان الحديث في بداية الأمر على الخيل والأسلحة والأسطول البحري ، الذي سيشارك في المعركة التي يتمناها الشاعر المستنجد أن تكون الفاصلة بين الحق والباطل ،وبين المسلمين والكفار .

وكان الحديث حسب القصيدة التي بلغت أبياتها سبعة وستين بيتًا تتكون من مقدمة ممزوجة بالدعوة إلى إعداد خيول الله (الجهاد) ؛لأن ما وصل إليه أهالي الأندلس ومقدساتها والحيف الذي لحق بأهلها ، والفساد الذي استشرى بأرضها ، وبين إشارة واضحة أن المأمورية كانت على متن السفينة ، عندما يقول الشاعر [البسيط]:(1)

وَافَتْكَ جاريَّةً بِالنُّجْحِ راجيّـةً مِنكَ الأميرَ الرِّضَيو السّيّدَ النَّـدِسَا

خَاضتْ خضَارَةَ يُعْلِيهاويُخْفضُها عُبَابُهُ فتُعَانِي اللّيِنَ والشِّـــــرِسَا

ورُبَّمَا سَبَحَتْ والرِّيحُ عـــــاتِيَّةٌ كمَا طَلَبْتَ بِأَقْصَى شده الفـــــرسَا

كما أنشأ ابن الأبار قصيدة بمناسبة ولاية العهد لمحمد المستنصر ، وكان ذلك في 12 من ذي الحجة سنة 646 هـ في ثلاثة وعشرين بيتا ،كان نصيب المقدمة الحماسية فيها ثمانية أبيات قال فيها:

مِنْ كلِّ رقْراقِ الفِـ(رنْـ)دِ كأنَّهُ نِهْيُ إذاَ ماالغمْدُ عنهُ جُرِّدا

ومُثَقَّفٍ ذَلِـقِ السِّنَانِ تخـــــالُهُ في السّرْد يخْرُقُ جانبيْهِ مُسّرّداَ

قسمَ الجبَابرةَ الذينَ تمـــــرَّدُوا وتسَنَّمُوا صرْحَ الشقاقِ تُمرَّدَا

أينَ ابنُ غـــــانيةَ وأيْـــنَ غَنَاؤُهُ لا مُلْحِدٌ إلاَّ وأصْبحَ مُلْحِدَا

وحكتْ أجادِلُ زُغْبَةَ زُغْبَ القَطَا وغدَتْ رياحُ بني رياحٍ رُكَّدَا

زُهْرٌ مَنَاقِبُـهُ أَبَتْ عَـــــلْيَاهُ أنْ تَلْقَاهُ إلاَّ وَاعِدًا أومُـــوعِدَا

لمْ أَرْضَ إلاَّ بِالنُّجُـومِ منَـــزِلاً لَمَّا حَدَا بِي لِلسَّعـادَةِ مَا عَدَا

إِنِّي رَحَلْتُ إليهِ في طلَبِ العُــلَى لأَكونَ عَبْدًا في ذُرَاهُ سَيِّــدَا

(1) السابق ، ق 185 ، ص 399 .

استهلها بوصف سيفٍ لا مثيلَ له ، يشبه إذا ما جُرِّدَ مِن غمده بغدير ، وبِمثقَّفٍ حادّ السنان قُضيَ به على كل جبَارمتعنت ومتمرد ، ضاربا المثل بابن غانية الذي كان بقومه مصدر قلق الموحدين ، بفضل الخطورة التي كانوا يمثلونها ضدهم ، فانبرى لهم أبو زكريا الحفصي وقضى على آخرهم سنة 631 هـ . ثم ينقل إلى مدح ممدوحه وليّ العهد (المستنصر) ، رابطا بذلك مقدمته الحماسية بالغرض الرئيس المناسب لها .

وفيما يلي جدول بياني لنوع المقدمات في شعر ابن الأبار ،وعدد القصائد وعدد أبياتها مع عدد أبيات مقدمة كل نوع :

نوع المقدمة	عدد القصائد	ع.أبيات القصيدة	ع. أبيات المقدمة	الغرض الرئيس
المقدمة الغزلية	25 قصيدة	من:16 إلى:77بيتًا	من:12 إلى:42	مدح، وصف
م. الشكوى من الدهر والأيام	04 قصائد	من:19 إلى:71بيتًا	من:06 إلى:29	مدح ، رثاء واستعطاف
المقدمة الطللية	قصيدة واحدة	77 بيتًا	21 بيتا	مدح
المقدمة البحرية	قصيدة واحدة	78 بيتًا	20 بيتا	مدح
المقدمة الخمرية	قصيدة واحدة	45 بيتًا	15 بيتا	مدح
المقدمة الحماسية	03 قصائد	من:23 إلى:90بيتًا	08 أبيات	استنفار،مدح

والمتمعن في هذا الجدول ، ومن خلال النماذج القليلة ،التي اعتمدناها في الحديث عن مقدمات ابن الأبارالمتنوعة يتبين لنا أن هذه المقدمات على اختلافها قد تنوعت بين الطول والقصر كما أنها قد جمعت في حناياها قبل التخلص إلى غرض القصيدة الأساس معاني عديدةً ؛ من مثل الجمع بين الطلل والرحلة والغزل ،إضافة إلى الشكوى من الدهر والأيام وكذا وصف الطبيعة.

كما أن الناظر إلى هذه المقدمات ـ أيضا ـ يجد الحظ الأوفر كان من نصيب المقدمة الغزلية عمد إليه الشاعر تقليدا منه للشعراء القدامى ، الذين اختطّ طريقَهم ابنُ قتيبةالدينوري :

((**ليُميل نحوه القلوب ، ويصرف إليه الوجوه،وليستدعيَ به أصغاءَ الأسماعِ إليـه ؛لأن التشـبيب قرب من النفوس ،لائطٌ بالقلوب...))** [1] ، وكان ذلك مناسبا للغرض الـرئيس الـذي يـتخلص إليه ، والذي كان في الأغلب الأعم مدحًا ،إلى جانب قليل من الوصف ، اقتضته مناسبات معينة كوصف رياض أي فهر البديعة ، التي كانت محل فخـار السـلطان ، وبصـمة بسـتانيّ الحفصـيين الخاصّة ،بينما جاء في المرتبة الثانية مقدمة الشكوى من الدهر والأيام ،التي لم تُسْعِفه في حياته كلها نلخّصها في ثلاثة أبيات له متفرقاتٍ ،إذ يقول في الأول [الوافر]: [2]

أَبَيْنٌ وشَوْقٌ وارتياعُ؟ لَقَدْ حُمِّلْتُ ما لا يُسْتَطَاعُ

ويقول في الثاني [الوافر]: [3]

إِلَى مَن ْأَشْتكِي صُنْعَ اللّيالِي بِنَا وتَفَرّقَ الحَيِّ الجَمِيعِ

ويقول في الثالث [الكامل]: [4]

لَوْ أَنَّ ثَهْلاَنًا تحَمَّلَ بَعْضَ مَا حُمِّلْتُهُ خَرَّتْ ذُرَى ثَهْلاَنِ

كما يلاحظ ورود نسبة هاتين المقدمتين (الغزلية ومقدمة الشـكوى) عاليـة ،مقارنـة بالمقـدمات الأخرى ؛ أي بنسبة 54.54٪ ، و 40.48 ٪ على التوالي ، هذا بحسـاب أعـلى عـدد أبيـات كلتـا المقدمتين . ويمكن تعليل ذلك بأن غلبة المقدمة الغزلية مـردُّه إلى أن الشـاعر كـان يسـير وفـق مـا رسمه الأقدمون ـ كما أسلفنا ـ محافظا في ذلك على نهجهم دون الحيـد عـم سـمتهم . بينـما يُعْـزَى كثرة ورود مقدمـة الشـكوى إلى أن ابـن الأبـار كـان قـد عـانى في مرحلتـي حياتـه (الأندلسـية والإفريقية) معاناة شديدة ، وبخاصة في تونس ،التي وجد فيها ـ وهـو الغريـب الوافـد علـيهم ـ مالم يكن يتصور ـ وهو العالم والمتفوق وصاحب البأو والكبر ـ الذي جلب عليه سخطا شديدا

---

(1) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ص31 .

(2) ابن الأبار ، الديوان ، ق 170 ، ص 364 .

(3) نفسه ، ق 171 ، ص 365 .

(4) نفسه ، ق 158 ، ص327 .

وتبرّما من طباعه كبيرا حتى مِن قِبلِ الذين استقدموه ، فعاش الغربتين .

أما إذا انتقلنا إلى المقدمتين التاليتين (الطللية والبحرية) ، فأول ما يمكـن تسـجيله تقـارُبُهُما في كل شيئ ؛ من حيث عددُ القصائد ، الذي كان في كل منهما قصيدة فريدة ، ومن حيثُ عددُ أبياتهما وعددُ أبيات مقدمتيْهما ، انتهاءً إلى الغرض ، الـذي كـان مـدحا لأبي زكريـا و وليّ عهـده. ويمكن تبرير هذه النسبة القليلة بأن المقدمة الطللية ، كان إيرادُها من أجل الثورة عليهـا والـدعوة إلى الابتعاد عنها ، على الرغم من أن الشاعر ذاتَه كان قد تتبع خطوات ابـن قتيبـة في رسـمه الـذي اختطّه لشعراء قبلَه ، وقد تبيّن ذلك جليًا في المقدمة الغزلية إلا أنه مع المقدمة الطللية خالف القاعدة وخرج عن المطلوب منه وممّن قبلَه.

ويمكن عزوُ هذا الخروج عن النمط المألوف إلى بيئة الأندلس المتحضرـة قـد فرضـت عليـه أن يعيش واقعا غير واقع شعراء البداوة ،يضاف إلى ذلك أن الظروف ،التي يحياها يوميا صرفتـه إلى ما هو أهم ، فأراد أن يسهم في تخليص وطنه مـن ربقـة العـدو الجـاثم عـلى أرضـه كـما يمكـن أن تتصور معه وهو الشاعر المسؤول عن قضية وطنية وقومية وإسلامية لا يريد أن يبكي طللاً لأنـه متشوق إلى أن يعود إلى بلنسيته قبل أن تغدوَ كذلك (طللا) ، على الرغم من أننا نجده في قصـيدتيْه الاستنفاريتين (السينية والهمزية) قد أشار إلى ما آلت إليه بلاده من محو معالم إسلامية ، وتـدنيس مقدسات دينية ، وطغيان صوت النواقيس في الآذان على الأجراس فأملُه في الرجوع إلى موطنه لم ينقطع مادام هناك أبو زكريا الحفصي يسمع صوتَه ويمده ووطنَه بالعون والمدد.

أمافيما يتعلق "بالمقدمة البحرية " ، فقد كان الشاعر ابن الأبار يصف واقعا عايشه يوم أُوفِـدَ إلى السلطان الحفصي لطلب العون والمساعدة ،من أجل تخليص وطنه من ربقة العدو الجـاثم عـلى صدر أمته . ولم يكن في هذا الموقف مقلدا كما فعل بعض الشعراء ، وإنـما كـان ينقـل عـبر أبيـات صورة حقيقية ، وما كان بحاجـة إزاء الوضـع المـزري ، الـذي يعيشـه أهلـه البلنسـيون بخاصـة والأندلسيون بعامة من جرّاء تسلط الأراغونيين ،الذين استقوَوا عـلى الأهـالي العُـزّل فسـلبوهم كرامتهم وتعدوا على أعراضهم ، واستباحوا كلَّ حلال عندهم.

فكانت الوفادة إلى السلطان الحفصي ، الذي دانت له رقاب كثير البلدان ، عبر السفينة المباركة بدل الناقة ، التي لم تكن موجودة . ولقد كان لابن رشيق القيرواني رأيٌ صريح لمّا تحدث عن ارتباط الشاعر ـ أيّ شاعر ـ ضمن القصيدة بوجود الناقة والفلاة في حياته اليومية فالأمر عنده عادٍ إذاماكانت (الناقة والصحراء) موجودتين واقعًا ، أما إذا لمتكن ذلك قائما فذِكْرُه في القصيد غير جائز ((**فالواجب اجتنابه**))[1] ، كما هو الحال في زمن ابن رشيق ، الذي ذكَر بأنه لا يوجد في زمنه ، وقد ذُكِر هذا الرأي لمّا مثّل بأبي الطيب المتنبي وتفضيله للخيل بدل الإبل .[2]

وإذا ما تناولنا " المقدمة الخمرية "، فإننا نجد للشاعر قصيدةً ، يبلغ عدد أبياتها خمسةً وأربعين بيتا ، ورَدَت في غرض المديح لأبي زكريا الحفصي ، كان نصيبُ المقدمة فيها ثلثَها تماما، وكانت ممزوجة بالحديث عن فتاته ؛ فاتِنَتِهِ ، التي منعوها منه ، وأبعدوها عنه حتى لا يراها ، ناسين أن الشمس لا تخفيها الحُجُبُ .

ويحسن الربط ههنا بين هذه المقدمة وبين الموضوع الرئيس (مدح السلطان) ،حينما يجعل بُخْلَ أهل حبيبته تعويضا له عن كرم ممدوحه الذي لا يبخل بمدّ يده إليه ليسعفه ويخفف عنهن مسترسلا ـ كما عوّدنا ـ في ذكرفضائل السلطان والإشادة بعظيم أخلاقه و جميل صنيعه مع الناس جميعا ، متسلحا بقوة التدين وسطوة منه في الحق على السلاطين . ونجد الشاعر هنا قد أحسن الربط بين موضوعيْه بقدرٍ لا تكاد تميز بينهما .

وفيما يتعلق " بالمقدمة الحماسية " فإننا يمكن أن نقول إن هذا النوع لم يكن من المقدمات الغالبة في الشعرالعربي بعامة إذا ما قورنت بباقي المقدمات ؛ من مثل الطللية والغزلية ومقدمة الظعن . وهو الأمر ذاته ، الذي وجدناه في القصيدة الأَبّاريَّة ،التي لم تُلْقِ بالاً لهذا النوع ؛ ذلك أن مقدمة وحيدة يمكن أن نصنفها ضمن المقدمات الحماسية،التي استهلها بالحديث عن الفرند (السيف) المشبَّه في تجريده بالنِّهْي (الغدير) وبالمثقّف (الرمح) الذي تقْسَمُ به هام الأعداء المتمردين ، ممثلا

---

(1) ابن رشيق ، العمدة ، 1/ 230 .

(2) ينظر : ابن رشيق ، العمدة ، 1/ 229 .

في ذلك بابن غانية ومصيره ، وكذا مصير بني غانية ، الذي كانوا يشكلون خطرا على السلطان كبيرا.

وتكمن هذه الرابطة الحماسية بالموضوع (المدح) في أنّ الشاعراستطاع أن يجعل الكلام عن أدوات الحرب والبطش ،التي لا يمتلكها إلا أمثال السلطان الحفصي أبو زكريا ،هي التي جعلته يقول [الكامل] :[1]

لَمْ أَرْضَ إلاَّ النُّجُومَ نَوازِلا   لَمَّا حَدَا بِي لِلسَّعادَةِ مَا حَدَا

إِنِّي رَحَلْتُ إليْهِ فِي طلبَ العُلَىَ   لأَكونَ عبْدًا في ذرَاهُ سَيِّدَا

وإن الحديث ـ في الحقيقة ـ عن ربط المقدمات بموضوعاتها من أهم ما تطرق إليه النقاد الذين نجد الأخيرمنهم نقل أو استفاد من الأول ، استفادة ، جعلوا الشواهد بينهم مكرورة باستثناء تفصيل بعضهم ، أو تلخيص آخر .

وهذا ما يعني أن سلطة نهج القصيدة الجاهلية قد رمى بثقله على كل الرؤى ـ تقريبا ـ لأن هم كل واحد منهم هو الحفاظ على حسن الاستهلال ، الذي يؤدي بدوره إلى الربط اللصيق بالموضوع الرئيس، الذي يكون إما مدحا أوهجاءً أو فخرا ، أوغيرها من الموضوعات ، التي من أجلها نُظِمتِ القصيدةُ .

ولسا بحاجة أن نستعرض هذه الآراء ؛ لأننا كنا قد أشرنا إليها في مواضعها .[2]

وكل النقاد يكادون يجمِعون على أن :أحسن الشعر ما كان منتظمَ الأجزاء ؛ أي يجمع أوله بآخره كما يجب أن تكون القصيدة كلاً متكاملاً ؛ ككلمة واحدة في اشتباه أولها بآخرها نسجا وفصاحة وحسنا وجزالة ألفاظ .

---

(1) ابن الأبار ،الديوان ، ق 70 ، ص 168 .

(2) ينظر : ابن طباطبا ، عيار الشعر ، 126 . وابن رشيق ، العمدة ، 2/ 117.

- **التخلص :**

ويسمى الخروج والتوسل ؛ وهو انتقال الشاعر من المقدمة إلى الغرض الأساس من القصيدة، أو من معنى إلى معنى فيها. ومعه تَعرِف القصيدة تحولا بنيويا ، تنتقل فيه من مرحلة لفت مسامع المتلقي إلى مرحلة تمرير الخطاب المقصود .لذلك اشترط النقاد معايير حتى يؤدي هذا المَفْصل دوره في القصيدة .

وعلى الشاعر أن يستعمل الحيل حتى لا يشعر السامع بهذا الانتقال ، ولا يُصدم به . من هنا تأتي أهميته ، ولهذا السبب اهتم به النقاد.

وفيما يتعلق بتسمية هذا المصطلح ،يقول ابن رشيق: ((**ومن الناس مَنْ يسمي الخروج تخلصا وتوسلا**)).(1)

ثم يسترسل الناقد في تعليل كيفية التخلص ، الذي يعد من أهم أركان القصيدة ، لذا كان الاعتناء به من قبل النقاد شديدا ،والحرص عليه من طرف الشعراء كبيرا ، فقد ينجح فيه مبدع ويخطئ في ذلك آخر؛ لأنه قد يضطره التنقل من معنى إلى آخر أن يتروى ،حتى لا يفقد الخيط الذي سيربطه بهذه المعاني كلها ، لا سيما إذا كانت متعددة.

فيقول ابن رشيق: ((**وأولى الشعر أن يسمى تخلصا ما تخلص فيه الشاعر مِن معنى إلى معنى ثم عاد إلى الأول وأخذ في غيره. ثم رجع إلى ما كان فيه**)).(2)

ثم يورد أمثلة من شعر النابغة الذبياني في آخر قصيدة له ، عندما اعتذر من النعمان بن المنذر مبتدئا بكفكفة دموعه، ومعاتبة المشيب على الصِّبا ، ثم يتخلص إلى الاعتذار ـ غرضه المقصود ـ فيقول :

ولكنَّ همّاً دونَ ذلك شاغِلٌ   مكانَ الشِّغافِ تَبْتَغِيهِ الأصابعُ

وعيدُ أبي قابوسَ في غيرِ كُنْهِهِ   أتَانِ ودُوني رَاكِسٌ فَالضَّوَاجِعِ

---

(1) ابن رشيق ، العمدة ، 1/ 236.

(2) نفسه ، 1/ 237.

ثم انتقل إلى وصف حاله، منتقلا إلى وصف الحيّة والسليم الذي شبّه به نفسَه، وبعدها تخلص إلى الاعتذار الذي كان فيه قائلا: (1)

أتاني ـ أَبَيْتُ اللَّعْنَ ـ أَنَّكَ لُمْتَني وتلكَ التي تَسْتَكُّ منها المسامِعُ

ومن أساليب التخلص ما أشار إليها ابن رشيق ـ أيضا ـ بالقول: ((**وكانت العرب لا تذهب هذا المذهب في الخروج إلى المدح، بل يقولون عند فراغهم من نعت الإبل وذكر القفار وما هم بسبيله: " دَعْ ذَاَ" و" عَدِّ عَنْ ذاَ " ويأخذون فيما يريدون ....فإذا لم يكن خروج الشاعر إلى المدح متصلا بما قبله ولا منفصلا بقوله " دَعْ ذاَ " و " عَدِّ عن ذاَ " ونحو ذلك سُمي طفراً وانقطاعاً..**)). (2)

أما ابن طباطبا فيدعو الشاعر إلى أن يصل كلامه في فنونه المختلفة صلة لطيفة، فيصل من غرض إلى آخر بألطف تخلص، وبلا انفصال ولا انقطاع ،فيستحسن إبداعات المحدثين من الشعراء في التخلص فيقول: ((**من الأبيات التي تخلص بها قائلوها إلى المعاني التي أرادوها من مديح أو هجاء أو افتخار أو غير ذلك ولطَّفوا في صلة ما بعدها فصارت غيرَ منقطعة عنها .ما أبدعه المحدثون من الشعراء دون مَن تقدمهم ؛ لأن مذهب الأوائل في ذلك واحد وهو قولهم عند وصف الفيافي وقطعها بسير النوق، وحكاية ما عانوا في أسفارهم إنا تجشمنا ذلك إلى فلان يعنون الممدوح**)). (3)

وإذا ما رجعنا إلى آراء صاحب الصناعتين، فنجده قد عرض إلى قضية التخلص بإسهاب كبير استغرق صفحات عدة، تطرق فيها إلى كل ما يتعلق به، ويبرز رأيه جليا، واضحا حينما يوافق ابنَ طباطبا فيما ذهب إليه بشأن تفضيل المحدثين في هذه القضية لأنهم ـ في نظره ـ أكثر تجويدا في الاستطراد والتخلص؛ ولأن خلاصة ما كان يفعله المتقدمون في الخروج إلى المدح ألفاظ يرددونها، مفضلا تخلصات المحدثين: ((**وشعراء المحدثين أحسنُ مأخذا في التخلص**

(1) السابق، 1/ 237 ـ 238.

(2) ابن رشيق، العمدة، 1/ 239.

(3) ابن طبا طبا، عيار الشعر، ص 111.

والاستطراد من القدماء ؛ لأن المتقدمين إنما كانت قصاراهم في الخروج إلى المديح أن يقول: دَعْ ذاَ وعَدِّ القولَ في ذاَ، أو يصف ناقتَه ويذكر أن إعمالها إنما كان من أجل قصد الممدوح...)).[1]

كما أن التخلص عند حازم يتخذ طريقين :

ـ طريق مقصود، تكون فيه الأغراض محكومة بعلاقة ارتباطية اقتضتها الضرورة.

ـــ وطريق التحول أو الالتفاف ، ويتم فيه الجمع بين حاشيتي كلامين متباعدي المآخذ والأغراض، فيبين ذلك في قوله : ((**نحوٌ يُتدرج فيه إلى ما يُراد التخلصُ إليه وينتقل بتلطف إليه مما يناسبه ويكون منه بسبب ؛ ونحوٌ لا يكون التخلص فيه بتدرج وانتقال من الشيء إلى ما يناسبه ويشبهه ولكن بالتفات الخاطر حيّزا من حيّز وملاحظته طرفا من طرف فيعطف إلى ما يريد التخلص إليه بما يكون ...)).**[2]

وإذا كان الناقد ذاته يجاري النقاد في أن أقصى ما يمكن أن يتحقق فيه التخلص بيتان فإنه يفضل أن يكون في أقل من ذلك . إذ بلاغة الكلام ، إنما تكون في قرب السبيل .هذا ما يذهب إليه في سياق الحديث عن مواضع حسن التخلص :((**ولا يخلو التخلص من أن يكون في شطر بيت ،أو في بيت بجملته ، أو في بيتين . وكلما قرُب السبيل في ذلك كان أبلغَ.)).**[3]

ومن باب تفضيل أنواع من التخلص يقول: ((**وقد يستحسن التخلص الواقع في البيت بأسره، ويقع من النفوس أحسن موقع ، وذلك حيث يقصد التفخيم وزيادة المعنى بها.)).**[4]

و بما أن التخلص يدل على حذق الشاعر وبراعته ، وحسن تصرفه واقتداره ، وسموا هذا الصنيع بـ"حسن التخلص "، الذي يوفر فيه المبدع قدرا كبيرا من الالتحام والالتئام بحيث لا تحس بالنقلة من غرض إلى آخر ، ولا من معنى إلى معنى، فيعرّفه ابن حجة الحموي مستفيدا من

---

(1) حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، ص317.

(2) نفسه ، ص319.

(3) نفسه ، ص 320.

(4) نفسه ، ص 320.

تعاريف سابقيه، وجامعا لها في قوله: ((**هو أن يستطرد الشاعر المتمكن من معنى إلى معنى آخر يتعلق بممدوحه بتخلص سهل يختلسه اختلاسا رشيقا، دقيق المعنى بحث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع في الثاني لشدة الممازجة والالتئام والانسجام بينهما، حتى كأنهما أُفرغا في قالب واحد..**)).[1]

لم يقف النقاد عند حدود التخلص وحسن تأتّيه، إنما تعدوا إلى تعداد بيان السقطات التي قد يقع فيها الشاعر، حذروه من الوقوع في مزالق، تذهب برونقه وبهائه، فذكروا مواطن على الأديب أن يتفاداها، فقال حازم: ((**والأمور التي يجب اعتمادها في التخلص هي التحرزمن انقطاع الكلام ومن التضمين والحشو والإخلال واضطراب الكلام..**)).[2]

ومما يجب الانتباه إليه وعدم إهماله: ((**أن يجتهد في تحسين البيت التالي لبيت التخلص فإنه أول الأبيات الخالصة للحمد والذم، وأول منقلة من مناقل الفكر فيما تخلّصْتَ إليه فيجب أن يعتمد فيه ما يكون محركا للنفس لتستأنف هزة ونشاطا لتلقّي ما يرِدُ، فإن العناية بهذا البيت نحوٌ من العناية بالبيت الثاني من مطلع القصيد..**)).[3]

فأما الخروج المتصل بما قبله، فهو ـ حسب أبي هلال العسكري ـ قليل، ويستدل في ذلك بأمثلة من أبيات شعرية مختلفة.[4]

أما إذا لم يجر التخلص على مجرى هؤلاء النقاد، فهو اقتضاب. وابن رشيق يسمى هذا النوع بـ "الطفر والانقطاع"؛ وهو أن يقطع الشاعر كلامه الذي هو فيه، ويستأنف كلاما آخر غيره بحيث لا يكون للثاني علقة بالأول، وهذا ما نجده الحموي في تعريفه له:

---

(1) الحموي، تقي الدين أبو بكر علي، خزانة الأدب وغاية الأرب، المطبعة الخيرية، مصر، د.ط، 1394هـ ص 292.

(2) نفسه، ص 321.

(3) نفسه، ص 321.

(4) ينظر: العسكري، كتاب الصناعتين، ص 515.

((وأما الاقتضاب فإنه ضد التخلص ، وذلك أن يقطع الشاعر كلامه الذي هو فيه ويستأنف كلاما غيره من مديح أو هجاء أو غير ذلك ، ولا يكون للثاني علاقة بالأول وهو مذهب العرب ومَن يليهم من المخضرمين.)).[1]

وفي باب التفضيل فقد اعتبر الناقد ابن الأثير تصرف المحدثين ـ هنا ـ أفضل فقال :
((وأما المحدثون فإنهم تصرفوا في التخلص وأبدعوا وأظهروا كلَّ غريبة.)).[2]

والمتتبع لنصوص التراث النقدي ، التي تتحدث عن " حسن التخلص " ، إنما يفهم منها أنها تدعو دعوة صريحة ، واضحة إلى اتصال الأفكار ، وتجانس المشاعر ، والتحام الخواطر .
وكان الناقد القديم يقدر نسق القصيدة على هذا النحو ، ويتعاطف مع أحاسيس الشاعر الموحدة ويحرص على البناء اللغوي ، وفي الوقت ذاته على وعي دائم بأن تحقيق الائتلاف واتصال الأفكار، ونمو المشاعر في القصيدة الواحدة أمر بالغ الأهمية ، والصعوبة في الآن نفسه ، لا يستطيعه إلا الشعراء المطبوعون ، ومن هنا كان التركيز اللافت على حسن التخلص وعُدَّ معيارا مهما ، يفرق به بين شاعر أجاد في تخلصاته ، وأحكم في الربط بين المقدمة والغرض الرئيس ، وبين آخر لا حَظَّ له في ذلك.

يعتبر التخلص من أهم أقسام القصيدة العربية ؛لأن الربط بين المقدمة وبين موضوع الشاعر الرئيس أمرٌ اُهتُمَّ به كثيرا ، نظرا لخطورته . وقد ألزم النقاد أن يكون هذا الانتقال حسنا لطيفا به : **((وكُلما استطاع الشاعر أن يضمن تخلصا حسَنا بين موضوعات قصيدته لا يُحَسُّ به كلما وفّر لها أسبابا من الربط والتقارب والوحدة))**.[3]

وقد اعتنى ابن الأبار بهذا العنصر أيَّ اعتناء . ومن جميل تخلصاته ، ما خرج به الشاعر من مقدمة غزلية طويلة ، ثم أردفها بفخره بقومه " قضاعة " ، الذين تمنّى لهم لوْ أُخِّرُوا قليلا

(1) الحموي ، خزانة الأدب ، ص 149.
(2) نفسه ، ص 149.
(3) علي عالية ،شعر الفلاسفة في الأندلس في القرنين الخامس والسادس الهجريين ،جامعة الحاج لخضر باتنة ، 2004 ـ 2005 ، أطروحة دكتوراه ، (مخطوط) ، ص233 .

ليخدموا يحي المرتضى ، فيزداد بذلك فخرهم أكثر ويخلُد ، إلى الأبد إلى مدح الأمير أبي زكريا فيقول [الطويل]:[1]

وطَالَ على حُمْرِ المَنَايا ازْدِحامُهُم   أَمَا نَـبَّأْتَهُم أنَّ مَوْرِدَهَا مُرُّ ؟
يَعُدُّنَ غيرَ الموتِ غمْصًـا عليهم   فليسَ لَهُـــم إلاّ بِمعْركَةٍ قَبْرُ
ولوْ أنَّ يحْيَ المرتَضَى أُنْسِئُوا[2] معًا   لِخدمَتِهِ لمْ يُنْسَ يوماً لهم ذِكْرُ

وقد ورد هذا بعد مقدمة غزلية متوسطة الحجم،يشكو فيها ألم الهجر وكيد الحساد واللائمين كما زاد في معاناته امتلاكهن قلوب العشاق وأسرهن لأفئدتهم ، بلا عطفٍ يَجُدْنَ به ولا إشفاقٍ و وسط حرس يمنعون الوصول إليهن ؛ لأنه مَنْ أراد ذلك كلّفه دمه ، ونهاية حياته ، إلا أنها لا تعلم أن الآجال والأرزاق بيد خليفة المسلمين .

وفي هذا البيت الأخير قمّة المبالغة ـ عفا الله عنه ـ عندماجعل الأجل والرزق بيد ممدوحه لا بيد خالقه . ويقول في هذا المعنى [الكامل]:[3]

رَيْحانـةُ البُستانِ إلا أنّـــــــها   مِنْ وَشْيِ صَنْعَاء لـــها أوراقُ
يُعْنَى بــها لوْ أنَّها تُعْنَـــى بـــه   عَان لهُ بَرْحُ الغــرامِ وِثــــاقُ
نَذَرَتْ دَمِي قبلَ اقتراحِ عِناقِها   فِئةٌ لـها نحْـوَ الأذَى إعْنَاقُ[4]
لمْ تَدْرِ أَنّي في جوارِ خليــفـــةٍ   بِيَمينِهِ الآ(جـ)ـالُ والأرزاقُ

ومن بديع تخلصاته من المقدمة إلى مدح الأمير الحفصي بمناسبة تولية يحي ولاية العهد وذلك في :رجب 638.هـ . فبعد الحديث عن محبوبته البغدادية ، التي رمته بسهم لحاظها فاقتنصته فاستجار بها من هواها ، عساه يجد ما يفتقده ، ويخفف من وطأة الجوى ، وإن امتنعت عن إجارته

---

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق97، ص 217 .

(2) **أُنسئوا** : أي أُخّروا وأُجّلوا : أي لو أنهم أُخِّروا ليخدموا يحيَ المرتضى لكان لهم ذكرٌ خالد .(ينظر: ابن منظور ، اللسان ، 14/ 125) .

(3) ابن الأبار ، الديوان ، ق 178، ص 387 .

(4) **الإعناق** : السير السريع . (ينظر :ابن منظور ، اللسان ، 9/ 422) .

ومساعدته ، فيكفيه أبو يحي مُجيرا ومَلاذا يقول [الكامل]:(1)

ورَدَتْ بِحـاراً لِلفُراتِ ودجْلةٍ   وجَفَتْ أضَاءً بِالفلاةِ إخَاذَا(2)

إنْ لمْ تُجِرْ وبها أَلُـوذُ من الهوى   فَكَفَى أبو يحيَ الأميرُ مَـلاذَا

كما كان للشاعر خروج حسنٌ ، انتقل فيه من مقدمة بحرية ، واصفا رحلته إلى ممدوحه الحفصي مما لاقاه من مصاعب في عرض البحر ، مستهينا بكل ذلك مادامت نهاية هذه الرحلة الشاقة ستُسْلمه إلى الأمير ،يخدمه ويخلص له، ليسترسل بعدها في مدحه بالأصل الشريف والشجاعة والكرم،و أهله بالمجد والرفعة ، إذْ يقول الشاعر [الرمل]:(3)

و بِمَـرْقَـاهُ إلى مـــرتبَةٍ   هَوَتِ الأنجُــمُ عنها مظهرا

حَـسبُهُ مَعْلُـوَةً خِـدمَـتُهُ   لِلأَمـــيرِ ابْنِ إمـامِ الأُمَرَا

وقد ورد لابن الأبار انتقال من مقدمة كانت في الشكوى من الدهر والأيام إلى الغرض الرئيس (المدح) عبر خيط سميك ، جعله الشاعر رابطا بين حاله مع الدهر الذي كشّر عن أنيابه لأذيَّته وين الحال ، التي سيؤول إليها في ظل الخليفة المرتضى ،فيقول [الرمل]:(4)

أنا جارُ البحْــرِ إلا أنَّ لي   منــه في حالِ الورودِ الثّمـــدا

وعلى ذلـك يا نفسي فَلا   تَـيْأَسِي إنَّ مع اليومِ غَـــــدا

لِلإمام المرتَضَى مِمَّا مَـضَى   خَلَفٌ يُولِيك عيشًا رَغِــدا

و نجد الشاعر قد أحسن الربط في قصيدة مدحية أخرى ، عندما تخلّص من التشبيب بالأعرابية ، ومن حديث الشوق والحنين إلى وطنه ، موازنا بين ماضيه السعيد،عندما كان بين أهله ، ووسط وطنه ، وبين حاضره التعيس ، على الرغم من وجوده بين الحفصيين مكرّما

---

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق 84، ص 182 .

(2) **إخاذ(ة)** : الضيعة يتخذها الإنسان لنفسه ، وكذلك الإخاذ : وهي أرض يحوزها الإنسان لنفسه أو السلطان . (ينظر :ابن منظور ، اللسان ، 1/ 72) .

(3) ابن الأبار ، الديوان ، ق 85، ص 186 .

(4) نفسه ، ق 67، ص 160 .

مبجّلا ، حين يقول [الطويل]:[1]

كِلانَا على أَقْصَى الهَوادة والهَـــوى فَـلا عَذْلٌ يُقْصِي ولا غَـزْلٌ يُفْـصِي*
كأنَّ جَنَاها مِنْ جَنَى العيشِ بعدَها لِيَحْيَ بنِ عبدِ الواحِدِ بْنِ أبي حـفْصِ

ويتخلص الشاعر من مقدمة غزلية ممزوجة بأدوات الحرب ، موظفا معجم المعركة بقوله [الكامل]:[2]

أَمَّا الهوى فَأخُو الوَغى لمْ أسترِحْ مِنْ ذَا لِذاكَ (مُراوحا) ومُناوِبـا
فَكَأَنَّ عَهْداً مِن وليِّ العهـــدِ لي أنْ تُسْفِرَ الغَمَراتُ عَنِّي غالِـبا

فهَوَى الأوانس عند الشاعر يماثل الوغى ،ومعهم لا يرتاح ابن الأبار ولا يهنأ بذلك لولا اتصاله بوليّ العهد ، الذي ضمن له ذلك .

وفي الوقت،الذي لم يجد الشاعر فيه حلا يريحه من قساوة حبيبه ، يلجأ إلى الأمير التونسي علّه يلقى في ظلاله الرحمة التي لم يحظَ بها لدى أحبّ الناس إليه ، فيقول [مجزوء الوافر]:[3]

مِنْ عَجَبٍ قَسَاوتُهـا ومِلْءُ أديمـهَا الغـيَدُ
سَأعتَمِدُ الأميرَ وهَـلْ سِوَى رُحْماهُ مُعْتَـمَدُ

و بمناسبة عيد الأضحى ، وبعد أن شُفي يحي المرتضى أنشأ ابن الأبار قصيدة ، يقدم لها بالغزل على عادة العرب ليصل بعدها إلى مدح يحي عن طريق الإشادة بكرم الحفصيين وبخلق السماح الذي جعله جسرا ، مَرَّ به إلى المقصود من الكلام ، مفرِدا له ما يستحقه من مدح [الكامل]:[4]

إِنّـي لأَجْنَحُ لِلأَوانِسِ كـالدُّمَـى سَلِسَ العِنانِ ولا أَخَافُ جُناحا
وأقومُ في النَّادي أُحَدِّثُ بِالنَّـدَى سَكِراً يُضَمِّخُ طِيبُهُ الأمداحـا
لا يُنْـفِدُ الأرباحَ آمِـلُ دولـــةٍ حفصيَّةٍ رأتِ السَّمـاحَ رَباحا

(1) السابق ، ق 159 ، ص 332 .
(2) نفسه ، ق 20 ، ص 69 .
(3) نفسه ، ق63، ص 144 .
(4) نفسه ، ق 49، ص 117 .

هذي مَواهبُها تُفَاضُ على الورى كالغيْثِ طَبَّقَ أجْـبُلاً وبِطاحا
وإذاَ صُرَاحُ المدْحِ لاَقَى رَبّــَهَــا لاقَى لُباباً في الُملوكِ صُراحــا
قَسَماً بِيحيَ المرتضَى لقدِ انْتَضَــى مِنْ بأْسِهِ مثلَ الصِّفاحِ صِفاحا

و في مدح المستنصر بمناسبة إعذار ولده ، يستهل القصيدة بغزل ، ذكر فيه ما أَلِفه العربي من وصف المرأة (**وضاحة بلجا ، نفاحة أرجا ، فلجا ، دعجا ، الخصر ينهضها الردف ينبضها**...) وبعد الشكوى من ألم فراق فتاته ، والتعب الذي لقيه بسبب هجرها وصدّها الذي بثَّ فيه اليأس وقطَع عنده الأملَ ، لولا فرجٌ من وليّ العهد يُسعفه ويطرح عنه يأسَه لكان من الهالكين [البسيط]:(1)

كَأَنَّـهُ الزَّمَنُ العادي على أدبِـــي يَسُومُنِي الصَّبْرَ فيهَا شَجَّنِي وشَجَا
إذا اسْتَرَحْتُ إليهِ زَادَنِي وَصَبًا كأَنَّ ذاكَ على مِنـــوالِ ذاَ نُـسِجَـا
يا شدَّةَ اليأسِ إنْ يُئِّسْتُ فيكَ فقد أَضْحَى رَجاءَ وليِّ العهدِ لِي فَرَجَا

وله قصيدة أنشأها بمناسبة حفلة " سيرك " شاهدها في ملعب بتونس ، عند قدومه رسولا عن والي بلنسية ودانية أبي جميل بن سعد بن مردنيش إلى أبي زكريا ، وكان ذلك في أواخر شعبان سنة 636.هـ . وبعد مقدمة للشاعر ، يتحسر فيها على الماضي الجميل الذي صار يشتاق فيه إلى مياه الصّبا ، وملاعب الظباء ،يتخلص إلى غرضه الأول الأساس(وصف الأسود) الذين رآهم في هذا السيرك ، يقول [الطويل]:(2)

تَحِنُّ إلى ملعَبٍ لِلظّباء بِكُثْبَانِ رَامةَ أو غُـــرَّب
فَهَلاَّ إلى ملعَبٍ لِلأسود نَعمَتْ بِمَنظرِهِ المعْجب

ويستطرد في وصف المشهد ؛ من مَرأى أسود ونمور ، واصفا إياها بشتى الأوصاف ، ثم يتخلص مرة أخرى إلى مدح أبي زكريا ، الذي وفد عليه في زيارة دبلوماسية :

---

(1) السابق ، ق 42، ص 104 .

(2) نفسه ، ق39 ، ص 99 .

فَيَالق (ساور قدْ) صُيِّرَتْ　　قَنَافِذَ بِالأسْهُـــــمِ الصُّيَّب
ويَا لِمَآثِرَ لوْ عُـــــدِّدَتْ　　لأَعْيَتْ على المُسْهِبِ المُطْنِب
غَرائبُ شَتَّى بَهَرْنَ العقول　　جُمِعْنَ لَدَى مَلِكِ المَغـــرب

الخاتمة :

إذا كان لكل ما سبق من أقسام القصيدة مبرره ، والاهتمام بذلك من قبل النقاد ،كان بقدر أهميته ، فإن الخاتمة أو (المقطع) لاتقل عن ذلك ؛ كونها آخر ما يقر في السمع ، وبه يتذكر السامع ما سلف . إنها مقطع ثانٍ ـ كما يقال ـ لقصيدة ستستمر مع المتلقي بعد أن ينتهي المبدع من الإلقاء ويذهب لحال سبيله.

وهي عند ابن رشيق آخر ما يقوله الشاعر ، ولذلك لا تقبل الزيادة عليه ، حتى لا يذهب رونقه ، كما لا يليه أحسن منه .

أما حازم فيظل المتلقي عنده هو المقصود في هذه العملية الإبداعية ، وينبغي أن يحافَظ على تحريك النفس بما يناسبها ، ويُتَجنب في ذلك ما ينفرها ويستفزها ، فيقول : ((**فأما ما يجب في المقاطع على ذلك الاعتبار وهي أواخر القصائد فأن يُتَحرى أن يكون ما وقع فيها من الكلام كأحسن ما اندرج في حشو القصيدة، وأن يتحرز فيها من قطع الكلام على لفظ كريه أو معنى منفّر للنفس عما قصدت إمالتها إليه أو مميل لها إلى ما قصدت تنفّرها عنه ...**)).(1)

كما يشترط ـ أيضا ـ صاحب المنهاج مناسبة هذا الاختتام بالموضوع الرئيس والغرض الأساس ، فيقول: ((**فأما الاختتام فينبغي أن يكون بمعان سارة فيما قصد به التهاني والمديح وبمعان مؤسية فيما قصد به التعازي والرثاء . وكذلك يكون الاختتام في كل غرض بما يناسبه. وينبغي أن يكون اللفظ فيه مستعذبا والتأليف جزلا متناسبا ، فإن النفس عند منقطع الكلام تكون متفرغة لتفقّد ما وقع فيه ،غيرَ مشتغلة باستئناف شيء آخر.**))(2) .

وأما الشروط التي يكاد النقاد القدامى يجمعون على ضرورة توافرها في الاختتام ، فقد أشار إليها حسين بكار ، مع التمثيل بأبيات مختلفة ، ولشعراء متعددين.(3)

---

(1) حازم القرطاجني ، المنهاج ، ص 285.

(2) نفسه ، ص 306.

(3) ينظر : بكار ، حسين ، بناء القصيدة في النقد العربي القديم ، ص 229 ـ 230 ـ 231.

وإن كانت هذه هي بعض الشروط المشار إليها ، والتي يجب أن تتوافر في المقطع حتى يكون مناسبا ، فإن الاهتمام بهذا القسم من القصيدة جعل النقاد يحذرون من مقاطع معينة ، كان قد وقع فيها بعض الشعراء ؛ فقال صاحب العمدة في هذا الشأن : ((**وقد كره الحُذَّاق من الشعراء ختمَ القصيدة بالدعاء ؛ لأنه من عمل أهل الضعف إلا للملوك ؛ فإنهم يشتهون ذلك ...**)).[1]

و يشير في هذا الصدد إلى سوء ختْم القصيدة بالقول :((**ومِن العرب مَن يختم القصيدة فيقطعها والنفسُ بها متعلقة ، وفيها راغبة مشتهية، ويبقى الكلام مبتورا كأنه لم يتعمد جعْلَه خاتمة...**)).[2]

أو أن هناك مَن لا يهتم بهذا المقطع ولا بغيره ، يقول حازم : ((**ومِن الشعراء مَن يأخذ في النقيض مِن هذا فلا يعتني بالمبدإ ولا المقطع .فيختم كيفما اتفق ويبدأ كيفما تيسَّر له ..**))[3].

لقد كانت عناية النقاد بالخاتمة (المقطع) مثل عنايتهم بالمطلع والتخلص .

وكان حجر الزاوية في هذه العناية مقصودا به السامع والمخاطَب (المتلقي) ،وهو الأمر ذاته الذي عرفناه في المطلع بخاصة ؛ لأن العنصر الثاني قُفْلٌ ، يسبقه الأول وهو المفتاح : يقول ابن رشيق : ((**وأما الانتهاء فهو قاعدة القصيدة ، وآخر ما يبقى منها في الأسماع ، وسبيله أن يكون محكما: لا تمكن الزيادة عليه ، ولا يأتي بعده أحسن منه وإذا كان أول الشعر مفتاحا له وجَب أن يكون الآخر قفلا عليه**)).[4]

وهذه من الخواتيم الأباريّة ، التي قال في شأنها حازم القرطاجني : ((**..وأن يتحرز فيها من قطع الكلام على لفظ كريه أو معنى منفّر للنفس عما قصَدَت إمالتَها إليه أو تُميل لها إلى ما قصَدت تنفرها عنه.**)).[5] تلك التي أبان فيها الشاعر عن وفاء كبير، وإخلاص عظيم ـ وإن كان هذا العمل ـ حسبَه ـ غيرَ كافٍ في خدمة الحفصيين ، الذي يعتبره واجبا يقدمه ، وحقًّا يؤدّيه لأهل

---

(1) ابن رشيق ، العمدة ، ص 1/ 241.

(2) نفسه ، 1/ 240.

(3) حازم القرطاجني ، المنهاج ، ص 285.

(4) ابن رشيق ، العمدة ، 1/ 239 .

(5) حازم القرطاجني ، المنهاج ، ص 285.

الفضل وأصحاب الأيادي الممدودة المانحة ، معترفا أنه قد أعمل في تنقيح هذه الأمداح وتهذيبها لأن المقام الكريم يقتضي ذلك الاهتمام ، حتى لا يُعدَّ حاطبا ، يجمع أيَّ شيئ ويقول أيّ كلام ومُقِرًّا بأنه لم يَقُل فيهم إلا ما يستحقونه ،ولا فضلَ له في ذلك .

كما سيكون أسعد إنسان لوْ مُنِحَ شرفَ الكتابة لِما يُمليه الناسُ في مدائحهم للحفصيين ويقول [البسيط]:(1)

هيَ خدمةٌ أدَّيْتُ حَــقــًّا لازماً　　مِنْ وصْفِها وقضيْتُ فرضًا واجبا
ولعَلَّ فِكْراً جَالَ في تهْــذِيــبِها　　لفْظًا ومعْنًى لا يُسَـمَّى حاطِـبا
ما قُلْتُ إلاَّ ما فعلـْتُ(ـمْ) طَـيِّبا　　بِشَـذَى عُلاَكَ مَشارِقًا ومَغاربـا
وإذاَ (النُّهَى) أَمْلَتْ عُلاكَ مَدائحا　　فَمِنَ السَّعادةِ أنْ أكـونَ الكـاتِبا

وكانت تكملة لتعداد مناقب الخلافة الحفصية، التي خضَع لها السيل والجبل(إخضاع ابن غانية، تشييد المُلْك بإفريقية ، سلب القبائل بأوها ...) . وتتوالى ـ في عهدهم ـ الفتوح والانتصارات ، دون عناء ، ولا مشقّة ، دليلا على حسن تسييرهم للأمور ، وسداد سياستهم في المعارك والحروب . كما يكمن شرفهم وعظيم محتِدِهم في أنهم خُلِقوا للدين والدنيا عصمة فيقول [الكامل]:(2)

تأْتِي الفُتُوحُ ومَا حَمَلْتُم صعدةً　　فيها ولا جَــرَّدتُم فـولاذا
لِلدِّينِ والدُّنيَا خُلِقْتُـم عِصْمةً　　هذا هو الشَّرفُ المُؤَثَّلُ هذا

وفي المعنى ذاته يقول في مقطعٍ آخرَ يقول [الرمل]:(3)

دُمْتَ والدُّنْـيَا بِسُلْطانِكُم　　طَلْقَةٌ والدِّينُ مَشْدُودُ العُرَى

---

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق20، ص71.

(2) نفسه ، ق84، ص181 .

(3) نفسه ، ق85 ، ص 189 .

وفي قوله [مجزوء الوافر]:[1]

فَلا زالَــتْ مُنَـــفَّـــقَةً بَنِـيـهِ كُلَّـما كَســـدُوا

فَـــما نَهَضَتْ بهم نَهَضُوا ومَا خَلَــدَتْ لهم خَلَدُوا

يبيّن الشاعر عظمة دولة السلطان في القضاء على الفساد ، والحفاظ على الأدب . لذلك نجده يدعو له ولِبَنِيه ولدولته بالخلود ،ما خلَدَت هذه الدولةُ الفتية ، التي يلوذ بحماها القاصي والداني لمساعدته .ورد كل ذلك في أعذب لفظ وأوجز تأليف .

ومن خواتيم التهاني المناسبة ، التي يقول فيها حازم القرطاجني: ((**فأما الاختتام فينبغي أن يكون بمعان سارة فيما قصد به التهاني والمديح**))[2]، يقول ابن الأبار [الطويل]:[3]

هَنيئاً إمامَ العـدْلِ إقبالُ دولـةٍ تَهُزُّ لهــــــا الأَيَّامُ أَعْطافَــها زَهْــوا

وعامٌ جديــدٌ بِالَميامِنِ طــالـعٌ تُنَشَّرُ صُحْـــفُ الفتحِ فيهِ ولاَ تُــطْوَى

ودَامَ وليُّ العهدِ يُرْضِيـكَ نائـباً كما نابَ عن شمسِ الضُّحَى القَمَرُ الأَهْوى

فَلولاكُما لمْ يُعْصَمِ الرُّشْدُ والْهُدَى ولولاكُما لمْ يُعْـلَمِ النَّصُّ والفَـ(حْـ)ـوى

وهي خاتمة مناسبة جدا في التهنئة ، التي جاءت بعد عرض نتائج الفتوح ، التي كانت على يدي أبي زكريا ؛ ومن ذلك فتح تلمسان ، وإخماد ثورة " الهرغي " في طرابلس ، التي قضى عليها في : شوال من سنة 639 .هـ ، وخضوع شرق البلاد وغربها لسلطته وحكمه .

وفي قصيدة كانت مناسبتها المديح ، الذي استغرق معظم أبياتها، ثم تلته التهنئة بمولود جديد يدعى " عثمان " ، وهو ـ حسب البيت ـ خامس أولاده[4] ، ليقترب من ختْم كلامه بتهنئة أبي

---

(1) السابق ، ق63، ص 146 .

(2) حازم القرطاجني ، المنهاج ، ص 306.

(3) ابن الأبار ، الديوان ، ق201، ص423 .

(4) البيت المقصود هو : جَادَ بِهِ خَامِسَ الذَّرَارِي دَهْرٌ لَوَى بُرْهَةً وضَنَّا.(ينظر : ابن الأبار ، الديوان ق143،ص303 .)

زكريا بمناسبة حلول عيد الأضحى ،للانتهاء إلى قوله [مخلع البسيط]:[1]

مَولاَيَ هُنِّئْتَ عيدَ أضحى أضْـحَ بِميلادِهِ يُـهَـنَّا

ليصل إلى أبيات الختام ، التي كانت تكملة مناسبة للموضوع ، جاعلا من السلطان حامي الدين ، الذي يهْنَأ به وينتصر :

فَلْيَهْنَئِ الدِّيـنُ أنْ حَمَاهُ منكَ إمَامٌ حَـبَاهُ يُمـــْنا

مُنْـتَصِراً دُونَهُ حُسَامًـا مُنْـتَصِـــبًا دُونَهُ مِجَنـًّا

لازِلْتَ يَـقْظَانَ لِلمعالي ومُقْلَةُ الدَّهرِ عنكَ وَسْنَى

و يقول حازم القرطاجني : ((... **وكذلك يكون الاختتام في كل غرض بما يناسبه. وينبغي أن يكون اللفظ فيه مستعذبا والتأليف جزلا متناسبا فإن النفس عند منقطع الكلام تكون متفرغة لتفقّد ما وقع فيه ، غيرَ مشتغلة باستئناف شيء آخر.**))[2].

وذاك ما وفّره الشاعر ، إذ يقول شاكرا المُنعِمَ عليه (أبا زكريا) بكل تواضع ؛لأن أفضاله كثيرة والإفادة من علمه وأدبه كانت مضمونة [البسيط]:[3]

مولايَ سَحتْ على العبدِ اللّهى دِيَما فَبادَر الحمدُ يَقْضِـي منه ما وَجبا

إِنِّـي أَخَافُ وقد عَجَّـــلْتُهَا مِنــحاً إذاَ أُؤَجِّلُ مَدْحًا أن يــكونَ رِبـا

سَارعْتُ بِالشُّكْرِ إفصاحًا بأنَّ يَـدِي تأثَّـلَتْ مِن يَديْكَ المَــالَ والنَّشبا

ومـا تَوقَّـفْتُ عـــن بَيْـتٍ وقافيـةٍ مُنذُ اسْتَفَدْتُ لدَيْكَ العلمَ والأدبا

وأنشأ الشاعر في بداية التجائه إلى تونس الحفصية قائلا [البسيط]:[4]

حتَّى المدائحُ مِن جذْواكَ لِي هِبَةٌ مِنِّي كتابٌ ومِنْ علياكَ إمْـلاَلُ

فِضْ أيُّها البحْـرُ مَعروفاً ومعرفةً تَعْلِمْ وتَرْوِ صَدَى هِيمٍ وجُهَّالُ

---

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق 143 ،ص 304 .

(2) حازم القرطاجني ، المنهاج ، ص 306 .

(3) ابن الأبار ، الديوان ، ق23، ص76.

(4) نفسه ، ق111، ص248 .

فلا غرْوَ أن يستعمل الشاعر الباحث عن الأمان والاطمئنان مثْلَ هذه اللغة ، وأن يختم بمثل هذه المعاني ، التي تقرّبه أكثر من الأمير ، الذي يطمع في رعايته وتقدير علمه ومكانته بين الوافدين الآخرين ـ وهم كُثْر ـ وبين البلديّين.

فليس غريبا أن يجعل من الأمير المُمْلِي للكلام ، وهو الكاتب ـ وتلك وظيفته التي يتقن ـ ويطلب منه أن يفيض علما ومعرفة ليروي عطشى الناس .

كما نلاحظ في هذه الأبيات عدم اعتداد ابن الأبار بنفسه ،وبأوه وكبره ـ وهو المعروف عنه ذلك ـ لأنه في بداية الطريق ، وهو أحوج الآن إلى مكان آمن وعيش محترم .

وكثرت أمداح الشاعر للأمير أبي زكريا ؛ومن ذلك ما كان بمناسبة شفائه من مرض وقد تزامن ذلك مع عيد الأضحى ، دعا فيه له بخلود أيامه ، وانتشار سعادته في الوجود صلاحا وربيعا على الناس ، فيقول [الكامل]:(1)

إنَّ الأميرَ وخُـــلِّدَتْ أيَّامُهُ ... وَسِعَتْ سَعَادتُهُ الوجُودَ صَلاحا

جُعِلَ الزَّمانُ بِهِ ربيـعًا كُلُّهُ ... فَجَعَلْت ريحَانًا حُـــلاَهُ ورَاحا

ونختم بمقطع ، يشيد فيه الشاعر بأخلاق الحفصيين ، الذين آووه وأكرموه وأحسنوا وفادته ، وقد كان ابن الأبار واحدا ممَّن لجَأوا إلى تونس ، بعد أن سلبهم العدوُّ أرضهم وسرق منهم أمنهم وأمانهم ـ لذا نجده يتحدث عن شرف أصلهم ، الذي ازدان به الزمان وابتهج [البسيط]: (2)

هُمُ الْمُلُوكُ وأبناءُ الملُوكِ فَلاَ ... زالَ الزَّمانُ بِهِم يزدانُ مُبْتَهِجَا

هذه هي أجزاء القصيدة العربية ، التي اهتم بها النقاد أيما اهتمام ، فـاتفق بعضـهم مـع بعـض كما اختلف آ خر عن ثانٍ ، وهذا دليل على أن أحكامهم كانت :

(1) السابق ، ق49، ص118 .

(2) نفسه ، ق42، ص105 .

ـ أولا: ذاتية لا تستند إلى موضوعية ـ في كثير من الأحيان ـ والأمثلة التي ساقوها لأجل تفضيل شاعر عن شاعر أو بيان إصابة أحدهما في المطالع والمقاطع، دون باقي الأقسام، أو نجاحه في تخلصاته من المقدمة إلى الغرض الرئيس، أو من معنى إلى معنى، كلها مبثوثة في كتب النقد كالشعر والشعراء لابن قتيبة، والعمدة لابن رشيق والصناعتين لأبي هلال العسكري وغير ذلك من الكتب التي أولت عناية فائقة ببناء القصيدة .

ـ وثانيا: مُنْصبَّةً على المتلقي والمخاطب، مع إغفال صاحب النص وذاتيته، وهذا ما تمت ملاحظته من خلال مقولات النقاد على اختلافها.

2 ـ القصيدة البسيطة :

وهي القصيدة ذات الموضوع المستقل؛ أي أنها تعالج موضوعا واحدا . يقول حازم: **((والقصائد منها بسيطة الأغراض ، ومنها مركبة . والبسيطة مثل القصائد التي تكون مدحا صرفا أو رثاءً صرفا.))**[1].

غير أن هذه البساطة لا علاقة لها بطول القصيدة ، أو قصرها؛ لأن التجربة الشعرية وطبيعة الموضوع ومدى استجابة النص إليه ؛ هما من العناصر التي تفرض الطول في محله ، و القصر في موضعه.

و قد وُجدت القصيدة البسيطة ، كما وُجدت الطويلة . وتباينت آراء النقاد في تحديد أبياتها .

وتتناول هذه القصيدة موضوعا واحدا ، ويتجاوز عدد أبياتها العشرة ، ولو ببيت واحد ـ حسب رأي ابن رشيق ـ دون الاهتمام في ذلك بالمقدمات ،التي قال بها ابن قتيبة، وتبعه بعضُ مَنْ جاء بعده ، إلا أن الاعتناء بمفتتح الكلام (المطلع) ، وبمختتمه (المقطع) بقي على حاله كما في القصيدة المركبة .

يقول ابن رشيق : **((من الشعراء مَن لا يجعل لكلامه بسطا من النسيب ، بل يهجم على ما يريده مكافحة ، ويتناوله مصافحة ، وذلك عندهم هو الوثب، والبتر والقطع والكسع والاقتضاب كل ذلك يقال ، والقصيدة إذا كانت على تلك الحال بتراء كالخطبة البتراء والقطعاء))**.[2]

وسنحاول في السطور القليلة القادمة أن نتناول هذه القصيدة البسيطة من خلال ديوان ابن الأبار ، مع النعرف على طبيعة هذه القصيدة .

ويجدر بنا قبل الحديث عن هذه القصيدة ، أن نشير ولو في سطور إلى أن التشتت الذي أصاب الأندلسيين ، لم يكن حديث عهدٍ ، وإنما كان قبل عصر الموحدين ؛ لأسباب جمّة ومتعددة ؛ منها الداخلية ، ومنها الخارجية وتكفينا ـ نحن ـ إشارة إلى العهد الذي سبق الحفصيين ؛ وأقصد

(1) حازم ، المنهاج ، ص 303.

(2) ابن رشيق ، العمدة، 1/ 231.

بذلك عهد الخلافة الموحدية التي داخلَ السوسُ جسمَها هي الأخرى بعد فترة من الدّعة والانتصارات ، وقد أشار " محمد العروسي المطوي "إلى عناصر ، كانت سببا كافيا بأن تهد كيانهم؛ يتمثل الأول في اندلاع الثورات في الأندلس ،بعد اقتسامها بين

" زعماء" أندلسيين ، شقوا عصا الطاعة في وجه الخلفاء الموحدين ـ وهذا يذكرنا بما أصاب ملوك الطوائف ـ وكان زيان بن أبي الحملات بن مردنيش ، الذي اتخذ بلنسية عاصمة له من أبرز هؤلاء الثوار .

بينما كان العامل الثاني يكمن في تحالف مملكتي " قشتالة" و "أرغونة " على تصفية الوضع الإسلامي بعد انهيار الخلافة الموحدية ـ كما أشرنا ـ يقابلها ضعف الغرب الإسلامي . وكان هذا الوضع المتردي أكثرمناسبة لاتحاد نوايا ممالك إسبانيا النصرانية على مهاجمة تلك الإمارات الإسلامية الأندلسية المتناحرة ؛ لأن الإسلام سيبقى عدوهم الأوحد ولا يزال .

ولو كان الأمر بهذا الشكل لكان منتظرا ، وعاديا من عدوٍّ يتربص مذ وطئت أقدام المسلمين أرض الأندلس ؛ جنة الله في أرضه ، وصار حتى الإسبان المتدينون يسارعون إلى تعلم اللغة العربية ، مقبلين ، غيرَ مدبرين ؛ لأنها استهوتهم بلاغتها وفصاحتها ، وعظيم نظمها وجعلوها من بين اهتماماتهم . ولكن الأمرُّ والأدهى والأنكى أنّ ملِكا يُدعى " محمد بن الأحمر "، خوفا على سلامته ، وحرصا على أهدافه الضيّقة ، وخوفا من"فرديناندو" ورغبة في مصالحته سلَّم ملِكَ " قشتالة" مدينة " جيّان " في مقابل الاعتراف به ملِكًا على غرناطة وما حولها، التي كان قدضمَّها إليه في إحدى المناسبات التوسعية. وكان هذا التحالف ـ بالطبع ـ ضد إخوانه المسلمين في الأندلس.(1)

فكانت إمارة بلنسية ؛ موطن الشاعر هدفا لمطامع "خايمة الأول" ؛ ملِك أرغونة .

أوفَد زيان بن مردنيش هذه المرة إلى تونس رسولَه ابن الأبار ؛ لأن بها حاكما لا يتأخر عن نجدة

(1) ينظر : محمد العروسي المطوي ، السلطنة الحفصية ، تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، دط ، 1986 ، ص 133 ـ 134 .

المستغيث ، ولا سيما بعد أن بايعه المسلمون من أقطار شتى ، بعدما أظهر أبو زكريا الحفصي سلطته وسيطرته ؛ فقد استولى على قسنطينة وبجاية في سنة 628 .هـ/ 1230.م وما قضاؤه على ثورة ابن غانية في سنة631 .هـ 1234.م ، إلا دليل كافٍ على قوته وصلابة عُوده .

لهذه الأسباب المغرية كانت وجهةُ ابنِ مردنيش أميرِ بلنسيةَ أبَا زكريا الحفصي .

وأوفد شاعره الأثير ، ويده اليمنى ، الذي كان كاتبه ، وراعي شؤونه إلى تونس .

خرج ابن الأبار وكُلّه أمل في أن يجد عند الحفصيين ما يثلج الصدر ،ويسارع في نجدة إخوانه المستغيثين بمدد يدفع به أرزاءهم .

لقد كان للشاعر ابن الأبار مهمات سياسية يؤديها لصالح أمراء بلنسية ؛لأنه كان يُتوسَّم فيه الفطنة والمقدرة على أداء هذا الدور باقتدار .

ولم تكن هذه المهمات المكلف بها عادية ،سهلة ميسورة ، وإنما كانت جساما ، ولا يقوم بها إلا أمثال ابن الأبار، ولا سيما أن أصحاب هذه المأساة المريرة ، قد اشتد عليهم الكرب ، إلا أنهم يرون في أبي زكريا الحفصي مُخلِّصَهم الأوحدَ ، ومُنقذهم ، بعد أن يئسوا من بني عبد المومن بمراكش ، يقول ابن خلدون : ((.. **وكان بنو عبد المومن بمراكش قد فشل ريحهم ، وظهر أمرُ بني حفص بإفريقية فأمَّل ابنُ مردنيش وأهلُ شرق الأندلس الأمير أبا زكريا ، وبعثوا إليه بيعتهم**)).[1]

ولم يكتفِ ابن مردنيش بذلك ،فقد بعث مع رسولِه الشاعرِ بولائه وبيعته . وأقيم لأجل ذلك حفلٌ كبير ، تُليتْ فيهِ بيعةُ ابن مردنيش ؛ صاحبِ بلنسية ـ وأُلقيت أثناءه قصيدةُ ابن الأبار الشهيرة .

ومعلوم أن بلنسية لم تكن وحدها،التي بايعت الأميرَ الحفصيَّ ، بل بايعته أيضا وطلبت منه العونَ والمدد إشبيليةُ، والكثير من أمصارها ، كما بايعه أهلُ المرية .

---

(1) ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، 6/ 385 ـ 386 .

ومع هذه الأوضاع يتساءل متسائل : هل كان أبو زكريا في مستوى العون والمدد المطلوبيْن منه ؟ أم أنه سيكون على غيرِ ما يستطيعُ ؟

إن قراءة متمعنة في عهدة الرجل وشخصيته ، وما يحوط به من الظروف يجعله ـ دون شك ـ لا يمكنه أن يقوم بما طُلب منه لإنقاذ الأندلس ، التي تكالبت عليها النصارى بعد اتحادهم وصار هو وحده عدوَّهم الوحيد ،الذي لا يصعب زحزحته والقضاء عليه ((**لم يكن لأبي زكريا القوة والتمكّن ما يجعله في منزلة المنقذ الفعلي لحالة التدهور في الأندلس**)). [1]

ويعود الباحث " محمد العروسي المطوي " يعلل سبب هذا الوضع ، الذي لا يمكن بأي حال أن ينقذ الأندلس ؛ لأن ذلك ـ حسبَه ـ يقتضي القضاء على شأفة الفساد ورؤوس القتنة والشغب والشقاق فيها ، وهذا ما لايستطيعه أبو زكريا .

وهذا الوضع يذكرنا بحال ملوك الطوائف الذين تنافسوا على الحكم وبناء القصور كأنهم فيها خالدون،وتحالفوا مع العدو ضد إخوانهم المسلمين من أجل مصالح ذاتية،أو من أجل كسب وده وكان غاية ما بعثَ المنقذ المأمول أسطولا مشحونا بمدد الطعام و(الأسلحة) والمال بقيادة أبي يحي بن أبي حفص، الذي استرد الأمانة كما خرج بها . وكانت قيمة ما بعث به مائة ألفِ دينار. [2]

وحتى تتحقق هذه الأمنية فضَّل ابن الأبار الرسول أن يكون مستهل كلامه مباشرا ، إذْ لا وقتَ لمقدمة تصرف المتلقين عن غرض الزيارة ؛ فالأندلس بين فكّيْ عدوٍّ ،لا يتوانى في تدميرها وإزالة معالمها .

وهذا ما يتناسب ورأي حازم القارطاجني القائل : ((**ومَلاكُ الأمر في جميع ذلك أن يكون المفتتح مناسبا لمقصد المتكلم من جميع جهاته**))[3]، يقول الشاعر [البسيط]:[4]

أدْركْ بِخيلِكَ خيلِ اللهِ أندلُسا   إنَّ السّبيلَ إلى مَنْجَاتها دَرَسا

---

(1) محمد العروسي المطوي ، السلطنة الحفصية ، ص 138 .

(2) ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، 5/ 382.

(3) حازم القرطاجني ، المنهاج ، ص 310 .

(4) ابن الأبار ، الديوان ، ق 185 ، ص 395 .

ويقول في قصيدة أخرى ينسبها إلى ابن الأبار محقق الديوان عبد السلام الهراس ، وينفيها عنه المقري في " النفح " - كما عرفنا في الصفحات السابقة - [الكامل]:[1]

نَادَتْكَ أندلس فَلَبِّ نِداءَهَا   واجْعَلْ طَواغيتَ الصَّليبِ فِداءَها

ولهذين المطلعين اللذيْن فضّل الشاعر البدء بهما دورُهما الكبير في استثارة حمية السلطان والإسراع في تلبية الطلب ، وبالغ الأثر في نفسه ، وفي ذلك يقول حازم القرطاجني:

((**ومِمَّا تَحسُنُ به المبادئُ أن يُصدّر الكلام بما يكون فيه تنبيهٌ وإيقاظٌ لنفس السامع**)).[2]

كما أبان في أبيات تالية ما أصاب الجزيرة من ويل واعتداء ، وما حلّ بها من مصائب وحتى يقنع السلطان ، استرسل في مدحه ،يختم في الأخير في (السينية) بافتكاك موعد له قريبٍ يطرد فيه العدو، فيقول [البسيط]:

يَا أيّها المَلِكُ المَنصُورُ أنــــتَ لهاَ   علياءُ تُوسِعُ أعداءَ الهُدَى تَعَسَا

....

واضْرِبْ لهم مَوعِدًا بالفتحِ تَرْقُبُهُ   لَعلَّ يومَ الأعادِي قدْ أَتَى وعَسَى

وفي (الهمزية) يقول:

صفْحًا جميلاً أيُّها المَلِكُ الرَّضي   عنْ مُحْكَماتٍ لمْ نُطِقْ إحصَاءَها

....

فَلَعَلَّ عَلْيَاكمْ تُسـامِحُ راجيًا   إصْغَاءَها ومُؤَمِّلاً إغْضَــاءَها

وتلخيصا لما وردَ في ها تيْن القصيدتين ، اللتين تحملان موضوعا واحدا ؛ لأن المناسبة كانت واحدة ، نجد :

- الدخول مباشرة في الموضوع ، الذي لا ينتظر تأخرا أو تسويفا (أدركْ/ نادتكَ أندلس).
- مراوحة المعاني بين كل شطري البيت - تقريبا - .

---

(1) السابق ، ق 1 ، ص 3 .

(2) حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء ، ص 310 .

ـ مخاطبةالأمير مباشرة ، دون مراعاة ما يجب أن يُخاطَبَ به مثلُه.

ـ وصف حال الأندلس المزري عامة ،و بلنسية ؛ موطن الشاعر بخاصة .

ـ التفصيل في ما ارتكبه (العلوج) الكفرة من آثام ، أصابت المقدسات قبل الأرواح ليتبين أن روح الانتقام كانت مسدَّدة تجاه الدين ، الذي أمدَّ المسلمين بهذه القوة وبهذا العزِّ ، الذي يفتقدونه هم في دينهم .

ـ اختيار الشاعر ـ بعد الموقف ـ لأسلوب الإقناع والتأثير في المخاطَب المأمول عونُه، إلى درجة المبالغة الكيرة التي استعملها ابن الأبار ـ كما فعل في أبيات ومناسبات أخرى كنا قد أشرنا إليها ـ ليحرّك ضمير المسلم المؤمن .

ـ دعوة الأمير الحفصي إلى إعداد العدة ؛ للقضاء على عدو المسلمين ، لا عدو البلنسيين فحسب .

ـ استبشار الأندلس قاطبة به ، آملة في عونه ، راجية في نصرته .

وبنظرة فاحصة في قصيدتي ابن الأبار (السينسة و الهمزية) يمكن إدراك ما ذهبَ إليه الباحث " محمد العروسي المطوي " إلى أن الفارق بين الدولتين (المرابطية و الموحدية) في هذه الأزمة الأندلسية ، كان سواء على مستوى الملوك الذين كانوا يحكمون ممالكهم دون عدالة ولا سياسة رشيدة ، بل كان التبذير والمحاباة والتنافس على الملذات وتضييع الأوقات في الماجن من السهرات ، وكان الاستنجاد بالملثمين لتخليصهم من حكامهم قبل أعدائهم وكان ما أرادوا إلى جانب ذلك أن هذه الدولة المرابطية اعتمدت أساسا على قبيلة "لمتونة".

أما الخلافة الموحدية فهي الأخرى نشأت منذ البداية على حركة انفصالية داخلية في هيكل " الخلافة " الموحدية ؛ لأنها لم تكن حركة انبعاث جديدة تعتمد على العصبية الدموية أو القبلية لأن الجانب الروحي لدولة ما تَمسكُ بخيوطه علاقةُ الدم ، التي تعتبر الرابط المحكم المتماسك وهذا ما كانت عليه الدولتان السابقتان (المرابطية والموحجية) .

أما أبو زكريا الحفصي فلم يكن في تأسيس دولته له مثل ما كان للأوليْن ؛ ذلك أنه اعتمد أساسا على اسم عائلته ، وعلى بعض الأشياع من بقايا الموحدين ـ وهذه السياسة قد تنجح في قليل من

الفترات ـ والدليل القوي على ذلك هو أنه في ولاية العهد فضَّل ابنيْه ـ على صغر سنيْهما ـ على إخوته وهم أكبر سنا ، وأكثر تجربة ، وحنكة .

وهذا ما يتنافى و أساسات الحكم ، التي تقتضي أهلية الحاكم (أو المستخلف) والأكفأ والأجدر والأقدر على ممارسة دواليب الحكم والعي بانعكاساته ، وتسيير الشؤون الداخلية والخارجية .

ولعل قتل المستنصر لأقرب الناس إليه ؛ لَمَّا توجَّسَ منه خيفة على كرسيّه ، و وقوفَه في وجه عمه ، لماَّ توفي أبو زكريا كان دليلا لِما ذهبنا إليه ؛ لأنه ـ كما يقول ابن الأبار عنه ـ [السريع]: [1]

عصَى أبَاهُ وجَفَا أُمَّهُ   ولمْ يُقِلْ عَنْ عَثْرَةٍ عَمَّهُ

والأمر نفسه يتكرر مع الشاعر ابن الأبار ، المقرب إليه وإلى أبيه قبلَه ، وكذا ما حدث مع شخصية نحوية مشهور ، يُدعى " ابن عصفور " ، الذي هجر إلى تونس فيمَنْ هاجروا هربا من النصارى ، وطلبا للرزق وهم (المهاجرون) من علّيّة القوم في أندلسهم .

فقد انتهى به المطاف على يد المستنصر ذاتِه بإلقائه في جابية الماء بثيابه على أساس المزاح المبرمج.

أما الشاعر ابن الأبار فقد كان قتله كما تُؤكد المصادر قَعْصًا بالرماح [2] ، بعدما سُلِبَ ما يملك ويحوز .

وهذا ما لم يمكّن أبا زكريا أن يحوز ما حازه الموحدون ـ مثلاً ـ اللَّهُمَّ بعض تَرِكَة هذه الخلافة المتهاوية إلى السقوط بعد فترة من القوة .

وكانت القبائل التي انضوت تحت قبة الحفصيين بالمبايعة والمعاهدة ، [3] تنظر إليها أنها كالموحدين قوةَ تأسيسٍ وتماسك أفرادٍ و وضوحَ خطة ومنهجٍ كدولةٍ ، لا تتزحزح مِن هبّات الرياح ،إلا من العاتية التي تقتلع الجذور وتستأصل العروق .

---

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق 39 ، ص 462 .

(2) **القعص** ـ بتسكين الصاد وفتحها ـ القتل المعجّل، والقعص: الموت الوجيّ . يقال: فلان مات قعصا إذا أصابته ضربةٌ أو رمية فماتَ مكانَه . (ينظر : ابن منظور ، اللسان ، 11/ 221 .) .

(3) ينظر :محمد العروسي المطوي ، السلطنة الحفصية ، ص 137 ـ 138 .

وهذا الوضع الحقيقي ، هو الذي يجيبنا عن الشرط الذي اشترطه أبو زكريا لمّا جاءه القوم يطلبونه أميرا عليهم ، فاشترط من بين ما اشترط بقاءه في الحكم مدةَ ثلاث سنوات فقط.

وفي باب المدح ، الذي استغرق معظم مدونة الشاعر يقول ابن الأبار [البسيط]:(1)

غَزْوٌ على النَّصْرِ والتَّمْكينُ مَنْشَؤُهُ الفتحُ غايتُهُ والنُّجحُ مَبْدَؤُهُ

ويقول [الوافر]:(2)

ظَهيرَاكَ التَّوَكُّلُ والَمضاءُ فعُمرُ الكُفْرِ آنَ لهُ انقِضَاءُ

ويقول [الطويل]:(3)

رَأى اللهُ ما أرْضَاهُ مِن سَعْيِهِ الأسْنَى فَجَدَّدَ بالعامِ الجديدِ لهُ الحُسْنَى

ويقول [الطويل]:(4)

تَخَيَّرْتَ مُختَارَ الخليفةِ لِلْعَهْدِ فَرَوَيْتَ أَمْحَالَ البسيطةِ كالعِـهْدِ

....

سَقَى اللهُ مَعْهوداً إليهِ وعاهِداً كِـفَاءً لِمقْدارِ الخِلافةِ والعهدِ

وخُلِّدَ لِلدُّنيا ولِلدِّينِ منهـما إمامَيْنِ في التقوى نِطاقيْنِ لِلمجد

ويقول [الطويل]:(5)

تَحلَّتْ بِعَلْيَاكَ اللَّيالي العَواطِلُ ودَانَتْ لِسُقْيَاكَ السَّحابُ الهَواطِلُ

ويقول [الكامل]:(6)

---

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق 2 ، ص 41 .

(2) نفسه، ق3 ، ص 46 .

(3) نفسه ، ق139 ، ص296 .

(4) نفسه ، ق68 ، ص162 .

(5) نفسه ، ق108 ، ص 235 .

(6) نفسه ، ق 110 ، ص 240 .

بُشْرَاكَ نَصْرُ اللهِ مُقْتَبِلُ وبِرَاحتَيْكَ السَّهلُ والجَبَلُ

وقال يمدح أبا زكريا ، ويستعطفه أثناء غضبه عليه ،بادئا كلامه بالشكوى من الدهر الذي يتربص به في كل مكان ، ويتمنى أن يشفيه من آلامه التي تتفاقم، فيقول [الرمل] (1):

أسْرفَ الدَّهْرُ فَهلاَّ قَصَدَا مَا عَلَيْهِ لَوْ شَفَى بَرْحَ الصَّدَى

فالمتأمل في هذه الأبيات ، التي صدّر بها قصائده المتنوعة ،وما وليها من حديث عن الممدوح ،المرجوِّ عونُه ، وحامي الدين ،وموحد المسلمين ، إلى جانب الخواتيم ، التي جعلها دعوة للمضي قُدُما لأجل اجتثاث أصل الشرك والعدو،رافعا راية التوحيد والإيمان،ودعاءً له بالسُّقْيَا يخرج بنتائج ، أهمها :

- إسباغ الشاعر المعاني الدينية على ممدوحه، موظفا من الألفاظ ما يحمل هذه المعاني المقدسة (**ظهيراك التوكل والمضاء ، رأى الله ما أرضاه ، الحسنى ، نصر الله...**)
- انتقاء الألفاظ الدالة على القوة ونسبها إلى الممدوح ، وكلها تصب في معنى الجهاد(**غزو النصر، التمكين ، الفتح ، عمر الكفر آنَ له انقضاء ، نصر الله ...**) .
- الدولة الحفصية المؤيَّدة بالحق والعدل...(**ازيَّنتْ بعلياه الليالي العواطل ، خضع له السهل والجبل ، دانت لسقياه السحب ...**) .
- يمثل الممدوح بالنسبة إلى الشاعر رجاءَه وأمله ، ومن ورائه أمل الأندلس برمتها.
- محاولة الشاعر أن يكون شاعر الدولة الحفصية ، ومُنَظِّرَها وراعي سياستها ، والخادم لأيديولوجيتها ، ما استطاع أن يتنازل عن كبره وبأوه .
- توظيف "كاف " الخطاب ،كوسيلة أسلوبية دالة على قوة فردية ، وتفرد شخصي يسبغه الشاعر على ممدوحه ؛ فلا قوةُ أقرانه تضاهي قوتَه ، ولا حكمة وسياسة أترابه تحاكي ماعنده ، فهو المؤيد دوما من قبل الله ؛لأنه إمام عدل ، وصاحب حق ، والمدافع عنه أبدا وهو المرجو عونُه ومدده لإخوانه في الدين في العدوة الأندلسية. وعزة الدين بعزة هذا

(1) السابق ، ق 67 ،ص 159 .

البطل الفرد ، إنه الممدوح (أبو زكريا ، أو ابناه) في كثير من أشعاره في العدوة الإفريقية .

وعندما نتتبع حياة الشاعر ابن الأبار، نجدها مليئة بالانشغالات السياسية ، والمهمات الرسمية التي كان يكلّف بها أينما حلّ ، إلى جانب أهم وظيفة كان يشغلها لتمرسه وخبرته وثقافته الموسوعية الكتابةُ في دواوين الحكام ، وفي العدوتين .

إلا أن ذلك ـ الذي كان يشغل جل وقته ـ لم يمنعه من تخصيص وقت للمرأة وللحب يشكو صبابته ، ويتألم بفراق حبيبه وصدّه عنه . وقد كنا أشرنا في غرض الغزل أن أبياته أغلبها تندرج تحت عنوان الحب المهدد بخطر دوما ، ووصف لحظات المتعة والألم في آن واحد وهو ما يطلق عليه باسم "النسيب" . فجاءت لهذا الغرض المطالع لتعبر عن هذه المشاعر ومن مثل ذلك قوله [الطويل] :(1)

أَمَا بعدَ عُتْبَ العامريَّةِ مِن عُتْبَى   لقدْ قَطَعَتْ حتَّى الولائِدَ(2) والكُتْبَا

أو قوله [البسيط] (3):

يَا قُرَّةَ العَينِ إنَّ العَينَ تَهْوَاكِ   فَمَا تَقَرُّ بِشيءٍ غير مَــرْآكِ

أو قوله [الكامل] (4):

مَهْلاً أُمَامةُ كَمْ تَطُولُ نَوَاكِ   والقلْبُ قد هَجَرَ الحِسَانَ سِواكِ

ويقول [الطويل]:(5)

أَبَى الحُسْنُ إلاَّ أنْ تَعزَّ وتَغْلِبَا   عقيلةُ هذا الحَيِّ مِنْ سِرِّ تَغلِبا

---

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق 17 ،ص 66 .

(2) **الولائد** : جمع وليدة : الصبي أو الجارية ، أو العبد .والمراد :الرسول بينهما . (ينظر :ابن منظور ، اللسان 15/ 382) .

(3) ابن الأبار ، الديوان ، ق 101 ،ص 222 .

(4) نفسه ، ق 17 ،ص 66 .

(5) نفسه ، ق37 ، ص 95 .

ويُذكَر للشاعر قصيدتان ، قالهما في صباه ،يبدؤهما بمطلعين مناسبين لمعاناته في الهوى وهو لا يزال صغير السن ، قليل التجربة، فيقول [الكامل]: (1)

لاَ تطْلُبُوا بِدمِي سِوَى أدْمَاءَ   في السِّرِّ مِن تَيْمٍ ومِن تيُمَاءَ

مختتما أبياته بمعاتبتها عن تشميت الأعداء فيه ، وذاك أكبر حزنٍ وعظيم أسى ، فيقول :

أَشْمَتِّ أعْدَائي وكَمْ أشْبهتم   وكَفَى أسًى بِشماتةِ الأعداءِ

ويقول [مخلع البسيط]:(2)

هلْ لِمُعَانِي الهَوَى دوَاءُ   أمْ هلْ لِعَانِي الهوَى فِداءُ

....

وَهَبْتُ لِلغانياتِ ذَحْلِي   فَلْيَصْنَعِ الحُبُّ ما يشاءُ

ويظهر من خلال هذه النماذج الغزلية المقتضبَة ، أن الشاعر كان يعاني معاناة كبيرة تجاه مَنْ يحب ، على الرغم من أن حبيبته لا يَذكر لها اسمًا ، باستثناء أسماء العربيات ، اللائي ذكرهن الشعراء القدامى ، مع التذكير أن معشوقته كانت عربية أصيلة ،وأن العذال لا ينثنون ـ دوما ـ عن ملاحقته ،وكثيرا ما كانوا يصلون إلى إقناعهن بتركه وهجره ، فيزداد بذلك ألمه ، وعذابه أكثر.

وفي غرض الرثاء ،الذي استحوذ على نصيب من الديوان معتبرٍ ، من حيث الكمُّ ،خصَّ به أقارب له ومقربين منه ، دون إغفال رصافته التي أفرد لها قصائد متعددة .

يقول الشاعر [الطويل]:(3)

أَلِمَّا بِأشْلاءِ العُلَى والمكَارمِ   تُقَدُّ بِأطرافِ القَنَا والصَّوارمِ

ويقول [الكامل]:(4)

بِينِي ثَلاَثاً سلْوَةَ الأيَّامِ   أوْدَى الحِمَامُ بِنَاصِرِ الإسلامِ

---

(1) السابق ، ق 5 ،ص 52 .

(2) نفسه ، ق6 ،ص 53 .

(3) نفسه ، ق 124 ،ص 275 .

(4) نفسه ، ق120 ، ص 262 .

ويقول [البسيط]:(1)

وَطِّنْ على الدَّائبَيْنِ :الدَّمْعِ والشَّجَنِ   يانادِبَ الذَّاهِبَيْنِ :الأَهْلِ والوَطَنِ

وفي هذه القصائد نجد الشاعر يدعو صاحبيه ـ كما فعل امرؤ القيس في : **قِفَا نبكِ**... ـ للوقوف على الأطلال ولكن ليست كأطلال الجاهليين ، وإنما على أشلاء أجساد المسلمين الطاهرة ، التي سقطت في ميدان الجهاد في معركة " أنيشة ". ثم يندب شهداء المعركة وبعدها يخصص النصف الآخر من الأبيات لشيخه الشهيد "الربيع الكلاعي" الذي فقَد به كلَّ شيئ لينتهيَ في الختام إلى قوله [الطويل](2):

وهَذي المَرَاثِي قدْ وَفَيْتُ بِرسْمِها   مُسَهَّمةً جُهْدَ الوفِيِّ المُسَاهِمِ
فَــمُـــــدَّ إليهَا رافِعًا يــدَ قابلٍ   أَكَبَّ عليهَا خافِضًا فَمَ لاثِمِ

وفي البيت التالي يرثي أبا زكريا الحفصي المتوفَّى بـ" بونة " في : 22 جمادى الثانية 647 هـ ويهنّئ الخليفة المستنصر ، جريا على قصيدةٍ لأبي تمام ،فيقول [الكامل]:(3)

كُنتُ المُطيلَ مُهَنِّئاً ومُعَزِّيـاً   لَكـنْ كَفانِــيهَا أبـو تمَّام
((تلكَ الرّزيَّةُ لا رزيةَ مِثْلُهَا   والقسْمُ ليسَ كسائرِ الأقسام))

ونظرا للمكانة التي كان الشاعر يحتلها في مجلس السلطان ـ على الرغم من فترات الجفاء التي تخللت علاقتهما ـ نلاحظ عليه في معاني قصيدته تأثرا بهذا المصاب الجلل، مما جعله يطلّق أيام السرور والفرحة ثلاثا ؛ بسبب اختطاف الحِمَام (الموت) لناصر الإسلام .

ولا يغيب عن ابن الأبار أن يعير اهتماما منذ الوهلة الأولى بما يقدمه بين يدي الأسرة الحفصية من التهنئة بخلافة المستنصر ، الذي ستؤول إليه مقاليد الحكم .

---

(1) السابق ، ق149 ، ص 320 .
(2) نفسه ، ق 124 ،ص 284 .
(3) نفسه ، ق 120 ،ص 265 .

كما يصف اشتياقه إلى مجالس العلم والعلماء بِبلنسيةَ ، ولا سيما مجالس شيخه أبي الربيع ابن سالم ، الذي قال عنه : ((**شيخي الذي أورثني هذه الصناعة ، ورضي اتخاذها لي بضاعة وضمن أن لا إضاقة ولا إضاعة...فاسترجحتُ حَصاتَه ، وأقبلتُ عليها قابلا وَصَاتَه غيرَ مُستبدلٍ بها خُطّةً ولا متبوئٍ دونها خطة ، لكي لا أنقض ما أبرم ، وأرتبط خلاف ما استكرم وكان هو ـ قدَّس الله أشلاءه ، وأجزل من النعيم المقيم جزاءه ـ قد عُنِيَ بها في شبيبته...**)).(1)

ولم يكن ابن الأبار يبتعد عن حلق العلم ؛ يفيد ويستفيد ؛ لأن طالب العلم لا يشبع [الطويل]:(2)

أَحِنُّ لأَرْبَابِ المَعَارِفِ بِالتُّرْبِ　　وأرجُو بهم شَفْعَ الصَّنِيعَةِ بِالرَّبِّ

وللشاعر أبياتٌ في الزهد ، تتضمن الحث على الإكثار من الطاعات والابتعاد عن المنكرات والتزود من الدنيا ليوم الآخرة [الكامل]: (3)

دُنياكَ لِلأُخرَى سبيلٌ سابلُ　　فاعْمَلْ لَهَا إنَّ الموفقَ عامِلُ

كأنما يريد أن يتنسَّك ، وهذه حال كثير من الشعراء ، الذين يختتمون مشوارهم بالتكفير عن كل الأخطاء التي اقترفوها بالإنابة إلى الله ؛ الغافرالذنب ، قابل التوب للباكية عيونهم خشية ورهبة [الوافر]:(4)

تجافَتْ عنْ مضأجِعِها جُنُوبُ　　تُدافِعُ بِالإنــابَةِ ما يَنُوبُ
وهَبَّتْ أعْيُنٌ في اللهِ تبْــكِي　　خَطَايَاها وقدْ عُدِمَ الهُبُوبُ

يعرض الشاعر كل هذه المعاني الوجدانية ؛ لأنه يعلم علم اليقين أن هناك الله ، الذي لا بد أن

(1) ابن الأبار ، إعتاب الكُتّاب ، حققه وعلق عليه وقدم له :صالح الأشتر ، دار الأوزاعي للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1986 ، ص 246 .

(2) ابن الأبار ، الديوان ، ق33 ، ص90 .

(3) نفسه ، ق115 ، ص 252 .

(4) نفسه ، ق 1 ، ص 437 .

يرجوه في كل الأوقات ، ويطمع في رحمته ويسأل مغفرته ؛ لأنه يفتقر إليه [الطويل] (1)

رجَوْتُ اللهَ في اللأواءِ لَمّا　　　بَلَوْتُ النّاسَ مِنْ سَاهٍ ولاهي

فَمِنْكَ سائلاً عنْكَ وإنِّي　　　غَنِيتُ بِالافتقـــــارِ إلى إلهِي

فهذه نماذجُ من أبيات الزهد الأبّاريّة ، التي يعبّر فيها عن مصارحة الذات ، والتنفيس عما علق في النفس من المكربات ، لا سيما أن قربه من السياسة ورجال الحكم قد أنساه بعض الوقت أن يتخيّر طريقه ، خاصة وأنه تتلمذ على شيوخ كثر ، غرسوا فيه حب الله وحب الحق والذود من أجل الدين ، الذي لا يحميه إلا أصحابُه . ولم تكن معاشرته لأهل العلم والتقوى لتُثمر في النهاية إلا طيبا ؛ لأن الغارسين أمثال أبيه ، ثم شيخه أبي الربيع الكلاعي كان لهم في تكوين وتربية ابن الأبار الدورُ الكبيرُ .

وصفوة القول:إن القصيدة البسيطة ،التي تناولها الشاعر ابن الأبار قد فرضتها ظروف متعددة، ومناسبات متنوعة ؛ كالقصيدتين (السينية والهمزية) المشهورتين ، اللتين كانت ضرورة من ضرورات المهمة ،التي كُلّف الشاعر بها ، وهي الاستنجاد بالسلطان الحفصي أبي زكريا وكان على الشاعر أن يُقنع (السلطان) المقصود في قصيدته ؛لأجل أن يمد إخوانه المسلمين بالعون والمساعدة ؛ لأن الحصار الذي كان مضروبا عليهم قد طال على الرغم من محاولات أمير بلنسية ابن مردنيش لفكّه ،وإبعاد خطر النصارى على بلدته .

كما أن للشاعر قصائدَ بسيطةً أخرى ، وردت في غرض المدح والغزل والرثاء والزهد كان الموضوع الواحد هو الشكل الذي اتخذه الشاعر للتعبير عما يجيش في صدره من إعجاب أو شكوى من الهجر الحبيب ومن الزمن ، أو الاعتبار من دروس الحياة .

(1) السابق ، ق 36 ، ص 461 .

ـ المقطّعة (المقطوعة) :

المقطّعة الشعرية قديمة قِدم الشعر العربي ؛ فقد ذكر ابن سلام الجمحي أن الشعر بدأ في القديم قِطَعًا ثم قُصِّدَ ، حيث يقول : **((ولم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبياتُ يقولها الرجل في حاجته ، وإنما قُصِّدت القصائد وطُوِّل الشعر على عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف.))**(1).

كما يبدو لدى ابن رشيق تحديدٌ للقصيدة ، حينما يقول: **((وقيل إذا بلغت الأبيات سبعة فهي قصيدة ولهذا كان الإيطاء بعد سبعة غير معيب عند أحد من الناس ... ومن الناس من لا يعد القصيدة إلا ما بلغ العشرة وجاوزها ولو ببيت واحد ويستحسنون أن تكون القصيدة وتراً ، وأن يتجاوز بها العقد أو توقف دونه ، كل ذلك ليدلوا على قلة الكلفة وإلقاء البال بالشعر)).**(2)

وأما تحديد المقطعة (فنياً) فيجب أن ينظر إليه من زاوية تناول الموضوع تناولا كليا مكتملا وإفراغ جهد الشاعر في قصيدته شحنتَه ، أسلوبا ، وصورة وموسيقى إفراغا ، يشعر معه المتلقي أنه وصل إلى النهاية، دون انتظار لكلام آخر.

ومع هذا المعيار يصعب ـ في كثير من الأحيان ـ تحديدُ المقطعة ، نظرا لإمكانية وصولها إلينا مبتورة من قصيدة طويلة .

وقد أفرد ابن رشيق القيرواني بابا أسماه " باب في القطع والطوال " بيّن فيه مواطن حسن الإطالة ، وحاجة الشاعر إلى القطع كحاجته إلى الطوال ، ومنزلة كل نوع . كما ذكر المشهورين بالمقطعات ؛ من مثل بشار بن برد ، وعباس بن الأحنف ، والحسن بن الضحاك و أبي نواس وأبي علي البصير ، وعلي بن الجهم ،و ابن المعذّل ،و الجمّاز ، وابن المعتز ، وكل هؤلاء الشعراء من المولدين.(3)

---

(1) ابن سلام الجمحي ، طبقات فحول الشعراء ، دار المدني،جدة ، دت، ج 1 ، تح: محمود محمد شاكر 1/ 26

(2) ابن رشيق ، العمدة ، ص 188 .

(3) ينظر : ابن رشيق ، العمدة ، 1/ 186...189.

وبالرجوع إلى مدونة ابن الأبار ، نجد أن عدد المقطوعات قد بلغت اثنتيْن وستين (62) مقطوعة ـ باعتبار الرأي القائل بعشرة أبيات ـ من مجموع خمس وأربعين ومائتي (245) قطعة[1] أي بنسبة 25.30 ٪ .

فالثلث ، الذي تمثله المقطوعة من مجموع قطع الديوان لايثير من حيثُ العددُ اهتماما على اعتبار أن نسبة القصائد (43.67) ٪ والنتف (31.02) ٪ في ذات الديوان كان أوفرَ .

أما إذا رجعنا إلى الأغراض التي قيلت فيها هذه المقطوعات الشعرية ، فنجد ابن الأبار قد تناول فيها كل الأغراض ،التي وسمتْ شعره ؛ فمن ذلك ما كان تعبيرا من طرف الشاعر عن الحنين إلى أهله و وطنه ، لا سيما لمّا كان مع سيّده في بلاد النصارى[2] ، والشوق إلى الضريح الشريف من جهة وإلى أحبابه من جهة أخرى ، يضاف إليهما الشكوى من بعد الحبيب ومن الزمن الذي تحيّفه ، والرثاء لبعض الأقارب وبكاء وطنه. إلى جانب الوصف (للدولاب والورود والأنهار) والزهد ، الذي اصطبغ لدى الشاعر بصبغة الوعظ لِمَنْ نسي الدار الباقية وتشبّث بالدار الفانية .

أما الاستشفاع ، وعلى الرغم من أن ابن الأبار قد أفرد له قصائد كاملة ـ كنا قد أشرنا إليها في الباب الأول ـ إلا أنه عاد وخصّص له أيضا مقطعاتٍ ، حملت استرضاءَه بكل الطرق للسلطان الحفصي أبي زكريا ، جاعلا أحد أبنائه وسيطا ؛ ليقيل الغاضبُ عنه عثراتِه ويغفر زلاّتِه .

والملاحظة ـ هنا ـ أن الشاعر لم يَنْظم أمداحه في شكل مقطوعات ، إلا ما جاء مُضمّنا في الاستشفاع ؛ ذلك أنه قد أفرد لهذا الغرض ـ كما عرفنا في الفصل الأول من الباب الأول باستثناء ما ورد عرَضًا ـ أمداحًا ؛ من مثل ما ذكره في مدح السيد أبي زيد عند انقياد أهل بيران لابنِه وكان

---

(1) مصطلح (القطعة) الذي تكرّر في البحث منذ بدايته يُرمَزُ به إلى كل القصائد (مركبةً كانت وبسيطةً ومقطوعاتٍ ونُـتَـفًا) ، وقد استعمله محقق الديوان : عبد السلام الهراس ، فحافظنا ـ نحن ـ عليه كما ورَدَ .

(2) ينظر ـ مثلا ـ ابن الأبار ، الديوان ، ق 135 ، ص 292 .

ذلك سنة 622 هـ[1] ، وما نظَمَه في مدح نعل النبي ﷺ[2] .

وكما تنوعت الأبيات الشعرية بتنوع مشاعر ابن الأبار ؛ من حنينه إلى موطنه ، إلى أوصافه المتعددة وشكواه من الزمن ومن المحبوب وصده ومن استشفاعه عن أخطاء اقترفها... فقد رافقت أحاسيسَه أشواقُه إلى بلنسية ، وحنينُه إلى مغانيها وحدائقها ، التي أغرم بكل ما فيها .

وشعر الحنين في الحقيقة يعبر به الشاعر عما يجيش بين ضلوعه ، مصدره عوامل عدّة ؛ منها أن الشاعر ابن الأبار يحس بعدم الاستقرار ، على الرغم من الرعاية ،التي حظي بها ومَن هاجر معه وكان من هؤلاء العلماءُ والأدباء والشعراء من مثل صديقه أبي المطرف ، المولود "بشقر"[3] وحازم القرطاجني ، المولود "بقرطاجنّة" سنة (636 هـ/ 1238م)[4]، لذا خُصُّوا بالاهتمام الكامل من جانب الحكام الحفصيين الذين وجدوا عندهم مكانا آمنا وعيشا رغيدا واحتراما كبيرا ، فذاع سيطهم وطارت في الآفاق أخبارهم ، بخاصة ابن الأبار ، إلا أن كل ذلك لم يَمْحُ من

---

(1) ينظر : ابن الأبار ، الديوان ، ق 8 ، ص 442 .

(2) ينظر : ابن الأبار ، الديوان ، ق 10 ، ص 443 .

(3) **أبو المطرف** :هو أحمد بن عبد الله بن عُميرة المخزومي القاضي ، من أهل شُقر ، وسكن بلنسية.ذكر المقري في النفح أن مولده كان سنة 580 هـ وأن وفاته كانت سنة 658هـ .(أي تاريخ وفاة ابن الأبار .) ذكر له ابن الأبار قصائد متعددة.(ينظر: ابن الأبار ، المقتضب من تحفة القادم ، دار الكتب الإسلامية، دار الكتاب المصري القاهرة ، ودار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط2 ، 1982 ، ص197 ، وما بعدها) .وذكر له المقري في النفح رسالته الرائعة إلى ابن الأبار في سقوط بلنسية .(ينظر : المقري ، نفح الطيب ، 4/ 490 وما بعدها)

(4) **حازم القرطاجني** :608 ـ684هـ / 1211 ـ 1285.م، هوحازم بن محمد بن حسن ، ابن حازم القرطاجنّي أبو الحسن : أديب من العلماء ، له شعر . من أهل قرطاجنّة Carthagène بشرقي الأندلس . تعلّم بها وبمرسيم ، وأخذ عن علماء غرناطةوإشبيلية ،ثم هاجر إلى مراكش ،وبعدها إلى تونس ،فاشتُهر وعُمّر وتوفي بها . من كتبه" منهاج البلغاء و سراج الأدباء" ، وله ديوان شعر صغير . وهو صاحب " المقصورة" التي مطلعها : للهِ ما قد هِجْتَ يا يومَ النَّوى على فُؤادِي من تباريحِ الجَوَى .
شرحَها الشريف الغرناطي في كتابٍ أسماه " رفع الحجب المنشورة على محاسن المقصورة".(ينظر : الزركلي الأعلام ، 3/ 159 .) .

ذاكرة ابن الأبار كل ما يربطه بوطنه ؛ كذلك الدولاب ، الذي يسقي النباتات ويسكّن حركاتِ الألباب ، فقد جعل منه الشاعر مُغنّيا ، ولكنه لم يطرب ، وساقيا ولكنه لم يشرب ؛ لأنه يندفع من فوهته الماء لإغاثة عطشى الأشجار والنبات ، فيقول الشاعر [الكامل] :(1)

يَاحَبَّذَا بِحديقَــــةٍ دُولابُ   سَكَنَتْ إلى حَركـاتِهِ الألبَابُ
غَنّى ولم يَطرَبْ وسَقَى وهو لم   يشربْ ومنه اللّحنُ والأكواب

....

وكأنّه ممَّا ترَنَّمَ ماجِــــنٌ   وكأَنَّهُ مِمَّــا بكـــَى أوَّاب

ويقول في الشوق إلى الرصافة وملاعب الصبا ، محاولا الانطلاق من مقارنة ماضيه بحاضره اللذين يُعَدَّان ماضي وحاضر أهله وأبناء وطنه كلهم [الطويل]:(2)

يَقَرُّ بِعيْنِي أنْ أَزُورَ مَغـــانيا   بِساحَتِها كُنَّا نَخُــوضُ ونلْعَبُ
ذا العيشُ غَضٌّ والشبيبةُ لدْنَةٌ   وسافِرُ وجْهِ الحُسْنِ ليسَ يُحْجَبُ

....

وما أَرَبي إلاَّ الرصافةُ لوْ دنَتْ   وهلْ لِلْهوَى إلاَّ الرصافةُ مَذْهَبُ

وهو إذ يعبر عن تلك الأشواق بتلك المعاني ، رغبة في نقل معاناته لأجل التحريض لتغيير الواقع الذي ألجأه إلى الهجرة ، وإثارة العواطف الإنسانية (الحفصية) لينال عندهم ما يصبو إليه وهو الهبَّةُ الموعودة لنجدة الأندلسيين .

وقال في ندب بلنسية ، التي ملكت عليه جوارحَه بسبب الجراح المثخن بها ، فلا الشفاء مرجوٌّ، ولا السراح والحرية منتظرة ، بعدما فُرِّطَ في الدين الإسلامي ،وقُدِّمَ هديَّةً إلى النصارى يومَ غاب حاميها المنصور ـ وهو المنصور بن أبي عامر(3) ـ الذي عُرفَ بكثرة انتصاراته على

---

(1) ابن الأبار ،الديوان، ق 15 ، ص65 .

(2) نفسه ، ق 18، ص66 .

(3) **المنصور بن أبي عامر** :هو محمد بن عبد الله بن أبي عامر الحاجب المنصور أبو عامر (327هـ ـ 392هـ) : أمير الأندلس في دولة المؤيد بالله هشام بن الحكم المستنصر بالله، والغالب عليه . أصله من الجزيرة =

النصارى. ((فما زال يبطش بأعدائه ويسقط مَنْ فوقَه بقهْرِه واستيلائه)) [1] وخلفهُ على أرضها النصارى الأراغونيون [الكامل] :[2]

مَلَكَتْ جَوارحَهُ عليهِ جِراحُهُ فَشفَاؤُهُ لا يُرْتَجَى وسَراحُهُ

....

قدْ أُسْلِمَ الإسلامُ في إلى العِدَى فَأَسَاهُ بَرْحٌ ولا يُتاحُ بَرَاحُهُ

لَمَّا تَحَجَّبَ في النَّوَى منْصُــورُهُ أنْحَى عليهِ بِسَيْفِهِ سَفَّاحُهُ

وقال الشاعر شاكيا من حبيب يبتعد ، في الوقت الذي كان منه يقترب [الكامل] :[3]

ياَ أهلَ وِدِّي لِمَ أَرُومُ تـــــدانيًا منكُم ودَارُكُم تَبِيـــنُ وتَنْزَحُ

....

لا تَحْسَبُوا الرِّحيَ السَّمُومَ هيَ التي هبَّتْ عليكُم في الهَوَاجِرِ تَلْفَحُ

أنفاسيَ الصُّعَدَا(ءُ)تِلْكُمْ هَاجَهــا شَوْقٌ إليكم بِالفُؤَادِ مُبَـــرِّح

ومما قاله وهو ابن خمس عشرة سنة ، مُبينا عن شاعرية وموهبة [مخلع البسيط]:[4]

أَتْهَمَ بِي في الهَوى وأَنْجَد مُهَفْهَفُ الخصْرِ أَهْيَفُ القَدِّ

يهُزُّ منهُ الصّبا قَضِيبًا يَكادُ مِمَّا يَمِيسُ يَنقَـــــــدّ

=

الخضراء.كانت للمنصور همة ونباهة وحسن تصرف .ولمّا انتفض العدو ،وآلت الأمور إلى أبي عامر ،مُدَّ الأموالَ ، وجُعلت إليه قودُ الجيوش ، فأُسْعِفَ على النصر ولقي العدوَّ فهزمه . و والى غزو بلاد الروم . ودانت له أقطار الأندلس كلها ،وأمِنَتْ به. وغزواته في كل صائفة متصلة أ أزيد من خمسين ، حتى أذعن له ملوك الروم ، ورغبوا في مصاهرته .تناولَ كلَّ ذلك بتأييد إلهيٍّ مدةً طويلة ، وأورثَه بَنِيهِ وقتا قصيرا (ينظر:ابن الأبار ، الحلة السيراء،حققه وعلّق حواشيه:حسين مؤنس ، دار المعارف مصر ، ط2 ، 1985 1/ 268_269) .

(1) ابن الأبار ، الحلة السيراء،حققه وعلّق حواشيه:حسين مؤنس ، دار المعارف مصر ، ط2 ، 1985 1/ 269

(2) ابن الأبار ، الديوان، ق55 ،ص131 .

(3) نفسه ، ق57 ،ص130 .

(4) نفسه ، ق76،ص175 .

....

فأنتَ واللهِ مَنْ علَيْهِ   لِواءُ أهلِ الجَمَــــالِ يُعْقَــد

وقال يستشفع بالأمير محمد ليقيل أبو زكريا عثرته ، مقدما في هذه الأبيات الضمان الكافي بأن لا يعود إلى فعلته ؛ لأنه لا ملجأ إلا له ، وأن الموت على أرضه خلود بالنسبة إليه .

ويبدو الشاعر ـ هنا ـ ضعيفا ذليلاً ، مهينا ، متنازلا عن بأوه وكِبره ، الذي عُرف به من أجل أن يرضَى عنه سيدُه الحفصي ؛ لأنه ذاق في جواره ، ولفترة من حياته ألذ عيش ، كما أحاله مكانة مقربة منه ؛ لذلك لا يريد أن يُنزلَ في منزلة غيرِ التي ألِفَ ،فيقول [مخلع البسيط] [1] :

مَولاَيَ دانَتْ لكَ السّعود   أخْطَأْتُ أخطأتُ لا أعُود

مَا لِي بَرَاحٌ ولا انتـزاحٌ   مَوْتِي في أرضِكُم خُلــود

كُنْ لي شَفيعًا إلى إمـامٍ   ليسَ على فضْلِهِ مَــــزِيد

عادتُهُ العَفْوُ والمَـوالي   تَعْفُو إذَا أَخْطَأَ العَبــــيـد

هذه بعض المقطوعات ، التي أوردناها نماذجَ لشعر ، يقوله صاحبه في مناسبات مختلفة وتناولت مواضيع متنوعة ، غلبَ عليها الشوق والحنين لبلنسية ، ولِمَنْ يعيش بها ، آملا في تغيير هذا الوضع ،الذي أبعده عن موطن الصبا ، ومرتع الشباب . كما نجد من هذه المعاني التي حملتْها مقطوعاتُ الشاعر الاستشفاعَ بابن السلطان أبي زكريا ، مبديا تذلّلَه وندمَه عما بدَر منه ، معترفا بخطئه ؛ لأنه لا يستطيع الابتعاد عمَّن ألِفَ القربَ منه ، ولا طاقة له بأن يطلّق حياة الرفاه ، التي كان ينعم بها في جوار صاحب الفضل عليه .

---

(1) السابق ، ق73 ، ص173 .

ـ النتفة والبيت المفرد (اليتيم) :

النتفة : حددها القدماء ببيتيْن و ثلاثة أبيات ، يعرض فيها الشاعر إلى فكرة ، جالت في خاطره أو شعور انتابه في لحظة من اللحظات ،فأمسك به قبل أن يضيع منه.

وكان لهذه النتف حضور في الشعر العربي ، ولعلها كانت الشكل الأول الذي قاله الشعراء القدامى للتعبير عن حاجة من جاجاتهم.

وأما **البيت المفرد (أو اليتيم)** :

وهو البيت المستقل بذاته ، المنفرد بفكرته ،هذا ما لم يكن مجتزءًا من أبيات أخرى(نتفٍ أو مقطعات).

وبالعودة إلى مدونة الشاعر ابن الأبار نجد أن عدد النتف الشعرية كان ستا وسبعين (76) نتفةً ، وبلغت نسبتها بين القصائد والمقطوعات: 31.02٪ .

كما تقاسم هذه النتفَ والأبيات المفردةَ أغراضٌ منها : الوصف، الغزل ، الشوق والحنين التهنئة الرثاء ، الحكمة والزهد والألغاز .

ومن ذلك ما قاله في خسوف الهلال [الوافر] :(1)

أَلَمْ تَرَ لِلخسُوفِ وكيفَ أَوْدَى ببَدْرِ التَّمِّ لَمَّاعِ الضــيّاء
كَمِرْآةٍ جَلاَهَا الصَّـقْـلُ حتّى أَنارَتْ ثُمَّ رُدَّتْ في غشاء

وقال يصف امرأة حاملة تفاحة [الكامل] :(2)

حَمَلَتْ بِراحَتِهَا شبيهَةَ خَدِّها تُفاحةً لَبِسَتْ حُلَى الصَّهباء

وقال مُسوِّغا خروجَه إلى أرض الروم مع سيده [البسيط] :(3)

قالوا: الخُرُوجُ لأرضِ الرُّومِ مَنْقَصَةٌ فقُلْتُ : كَلاَّ ولكنْ صادُها باءُ

(1) ابن الأبار ، الديوان، ق7 ،ص54 .

(2) نفسه ، ق8 ،ص54 .

(3) نفسه ، ق9 ، ص55 .

....

وكانَ لِي في قُريشٍ أسْوَةٌ وكَفَى   معَ النَّجاشيِّ ترْضَاهَا الألِـبَّاءُ

وقال وهو في بلاد الروم ، مبديا ضيق حاله وتبدّله ، ومعاناته بين النصارى [البسيط] :[1]

الحمْدُ للهِّ لاَ أهْلٌ ولاَ وَلَـدُ   ولاَ قرارٌ ولا صبرٌ ولاَ جَـلَدُ

كانَ الزّمانُ لنا سِلْمًا إلى أَمَدٍ   فَعَادَ حرْبًا لَنَا لَمَّا انقّضَى الأمَدُ

وقال يصف رحلة محبوبه ، الذي أخذ معه قلبه مناديا ، داعيا القافلة لانتظاره ، ومنحه فرصة توديع قلبه الذي رحل مع الراحلين ، ذاكرا أماكن عربية (السنا والمحصّب) على عادة الشعراء القدامى [الطويل] :[2]

إذَا رَحَلَ الرَّكْبُ العِراقيُّ سَـحْرَةً   إلى الخَيْفِ مِن وادي السَّنا فالمُحَصَّبِ [3]

هَتَفْتُ بكُم : قلبِي لديكم فعَرِّجُوا   أُوَدِّعْهُ إذَا خَـبَّ المطيُّ بكـــم وبِـي

وله مما قاله في صباه [المنسرح] :[4]

إنْ ضَاعَ قَلْبي فأَيْنَ أطْلُبُهُ   أوْ ذَاعَ حُبِّي فأنتَ مُوجِبُهُ

وقال في التشوق إلى الحبيب ، الذي لا يقوى على فراقه [البسيط]:[5]

مَنْ لِي بِصبْرٍ خَليٍّ والفُؤادُ شَجٍ   شَوقًا إلى البَلَجِ الفتّانِ والفَلَجِ

....

أَقولُ لِلنَّومِ والسُّمَّارُ قد هَجَعُوا   و لِي تَمَلْمُل عانِي القلبِ مُنْزَعِجِ

(1) السابق ، ق80 ، ص178 .

(2) نفسه ، ق1 ،ص 58 .

(3) الخَيف:ناحية من الجبل .(ينظر :ابن منظور ، اللسان ، 4/ 258).**وادي السنا** : وادٍ بنجد . **المُحصّب**: موضع رمي الجمار بمِنًى . (ينظر :ابن منظور ، اللسان ، 3/ 185) .

(4) ابن الأبار ، الديوان ، ق 12 ، ص 59 .

(5) نفسه ، ق 44 ، ص 109 .

وقال يمدح المستنصر على البديهة [البسيط] :[1]

فَمَا لِشِعْرِي على الأشعَارِ يَحْفَظُهُ   خليفة الله كان اللهُ حافِــظَهُ

وعلى البديهة أيضا قال بيتا ، لمّا عفا عنه المستنصر وأقال زلّته [الوافر]:[2]

لقدْ حَسُنَتْ بِكَ الأوقَاتُ حَتَّى   كأَنَّكَ في فَمِ الزَّمانِ ابْتِسامُ

وفيما يتعلق بعلاقته بالأسرة الحفصية الحاكمة ـ التي ما تتوطد حتى تسوء مرة أخرى ـ بيتٌ يُنسَب إلى الشاعر ، يفضح فيه المستنصر السلطان ، ويُعرّي سياسته القاسية ، حتى مع أقرب الناس إليه ، يقول فيه [السريع]:[3]

عَصَى أبَاهُ وجَفَا أُمَّهُ   ولمْ يُقِلْ منْ عَثْرَةٍ عَمَّهُ

وله في الحنين إلى بلنسية [الوافر]:[4]

إلى أوطانِـهِ حَنَّ العمـيدُ   فَظَلَّ كأَنَّهُ غُصْنٌ يَمِـيدُ

ومَسْقَطَ رأسِهِ ذَكَرَ اشْتياقاً   فَذَابَ فُؤادُهُ وهوَ الحديدُ

وقال في التشوق إلى دياره وأهله . ويرجح المحقق أن ذلك كان وهو في بلاد الروم (الأرغونيين) مع سيده أبي زيد [الوافر] :[5]

إلى الإلْفَيْنِ مِن أهلٍ ودَار   تَأَوَّبَنِي اشتياقِي وادِّكَارِي

وحَنَّ القلبُ أعْشَراً إليها   حَنينَ الواهاتِ من العشار

وله أبيات في تذكر أهل العلم والمعرفة ، الذين ودّعهم ، يزف إلى أرواحهم الطاهرة الزكية تحيّتَه ، ويتحسر على الأيام الجميلة الخوالي ، التي وَلّتْ لِلاَ رجعة فيقول [السريع]:[6]

---

(1) السابق ، ق 37 ، ص 461.

(2)نفسه ، ق 30 ، ص 458.

(3) نفسه ، ق 39 ، ص 462.

(4) نفسه ، ق 78 ، ص 177.

(5) نفسه ، ق 89 ، ص 199.

(6) نفسه، ق 31 ، ص 90 .

تَحِيَّةُ اللهِ على مـــــعْــشَرٍ ودَّعْتُهُمْ توديعَ شَرْخِ الشَّباب
كانُوا وكُنَّا زَمَنًا وانْطَــوَى ما بينَنَا مثلَ انْطِـواءِ الكتاب

وفي المعنى السابق ، يقول [مجزوء الرجز]:(1)

لمْ يَبْقَ رسْمٌ لِلأدبْ أوْدَى ضَياعًا وذَهَبْ

وقال في مدح الحفصيين ، الذين يمثلون دولة التوحيد ، مشيدا بكرمهم كرمَ السحب الهواطل [الطويل] :(2)

أُنَاسٌ مَن التَّوحيدِ صِيغَتْ نُفوسُهم فَزُرْهُم تَرَ التَّوحيدَ شَخْصًا مُرَكّبا
ومِنْ ساكباتِ المُزْنِ فيضُ أَكُفِّهم فَرِدْهُمْ تَرِدْ مَاءَ الغَمـــامِ وأعْـذَبَا

وقال بعد أن أدرك خطأ مساره ، لائما نفسه ؛ لأنه قَصَرَ حياته على خدمة الملوك إلى درجة العبادة ، وهو أفضل منهم ، ونسي المعبود الحق [المتدارك] :(3)

حُرِمْتُ الرَّشادَ لأنّي سَفَاهاً خدَمْتُ الملُوكَ وهم أعْبُدُ
وفي رَغَبـاتِي لهم جِئْتُ إدًّا فَهَلــاَّ رَغِبْتُ لِمَـنْ أَعْبُدُ

وبيتٌ آخرُ ، نُسب إليه كذلك ، قيل وُجِدَ بين أوراقه وكتبه لَمَّا قَرّر المستنصر معاقبته والنيل منه ورَدَ فيه [المجتث] :(4)

طَغَا بِتُونُسَ خلْفٌ سَمَّوْهُ ظُلْمًا خَليفَه

وما يمكن ملاحظته على هذه النتف والأبيات المفردة ، أنها نقلت أحاسيس الشاعر المختلفة التي أطلقها إمّا على البديهة ، أو أنه كان مضطراً أن يرد بردٍّ موجزٍ على أمرٍ مهمٍّ كما فعل حين خرج إلى النصارى ولامَهُ أهلُه ؛ من وصف لشيء ، أو شوق إلى أحبائه وحنين إلى وطنه ، أو مدح للحفصيين وذمٍّ لبعضهم.

---

(1) السابق ، ق 32 ، ص 90 .

(2) نفسه ، ق 38 ، ص98 .

(3) نفسه ، ق 82 ،ص178 .

(4) نفسه ، ق 23، ص 452.

الفصل الثاني

التـــعالق النـــصي

1 ـ الاقتباس من القرآن والحديث.

2 ـ التضمين من الشعر.

3 ـ المعارضات الشعرية.

4 ـ الأحداث التاريخية والشخصيات.

5 ـ الأمثال.

6 ـ التورية بمصطلحات العلـوم.

إن المتفق عليه في الدراسات النقدية أن النص لا يمكن أن يوجد أو يُخلَق من فراغ ذلك أنه ينفتح على عوالم نصية ، ذات بعد تاريخي ، أو ديني ، أو غيره في الكثير من الأحيان ، ومن هنا تكمن أهمية العلائق النصية ، المختلفة ، والمتنوعة للنصوص ؛ السابق منها واللاحق وهو ما يطلق عليه تسمية " التعالق النصي " (Hypertextualité) الذي يحاول من خلاله النص اللاحق تمثّل واستيعاب نصوص سابقة عليه زمنيا ، وتحويلها إلى مكون ضمني في البنية الجديدة ويستوي الأمر في النص الغائب ، والمستحضر أن يكون بعيدا عن الثاني ، أو يعيش بين ظهرانيه .

و**"التعالق النصّي "**: يقصد به أيضا أن النصّ اللاحق يكتب النصّ السابق بطريقة جديدة.

ويتضمن التعالق النصي عادة التداخل ؛ أي عندما نقوم بالاستشهاد بأبيات شعرية ، أو نص معروف أو مَثَل من الأمثال .

وفي هذا الشأن (التداخل) يقول عبد الله محمد الغذامي معتبرا أن النص ابنُ النص:

((ولئن كان مفهوم جسَدية النص وكونه كائنا حيا ومركبا هو لب الفكرة فيما قلناه ونقوله عن نصوصية النص فإن هذه الجسدية لا تقوم على (عزل) النص عن سياقاته الأدبية والذهنية ذلك لأن العمل الأدبي يدخل في شجرة نسب عريقة وممتدة تماما مثل الكائن البشري ، فهو لا يأتي من فراغ كما أنه لا يفضي إلى فراغ . إنه نتاج أدبي لغوي لكل ما سبقه من موروث أدبي وهو بذرة خصبة تؤول إلى نصوص تنتج عنه ...)).[1]

وقد عبّر النقاد على عملية التداخل النصّي بمصطلحات عدة ؛ منها : المتعالقات النصية (Transtextualité) (وتسمى أيضا بالمتعاليات النصية) وهي عبارة عن مجموعة من العلاقات النصية المتناظرة المباشرة وغير المباشرة . و المتعالقات النصية تعبّر عن علاقة حضور بين نصين أو عدة نصوص عن طريق الاستحضار. وتتخذ عادة صيغة حضور نص داخل نص آخر ، دون اعتبار ذلك سرقة أو ما شابه ذلك .

(1) عبد الله محمد الغذامي ، ثقافة الأسئلة ، مقالات في النقد والنظرية ، دار سعاد الصباح ، القاهرة ، ط2 1993 ، ص 111 .

كما أطلقوا عليه (التداخل) مصطلح" التناص" Intertextualité ،والذي ظهر كمصطلح للمرة الأولى على يد جوليا كريستيفا (Julia Kristeva) عام 1966 في مجلة"تل كل"(Tel Quel) الفرنسية و شاع في الدراسات النقدية الحديثة والمعاصرة .

ويقصد به توالد النصّ من نصوص أخرى ، وتداخل النصّ مع نصوص أخرى .

و هذا لايعني أن المصطلح حديث العهد ، بل هو ظاهرة نصية قديمة في تراثنا ؛ إذ مارسها الشعراء العرب القدامى في إبداعاتهم واحتفلت بها كتب البلاغة والنقد العربية القديمة تحت تسميّات عدة (**الاقتباس ، التضمين السرقة ، الأَخْذ ، الاستِمْداد الاستعارة والاسْتشهاد...**)

و يعد النص نتيجةَ نصوص متعاقبة ، على ذهن صاحبه ، آتية من ثقافات متعددة ومتداخلة وضمن علاقات يفترض فيها المحاورة والتعارض والتنافس ؛ لإنتاج نص جديد من هذا الكل .

وفي هذا المعنى يقول **سعيد يقطين** : ((**إن النص ينتج ضمن بنية نصية سابقة ، فهو يتعالق بها ويتفاعل معها تحويلا أو تضمينا أو خرقا وبمختلف الأشكال التي تتم بها هذه التفاعلات**)) .[1]

فهذا الكل من النصوص الإبداعية ذاتُ أصل سحيق في التاريخ الأدبي والنقدي وتكون عملية الاستدعاء والاستحضار لهذه النصوص في شكل المعارضة أوالتضمين أو ما اصطلح عليه في فترة من فترات التاريخ النقدي والأدبي ؛ كالسرقات ، وغيرها ، يقول الغذامي :

((**فالنص يدخل على نصوص أخرى تسبقه فيكون نتيجةً لها ، وأخرى تلحق به فتكون متولدة عنه ، وهو بينها حلقة في سلسلة طويلة بدأت في الماضي السحيق الذي لا ندرك إلا بعضه .**)) .[2]

لقد تعددت الروافد ، التي اغترف منها ابن الأبار ، وتنوعت بتنوع ثقافته الموسوعية قال عنه عبد المالك المراكشي : ((**وكان آخِرَ رجالِ الأندلس براعةً وإتقاناً وتوسُّعًا في المعارفِ وافتناناً مُحدِّثًا مُكْثِراً ضابطاً عدلاً ثقةً ، ناقداً يقظاً ، ذاكراً للتواريخِ على تبايُنِ أغراضِها مُسْتبحِراً في علوم**

(1) سعيد يقطين ، انفتاح النص الروائي ، منشورات المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء المغرب، 1989 ص81.

(2) عبد الله محمد الغذامي ، ثقافة الأسئلة ، ص 113 .

اللسانِ نحواً ولغةً وأدباً ، كاتباً بليغاً شاعراً مُفْلِقاً مُجيداً ، عُنِيَ بالتأليفِ وبَحَثَ فيه وأُعِينَ عليه بوُفُورِ مادتِه وحُسْن التهدي إلى سلوكِ جادتِه ، فَصَنَّفَ فيما كان ينتحلُه مُصَنَّفاتٍ بَرَزَ في إجادتِها وأعْجَزَ عن الوفاءِ شُكْرُ إفادتِها...))[1] .

وقد تعددت الدراسات في هذا الموضوع ، حاملة آراء متفقة ، وأخرى مختلفة ، أثْرتْ جميعُها المكتبةَ النقدية ، وأتاحت للقرّاء فرصة الرجوع إليها .[2]

وكانت الروافد ، التي استقى منها الشاعر ابن الأبار معاني أبياته ومضامينها متعددة ومتنوعة منها ما كان بطريق الاقتباس من القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف ومنها ما كان بوساطة الإشارات إلى الأعلام التاريخية ، أو التورية بمصطلحات العلوم المختلفة من مثل : النحو والعَروض والفَلَك ، أو توظيف الأمثال العربية .

---

(1) عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة: نقلا عن : ابن الأبار ، الديوان ، تح عبد السلام الهراس ، ص 17 .

(2) ينظر في هذا الموضوع **(التناص)** : **رولان بارت** ، **نظرية النص** ، بحث مترجم ضمن كتاب ، آفاق التناصية...المفهوم والمنظور ، ترجمة : محمد خير البقاعي، الهيئة المصرية العام للكتاب ، دط ، 1988 .
و **رولان بارت** ، **لذة النص** ، ترجمة : محمد خير البقاعي ، المجلس الأعلى للثقافة ، المشروع القومي للترجمة، 1998. **ومارك أنجينو، في أصول الخطاب النقدي الجديد،** الفصل الخامس بمفهوم التناص في الخطاب النقدي الجديد،ت:أحمد المديني ، دار الشؤون الثقافية بغداد ط1 1987 . **جيرار جينيت ـ مدخل لجامع النص** ـ ترجمة: عبد الرحمن أيوب ـ دار توبقال ـ الدار البيضاء،1986 و **فيليب سولرز** ، **نظرية السيميولوجيا** ، "تل كل" ، دط 1968 . **ولانسون** ، **منهج البحث في تاريخ الأدب** ، ترجمة :محمد مندور ـ نهضة مصر، دط ، 1972 . **وجوليا كريستيفا،مدخل إلى السيميولوجيا** سوي ، باريس 1978 . و **جوليا كريستيفا** ، **ثورة اللغة الشعرية** ،سوي باريس 1985 . **وابن رشيق** ، **العمدة** ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ط5 ، 1981 . **والقاضي الجرجاني ـ الوساطة بين المتنبي وخصومه** ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي البجاوي ـ دار إحياء الكتب ـ القاهرة 1966 . **وابن الأثير** ، **المثل السائر** ، تحقيق : أحمد الحوفي وبدوي طبانة ـ نهضة مصر .دط ، دت . **ومحمد مفتاح تحليل الخطاب الشعري** ، **استراتيجية التناص** ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط3 ، 1992.**وعبد الله الغذامي الخطيئة والتكفير** ، من البنيوية إلى التشريحية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط1998،4. = =**ومحمد عزام النقد..والدلالة، نحو تحليل سيميائي للأدب** وزارة الثقافة ، دمشق 1996. وصلاح **فضل بلاغة الخطاب وعلم النص** ، عالم المعرفة الكويتية . **وسعيد يقطين انفتاح النص الروائي** ، النص والسياق ط2 ، 2001 .). وغيرها من المصادر المراجع المتعددة والمتنوعة .

وفيما يلي سنعرض إلى هذه المتعالقات النصية المتنوعة ، وهذه العلائق ، التي ستكون مع **النص الديني** ، **والأدبي** ، **والتاريخي** .

1 ـ الاقـتـبـاس :

أ ـ من القرآن الكريم :

يمثل الخطاب الديني مرجعية ثقافية واجتماعية وفكرية للشاعر ابن الأبار القضاعي.فمن أرضية هذا الخطاب ينطلق الشاعر للتعبير عن رؤيته للعالم ؛ لأنه يُعَدُّ بالنسبة له ولغيره من المبدعين محورَ المعارف والعلوم .

ولقد أكبّ ابن الأبار منذ صغره على طلب المعرفة وفنون الآداب. حفظ القرآن صغيرا منذ كان بين يدي معلّمه الأول ؛ أبيه ، الذي قال فيه:((**وكان رحمه الله ، ولا أزكّيه مقبلا على ما يعنيه شديد الانقباض، بعيدا عن التصنع ، حريصا على التخلص مقدَّما في حَمَلة القرآن كثير التلاوة له والتهجد به ، صاحبَ وردٍ ، لا يكاد يهمله ذاكرا للقراءات ، مشاركا في حفظ مسائل من الآداب**)).[1]

ومن الطبيعي أن يتأثر الابن التلميذ بالأب الأستاذ ، و كان يراجعه محفوظَه في القرآن الكريم إذْ يقول في ذلك : ((**قرأتُ عليه القرآن بقراءة نافع مرارا ، وسمعتُ منه أخبارا وأشعارا واستظهرتُ عليه مرارا أيامَ أَخْذِي على الشيوخ ، يمتحن بذلك حفظي وناولَني جميعَ كتبه ، وشاركتُه في أكثر مَن روى عنه**)) .[2]

ويتبيّن لنا من دراسة الشعر الأندلسي بشكل عام ، وشعر ابن الأبار بشكل خاص مدى أثر القرآن الكريم فيه. وقد أخذ هذا التأثر أكثر من لون ؛ من ذلك استمداده لألفاظ الآيات القرآنية الكريمة ومعانيها، أوالاقتباس الصريح للآية بكاملها أوجزء منها.

ولا تثير هذه الظاهرة الغرابة عند الباحث، إذا عرفنا أن الشاعر ابن الأبار ، كان القرآن الكريم محفوظا في صدره منذ صغره ، له دراية بعلومه وأحكامه .

---

(1) عبد المالك المراكشي : الذيل والتكملة ، تح محمد بنشريفة ، دار الثقافة ، بيروت ، 1964، 4/ 179.
(2) نفسه ، 4/ 179 .

لقد استمد الشاعر من القرآن ألفاظا ، تناسب المواقف التي يعبر عنها ، وذاك ما سنتناوله في لاحق السطور .

وقد حاولنا أن نقسم هذه الألفاظ إلى : ما يتعلق بالصراع الذي وسم الفترة التي يحياها ابن الأبار بين المسلمين و بين النصارى ، وألفاظ عبّر بها الشاعر عن الحروب التي خاضها أبو زكريا الحفصي ضد بعض مدن الأندلس والمغرب ، وبيعة بعض هذه الأقاليم .

فأما ما يخص الفترة الأولى (ضد النصارى) ، فقد أورد الشاعر أبياتا ، فيها من الألفاظ القرآنية ما يقوّي المعاني ويوضحها أكثر؛ فمن ذلك ما ورد في همزيته المشهورة ، التي قدّمها بين يدي أبي زكريا الحفصي سنة 635 .هـ بعد ضياع بلنسية ، يستنهض فيها همته لإنقاذ الأندلس ـ وكنا قد عرضنا إلى المعاني التي تضمنتها القصيدة كلها في الباب الأول ـ ويحثّه على إعداد خيله الدالة على القوة والاستعداد التام لرد ظلم المعتدين ، فقال الشاعر [الكامل]:[1]

واشْدُدْ بِجَلْبِكَ جُرْدَ خيلِكَ أَزْرَهَا   تَرْدُدْ على أعْقَابِها أَرْزَاءَهَا

مستحضرا قوله تعالى : ﴿ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ ﴾ [طه : 31] .

وذلك عندما أمرالله موسى بالذهاب إلى فرعون ؛ ليبلّغه رسالات ربه ، فطلب النبي المرسَل من ربه أن يشرح له صدره و ييسّر له أمره ، ويجعل كلامه مفهوما ؛ لأن به عاهةً حدثت له لمَّا كان صغيرا بعد أن وضع في فمه جمرة فأحرقته ، ثم يجعل له أخاه هارون وزيرا يشدّ به ظهره ويعينه على مأموريته، يكون له شريكا .[2]

فإذا كان الشاعر قد طلب من أبي زكريا بأن يستعين بالخيل ، كناية عن القوة الضرورية لرد الشر (العدوان) ، فإنه وجد في الآيتين ما يقوي معنى بيته ويتناسب مع فكرته ؛ لأن المطلوب منهما كليهما (النبي موسى وأبي زكريا) بحاجة ماسّة إلى القوة ؛فكلاهما أمام فرعون زمانه . يقول سيد

---

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق 1 ، ص33 .

(2) ينظر : جلال الدين محمدبن أحمد المحلي وجلال الدين السيوطي ، تفسير الجلالين ، تعليق: خالد الحمصي الجوجا ، مكتبة أرسلان ، استانبول ، تركيا ، دط ، دت ، ص 414 .

قطب : ((**وطلبَ أن يعينه الله بمعين من أهله . هارون أخيه . فهو يعلم عنه فصاحة اللسان وثبات الجنان وهدوء الأعصاب ، وكان موسى ـ عليه السلام ـ انفعاليا ، حادّ الطبع ، سريع الانفعال .فطلب إلى ربه أن يعينه بأخيه ؛ يشد أزرَه ويقويه ويتروى معه في الأمر الجليل ، الذي هو مُقْدِم عليه .**))(1) .

وما طلبُ موسى لمعونة أخيه إلا لأنه أحسَّ بضعفٍ ، وأقرّ بعجز ، وعدم قدرة على مواجهة فرعون ، الذي تربّى في قصره ، وشاهد طغيانه وجبروته لقومه ، وتنكيله وتعذيبه لهم في كل مرة .

وإذا كان (هارون) يمثل القوة التي تلزم أخاه (موسى) ليكون له ظهيرا ومساعدا ودونه لا يمكن أن يؤدي رسالته ، التي كُلّف بها ، فيُقنِعَ المرسَل إليهم ، طالبا من الله ـ الذي يطمئن إليه ـ قبل طلب العون ، أن يشرح له صدره ، ويُيَسِر أمره ويفكّ عقدة لسانه .

فإن الشاعر ـ وهو يستنهض السلطان الحفصي ـ لم يطلب منه أن يستعين بأولاده وإخوانه ـ وكانوا قادرين ـ وإنما طلب أكثر من ذلك (الخيل) ـ وكانت متاحة آنئذ ـ
لأنه يريد منه إعداد القوة التي لا تُهزم ؛ المادية منها والمعنوية ؛ لأن العدو ، الذي أحكم قبضته على الأندلس لا يمكن التغلب عليه ، وردّ عدوانه إلا بمثل هذه القوة ؛ قوةِ الخيل المسومة المؤججة ، التي تسحق المعتدي النصراني .

فمعرفة النبيّ بثقل المهمة ، وبخطورة فرعون كانت يقينية ، لا مجرد خوف من مجهول، بل هو معلوم عنده ؛ لأنه عاش معه ما شاء الله له أن يعيش . كذلك كان الوضع لدى الشاعر الذي يعلم علما لا شك فيه أن الخطر المحدق بالمسلمين في الأندلس من جراء الحصار المضروب عليهم أمرٌ واقع ، ولا يمكن الخروج من هذه الأزمة إلا بالقوة الكبيرة الممثلة في الخيل ، وما تفيده هذه الكلمة من معانٍ ، علَّهُ يُؤتَى سُؤْلَهُ ، مثلما أوتيَ موسى سُؤْلَه ﴿ **قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ٣٦** ﴾ [**طه** : 36] .

---

(1) سيد قطب ، في ظلال القرآن ، دار الشروق ، القاهرة ، ط10 ، 1981 ، 4/ 2333 .

وزيادة في الحث على التصدّى للأعداء ، وتأكيدا عليه ، يطلب الشاعر من المستنقَذ الحفصي بأن يخرج إليهم براً وبحرا ؛ ليفزعهم ويدخلَ الذعر في قلوبهم ؛ لأن ملة الشرك تهاب دوما من أصحاب الحق ، فيقول في همزيته السابقة :[1]

خُوضُوا إليها بحْرَها يُصْبِحْ لكُمْ رَهْواً وجُوبُوا (نحوَها) بيدَاءَها

موظفا لفظة " رَهْوًا " التي وردت في القرآن الكريم في مناسبة خطاب الله لنبيه موسى ـ أيضا ـ الذي طلب إليه هذه المرّة بأن يسري بعباده (بني إسرائيل) ليلا ، ويخبرهم بأن فرعون وقومه يتبعونهم ، كما يطلب إليه ـ بعد عناية الله له وقومه ـ أن يترك البحرَ بعد قطعه هو وأصحابه (رَهْوًا) أي طريقا أو ساكنا على حاله، وأراد ردّ البحر إلى هيئته التي كان عليها قبل انفلاقه.[2] قال تعالى: ﴿ **وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًاۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾** ﴾ .[**الدخان : 24**] .

فالشاعر كان يتمنى أن تكون نهاية النصارى كنهاية فرعون وجنوده ، الذين هلكوا بالغرق وفي مناسبة بيعة " سبتة " لأبي زكريا ، و بعض المدن الأندلسية سنة 640 .هـ وبهذا سمّى هذا العام " بعام الجماعة " ، يقول الشاعر ، مخاطبا الحفصيَّ [البسيط]:[3]

لاَ تُعْجِبِ الخائنَ المَغْرُورُ كَثْرَتُهُ فَطَالَمَا هَزَمَ الآلافَ آحَادُ

مغترفا من معين آية من آيات القرآن الكريم .

و إن كان المعنى الخاص بكل نص مختلفا ؛ لأن المقصود في البيت الشعري شخصُ أبي زكريا بعدم الإعجاب والاغترار من كثرة الأعداء ؛لأنه كَمْ من فئة قليلة غلبت أخرى كبيرة بإذن الله. وهو يشير في ذلك ـ لما لا يدَع مجالا للشك ـ إلى قول الله تعالى : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾** ﴾ . [الأنفال: 65] .

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق 1 ، ص36 .

(2) ينظر : جلال الدين محمدبن أحمد المحلي وجلال الدين السيوطي ، تفسير الجلالين ، ص657 .

(3) ابن الأبار ، الديوان ، ق 62 ، ص 141 .

فإن في الآية خطابا موجها إلى شخص النبي ﷺ " **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ** " طالبا منه دعوة أصحابه إلى القتال دون خوف ، ولا هلع من العدد الكثير لأعدائهم ؛ لأن الغلبة ستكون لهم إذا صبروا وثبتوا في الميدان .

أما المعنى العام ، الذي يشترك فيه النصّان ، فيكمن في عدم الاعتداد بكثرة المنافس . ولم يكن الشاعر ليهتدي إلى مثل هذا المعنى لو لم يتشبع من قيم وأفكار كتاب الله ـ عز وجلّ ـ الذي عرف منه أن الثقة في الله تمدّ المؤمن بالقوة وتكسبه اليقين بالنصر الموعود ؛ لأنه من قومٍ يفقهون . أما الآخرون فقد عمِيَتْ أبصارهم ، وصُمَّت آذانهم ؛ فقدوا الثقة في الله لمّا ظنوا أنهم بعددهم المتضاعف يغلبون المؤمنين ؛ كونهم قوماً لا يفقهون .

و في مدح أبي زكريا ، و وصف إعانته للأندلس ضد النصارى ، التي بلغت مداها يصور الشاعر الأثر الكبير الذي خلّفه كرُّ الأمير عليهم ، كأنما رمَى بهم في **سجّين** ـ اسم لجهنم ـ من شدة ما أوقع بهم من خسائر ودمار، مسَّ كيانهم كقوة عظمى مشبها إياهم بأولئك الفجار وأعمالهم من الشياطين والكفرة ، الذين سيكون مآلهم نار جهنم وما أدراكَ ما جهنَّمُ !..

فالمقصود ـ إذا ـ واحد ؛ وهم الكَفَرَة الفَجَرَةُ ، ومصيرهم " سجين " ، الذي يستحقونه هو نفسه في النصين ، فأنشد ابن الأبار قائلا [المديد]:(1)

مُـذْ رَمَتْهُم قدْ رَمَتْ بهم وسْطَ سِجِّينٍ بِسجيل

مستندا إلى قوله تعالى:﴿ **كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾** ﴾ . [**المطففين** : 7 ـ 8] .

وأما لفظة " **سِجِّيلٍ** " فقد استفادها الشاعر أيضا من القرآن الكريم ﴿ **تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾** ﴾ **الفيل: ٤**

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق 107 ، ص 234 .

وقد وردت هذه الكلمة في ثلاثة مواضع [1] ؛ للدلالة على القوة التي لا تُرد ؛ فقوة أبي زكريا في الحرب ورميُه أعداءَه بالأسلحة أشبه برمي الله - عزّ وجلّ - لأبرهة الحبشي بحجارة من سجيل .

وإذا كان عمل الكفار في الأمم التي خلت هو ذاته عملهم في الأندلس كما أخبرالقرآن الكريم ، فإن الشاعر لم يجد فرقا بينهم في غابر الأزمان وحاضرها ، إلا أن ابن الأبار بصدد الحديث عن ممدوحه المفضل (أبي زكريا) وبيان انتصاراته المستمرة ؛ لأنه - حسبَه - مُؤيَّد من السماوات العلى لأنه حامل لواء الدفاع عن دين الله الذي ارتضى لعباده :

مَلِكٌ مُدَّ لهُ النصرُ بِمَنْ في السمواتِ العُلَى مِنْ مَدَدِ

إلى أن يقول [الرمل] :(2)

ليسَ لِلأَشْـقَيْنَ منهُ عاصِمٌ ولو احْتَـلُّوا مَحَلَّ الأسعَدِ

ليؤكد للأعداء النصارى أنه لا خلاص ولا منقذ لهم من يد الأمير المسْلم ومن بطشه ولو صعدوا إلى **الأسعد** - وهو كوكب - ، كما لا يكون لابن نوح - عليه السلام - ملجأ من الغرق إلا مَنْ خصَّه الله برحمته . وسيكون مصير الأعداء ، كما كان مصير ابْنِ النبيِّ لأنه بكفره صار ليس ابنه ، وجاء بعملٍ غيرِ صالح ؛ لمّا اختار الكفر والضلال على الإيمان فكان من المغرَقين . قال تعالى : **﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾** . [هود : 43] .

وفي إطار تأييد الشاعر لسياسة الدولة الحفصية ، والدعوة إلى الانضواء تحتها ، نجد ابن الأبار لايدخر في إعلان ولائه لهم جهدًا ، والسير في ركابهم . كيف لا وهو المتنعم في خيراتهم والأثير في مجالسهم من بين الوافدين والبلديين .

فعند احتلال أبي زكريا لتلمسان ، وفرار يغمراسن ، وكان ذلك سنة 640 هـ نظَم الشاعر قصيدة بهذه المناسبة ، واصفا نصرَ الأميرِ العظيمَ ، محرضا إياه باحتلال مدينة **"سلا"** - وهي من

---

[1] - وردت في : سورة هود : 82 ، والحجر : 74 .

(2) نفسه ، ق 65 ، ص 151 .

المدن القليلة التي بقيت تحت حكم الخليفة الموحدي بمراكش ـ وكذلك " **مراكش**" ليكون ذلك إنذارا خطيرا وبُشْرَى ـ لا بالخير ـ بل بالحرب يُزَفُّ إلى "**زناتة**" .

هو تبشير يفيد السخرية ؛ لأن الحرب في انتظارهم ، وهزيمتهم مضمونة ، كما بُشِّر الكافرون بعذاب أليم إذا تولَّوا عن توبتهم . فالبشارة التي طُلب تبليغها إلى (زناتة والكافرين) تَحقَّق فيها عنصرُ السخرية والاستهزاء بعاقبة كل منهما ، وخسرانهما .

قال الشاعر : [البسيط]:(1)

بَشِّرْ زِنَاتَـةَ بِالهَيْجَاءِ مُسْفِرَةً   عنْ كُلِّ ذي قَدْرٍ لاَ حَولَ يَدْرَؤُهُ

مستوحيًا من قول الله تعالى في تبشير الكافرين بالعذاب الأليم : ﴿ **وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٣** ﴾ [التوبة : 3] .

وبمناسبة تقليد أبي زكريا ابنَه أبا يحي إمارةَ بجاية ، وكان ذلك سنة 638 هـ . وفي هذه المناسبة وفدت على الأمير وفودٌ ، من بينها بنو هلال ، تهنّئ القادم الجديد .فأنشأ ابن الأبار قصيدة في ذلك ، يقول فيها [الكامل]:(2)

يا ابنَ الإمام المرتَضَى هُنِّئْتَهَا   شيماً ورثتَ ضروبَها وضرائبَها

....

فانْهَضْ لِتدْبيرِ الأمُورِ مَصاحِبًا   لا زالَ أمرُكَ لِلظُّهُورِ مُصَاحِبا

واطْـــلع بِأُفْقِ الناصريَّةِ باهِـرًا   يَأْفُلُ أمــامَكَ كُلُّ بَاغٍ هـــاربا

وكان الشاعر يرى في أبي يحي صورة لأبيه أبي زكريا ، حزما وعزما وقدما إلى الانتصارات التي **يأفلُ** ويغيبُ أمامها كلُّ باغ وطاغٍ ، موظفا في ذلك لفظ (**أفَلَ**) بمعنى " **غاب** " الذي ورد في "سورة الأنعام" لَمّا أرىَ اللهُ إبراهيمَ الخليل ملكوتَ السماوات والأرض ليستدل به على

(1) السابق ، ق 2 ، ص 44 .

(2) نفسه ، ق 20 ، ص 71 .

وحدانية الله ـ سبحانه وتعالى ـ وليوقِنَ بها ، فلمّا أظلم الليلُ رأى كوكبا ـ قيل هو الزهرة ـ قال لقومه ، وكانوا نجّامين :﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ﴿٧٦﴾ ﴾ [**الأنعام** : 76] .

ومن الألفاظ القرآنية التي أحسن الشاعر توظيفها لتقوية المعنى المقصود ، نجد لفظتي " **خاسئا وحسير** " . وكلتاهما وردت في آية واحدة من" سورة المُلك " لبيان من الله ـ جلَّت قدرتُه ـ على إحكام خلْقه للسماوات السبع الطباق ، الذي لا تفاوتَ فيه ولا خلل وحتى لو أعدنا النظر مرة بعد مرة ، سيرجع إلينا بصرنا ذليلا لعدم إدراكه أي خلل فيما رأى، وهو منقطع عن رؤية أي من هذا الخلل .[1] قال تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ [**المُلْك** :4] .

أما الشاعر فقد استعمل اللفظة الأولى " **خاسئا** " في قوله [الطويل] :[2]

نصيبِي مِن الآداب حِرْفَتُهَا التي شقيتُ بِهَا جاراً لِمَنْ باتَ يُسْعَدُ
ولِلْحَظِّ لَحْظ كَلَّ دُونِي خاسِئًا كَأَنِّي وإيَّاهُ شُعَاعٌ أرْمَدُ

ليبكيَ حظَّه التعس ، الذي يُلْجِؤهُ كل مرة إلى الاستشفاع بالناس لإقالة عثراته والصفح عنه ، على الرغم من الإخلاص الذي يتقرب به إليهم ، إلا أنه يُلاقَى بالجفوة والإبعاد فكأن لهذا الحظِّ عيونا كلَّت بالنظر إليه وتعبت ؛لأنها لا ترى شعاع الشاعر المستنير ، فكأنما أصابها الرمد ، تعبيرا عن سوء الحظ ، الذي يلاحقه أينما حلَّ .

واستعمل الثانية " **حسير** " في قوله [الكامل] :[3]

وتُمَدُّ نُورَ الشمسِ منهُ غُرَّةٌ يَرْتَدُّ عنها الطَّرْفُ وهُوِ حَسِيرُ

---

(1) ينظر : جلال الدين محمدبن أحمد المحلي وجلال الدين السيوطي ، تفسير الجلالين ، ص748 .
(2) ابن الأبار ، الديوان ، ق 72 ، ص 172 .
(3) نفسه ، ق 92 ، ص 204.

يمدح فيه أبا زكريا ، وكان ذلك بمناسبة عيد الفطر ، ويذكر أفضاله التي عمَّت الجميع بتقواه وشرف أصله ، محفوفا بالتوقير والتبجيل ، خالعا عليه صفاتِ الطهارة والاستنارة التي استمدّها

من نور الشمس ، فإذا نظرت إلى غرّته النيّرة خابَ وانقطع عن رؤية أي خلل أو نقص فيها .

كما استعان الشاعر ابن الأبار بلفظة موصوفة " **عِجْل حَنِيذ** " . وردت في القرآن الكريم مطابقة للمعنى الذي أراد ، فقال الشاعر [الطويل]:(1)

وعُجِّلَ عِجْلٌ سُنَّةً فارضُ القِرَى   حَنِيذٌ (2)وَعَدْنَاهُ فَمَا اسْتأْخَرَ الوعْدُ

وقال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾** ﴾ [هود : 69] .

فالمناسبة فيهما تكاد تكون واحدة ؛ كون البيت أنشِئَ في ضيافة مأدبةٍ فاخرة دُعِي إليها الشاعر مع مَنْ دعِيَ في رياض أبي فهر البديعة . وقُدِّم إلى الحضور عجلٌ مشويٌّ ، كانوا له منتظِرين وهذه من محاسن وكرم أبي زكريا المعهود لضيوفه .

وهذا الوصف يتناسب مع مناسبة الآية لَمَّا بعَثَ اللهُ رسلَه إلى إبراهيم مبشرينه بإسحاق ويعقوب بعده ، فلم يتأخر بإكرام مبشّريه بعجل مشوي ، ناضج .

فكان العجلُ الحنيذ أعظم هدية تقدّم للضيف وللمبشّر .

وقال الشاعر في وصف لحظة وداع، بعد أن رحل الركبُ العراقيُّ سحرة وفيه حبيبُه الذي أودع لديه قلبَه ، طالبا من الراحلين ترك فرصة توديعه ، أو ردّه إليه ؛ لأنه لم يتمتع به إلا قليلا ولم يتقلب في نعماء حبِّه إلا يسيرا ، شاكيا حرقة الوداع وعذاب الشوق والغرام الذي لم ينعم به إلا لحظات [الطويل] :(3)

---

(1) السابق ، ق 64 ، ص 150 .

(2) **عِجْل حنيذ** : عجل مشوي . (ينظر :ابن منظور ، اللسان ، 3/ 336) .

(3) ابن الأبار ، الديوان ، ق11 ، ص58 .

هَتَفْتُ بكُم : قلبي لديْكُم فَعَرِّجُوا   أُوَدِّعْهُ إذَا خَبَّ المَطِيُّ بكُم وبِي
وإلاَّ فَــــــرُدُّوهُ عَلَـيَّ فـإنَّـه   مَــتاعٌ قليلٌ بعدَ قلبِي تقلُّبِي [1]

شأنه في ذلك شأن الكافرين ـ في الآية ـ الذين تمتعوا في الدنيا بمتاع فانٍ زائلٍ بتصرفهم في البلاد بالكسب والتجارة ، وهم آيلون في الأخير إلى جهنم ؛مأواهم وبئسَ الفراشُ الذي عبَّر عنه تعالى بقوله : ﴿ **لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾** ﴾ [آل عمران 196 ـ 197] .

فالمتعة في النصين كليهما لم تدم طويلا ، والحسرة أصابت المتحسريْن (الشاعر المؤمن العاشق والكافر) .

ولم يكن الشاعر ليهنأ وبينه وبين حبيبه العُذَّالُ ، الذين استطاعوا أن يقنعوا فتاته بالابتعاد عنه وهجره في الوقت ، الذي لم يكن العاشق الولهان ينتظر منها مثل هذا التصرف ، بخاصة وأنه كان لها مخلصا ولحبها وفيا ، وهي كانت تقابله بالصّدّ والظلم ، قال الشاعر [الوافر] :[2]

هَجَرْتُـمْ ثُمَّ أزْمعْـتُمْ فِراقا   فليسَ إلى وِصالِكُم وُصول
ولمْ يَكُ في حِسَابِي أَنْ تَجُوروا   كَمَا جُرْتُمْ عليَّ وأَنْ تَمِيلُوا
لقدْ هوِيتُمْ ظُـلْمِي فموتِي   بكُم حتْماًوعيشِي مُسْتحيل

ولقد أشار الشاعر إلى لفظة قرآنية ، وردت في سورة النساء ، وفي مجال تعدد الزوجات الذي يصعّب على الرجل العدل بينهن ولو حرصَ على ذلك ، وأمرت الآية بأن لا يميل المرء كل الميل فيترك التي يحبها في القسم والنفقة والمال عنها (كالمعلّقة) التي لا هي أيمٌ ولا هي ذاتُ بعل .[3]

قال تعالى : ﴿ **وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾** ﴾ . [النساء : 129]

---

(1) تقَلُّبي : مبتدأ مؤخر ، و متَاعٌ : خبر مقدّم .
(2) ابن الأبار ، الديوان ، ق 103 ، ص 226 .
(3) ينظر : جلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين السيوطي ، تفسير الجلالين ، ص130 .

فالظلم الحاصل على الشاعر كان سببَه فَتاتُه ،التي يهواها، بعد أن أثّر فيها اللّوّام . بينما الميل الذي حذّر منه الله تعالى كان بسبب تعدد الزوجات ، فيشق الأمر على الرجل إزاء هذا الوضع الصعب ، الذي كان الزوج سببَه ، حينما تزوج بأكثرَ من واحدة .

أما الشاعر فكان يشكو من ميل فتاته عنه ،وابتعادها عن حبه بفعل العذال الذين أقنعوها بتركه. كما أنشأ ابن الأبار قائلا [الوافر]:[1]

وإعدادٌ لِغزوِ الشّركِ تَزْكُو بِـنيّـتِه المَثُوبةُ والجـزاءُ

جَوَارٍ مُنْشَآتٌ في تَـبَارٍ إلى الفوزِ العظيمِ بِما تشاءُ

موظفا لفظتين وردتا في "سورة الرحمن "،وهما (**جَوارٍ منشآت**) اللتين جاءتا في القرآن الكريم .

قال تعالى : ﴿ **يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ** ﴿٢٢﴾ ﴾ [الرحمن : 22] .

ووصف الشاعر في سينيته المشهورة ممدوحه ، الذي وفد عليه مستصرخا ، مستنجدا بصفات جليلة ، علَّه يحرك فيه عطفَ جناح لإنقاذ الأندلس [البسيط] :[2]

كأنّما يمتطِي واليُمْنُ يصْحَبُهُ مِن البحارِ طريقًا نحْوَهُ يَبَسَا

مستفيدا من معنى الآية الكريمة ،التي يقول فيها تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ** ﴿٧٧﴾ ﴾ [طه : 77].

فالشاعر قد جعل من ممدوحه ، الذي يخطب ودَّه ، ونجدته كأنه ، واليمنُ يصحبه يشق عباب البحر ، فينفلق اليم أمامه ، كما حصل للنبي موسى ـ عليه السلام ـ حينما طارده فرعون فأمره الله بأن يضرب بعصاه البحر ، ويجعل طريقا له ولِمَنْ معه يابساً . وأيْبَسَ اللهُ الأرض فمروا فيها ، دون خوف من فرعون ، ولا خشية من الغرق .[3]

و يصف ممدوحه أيضا في مناسبة أخرى بأنه في العلم بحرٌ ، لا حدود له ، وبين يديه اللؤلؤ

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق 3 ، ص 49 .

(2) نفسه ، ق 185 ، ص 399 .

(3) ينظر : جلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين السيوطي ، تفسير الجلالين ، ص419 .

والمرجان ، دليلا على نفاسة ما يملك من علم غزير ومعرفة واسعة، مستعملا لفظتين وردتا في" سورة الرحمن " . فقال الشاعر [البسيط]:[1]

يَا بحْرَ عِلْمٍ وجُودٍ لا كِفَاءَ له　　مَرْجانُهُ مِلْءُ أيدِينَا ولُؤْلُؤُهُ

وقال تعالى : ﴿ **يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾** ﴾ . [**الرحمن : 20**] .

و بمناسبة بيعة (سبتة) وبعض مدن الأندلس لأبي زكريا سنة 640 هـ ،وسمّاه" بعام الجماعة " حيث اجتمع حوله خلق كثير مؤيدون ومساندون ، قال الشاعر يصف قوّته وحسن تدبيره ونجاحه في إخماد نيران الحروب المتأججة [البسيط]: [2]

أطْفَأْتَ ما أَوْقَدُوا نقْضًا لِمَا اعْتَقَدُوا　　لقد تبايَنَ إطْفاءٌ وإيقَادُ

مستفيدا من معنى ورد في آية من آيات القرآن :

﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾** ﴾ . [المائدة : 66] .

وفيها تمثيل شُبِّه به حالُ التهيؤ للحرب والاستعداد لها ،بحال مَنْ يوقِد النار لحاجة بها فتنطفئ، وكانت نيرانهم من أجل الفساد والإفساد . فكذلك كان المعنى الذي يشير إليه ابن الأبار ؛ أي أن هناك أعداء ، همهم إثارة الفتن والقلاقل ، وزرع الرعب والفرقة بين الناس إلا أن الأمير كان بالمرصاد لكل هؤلاء ؛ يبطل خططهم وعهودهم ، و يطفئ نيران حروبهم التي يوقدونها بين الحين والحين ،فهيهات ما بين الإطفاء والإيقاد .

و تبعاً للإعجاب بسياسة أبي زكريا ، التي أرضخت له بلدانا أندلسية ومغربية عديدة مؤيّدا في ذلك من المولى العلي القدير ؛ لأنه ـ حسب الشاعر ـ هو الشخص والحاكم الذي دانت له الرقاب طوعا وكرها . قال الشاعر [الطويل]:[3]

---

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق 2 ، ص 44 .

(2) نفسه ، ق 62 ، ص139 .

(3) نفسه ، ق162 ، ص345 .

قَضَى صَادِقُ الآثَارِ في أمْرِكَ الأرْضَى بِأنْ تَملِكَ الدُّنيا وأَنْ تَرِثَ الأرْضَا

وهو ينظر في ذلك إلى الآية الكريمة ، التي بيّن فيها الله تعالى أن الأرض (الجنة) سيرثها عباده الصالحون، الذين رضي عنهم [1] ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الأنبياء : 105] .

وهناك آيات أخرى في هذا المعنى . [2]

وأنشأ الشاعر في مدح أبي زكريا الحفصي ، وكان في هذه المرة مبالغا فيما يقول ـ وكنا قد أشرنا إلى نماذج من هذه المبالغات ، التي تسجل عليه عفا الله عنه ـ وكانت هذه المرة بمناسبة مبايعة مدن الأندلس والمغرب لممدوحه . وكان ذلك سنة 641هـ

إذ جعل مَن يتبعُ إمامته ، ويسيرُ وفقَ سياسته، التي اختار كمَنْ استمسك بالعروة الوثقى مستفيدا في ذلك من الآية التي نزلت فيمَنْ كان له من الأنصار أولادٌ أراد أن يُكْرِههم على الإسلام ، وجعل الذي يكفر بالشيطان ويؤمن بالله كأنما يتمسك بالعروة الوثقى(العقد المحكم) بينه وبين خالقه، التي لا انفصام لها .

فأراد ابن الأبار بحكم معاشرته للممدوح وتقلبه في نعمائه ،مثله مثل الموفورين حظا من حاشية السلطان ، أن يرفعه إلى الدرجات العلى والناجي من كل المعاطب [الطويل]: [3]

إمَامَتُهُ أَلْوَتْ بِكُلِّ إمَامَةٍ وبِالصُّبْحِ وَضَّاحًا جلاءُ الغَيَاهِبِ
هيَ العُرْوَةُ الوُثْقَى ومَنْ يَعْتَصِمْ بِها فِليسَ يُبَالي نَاجيًا بِالمَعَاطِبِ

وقال تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ [البقرة : 256] .

---

(1) ينظر : جلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين السيوطي ، تفسير الجلالين ، ص438 .

(2) ينظر: في هذا المعنى آيات أخرى ؛ منها :﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [الأعراف : 128].

(3) ابن الأبار ن الديوان ، ق 25 ، ص 82 .

وإيمانا من الشاعر بقدرة الحفصيين ، ومِنْ بينهم يحي المرتضى ، على إخضاع العجم والعرْب (الأعراب الذين كانوا خلال قرون مصدر قلاقل واضطرابات وتمردات في المغرب الكبير. وقد لقي الموحدون ثم الحفصيون في مقاومتهم عنتا كبيرا) ،غدا الممدوح مصدر الحياة لكل الناس بخاصة لَمَّا أبان الآخرون عن صدق نياتهم وجنوحهم إلى السلم ، ولم يلفوا عند المرتضى إلا خفض الجناح والمسالمة تشبيها له بأهل الكتاب ،المذكورين في سورة الأنفال قال تعالى:

﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾ [الأنفال :61] .

وخُصَّ في آية منها " بنوقريضة " . وقد طلب الله ـ سبحانه وتعالى ـ من نبيه أن يجنح للسّلم ويعاهدهم في حال جنوحهم ، ويتوكّل على الله .[1] قال الشاعر [المديد] :[2]

إنَّمـا يحـــيَ حَيـاةُ البَـرَايا   وكَفَـــاهـا مِنْ حَـيًا مُسْتَمَاح

أَسْلَفَتْ صِدْقَ جُنوحٍ فأَلْفَتْ   مع رفْعِ الخوفِ خَفْضَ الجَناح

ولم يكن إعجاب ابن الأبار بالحفصيين ودفاعهم عنه ، مجرد كلام عادٍ ، وإنما كان يحاول أن يكون ناطقَهم الرسمي ، بخاصة لَمَّا أوكلت إليه حَالَ قُدومه مَهمةُ الكتابة السلطانية ، لو لم يتسرّع ويرتكب خطأه الأول الذي كلّفه الإبعاد مباشرة من هذه المسؤولية .

كما كان طوال مكوثه بينهم الأثيرَ والمفضل من دون كثيرين بفضل علمه وثقافته وتجربته في الدواوين السياسية ، بالإضافة إلى الفترة التي قضاها بينهم ، والتي كانت كافية في أن يَخْبِرهم (من الخبرة) ويتعرّف على أسرارهم ، ويعرف مكانتهم بين باقي البلدان ، وسطوتهم وإحكام سلطتهم في تسيير الأمور الداخلية والخارجية ، وأخلاقهم الرفيعة، التي بفضلها احتلوا هذه المكانة المرموقة ؛ ومنها الصبر في المعارك والتصابر من قبل شهداء وقعة " أنيشة " التي استشهد فيها شيخُه الفقيه أبو الربيع بن سالم الكلاعي ، وفيها أبلى المسلمون بلاء حسنا وبذلوا في سبيل النصر

---

(1) ينظر : جلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين السيوطي ، تفسير الجلالين ، ص244 .

(2) ابن الأبار ، الديوان ، ق 50 ، ص121 .

أو الشهادة نفوسهم الغالية ففازوا بالدار الأخرى . فقال الشاعر [المتقارب] :[1]

تَوَاصَوْا بِصَبْرِهِم في الجِلاَدِ   و أَوْدَوْا بِخَصْمِهِم في الجِدَالِ

وقال أيضا [الطويل]:[2]

لَقَدْ صَبَرُوا فيهَا كِرَامًا و صَابَرُوا   فَلاَ غَرْوَ أَنْ فَازُوا بِصَفْوِ المَكَارِمِ

وقد استقى الشاعر هذه المعاني من آيات الله تعالى الكثيرة ، نذكر منها قوله :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾.[العصر : 3] .

وقوله :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ . [آل عمران : 200] .

ومن الآيات القرآنية ، التي اقتبسها الشاعر ؛ ليعطي لمدلولاته قوة أكثر ، وتأكيدا أعمق يطالعنا في الشطر الأول من البيت الثاني من بيتيْه التاليين عن توظيفه الآية التي خصَّ به الله ـ سبحانه وتعالى ـ فئة المنافقين والمنافقات الذين قالوا للمؤمنين لَمَّا رأوا نُورهم يسعى بين أيديهم :

﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ ﴾ . [الحديد : 13] . ؛ أي أبصرونا ـ بضمّ الظاء ـ أو: أمهلونا ـ بكسرها ـ نأخذ القبس والإضاءة (من نوركم).

فقال الشاعر:[الرمل]:[3]

يا شُمُوسَ اليومِ كَمْ نَرْعَى بكُم   أَنْجُمَ اللَّيْلِ إذاَ اللَّيْلُ سَـجَـا

(1) السابق ، ق 105 ، ص 229 .

(2) نفسه ، ق 124 ، ص 277 .

(3) نفسه ، ق43 ، ص108 .

« أُنْظُرونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكم »   وادْرَؤُوا عنَّا شَجًى قد وَشَجَا[1]

فهو يطلب من المحبوب أن يمتِّعه بنظرة منه ، تدفع عنه الحزن والتشتت .

فهذا الاستيحاء يندرج ضمن المبالغات الشعرية، التي تنسب إلى ابن الأبار ؛ لأنه شابه نور المؤمنين الأتقياء الأطهار بنور الحبيب ،الذي يشكوه همَّه وحزنه وعذابه في حبه .

وقد نظم الشاعر مستلهما في بيته قوله تعالى في خطابه لمريم البتول : ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴾ [مريم : 25] .

والطلب موجه إلى مريم لَمَّا جاءها المخاض تحت النخلة ، وكانت بأمسّ الحاجة إلى طعام تتقوت به وشراب تروي عطشها ، فتقرّ عينها و تعود إلى الحياة .

وتشبّعُ الشاعر بالمعاني القرآنية ، جعله يشبّه تساقط الرطب على نائل المدح بتساقطه على مريم العذراء لَمَّا أمرها الله ـ سبحانه وتعالى ـ ولهذا الصنيع دلالة نفسية ، تعبر عن مدى الفرحة والبهجة التي تغمر نائل عطايا الأمير الحفصي ، فقال [البسيط] :[2]

مَا هَزَّهُ المدْحُ إلاَّ انْثَال نائلُهُ   كالجِّذْعِ ساقطَ لَمَّا حُرِّكَ الرُّطَبَ

وبمناسبة بيعة المرية ، التي كانت سنة 643 هـ أنشأ الشاعر يمدح المرتضى قال الشاعر [الطويل] :[3]

أطَلَّ على الدُّنْيا هُدَاهُ وقد غدَتْ   وراحَتْ شيَاطينُ الغوَايَةِ نُزَّدغَا
فأَتْبَعَـهَا شُهْـباً ثَواقبَ لِلْقَـنَى   تُحرِّقُـهـــا حتّى فشَا وتَفَشَّغَا[4]

---

(1) وقد سبق الشاعرَ عبدُ الرحمن بنُ مقانا الأشبوني ، الذي مدح إدريس بنَ حمود بنونيته المشهورة :

أَلِـبرْقٍ لائحٍ مِن أندرين   ذرفَتْ عيناك بالماءِ المعين .

وختمها بقوله : انْظرونا نقتبسْ من نوركم   إنه مِن نـور ربِّ العالمين . (ينظر: نفح الطيب،1/ 214).

* **وشَج** : اشتبك . (ينظر :ابن منظور ، اللسان ، 15/ 295) .

(2) ابن الأبا ر ، الديوان أ ق 23 ، ص76 .

(3) نفسه ، ق 172 ، ص 369 .

(4) **تفشّغ** : انتشر . (ينظر :ابن منظور ، اللسان ، 10/ 254) .

مستوحيا من قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ ﴾ **[الصافات : 10]** .

فهذه الآية ، أوردها ابن الأبار لإضفاء الجمال اللغوي ،الذي يزخر به القرآن الكريم على شعره ومدّ لغته بطاقات تعبيرية قوية ، تنقل مشاعره وتقنع المتلقي بأن هدى ممدوحه (يحي المرتضى) طرد بالقوة الشياطين المردة ، وأبطل غواياتهم . ولم يكتفِ بهذا فحسبُ وإنما أتبعهم بشهبٍ تحرقهم حرقا ، وتنثر أشلاءهم وتبدّدها.

كما أنشد الشاعر في مدح أبي زكريا ، مشيرا إلى بيعة بعض مدن المغرب والأندلس ومصورا قوتَه ، التي أرضخت كل الناس وفتوحاتِه ، التي بهرت الجميع ، حتى صارت آية في كل عصر و أمارة في كل مصر. فكم من جريء ، وكم من ساع إلى إيقاد نار الفتنة قاده أجله إلى الموت في حروب السلطان ، وكم من جبال تحولت ركاما مستوية مع الأرض [الوافر]:[1]

فَلَكَـمْ مُخِشٍّ أو مِحَشٍّ قـــادَهُ قَهْراً إليكَ حِمَامُهُ مَخْشُـــوشا[2]

وَلَكَـــمْ جِبَالٌ في مَجَالٍ صُيِّرَتْ كالعِهْنِ تَسْفِيهِ الصَّبَا مَنْفوشا

وقد استعار الشاعر هذه الصفة من القرآن الكريم لَمَّا صوَّر أهوال يوم القيامة (القارعة) التي تقرع القلوب بأهوالها ، يوم يكون الناس في هذا اليوم ((**كغوغاء الجراد المنتشر ، يموج بعضهم في بعض للحيرة إلى أن يُدعَوْا إلى يوم الحساب**)) [3].

﴿ **يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾** ﴾ ؛ أي ((**كالصوف المندوف في خفة سيرها حتى تستوي مع الأرض**)) [4].

قال تعالى: ﴿ **يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾** ﴾ . **[القارعة : 4]** .

---

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق 189 ، ص 403 .

(2) **المِخشّ** : ماض جريء على هوى الليل(ينظر :ابن منظور ، اللسان ، 4/ 93) . * **المحشّ** : موقد نار الفتنة والحرب . (ينظر :ابن منظور ، اللسان 13/ 32). * **المخشوش** : الذي وُضعت الخشاشة ؛ أي العود في عظم أنفه ..أي منقاداً . (ينظر :ابن منظور ، اللسان ، 4/ 94) .

(3) جلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين السيوطي ، تفسير الجلالين ، ص 808 .

(4) نفسه ، ص 809 .

وكان الشاعر في هذا التصوير المستعار مبالغا ـ كما مرَّ بنا سلفا ـ لأنه جعل من فتوحات أبي زكريا ، والحروب التي خاضها جيشه ، وحال الهلع التي عمت الجميع شبيهةً بأحوال الناس يوم الحساب حيرة ودهشة وذهولا .

ولعل السبب في مثل هذه المبالغات يعود إلى شدة ارتباطه بالحفصيين ، ومحاولته بقدر المستطاع الحفاظ على علاقته المتماسكة بهم ، وإرضائهم ؛ لأنه لا مفر له إلا إليهم .

ولَمَّا تقلبت به الأيام ، وهو بتونس مَلْجئِه وموطنِه الثاني بعد الأندلس (بلنسية) وأظهرت له أن الإنسان مهما خبَرَ هذه الحياة ، فهو متسرع في الأمور، مستعجل لها ، مسارع وراء الآمال المكذوبة والأطماع البعيدة المنال ، غيرَ واعٍ بما هو مقدمٌ عليه ، لهذه التصرفات نجد الشاعر متحسرا عليه ، حين يقول مُظهِرًا زهدَه و ورعه [البسيط] :[1]

يا حَسْرَتِي خُلِقَ الإنسانُ مِنْ عَجَلٍ فغَازَلَ الأمَلَ المَكْذُوبَ والطَّمَعَا

وهو في الحقيقة يقصد نفسه ، ويلومها عما بدرت منها في مناسبات كثيرة بدءا من لحظة تكليفه بالكتابة السلطانية ، إلى أن لقي حتفه على يد مَنْ أمدوه بالعون والمساعدة .

فقارئ هذه الأبيات يتحسس مدى مصارحة الشاعر نفسَه وعتابه لها ، ومكاشفتها بينه وبين نفسه . فكأنما يستعجل تعذيب نفسه حينما يتطلع إلى مالا يمكن الوصول إليه ، كما يستعجل الكفار العذاب **خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ** ((**أي أنه لكثرة عجله في أحواله كأنه خُلق منه**)).[2]

وقال تعالى : ﴿ **خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾** ﴾ [الأنبياء: 37] .

وفي باب الزهد وبيان عبادة النسَّاك ، المتقربين بها إلى الله ، الذين يبيتون ركَّعاً سُجَّدا يسبّحون بحمد ربهم و يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ، يقول الشاعر [الوافر]:[3]

تجافَتْ عن مَضَاجِعِها جُنوبُ تُدَافِعُ بالإنابَةِ ما يَنُوبُ

---

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق 169 ، ص364 .

(2) جلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين السيوطي ، تفسير الجلالين ، ص 430 .

(3) ابن الأبار ، الديوان ، ق 1 ، ص 437 .

آخذا هذا المعنى من سورة السجدة ، التي وصف الله في بعض آياتها صفاتِ المؤمنين الذين ترتفع جنوبهم عن مضاجعهم لصلاتهم بالليل والناسُ نيام تهجدا ، داعين ربهم خوفا من عقابه وطامعين في رحمته، ومنفقين مما رزقهم الله ، قال تعالى :﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ . [السجدة : 16].

ولا نستبعد حال الشاعر من تذوقه هذه الحالة الإيمانية ، التي كثيرا ما يفر إليها المرء (المؤمن) حينما تَسْوَدُّ أمامه الأيام ، وتُسَدُّ في وجهه الطرق ، وبخاصة هذا الشاعر العالم ، الطَّموح الذي ظن أنه بعلمه وثقافته يُحَلُّ أينما ذهب أعلى الرتب .

فلا غرو أن يعود إلى الله ، الذي لا يبخس المرءَ حقَّه ،ولا يظلم أحدا ،فيتقرب منه بالصلوات،والعبادات ، والقيام ليلا ، والبكاء بين يديه خوفا وطمعا .

وهناك من المعاني القرآنية ،التي استفاد منها ابن الأبار ، والتي تندرج ضمن ثقافته الدينية التي أهّلته بأن يتسلح بالإيمان بالله ، وبقضائه ؛ خيرِه وشرِّه .

وليس غريبا أن يصدر منه مثل هذا الكلام ، وهو الحافظ لكتاب الله ، وفي صدره أكثر من خمسة آلاف حديث شريف ، إلى جانب الخبرة بالحياة ؛ حلوِها ومرِّها . فهو على يقين من أن القدر لا يخطئ ولا يظلم وعلى الإنسان أن يرضى بما جرى ، ولا يسخط عليه فمن ذلك ما قاله [الطويل]:(1)

أَمَا إِنَّهُ قدْ خُـطَّ في اللَّوحِ ما خُطـَّا فلا تعْتَقِدْ لِلدَّهرِ جَوْرًا ولا قِسْـطَا
ولاَ تُسْخِطِ المَقْدُورَ وارْضَ بِمَا جَرَى عليكَ بِهِ إِنَّ الرِّضَى يَفْضُلُ السُّخْطَا

متكئا فيما يذهب إليه على كتاب الله ، الذي لا يأتيه الباطل بين يديه ،قال تعالى :

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [التوبة : 51] .

---

(1) السابق ، ق 20 ، ص 449 .

وفيما يلي من الاقتباسات ، نتناول المعاني الشعرية ، التي استوحاها ابن الأبار من القرآن الكريم ، مستفيدا من ألفاظه ، مع تحويلها (قلب معناها الأصلي) من سياقها الأصلي إلى سياقات خاصة بالشاعر .

ومن تلك الأشعار ، ما قاله في همزيته ، التي قدمها ابن الأبار إلى أبي زكريا الحفصي سنة 635.هـ بعد ضياع بلنسية ، مستنهضا فيها الأمير [الكامل]:(1)

أولُوا الجزيرَةَ نُصْرةً إنَّ العِـدَى   تَبْغِي على أقطَارِهَا اسْتِيلاءَهَا

نُقِصَتْ بِأَهْلِ الشِّرْكِ مِنْ أطْرَافِها   فَاسْتَحْفِظُوا بِالمُؤمنينَ بَقَـاءَهَا

ففي البيت الثاني يطلب الشاعر المستغيث من الأمير المستغاث بأن يسارع إلى إنقاذ الأندلس التي حرص أهل الشرك على احتلالها شبرا شبرا ، حتى أنقصوا من مساحتها ، بعد الاستيلاء عليها مدينة تلو المدينة . ولا الحفاظ عليها إلا بالحفاظ على أهلها المؤمنين .

ونحن نجد هذا المعنى في قوله تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ ﴾ . [**الرعد** :41] .

ولكن المعنى غيرُ الذي عبّر عنه الشاعر ، وإن كان قد وظف ألفاظ الآية ؛ ذلك أن في النص القرآني خطاباً لأهل مكة ، بأرضهم ، التي تَنْقُصُ بالفتح على النبي ﷺ .

ففي البيت الشعري : فإنّ الأرض يُنقِص من أطرافها المشركون بالاستيلاء عليها ، بينما في الآية تنقص أرض مكةَ بالفتوح المباركة . فأداة التعبير واحدة ، ولكن السياق مختلف والنتيجة كذلك .

أما في قوله [الكامل]:(2)

واشْدُدْ بِجَلْبِكَ جُرْدَ خيلِكَ أَزْرَهَا   تَرْدُدْ على أعْقَابِها أَرْزَاءَهَا

---

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق 1 ، ص 36 .

(2) نفسه ، ق 1 ، ص33 .

فمناسبة البيت كسابقتها ، وفيه تحريض للمستغَاث به (أبي زكريا) ليُعدَّ خيوله ويتأهب لقتال الأعداء ، ويردهم خاسرين ، ويسترد الأندلس . و كأنه نظرَ إلى قول الله تعالى : ﴿ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ ﴾ . [الإسراء :64]

فالمخاطَب هو الشيطان الرجيم ؛ بمعنى : استخِفَّ مَنْ تقدر عليه من البشر بدعائك بالغناء والمزامير وكلَّ داعٍ إلى المعصية ، وصِحْ بالركّاب والمشاة في المعاصي ، وشاركهم في الأموال المحرّمة ، التي تأتي بطريق الربا والغصْب ، وفي الأولاد من الزنا ، وعِدْهُم بأن لا بعْثَ ولا جزاءَ وما كان وعدُ الشيطان إلا غرورا .[1]

فشتّان ما بين المخاطَبَيْن (أبي زكريا المسلم والشيطان الرجيم) ! بل شتان مابين الغرضين ففي الأول طلب إعداد العدة لقتال العدو الغشيم ، بينما في الثاني تحَدٍّ باستفزاز المستطاع عليهم وستكون النتيجة المتوقَّعَة مختلفة ؛ لأن المرجوّ من الأمير رَدُّ العدوان ، بينما الشيطان لا غَلبةَ له على عباد الله :﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا ﴿٦٥﴾ ﴾[الإسراء:]٦٥. ولو أن المشركين والشيطان كليهما عدوٌّ للمسلمين والمؤمنين .

وقد كان الشاعر كثير الشكوى من ألم الفراق ، وظلم الحبيب ، الذي فضّل أن يعذب مَنْ يحب غيرَ مُبالٍ بما يصيبه من أذى وحزن شديد . ولو اطلعت عليه وعرفت حقيقة أمره في هواه لأصابك من الهم ما أصابه . فالشاعر قد أثبت في بيتيه سوء حاله من وجع الهوى متأكدا من تأثر الآخرين إذا عرفوا ما أصابه ، فقال الشاعر [البسيط]:[2]

لوْ تَرَانَا بِالهَوى نشْكُو الجَوَى والمطايَا تحْتَنَا تشْكُو الوَجَا[3]

ذَهَبَتْ نفْسُكَ واللهِ عــلى ما لقينَا حَسَراتٍ وشَجى

---

(1) ينظر : جلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين السيوطي ، تفسير الجلالين ، ص 379 .

(2) ابن الأبار ، الديوان ، ق43 ، ص109 .

(3) **الوَجا** : ترِقُّ القدم وتتقشّر من شدة المشي . (ينظر :ابن منظور ، اللسان ، 15/ 220) .

وقد استعار من القرآن الكريم في مناسبة خص بها الله ـ سبحانه وتعالى ـ أبا جهل وغيره (فلا تذهب نفسك عليهم حسراتٍ) ؛ أي للمزيَّن لهم ، باغتمامك أن لا يؤمنوا ؛ لأن الله تعالى عليمٌ بصنيعهم ، وسيجازيهم عليه .[1]

فإن كانت الألفاظ المستعارة من الآية واحدة ، إلا أن توظيفها لم يكن كذلك ؛ لأن في كلام الله نهياً على عدم الاكترات لصنيع الكفار ، الذين ظنوا أنهم ما يفعلونه من شر وإثم حسناً وهو في الحقيقة غير ذلك ، فلا حسرة عليهم ؛ لأن الخالق يعلم ما يفعلون وسيلقون جزاءهم المستحق . قال تعالى: ﴿ **أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٨** ﴾. [**فاطر 8**] .

لقد كان استيحاء الشاعر ابن الأبار لألفاظ القرآن الكريم ولمعاني آياته المختلفة استيحاءً فاعلا و واعيا ؛ يكشف عن أفكاره ورُؤاهُ من جهة ، ويبرز ثقافته الدينية بعامة والقرآنية بخاصة من جهة أخرى ؛ لينقل المتلقي بذلك من جو الواقع المعيش المأزوم ، إلى آخر مع الأجواء الدينية العميقة ، من خلال توظيفه لهذه الآيات ، واستعانته بهذه الألفاظ المقدّسة في شعره ؛ لِتُسْهم كلُّها في إغناء تجربة الشاعر الشعرية ،التي تكتسب أبعادا جديدة وتصوراتٍ عميقةً .

(1) ينظر : جلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين السيوطي ، تفسير الجلالين ، ص575 .

ب ـ الاقتباس من الحديث النبوي الشريف

لم يكن القرآن هو المَعين المقدس الوحيد ، الذي اغترف منه الشاعر ، وإنما كان إلى جانبه الحديث النبوي الشريف ، الذي استوحى منه ابن الأبار استيحاءً واعيًا ، نابعا من اهتمامه الكبير به .

فقد كان ابن الأبار يحفظ ـ كما أُخْبِرَ عنه ـ أكثر من خمسة آلاف حديث شريف .

فقد قال ابن الطواح في " سبك المقال " رواية عن شيخه الفقيه أبي الحسن بن الحاج ـ رحمه الله ـ قال: ((**إنه رآه في المنام بعد أن أُحرق بالنار ، وصدره لمْ تَعْدُ عليه النارُ البتّةَ ،قال: فقلتُ له : أرَى النَّارَ لمْ تَعْدُ على صدرِكَ . فقال لي: صَدرٌ فيه مِنَ الأحاديثِ خَمسةُ آلافٍ . كيفَ تَعْدُو عليه النارُ؟! ثم قال لي : وعندَ اللهِ تجتمعُ الخصومُ!))** .[1]

ولقد كان ابن الأبار أكثر اهتماما بالحديث النبوي الشريف ، وأغزر تأليفا فيه ؛ فمن مؤلفاته في ذلك :

- **الأربعون حديثا** عن أربعين شيخا من أربعين مصنفا لأربعين عالما من أربعين طريقا إلى أربعين تابعا عن أربعين صاحبا بأربعين اسما من أربعين قبيلا في أربعين باباً.
- **الاستدراك على أبي محمد القرطبي** بما أغفله من طرق روايات الموطإ
- **شرح البخاري** (غير تام) ؛ لأن الجلاّدين عاجلوه قبل إتمامه له .
- **المأخذ الصالح في حديث معاوية بن صالح** .
- **المورد السلسل في حديث الرحمة المسلسل**، وهو المعروف بالحديث المسلسل.
- **هداية المعتسف في المؤتلف والمختلف**
- **الشفا في تمييز الثقات من الضعفا** .

ولقد مسّ هذا الاقتباس من الحديث الشريف نصَّه وألفاظه ، بما يتناسب وتجربة الشاعر ومن

---

(1) ابن الطواح ، عبد الواحد محمد ، سبك المقال لفك العقال ، تح : محمد مسعود حبران ، دار الغرب الإسلامي ، دط ، 1995 ، ص186 .

ذلك ما قاله متشوقا لمجالس العلم والعلماء ببلنسية [الطويل]:[1]

هُمُ القومُ لا يشْقَى جَليسُهُمْ بِهِم وحَسْبِيَ أَنْ يَغْشَى مَجالسَهُم قَلبِي

وليس غريبا أن نعرف مثل هذه المعاني من رجُلٍ تربّى منذ صغره في حلَق الذكر ومنتديات العلم ، وما ملازمته لشيخه الربيع الكلاعي مدة عشرين سنة لدليل على حب الشاعر للعلم وأهله . ويكفي ابنَ الأبار أن يكون حاضرا بقلبه في مجالس هؤلاء العلماء،ما لم يكن حاضرا ببدنه، مستندا إلى حديث النبي ﷺ في باب فضل مجالس الذكر.

((حدّثنا محمد بن حاتم بن ميمون ، حدّثنا بَهْزٌ ، حدّثنا وُهيْبٌ ، حدّثنا سُهَيْلٌ ، عن أبيهِ.عن أبي هُريرة ، عن النبيّ ـ صلى الله عليه وسلّم ـ ، قالَ : ((إنَّ للهِ تبارك وتعالى ملائكةً سَيَّارةً ، فُضُلاً يَتتَبَّعون مجالسَ الذكر ، فإذا وجَدُوا مجلِسًا فيه ذكْرٌ قعدُوا معهم وحفَّ بعضُهم بعضًا بِأجنحتهم حتّى يملأوا ما بينَهم وبينَ السّماء الدنيا ،فإذا تفرّقوا عرَجُوا وصعدوا إلى السّماء ، قالَ فيسْألُهم اللهُ عزّ وجلَّ ، وهو أعلمُ بهِم :مِنْ أينَ جِئتُم؟ فيقولون :جئنا مِن عندِ عبادٍ لكَ في الأرضِ يُسبِّحونكَ ويُكبِّرونَكَ ويُهلِّلُونكَ ويَحْمدونَك ويسألونكَ جنَّتَكَ ،قالَ :وهلْ رَأَوْا جنّتِي ؟قالوا:لا أيْ ربِّ ! قالَ:فكيفَ لوْرأَوْا جنتي ؟ قالوا : ويسْتَجِيرونكَ .قالَ: ومِمَّ يسْتَجِيرونَني ؟ قالوا: مِنْ نارِكَ ياربَّ! قالَ : وهلْ رأَوْا نارِي؟ قالوا:لا ، قالَ : فكيفَ لوْ رأوا ناري ؟ قالوا : ويسْتَغْفِرُونكَ .قالَ فيقولُ: قدْ غفَرْتُ لهم ، فأعيطيْتُهم ما سألوا وأجِرْتُهُم مِمَّا اسْتجَاروا، قالَ فيقولون: رَبِّ فيهم فُلانٌ عَبْدٌ خطَّاءٌ إنَّما مرَّ فجَلَسَ معَهُمْ ، قالَ فيقولُ : هُمُ القومُ لا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ)).[2]

والشاعر في هذا البيت يشبّه مَنْ في مجالس العلم ،التي كان يغشاها مع أبيه أول الأمر ، ومع شيخه الكلاعي بعد موت أبيه بعد ذلك بأولئك الذين يقضون بياض نهارهم وسواد ليلهم يذكرون الله ، ويسبحونه ويكبّرونه ، ويهللونه ويحمدونه ، فتحفهم الملائكة حتى تملأ ما بين السماء والأرض ، تسجل أعمالهم وتبارك صنيعهم وتشهد عند الله بذلك ، فيُجَارون عما يستجيرون

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق 33 ، ص91 .

(2) مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ، أبو الحسين ، صحيح مسلم ، اعتنى به : أبو صُهيب الكرمي بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع ، دط ،1998 ، ص 1080 .

ويُعطَوْن ما يَسْألون ، وينال من هذا الخيرِ كلُّ مَنْ يجالسهم .

وقال الشاعر مادحا أبا زكريا عند التجائه إلى تونس أوائل سنة 637 هـ بعد أن رحل إليه عبر البحر ، واصفا السفينة ،التي أقلّتهم ،وأهلَه الذين اصطحبهم معه إلى تونس لأول مرة وكانت بناته معه ، اللاَّئي اضطرهن وضعُ بلنسية ،الذي صار بيد النصارى إلى النزوح لدى الحفصيين ، مشبها إياهن بالقوارير [الطويل]:[1]

قَوَارِيرُ لمْ يَرْبَأْ بها البحرُ سابِقًا   و لاَ ذَادَ عنها البَرُّ حمْلَ الفَوادِحِ

معتمدا في ذلك على حديث الرسول ﷺ الذي ورد في باب رحمة النبيّ ﷺ لِلنّساء وأمْرالسّوّاقِ بالرفق بهنّ .

((حدَّثَنَا أبو الربيع العَتَكيُّ وحامدُ ابنُ عُمرَ وقُتيبةُ ابنُ سَعيد ةأبو كاملٍ ، جميعاً عنْ حَمَّاد ابنِ زيدٍ.

قال أبو الربيع : حدَّثَنَا حمّادٌ ، حدّثنا أيّوبُ ، عن أبي قِلابةَ .

عن أنَسٍ ، قالَ :كان رسولُ اللهِ ـ صلى اللهُ عليه وسلّم ـ في بَعْضِ أسْفارِهِ ، وغُلامٌ أسْودُ يُقالُ لهُ: أَنْجَشَةُ ، يَحْدُو فقالَ لهُ رسولُ اللهِ ـ صلى الله عليه وسلّم ـ :

((يا أَنْجَشَةُ ! رُوَيْدَكَ ، سَوْقًا بِالقَوَارِيرِ)) .[2]

وقد وظف الشاعر لفظة **"قوارير"** لِما يجب أن يُعتنَى بهن ، بخاصة وأنهن يسافرن بحرا لأول مرة ، ويعانين من هذا السفر ، الذي لم يتعودن عليه .

فرجوع الشاعر ابن الأبار إلى نص الحديث الشريف ، إنما ليضْمن لبيته القوةَ والدلالة الحقيقية التي كانت عليها بناته ، وإلى جانب ذلك بيان طبيعة المرأة كمخلوق ضعيف مستضعف خلقةً وكامرأة تترك مسقط رأسها ، الذي لم تعرف بديلا عنه منذ وُلدت ، لتُركَبَ في السفينة وتقطع بها البحار إلى موطنٍ غيرِ موطنها ، وإلى أهلٍ غير أهلها . فهل هناك ضعف وهوان أكثر مما آل إليه مصيرهنَّ ؟ ..!

---

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق 51 ، ص 125 .

(2) مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ، صحيح مسلم ، ص949 .

وأنشأ الشاعر يمدح أبا زكريا الحفصي ، مبتدئا بأبيات في النسيب [الكامل]:[1]

هَلاَّ أَبَحْتِ مِن الرِّضَى ممنوعه   إنَّ الحِسَانَ مَظَنَّةُ الإحسَانِ

مستفيدا من الحديث الشريف : ((أخبرنا القاضي أبو القاسم ، نا أبو علي ، نا عبد الله ذكر هارون بن سفيان ، نا حجاج بن نصير ،نا محمد بن عبد الرحمن بن المجبر ، عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ: ((**اطلبوا الحوائجَ عند حِسان الوجوه**)) .[2]

فالشاعر كان يحاول أن يقنع محبوبته بشتى الطرق،وبمختلف الوسائل ؛لكي يصل إلى مرغوبه معبرا في كل ذلك عن حرمان وصدّ كبيرين من طرفها ، ولا أدلّ على ذلك من البيت الأول الذي قال فيه :

بالله قولي يا ابنةَ الأقيالِ مــا   هذا العِقابُ وما أنا بِالجانِي

وقال الشاعر بمناسبة ولاية العهد لمحمد ، وكان ذلك أواخر سنة 646 هـ أين كان الشاعر ببجاية [الطويل]:[3]

وشَـيَّـــــدَ بِالتَّأيـيدِ أركان أمرِهِ   فلــمْ تُبْـقِ لِلأعداءِ صَولتُهُ رُكْنا

غَزَتْهُم جُيوشُ الرُّعبِ قبلَ جيوشِهِ   فإنْ أُخِذُوا هَونًا فقَدْ وُقِذُوا[4] وهْنا

ناظرا إلى الحديث الشريف ، الذي ورد **عن جابر ابن عبد الله الأنصاري ، قال : قال رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلّم ـ** : ((**أُعْطيتُ خَمْسًا لمْ يُعْطَهُنَّ أحَدٌ قَبْلِي ، كانَ كُلُّ نبيٍّ يُبْعَثُ إلى قومِه خاصّةً وبُعِثْتُ إلى كُلِّ أحمَرَ وأسْودَ ،وأُحِلَّتْ لِي الغَنائمُ ، ولمْ تُحَلَّ لأحدٍ قبْلِي ، وجُعِلَتْ لِيَ الأرضُ طَيِّبَةً طَهُورًا ومسْجِدًا ، فأيُّما رَجُلٍ أَدْرَكَتْهُ الصَّلاةُ صَلَّى حَيثُ كانَ ، ونُصِرْتُ بِالرُّعْبِ بينَ يديْ مَسيرةَ**

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق 137 ، ص 294 .

(2) ابن أبي الدنيا ، مجموعة رسائل ابن أبي الدنيا ، كتاب قضاء الحوائج ، دراسة وتحقيق : محمد عبد القادر أحمد عطا ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت، لبنان ، ط1 ، 1993 ، ص 50 .

(3) ابن الأبار ، الديوان ، ق 139 ، ص 296 .

(4) **وُقِذُوا** : صُرِعُوا وقُتِلُوا . وفي اللسان : وقذ :الوقْذ :شدة الضرب.وشاة موقوذة : قتلت بالخشب.(ينظر: ابن منظور ، اللسان ، 15/ 352) .

شَهْرٍ ،وأُعْطِيتُ الشَّفاعَةَ))[1] .

ونجد استعمال الشاعر لمعنى الحديث النبوي الشريف ؛ ليدلل على تأييد الله سبحانه وتعالى للمؤمنين ؛ أصحابِ الحق الذين ينصرهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بأن يبعث في قلوب الذين كفروا الرعب ، فتخور قواهم ويضعفوا ، وينهزموا أمام الذين آمنوا واعتصموا بحبل الله . فإذا كان الرسول ﷺ قد أُعطيَ خمساً ،لم يُعْطَهُنَّ أحدٌ سواه ، وكان نصره بالرعب مسيرةَ شهر من بينها فإن السلطان أبا زكريا ، قد جعله الشاعر هو الآخر الرجُلَ المؤيد من قِبلِ الله تعالى ؛ لأنه حامل لواء الدين ، الذائد عن الإسلام والمسلمين . وما استعمال الشاعر لمثل هذه المعاني إلا من باب التأثير في الممدوح وحمله على القيام لنجدة إخوانه المسلمين في الأندلس .

وقال الشاعر يمدح الحفصيين ، ويعزّي أحدهم في ابنته [البسيط]:[2]

دَعْ ما يريبُ إلى ما ليسَ بالرِّيبِ فَذَا يُبَـوِّئُكَ العَلْيا مِنَ الرُّتَـبِ
واعْمِدْ إلى سَبَلِ الخيراتِ منتهجًا لها لِتسْـعَدَ في حـالٍ ومنقلِبِ

متخذا من حديث له ﷺ الذي جاء في باب تفسير المُشَبّهات .((**وقالَ حَسّانُ بْنُ أبي سِنَان : ما رأيْتُ شَيْئًا أَهْونَ مِنَ الوَرَعِ ، دَعْ مَا يَرِيبُكَ إلى مَا لاَ يَرِيبُكَ))** .[3]

---

(1) مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ، صحيح مسلم ، ، ص 211 . والترمذي (حديث رقم: 2518) ص567) ابن حنبل ، أحمد بن حنبل الشيباني المسند، ت: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ، ط1 2008م (حديث رقم: 1746) . وابن أبي شيبة ابن أبي شيبة (أبو بكر بن أبي شيبة الكوفي المصنف في الأحاديث والآثارالإشراف الفني والمراجعة والتصحيح : مكتب الدراسات والبحوث في دار الفكر، بيروت ، لبنان، (1/ 149).

(2) ابن الأبار ، الديوان ، ق 21 ، ص 72 .

(3) البخاري ،أبو عبد الله محمد بن إسماعيل ، صحيح البخاري ، اعتنى به:حسان عبد المنّان ، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع ، الأردن ، دط ، طبعة جديدة ، 1998 ، ص 228 . (وقوله: "**دَعْ** " أي اترك " **مَا يَرِيبُكَ** " أي ما يَلحقكَ به رَيْبٌ وشَكٌّ وقلقٌ إِلَ" **مَا لاَ يَرِيبُكَ** "؛ أي إلى شيئ لا يلحقك به رَيْبٌ ولا قلقٌ.)

وهذا الحديث من جوامع الكلم ، وما أجوده وأنفعه للعبد إذا سار عليه، فالعبد يرد عليه شكوك في أشياء كثيرة ، فنقول: دع الشك إلى ما لاشكّ فيه حتى تستريح وتسلم فكل شيء يلحقك به شكّ وقلق وريب ، اتركه إلى أمر لا يلحقك به ريب ، وهذا مالم يصل إلى حد الوسواس ، فإن وصل إلى حد الوسواس فلا تلتفت له. وهذا يكون في العبادات ويكون في المعاملات ، ويكون في النكاح ، ويكون في أبواب العلم .

والشاعر ـ وهو في مقام المُعزِّي والمواسي لأحد الأمراء الحفصيين في ابنته ـ يتجه إليه بأن يطرد كل الشكوك والظنون بسبب مصابه ؛ لأنه من الورع أن يكون المرء صابرا على المصائب محتسبا أمره إلى الله ، ولا سيما مع الصدمة الأولى .

وقال الشاعر يمدح أبا زكريا ووليّ عهده ، ولعلّه أبويحي في طالع سنة جديدة ، حوالي عام 640 هـ أو 641 .هـ ، مقدما للقصيدة بمقدمة طويلة [الطويل]: [1]

ويُزْوَى لهُ شرقُ البلادِ وغربُها لِيبلُغَ منها مُلْكَهُ كُلَّ ما يُزْوَى

جاعلا بيد السلطان الممدوح شرقَ الأرض وغربها ، وفي هذا إشارة إلى مبايعات المسلمين من كل الأصقاع ، وإبداء طاعتها وولائها للسلطان الحفصي ، فكأنما جُمعتْ له الدنيا.

وهذه واحدة من المبالغات ، التي وجدناها متكررة في أشعار ابن الأبار ، قصد كسب ودّ مَنْ بيده الأمرُ والنهي في البلاط الحفصي .

والملاحظ على هذا البيت أنه قد احتوى بشطريْه عبارةً ، وردت في الحديث الشريف ((..**إنَّ اللهَ زَوَى لِي الأرضَ ، فرأيتُ مَشَارقَها ومغَاربَها ، وإنَّ أُمَّتِي سيبلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي منها**)) من مجموع ما قاله ﷺ من كلام ورَدَ في باب هلاك هذه الأمة بعضها ببعض :((**عن ثَوبان ، قالَ: قال رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ((إنَّ اللهَ زَوَى[2] لِي الأرضَ ، فرأيْتُ مَشَارقَها ومغَاربَها وإنَّ أُمَّتِي سيبلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لي منها ،وأُعْطيتُ الكَنْزَيْن الأحمرَ والأبيضَ ، وإنِّي سَألْتُ رَبِّي لأُمَتِي أَنْ**

---

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق 201 ، ص 423 .

(2) زَوَى : جمَعَ . (ينظر :ابن منظور ، اللسان ، 6/ 109) .

لا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عامَّةٍ ، وأنْ لا يُسَلِّطَ عليهِم عدوًّا مِنْ سِوَى أنْفُسِهم ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهم،وإنَّ رَبِّي قالَ : يا مُحَمّدُ ! إنِّي إذَا قَضَيْتُ قَضاءً فإنَّهُ لا يُرَدُّ ، وإنِّي أعْطَيْتُكَ لأُمَّتِكَ أنْ لا أَهْلِكَهُم بِسَنَةٍ عامّةٍ وأنْ لا أُسَلِّطَ عليهِم عدوًّا مِنْ سِوى أنفسِهم ، يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُم ، ولو اجْتَمعَ عليهِم مَنْ بِأقطارِها ـ أو قالَ مَنْ بَيْنَ أقطارِها ـ حتَّى يَكُونَ بَعْضُهُم يُهْلِكُ بَعْضًا ويَسْبِي بَعضُهُم بَعْضًا)) .[1]

وقال الشاعر [الطويل]:[2]

بَدَوْتُ ولكنْ ما جَفَوْتُ وربّما تجافى عن الآداب مَنْ سكَن البدْوا

فالشاعر ، وإن كان يُقرُّ ببداوته ، إلا أنه ينفي عن نفسه الجفاء وغلظة الطباع ،وتغير أخلاقه. وإن كان هذا المعنى قد استفاده الشاعر من الحديث الشريف ،الذي يقول بجفاء ساكن البادية لِما للبيئة من أثرها على طباعه وأخلاقه ، **يقول الرسول** ﷺ [3] :

((مَنْ سَكَنَ الْبَادِيَةَ جَفَا ، وَمَنْ أَتَى السُّلْطَانَ افْتُتِنَ ، وَمَنِ اتَّبَعَ الصَّيْدَ غَفُلَ)) [4].

إلا أن الشاعر يبدي بقاءه على طبعه وشيمه ، ولن تغير الباديةُ من ذلك شيئا .

و في قصيدة في الزهد ، التي نظَمها بتونس حوالي سنة645 هـ يتوجه الشاعر بنصائح تحمل عِظاتٍ كبيرةً ، ناتجة عن تجربة في الحياة ، متقلبة بين الرضى والسخط ، وبين الأمل والألم وبين النجاح تارة والإخفاق طورا ، مشيرا في بيته إلى قرآن الله الكريم ، الذي لا تنقضي عجائبه كُلّما

---

(1) مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ، صحيح مسلم ، ص 1158 .

(2) ابن الأبار ، الديوان، ق 201 ، ص 417 .

(3) حديث صحيح، رواه أبو داود (باب في اتباع الصيد، حديث رقم: 2859، ص435). والترمذي في سننه (حديث رقم: 2256، ص511). والنسائي (أحمد بن شعيب النسائي، سنن النسائي، ت: ناصر الدين الألباني مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، باب اتباع الصيد، حديث رقم: 4309 ص663). وأحمد بن حنبل الشيباني، المسند، (حديث رقم: 3421). والبيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي السنن الكبرى ، دار الفكر، بيروت، لبنان، ،10/ 101 .

(4) **جَفَا** : أَيْ غَلُظَ طَبْعُهُ لِقِلَّةِ مُخَالَطَة الْعُلَمَاء ولايَعْتادُ تَحَمُّلَ الأذى مِنْ النَّاس فَيَتَغَيَّرُ خُلُقه بِأَدْنَى أَمْر(ينظر :ابن منظور ، اللسان ، 2/ 290) . **أُفْتُتِنَ** : أَيْ أَصَابَتْهُ فِتْنَة . (ينظر :ابن منظور ، اللسان ، 10/ 171) **غَفُلَ** " بِضَمِّ الْفَاء ؛ أَيْ يَسْتَوْلِي عَلَيْهِ حُبُّهُ حَتَّى يَصِير غَافِلاً عَنْ غَيْره . (ينظر :ابن منظور ، اللسان ، 10/ 90) .

تُليتْ آياته ، ولا يصيب المرءَ جدبٌ ما دام يقرأه دوما ، ويتلو آياته آناء الليل وأطراف النهار قال الشاعر [البسيط]:[1]

لا تنْقَضِي كُلَّما تُتْلَى عجائبُه وليسَ يُمْحِلُ [2]مَنْ في رَوْضِهِ رَتَعَا

مستفيدا من الحديث الشريف ، الذي رواه الترمذي في : باب ما جاء في فضل القرآن ،قال:

((حَدَّثَنَا عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ حَدَّثَنَا حُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ الْجُعْفِيُّ قَال سَمِعْتُ حَمْزَةَ الزَّيَّاتَ عَنْ أَبِي الْمُخْتَارِ الطَّائِيِّ عَنْ ابْنِ أَخِي الْحَارِثِ الْأَعْوَرِ عَنْ الْحَارِثِ قَالَ: **مَرَرْتُ فِي الْمَسْجِدِ فَإِذَا النَّاسُ يَخُوضُونَ فِي الْأَحَادِيثِ فَدَخَلْتُ عَلَى عَلِيٍّ فَقُلْتُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَلَا تَرَى أَنَّ النَّاسَ قَدْ خَاضُوا فِي الْأَحَادِيثِ قَالَ وَقَدْ فَعَلُوهَا قُلْتُ نَعَمْ قَالَ أَمَا إِنِّي قَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ أَلَا إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ فَقُلْتُ مَا الْمَخْرَجُ مِنْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ نَبَأُ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ وَهُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ وَمَنْ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ وَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ وَلَا يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الْجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّى قَالُوا: { إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ }. مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هَدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ خُذْهَا إِلَيْكَ يَا أَعْوَرُ.))** .[3]

وقال الشاعر أيضا [الطويل]:[4]

سَرى هادِمُ اللّذّات يُفسِدُ كونَه فسَيَّرَهُ طَوْداً وهَدَّمَهُ رُكنا

---

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق 169 ، ص 363 .

(2) **يُمحل** : يجدب . (ينظر :ابن منظور ، اللسان ، 13/ 36) .

(3) الترمذي ، محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي، ، (حديث رقم: 2906) ، ت: ناصر الدين الألباني مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية، ص649). ورواه ابن أبي شيبة (أبو بكر بن أبي شيبة الكوفي، المصنف في الأحاديث والآثار، الإشراف الفني والمراجعة والتصحيح : مكتب الدراسات والبحوث في دار الفكر، دار الفكر، بيروت، لبنان، الجزء 7، ص164) .

(4) ابن الأبار ، الديوان ، ق 156 ، ص 315 .

وقد عاد الشاعر في هذا البيت إلى الحديث النبوي الشريف ، الوارد في باب ما جاء في ذكر الموت من كتاب الزهد : ((حدّثنا محمود بنُ غَيلان ، قال : حدّثَنَا الفضلُ بنُ موسى ، عن محمد بنِ عَمرو، عن أبي سَلَمَةَ ، عن أبي هُرَيرةَ ،قالَ :قالَ رسولُ اللهِ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ :((**أَكْثِرُوا هَاذِمَ اللَّذَّاتِ**)) يَعني الموتَ .وفي الباب عن أبي سعيد .هذا حديثٌ حسَن [صحيح] غريبٌ.))[1]

وصفوةالقول : إن الاقتباس ، الذي وصفه الشاعر ابن الأبار من القرآن الكريم تارة ومن الحديث الشريف نارة أخرى ، إنما يدل على ثقافته الدينية ، وتمسكه بركيزتين أساسيتين لو حافظ عليهما لن يضل ، ولن يشقى أبدا . ولم يكن تكوينه على يدي معلمه الأول ؛ أبيه ومعلمه الثاني شيخه الربيع الكلاعي ، الذي لازمه قرابة عقدين من الزمن ، وآخرين من شيوخ بلنسية الكبار لينسيه الرجوع أبدا إلى هذا المعين الثّر (القرآن والحديث الشريف) ليعطي نصوصه الشعرية مصداقية أكبر ، وقوة أكثر ، فيقنع ويمتع في الآن ذاته .

---

(1) الترمذي ،سنن الترمذي ،حديث رقم 2307 ، ص522 . (ورواه ابن ماجة في سننه ، تحت رقم : 258.)

2 ـ التضمين من الشعر:

إن النص (أي نص) محكوم حتماً بالتداخل مع نصوص أخرى ، أو كما يقول محمد مفتاح: ((**فسيفساء من نصوص أخرى أدمجت فيه بتقنيات مختلفة**))(1).

وينتج عن نصوص أخرى. وهو حين يتداخل أو يتعالق مع نصوص أخرى فإن هـذا لا يعنـي الاعتماد عليها أو محاكاتها، بل إن التناص يتجسد من خلال المخالفة أو المعارضـة أو التنـافس مـع نصوص أخرى، وهذا يعني أن التناص يتجسد من خلال صراع النص مع نصـوص أخـرى. ولا يتداخل مع نصوص قديمة فقط ، بل قد يتم ذلك من خلال نـص يتضـمن مـا يجعلـه قـادراً عـلى التداخل أو التنافس مع نصوص آنية. وهو لا يأخذ من نصوص سـابقة بـل يأخـذ ويعطـي في آن واحد ، وبالتالي فإن النص الآتي قد يمنح النصوص القديمة تفسيراتٍ جديدةً ،ويُظهرها بحُلّة جديدة كانت خافية أو لم يكن من الممكن رؤيتها لولاهذه العملية التناصية(2).

ولم يكن ـ في الحقيقة ـ هذا الأمر بخافٍ على النقاد القُدامى ، وإنما كانوا يطلقون على هذا المصطلح أسماء أخرى متعددة ؛ " كالأخذ " ، الذي يقول فيه أبو هلال العسكري في معرض الحديث عنه وكيفياته ، والحسَن منه :

((ليس لأحدٍ من أصناف القائلين غنىً عن تناول المعاني مِمَّنْ تقدَّمهم والصبّ على قوالب مَنْ سبقهم ولكن عليهم إذا أخذوها أن يكسوها ألفاظا مِن عندهم ويبرزوها في معارض من تأليفهم ويوردوها في غير حليتها الأولى ويزيدوها في حسن تأليفها وجودة تركيبها وكمال حليتها ومعرضها فإذا فعلوا ذلك فهم أحق بها مِمَّنْ سبق إليها .)) (3).

---

(1) محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري – استراتيجية التناص –، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط2، 1986 ص 121.

(2) ينظر : عبد الله الغذامي ، الخطيئة والتكفير ، من البنيوية إلى التشريحية ، نظرية وتطبيق ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط6 ، 2006 ، ص 13 ، وما بعدها ، وص 288 ، وما بعدها .

(3) أبو هلال العسكري ، كتاب الصناعتين ، ص217 .

وفي هذا الصدد يذكر الناقد ذاته أن الأمر نفسه وقع فيه هو الآخر، لمّا نظَم شطرا في صفة النساء، وظن أنْ لا أحد سبقه إليه، ومضى حتى وجده بعينه في شعر أحد الشعراء البغداديين فتعجّب، وعزم حينئذ بأن لا يحكم منذ ذلك الوقت على المتأخر بالسرق من المتقدم حكما حتما.[1] وقد ورد عنه قوله: ((**وقد يقع للمتأخر معنىً سبقه إليه المتقدم من غير أن يلم به ولكن كما وقع للأول وقع للآخر** .)) .[2]

إلا أن النقاد، إذا كانوا قد قالوا بضرورة الأخذ، ولا مشاحة في الأمر، فقد أحاطوا ذلك الفعل بالحذر من العجلة، يقول ابن الأثير : ((**لكن لا ينبغي لك أن تعجلَ في سبْك اللفظ على المعنى المسروق فتنادي على نفسك بالسرقة فكثيرا ما رأينا مَنْ عَجِلَ في ذلك فعثَر وتعاطَى فيه البديهةَ فعَقَرَ.**)) .[3]

وكما حدّد صاحب الصناعتين ـ مرة أخرى ـ درجاتِ الأخذ، ووصفها بصفاتها المناسبة فقال: ((**وسمعتُ ما قيل أن مَنْ أخذ معنىً بِلفظه كان (له) سارقا . ومَن أخذه ببعض لفظه كان (له) سالِخاً . ومَنْ أخذه فكساهُ لفظا مِن عندِه أجودَ مِن لفظِه كان (هو) أُولَى به مِمَّنْ تقدَّمه .**)) .[4]

وقد ذهب ابن رشيق المذهب نفسه في أنواع السرقة.[5] إلا أن المصطلح عنده سمّاه بالسرقة وقال: ((**وهذا باب متسع جدا ، لا يقدر أحد من الشعراء أن يدَّعي السلامة منه وفيه أشياء غامضة ، إلا عن البصير الحاذق بالصناعة ، وأُخَرُ فاضحة لا تخفى على الجاهل المغفل**)) .[6]

ونحن ـ في هذه الصفحات ـ لا نتغيا البحث في حقيقة المصطلح وتتبع نشأته ومساره عند الغرب، ولدى العرب، وإنما سنحاول أن نقف مع الأبيات الشعرية الأبارية التي التقت بشكل

---

(1) ينظر : أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، ص217 ـ 218 .

(2) أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، ص217 .

(3) ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ص218 .

(4) أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، ص 218 .

(5) ابن رشيق، العمدة، 2/ 281 .

(6) نفسه، 2/ 280 .

أو بآخر مع أبيات الشعراء الآخرين ،بدءاً بالشعر الجاهلي ، وصولا إلى عصر الشاعر محاولين بيان طبيعة هذا التعالق النصّي ، الوارد في شعر الشاعر .

وفيما يلي سنحاول أن نتتبع أبيات الشاعر ابن الأبار الأندلسي لنكشف عن التعالق النصي الذي بينها وبين نصوص الشعر المختلفة ، مراعين في كل ذلك التسلسل الزمني للنصوص محل الالتقاء .

قال ابن الأبار [الطويل] :[1]

أَشِدْ بِالقوافي ذِكْرَ عَلْوةَ أو عَلْيا ودعْ لِلسَّوافي دارَ ميَّةَ بِالعلْيا

وعندما نتدبر هذا البيت ، نجد فيه معنى ، كان قد سبقه إليه الشاعر الجاهلي" النابغة الذبياني " في مطلع معلقته المشهورة ، التي مدح فيها النعمان بن المنذر ، مقدما اعتذاره مما بلغه عنه فيما وَشَى به " بنو قُرَيع" في أمر المتجرّدة ، فيقول في المطلع [البسيط][2] :

يادارَ مَيَّةَ بِالعلْياءِ فالسَّنَدِ أَقْوتْ وطالَ عليها سالفُ الأبَدِ[3]

ففي الوقت الذي نجد فيه النابغة ـ وهو الأسبق إلى هذا المعنى ـ يقف على أطلال محبوبته على عادة شعراء الجاهلية ، متوجعا منه ؛ لأنه كان معها ، مقيما بها في سرور وطمأنينة، ثم انقضى ذلك فجعل يخاطبها توجعا منها لمّا رأى من تغيّرها ، وتذكرا لِمَا عهده منها ، نجد ابن الأبار يدعو في بيته إلى الإقلاع عن هذا الوقوف ، مبينا عن موقفه منها . فالشاعر قد استوحى معنى مَنْ سبقه (النابغة) إلا أنه استحضره ليهدمه ويكسر قاعدته .

---

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق 203 ، ص429 .

(2) النابغة الذبياني ، ديوان النابغة الذبياني ، تحقيق :محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، مصر، ط2 د ت ، ص 14 .

(3) **أقْوتْ** :أي خلتْ من الناس وأقفرت . (ينظر :ابن منظور ، اللسان ، 11/ 334) .**العلياء** : مكان مرتفع من الأرض . (ينظر :ابن منظور ، اللسان ، 9/ 370) .و **السند** : سند الوادي في الجبل وهو ارتفاعه حيث يسند فيه . (ينظر :ابن منظور ، اللسان ، 6/ 363) . **سالف الأبد** : ماضي الدهر . (ينظر :ابن منظور اللسان ، 6/ 310) .

وفي مناسبة أخرى ، كانت مهاجاة بين ابن الأبار وبين على أبي الحسن علي بن شلبون المعافري البلنسي الذي هجاه وسخر من خلقته بقوله [الكامل]:[1]

لاَ تَعْجَبُوا لِمَضَرَّةٍ نالتْ جميـ   ـعَ الناسِ صادرةٍ عن الأبَّارِ

أَوليسَ فأراً خِلْقَةً وحقيقــةً   والفأْرُ مَجْبُولٌ على الإضرار

فردّ عليه الشاعر ابن الأبار ، مبديا تنزهَه عن مجاراته في الكلام ؛ لأنه ليس كفئا له متمثلا قول الشاعر النابغة الذبياني بكامله ، لمَّا دعاه" زُرعةُ بن عمرو بن خُوَيلد" إلى الغدر بِبنِي أسَد ونقْض حِلْفهم .. [الكامل]:[2]

قُلْ لابْنِ شَلْبُونَ مقالَ تَنَـزُّهٍ :   غيرِي يُجاريكَ الهجــاءَ فَجارِ

(إِنَّا اقْتسَمْنــَا خُطَّتَـيْنا بيـنَنا   فحَملْتُ بَرَّةً واحْتمَلْتَ فَجَار)[3]

ولما أبَى النابغة ذلك ، ولزم الوفاءَ والبرَّ ، وبلغه أن " زُرعة" يتوعّده ، قال الشاعر يهجوه:[4]

نُبِّئْتُ زُرْعَةَ والسَّفاهَةُ كَاسْمِها   يُهْدِي إِليَّ غرائبَ الأشْعَارِ

فَحَلَفْتُ يا زُرْعَ بْنَ عَمْرٍو إِنَّني   مِمَّا يَشُقُّ على العدوِّ ضِرارِي[5]

....

إِنَّا اقْتسَمْنَا خُطَّتَيْنا بيـنَنا   فحَملْتُ بَرَّةً واحْتمَلْتَ فَجَار

---

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق 13 ، ص 445 .

(2) نفسه ، ق 13 ،ص 445 .

(3) هذا البيت الثاني للنابغة الذبياني ، لذلك وُضع بين قوسين .وفيه مَثَلٌ ؛ أي كانت لي ولك خُطّتان فأخذتُ أنا البَرَّةَ ، وأخذتَ أنتَ الفاجرةَ.والخُطة :القصة والخصلة.(وقد أشرنا إليها في صفحات سابقة) .(ينظر: النابغة الذبياني ديوان النابغة الذبياني ، تح: محمد أبو الفضل ، ص 55 .) .

(4) النابغة الذبياني ، ديوان النابغة الذبياني ، ص 54 ـ 55 .

(5) **ضِراري** : الضرار؛ الدنو من الشيئ واللصوق به ؛ أي أن العدو يكره مجاورته له .وهذا فخر من الشاعر(ينظر :ابن منظور ، اللسان ، 8/ 42) .

والناظر إلى أبيات الشاعرين ، يجد أن الغرض واحدٌ ؛ وهو الهجاء ، إلا أن المناسبة في كلتيهما مختلفة ، مما استتبع اختلافا في موضوع الهجاء ؛ أي أن ابن الأبار كان في مقام الردَّ على ابن شلبون الذي تهكم منه ، وسخر من خلقته ، التي جعلها كخِلْقة الفأر ، المجبول على الإضرار دوما . بينما نلفي النابغة ـ وفي مقام الرد أيضا ـ على " زُرعة" الذي حاول إقناعه بخيانة مَن قطع معهم العهد والغدر بِبني أسَد ، فرفض ذلك والتزم الوفاء والبرّ. ففي بيت الجاهلي دعوة إلى الغدر ومقابلتها بالوفاء والبر ، مع لفت الانتباه ـ هنا ـ أنه جاراه بمثل ما سمع عنه ، وهجاه ، مفتخرا بنفسه أمام أعدائه . بينما نجد لدى الشاعر الأندلسي تنزهًا وترفعا عن مجاراة خصمه ، دون الرد بكلمة جارحة مثلما فعل البادئ (ابن شلبون) ، واكتفى ابن الأبار بإحالته على بيت النابغة كاملا غيرَ منقوص . وهذا تصرف حكيم ، يحمل بين ثناياه معنى آخر ، غيرَ معنى البيت المُستدعَى . فكان وقعُه على مَن يهجوهُ آلَمَ وأشد !..

وقال ابن الأبار من قصيدة مطولة ، مبتورة الأول [الطويل]:(1)

فَلِلَّهِ دَرُّ الطَّائي في قَولِه وقد أجَادَ وقَاسَ الجُودَ بِالصَّاعِ والمُدِّ

وإنِّي لَعبْدُ الضيفِ مادامَ ثاوياً وما بِي إلا تلك مِن شيمِ العبْدِ

وهذا البيت مأخوذ كاملا ـ وبين شولتين ـ من الشاعر حاتم الطائي ، يخاطب فيه امرأته " ماوية بنت عبد الله [الطويل] :(2)

أيا ابنةَ عبدِ الله وابنـــــةَ مالِكٍ ويا ابنةَ ذي البُردَيْن(3) والفرسِ الورد

---

(1) ـ ابن الأبار ، الديوان ، ق465 ، ص468 .

(2) حاتم الطائي ، ديوان حاتم الطائي ، دار صادر ، بيروت ، دط ، 1981 ، ص43 .) . (و محقق الديوان ينسب البيت إلى الشاعر المخضرم قيس بن عاصم، محيلا على كتاب: الأغاني : 14/ 72 . والكامل: للمبرد: 1/ 279 .أما نحن فقد وجدناه في ديوان حاتم الطائي المشار إليه أعلاه) .

(3) **ذو البرديْن** : هو عامر بن أُحَيْمر بن بهدلة ،ولقب بذلك يومَ اجتمعت وفود العرب عند المنذر بن ماء السماء ، وأخرج المنذر بُرديْن يبلو الوفود ، وقال: لِيقُمْ أعزُّ العرب قبيلةً فلْيأْخذْهما . فقام **عامر بنُ أُحيمر** فأخَذَهما ، وائْتَزَرَ بأحدهما وارْتَدَى بالآخر ، فقال له المنذر: أأنتَ أعزُّ العرب قبيلةً ؟ قال: العزُّ والعدد في
=

إذا ما صنَعْتِ الزَّادَ فالْتَمِسِي لهُ   أكيلاً فـــــــــإنِّي لسْتُ آكلَهُ وحدِي
أخًا طارِقًا أو جارَ بَيْتٍ فـإنَّني   أخافُ مَذمَّاتِ الأحاديثِ مِنْ بَعْدِي
وإنِّي لَعبْدُ الضيفِ مادامَ ثاوياً   وما فِيَّ إلا تلك مِن شيـــــــمِ العبْدِ

وقد أتى في مَعرِضِ خطابِ الشاعر الموجّهِ لامرأته " ماوية "بأن تَلْتَمِسَ له مَن يُشاركُه طعامَه. يريد بذلك أنّه يتكلّف من خدمة الضيف ما يتكلفه العبيد ، لا يستنكف ولا يأنف وليس له من أخلاق العبيد وطبائعهم إلاّ تلك ـ يريد إلاّ تلك الخدمة ، أو تلك الخليقة ـ وقد استَشهدَ المفسّرون بهذا البيت على أن الرجلَ قد يُسمِّي نفسَه عبدَ ضيفِه على جهةِ الخضوعِ له ، والقيام بخدمتِه ، لا على أن الضيف ربّه.

وبيت ابن الأبار ورد ـ كما أشرنا ـ في قصيدة مبتورة الأول ، فغابت بذلك المناسبة ولم يعيَّن المقصود فيها ، الأمر الذي جعل من محقق الديوان " عبد السلام الهراس " يميل إلى كون ورقتيْ القصيدة غريبتين عن الديوان .

وقال ابن الأبار [الطويل]:(1)

وتَغْزُو العِدَى في عقْرِها مُتتبِعًا   وحسْبُكَ غَزْوٌ في العِدَى مُتتَابِعُ
فتُلْفِي ديارَ المشركينَ ولمْ تَزَلْ   أواهِلَ قدْ أَصبَحْنَ وهي بلاقِعُ
وما همْ ولا البلدانُ إلا ودائعٌ   وعَمَّا قريبٍ تُسْتَرَدُّ الـــــودائعُ

من قول لبيد بن ربيعة في رثاء أخيه " أربد" [الطويل]: (2)

معد ، ثم في نزار ، ثم في مضر ، ثم في خندف ، ثم في تميم ، ثم في سعد ، ثم في كعب ، ثم في عوف ، ثم في بهدلة ، فمَنْ أنكر هذا فلْيُنافرْني ؛ أي فلْيُفاخرْني.فسكت الناس فقال المنذر : هذه عشيرتك كما تزعم فكيف أنتَ في أهل بيتك وفي نفسك؟فقال: أنا أبو عشرة ، وأخو عشرة ، وخالُ عشرة ، وعمّ عشرة ، .وأما في نفسي ، فشاهدُ العزّ شاهِدِي . ثم وضع قدمَه على الأرض فقال : مَنْ أزالَها عن مكانها فلهُ مِائةٌ مِن الإبل.فلم يقُمْ إليه أحدٌ مِن الحاضرين ففازَ بالبُرْدَيْن .(ينظر : حاتم الطائي ، ديوان حاتم الطائي ، دار صادر ، بيروت ، دط ، 1981 ، ص43 .) .

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق168 ، ص 359 .

(2) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ص 174 .

وَمَا النَّاسُ إلاَّ كالدّيار وأهلِها بها يومَ حَلُّوهَا وغَدْوًا بلاَقِعُ[1]

....

وما المالُ والأهلُونَ إلا وديعَةٌ ولا بُدَّ يوماً أنْ تُرَدَّ الودائـع

والناظر إلى بيتي " لبيد بن ربيعة " يجد أن الشاعر كان يرثي أخاه ، مقدِّما لقصيدته بلوحة رسَمَ فيها حقيقة الحياة الآيلة ـ مهما طال العمر أو قصُر ـ إلى زوال ، ولا يبقى من الإنسان إلا آثار شيّدها ، وجبال شامخات تشهد لله خالق الكون ،ومرسي الجبال أوتادًا للأرض ، غيرَ جازعٍ لِمَا أصاب حياته من تحوّل بعدما فارقه أخوه ، متأسيا في ذلك بحال الناس جميعا فهم كالديار المأهولة بساكنيها هذا اليوم ، وغدا سيرحلون عنها ، تاركينها قفارا ، خاليةً .

وما الأموال والأهل ـ في نظره ـ إلا وديعة وأمانة لأصحابها أودعوها ، وحينما يحين أوان استرجاعها ، طلبوها وأخذوها من المودَعة إليهم ؛لأنها لهم .

أما ابن الأبار فقد استفاد من شعر " لبيد" إلا أن معنى بيتيه ، كان يقصد به فئة معينة (فئة المشركين) ، الذين جثموا على صدر أمّته ـ والذين تصدّى لهم السلطان أبو زكريا الحفصي حاملا راية الدين ، ثابتا كجبل " ثهلان" في ميدان المعركة ، تاليا غزوَه لأعدائه وأعداء الدين بغزوٍ فتلفي ديار هؤلاء المشركين قفارا ، بعدما كانت مأهولة بقاطنيها .

ويلفت انتباهنا شطر البيت الأخير ((**وعَمّا قريبٍ تُسْتَرَدُّ الودائـعُ**)) الذي يحمل أملَ الشاعر الكبيرَ في أن نهاية هؤلاء الطغاة قريبة ، وأن وطنه ـ الوديعة التي سلموها المسلمون كرها لا عن رضى ـ سيُرَدُّ إلى أصحابه .

وقال ابن الأبار يمدح أبا زكريا [الكامل] :[2]

إنْ أوْرَقَتْ بِندَى أَكُفِّهم القنَا فانْظُرْ إلى الهاماتِ مِنْ ثَمَراتِها

وقال أبو صخر الهُذلي :[1]

---

(1) **غدْوًا** : غدًا . (ينظر :ابن منظور ، اللسان ، 10/ 23) . **بلاقع** : قفار . (ينظر :ابن منظور ، اللسان 1/ 471) .

(2) ابن الأبار ، الديوان ، ق 190 ، ص 407 .

وإنِّي لآتيها وفي النَّفْسِ هَجْرُها بَتاتًا لِأُخرى الدَّهرِ ما وضَحَ الفجْرُ
فَما هُو إلاَّ أرَاهَــا فُـجَــاءةً فَأُبْهَتُ لاَ عُــرفٌ لدَيَّ ولا نُــكْرُ
تكادُ يدِي تَنْدَى إذَا ما مَسَسْتُها وينبتُ في أطرافِها الورقُ الـخضرُ

وهذه الأبيات قد وردتْ ضمن قصيدة غزلية طويلة ؛ فالشاعر ما إن يرى فتاتَه بغتةً على غير موعد أو انتظار ،حتى يُبهتَ ويَحَار ويبطل تفكيره وعمله ،ولا يكاد يجزم بِما أمامه ؛ لأنه لا يدري أيعرفُ فضلَ حبّه لها عليه ، أو ينكر شقاءه بهذا الحبّ المعذِّب ؟!..

وإذا ما لمسَ يدها تنْدَى وتُنبت ، وتُثمر لفرط حبه وعشقه لها ، وتعود إليه الحياة ، دليلا على سيطرتها على قلبه ، وتمكنها منه .

ونجد ابن الأبار يتناص مع معنى البيت ((**تكادُ يدي تندى....**)) بِنقْلها إلى جو آخر ؛ جوِّ الاقتتال والحرب في مقام مدح أبي زكريا ،حين يجعل من أكفِّ المحاربين جُندَ الأمير تورِقُ وتحصد الغلل هاماتٍ ، وتُثمر الجراحَ وقطْعَ الرؤوس . وشتان ما بين الوصفين ، وما بين المناسبتين ! فالشاعر اللاحق نقل الصورة الاستعارية من جو المشاعر الجياشة والإحساس المرهف إلى جو الدماء وبتر الأعضاء .

وقال ابن الأبار ، مشيرا إلى سقوط السعيد ؛ الخليفة الموحدي[2] ، الذي فضّل التحالف مع

=

(1) **أبو صخر الهذلي** : هو أبو عبد الله بن سلمة الهذلي ، من قبيلة هُذيل ،وكنيته أبو صخر ، شاعر إسلامي من شعراء بني أمية ، وكان هواه ومذهبه مع الأمويين،وكان شديد التعصب والانحياز إليهم .توفي سنة 80 هـ.
ومن الأبيات الغزلية الرقيقة : أبى القلب إلا حبها عامــرية لها كنية عمرو وليس لـها عمر
تكادُ يدِي تَنْدَى إذَا ما مَسَسْتُها وينبتُ في أطرافِها الورقُ الخضرُ
عجبْتُ لِسعيِ الدهر بيني وبينها فلمّا انقضَى ما بيننا سكَن الدهر

(2) **السعيد الموحدي** : هو أبو الحسن علي السعيد بن أبي العلاء إدريس بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المومن بن علي ، بُويع يومَ وفاة أخيه يومَ الحمعة ، عاشر جمادى الأخرى من سنة أربعين وستمائة ، وقُتل السعيد وولدُه في معركة مع بني عبد الواد ، ونهبوا محلّته يوم الثلاثاء ، منسلخ ، صفر سنة ست وأربعين فكانت خلافته خمسةَ أعوام وثمانية أشهر وعشرين يوما ...ولمّا قُتل السعيد وابنُه فرّت عساكره إلى مراكش
=

النصارى ، وذلك قبل أن يجهز عليه الزناتيون أتباع يغمراسن [البسيط]:(1)

حتَّى الجَوَادُ الذي قد كان يَعْصِمُه   أَرْدَاهُ يَقْصِمُه بُغْضاً وإهْوانا

متكئا على قول الفرزدق [الطويل]:(2)

بكَى المنبرُ الشّرقيُّ إذْ قامَ فوقَهُ   أميرٌ فَقِيميٌّ قصيرُ الدّوارجِ(3)

والبيتان يدخلان ضمن الهجاء والسخرية ؛ فإن كان الفرزدق قد سخر من الأمير المهجو"دُرُسْت بن رِباط الفُقيميّ " ، الذي كان أسود ، دميما ، قصيرالطول و الأرجل حين يقف على المنبر ، يخاطب الناس ويأمرهم بما تمليه عليه صلاحياته ، وقد كان الفرزدق يعادي بني فُقيم ؛ لأنهم قتَلُوا أباه " غالبا " ؛ لذلك أنشأ يقول [الطويل]: (4)

بكَى المنبرُ الشَّرقيُّ والنَّاسُ إذْ رأَوْا   عليهِ فُقَيْميًّا قصيرَ القوائمِ

أما ابن الأبار فقد ولّد مِن معنى سابقه (الفرزدق) معنى جديدا ، مخالفا للأول ،لمّا جعل من جوَاد المهجو ، الذي كان يمتطيه ، كارًّا وفارًّا ، صار لا يحتمل صاحبه ولا يطيقه على متنه . وهذه حقيقة تاريخية .

=

واجتمع جمهور عساكره على ولدِه عبد الله فبايعوه..(ينظر ، الزركشي ، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللولوي تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، مطبعة الدولة التونسية ، ط1 ، 1289هـ، ص23 ، 148)

(1) ابن الأبار، الديوان ، ق 144 ، ص 307 .

(2) الفرزدق ، ديوان الفرزدق ، شرحه وضبطه وقدّم له:علي فاعور ، دار الكتب العلمية ، بروت ، لبنان ط1 1987 ، ص222 .

(3) **الدَّوارِجُ**: الأَرجُلُ. (ينظر :ابن منظور ، اللسان ، 4/ 312) .

(4) **وفُقيم بن رباط** :هو دُرُسْت بنُ رباطٍ الفقيميُّ؛ شاعر وذكر الفرزدق في ديوانه أن الشعر كان يقوله محمد بن رباط . واستعمله "ابن هبيرة" على البصرة ، فلما صعد المنبرَ قال: يا بني تميم ، اتقوا الله وكونوا كما قال الله في كتابه:انصرْ أخاكَ ظالما أو مظلوما.فقال له بعض أصحابه : ليس هذا قول الله ، إنما هذا شعرٌ . قال : اُسكتْ ، فمَنْ قاله فقد أحسنَ وأجملَ ! (ينظر : الجاحظ ، عمرو بن بحر ، البيان والتبيين ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط7 ، 1998 ، 2/ 284).

وقال ابن الأبار في قصيدة طويلة ، يمدح أبا زكريا و والدَه أبا يحي بمناسبة زيارة هذا الوالد بتونس [الوافر] :[1]

عُداتُكَ في يديْكَ وإنْ تَناءَتْ فلم تسْتنَّ في طُرقِ الغُرور
إليكَ تَفِـرُّ منكَ بِلا ارْتيابٍ كأعْجازٍ تُرَدُّ على صُــدور

وقال الفرزدق يمدح الوليد بن عبد الملك [الطويل] :[2]

ذَكَرْتُ الّذي بينِي وبينَكَ بعدَمَا رَمَى بيَ مِنْ نَجْدَيْ تِهامةَ غائِرُهْ
فَأيـقَنْتُ أَنّـي إنْ نَأيْتُكَ لمْ يَرِدْ بِيَ النَّأْيُ إلاَّ كُلَّ شيـءٍ أُحاذِرُهْ

والشاعران كلاهما أخذ من الشاعر النابغة الذبياني في قوله[الطويل] :[3]

فإنَّكَ كاللَّيلِ الذي هو مُدرِكـي وإنْ خِلْتُ أنَّ المُنتَأَى عنكَ واسعُ
خطَاطيفُ جُحْنٌ [4] في حِبالٍ مَتينةٍ تَمُـدُّ بـها أيْـدٍ إليكَ نــــوَازِعُ

وهو هنا يخاطب النعمان بن المنذر ، مبينا له أنه صار كالليل المفزع ، الرهيب ،الموحش الذي يطبق بظلمته ، ولا مفر ولا مهرب من وحشته ،فهو منه بمثابة هذا الليل من المسافر سفرة طويلة لا يستطيع منه نجاة ،ولا عنه حولا .

وإن كان المعنى بين الأبيات واحدا تقريبا ، إلا أن التصوير مختلف ؛ ذلك أن ابن الأبار قد نفى عن أعداء الممدوح أي مَهرب ومفر؛ لأنهم إنْ فرُّوا من السلطان فلا ملجأ لهم في ذلك إلا إليه وحتى يعطي الصورة واضحة استعان بالتشبيه المناسب ، حين شبّه مصير الفارين من أبي زكريا

---

(1) ابن الأبار ، الديوان ،ق 87 ، ص 198 .

(2) الفرزدق ، ديوان الفرزدق ، ص 222 .

(3) النابغة ، ديوان النابغة الذبياني ، شرح :حنا نصر الحتّي ، دار الكتاب العربي بيروت ، لبنان ، دط، 2004 ص 127 .

(4) **خطاطيف** :جمع خطاف : وهو الحديدة الملتوية ، توضع في جانبي البكرة التي تدلى بها البئر عند إخراج الماء . (ينظر :ابن منظور ، اللسان ، 4/ 138) .

جُحن : جمع أحجن و حجناء : مُعْوجَّة . (ينظر :ابن منظور ، اللسان ، 3063) .

كأعجاز الأبيات الشعرية ،التي تُردّ على صدورها .وهذه لفتةٌ عروضية أوردها الشاعر كضرورة حتمية لأعداء ممدوح الشاعرضرورةَ ردّ الشطرالثاني على الأول ؛ طلبا لسهولة استخراج قوافي الشعر ، والحفاظ على مائيته وطلاوته .[1] ليكون بذلك تصوير ابن الأبار طريفا ممتعا .

ومن قول حسان بن ثابت الأنصاري يمدح المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان ذلك قبل فتح مكّة ، ويهجو أبا سفيان ، الذي كان قد هجا النبيّ ﷺ.

وقال ابن الأبار [الوافر]:[2]

تَعَالُوا إنَّها أُسُدٌ خِمَـــــاصٌ ... بِأَيْديها لكُم أَسُلٌ ظِمــــاءُ

حِصَادُكم على الأسيافِ دَيْنٌ ... ومِنْ تلكَ الأكُفِّ لهُ اقتضَاءُ

ومن القصيدة الهمزية ، يقول حسّان بن ثابت [3]مفتخرا [الوافر] : [4]

يُبَارينَ الأعِنَّةَ مُصْعِداتٍ ... على أكتافِها الأسلُ الظِّمَاءُ[5]

وفي البيتين المتشابهين فخَر كلُّ شاعر بقومه ، إلا أن ابن الأبار قد كثَّف من الصورة التشبيهية بحيث جاءت الأولى في شكل التشبيه البليغ " **إنها أُسدٌ** " موصوفة بالجائعة وحينها تكون هذه

---

(1) وهذا **باب التصدير** : وهو أن يرد أعجاز الكلام على صدوره، فيدل بعضه على بعض ، ويسهل استخراج قوافي الشعر إذا كان كذلك وتقتضيها الصنعة ، ويكسب البيت الذي يكون فيه أبهة ، ويكسوه رونقا وديباجة ويزيده مائية وطلاوة . (ينظر : ابن رشيق ، العمدة ، 2/ 3 .) .

(2) ابن الأبار ، الديوان ، ق 3 ، ص47 .

(3) هو **حسان بن ثابت** بن المنذر الجزرجي الأنصاري، أبو الوليد (...ـ 54هـ/ ...ـ 674 م) :الصحابي شاعر النبي ـ ص ـ وأحد المخضرمين .عاش ستين سنة في الجاهلية ومثلها في الإسلام.وكان من سكان المدينة . واشتهرت مدائحه في الغسانيين وملوك الحيرة قبل الإسلام، وعميَ قبيل وفاته.لم يشهد مع النبي ـ ص ـ مشهدا لعلة أصابته.كان شاعر النبي في النبوة وشاعر اليمنيين في الإسلام ، شديد الهجاء، فحل الشعر.له ديوان شعر.(ينظر : الزركلي ، الأعلام ، 2/ 175 ـ176) .

(4) حسّان بن ثابت ، ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ، ص 19 .

(5) **الأعنّة** : الجبال . (ينظر :ابن منظور ، اللسان ، 9/ 429). **مُصعدات** : ذاهبات خيولهم صعدا . (ينظر : ابن منظور ، اللسان ، 7/ 314) .**الأسل الظماء** :الرماح التي تشتهي خوض المعارك وسفك الدماء . (ينظر :ابن منظور ، اللسان ، 1/ 130) .

الحيوانات كذلك ، فهي أبطشُ وأفتكُ بالفريسة . ولم يكتف بهذه الصورة ، حتى ثنَّى عليها بأخرى استعاريةٍ ،حينما جعل من هؤلاء الأبطال كالأسود تحمل بأيديها الرماح العطشى، الفتّاكة. فالأسود ظمأى والرماح كذلك . وفي ذلك إضافة من لدن الشاعر مليحةٌ عبّر بها عن فخره والإشادة بهم .

وقال ابن الأبار [الطويل]:[1]

أَطُوفُ بِناديهِم رجَاءَ نَداهُم كذاكَ انتظامُ الطَّيرِ في مَنثرْ الحَبِّ

أخذه من قول بشار بن برد يمدح عقبة بن سلم[2] [الخفيف] [3] :

حَرَّمَ اللهُ أن ترَى كابْنِ سلم عُقبَةِ الخيرِ مُطْعِمِ الفُقَراءِ
يَسْقُطُ الطَّيرُ حيثُ يَنْتَثِرُالحبُّ وتُغشَى منازلُ الكُرماءِ

والشاعر بشار بن برد يكني في بيته الأول (**حرم الله أن ترى**) عن بلوغ الممدوح الغاية في المحامد ، فلذلك عزَّ وجود مثله ، وكل ذلك كناية عن بلوغه غاية كبيرة في المجد والكرم لم يبلغها غيره . يقول شارح الديوان "محمد الطاهر بن عاشور " : ((**هذا البيت استئناف بياني نشأ عن قوله " مُطعم الفقراء" كأن قائلا ، سأل : مِن أين للفقراءِ أن يغشوا منزله وهو رجُل عظيمٌ وهم ضعافٌ ، وهل يكثر عنده الفقراء فأجاب بقوله ((يسقط الطير)) أي كما أن الطير تهتدي لِموقع الحبوب ، فلا تسلْ عن اهتدائهم لمنزله ، ولا عن كثرتهم ؛ لأن الحاجة قدم السائر . فقوله ((يسقط يتضمن تشبيها ، وهذا البيت مثل بديع**)) [4].

---

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق 33 ، ص 90 .

(2) **عقبة بن سلم الهُنائي** : نسبة إلى الهنو بن الأزد بن قحطان ، ويُكنَّى بأبي المِلَدّ .ولي البصرة في زمن المنصور العباسي ثم عُزل عنها ،وتوفي عام 167. م في بغداد ، طعنَه رجُل بخنجر .

(3) بشار بن برد ، ديوان بشار بن برد ، قدّم له وشرحه :صلاح الدين الهواري ، دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر ، بيروت ، ط1 ، 1998 ، 1/ 53 .

(4) بشار بن برد ، ديوان بشار بن برد ، جمع وتحقيق وشرح : محمد الطاهر بن عاشور ، وزارة الثقافة ، الجزائر دط ، 2007 1/ 136 .

وإذا كان الشاعر العباسي قد جعل من منزل ممدوحه المكان الملائم ، الذي يغشاه الفقراءُ رجاء نوله وعطائه ، وذاك دليل على حسن كرمه وطول يده ، فإن الشاعر الأندلسي قد جعل من نفسه ممدوحا آخر ـ وهو يصف اشتياقه لمجالس العلم والعلماء ببلنسية ـ طالبا العلم من أرباب المعارف ، الذين كان يجالسهم ؛ يتلقى منهم جنَى القرآن وسحر البيان ، يطوف بناديهم كما تطوف الطيور على منثر الحَبّ .

وفي شأن اغتراف الأندلسيين من أدب وفنون المشرقيين ، تشبها بهم والنسج على منوالهم تارة والتفرد بإبداعاتهم تارة أخرى ، يقول شوقي ضيف : ((**وليس هناك كتاب أدبي ولا رسالة نثرية ولا ديوان ، ليس من كل ذلك عمل جيد إلا نقلوه إلى بلادهم فور ظهوره في المشرق ، ومما نقلوه في حياة أصحابه " البيان والتبيين " و " رسالة التربيع والتدوير " للجاحظ و ديوان أبي تمام والمتنبي و"سقط الزند " و " اللزوميات " و رسائل بديع الزمان ومقامات الحريري ومنذ القرن الرابع نحسّ بنشاط أدبي هائل ، ويبلغ هذا النشاط أقصاه في عصر ملوك الطوائف...وراجت في أثناء ذلك أسواق النثر والشعر وتعددت هذه الأسواق ففي كل مدينة كبيرة سوقٌ ، وفي كل مدينة معرضٌ لآخر ما أحدث الكُتّاب والشعراء من نماذج**)) .[1]

وقال ابن الأبار [الطويل]:[2]

سلامٌ على الدُّنيَا إذا (لمْ) يَلُحْ بها مُحَيَّا سُليمانَ بْنِ موسى بنِ سالم

وأنشأ أبو نواس[3]

---

(1) إحسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين ، دار الشروق ، عمان ، دط ، 1997 ص 47 .

(2) ابن الأبار ، الديوان ، ق 124 ، ص 280 .

(3) هو **الحسن بن هانئ** بن عبد الأول بن صباح الحكمي بالولاء أبو نواس(146 ـ 198هـ/ 763 ـ 814م):شاعر العراق في عصره.وُلد في الأهواز(من بلاد خوزستان) ونشأ بالبصرة ،ورحل إلى بغداد فاتصل فيها بخلفاء بني العباس ،ومدح بعضهم ، وخرج إلى دمشق ،ومنها إلى مصر فمدخ أميرها الخصيب.وهو أول مَنْ نهج للشعر طريقته الحضرية وأخرجه من اللهجة البدوية.نظم في جميع أنواع الشعر،وأجود شعره خمرياته.له ديوان شعر.(ينظر :الزركلي، الأعلام ، 2/ 225) .

يمدح الفضل بن يحي بن خالد [الطويل] :[1]

فمَا هو إلا الدّهـــــرُ يأتي بِصرفه　　على كُلِّ مَنْ يشقَى بهِ ويُعَادِي

سلامٌ على الدُّنيا إذا ما فقـــدْتُم　　بني بَرْمَكٍ من رائحينَ وغـــاد

بفضلِ بْنِ يحيَ أشْرقتْ سبُلُ الهُدَى　　وآمَنَ ربِّي خوفَ كُلِّ بـــلادِ

قيل إن هذا البيت (النواسيّ) **"سلام على الدنيا..."** كان شُؤما على البرامكة ، فلم يلبثوا بعدَ هذه القصيدة إلا أياما حتى فتَكَ بهم االرشيد . نظمَه الشاعر في مدح أبي الفضل الذي يُعتبر في قومه الأشجع والأجودَ والسمح المسالم ، لا يمكن التفريط فيه ؛لأن أفضاله عليهم كثيرةٌ .

وبالنظر إلى قولَيْ الشاعرين نجد الغرض مختلفا ، على الرغم من أن المعاني متقاربة ؛ كون الأولى قيلت في رثاء شيخ ابن الأبار " الربيع الكلاعي " بعد أن سقط شهيدا في موقعة " أنيشة " الشهيرة ، مودعا الأيام ، التي لا يطلع فيها مُحيًّا فقيده . وأما الثانية فمدحٌ لأبي الفضل على اعتبار ما سيكون في قادم الأيام . .

وإذا كان الأندلسيون قد أُغْرموا بالشاعر المتنبي ، وافتتنوا به إلى درجة كبيرة ، فإن هناك شاعرا ثانيا ، كان له من اهتمامهم بشعره ، واعتنائهم بشخصيته حظٌّ أوفرُ ، يضاف إلى حظ الأول ؛ هو أبو تمام[2]((**فأقبل الأندلسيون على أشعار أبي تمام دراسة وشرحا ونقدا وموازنة ومعارضة**)).[3]

---

(1) أبو نواس ، ديوان أبي نواس ، ص 255 .

(2) هو **حبيب بن أوس بن الحارث الطائي** ، أبو تمام(188 ـ 231هـ/ 804 ـ 846م): الشاعر، الأديب أحد أمراء البيان ، وُلد في جاسم ورحل إلى مصر ، واستقدمه المعتصم إلى بغداد ،فأجازه وقدّمه على شعراء وقته فأقتم في العراق .كان أسمرَ ،طويلا ، فصيحا ، حُلو الكلام ، فيه تمتمة يسرة ،يحفظ أرعة عشر ألف أرجوزة غير القصائد والقطع .له تصانيف ؛منها " فحول الشعراء" و "ديوان الحماسة"و "مختار أشعار القبائل" وديوان شعر.(ينظر:الزركلي، الأعلام ، 2/ 165) .

(3) إيمان السيد ، أحمد الجمل ، المعارضات في الشعر الأندلسي ، جدارا للكتاب العالمي ، وعالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع ، ط1 ، 2006 ، ص 30 .

ويتضح جليا هذا التأثر الأندلسي بالشاعر العباسي أبي تمام عند ابن الأبار ، الذي يتبين من خلال النصوص ، التي وقفنا عندها أنه أكثر الشعراء المشارقة تأثيرا فيه ، ولعل ذلك يبرز من الكم الشعري الذي عثرنا عليه في ديوان ابن الأبار القضاعي ، مقارنة بباقي الشعراء .

وتأكيدا على ذلك ما يقوله ابن الأبار [الكامل] :(1)

بِينِي ثلاثاً سَلوةَ الأيّـامِ　　　أوْدَى الحِمامُ بِناصرِ الإسلام

مستفيدا معنى ذلك من الشاعر أبي تمام ، مادحا الواثق ، ومهنئا إياه بالخلافة ، و راثيًا المعتصم بالله [الكامل]:(2)

ما لِلدُّمُوعِ تَرُومُ كُلَّ مَرام　　　والجفنُ ثاكِلُ هَجْعَةٍ ومَنَامِ

فأبو تمام قد حقّق ما في الرثاء من شروط ، التي وضعها النقاد ؛ وهي إبداء الحسرة والألم من حدوث المصيبة ، وكانت الأداة الدموع السيّالة وهجر النوم المُقَل. وهذا أمر يكون على المستوى الشخصي ، ولا يتعداه إلى غيره .

أما ابن الأبار ، وإن كان يقترب من الشاعر العباسي في المعنى العام ، إلا أنه يبدي فقدَه أيامَ الأفراح والمسرات وبينونتها عنه ، ليس لأن أثر المفقود كان عليه هو فحسبُ ، وإنما لأن الميت لم يكن شخصا عاديا ،بل هو أبو زكريا ؛ راعيه وراعي دين الإسلام ؛ دين الجميع ، فالتوقيع على الوتر الديني يكون أكثر تأثيرا وأبلغ وقعا على النفوس .

وقال ابن الأبار في وصف "الخيري" [الطويل] :(3)

لَكَ الخيرُ أمْتِعْنِي بِخيْرِيِّ روضةٍ　　　لأنفاسِهِ عندَ الهُجوعِ هُبُوبُ

أَهِيمُ به عن نسبَةٍ أدبيّـــــــــــةٍ　　　ولاغرْوَ أن يَهوَى الأديبَ أديبُ

---

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق 120 ،ص262 .

(2) أبو تمام ، ، شرح ديوان أبي تمام ، الخطيب التبريزي ، قدّم له ووضع هوامشه وفهارسه: راجي الأسمر دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط2 ، 1994 ، 2/ 100 .

(3) ابن الأبار ، الديوان ، ق 18 ، ص 67 .

وقال أبو تمام يمدح علي بنَ الجهم القرشي الشاعر ، وقد جاء يودّعه لِسفرٍ أراده ،وكان أصدقَ الناس له . وقد اشتهر أبو تمام بعد من الصداقات الحميمة ، يجيئ في مقدمتها جميعا صداقتُه لعلي ابن الجهم[الكامل]:[1]

إِنْ يكَدْ مطرفُ الإخاء فإنّنا ... نَغْدُو ونسْرِي في إخاءٍ تالد

....

أوْ يَفْترق نسبٌ يُؤَلِّفُ بينَنا ... أدبٌ أَقَمْنَاهُ مَقامَ الوالدِ

فأبوتمام في أبيات ، والتي منها هذان البيتان يختار أسلوب الشرط بـ "إنْ " أو "أو" ليحلّ محل الصياغة السردية ، التي يمكن أن تكون في مثل هذه المواقف ، ليحرك الخيال ويملأ الفراغ عندما يغلق دائرة الحديث بالجواب ، ليبين عن تحكم شديد في الانفعال ، الذي كان قد انفلت منه في أبيات سابقة لهذين البيتين .

فإن كان أبو تمام يعبّر عن صداقته لـ "علي بن الجهم" بكل إخلاص وأمانة ، جاعلا الأدب الذي يربط بينهما كالوالد مع أولاده ، لا يمكن لأحدٍ أن يفرق بينهما . فإن ابن الأبار كان بصدد وصف " الخيري" مبينا علاقة النسب ،التي تجمع بين الشاعر وبين أديب النور، إذ لا غرابة في أن يحب الأديبَ (الخيري) أديبُ (الشاعر) .

وقال ابن الأبار مادحا أبا زكريا عند بيعته من طرف عبد الله الهزرجي ؛ حاكم سجلماسة سنة 640 .هـ بقصيدة طويلة نسبيا،وكانت هذه آخرَ الأبيات فيها[البسيط]:[2]

لم يشْرُفِ الشعرُ إلاّ حينَ شرَّفَهُ ... نظْـمًا لِعَالِيهِ أو سمـْعًا لِغالـــيه

وما عسَى تبلُغُ الأمداحُ مِنْ ملِكٍ ... أقصَى نهايتِها أدنـى تناـــهيه

تقَيَّلَ[3] الدَّهرُ مَنْحاهُ الكريمَ فقدْ ... راقَتْ حُلاهُ وقد رقَّتْ حواشِيه

---

(1) أبوتمام ، ، شرح ديوان أبي تمام ، الخطيب التبريزي ، 1/ 215 .

(2) ابن الأبار ، الديوان ، ق 193 ، ص 413 .

(3) **تقَيَّل** : شابَهَ . وسفك الدماء . (ينظر : ابن منظور ، اللسان ، 11/ 343) .

وأنشد أبو تمام في مدح المعتصم قصيدة مشهورة منها قوله [الكامل] :[1]

رقَّتْ حواشي الدَّهرِ فهْيَ تمَرْمَرُ وغداَ الثَّرى في حلْيِهِ يتكَسَّرُ[2]

كان دهر الممدوحيْن رقيقا ، لينا ، ناعما بفضلهما . هذا ما اشترك فيه الشاعران ، غير أن ابن الأبار قد جعل من الدهر شبيها بالسلطان الحفصي ـ لا العكس ـ صاحب الأيدي الممدودة إليه بالمنح والعطايا ، وبفضله رقّت حواشي الدهر ، الذي هم فيه .

وقال ابن الأبار ، يشكو غربته عند الأراغونيين [الكامل] :[3]

غلَبَتْ عليَّ لِبُعْدِكُم أشْجَانِي وجَفَا الكَرَى مِنْ بَعْدِكُم أجْفَاني

....

هذاَ وكَمْ أثنَاءَ هذا مِنَ أَسًى فَضَحَ العَزاءَ ومِنْ هَوًى وهوانِ

ويَهُونُ ذلك للفراقِ وطَعْمِهِ إنَّ الفِراقَ هو الحِمـــامُ الثَّانــي

مستفيدا من قول أبي تمام عندما مدح أبا سعيد، ذاكرا غمّه بخروجه [الكامل] :[4]

لأودِّعَنَّكَ ثُم تدمعُ مُقْلتي إنَّ الدّموعَ لِي الوداعُ الثَّاني

وما هذه المشاعر ، التي يبينها الشاعر إلا لأنه ألِفَ عند الممدوح كلّ تكريم ، وبالغ عناية فلمّا قرر السفر ، أراد أن يودّعه ، لم يتمالك نفسه فودّعه مرةً ، وأردفتْ عيناه بدورها بتوديعه مرة ثانية فكانت بذلك كل جوارحه متألمة ، متحسّرة ، غيرَ قادرة على الصبر عليه ، والابتعاد عنه ؛ بسبب ما كان يناله من يديه ، ويلقاه من عطفه .

---

(1) أبو تمام ، ، ديوان أبي تمام ، الخطيب التبريزي ، 1/ 332

(2) **تمرمر** : والأصل: تتمرمر ؛ أي تمُوج وتضطرب لينا ونعومة. يقال: امرأة مرمارة ومرمورة ؛ أي لينةٌ ناعمة. (ينظر : ابن منظور ، اللسان ، 13/ 71) .**والثرى**: التراب الندي ؛ أي نباته يتكسر لرطوبته . (ينظر : ابن منظور ، اللسان ، 2/ 86) .

(3) ابن الأبار ، الديوان ، ق 158 ، ص 327 .

(4) أبو تمام ، ، شرح ديوان أبي تمام ، الخطيب التبريزي ، 2/ 172 .

أما الشاعر الأندلسي فقد جعل الأَسْرَ والقسر هيّنا ، على الرغم من أن ذلك يعتبر موتا في حد ذاته ، ليضافَ إليه الموت الثاني ؛ وهو الفراق للأهل والوطن .ليكون ابن الأبار بذلك قد كثّف من المعنى الذي يريد ، وجعل الأمر أفدح وأمرَّ ،والمأساة أكبر وأجلَّ ، فهو لم يأخذ المعنى ليضعَه في قالب مماثل ، وإنما أخذ وأعطى في الوقت ذاته ، ليعطي بذلك عن طريق بيته تفسيراتٍ جديدةً لبيت أبي تمام ، ويظهره في حُلّة جديدة ، كانت خافية .

كما نظَم ابن الأبار قصيدة طويلة، يمدح فيها أبا زكريا ، عند احتلاله لتلمسان ، وفرار يغمراسن ، وكان ذلك سنة: 640 هـ [البسيط] :[1]

وزارَ كُلَّ وريدٍ حَدُّ صـارِمِـهِ وليسَ مِنْ دُونِهِ رِدْءٌ يُحَلِّئُهُ[2]

يُنْسَى بِإقْدامِهِ عَمْروٌ ومذحجُهُ وحاتِمٌ بِأيـاديــهِ وطَـيِّـئُهُ

آخذا بمعنى بيتٍ لأبي تمام ، يمدح فيه أحمد بن المعتصم [الكامل] :[3]

إقْدامُ عَمروٍ في سماحةِ حاتِمٍ في حِلْمِ أحْنفَ في ذكاءِ إيَّاسِ

ويقصد " عمرو بن معد يكرب ، و" إياس بن معاوية " ؛ قاضٍ بالبصرة ، يوصف بالذكاء وكان من قوم ، يظنون الشيئ فيكون كما يظنون حتى شُهر أمرهُم في ذلك .

و قد كان لهذا البيت حكاية مشهورة ؛ وهي أنه لمَّا أنشدَ أحمد بن المعتصم قصيدته السينية التي مطلعها [الكامل] :[4]

ما في وقوفكَ ساعة من باس نَقضي ذِمامَ الأربُعِ الأدْراسِ

إلى أن انتهى إلى قوله [الكامل] :

إقْدامُ عَمروٍ في سماحةِ حاتِمٍ في حِلْمِ أحْنفَ في ذكاءِ إيَّاسِ

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق 2 ، ص 43 .

(2) يُحَلِّئُه : يَمنعُه ويصُدُّه عن غايته .

(3) أبو تمام ، شرح ديوان أبي تمام ، الخطيب التبريزي ، 1/ 362

(4) نفسه ، ص 358 .

فقال الحكيم الكندي : وأي فخر في تشبيه ابن أمير المؤمنين بأجلاف العرب ؟ فأطرق أبو تمام ثم أنشد بيتين ، معتذرا عن تشبيهه إياه بِعَمْرو وحاتم وإياس قائلا :

لا تُنكِروا ضربي له مَن دونِه مثلاً شَرُوداً في النّدى والباس

فاللهُ قد ضربَ الأقلَّ لِنـورِه مَثلاً مِنَ المِشْكاةِ والنـّبراسِ

والمعنى : لا تُنكِروا قولي: إقدامُه كإقدام عَمْرو ، وهو أشجعُ منه ، وذكاؤه كذكاء إياس وهو أذكى منه ؛ لأن الله تعالى قد شبَّهَ نورَه بما هو أقلُّ منه ، إذْ كان المشبَّه به من أبلغ ما يعرفه الناس ضوءاً ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ **ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾** ﴾ . [**النور** : 35].

وهي الكوةُ ليست بنافذة .

وكان أبو تمام قد أنشد ـ كما ذكرنا ـ أحمد بن المعتصم ،وليس في القصيدة هذان البيتان الأخيران فقال يعقوب بن إسحاق الكندي ،وكان يخدم أحمد : الأميرُ أكبرُ في كل شيئ مِمَّنْ شبَّهْتَهُ به فعمل هذين البيتين وزادهما في القصيدة من وقته ، فعجب أحمد وجميعُ مَنْ حضرَه مِن فِطنته وذكائه وضاعفَ جائزتَه .

وقال ابن الأثير : ((**وهذا معنًى يشهد به الحال أنه ابتدعه ، فمَنْ أتى مِن بعده بهذا المعنى أو بِجزءٍ منه فإنه يكون سارقا له**)) .[1]

وكأن أبا تمام يفصّل المعنى ؛ فيذكر لمدوحه الإقدامَ والكرمَ ، والحِلْمَ والذكاءَ له ، بعدما جمعَه في بيت سابق ،حينما قال [الكامل]:

أبْلَيْتَ هذا المجْدَ أَبْعَدَ غايَةٍ فيهِ وأكْرمَ شِيمَةٍ ونِحاسِ

---

(1) ابن الأثير ، ضياء الدين ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، قدّمه وحقَّقه وعلّق عليه : أحمد الحوفي وبدوي طبانه ، دار نهضة مصر للطبع والنشر لفجالة ، القاهرة ، دط ، دت ، ص 220 .

أما ابن الأبار ، فقد كان بصدد التركيز على شجاعة ممدوحه في الغزو ، وتمكنه من أعدائه واحتلاله لـ" تلمسان" . والمطّلع على أبياته ، يلحظ أنها في عمومها تتحدث عن الحرب والاقتتال وسفك الدماء .

وأنشأ الشاعر قصيدة طويلة ، بلغت بيتا ومئةَ بيتٍ في رثاء شهداء "أنيشة" ؛ الموقعة التي استُشْهد فيها عددٌ من العلماء والصلحاء ، وكان من بينهم شيخُه أبو الربيع الكلاعي وكان ذلك سنة 634 .هـ [الطويل] :(1)

أَلِمَّا بِأشْلاءِ العُلى والمكـــارمِ   تُقَــدُّ بِأطرافِ القَنا والصَّوارمِ

وعُوجَا عليها مأرباً وحفَـاوةً   مصَارعَ غصَّتْ بِالطُّلَى والجَماجمِ

نُحَيِّ وُجُوهًا في الجِنانِ وجيهةً   بِمَا لقِيَتْ حُمْــرًا وُجوهَ المَــلاحمِ

ناظرا إلى أبي تمام في رثاء هاشم بن عبد الله بن مالك الخُزاعي [الطويل] :(2)

خَليليَّ مِنْ بعْدِ الأسَى والجَوَى قِفَا   ولا تَـقِـفَا فَيْضَ الدُّمُـــوعِ السَّواجِمِ

أَلِمَّا فهذا مصْـــــرَعُ البَأْسِ والنَّدى   وحسْبُ البُكَا إنْ قُلتُ:مصْرَعُ هاشمِ

....

يجمعُ أبياتَ الشاعرين الرثاءُ ، فكل منهما يبكي عزيزه ، مخاطبا رفيقيه ـ على عادة الشعراء القدامى كامرئ القيس ـ وإن كان أبو تمام قد دعاهما ليذرفا على المفقود العزيز الدموع السجام لأن برحيله غاب موئل البأس والندى ، فإن ابن الأبار قد دعا رفيقيه ليمرَّا بأشلاء الشهداء لِيُحَيُّوا هذه الوجوه النيّرة ، التي امتلأت ساحةُ المعركة بأشلائهم .

وفي هذا الإطار الجديد بين الشاعر والتراث تصبح هذه العلاقة أكثر ثراءً وعمقاً ، فهي علاقة قائمة على تبادل العطاء ، يأخذاللاحق من السابق ويعطيه، يسترفده ويرفده. وبهذا تَغنى التجربة الشعرية والتراث كلاهما ، فإذا كان الشاعر الأندلسي يسترفد تراثًا وأدواتٍ وعناصرَ ومعطياتٍ

---

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق 124 ، ص 275 .

(2) أبو تمام ، الخطيب التبريزي ، شرح ديوان أبي تمام ، 2/ 237 .

يوظفها لتجسيد رؤيته الجديدة ، فإنه يثري هذه العناصر المسترفَدَة بما يكتشفه فيها من دلالات إيحائية ؛ ليفجّر ما فيها من طاقات ، ويكشف عن رُؤى فتصير التجربة أكثر غِنًى وأوسع مدى .

وقال ابن الأبار يمدح أبا زكريا ويستشفع وليّ عهده أواخر سنة 646 هـ أو أوائل سنة647 .هـ [الكامل] :[1]

نُعْمَى جَلَتْ مِن حُسْنِها بِدَعًا نَعِمَتْ بها الأسماعُ والمُقَلُ
ولو اسْتطَاعتْ مِن صَبابتِـها سارتْ إليه بِأسْرِها الحِلَلُ[2]

وهو من كلام البحتري ، يمدح فيه المتوكل ، ويصف خروجه يوم العيد [الكامل]:[3]

حَتَّى إذا انتَهيْتَ إلى المُصَلَّى لابسًا نورَ الهُدَى يبْدُو عليكَ ويظهَرُ
ومشيْتَ مِشْيَةَ خاشِعٍ مُتَواضعٍ للهِّ لا يُزْهَى ولا يتكـــــبَّرُ
فلو أنَّ مُشْتاقاً تَكَلَّفَ غيرَ ما في وُسْعِهِ لَمَشَى إليكَ المنبــــرُ

فالشاعر البحتري يصف ممدوحه وهو مقبلٌ عليهم يوم العيد في أحسن حُلّة وأبهى منظر يعلوه التواضعُ والخشوع ، ويستقبله الناس،حتى المنبرُ يكاد يمشي إليه لينال رضاه ويحسن وفادته. أما ابن الأبار فقد كان في موقف الاستشفاع وطلب العفو من السلطان الحفصي كي يقيل عثرته ،ويعيده إلى سالف عهده ، بالقرب منه ، فحُقَّ له أن يجعل من النُّعمى التي نعمت بها الأسماع والأعين ،تكاد من فرط حبها له تسير إليه الحللُ ـ منزل حلول الجند ـ

وبالمقارنة بين الصورتين نجد الفارق واضحا بينهما ؛ لأن البحتري أمشى المنبر ـ وهو المتحرك أصلا ـ إلى ممدوحه ، بينما ابن الأبار فقد جعل ما لا يمكنه السير ـ المنزل ـ يمشي ويتحرك طربا للسلطان .

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق 110 ، ص 242 .

(2) **الحلل** : جمع حلة ، وهي المحلة ؛ أي منزل حلول الجند خاصة .(ينظر : ابن منظور ، اللسان ، 3/ 280)

(3) البحتري ، ديوان البحتري ،شرح وتقديم:حنا الفاخوري ،دار الجيل ،بيروت ، المجلد الأول ، ص 523 .

ومن الشعراء العباسيين ،الذين كان لهم الأثر الكبير ـ أيضا ـ على شعراء الأندلس بعامة وابن الأبار بخاصة " المتنبي " ، يقول محمد بنشريفة : **((فقد عرفت الأندلس شعر المتنبي في وقت مبكر ، وذلك بوسائط متعددة ، فقد نقله إليها أول مرة زكريا ء بن بكر المعروف بابن الأشج (310 ـ 392 هـ) وكان قد رحل من الأندلس إلى المشرق فلقي أبا الطيب بمصر وأخذ عنه شعره روايةً ...))** .(1)

و في السياق ذاته ينقل المستشرق غرسيه غومث (Garcia Gomez) ، قائلا :

((وفي الحقيقة عندما نجد أديبا علاّمةً كابن بسام في كتابه : " الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة " يعلّق على القصائد ،ويشير إلى ما سبقت به ، نجد اسم المتنبي يتردد بكثرة بين أهم مَنِ احتذاهم الشعراء ، وعلى نحو لم يسبق إليه ، والإشارة إلى شاعر سيف الدولة وذكر آرائه تظهر إعجابا صادقا به منقطع النظير ، وقد استمر هذا الإعجاب حتى لحظات احتضار الشعر الأندلسي في إسبانيا)) .(2)

أما الباحث محمد بنشريفة فيرى أن ديوان المتنبي الذي دخل الأندلس كان على إقبال كبير فيقول : **((لم يحظَ ديوان من دواوين الشعر القديم بمثل ما حظي به ديوان المتنبي من حيث الاهتمامُ بشرحه والعناية بتفسيره ، وقد تجاوزت شروحه الأربعين شرحا))** .(3)

وكان المتنبي الشاعر المعشوق ، الذي تاهث باسمه الألسن وتتبارى في دراسة شعره الناس : **((فإن أية مدينة من المدن التي مرَّ بها ، شهدت مولد حلقة أدبية تدرسه ، وتُقيِّد شعره وتدير النقاش حول قصائده . وبعد موته اتسعن هذه الحلق ، واتصلت حتى كونت شبكة قوية متماسكة. أي طوفان تعرض له شعر المتنبي ، من الطعن والدفاع من الطبعات والشروح من**

---

(1) محمد بنشريفة ، أبو تمام وأبو الطيب في أدب المغاربة ،دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، دط ، دت ص98 .

(2) غرسيه غومث(Garcia Gomez) ، مع شعراء الأندلس والمتنبي ، سير ودراسات ، تعريب : الطاهر أحمد مكي دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، ط3 ، 1983 ، ص 46 .

(3) محمد بنشريفة ، أبو تمام وأبو الطيب في أدب المغاربة ، ص 28 .

الموازنات الأدبية والدراسات النقدية ! ،ولمَّا تتوقف ، وليس ثمة ما يشير إلى أنها ستتوقف يوما...))[1] .

فقد أنشد ابن الأبار ، مادحا أبا زكريا وهذه خاتمة قصيدته [المتقارب] :[2]

إليكَ إمامَ الهُدى سُقْتُـــهَا لآلِئَ تُعْزَى لِجَدْواكَ لآلِي
مِن الشّكرِ متّصِلاً بالخُلوصِ مِن السِّحْرِ مُتَّصفاً بالحلالِ
وأجْدَى الوسائِلِ صَوْغُ الثَّناءِ عليهِ اعتمادِي وفيهِ اعْتِمَالِي

مستفيدا من قول المتنبي في مدح سيف الدولة الحمداني بمناسبة بنائه قلعة الحدث سنة (343.هـ/ 954.م) ، أين يجعل الشاعر فيه نفسه بمنزلة الممدوح ، فإن كان لهذا عزُّ البطولة والفتوحات ، فهو الناطق بهذا العزّ والفتح بلسانه وشاعريته ؛ أي يريد أن معانيه مِن الممدوح ، واللفظ (الدّرّ و هو الشعر) منه هو [الطويل] :[3]

لكَ الحمدُ في الدُّرِّ الذي لِيَ لفْظُهُ فإنَّكَ مُعطِيهِ وإنِّيَ ناظِمُ

فالمتنبي يُشرك الممدوح في الدرر ، التي نظمها في حقه ؛ لأن المعنى للخليفة واللفظ للشاعر.

أما ابن الأبار فيرسل اللآلئ الشعرية ؛ من الشكر الموصول بالإخلاص ، والسحر المتصف بالحلال ثناءً له ،واعتمادا عليه ،واعتمالا فيه .وكان من نصيب الأندلسي اللفظُ والمعنى معا.

وقال ابن الأبار [الطويل] :[4]

وجُنْدُ كُماةٌ لاالعُـــــداةُ أوامِنٌ بِأسيافِهم ولا الولاةُ جـــوازِعُ
إذاَ وقَفُوا قُلتَ الهضابُ الفَوارِعُ وإنْ زَحَفُوا قلتَ الرياحُ الزعازِعُ
تَحُفُّ بِـزيَّانَ الأمـــــيرِ كأنَّهُ فُؤادٌ وهم فـــوقَ الفُؤادِ أضَالِعُ

---

(1) غرسيه غومث ، مع شعراء الأندلس والمتنبي ، سير ودراسات ، ص 46 .

(2) ابن الأبار ، الديوان ، ق 105 ، ص 230 .

(3) المتنبي ، ديوان المتنبي ، ص 389 .

(4) ابن الأبار ، الديوان ، ق 168 ، ص 361 .

مضمّنا قول المتنبي من قصيدة قالها في سيف الدولة إثر وقيعته بقوم من بني كلاب ، وفيها يثني على همة سيف الدولة ،الذي سار خلفهم ،وأبو الطيب معه ،فأدركهم بعد ليلة بين ماءيْن يعرفان " بالغبارات والخرارات " ،فأوقع بهم ،فقال الشاعر بعد رجوعه من هذه الغزوة وأنشده إياها في "جمادى الأخرى"سنة ثلاث وأربعين وثلاث مائة (343هـ/ 954 م) يمدحه بطلا شجاعا يدافع عن الرعيّة ، ويقضي على كل شغب وعصيان [الوافر]: [1]

يَهُزُّ الجيشُ حولَكَ جانبيْهِ   كما نَفَضَتْ جنَاحيْها العُقَابُ

فالمتنبي يشبّه جيشَ سيف الدولة بطائر العقاب ، وكأن ميمنة الجيش وميسرته جناحاه اللذان يحركهما أثناء العزم على الطيران .

أما ابن الأبار فقد شبّه جيش زيان بن مردنيش ؛ أمير بلنسية بالأضلاع ،التي تضم وسطَها القلبَ ، وهو الأمير ، إذ لا يمكن أن يوصل إليه إلا إذا تهشمت الضلوع المحيطة به .

فالشاعر اللاحق لم يُعدِ الصورة كما عبّر عنها السابق إلا في المنطقة الوسطى ، التي جعل كل اعر ممدوحه فيها ، مَصونًا ، محميا من كل شر ، بجندٍ كجناحيْ الطير عند الأول ومثل الهضاب والرياح الزعازع عند الثاني . وإذا كانت صورة المتنبي متحركة مع حركة جناحي العقاب ، فإن ابن الأبار قد رسمها ساكنة ، هادئةً ، ثابتةً .

وفي ثلاثة أبيات متفرقات يقول ابن الأبار [البسيط] :[2]

مُتُونُ خيلِهم أوطانُهم وكَفَى   عِزًّا بِثَاوي مُتُونِ الخيلِ أوطانا

ويقصد ـ هنا ـ ابن عبد الواد ، وبني مرين البرابر ، وقد كانوا حربا على السعيد ،لصالح الحفصيين .

وقال في بيت آخر : [الكامل] :[3]

(1) المتنبي ، شرح ديوان المتنبي ، ص39 .

(2) ابن الأبار ، الديوان ، ق144 ، ص 308 .

(3) نفسه ، ق 189 ، ص 404 .

مَتْنُ الجَوَادِ النَّهْدِ[1] آثَرُ فُرْشِهِ   لا يُؤْثِرُ الخَوْدَ الكَعَابَ فَرِيشا

وقال في ثالث [الوافر] :[2]

ويَخْتَارُ السُّرُوجَ على الحشَايا   مِهَاداً والحديدَ على الحريرِ

وكان الشاعر في كل ذلك يتناصّ مع المتنبي في أبيات قالها في صباه ، وفيها يعرب عن ألمه ووحشته ، كما يفخر بذاته ، مبينا إعجابه بنفسه ،التي لا يَرى لها مثيلا في الأنام [الوافر] :[3]

مَفْرِشِي صَهْوةُ الحِصانِ ولكنَّ   قميصِي مَسْرودةٌ مِن حديد

فالمتنبي يفخر بنفسه ، من خلال افتراشه صهوةَ جواده ، ولبسه الحديد ، متأهبا لكل طارئ ومقداما في كل ميدان .

في حين نلفي ابن الأبار يعتبر متون الخيل وطنَه، وكفى بهذا الانتماء فخرا ، وكم لهذه اللفظة من مدلول!.. مقارنا بين هذا المتن وبين فُرش الخود الكعاب ، مفضلا الأولى على الفرش الناعمة والحديد على الحرير .

ولكل شاعر غاية يتغياها في نظمه ؛ فالعباسي فارس ، مقدام ، وبسيفه أحيل المكانة التي يستحقها بين الملوك والأمراء والحكام ، والأرض كلها وطنه . بينما الأندلسي لم يكن فارسا بالسيف ـ ولكن بالقلم والعلم ، و كان يفتقد إلى وطن ، سُلِبَه من طرف العدو .

وقال ابن الأبار في مدح المرتضى ، بمناسبة بيعة المرية سنة 643هـ [الطويل] : [4]

إليهِ أَشَارَ ابنُ الحُسينِ بِقـــولِهِ :   ((عليمٌ بِأسْرارِ الدّياناتِ واللّغا))

ألا إنَّ يحيَ المُرتَضَى عِصْمةُ الورَى   بهِ أَسْبَلَ اللهُ الأمـــانَ وأسْـبَـغَا

ويقصد في ذلك قول المتنبي في سيف الدولة إثر الانتهاء من بناء " مرعش " المتاخمة لبلاد الروم في المحرم ، سنة (341هـ/ 952 م) [الطويل] :[1]

---

(1) **النهد** : الفرس الضخم القوي . والأنثى: نَهدَةٌ . (ينظر : ابن منظور ، اللسان ، 14/ 288) .

(2) ابن الأبار ، الديوان ، ق87 ، ص 195 .

(3) المتنبي ، شرح ديوان المتنبي ، ص 80 .

(4) ابن الأبار ، الديوان ، ق 172 ، ص 368 .

عليمٌ بِأسْرارِ الدّيانات واللُّغَى له خطراتٌ تَفْضَحُ النَّاسَ والكُتُبَا

فابن الأبار قد استعان بشطر كامل بيت للمتنبي **"عليمٌ بِأسْرارِ الدّيانات** واللُّغَى " الذي وجهه في الأصل إلى ولي نعمته سيف الدولة الحمداني ، باعتباره عالما بأسرار ديانات أهل الأرض وكل لغاتهم ، مثلُه مثل نبي الله سليمان ـ عليه السلام ـ

فأراد ابن الأبار أن يسلك الطريق ذاته في مدح المرتضى الحفصي . وهذا الكلام يدخل في باب المبالغات،التي عُرف بها الشاعران الاثنان ـ ولا سيما المتنبي ـ فقال ابن الأبار كذلك [البسيط]:(2)

وإنْ حَجَبْتُمْ عنِ الأبصارِ هَوْدَجَها فحَاجِبُ الشّمسِ لا يَخْفَى وإنْ حُجِبَا

وفي ذات المعنى قال أيضا [المتدارك]:(3)

فإذَا فَلَقُ الإصْباحِ بَـدَا مَنْ يُنْكِرُهُ أو يَجْحَدُهُ ؟!

مستفيدا من قول المتنبي ، الذي قاله في الحسين بن إسحاق التنوخي مادحا، معتذرا ومكذبا ما نسَبَ إليه الوشاةُ والحُسَّاد من الافتراء على الحسين [الوافر] : (4)

و هَبْنِي قُلْتُ : هذا الصُّبْحُ لَيْلٌ أيَعْمَى العالمون عن الضّياء ؟!

فالمتنبي يدافع عن نفسه بضرب المثال المنطقي ، الذي لا يمكن لعاقل أن يصدق غيره فالصبح ضياء ، والليل ظلام .

ويقترب من هذا المعنى بيت ابن الأبار الثاني ؛ لأنه يشيد بشرف وليّ العهد أبي يحي الذي لا يمكن أن يجحده جاحد ؛لأنه كفلق الصبح ، الذي يأذن بزوال الظلام .أما في البيت الأول للشاعر ذاته فكان في مقام إبداء حرقة الشوق ، ولوعة الفراق حينما سافروا بفتاته وحرصوا على حجبها وإخفائها عن عينه ، ظانين أنهم بفعلتهم يستطيعون ، وما درَوْا أنهم لا يقدرون على إخفاء =

(1) المتنبي ، شرح ديوان المتنبي ، ص 48 .

(2) ابن الأبار ، الديوان ، ق 23 ، ص 74 .

(3) نفسه ، ق 66 ، ص 158 .

(4) المتنبي ، شرح ديوان المتنبي ، ص 13 .

الشمس . وهذا معنى خاصٌّ ، عمدَ إليه ابن الأبار ليعطي بذلك دلالة جديدة من خلال تجربته الذاتية .

وقال ابن الأبار، مادحا أبا زكريا، و مشيرا إلى بيعة بعض مدن المغرب والأندلس له [الكامل]: (1)

يا دعْوةً نُـقِشَ الهُدَى بِمكـانِها لا زالَ مرصُوصُ البِنَا مَنْقُوشَا
ثَبَتَتْ بِيحيَ المُرتَـضى في فـخْرِها ما لاحَ في وجْهِ الزَّمانِ خُمُوشَـا
قدْ بَصَّرَتْ حتَّى الضَّرير وأَسْمعَتْ حتَّى الأصمَّ صِماخهُ الأُطْروشَا

ناظرا إلى بيت المتنبي المشهور في سيف الدولة ، وفيه يفخر بنفسه ، ويردّ كيد الحُسّاد الشعراء الذين أفسدوا ما بينه وبين الممدوح [البسيط] :(2)

أنا الّذي نَظَرَ الأعْمَى إلى أَدَبِي وأسْمَعَتْ كلماتِي مَنْ بهِ صَمَمُ

فكان المتنبي يفخر بأدبه ، الذي يراه الأعمى ، وبكلماته ،التي يسمعها الأصمُّ .

أما ابن الأبار فيتكئ على هذا المعنى ، و لكنه يرى في دعوة المرتضى المنقوشة في كل مكان تبصرةً للضرير، وليس الرؤية مجرد الرؤية . ونحن لا نعني المفاضلة ، ولكن نتلمس إضافة جديدة إلى المعنى السابق بوساطة لفظة (بصّرت) ،التي جعلها الشاعر تنسحب على كل ضرير ، وليس على المستوى الذاتي ـ كما فعل المتنبي ـ لأن الدعوة لا يمكن أن تؤتي أكلها إلا إذا كانت تتغيَّا الناسَ جميعا ، لا فردا واحدا .

وقال الشاعر في مناسبة العيد ، مهنئا أبا يحي زكريا ، حين قدومه على والده بتونس [الطويل]:(3)

أيمَّةُ عدلٍ أقْسَطُوا حينَ أسقَطُوا عن النّاسِ ما آدَ الرِّقابَ مِن الإصْر

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق 189 ، ص 403 .

(2) المتنبي ، شرح ديوان المتنبي ، ص 329 .

(3) ابن الأبار ، الديوان ،ق 86 ، ص 192 .

تُضِيءُ دياجِيرَ اللّيالي وُجُوهُهُم فنحنُ طوَالَ الدَّهرِ في وسطِ الشَّهر
وفَوْا بِالّذي أعْيَا الأئمَّةَ قبلَـهم وأعْيَا فُحُولَ النَّظْمِ قبْــــلِيَ والنَّثر

ولعله قد أخذه من الشاعر الحَجر[1] في بيته الثالث مما يلي [البسيط] :

اجْعَلْ لنَا منكَ حَـظًّا أيُّها القمَرُ فإنّما حظُّنَا مِن وجهِكَ النّـَظرُ
رآكَ ناسٌ فقــــالُوا: إنَّ ذا قمرٌ فقُلتُ: كُفُّوا فعِندِي منها خـبرُ
البدرُليلةَ نِصفِ الشــَّهرِ بَهْجَتُهُ حتّى الصّباحِ وهذا دهْرَهُ قَمَـرُ
وَاللهِ ما طلَعَتْ شمسٌ ولا غَرَبَتْ إلاّوجاءَتْ إليكَ الشَّمس تعتذِرُ

فالشاعر " الحجر" ، وفي بيته الثالث قد اكتفى بجعل موصوفه قمرًا دهرَه كلَّه .

أما ابن الأبار فحاول أن يستعيد المعنى ذاته ، ويضيف إليه شيئا ؛ ليجعل من ذلك النسيج فكرة خاصة به ، وليس مجرد اجترار لها ؛إذ جعل من وجوه الحفصيين ، الذين آووه وقرّبوه من مجالسهم وأكرموه أيما إكرام بعدما خرج من وطنه مكرَهاً لا مخيّرا بدورا تضيءُ في الظلمة الحالكة وتبدّد العتمة ،وهذا ما لم يأت به الأول ،ثم كثَّف في عجُز البيت ما جاء به الشاعر " الحجر" في بيت برمته .

وقال ابن الأبار في أستاذه أبي الربيع سليمان الكلاعي [المجتث] :[2]

إنْ شِئْتَ يا دهْرُ حارِبْ أو شِئْتَ يا دهرُ سالِمْ

---

(1) **الشاعر الحجَر** : هو عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن عبد العزيز بن أمية بن الحَكَم الربضي أبو بكر الملقب بالحجَر ، ومعناه بالعجمية :الحجَر اليابس . أمَّره هشام المؤيد في بعض الأوقات ،وفوّض إليه أمر طُليطلة ، وقلّده إياها مع خطة الوزارة ،فاستقلّ بمقاومة غالب (أبي تمام غالب الناصري ، صاحب مدينة سالم والثغر الأدنى) أيامَ فتنته ، حتى دعا إلى القيام بالخلافة . وكان عبد الله أحد رجالات المروانية ، عقلا وشهامة وأدبا وغزارة علمٍ وإمتاعَ حديثٍ وطِيبَ مُجالسةٍ.ومِن خبره أنه أقام مسجونا إلى أن مات المنصور وولي ابنه المظفر عبد الملك حجابةَ هشام فأطلقه واستحلّه لأبيه ، وخلع عليه ، وولاّه الوزارة وخُصَّ بهفلمْ تَطُلْ حياتُه ، وتُوفي غازيا مع عبد الملك غزواته الأولى سنة ثلاث وتسعين بمدينة"لارِدَة" ، وقبرُه بمسجدها . وكان جلْدا في محنته ،كثير الدعاء والضراعة ، قد رُزِقَ مِن الناس رحمةً.

(2) ابن الأبار، الديوان ، ق 31 ، ص 458 .

فَـصَارِمـي ومجَنّـي أبُو الرّبيعِ بنُ سَـــالِمْ

ناظرا إلى الشاعر ابن حمديس في قوله[الطويل] : [1]

تَدَرَّعْتَ صبْري جُنَّةً لِلنَّوائبِ فإنْ لمْ أُسَالِمْ يا زمانُ فَحارِبِ

كان التسلح بالصبر لدى الشاعر الصقلي أمرا طبيعيا ، مألوفا في الشعر العربي ، وهذا المنحى قد تفاداه القضاعي ؛ ليجعل جُنَّتَه وسيفَه شيخَه وأستاذه الربيعَ الكلاعي ، الذي لازمه قرابة عشرين سنة ، وكفى بها مُدةً أن يتسلح بها التلميذ أمام نائبات الدهر .

و لابن الأبار في وصف دولاب [الطويل] :[2]

ورافضَةٍ مِن مائها في هوائها نشارا يُريـها في عِداد النَّواصب

تمُجُّ كِبار الدُّرِّ في دورانِـها فلوْ لُقِطَتْ زانَتْ نُحورَ الكوَاكِبِ

متبعا ابن حمديس أيضا [الرمل]:[3]

نَثَرَ الجوُّ على التُّربِ بَرَدْ أيّ دُرٍّ لِنُحُورٍ لوْ جَمَدْ

وكما يبدو أن ابن حمديس (445 هـ/ 1053 م) قد اشتركت معه في هذا المعنى **الرميكيةُ** (زوج المعتمد بن عباد الأندلسي وأم أولاده ـ عصر ملوك الطوائف ـ) لمّا قال المعتمد واصفا صفحة الماء مع هبَّة الريح [الرمل] :[4]

صَنَعَ الرِّيحُ مِن الماء زَرَدْ .

وطلبَ مِن وزيره ابن عمار الشاعر ـ وقد زَرَدَتِ الريحُ النهرَ ـ أن يوجِزَ فسَكتَ ولم يُجِبْ . فقالت امرأة ذاتُ جمالٍ ، وكانت آنذاك بجانب النهر ، تغسل أثوابا (وهي الرميكية) [1] :

---

(1) ابن حمديس ، عبد الجبار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس الصقلي السرقوسي، ديوان ابن حمديس ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، صححه وقدم له : إحسان عباس ،دط ، 1960 ، ص 27 .

(2) ابن الأبار ، الديوان ، ق 14 ، ص 63 .

(3) ابن حمديس ، ديوان ابن حمديس ، ص 97 .

(4) المعتمد بن عباد ، ديوان المعتمد بن عباد ، تح:رضا الحبيب السويسي ، الدار التونسية للنشر دط، 1975 ص76 .

أيُّ دِرْعٍ لِقتالٍ لوْ جَمَد .

فسأل عنها الأمير المعتمد بن عباد ، وتزوجها ، وأنجب منها .

وتصوير الشعراء لِلدولاب،الذي كان يركّب في الحدائق والبساتين ،تُوصَل به المياه إلى النبات كان دورانه قد أجرى خيالهم ووسّع من المعاني ،التي نسبوها إليه ؛ فمَن جعله باكيا ومَن رآه عاشقا دنفا ، ومَن جعله فرحا ، شاديا ،.. وكان ابن الأبار واحدا من هؤلاء الذين استهوتهم هذه الآلة الحضارية ، فنظَم فيه أكثر من مقطوعة ؛ منها التي بين أيدينا ، حيث يشبه الشاعر المياه المتطايرة من فوهة الدولاب الدوَّار بدراري كبيرة ، تمنى لو التُقطتْ و وُضعت على صدور النساء اللائي شبّههن هن الأخريات بالكواكب . وفي هذه التصوير إبداع ، بعد أن استطاع أن يجمع بين المياه المقذوفة من الدولاب والدراري و صدورالنساء الجميلات مستفيدا من معنى الشاعر الصقلي حينما شبَّه حباتِ البرَد المنثور على الأرض بالدر على النحور لو جمد .

تبين لنا من خلال هذا الفصل أن الشاعر ابن الأبار له من محفوظ شعر الأقدمين ما يجعله في قمة المبدعين ؛ ذلك أن هذا الشعر الغزير ، الذي ضمه قلبه ، إنما كان من العوامل الخطيرة التي لأثرت تجربته الشعرية في خلال ثلاثة عقود من حياته ، التي تقاسمتها بيئتان مختلفتان .

ولم يكن الشاعر يُعنى بشعر فترة فحسبُ ، وإنما كان ملما ـ أيَّ إلمام ـ بكل ما سبقه في إبداعاتهم ومتمثلا بوعي كبير هذه التجارب الفردية والعامة ، على حد سواء .

=

(1) " **اعتماد**" الرميكية ؛ أم الأولاد ، والتي بدأت قصته معها على ضفاف نهر ، بسبب إجازتها لشطر بيت كان قد قال أوله المعتمـد ، وأكملته هي بعد تردد ابن عمار رفيق الأمير آنئذ ، ليكـتب هذا الشطر قصة الحب بين الأمير وبين اعتماد وتزوجا ، ورزقا البنين والبنات ، وكان لهذه العلاقة الزوجية صدى في إشبيلية وعند فئة الفقراء ورجال الدين خاصة الذين استنكـروها وازداد غضبهم لما نُمِيَ إليهم بأن لهذه الزوجة رأيا محترما ويدا طولى لدى الأمير في تسيير شؤون الدولة .(وينظر:المقري ، النفح ، 4/ 211) .

3 ـ المعارضات الشعرية :

المعارضة : أن ينْظِم الواحد على مثال ما نظَم الآخرُ من القصائد ، متقيدا بالموضوع والبحر والقافية ، بغضّ النظر عن موافقته في المعنى أو مخالفته .

ولقد عرّفها أحمد الشايب بقوله : ((**أَنْ يقول شاعر قصيدة في موضوع ما من أي بحر وقافية فيأتي شاعر آخر فيعجب بهذه القصيدة ؛ بجانبها الفني وصياغتها الممتازة فيقول قصيدة من بحر الأولى وقافيتها ،وفي موضوعها ، أو مع انحراف عنه يسير أو كثير حريصا على أن يتعلق الأول في درجته الفنية أو يفوقه فيها دون أن يعرض لهجائه أوسبِّه ودون أن يكون فخره صريحا علانية فيأتي بمعان أو صور بإزاء الأولى تبلغها في المجال الفني أو تسمو عليها بالعمق أو حسن التعليل ، أو جمال التمثيل ، أو فتح آفاق جديدة في باب المعارضة**)) .[1]

وقد جاءت معارضات الأندلسيين للمشارقة من أبواب كثيرة ، لعل أهمَّها الإعجاب والتحدي في الآن نفسه : ((**فهذا ابن عبد ربه مثلا ، يورد نماذج لأبي تمام وغيره من أعلام شعراء المشرق ، ثم يورد أشعارا له في الموضوعات نفسها أو مع بعض الأفكار المتشابهة والصور المتقاربة وهو يشير بهذا العرض إلى مقدرته كشاعر أندلسي ،ويحاول إثبات تفوقه على هؤلاء الأعلام...**)).[2]

وقد اهتم الشعراء الأندلسيون بفن المعارضات اهتماما ملحوظا ، يجعل الكثير من الباحثين يتساءلون حول هذه العناية الخاصة . ويبرر" إحسان عباس " هذا التقليد للمشارقة باعتباره طبيعيا ، بل يكاد يكون ـ حسبه ـ حتميا لأسباب ؛ ذَكَر منها حاجةَ الأندلسيين إلى المشرق لأنه أرقى حضارة ، وأن الوسيلة التعبيرية عندهما واحدة .[3]

---

(1) أحمد الشايب ، تاريخ النقائض في الشعر العربي ، نمتبة النهضة المصرية ، ط3 ، 1998 ، ص 7 .

(2) إيمان السيد ، أحمد الجمل ، المعارضات في الشعر الأندلسي ، عالم الكتب الحديث وجدارا للكتاب العالمي الأردن ، ط1 ، 2006 ، ص 45 .

(3) ينظر : إحسان عباس ،تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين ،دار الشروق للنشر والتوزيع عمان ، الأردن ، 1997 ، ص 48 ، وما يليها .

أما " يونس طركي سلّوم البجاري " فيرجع سبب ازدهار المعارضات إلى دواعٍ عامة وينضوي تحتها نزعةُ الإعجاب والتقليد ، ونزعة التفوق والإبداع ، وأخرى خاصة جاءت نتيجة إعجاب ملِكٍ من ملوك الأندلس بقصيدة معينة ؛ أي كانت الرغبة فيها شخصية .[1]

ويمكن أن يضاف إلى تلك الأسباب عنصرٌ ، نجده خاصا بالشاعر ابن الأبار وبعض الشعراء الآخرين ؛ ألا وهو إبداء المقدرة والكفاءة على الخوض في هذا الفن ، بخاصة حينما كان في العدوة الإفريقية ، إذ كان لزاما عليه أن يبدي تفوقه على أقرانه ، الذين هاجروا معه من الأندلس ، أو على البلديين أيضا ؛ لأنه أحوج ما يكون بجنب الحكام كما أَلِف وتعوّد ؛ حتى يحظى بالتقريب والتبجيل كما عوّدوه في بلنسية ، إلى جانب أنه لا يملك حرفة أخرى يتقوّت بها وينال بها الحظوة وهو صاحب البأو والكبر ـ كما عُرف عنه ـ

كما يقف دليلا على ذلك ثقافةُ الشاعر الموسوعية ،ونسجه على كل الألوان الأدبية والدينية والتاريخية ؛ لأن المعارضة دليل اتساع الثقافة ،وتبحر صاحبها في شتى العلوم وأصناف المعارف ولا علاقة لذلك بالتقليد مجرد التقليد ؛ ولأن شعراء الأندلس لا يقلون أهمية عن غيرهم من شعراء المشرق ؛ فالشاعر ابن دراج القسطلي ـ مثلا ـ كان عندهم بمثابة المتنبي بين قومه ((**كان عندهم بصُقْعِ الأندلس كالمتنبي بصقع الشام ؛ وهوأحد شعرائهم الفحول هنالك.**)) .[2]

كما أن المعارضاتِ نوعان :

يطلق على الأول اسم " **المعارضة الصريحة** " وهي: ((**أن توافق القصيدة المتأخرة القصيدة المتقدمة في وزنها و قافيتها ، وأن يكون الغرض منهما واحدا أو متماثلا ، بحيث تكون القصيدة المتأخرة صدى واضحا للقصيدة القديمة ، بدافع الإعجاب...أما ماعدا ذلك من القصائد التي فقدت أحد العناصر المذكورة ، فهي ـ في رأينا ـ معارضات ضمنية لا صريحة ... والمعارضات**

---

(1) ينظر : يونس طركي سلّوم البجاري ، المعارضات في الشعر الأندلسي ، دراسة نقدية موازنة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 2008 ، ص 62 .

(2) ابن بسام ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القسم 1 ، المجلد 1 ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا ـ تونس ـ تحقيق : إحسان عباس ، دط ، 1981 ص 60 .

الصريحة إما أن تكون معارضة كلية أي لكل القصيدة القديمة ، أو تكون معارضة جزئية وهي ما اقتصر فيها الشاعر على معارضة جزء من القصيدة القديمة كاقتصاره على معارضة الغزل في قصيدة مدح قديمة أو العكس)) .[1]

بينما يطلق على النوع الثاني " **الضمنية** " ، أين تتفق فيه ((**القصيدتان المتأخرة والمتقدمة في عناصر الشكل الخارجي ، وتختلفان في الموضوع العام...وإذا اختلفتا في الموضوع العام ، لابد من اتفاقهما في الوزن والقافية ، وهذا النوع من المعارضات الشعرية غالبا ما يختفي منه وعيُ الشاعر للمعارضة ،وينطلق على سجيته معتمدا على موروثه القديم ، متداخلا مع غيره من الشعراء السابقين)) .**[2]

وتبعا لهذا الشكل الأدبي يقول ابن الأبار [الطويل]:[3]

تَهَابُ السُّيوفُ البِيضُ والأُسُلُ السّمرُ وأَقْتُلُ منهُنَّ الغلائلُ والخُمْرُ

معارضا بذلك الشاعر العباسي أبا فراس الحمداني[4] [الطويل] :[5]

أراكَ عصيَّ الدَّمْعِ شِيمتُكَ الصَّبْرُ أمَا لِلهَوى نَهْيٌ عليكَ ولا أمْرُ

....

---

(1) عبد الرحمن إسماعيل ، المعارضات الشعرية ، دراسة تاريخية ونقدية ، النادي الأدبي ، جدة ، دط ، 1994 ص50 .

(2) عبد الرحمن إسماعيل ، المعارضات الشعرية ، دراسة تاريخية ونقدية ، ص50 .

(3) ابن الأبار ، الديوان ، ق 97 ، ص 215 .

(4) **أبو فراس** : هو الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي الربعي، أبو فراس الحمداني (320 ـ 357هـ/ 932 ـ 968م):أمير شاعر ، فارس، وهو ابن عم سيف الدولة .كان الصاحب بن عباد يقول:بُدِئَ الشعر بِملِك وخُتِم بملِك.يعني امرء القيس وأبا فراس.وله وقائع كثيرة.قلّده سيف الدولة منبجا وحران وأعمالها.أسر سنة 351هـ،وامتاز شعره في الأسر بالروميات.بقي في القسطنطينية ،ثم فداه سيف الدولةبأموال عظيمة.(ينظر: الزركلي ، الأعلام 2/ 155) .

(5) أبو فراس ، ديوان أبي فراس الحمداني ، شرح : خليل الدويهي ، دار الكتاب العربي ،بيروت ،لبنان، ط5 2003 ، ص 165 .

فَمَنْ ضَامَهُ دهْرٌ وألْوَى بِـوَفْرِهِ فَمِنِّي له نصْرٌ وعِنْدِي [له] وفْرُ

ناظرا في ذلك إلى أبي فراس ، يفخر ، وقد بلغه أن الروم قالت :ما أسرْنا أحدا لم نسلُبْ سلاحه غيرَ أبي فراس :[1]

وما حاجَتِي بِالمالِ أَبْغِي وُفُورَهَ فَمِنِّي له نصْرٌ وعِنْدِي له وفْرُ

فمن النظرة الأولى للأبيات لدى الشاعرين يستوقفنا البناء الإيقاعي الذي تشكلت منه الأبيات ؛ فمستوى الإيقاع الخارجي يمثله الوزن والقافية ؛ فأما الوزن ، فقد نظم كلا الشاعرين (أبو فراس وابن الأبار) على بحر الطويل (فعولن ، مفاعيلن ،فعولن ، مفاعيلن).

أما الرويُّ فـ **"رّاءٌ "**مضمومةٌ . والواقف على قراءة هذا الحرف يدرك مدى موسيقيته الخاصة لذلك نظم على نغماته شعراءٌ كثيرون أكبرَ قصائدهم ؛لأن الراء أرقّ الحروف العربية في التقفية وخير مثال على ذلك قصيدة ابن عبدون(... ـ 529هـ/ ...1135م)[2] (البسامة) الشهيرة في رثاء بني الأفطس ،شرح قصيدة ابن عبدون ؛ الأديب الفاضل عبد الملك بن عبد الله بن بدرون الحضرمي ثم السبتي ، وسماه : " كمامة الزهر وفريدة الدهر " . والقصيدة من نظم أبي محمد عبد المجيد بن عبدون الوزير الفهري (ت 529 هـ) ، وهي رائية في التاريخ مرثية بني الأفطس . ذكر فيها الملوك الماضية وأكثر وقائع العالم ، وقيل : هي من أمهات القصائد ذكر فيها : عدة من مشاهير الملوك والخلفاء الأكابر ، و التي كُتب لها الخلود واستأثرت بعديد الشروح ؛ كشرح ابن بدرون[3] ، كما تعرض إليها من المحدثين " الطاهر أحمد مكي "[4]

---

(1) أبو فراس ، ديوان أبي فراس الحمداني ، ص 165 .

(2) هو عبد الملك بن عبد الله بن بدرون الحضرمي الاندلسي، المتوفى سنة 529هـ .

(3) ينظر : ابن بدرون ، شرح قصيدة ابن عبدون لابن بدرون ، اعتنى بتصحيحه وطبعه: رينهرت دوزي (مخطوط رقم النسخة:310465 ، مصدر المخطوط : مخطوطات الأزهر الشريف ، مصر) ، مطبعة الأخوين لختمنس ، ليدن ، 1846 .

(4) ينظر : الطاهر أحمد مكي ، دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة ، دار المعارف ، القاهرة، مصر ط 3 ، 1987 ، ص 245، وما بعدها .

ومحمد مفتاح[1] بالشرح والتحليل ، والتي أولها [البسيط] :[2]

الدّهرُ يُفجع بعد العينِ بالأثر وما البكاءُ على الأشباح والصّور

أما المستوى الإيقاعي الداخلي ، فيبرز هو الآخر جليا من خلال الألفاظ المتخيرة ، سواء ألفاظ القافية ، أو ألفاظ أقسام البيت الأخرى ، أوترديد بعض الحروف التي توزعت على الأبيات كحروف المدّ ؛ إذ نجد ابن الأبار وأبا فراس الحمداني قد تناصا في كلمات وتقاربا تقاربا كليا فيها ، ومنها :

(**الخمر، الصبر ، العمر ، الهجر، الكِبر ، الفخر ، الدهر ، خضر ، الكفر ، قَبر، البحر، عذر، وفر النضر، النسر، النصر، عمرو**) . فهذا التوافق الإيقاعي قد صبّه الشاعران كلاهما في غرضي الفخر و المدح المسبوقين بغزل .

وعلى الرغم من هذا الفارق الطفيف في الغرض الرئيس بين القصيدتين ،إلا أننا لا نكاد نلحظ ذلك ، بحكم التقارب الذي غطى على النصين . وإذا كان الحمداني يفخر بنفسه وبشجاعته وثباته في ميدان الوغى ، فإن ابن الأبار قد قسَم فخرَه فخريْن ؛ أول خصَّ به نفسه ونسبَه لقضاعة وبكرم أصلها وجرثومة (أصل) مَحْتِدِها ،وفخرٌ ثانٍ جعله لأبي زكريا الحفصي وإشادة بسمو كرمه ، و علو مكانته . بالإضافة إلى عدد الأبيات الذي يكاد يكون واحدا (عند أبي فراس أربعة وخمسون بيتا ، وعند ابن الأبار سبعة وأربعون بتيا مبتورة في النهاية) .

وقال ابن الأبار [الطويل] : [3]

هنيئاً له عادَى أَعادِي إمامِه مُكاثَرَةً وقْعَ الحيَا مِن غَمامِه

معارضا الشاعر المتنبي معارضة صريحة ، عندما مدح سيف الدولة لَمَّا مَنَّ عليه بإقطاع قريب مِن

---

(1) ينظر : محمد مفتاح ، تحليل الخطاب الشعري (اسراتيجية التناص) ، المركز الثقافي العربي ، بيروت،لبنان الدار البيضاء ، المغرب ، ط3 ، 1992 ، ص 175 ، وما بعدها .

(2) ينظر : ابن الأبار ، ص 102 ـ 103 .

(3) ابن الأبار ، الديوان ، ق 121 ، ص 266 .

معَرَّة النعمان [الطويل] :[1]

أيا رامياً يَصْمِي فُؤادَ مَرَامِه　　تـربي عداهُ ريشَها[2] لِسهامِه

(أسيرُ إلى إقْطاعِهِ في ثيابِـه　　على طِرْفِهِ مِن دارِهِ بِحُسَامِه) [3]

ومنذ الوهلة الأولى يتبين القصد بالمعارضة ، والوعي بذلك ؛ذلك أن الاتفاق بين القصيدتين (العباسية والأندلسية ـ هنا ـ) قد حصل في " الغرض " ، الذي كان شكرا ومدحا ، يضاف إلى ذلك الاتفاق في الوزن " الطويل " و في " الروي " الممثل بالميم المشبعة بالكسر و هاء الوصل .

وللتدليل على هذا القصد إيرادُ الشاعر ابن الأبار بيتا كاملا،نُسب إلى المتنبي،لمّا قال[الطويل]:[4]

حَبَا وحَمى في عُسْرَةٍ ومَخَافَةٍ　　فهَا أنَا ذَا في كَلِّهِ واحْترامه

(أســيرُ إلى إقطاعِه في ثيابِه　　على طِرْفِه مِن داره بِحُسامه)

والبيت الثاني هو المعني بالكلام ، وقد وضع بين قوسين .

كما قال ابن الأبار أيضا [الكامل[5]] :

بِينِي ثلاثًا سَلْوةَ الأيَّـامِ　　أوْدَى الحِمامُ بِناصرِ الإسلامِ

إشارة إلى بيت أبي تمام ، الذي يمدح فيه الواثق، ويهنئه بالخلافة ، ويرثي المعتصم بالله [الكامل]:[6]

مالِلدُّمُوع تَرومُ كلَّ مَرام　　والجفنُ ثاكِلُ هَجْعَةٍ ومَنامِ

....　　..........................

---

(1) المتنبي ، شرح ديوان المتنبي ، ص 353 .

(2) **الريش** : كناية عن المال وغيره .

(3) **طِرْفه** : الطِّرْف : الفرس الكريم . **الحسام** :إشارة إلى منن ونعم الممدوح عليه .

(4) ابن الأبار ، الديوان ، ق 121 ، ص 267 .

(5) نفسه ، ق 120 ، ص 262 .

(6) أبو تمام ، شرح ديوان أبي تمام ، 2/ 100 .

لِلهِ أيُّ حيَاةٍ انْبَعثَتْ لنَا   يومَ الخميسِ وبعْدَ أيِّ حِمَام !
أوْدَى بِخيرِ إمامٍ اضْطَربَتْ بهِ   شُعَبُ الرّجالِ وقامَ خيرُ إمامِ
تلـكَ الرّزيّـَةُ لا رزيّـَةَ مِـــثلُها   والقِسْـــمُ ليسَ كسائرِ الأقـسامِ

وكان ابن الأبار قد صرّح في ذات القصيدة بأبي تمام الذي سبقَه :[1]

كُنتُ المُطِيلَ مُهَنِّئاً ومُعَزِّياً   لكنْ كفـانِـيها أبو تمـــــّام
((تلك الرّزيَّةُ لا رزيَّةَ مِثلُها   والقسْمُ ليسَ كسائرِ الأقسام))[2]

فالبيت الأخير لأبي تمام أصلا ، ونجد ابن الأبار قد قدَّم لهذا البيت بمعنى ورد عند أبي تمام أيضا ، مبديا حزنه على خير إمام ، أودى به يوم الخميس الحِمام .

وتضمين ابن الأبار لأبيات شعراء بكاملها أمر مألوف عنده ، كنا قد أشرنا إلى ذلك في التضمين الشعري ـ قبل المعارضات ـ غيرَ مُخْفٍ لِما أقدم عليه في هذا الصنيع .

أما الناظر إلى قصيدة الحصري القيرواني الضرير ، يجدها تزخربالصبابة ومسامرة النجوم. استرسل في ثلاثة وعشرين بيتا متغزِّلا ، ثم تخلَّص في البيت الرابع والعشرين إلى ممدوحه " أبي عبد الرحمن محمد بن طاهر ؛ صاحب "مرسية" ؛و هي اعتذارية .

ومعارضة القصائد ، التي سنشير إليها كانت في حقيقة الأمر للشقّ الأول من القصيدة الأصلية،المتعلقة بالنسيب . وهي من بحر " الخبب" المرقص ،دالية القافية ،بعدها هاء مضمومة .

وكان السبب في نظم قصيدة " ياليل الصب متى غده" ، التي بلغت أبياتها تسعةً وتسعين بيتا أنَّ وِشايةً بلغت إلى الأمير ، تتهم الحصري الشاعر بشتمه إياه في مجالسه وقد كان الحصري إذْ ذاك منتصبا للتدريس بأحد مساجد "مرسية" فرفع إليه الحصري هذا القصيد يفند فيه الوشاية ويتملص من التهمة وكانت هذه إحدى التهم المتعددة التي طالته .

---

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق 120 ، ص 265 .

(2) **الرزية** : المصيبة . (ينظر : ابن منظور ، اللسان ، 5/ 193) . **القسم** : النصيب والحظ .

ولقد عارض هذه القصيدةَ أكثرُ من واحد ؛ منهم المتقدمون والمتأخرون ، وقد اعتمدنا نحن نص القصيدة (الأبيات المعارَضَة) ، الذي جمعه الأستاذ " عيسى اسكندر المعلوف اللبناني " صاحب مجلة " الآثار " ومؤلف تارريخ " الأسر الشرقية[1] " ، ضمنها كلمة في المعارضة لغة واصطلاحا وتراجم قدماء المعارضين ،وإعراب مطلع القصيدة الأصلي ، ثم قصائد المعارضات

---

(1) قسم المؤلف المعارضات التي جمعها إلى : معارضات قديمة ، بدأها بقصيدة الحصري القيرواني الأصلية في ثلاثة وعشرين بيتا ، ثم تلاها بمعارضة أبي الفضل(نجم الدين القمراوي ، نسبةإلى قمراء؛قرية بالشام) ولد نحو 591هـ/ 1194م ، وتوفي في طريه إلى اليمن سنة 651هـ/ 1253م).ثم عرض أبيات ابن الأبار القضاعي وبعدهما قصيدة السيد شمس الدين الحسيني الشهير بالحُصري الدمشقي (له ديوان شعر جيدٌ توفي بعدسنة1111هـ/ 1699م . ومعارضات حديثة ؛ بدأها بشعراء مصر (أحمد شوقي ، ولمّا وقف عليها إسماعيل باشا صبري عارضها بأبيات أرسلها إلى المعارض ، وباراهما "ولي الدين يكن" المصري المعروف بأبيات أخرى ، ثم قال في المعنى ذاته شاعران آخران ، وبعدهما قال أيضا محمود أفندي ، ثم محمود أفدي رمزي بأبيات أخرى .

أما معارضات شعراء المهجر ، فقد ذكر جامعها : قيصر بك المعلوف ، ثم " نخله أفندي أسعد الحلو" التي بعث بها إلى جبران خليل جبران ، ثم " رشيد أفندي أيوب اللبناني. أما شعراء العراق ، فيذكر : جميل أفندي زهاوي البغدادي . وأما شعراء سوريا ولبنان فيذكر: الأمير نسيب أرسلان اللبناني ، ومسعود أفندي سماحة اللبناني ، وقد عثر جامعها على أبيات رشيقة للأديب راشد أفندي راشد (طالب بالقسم الثانوي بالمدارس المصرية ، نشرت للفائدة) ليختم جامع هذه المعارضات مُشطِّرا قصيدة الحصري ، في وصف الحرب العامة منها :(يا ليل الصب متى غده)   فالحرب يمدُّك أسودُهُ ليليَهُ ابنُهُ " فوزي المعلوف " متفننا في وصف الوحل ،في باب توما في دمشق (بليلة ماطرة) .

ونضيف إلى هذه الأسماء اللامعة اسم كل من : عبد الله الأول بن الحسين، في قوله:

حبا يعنيك تجدّده   وهوى يغريك تعدّده .

وقول أبي القاسم الشابي(1909 ـ 1934م) :

غنّاه الأمس وأطربه   وشجاه اليوم فما غده.

معارضة بشارة الخوري(الأخطل الصغير) النّجم بثغرك أرصده   والليل بشعرك..

معارضة الشاعر هارون هاشم رشيد: وطني أعياه تنهّده   فانساب الدّمع يهدهده

محمود بيرم التّونسي :   اليوم الأسعد مولده   مصباح الدّهر وسيّده .

مرتبة بحسب مواطن الشعراء ، وقد عُني بنشرها " يوسف توما البستاني " صاحب مكتبة "العرب" بالفجالة بمصر .

أما القصيدة كاملة فقد استقيناها من مؤلَّف" يا ليل الصّبّ ومعارضاتها " لـ " محمد المرزوقي، والجيلاني بن الحاج يحي "[1] .

فقال ابن الأبار في معارضة جزئية صريحة ـ أيضا ـ في قسم من القصيدة ، المتعلق بالمقدمة الغزلية ؛ أي في اثنين وعشرين بيتا من مجموع ستة وسبعين [المتدارك]:[2]

مَرْقُومُ الخَـدِّ مُـــــوَرِّدُهُ   يَكْسُونِي السُّقْمَ مُجَرَّدُهُ
شفَّافُ الدُّرِّ لـه جَســـَد   أَبِي مَا أَوْدَعَ مُجْسَــدَهُ
في وجْنَـتِهِ مِن نعمــــتِه   جَمْرٌ بِفُؤادِي مَـوْقِـدُهُ
و بِفِيهِ شِفَاءُ ظَـــمائي لوْ   يَـدْنُهُ لِذِمائي مَـورِدُهُ
و يَدِينُ بِصِدقِ اللهجَةِ مَنْ   إقْصَادُ المُهجَةِ مقصِـدُه
أَسْتَـنْجِزُ مَوعدَهُ فـيَرَى   خُلْـفاً أن يُـنْجَزَ مَوعدُه
وأُقيمُ العُـذرَ لِعُـذَّلِــهِ   في خَوْنِ العهدِ فَيُقْـعِدُهُ
كَم يَفرِدُنِي بِالذُّلِّ هــوَى   صِلْفٍ بِالـدَّلِّ تَفَـرُّدُهُ
يَجفُو المَعْـمودَ فيُعْـدِمُهُ   ويَهُـشُّ إليهِ فَيُـوجِدُه
لمْ يرْضَ سِوى قلبِي وطَـناً   لكنْ بِالهَـدِّ يُـهَـدِّدُهُ
ما سَلَّ حُسامًا نـاظِــرَهُ   إلاَّ وهُنالكَ يُـ(غْمِـ)ـدُهُ
وله في النَّحْرِ لِنَاهِــذِهِ   رُمْحٌ لِلنَّحْرِ يُسَـدِّدُهُ
نَـظَرَتْ عينَايَ له خَطـأً   فَأَبـى الأنظـارَ تَغَمُّـدُهُ

---

(1)الحصري ، يا ليل الصّبّ ومعارضاتها ، محمد المرزوقي ، والجيلاني بن الحاج يحي ، الدار العربية للكتاب ط 2 ، 1986 . ص 12 ..17 .

(2) ابن الأبار ، الديوان ، ق 76 ، ص 154 ـ

رِيـمٌ يَرْمِي عن أكْحَـلِهِ ... زُرْقًـا تُصْمِي مَنْ يَصْمِدُهُ
مَتَدَانِي الخُطوةِ مِنْ تَـرَفٍ ... أَتُـرَى الأحْـجَالُ تُقَيِّـدُهُ
يُـدْمِيهِ الوَشْـيُ بِآيَةِ مـا ... يُـنْضِيهِ الحَلْيُ ويُجْـهِـدُهُ
ولاَّهُ الحُسْنُ وأَمَّـــرَهُ ... وأتَــاهُ السِّحْرُ يُـؤَيِّــدُهُ
(بِغُروبِ) الجَوْنَةِ مَطلعُهُ ... و وفـأةُ السَّلْوةِ مَـوْلِـدُهُ
قَمَرَالأقمـارَ سَناهُ كَـما ... أَوْدَى بِالغُـ(ـصْن)تـأَوُّدُهُ
أ(صْـ)دَى لِلوصْلِ وأحْفَدُهُ ... فَيَـصُدُّ كأَنِّـي أحْقِـــدُهُ
و البُـغْضُ يُنَوِّلُنِي صَفَـداً ... وأنا فـي (الحُبِّ) مُصَـفَّدُهُ
هـلاَّ أَوْلَى مِن قَسْـــوتِهِ ... بَـدَلاً بِالعطْفِ يُؤَكِّــدُهُ

ثم يتخلص الشاعر إلى ممدوحه أبي زكريا و ولديْه ، فيقول :

وتَقَبَّلْ مِـنْ يـحْيَ شِيَـماً ... تَلْـقَى المَنجُودَ فَتنْجِدُهُ
مَلِكٌ لمْ تَـأْلُ إيَـالـتُ ... نَـظَراً لِلمُلْكِ يُمَـهِّـدُهُ
بِالطَّـوْلِ يُسْأَلُ مُـهَنَّؤُهُ ... والصَّـولُ يُـسَلُّ مُهَنَّدُهُ

معارضًا الشاعر الحصري القيرواني الضرير[1]،

(1) **الحصري القيرواني الضرير**: هو أبو الحسن علي بن عبد الغني الفهري المقري الضرير الحُصري القيرواني الشاعر المغربي ، المولود بالقيروان ، وبها نشأ ،واشتهر بالشعر .ولّما خرب وطنه دخل الأندلس في منتصف القرن الخامس الهجري .اتصل بملوك الطوائف ، ولما سقطت دولتهم عاد إلى طنجة بالمغرب ، ثم عاد إلى الأندلس ثانية وبعدها عاد أدراجه إلى طنجة ، وتوفي فيها سنة 488 هـ/ 1095م .و"الحصري" نسبة إلى صناعة الحصر ،وقيل إلى مدينةحصر الدارسة التي كانت قريبة من القيروان .ويربطه نسبٌ بابن خالته يدعى"أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن تميم الحصري القيرواني ،المتوفى ستة 413 هـ/ 1022م وهو مؤلف كتاب"زهر الآداب وثمر الألباب " وكتاب " المصون في سر الهوى المكنون" ، وكان شاعرا هو أيضا.له دواوينُ أربعة: – ديوان مستحسن الأشعار وهو فيما قاله في المعتمد ابن عباد ـ ديوا ن المعشرات وهو شعره الفنِّي الغزلي.– ديوان مختلف المناسبات ـ ديوان اقتراح القريح واجتراح الجريح .

الذي يقول [المتدارك] :[1]

يا ليلُ الصَّبّ[2] مَتى غَدُهُ — أقيامُ السَّاعةِ موعِدُهُ
رقَدَ السمّار فــأرّقَهُ — أسَفٌ لِلبَيْنِ يُــرَدِّدُهُ
فبَكَاهُ النَّجْمُ ورَقَّ لـــهُ — مِمَّا يرْعَاهُ ويرصُـــدُهُ
كلِفٌ بِغَزالٍ ذي هيفٍ — خوفُ الوَاشينَ يُشرِدُهُ
نَصَبَتْ عَيْنَايَ لهُ شَرَكًا — في النَّومِ فعَــزَّ تَصَيُّدُهُ
وكَفى عَـجَبًا أنِّي قَنِصٌ — لِلسّربِ سَبَانِي أغيدُهُ

(1) معارضات قصيدة " يا ليل الصب" للحصري القيرواني ، جمع : عيسى اسكندر المعلوف اللبناني ،مطبعة الهلال ، لبنان ، دط ،1921 .

* **قيل** : سُمّي **بالمتدارك** ؛ لأن أبا الحسن الأخفش (ت .215هـ) قد تدارك به على الخليل ،وقيل لأنه تدارك "المتقارب"،وسمي "بالمتسق" أي المنتظم .و"بالشقيق"لأنه أخو المتقارب .و "بالخبب" تشبيها له بالمجتث الذي هو نوع من السير .(ينظر:الخواص، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عباد بن شعيب القنائي الكافي في علمي العروض والقوافي ، تح : عبد المقصود محمد عبد المقصود ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ط1 2006 ، ص 100) .

(2) أُعرب مطلعُ القصيدة على أوجه متعددة ؛ من أهمها : **أ-** ياليلَ الصَّبِّ متى غَدُهُ : بنصب "ليل" على النداء لإضافته إلى "الصب" .وفيه التفات إذا أُرجع الضمير إلى "الليل" ؛أي (يا ليل الصب متى غد ليل الصب) .وأما إذا أرجعته إاى الصب فلا. وفي الكلام تجريد أيضا كأنه يقول (يا ليلي متَى غدُكَ) .وهذا أفضل أوجه الإعراب . **ب-** ياليلُ الصَّبُّ متَى غدُهُ : فكون "ليل "مبنية على الضم في محل نصب على النداء والجملة بعدها مبتدأٌ وخبر. ويجوز فيها (يا ليلِ) ؛ يا ليلي ، فحُذفت الياء على قاعدة المنادى المضاف إلى ياء المتكلم. ولكن الخبر في هذا الوجه على الحالين إنشائي ، وذلك نادرر. **ج-** يا.ليلُ الصَّبِّ متَى غدُه فتكون (يا) للتنبيه . أو لنداء اسم محذوف تقديره (ياقوم) ونحوه . و" ليلُ الصبِّ متى غده " : جملة من مبتدإ وخبر وفيه وقوع الجملة الخبرية إنشائية كما مرَّ في الوجه الثاني . وأن تكون" أل" في (الصب) للجنس فيصير المعنى (يا ليل كلِّ صَبٍّ) . (ينظر: معارضات قصيدة " يا ليل الصب" للحصري القيرواني جمع : عيسى اسكندر المعلوف اللبناني ،مطبعة الهلال ، لبنان ، دط ،1921ص 5 ـ6 .) .

صَنَمٌ لِلفتنةِ مُنـتَصِـبٌ أهْـــــواهُ ولا أتَعَبَّدُهُ
صَاحٍ والخمرُ جَنَى فَمِهِ سكْرانُ اللَّحْظِ مُعرْبدُهُ
يَنْضُو مِنْ مُقْلَتِهِ سيـفًا وكأنَّ نُعَاسًا يُغْمِـــدُهُ
فَيُرِيقُ دَمَ العُشَّاقِ بـــهِ والويْلُ لِمَنْ يتَقَــلَّدُهُ
كَلاَّ لا ذنْبَ لِمَنْ قتَــلَتْ عَيْنَاهُ ولمْ تقْتُـــلُ يَدُهُ
يَا مَنْ جَحَدَت عَيناه دمي وعَلَى خَــدَّيْـهِ تَـوَرُّدُهُ
خَدَّاكَ قَدِ اعْتَرَفَا بِــدَمِي فَعَلاَمَ جُفُونُكَ تَجْحَدُهُ
إنِّـى لأُعِيذُكَ مِنْ قَتْـلِي وَأُظُـنُّكَ لاَ تَـتَعَمَّــدُهُ
بِاللهِ هَبِ الْمُشتَاقَ كَـرًى فَلَـعَلَّ خَيَالَك يُسْعِدُهُ
مَا ضَرَّكَ لوْ دَاوَيْتَ ضَنَى صَبٍّ يُدْنِـيكِ وتُبْعِدُهُ
لمْ يُبْقِ هَــوَاكِ لهُ رَمَقًــا فَلْيَـــبْكِ عَليْهِ عُــوَّدُهُ
وَغَدًا يَقْضِي أو بَعْدَ غَــدٍ هَـلْ مِنْ نظَرٍ يَتَــزَوَّدُهُ
يَا أهلَ الشَّوقِ لنَا شَــرَقٌ بِالدَّمْــعِ يَفِيضُ مَوْرِدُهُ
يَهْوَى الْمُشتَاقُ لقَاءَكــمُ وصُرُوفُ الـدَّهرِ تُبَعِّـدُهُ
مَا أَحْلَى الوَصْـلَ وأعْذَبَهُ لَـوْلاَ الأيـامُ تُـنكِّــدُهُ
بِالبَـيْنِ وبِالهجْــرانِ فَـيَا لفُـؤَادِي كيفَ تَجَلُّدُهُ ؟
الحُبُّ أعَــفُّ ذَوِيــهِ أنَ غيْرِي بالباطِلِ يُفْسِــدُهُ

ثم يتخلص إلى ممدوحه:

كالدَّهْـرِ أَجَـلُّ بَنِيهِ أبـــو عبدِ الرحمـنِ مُحمَّــدُهُ
العَــفُّ الطَّاهرُ مِئْـــزرُهُ والحُـرُّ الطَّيِّبُ مَــولِدُهُ
شَفَـعَتْ في الأصلِ وزارتهُ وزكَا فـتَفَوَّقَ سُــؤْدَدُهُ
كسبَ الشَّرفَ السَّامي فَغَدَا فوقَ الجَـوزاءِ يُشَــيِّدُهُ
....

ومنها في الاعتذار عمَّا نُسِبَ إليه ، وتكذيب ادّعاء الأعداء :

أتُرَاكَ غَضِبْتَ لِما زَعَمُـــوا   و طَـمَى مِن بـحرِكَ مُزْبَدُهُ
وبَـداَ مِنْ سيفِكَ مُـــبْرِقُهُ   و عَلاَ مِن صَوتِكَ مُـرْعِدُهُ
هلْ تأتِي الرِّيحُ على رضوَى   فَـتُقَـوِّيهِ و تُصَعِّــــدُهُ
أنتَ المـولَى والعبـــدُ أنـا   فَبِـأَيِّ وَعِيـدِكَ تُـوعِــدُهُ
مَـا لِي ذنْبٌ فَـتُعَـاقِبَـــنِي   كَـذَبَ الواشِي تَبَّتْ يَـدُهُ
و لَـوِ اسْتَحْقَقْـتُ مُعَاقَبَـةً   لأَبَـى كَـرَمٌ تَـتَعَــوَّدُهُ

إن قارئ هاتين القصيدتين يمكنه أن يقف على ملاحظات متعددة ؛ من أهمها :

ـ أن عدد الأبيات في قصيدة ابن الأبار قد بلغ ستةً وسبعين بيتا ، بينما كان عدد أبيات الحصري القيرواني تسعةً وتسعين بيتا .

ـ كان عدد الأبيات الغزلية المقدَّم بها واحدا ـ بفارق بيت بينهما ـ أي أن مقدمة الحصري الضرير قد بلغت ثلاثة وعشرين بيتا ، وكانت مقدمة ابن الأبار اثنين وعشرين بيتا.

ـ نَظْمُ القصيدتين كان على بحر المتدارك ،وتفعيلاته الأصلية: **فاعِلُن فاعلن فاعلن فاعلن**×2 .

ـ التقفية كانت واحدة .

ـ كلا الشاعرين جعل الأبيات مقدمة لقصيدة المدح ، باستثناء الحصري الذي أردف المدح بالاعتذار ، الذي كان سبب نظمه لها .

ـ سهولة اللغة ، وتوظيف الصور والأخيلة العربية المعتادة .

ـ أما المعاني ، فكانت أيضا متماثلة ، دارت في مجملها حول موضوع :

تشبيه المحبوبة بالغزال (الريم) ، وبالقمر ،وبالأهيف (ضامر الخصر) ،وتصيّد العينين وصدر المتغزل بها للشاعرين ، كأنها رمح يُصوَّبُ فيصيب القلب ،ويريق دم العشاق ،وأثَرُ ذلك على الشاعر الصّبِّ ، الذي هام في حب محبوبه ، وعطش لفراقه ، فصار يتمنى الوصال ،على الرغم من لوم العُذّال وحراسة الرقباء ، بالإضافة إلى الدهر الذي مافتئ يفرق بينهما ويقطع حبال وصلهما .

ـ أما المعاني، التي يمكن أن نرجح بها تفاوت الشاعر الحصري عن ابن الأبار ، فنذكر منها:

ـ غزارة معاني الشوق والصبابة (الشكوى من طول ليل الشاعر، رقود السُّمّار أحزنه وبَيْنُ الحبيب عذّبه ، مشاركة النجم الشاعرَ بكاءَه ...) .

ـ تشبيه حبيبه بالصّنم المنتصب ، غير أنه لا يعبدُه .

ـ حسْبُ الشاعر قنصُ أغيده ، غيرَ مُبالٍ بلوم العذال .

ـ شارب خمر لحاظ فتاته ، لكنه صاحٍ ، وفي كامل وعيه .

ـ لا ذنب لَمَن قتَلَتْهُ عيناها ، ولم تقتله يدُه ، وصفحُه عنه ؛ لأن ذلك ليس متعمدا .

ـ حبيبه قاتل جاحد ، والدليل دمه على خده .وعليه فلْتبْكِ البواكي .

ـ تمني الخلود إلى النوم ليسعد بتخيلها في منامه .

ـ الشاعر العاشق الصب شرقَ (غصَّ) بالدمع ،الذي يذرفه دوما .

ـ الحُصري ـ كما يقول ـ في الحُبِّ أعفُّ وأطهر ، وغيره بالباطل يفسده .

ويمكن ردُّ هذا التفاوت إلى أن الشاعر الحصري القيرواني كان صادق الإحساس غير متكلّفٍ ؛لأنه لم يكن ينْظِم قصد الرّد على شاعر بعينه ، وإنما جعل أبيات النسيب لغرض الاعتذار الرئيس ، المزوج بالمدح ؛ لأنه الأنسبُ . فجاءت أبياته معبِّرةً على مشاعرَ مرهفةٍ ناتجة عن تجارب شعوريةٍ طبيعية .

أما ابن الأبار فقد كان معجبا كغيره من الشعراء الآخرين ، فكانت المعارضة ـ عنده ـ من أجل المعارضة ، وحاول أن يقترب من مشاعر الحصري ومن صوره ، وقد أفلح في بعضها إلا أنه لم يصلْ إلى درجته ، ولم يبلغ مداه .

وللشاعر وصفٌ لنهرٍ فاءَ عليه ظلُّ الدَّوْح ، فيقول [الطويل] :(1)

ونَهْرٍ كما ذابَتْ سَبائكُ فضَّةٍ حَكَتْ بِمحَانيهِ انْعِطَافَ الأراقِمِ
إذَاالشَّفَقُ اسْتوْلى عليهِ احْمراره تبَدَّى خَضِيبًا مِثْلَ دامِي الصَّوارِمِ
وتحسِبُهُ سُنَّتْ عليه مُفَاضَةٌ لإبهابِ هبَّاتِ الرياح النّواسم

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق 134 ، ص 291 ـ 292 .

وتَطْلَعُه في دُكنةٍ بعدَ زُرقَـــــةٍ ظِلالٌ لِأدْواحٍ عليـــــهِ نواعِمِ
كما انْفجَرَ الفجْرُ المُطِلُّ على الدُّجَى ومِن دُونِه في الأفقِ سُحْمُ الغَمائم

معارضا بذلك الشاعر الرصافي ، الذي يقول في أبيات له يصف فيها نهرا ألقت عليه ظلها دوحةٌ ،وهو نهر إشبيلية الأعظم [البسيط]:(1)

وَمُهَدَّلِ(2) الشَّطَّيْنِ تحسَبُ أنَّهُ مُتَسيِّلٌ مِن دُرَّةٍ لِصَفـــائِهِ
فاءَتْ عليهِ معَ الهَجيرةِ سَرْحَةٌ صَدِئَتْ لِفَيْئَتِهَا صفيحةُ مائِهِ(3)
فَتَراهُ أزْرقَ في غلالةِ سُـــمْرَةٍ كالدَّارِعِ اسْتَلْقَى بِظلِّ لِوائهِ

والناظر إلى هاتين القصيدتين من حيث الشكلُ يجده مختلفا ؛ فوزن الأولى الطويل ، بينما في الثانية البسيط ، وكذلك القافية والروي فيهما ، فقد جاءا مختلفين . إلا أن المعنى ، وهو وصف النهر فقد اشترك فيه النصان إلى حد بعيد .

وإذا كان الرصافي البلنسي قد شبَّه نهره بمسيَّلٍ من دُرَّة صافية ، وصوّر الأشجار تلقي بظلالها عليه وقت الهجيرة ، فيتبين للناظر أزرقَ في غلالة من لون أسمر كلابس الدرع وما لها من لون فضي قد استظل بها ، ثم أردف بصورة أخرى ، يظهر فيها الظلُّ على صفحة ماء النهر كصدإ أصاب صفيحة لامعةً ؛ ليجمع الشاعر بذلك اللونين الأزرق والأسود .

والصورة هاهنا بحاجة إلى إعمال فكرٍ كبير للتوصل إلى حقيقتها ، التي يتغياها الشاعر والتي لا يمكننا إدراكها بيسر ؛ لأن الشبه المقصود فيها مما لا يتسرع الذهن إلى إدراكه وسبر أغواره . وهذا ما عبَّر عنه عبد القاهر الجرجاني (ت. 471 هـ أو 474 هـ) في تفصيل القول في غرابة التشبيه والتمثيل بقوله : ((**والمعنى الجامع في سبب الغرابة أن يكونَ الشَّبَهُ المقصودُ مِن الشيءِ مِمَّا**

(1) الرصافي ، ديوان الرصافي البلنسي ، أبي عبد الله محمد بن غالب ، جمعه وقدّم له:إحسان عباس ، دار الشروق بيروت والقاهرة ،ط2 ، 1983 ، ص 32 .

(2) **المهدّل** : المسترخي ، والمعنى أن الأغصان تهدلت ؛ أي تدلت على جانبي شطيه ، وهو يبدو لصفائه كأنما ينبع من درّة بيضاءَ ، لا من جوف الأرض . (ينظر : ابن منظور ، اللسان ، 15/ 51) .

(3) **فاءتْ** : مدّت فيئها ؛ أي ظلَّها . **صدئت** : أي ظهر الظل على صفحة النهر كالصدأ على صفيحة لامعة .

لا يتسرع إليه الخاطِرُ ، ولا يقع في الوهمِ عند بديهة النظر إلى نظيرِه الذي يُشبَّهُ به بلْ بعدَ تثبُّتٍ وتذكُّرٍ وفَلْيٍ لِلنَّفسِ عن الصورة التي تعرفها وتحريكٍ لِلوهم في استعراض ذلك واستحضار ما غابَ منه)) .[1]

وفي حقيقة الأمر إن الصورة التي جاء بها الشاعر فيها من الغرابة والابتكار ما يستوقفنا لنتأمل وجه الشبه بين ظاهرتين متباعدتين ، تصنع لدى المتلقي الدهشة والذهول ؛ لأنه استطاع أن يجمع بين ما لا يُتصور جمعهما في صورة فريدة ، لا يقدر على ذلك إلا مثل الرصافي البلنسي (أبو عبد الله محمد بن غالب الرّفّاء الرصافي ، المتوفى بمالقة في رمضان سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة) . ولم تكن هذه الصورة الوحيدة لدى الشاعر ، وإنما هناك عديد من هذا النموذج ، كان قد أشار إليها ابن الأبار في كتابه " تحفة القادم" .[2]

في حين نجد نهر ابن الأبار صافيا هو الآخر ، ولكنه كصفاء الفضة المذابة ، فاءت عليه ظلال الأشجار كسابقه ، ثم يجعل من ذات اللون لنهره كالفجر يطل بنوره المائل إلى الزرقة على الليل الأسود ، دون أن ننسى صورة الأراقم (الحباب) ودم الصوارم ،التي أخذت من أوصافه الكثير في أبياته ـ كنا قد أشرنا إليها في باب الوصف في الباب الأول من هذا البحث ـ لنقف على حقيقة مفادها أن ابن الأبار يعارض الرصافي إعجابا بالمعنى الذي وجده عند الشاعر السابق ، ولكن مع شيئ من الإبداع والإضافة ،لا الاجترار والتكرار .

ولم يكن في الحقيقة وصف الشاعر الوحيدُ للماء والنهر في هذه المقطوعة ، وإنما له مثلُ هذه الأوصاف في غير هذا النص ، ومن ذلك قوله يصف نهرا كذلك [مجزوء الكامل] :[3]

للهِ نهرٌ كالحُباب ترقيشُهُ سامِي الحَبَـــــاب

(1) الجرجاني ، عبد القاهر ، أسرار البلاغة ، قرأه وعلّق عليه : محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني ، القاهرة، دار المدني ، جدة ، ط1 ، 1991 ، ص157 .

(2) ينظر : ابن الأبار ، تحفة القادم ، أعاد بناءَه وعلّق عليه:إحسان عباس ،دار الغرب الإسلامي ، بيروت لبنان ، ط1 ، 1986 ، ص 76 ـ 77 ـ 78 .

(3) ابن الأبار ، الديوان ، ق 36 ، ص 94 .

....

وكأنما هو رقة ... مِن خالص الورِقِ[1] المُذاب

كما يذكر ابن الأبار أن للشاعر " ابن الصابوني " قصيدةً ، قالها بإشبيلية قبل وفادته على تونس أولها :[2]

شخَصْتُ لِعزْم البَيْنِ فاخْتَرَمتْ شَخْصِي ... زيّادةُ وجْدٍ تنهَكُ الجسمَ بِالنَّقْصِ

يقول فيها :

وقدْ كُنتُ سُلطاناً عليها محكـماً ... فما نلتُ لِلرقبى سِوى خُلَسِ اللِّصِّ

كأنَّ اللَّيالي لم تكُنْ قَطُّ أرْخصَتْ ... بِنيلِ المُنى مِن ذلك البشَرِ الرخـص

ومنها :

لقدْ برَّحَتْنِي النَّـائباتُ بِعيثِها ... فمن ألمٍ تــــدنِي ومِن أملٍ تُـقْـصِي

سأقْتَصُّ لِلملِكِ الهُمامِ شكيتِي ... فيبسُط لي في صرْفِـــها يـدَ مُقتصّ

أبي زكرياء المهـــذَّبِ مِن أبــي ... مـحمدٍ الــنامي لِمجْدِ أبي حفْـــصِ

أميرٌ يُطيعُ اللهَ مِنْ قدْ أطَـــاعهُ ... ويَعْـصِي حدودَ اللهِ مَنْ أمْرَهُ يَـــعْصي

فكَمْ تَحْرِصُ الدُّنيا لِتحْظَى بِودِّهِ ... فيصرفُ وجهَ الزهدِ عن رغبـةِ الحِرصِ

يُشَيِّدُ أركانَ المعـــالي بِـراحـةٍ ... بناءُ العُلاَ مِن سعْيِها مُحْـــكَمُ الـرصِّ

....

وتُؤْنِسُني ذكرايَ تـــونسَ آملاً ... على بُعْدِ مَهْوَى أرضِ تونسَ من حِمصِ

ستذكرني آفاقُ أندلُـــس بِـما ... جلوْتُ بها مِن رائقٍ حسَنِ النـــصِّ

وقد عارضها الشاعر ، كما عارضها آخرون .

---

(1) الورِق : الفضّة .

(2) ابن الأبار ، تحفة القادم ، ص230 ـ 231 .

استهلها كعادته بالحديث عن محبوبته التي صارت تنكر عليه كل شيئ، حتى وإن كان ضحية حبها، والافتتان بها. فلم يعد الشاعر يلقى عندها إلا الصّدّ والهجران، وما علمت أنها بِنَأْيها المتعمد تزيد في آلامه، وتنغص عليه حياته، التي لا يتصورها بعيدة عنه يقول الشاعر [الطويل]:(1)

أَتَجْحَدُ قَتْلِي رَبَّةُ الشَّنْفِ والخِرْص   وذاكَ نَجيعِي في مُخَضَّبِها الرَّخْصِ
تَوَرَّسَ ما تَعْـطُو بِهِ مَن عَبـيطِه   كَما طَلَعَ السَّوسَانُ في صِبغَةِ الحُصِّ
وتَسْفِـكُهُ وهو المُحَرَّمُ سَفْـكُهُ   حلالاً كأَنَّ الظُّلْمَ ليسَ له مُـحْصِ
أَمَا عَلِمَتْ أنَّ القِصَاصَ أمامَـها   فكيفَ أراقَتْهُ على النَّـحْرِ والقَصِّ(2)

....

ثم ينتقل إلى الإفصاح عن هذه المرأة، التي سلبت قلبه، وأسالت دمه،دون أن تعير أدنى اهتمام لما تفعل، وهي عربية أصيلة. ولقد تكرر عند الشاعر الاعتداد بالعربيات ولعل ذلك يوحي بأنه يفضلهن عن غيرهن، إقرارا لعروبته، التي ستحضر حتما في مقابل النصارى الذين حرموه من كل متعة، كان يتمتع بها. وفي هذا كله حنين إلى الوطن وشوق كبير يتأجج في صدره.

ولعل الحنين إلى أيام السعادة لم يكن ابن الأبار يعبّر عنها من خلال بلنسية فحسب وإنما كانت عنده " نجد " و " حمص النعامى " من المواطن التي يشتاق إليها، ويدعو لها ـ على عادة العرب ـ بالسقيا، متمنيا أن يطير إليها ولكن هيهات ! لأن جناحه قُصَّ، وحلَّ البين مكان القرب فصارت أيامه سودا في البادية بعدما كانت بيضا في حمص.وفي ذلك إشارة صريحة إلى انتمائه العربي، الذي يفخر به بخاصة وهو المهجَّر عنوة من طرف النصارى الذين احتلوا بلاده. فهو لا يزال متمسكا بحبل العروبة الذي يأمل أن يجد قوّته، ويستعيد متانته على يد الأمير أبي زكريا حلمه وحلم الأندلسيين من ورائه في تخليصهم من ربقة هذا العدو الظالم :

(1) ابن الأبار، الديوان، ق159، ص329.

(2) **القصّ** : الصدر.

شَمائلُ أعرابيةٌ فـي اعْــتياصِها	أَمْطَنَ عن الحُبِّ (المُبَرِّح) والمَـحْص[1]
سَقىَ اللهُ دارَ المُزْنِ داراً قَــصيَّةً	على الشَّدِّ والتقريبِ والوخْدوالنَّصِّ
يَسَائِلُ عن نجدٍ صَباها مُعاشـرٌ	وأَسْأَلُ عن حِمْصَ النَّعامَى وأَسْتَقْصِي
ولوْ كنْتُ مَوفورَ الجَناحِ لَطارَ بِي	إليها ولــكنْ حَصَّــهُ البَيْــنُ بِالقَصِّ
فَشَــتَّانَ ما أَيَّاميَ السُّـــودُ أَوْجُها	بِحِسْمَى وما لَيْلاتيَ البِيضُ في حِمصِ
بحيثُ أَلِفتُ الوُرْقَ لِلشَّدْوِ تَنْبري	على نهرِها والقُضْبُ تَهـتَاجُ لِلرَّقْصِ
وفي يَـدِي تشْبِيبِي قيادُ شَـبِيبَتي	وخِلِّي وحِلْمِـي مُسْتَـقيدٌ و مُسْتَعْصِي
كِلانَا على أَقْصَى الهَوادة والهَوى	فَـلاَ عَذْلٌ يُقْصِــي ولا غَـزْلٌ يُفْصِي
....	....
خلافتُه ألوتْ بِكـــلِّ خلافــةٍ	كذلكَ بُطـــلانُ القياسِ مع النَّــصِّ
لديهِ اسْتقَرَّتْ في نِصابٍ ونَصْبةٍ	ولِلشَّرفِ المحْضِ اكتفاءٌ عن المَحصِ
تناهى إليهِ العِلمُ والحِلمُ فانْثنَتْ	تـشيدُ بِعَلْياهُ ثنَـــــاءً ولا تُحْصِي
وما اشْتبَهتْ حالُ الملوكِ وحاله	أَلَـمْ ترَ أنَّ الفضْلَ ليسَ من النَّقص

كما كان من آثار ابن الأبار معارضة لكتاب " مُلقى السبيل " **لأبي العلاء المعري** .

ويندرج هذا العمل ضمن ما عُني به الأندلسيون من معارضة كتب أبي العلاء المعري وأشعاره عناية فائقة ، لفتت انتباه الباحثين ،لاسيما **"ديوان مُلقّى السبيل "**[2] الذي أبدعه المعري في الشطر الأخير من حياته .

وجاءت معارضة ابن الأبّار له ممزوجة من الشعر والنثر وفق ما ابتدعه المعري .

وقد قسم ابن الأبار معارضته إلى تسعة وعشرين قسما ، رتبها وفق الأبجدية العربية، وإن رَاعَى

---

(1) **المحص** : الخالص من العيب . ينظر: ابن منظور ، اللسان ، 13/ 33) .

(2) محمد كرد علي ، رسائل البلغاء ، دار الكتب العربية الكبرى ، ط2 ، 1913 ، ص 214 ـ 230 .

الترتيبَ الأندلسي [1]، وبدأ كل قسم بنثرٍ ،ثم أردفه بآخرشعريٍّ. دارت جميعها حول غرض الزهد ، مجسدا عزوفه عن الدنيا وضجره من أعراضها الزائلة الزائفة. ولعل فترة هذه المعارضة تعود إلى تلك الظروف ، التي أبعدته عن أمير المؤمنين المستنصر بالله .

وقد كان لرسالة "مَلْقَى السَّبيل" كبيرُ أثرٍ في قيام ثلاثة كُتَّابٍ أندلسيين بمعارضتها فقد عارضها ابن أبي الخصال [2]، وأبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعي ؛ شيخ ابن الأبار في "**منابذة الأمل الطويل بطريقة المعرّي في ملقى السبيل**" ، وتلميذه محمد بن الأبّار القُضاعي في " **مظاهرة المسعى الجميل، ومحاذرة المرعى الوبيل في معارضة ملقى السبيل** " .

ولم يبق من هذه المعارضات الثلاث سوى معارضتين ، هما: معارضةُ ابنِ أبي الخصال التي نُشِرَتْ ضمن رسائله ، ومعارضةُ ابنِ الأبّار التي أشار " العلامة حسنُ حسني عبد الوهاب " إلى وجودِ أصلٍ خطّيٍّ لها بمكتبة جامع الزيتونة بتونس، بمعهدِ المخطوطات العربية.

وهي الآن بين أيدينا ضمن سلسلة ينشرها ويشرف عليها " صلاح الدين المنجد " تحت عنوان " رسائل ونصوص " [3] عرض في هذه السلسلة ثلاث رسائل :

- فتوى في القيام والألقاب لابن تيمية
- كِتاب تنزيل القرآن لابن شهاب الزُّهري
- معارضة ابن الأبار لكِتاب مُلَقّى السبيل

أما المعارضةُ الثالثةُ لشيخ ابن الأبار أبي الربيع موسى الكلاعي فقد فُقِدتْ .

---

(1) ترتيب المغاربة للحروف الهجائية يختلف عن ترتيب المشارقة ؛ فالمغاربة يرتبون الحروف الهجائية على مايلي:
أ ، ب ، ت ، ث ، ج ، ح ، خ ، د ، ذ ، ر ، ز ، ط ، ظ ، ك ، ل ، م ، ن ، ص ، ض ، ع ، غ ، ف ، ق ، س ، ش هـ ، و ، ي.
و أما الترتيب الهجائي على الطريقة المشرقية: أ ، ب ، ت ، ث ، ج ، ح ، خ ، د ، ذ، ر ، ز ، س ، ش، ص ض ، ط ، ظ ، ع ، غ ، ف ، ق ، ك ، ل ، م ، ن ، هـ ، و ، ي.

(2) ابن أبي الخصال ، رسائله ، تح : محمد رضوان الداية ، دار الفكر ، دمشق ، ط1 ، 1987 ، ص 370 ـ 390 .

(3) صلاح الدين المنجد ، رسائل ونصوص ، دار الكتاب الجديد ،بيروت ، ط2 ، 1980 ،ص 35 ـ 79 .

وزَّع المعري مادته التثرية والشعرية على ثلاثين حرفاً، مُضيفاً "الألف اللينة" إليها ونموذجاً إضافياً إلى حرف الذال . في حين نجد ابنَ الأبّار قد أبقى فصولُ رسالته تسعةً وعشرين فَصْلاً يضم كلُّ فَصْلٍ نموذجاً واحداً ذا شقين : شعريّ ونثريّ دون زيادة.

ومن النماذج التي وردت في ملقى السبيل للمعري ، نذكر ما ألفه على حرف الباء ،إذ قال:

((يفتقر إلى الله الأرباب . وبالكافر يحل التباب. وتنقطع بالموت الأسباب. وفي الخالق تحار الألباب [الرجز]:

دَانتْ لِرَبِّ الفُلكِ الأَرْبَاب وبالكــفُورِ يَلــــحقُ التَّبَاب

كَمْ قُطِعتْ لِميْتَةٍ أَسْبَـــاب وَافْتَرَقَتْ بِرُغْمِهَا الأحْبَاب))[1]

وقال ابن الأبار في معارضته :

حبلُ الحياة إلى انقضاب . والموت حتم في الرقاب . مَا أَحَقَّ الضّاحِكَ بالانتحاب .

وأجدرَ القادمَ بالارتقاب . كُلُّ مَرعيٍّ للضياع ومبنيّ للخراب . أَوْدَى جُؤْذَرُ الكِناسِ وقَسْوَرُ الغاب . واسْتَوى قطْفُ الهُجُن وسبْقُ العِراب .

أَمَدُ الحياةِ إلى انـــقضا ءٍ لا مَحالةَ وانـــقِضـابْ

والعُمرُ ومضــــةُ بارقٍ والموتُ حتمٌ في الرِّقابْ

يا ضاحكا مُتهـــافتا هَلاَّ أخذْتَ في الانتحابْ

بَغْتُ المَهالكِ لايُـغِـبُّ فكُنْ لهُنَّ على ارتـــقابْ

إنَّ الجديدَ إلى بِــــــلىً وكذا المَشِيدُ إلى خَرابْ

سِيَّانَ شادِنُ مَكنِـــسٍ عندَ الحِمامِ وليثُ غَـابْ

والمُقْرِفاتُ ـ وماكَذَبْتُكَ ـ لاحِقاتٌ بِالعِـــرابْ

(1) أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري ،كتاب ملقى السبيل ، موقع مخطوطات مكتبة الأزهر نقل من نسخة بالكتنجانة الخديوية بمصر ، 1304 ، رقم النسخة : 325592/ أدب ، (مخطوط) ، ص 1.

والمتأمل في القطعتين النثريتين يلاحظ الأسجاع ، التي جُعلت في الشق النثري قوافيَ متعاقبةً لصدورِ الشقِّ الشعري وأعجازِه ، فيقلُّ الشقُّ الشعريُّ عن نظيره النثريِّ بمقدار النصف ؛ فعند أبي العلاء المعري: (**الأَرْبَابُ ، التَّبَابُ** : " النقص والخسارة والهلاك" **الأَسْبَابُ الأَلْبَابُ**) .

وعند ابن الأبار نجد : (**انقضاب ، الرقاب ، بالانتحاب ، بالارتقاب ، للخراب ، الغاب العِراب**) .

ومن الظواهر الموسيقية ، التي تلفت الانتباه ، ونحن نتصفح السطور النثرية ، والأبيات الشعرية " التكرارُ " كما في قول المعري في رسالته ، في حرف "الهمزة " ((**قال الشيخ الفاضل أبو العلا أحمد بن عبد الله بن سليمان ـ رحمة الله تعالى عليه ـ** :

كم يَجني الرجلُ ويُخْطِىء ... ويعلم أنَّ حَتْفَهُ لا يُبطىء

إنَّ الأنـــــامَ ليُخْطِـــئو ... نَ وَيغْـفِرُ اللهُ الخَطِيئَةْ

كم يُـبطئون عـن الجَمِيل ... وما مَنَايـاهم بَطِيـئَـهْ))[1]

ويظهر هذا التكرار في الكلمات: (**يُخْطِئ ، يُبطِئ ، يُجطِئون ، الخطيئة ، يُبطِئون بَطِيئة**) .

فمن جذر كلمتين اثنتين (خطأ ، وبطأ) استطاع المعري أن ينظم ثلاثة أبيات في الزهد يشع فيها ظاهرة التصنع والتكلف في الألفاظ ، وليس هذا السبيل لدى الشاعر بجديد .

من هنا كانت المعارضات ـ كما عرفنا ـ دليلا للشاعر على الاطلاع على آداب الآخرين هذا من جهة ، ومن جهة أخرى التأثر بإبداعاتهم ، إلا أن الهدف منها كان التصدي للآخر بقصد إبداء المقدرة والكفاءة . وليس هذا الأمر من طرف الشاعر ابن الأبار الأندلسي المنشأ بغريب ذلك أن الموقف يتطلب منه أن يفعل ذلك ، حفاظا على مكانته ، وصونا لكرامته ولو كان ذلك

---

(1) المعري ،كتاب ملقى السبيل ، ص 1 .

من أسباب تبرم الحفصيين منه ؛ لأن مكانتهم أصبحت مع هذا الوافد مهددة بخاصة وهم يرون تقريب السلطان الحفصي له في كل مرة .

4 ـ الأحداث والشخصيات التاريخية :

لقد استغل الشعراء الأندلسيون ثقافتهم التاريخية من خلال استيحائهم لهذه الوقائع المشهورة ومحاولة ربطها بواقعهم المعيش ؛ ليحققوا أهدافا معينة في حياتهم الخاصة والعامة واستدعاء الشخصيات التاريخية (العربية وغير العربية) ضربا للمثل الذي يمكن أن يسقط على ظروفهم وأحوالهم .

وتعد هذه العملية في حقيقة الأمر تواصلا بين الأجيال ، وتأسيا بما حصل في الماضي الذي صار يُتمنى ، وبخاصة ماضي الأندلس المشرق ،الذي انطفأ نوره . والشاعر يرفض بوعيٍ القطيعةَ مع الماضي ؛ لأنه لا يمكنه أن ينسلخ عنه ، حتى وإن أراد ،وتعامله مع التاريخ يَفْرق عن تعامل الشاعر معه ؛ ذلك أن المؤرخ يؤرخ لأحداث سياسية واجتماعية وثقافية .

أما الشاعر فيضيف إلى كل ذلك التاريخ من ذاته ونفسه وروحه ، فتكون الصورة النهائية مختلفة تماما ، وهذا حال شاعرنا ، على الرغم مما عُرف عنه أنه مؤرخ أيضا .

وامتداد هذه الأحداث التاريخية والشخصيات يتخذ أشكالا متعددة ، ليعبر عن دلالات متنوعة: ((**فالأحداث التاريخية والشخصيات التاريخية ليست مجرد ظواهر كونية عابرة تنتهي بانتهاء وجودها الواقعي ، فإن لها إلى جانب ذلك دلالتَها الشمولية الباقية والقابلة للتجدد ـ على امتداد التاريخ ـ في صيغ وأشكال أخرى ؛ فدلالة البطولة لقائد معين أو دلالة النصر في كسب معركة معينة تظل ـ بعد انتهاء الوجود الواقعي لذلك القائد أو تلك المعركة ـ باقيةً وصالحة لأن تتكرر من خلال مواقفَ جديدةٍ وأحداثٍ جديدة وهي في نفس الوقت قابلة لتحمل تأويلات وتفسيرات جديدة**)).[1]

ولقد تم استدعاء بعض الشخصيات النسائية المعشوقة، والتي عرفت في الوعي الجمعي بتعلقها بشخصيات رجالية محددة ، وجاءت كثنائيات مثل (عبلة وعنترة)، (ليلى وقيس) وغير ذلك .

---

(1) علي عشري زايد ، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر ، دار الفكر العربي ، القاهرة، ط1 1997 ، ص 120 .

كما كان استدعاء العَلَم الشخصي : الاسم المباشر ، اللقب والكنية وكذلك العلم المؤنث والمذكر .

أما عن أهداف توظيف هذه الأعلام ، يقول" محمد مفتاح" : ((...**فإننا نستغل أسماء الأعلام بمختلف أنواعها لتعزيز المعنى وتقويته**))[1] .

أما " علي عشري " فقد كان توظيف الشخصية عنده كغيره يمر بمراحل ثلاث :

((أولاً: اختيار ما يناسب تجربة الشاعر من ملامح هذه الشخصية.

ثانياً: تأويل هذه الملامح تأويلاً خاصاً يلائم طبيعة التجربة.

ثالثاً: إضفاء الأبعاد المعاصرة لتجربة الشاعر على هذه الملامح))[2].

وعلاقة الشاعر ابن الأبار بالتاريخ ـ في ظل هذه المعطيات ـ علاقة حميمة ، ذلك أنه كان ـ كما أسلفنا ـ مؤرخا إلى جانب مواهبه المتعددة ، ومن صفاته " المؤرخ" ، الذي ترك لنا إنتاجا تاريخيا معتبرا ، بحاجة ماسة إلى دراسات ودراسات . ولعل وعيه للتاريخ كان نتاج مهمته مع الأمراء والحكام ككاتب ، ساعده في ذلك كونه طالب علم منذ صغره ، وحافظا له منذ نعومة أظفاره .

فإلى جانب المعاجم ، التي يصل عددها إلى التسعة ؛ من معاجم أصحاب علماء من مثل (**معجم أصحاب أبي علي الصدفي ، معجم أصحاب أبي عمرو الداني المقرئ ، معجم أصحاب أبي عمرو بن عبد البر، ومعجم أصحاب أبي علي الغسّاني**) ، وغيرها من المعاجم التي تعتمد في صناعتها التأريخ لهذه الشخصيات ،.. إلى معاجم الشيوخ ؛كمعجم شيوخه من الأندلسيين و المشارقة و معجم شيوخ أبي الحسن أحمد بن محمد بن السراج ،وغيرها . وقد أشرنا إلى مثل هذه المعاجم المختلفة في ملحق البحث .[3]

نجد لابن الأبار مؤلفاتٍ في التاريخ والتراجم ؛ نذكر منها :

- **التكملة لكتاب الصلة**(مجلدان ضخمان مطبوعان).

---

(1) محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص) ، ص245.

(2) علي عشري زايد ، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، ص240.

(3) ينظر ، الملحق لهذا البحث ، ص

- **الحُلّة السيراء في أشعار الأمراء**(مطبوع).
- **الوشي القسيّ في اختصار الفتح القسيّ** ؛ وهو اختصار لكتاب عماد الدين الكاتب الأصبهاني(519هـ ـ 579 هـ / 1125م ـ 1201م) ، الموسوم بـ: ((الفتح القسي في الفتح القدسي))؛ أي فتح بيت المقدس على يد صلاح الدين الأيوبي سنة (583هـ / 1187م).
- **كتاب التاريخ** ، الذي كان تأليفه ـ فيما يُقال ـ في مساوئ السلطان

وكان من أسباب قتله. وقد أشار محقق الديوان (عبد السلام الهراس) إلى قيمته وفقدانه وتمنى أن تصل إليه الأيدي كما وصلت إلى الديوان ، الذي نفى وجودَه بعضُ الدارسين حتى خرج إلى الوجود.

وسنتعرض فيما يلي إلى بعض الأشعار الأبارية ، التي استدعى فيها بعض الشخصيات التاريخية والأدبية المشهورة ، كما استوحى في بعضها الآخر الوقائع والأحداث التاريخية العظيمة ، من باب إثارة معانٍ وصور في ذهن القارئ ،الذي سيحاول من خلالها أن يسبر أغوار الشعر ، ويتعرف تاريخيا على الفترة التي كان يحياها ، ويعبّر عنها .

والشخصية المستدعاة يمكن أن تحمل في طياتها دلالاتٍ متعددةً ، عند توظيفها فنيا في النص الشعري ،وبالتالي يكون الحكم على مدى نجاح توظيفها أو فشلها من خلال اندماج هذه الشخصية داخل بنية النص ؛ لأنه سيتكون لها بصمتها الخاصة في رسم التشكيل الجمالي فيه.

ولأسماء الأعلام دلالات مختلفة ومتعددة بحسب بيئاتهم المتنوعة ، وبحكم ارتباطهم بقصص وأحداث تاريخية .

فمن بين الأبيات ، التي يستدعي فيها ابن الأبار الشخصيات التاريخية ، نجده يمدح أبا زكريا ويهجو السعيد الخليفة الموحدي ، الذي كان يشكل خطرا كبيرا على أبي زكريا بتحالفه مع أبي يحي يغمراسن ؛ صاحب تلمسان ، والأمير المريني أبي يحي بن عبد الحق بمناسبة الحرب بينهما ، مشيرا إلى استغاثة هذا الخليفة بالنصارى ، وكان ذلك سنة 646هـ ، وكان الشاعر إذْ ذاكَ ببجاية مغضوبا عليه.

والشاعر في هذا البيت يشبه في هجائه سواد السعيد الموحدي بسواد أصحمة(النجاشي) وسواد لقمان الحكيم ، إلا أن المشبه بهما منزهان عن أخلاق المشبَّه؛لأنهما ـ كما يبين ـ أشرفُ منه وأكرم [البسيط]:[1]

يقضي التَّحرُّجُ في تشْبيهِ سُحْمتِه تنْزِيهَ أَصْحَمَةٍ عنها ولُقْمانا[2]

وفي البيت التالي من القصيدة ذاتها يفضل الشاعر ـ أيضا ـ أبرهة الأشرم" وولده "يكسوم " على الرغم من فعلتهما بالكعبة الشريفة ، وإثمهما العظيم ، على هذا الخليفة الذي مال إلى النصارى على حساب المسلمين .ومن هنا نتفهم جيدا مدى معاناة الشاعر في ظل وجود النصارى ،جاثمين على صدر وطنه الجريح ؛ فهو يكن حقدا دفينا تجاه هذه الشرذمة الفُسُد من الأراغونيين .

يَكْسُومُ[3] والأَشْرَمُ المَأْثُومُ أَبْرَهَةُ أَحْرَى بِمَنْ يتَحَرّى فيه عِرْفانا

وقال الشاعر في ممدوحه ،ينسبه إلى أكرم شجرة في العالمين ، وأشرف نسب في المخلوقين وكأنه أراد أن يجعل من أبي زكريا شخصا من أفضل خلق الله . ولا غروَ في هذه المبالغات التي كنا قد أشرنا إليها في أكثر من موضع ، وحاولنا إيجاد الأسباب ، التي دفعته إلى ذلك [مخلع البسيط]:[4]

فيهِ الْتَقَى نائِــلٌ وبَأْسٌ لا منهُ كَعْبٌ ولا الُمُثَنَّى[5]

---

(1) ابن الأبار ،الديوان ، ق144 ، ص305 .

(2) **سُحمته** : سواده .إشارة إلى السعيد الخليفة الموحدي (640 ـ646هـ) الذي كان أسودَ . * **أصْحمة** : هو النجاشي الذي أسلم على عهد الرسول ﷺ. * **لقمان** : حكيم مشهور عمّرطويلاً وذُكر في القرآن. اشتهر بوصاياه. كان لقمان عبداً أسود غليظ الشفتين مجدع الأنف مشقق القدمين مصفحهما قصير القامة.

(3) **يكسوم**: ابن أبرهة الحبشي .

(4) ابن الأبار ، الديوان ، ق 143 ، ص303 .

(5) **كعب** : هوكعب بن لؤي ، الجد السابع للنبي محمد بن عبد الله كان سيد بني كنانة . ونسبه هو : كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .

المثنى: هو المثنى بن حارثة الشيباني أحد قواد أبي بكر وعمر .

وقال الشاعر [الطويل] :[1]

قيسٌ وسَعْدٌ قبلَهُ و عُبادةٌ　　　ودُلَـيِّمُ الأفرادِ في الإفْضَالِ

ويعني بذلك : سَعْد بن عُبادة بن دليّم ...بن الخزرج الصحابي المشهور ، وإليه ينتمي أبو الحسين ؛ حاكم شاطبة .قال ابن الأبار فيه : ((**منتماه إلى قيس بنِ سعْد بن عبادة صريحٌ وحديث نَداهُ عند رواة علاه حسنٌ صحيحٌ**...**فمازال يرتقي في معالي الأمور درجة بعد أخرى حتى سادَ أهلَها ووليَها من قِبل محمد بن يوسف بن هود ـ الملقب بالمتوكل ـ إلى أن توفي سنة أربعٍ وثلاثين وستمائة ...ولأبي الحسين فضائلُ مذكورةٌ ،ومآثرُ مأثورةٌ ورُزق قَبولا ، مازال به مأمولا، من رجُل يجري على أعراقه ،فيدع الضنانة بأعلاقه ويسع الناسَ بأمواله كما يسعهم بحسْن أخلاقه** ...)) .[2]

وأنشأ الشاعر مبينًا كيفية محو السيف (البرق) الأعداء كما يمحو الظلامُ الضوءَ الساطعَ المنيرَ . وهذا السيف القاطع هو ذلك المنسوب إلى أشهر القبائل العربية ، المعروفة ببطولتها عبر التاريخ (بني هلال) ، ومعهم بنُو سُليم أيضا،ومحاولا استمداد ما أمكن من قوة لإنقاذ أندلسه [الوافر]:[3]

نَحَا ظُلَمَ الضّلالةِ منهُ بَـرقٌ　　　أَحَدَّتْـهُ القبائلُ مِن هلال

وقال الشاعر [الطويل]:[4]

ومِنّـا الذي أرْضَى النبوَّةَ مَنْطِقًا　　　وأَطْلَعَهُ بَدْرًا بِأُفُـقِ الوَغَى بَدْرُ

....　　............................

ولولاهُمُ بَادَ الشَّـآمُ وأهلُهُ　　　ولَمْ يَـتَـبَوَّأْهُ ابْنُ صَخْرٍ ولا صخْرُ

---

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق113 ، ص251.

(2) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، 2/ 303 .

(3) ابن الأبار ، الديوان ، ق104 ، ص226 .

(4) نفسه ، ق97 ، ص217 .

ويقصد في البيت الأول : سعد بن معاذ الخُزاعي الأنصاري القُضاعي ، الذي أجاب رسولَ اللهِ ـ صلى الله عليه وسلّم ـ عندما كان يستشيره قُبيلَ غزوة " بدر " .فكان جوابه بشارة النصر . وقد أبْلَى "سعد" والأنصارُ بَلاءً حسَنًا .

وأما في البيت الثاني ، فالمقصود بالكلام : معاويةُ وأبو سفيان ؛ أي الأمويين .

وقال الشاعر يمدح أبا زكريا بمناسبة تولية أبي يحي ولاية العهد ، وكان ذلك يوم الخميس: 2 رجب من سنة 638 هـ [الكامل] :(1)

مَلِكٌ يُرِيكَ بِحِلْمِه وبِعِلمِـــــه قيسًا يُحاضِرُ مُنْقَرًا ومُعاذًا

قدْ قدَّمتْ(هُ) إلى الإمامة صفوةٌ زانوا الزمان أئمَّةً أفــذاذا

ويعني : قيسَ بنَ عاصم بنِ سِنان المنقري . عُرف بفروسيته وحِلْمه وشاعريته . كان سيدا في الجاهلية والإسلام . ويشير هنا إلى قصته مع قومه وهو يحاضرهم عندما أتوه بولد له قتيلٍ.

أما معاذ فهو معاذ بن جبل المشهور بعلمِه بين الصحابة . وهو مِمَّنْ جَمَع القرآن على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلّم ـ . توفي بالطاعون في الشام سنة 17 هـ .

وكان استدعاء الشاعر لشخص "قيس ومعاذ" من باب التدليل على حِلم وشجاعة ممدوحه وهذه من أخص صفات الملوك والحكام ، التي يُحبَّذُ الإشادة بها وذكرها ، لا سيما أمام المحافل ليحقق الشاعر بذلك اندماج الشخصية (المستدعاة) داخل بنية النص الأبَّاري.

كما أنشأ الشاعر مشيدا بكرم ممدوحه وسخائه ، الذي كان كالبدر؛ ينير ظلمات المجالس ويفوق بصنيعه الجميع ، كما كان " حاتم " يفعل [الطويل]:(2)

ولا أَعْتَم في صدرِ المجالِسِ مالِكٌ ولا حاتِمُ(3) الأضيافِ في ليلةِ البردِ

---

(1) السابق ، ق 84 ، ص 182 .

(2) ابن الأبار ، الديوان ، ق 1 ، ص 466 .

(3) **حاتم الطائي**:هو حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج من طيّئٍ .وأمه عِنَبَة بنت عفيف من طيّئ.وكان جوادا شاعرا جيد الشعر .وكان حيثما عُرف منزله وكان ظَفِرا ، إذا قاتل غلب وإذا غنِم أنهب وإذا سُئل وهبَ وإذا ضرب بالقداح سبق وإذا أسر أُطلق .قال أبو عبيدة :أجواد العرب ثلاثة : كعب بن مامة وحاتم =

وكانت شخصية " حاتم" لدى ابن الأبار كما كانت لدى غيره من الأدباء بعامة ؛ مثالَ الكرم و حسن الضيافة ، فيقال : **" أكرم من حاتم "** .

وقال الشاعر يمدح أبا زكريا ويستعطفه أثناء غضبه عليه ، ذاكرا أفضاله على الناس عدلا ورحمة ونشرَ دعوة ، أقرَّ له في كل ذلك العدوُّ قبل الصديق [الرمل] :[1]

سِيَرٌ صيَّرْن أملاكَ الدُّنَى حينَ عزَّ الدّينُ ف(يها) أعبَدا

فلماذا عَظَّمُوا " مُعتصِما " وبماذا فَضَّلُوا " مُعتضــــدا "

يقصد : المعتصم العباسي (218هـ ـ 227 هـ) والمعتضد العباسي (279هـ ـ 289هـ) . وقد عُرفا بالحزم والقوة والشدة . ويستبعد (المحقق) أن يكون قد عنى المعتضد العبادي والمعتصم بن صمادح ؛ لأن أبا زكريا ـ حسبَه ـ كان يقارَنُ بالخلفاء لا بالرؤساء وبملوك الطوائف .

والاتكاء على شخصيتي " المعتصم والمعتضد " العباسييْن ، وبيان قوتهما في تسيير شؤون البلاد إنما لغرض تجاوزهما وإظهار التفوق عليهما فيما مكن كل واحد منهما في السلطة فكانت هاتان الشخصيتان بذلك قد أسهمتا في تعميق الدلالة الكلية في نص ابن الأبار .

وقال الشاعر في قصيدة ، بلغت ستة وسبعين بيتا، عارض بها الحصري القيرواني الضرير مادحا أبا زكريا وولديه [المتدارك] :[2]

وَرِثَ العُمْـرِيْنِ[3] سَنَاءَهُما يَـعْتَدُّ بهِ ويُعَـــــدِّدُهُ

عن عبدِ الواحـــدِ أحْــرَزَهُ فذُّ التّوحيدِ (وأوحَدُهُ)

ويقصد به عمر بنَ الخطاب ، وأبا حفص عمر الهنتاني جدّ أبي زكريا. ويقول المحقق :

((وربما أراد بالعمريْن عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز الأموي حفيده للبنت ،كما هو

طيّئ (وكلاهما ضرب به المثل) ، وهرم بن سنان صاحب زهير. (ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ص 147وما بعدها) .

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق 67 ، ص 161 .

(2) نفسه ، ق 66 ، ص 158 .

(3) يرجع بعض المؤرخين نسب الحفصيين إلى عمر بن الخطاب .

المتعارف من هذا التعبير.)) [1].

والتوصل إلى حقيقة الشخصية المقصودة في النص ، لا يمكن الانتهاء إليها إلا إذا كانت هناك قرائنُ دالةٌ على ذلك . فاسم "عمر" الذي ورد في هذا البيت الأول إنما يقصد به ـ حسب المؤرخين ـ عمر بن الخطاب ، الذي كان مستدعًى من قِبل شعراءَ كثرٍ ، كان الشاعر قد أشار في غير هذا الموضع إلى ذلك . أما " عمر" الثاني فهو أبو حفص عمر بن يحي الهنتاني ؛نسبة إلى قبيلة هنتانة ، من المصامدة بالمغرب الأقصى ؛ وهو((**رجُل من خاصة ابن تومرت أحد مريديه العشرة السابقين إلى مبايعته ونصرته في غربته ، وهم الذين قامت على كواهلهم أركان دولة الموحدين فأحكموا قواعدها وشيّدوا أركانها))** [2].

وقال الشاعر [الرمل] : [3]

أيُّها المولى إليكم مَـدَحًا　　　خصَّها سُؤددُكم بالـسّؤددِ
حبَّرْتُ منها يرَاعِي حِبَرًا　　　لِلنَّدَى زهْوٌ بها وسطَ النَّدِ(ي)
لـوْ تَقَدَّمْتُ بِميلادِي لمْ　　　تَتأخَّرْ عن أغانـي مَعْــــبَد

ومعبد : مُغنٍ مشهورٌ . كان يعيش بالحجاز على عهد الأمويين . [4] وهو المقصود في البيت؛ لأن المتحدث عنه هو المشهور بالغناء " أغاني معبد" .

---

(1) ينظر : ابن الأبار ، الديوان (الهامش 36) ، ص 158 .

(2) عبد الرحمن بن محمد الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع ،الجزائر،دط 2009 ، 2/81 .

(3) ابن الأبار ، الديوان ، ق 65 ، ص153 .

(4) **معبد المغنّي** :(...126هـ/ ...743م): هو معبد بن وهب ، أبو عباد المدني ، نابغة الغناء العربي في العصر الأموي.كان مولى لبني مخزوم(أولابن قطن،موليمعاوية) ونشأفي المدينة يرعى الغنملمواليه،وربما اشتغل في التجارة.ولمّا ظهر نبوغه في الغناءأقبل عليه كبراء المدينة ، ثم رحل إلى الشام ، فاتصل بأمرائها وارتفع شأنه. وكان أديبا فصيحا وعاش طويلا إلى أن انقطع صوته . ومات في عسكر الوليد بن يزيد . أصواته وأخباره كثيرة . (ينظر:الزركلي ، الأعلام 7/ 264) .

وقال الشاعر في غرض النسيب : [الطويل]:[1]

لَهَا مُلْكُ نُعـمانٍ[2] وعِزَّةُ تُـبَّعٍ[3]   وصَوْلَةُ بِسْطام[4] وحِكمةُ أَكْثَم[5]

ولِي وَجْدُ خَنسَاءٍ في رِقَّةِ عُروَة   وتهْيامُ غِيلانٍ وحُزْنُ مُـتَمِّم[6]

(1) ابن الأبار، الديوان، ق 130، ص288 .

(2) **النعمان بن المنذر بن المنذر** بن امرئ القيس اللخمي، الملقب بأبي قابوس 609-582) م) كان مسيحيا نسطوريا ، تسلم مقاليد الحكم بعد أبيه، وهو من أشهر ملوك المناذرة قبل الإسلام. كان داهية مقداما. وهو ممدوح. وهو باني مدينة النعمانية على ضفة دجلة اليمنى، وصاحب يوم البؤس والنعيم، وقاتل عبيد بن الأبرص الشاعر، في يوم بؤسه، وقاتل عدي بن زيد وغازي قرقيسيا (بين الخابور والفرات). وفي صحاح الجوهري: قال أبو عبيدة: «إن العرب كانت تسمى ملوك الحيرة -أي كل من ملكها- (النعمان) لأنه كان آخرهم».

(3) **تُبَّع** : اسم عام لملوك اليمن في القديم . ككسرى لسلاطين إيران ، وخاقان لملوك الترك، وفرعون لملوك مصر وقيصر لسلاطين الروم. ورد ذكر هولاء القوم في سور من القرآن الكريم : (سورة الدخان:37 ـ سورة ق : 14 .

(4) **بسطام بن قيس**(... ـ نحو10ق.هـ/ ...نحو616م): فارس جاهلي سيد بني شيبان، ومن أشهر فرسان العرب في الجاهلية ويضرب به المثل في الفروسية يقال (أفرس من بسطام) ويقال (أغلى فداءً من بسطام بن قيس) إذ أسره عيينة بن الحارث فافتدي بأربعمائة ناقة وثلاثين فرساً، أدرك الإسلام ولم يُسلم ، وقتله عاصم ابن خليفة الضبي يوم "الشقيقة"بعد البعثة . قال الجاحظ :بسطام أفرس من في الجاهلية والإسلام . (ينظر:الزركلي ، الأعلام ، 2/ 51) .

(5) **أكثم بن صيفي** بن رباح بن الحارث بن مخاشن بن معاوية التميمي :حكيم العرب في الجاهلية، وأحد المعمّرين الذين أدركوا الإسلام .قصد المدينة في مئة من قومه يريدون الإسلام فمات في الطريق سنة9هـ/ 630 كان من الخطباء البلغاء ، والحكّام الرؤساء، يضرب فيه المثل بأصالة الرأي ونُبل العظة وتروى له طائفة من الحكم السديدة ، والوصايا البليغة، والخطب القوية. وكان في مقدمة الوفد الذي أرسله النعمان بن المنذر إلى كسرى وألقى بين يديه خطبة فيها إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى وحسن التشبيه وجودة الكناية.

(6) **الخنساء**:هي تماضر بنت عمرو بن الشريد وكان دريد بن الصّمّة خطَبَها ، وذلك أنه رآها تهنأُ إبِلاً لها فهويَها فردّته وقالت أتراني تاركةً بني عمي كأنهم عوالي الرماح ومرتَّثَّة شيخَ بني جُشَم ، فقال في ذلك= =شعرا فخطبها رواحة ابن عبد العزّى السلميُّ فولدت له عبد الله وهو أبو شجرة ،ثم خلَف عليها مرداس بن أبي.
=

وفي هذين البيتين يستدعي الشاعر شخصيات عربية تاريخية وتاريخية أدبية ، فذكر في سعة الملك الخليفة النعمان بن المنذر ، وفي الفروسية والشجاعة بسطاما ، وفي الحكمة وسداد الرأي أكثم بن صيفي . وله من نصيب هذه الشخصيات في الخنساء حزنها ،وفي عروة بن الورد رقتُه ، وفي ذي الرمّة (غيلان) تهيامُه وحبُّه ،وفي متمم بن نويرة رثاؤه .

وهؤلاء من مشاهير العرب في أغراضهم المختلفة وفنونهم المتنوعة .

والملاحظ هنا أن الشاعر قد قسّم بين صفتين ؛ أما المتعلقة بالمنعة والقوة فللموصوف وأما التهيام والهيام والأسى فنسبه إلى نفسه ؛ ليعبر عن معاناته في مقابل الأقوياء ، وهو الضعيف الذي لم ينَلْ حقه منهم (الحفصيين) بعد .

وقد تكون الشخصية المستدعاة مناسبة للسياق إذا ما كانت على مستوى المتلقي معروفة واضحة ومحاطا بها . وقد يلجأ بعض المبدعين في هذا الصدد بالتعريف بشخصياتهم في الهوامش أسفل

عامر السلميُّ فولدت له زيدا ومعاوية وعمرا،وهي جاهلية ،كانت تقول الشعر في زمن النابغة ، الذي أنشدته ، فقال لها النابغة:والله لو أن أبا بصير أنشدني آنفا لقلت إنك أشعر الجن والإنس .
(ابن قتيبة، الشعر والشعراء ، صَ 218).

***عُروة** : هو عروة بن حزام ، العاشق العذري المشهور،وأحد الذين قتلهم العشق،وصاحبته عفراءبنت مالك العذْريَّة وكان عروة يتيما في حِجْر عمه حتى بلغ فعلق عفراء علاقة الصبا ، فسأل عمه أن يزوجه إياها فسوَّفه حتى خرجت إلى الشام فخطبها ابنُ عمٍّ لها فتزوجها .(ينظر: ابن قتيبة، الشعر والشعراء ، ص 418 وما بعدها) .

* **غيلان** : هو ذو الرمة ويكنى أبا الحارث ،وهو من بني صعب بن مِلْكان بن عبد مَناة ، وسُئل جرير عن شعره فقال: أبعارُ غِزلان ونُقطُ عروسٍ .وكان ذو الرمة أحد عشاق العرب المشهورين بذلك ،وصاحبته ميّة .
(ينظر: ابن قتيبة الشعر والشعراء ، ص356، وما بعدها) .

***متمم**: وأخوه ابنا نويرة : من ثعلبة بن يربوع ، وكان مالك فارس ذي الخِمار(فرسه) .قتله حالد بن الوليد وتزوج امرأته ، وقتل من قومه مقتلة عظيمة .قال أبو محمد ولمّا استُشهِد زيد بن الخطاب يوم مسيلمة دخل متمم على عمر ابنِ الخطاب فقال له أنشدْني بعضَ ما قلتَ في أخيك ، فأنشده ... فقال له عمر:يا متمم لو كنتُ أقول الشعر لسرَّني أن أقول في زيد بن الخطاب مثل ما قلتَ فيأخيك . قال متمم:يا أمير المؤمنين لو قُتلَ أخي قِتْلةَ أخيك ما قلتُ فيه شعرا أبدا . فقال عنر : يا متمم ما عزَّني أحدٌ في أخي بأحسنَ مما عزّيتَني به (ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ص214 ومايليها) .

الصفحة ، أو تضمين بعض هذه التعريفات المفتاح في المتن النص .

وقال الشاعر [البسيط] : [1]

عِلْمِي بِـآلِ أبي حفصٍ يُعَلِّـمُنِي مَدائحَ ابنِ حُسَيْنٍ آل حمـدانا

....

بِدَعًا يـراها ولا فخرَ البديعُ كما يَـرُودُ مُهْرَقَـهَا البُسْتيُّ بُسْتانا

والمقصود بأبي حسين :**المتنبي** ؛ مادح سيف الدولة .والبديع: هو **بديع الزمان الهمذاني**[2].

والبستيّ [3]: هو أبو الفتح البستي ، من شعراء الدولة الغزنوية . توفي سنة 400 هـ .

وقد يلتبس الأمر على المتلقي ، وهو يقرأ أبياتا من شعر ما ؛ أي أننا إذا قرأنا بيت ابن الأبار

---

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق 14 ، ص 311 . نيسابور سنة 382هـ

(2) **بديع الزمان الهمذاني** : (358 ـ 398 هـ/ 969 ـ 1008م) :هو أحمد بن الحسين بن يحي الهمذاني: أحد أئمة الكتاب .له"مقامات" .أخذ الحريري أسلوب مقاماته عنها.وكان شاعرا ، وطبقته في الشعر دون طبقته في النثر وُلد في همذان وانتقل إلى "هراة" سنة380هـ فسكنها ، ثم ورد ولم تكن قد ذاعت شهرته كان قوي الحافظة ، يضرب به المثل في بحفظه .ويذكر أن أكثرمقاماته ارتجالٌ.(ينظر: الزركلي ، الأعلام 1/ 115).

(3) **البستي أبو الفتح** علي بن محمد من بلدة بست في بلاد أفغان وهو من شعراء القرن الرابع عشر بدأ حياته معلما للصبيان في بلدته ثم عمل كاتبا في بلاط الدولة الغزنوية ارتحل إلى بخارى وفيها توفي. شاعر بارع وكاتب مجيد يهتم كثيرا بتجويد ألفاضه في نثره وشعره كان أبو الفتح شاعر عصره، وكاتب دهره وأديب زمانه، في النظم والنثر كما شهد لد بذلك معاصروه؛ وله شعر رائق تكثر فيه الحكم والمعاني البديعة، كما تشيع فيه الصنعة البلاغية العذبة، وله ديوان شعر مطبوع، وله مدائح كثيرة في الإمام الشافعي رضي الله عنه. وأكثر أشعار أبي الفتح البستي مقطعات وأبياتها أبيات القصائد، وفرائد القلائد، وأطول قصائده وأشهرها قافيته النونية في الأمثال، يستهيم في حفظها وروايته أهل الأدب، يعنى بها الناس حتى الصبيان في المكتب . **قال عنه ابن خلكان** :((**البُستي** :أبو الفتح علي بن محمد الكاتب البستي الشاعر المشهور صاحب الطريقة الأنيقة في التجنيس الأنيس البديع التأسيس فمن ألفاظه البديعة قوله: مَنْ أصلحَ فاسدَه أرغم حاسده . مَن أطاع غضبَه أضاعَ أدبه. عادات السادات ، سادات العادات . مِنْ سعادةِ جَدِّك وقوفُك عند حدِّك...توفي سنة 400 ، وقيا سنة إحدى وأربعمائة ببُخارى.)). (ابن خلكان ، وفيات الأعيان وأنباء الزمان ، تح: إحسان عباس ، دار صادر بيروت، دت 3/ 376) .

السابق ، ووقفنا على كلمة "ابن حُسين " هل كنا سنعرف مَنِ المتحدث عنه ؟ قطعا لا يتأتى هذا الأمر لكل القراء ، أما المطَّلِع ، الذي يحسن ربط كلمات الأبيات ببعضها سيلتفت حتما إلى كلمة " آل حمدان" ، التي ستجره إلى سيف الدولة الحمداني ، الذي خصه المتنبي بشعر كثير وكانت علاقتهما ببعضيهما محفوظة في التاريخ الأدبي والسياسي.

ولولا الإحاطة بما يتعلق بالشاعر(حياته ، فنه ، ...) لَمَا أمكننا أن نعرف الشخصية المقصودة في كلام الشاعر في البيت التالي ، الذي يقول فيه [الطويل]:(1)

وأبْكِي لِشِلْوٍ بالعَراءِ كَما بَكَى   زيّادٌ لِقبرٍ بينَ بُصـرَى وجاسِم
وأَعْبَدُ أَنْ يَمْتَازَ دُونِـي عَبْدَةٌ(2)   بِعلْيَاءَ فِي تَأْبِينِ"قيسِ بنِ عاصمِ"

ويعني به قول زياد (النابغة الذبياني)(3) في رثاء النعمان بن الحارث الغسّاني [الطويل]:(4)

سَقَى الغَيْثُ قبْرًا بينَ بُصْرَى وجَاسِم   بِغيثٍ مِن الوسميّ قَطْرٌ و وَابِــلُ (5).

وقال الشاعر [الوافر] :(6)

سعيدٌ مِن بني قيسِ بنِ سَعْـدٍ   مَكينُ الحمدِ محمودُ المكانِ

---

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق 124 ، ص283 .

(2) **عبْدة** : هو الشاعر عبدة بن طبيب ،من بني عبْشَمْس بن كعب بن سعد بن زيد مَناة بن تميم ،ويقال لعبْشَمس قريشُ سَعْدٍ لجمالهم ، وهو القائل في رثاء قيس بن عاصم :
وما كان قيس هلكه هلك واحد   ولكنه بنيان قومٍ تهدّما .

(3) **النابغة الذبياني** :هو زياد بم معاوية ،ويكنى أبا أمامة .ويقال أبا ثُمامة.نبغ بالشعر بعدما احتنك وهلك قبل أن يُهتِرَ.قال الأصمعي كان النابغة يُضربُ له قُبّة حمراءُ مِن أدم بسوقِ عُكاظ فتأتيه الشعراءُ فتعرض عليه أشعارها.وقال أبو عُبيدة يقول مَنْ فضَّل النابغة على جميع الشعراء هو أوضحهم كلاما وأقلّهم سقطا وحشوا وأجودهم مقاطعَ وأحسنهم مطالعَ . ولشعره ديباجةٌ إن شِئتَ قلتَ ليس بشعر مؤلّف مِن تأنُّثِه ولِينِه .وإن شئتَ قلتَ صخرةٌ لوْ رُدِيَتْ بها الجبال لأزالَتْها. (ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ص 95 .)

(4) النابغة الذبياني ، ديوان التابغة الذبياني ، ص 87 ..91 .

(5) **بُصرى وجاسم** :موضعان بالشام . (ينظر: ابن منظور ، اللسان ،1/ 404 . و2/ 263) .
***الوسميّ: مطر** أول الربيع ؛ لأنه يسم الأرض بالنبات . (ينظر: ابن منظور ، اللسان ، 15/ 292) .

(6) ابن الأبار ، الديوان ، ق 152 ، ص 324 .

ويقصد سَعْدَ بْنَ أبي وقاص .[1]

وقال الشاعر [البسيط]:[2]

يُنْسَى بِإِقْدامِهِ عَمْروٌ ومذحِجُهُ وحاتِمٌ بِأياديهِ وطَيِّئُهُ

يعني : عمرو بن معد يكرب الزبيدي، الفارس العربي الشهير . وحاتم الطائي مضرب المثل في الجود . وكأنما نظر الشاعر إلى قول أبي تمام في ممدوحه :

إقدامُ عَمْروٍ في سماحةِ حاتِمٍ في حِلْمِ أحنَفَ في ذكاءِ إياس .

وقال الشاعر [الكامل] :[3]

قدْ صَيَّرَتْنِي العامريَّةُ عامراً أَلْقَى الأسنَّةَ كيفَ شئتُ مُلاعِبا

وعامر: إشارة إلى الشاعر الفارس عامر بن الطفيل .[4] وهو مَنْ عُرِف بِملاعب الأسنّة .

ومِن غير العرب ذكر " كسرى " وأباه ، فقال [الكامل] :[5]

تَبْأَى على نَفَرِ السَّوادِ بِعَدِّها كِسْرى أباً تُنْمَى له وقَباذَا[6]

ويقصد به :أبا كسرى (أنو شروان).

وقال الشاعر واصفا فتح تلمسان ، وكان ذلك سنة 640 هـ [البسيط] :[7]

---

(1) ينظر : ابن الأبار ، الحلة السيراء ، 2/ 303 .

(2) ابن الأبار ، الديوان ق 2 ، ص 43 .

(3) نفسه ، ق 20 ، ص 69 .

(4) **عامر بن الطفيل** : (70.ق .هـ ـ 11هـ/ 554 ـ 632م) ابن مالك بن جعفر العامري ، من بني عامر ابن صعصعة ، فارس قومه ،وأحد فتاك العرب وشعرائهم ، وساداتهم في الجاهلية . وُلد ونشأ بنجد .وكان يأمرمناديا في عكاظ ينادي: هل مِن راجل فنحمله ؟ أو جائع فنطعمَه ؟أوخائف فنؤمنَه؟.وخاض المعارك الكثيرة ،وأدرك الإسلام شيخا ، وله ديوان شعر. (ينظر :الزركلي ، الأعلام ، 3/ 252) .

(5) ابن الأبار ، الديوان ، ق 84 ، ص 182 .

(6) **تبأى** : تفخر . **قباذ الثاني** كان ملك بلاد فارس، وهو ابن كسرى الثاني(628 – 590) ، رفع إلى العرش بعد معارضة أبيه في فبراير 628، بعد الانتصارات العظيمة للإمبراطور هرقل (641 – 610) قتل أباه وثمانية عشر من أخوته، وبدأ المفاوضات مع هرقل، ولكنه مات بعد بضعة شهور من بداية حكمه.

(7) ابن الأبار ،الديوان ، ق176 ، ص 383 .

وسَارُوا إليها واثِقِينَ بِفتْحِها كأَنَّ سَطِيحًا يُنْبِئُ الجيشَ أو شِقّا

ويَقصد بـ: سطيح وشِق كاهنييْن من كُهّان الجاهلية[1] .

وقال الشاعر [الكامل] : [2]

تَاللهِ لـو دَبَّتْ (لها) دَبَّابُها لَطَوَتْ عليها أرضَها وسَماءَها

ويقصد: قبيلة بني دباب ابن ربيعة ، بن زغب من بني سليم. وموطنها ما بين قابس وطرابلس إلى برقة . وكانت تناصر أبا زكريا الحفصي .

وقال الشاعر [البسيط] : [3]

نَعَمْ وإنْ عُـدَّ منها في ذُؤَابـتِها فإنَّ دُودانَ تِعْيِيرٌ لِعَدْنَانَ

ويقصد : دودان ، التي مِن ولد أسد بن خزيمة ، وأب لعدة قبائل . وكان يقال لهم : " عبيد العَصا " .

قال الشاعر [الكامل] :[4]

---

(1) **سطيح وشِقّ** :قال ابن خلكان : ((وكان شِقّ المذكور ابن خالة سطيح الكاهن الذي بشر بالنبي ـ صلى الله عليه وسلّم ـ وقصته في تأويل الرؤيا في ذلك مشهورة ، وهي مستوفاة في السيرة ،وكان شِقّ وسطيح من أعاجيب الدنيا أمل سطيح فكان جسداً مُلقىً لا جوارح له ، وكان وجهه في صدره،ولم يكن له رأس ولا عُنق ، وكان لا يقدر على الجلوس ،إلا أنه إذا غضب انتفخ فجلسَ ، وكان شق نصفَ إنسان ، ولذلك قيل له شِقّ ؛أي شق إنسان فكانت له يد واحدة ورِجل واحدة وعين واحدة ،وفتح عليهما في الكهانة ما هو مشهور عنهما ، وكانت ولادتهما في يوم واحد، وفي ذلك اليوم توفيت طريفة ابنة الخير الحميرية الكاهنة زوجة عمرو مزيقيا بم عامر ماء السماء ،ولمّا وُلدا دعتْ بكل واحد منهما وتفَلتْ في فيهِ ،وزعمتْ أنه سيخلفها في علمها وكهانتها ، ثم ماتتْ من ساعتها ودُفنتْ بالجحفة ، وعاش كل واحد من شقٍّ وسطيحٍ ستَّمائةِ سنةٍ)) (ابن خلكان ، وفيات الأعيان 2/ 230 ـ 231) .

(2) ابن الأبار ، الديوان ، ق 1 ، ص 35 .

(3) نفسه ، ق 144 ، ص 306 .

(4) نفسه ، ق 70 ، ص167 .

أينَ ابنُ غانـية [1] وأينَ غنَـــــاؤُهُ لا مُلْـحِدٌ إلاَّ وأَصْبَحَ مُلْحِدا
و حَكَتْ أَجادلُ [2] زغبة زُغبَ القَطَا و غَدَتْ رياحُ بني رياحٍ رُكَّدا

والقبيلتان (زغبة ورياح) من أعراب بني هلال ؛ الأولى بالمغرب الأوسط ، والثانية في الزاب . وكان لهما دور خطير في أحداث المغرب الإسلامي . وكانتا أول الأمر ضد أبي زكريا ثم خضعتا له .

وقال الشاعر [الطويل]: [3]

تُدِلُّ بِهَذِي في النّجابةِ دُلْدُلٌ وتَعْلُو بِهَذا في عَتَاقَتِهِ عَلْوَى

ويعني بـ: **عَلْوَى** : اسم فرس كانت من سوابق خيل العرب . واسم فرس الشاعر الصعلوك السليك بن السلكة . وبـ: **دُلْدُل** :بغلة الرسول ﷺ الشهباء .

وقال الشاعر [الطويل] : [4]

ولَـمَّ الورَى شَمْلاً وكانُوا كأنّما رَغَا وسْطَهُمْ سَقْبُ السّماءِ[5] وما رَغَا

يشير إلى رُغَاء سقْب ناقة النبيّ صالح ـ عليه السلام ـ ويُضرب مثلاً عند الشّدّة والشؤم .

ومن الأقوال المأثورة ، التي وردت قليلة جدا ، مقارنة بالرموز التاريخية الأخرى يصف ابن الأبار حادثة ؛ شَبّه فيها قَطْع السلطان لرؤوس عصابة ، خرجت عن طوعه بأصابع تقطف الأزهار، منكلا بهم أيَّ تنكيل [الكامل]:[6]

---

(1) **ابن غانية** : (... ـ 633هـ/ ...1236م) هو يحي بن إسحاق بن محمد بن علي المسوفي بن غانية ، آخر الأمراء من بني غانية ،الذين كانت لهم ميورقة وما حولها (جزائر البليار)كان قبل الإمارة مع أخيه علي بن إسحاق ولما نشبت معركة" حامة دُفيوس" بقرب قسنطينة ،وأصيب علي اجتمع مَن بقي مِن رجاله فقدّموا عليهم ابن غانية ولحقوا بصحراء إفريقية(شرقا).(ينظر : الزركلي ، الأعلام ، 1/ 137) .

(2) **أجادل** : جمع أجدل ، والأجدل : الصقر . (ينظر :ابن منظور ، اللسان ، 2/ 194) .

(3) ابن الأبار ، الديوان ، ق 201 ، ص 420 .

(4) نفسه ، ق 172 ، ص 369 .

(5) **السقب** : ولد الناقة الذكر . (ينظر: ابن منظور ، اللسان ، 6/ 273) .

(6) ابن الأبار ، الديوان ، ق 136 ، ص 293 .

وعِصَابَةٍ قَطَفَتْ رؤوسَهُم الظُّبَى   قَطْفَ البَنَانِ أزاهِرَ البسْتانِ

استنادا في ذلك إلى مقولة مشهورة للحجاج بن يوسف الثقفي ، لمَّا وقفَ خطيبا بمسجد الكوفة، مهددا ومتوعدا ، فقال حينها : ((**إنِّي أرى رُؤوساً قد أيْنعَتْ وحان وقْتُ قطافها. وإني لَقاطِفُها**)) .

ويقسم النحويون العَلَمَ إلى ثلاثة أقسام : ((**إلى اسم ، وكنْية ، ولقب ،والمراد بالاسم هنا ما ليس بكنية ولا لقبٍ ، كزيدٍ وعَمْرٍو ،وبالكنية :ما كان في أوله أبٌ أوأمٌّ ، كأبي عبد الله وأم الخير وباللقب : ما أشعَرَ بِمدحٍ كزينِ العابدين ، أو ذمٍّ كأنفِ الناقة**)) .[1]

وبالنظر إلى الأبيات المثبتة سابقا ، نجد أن الشاعر ابن الأبار قد وظَّف من الأعلام اثنيْن هما الاسمُ واللقبُ ،وأغفل الكنية .

ولعل ذلك يعود إلى أن الأسماء الموظفةكانت مشهورة ،ومعروفة .

وقد كانت الشخصيات المستدعاة بأسمائها ، بما فيها أسماء الحيوانات ، والقبائل أكثر نسبة من التي بألقابها ؛ أي بنسبة :80.76 ٪ مقابلة بالألقاب التي كان حظها فقط حوالي: 38.46٪ .

كما كان لهذه الأسماء الموظفة حضورٌ في المجتمع كبيرٌ ؛ أي أن الشاعر اختار الشخصياتِ الأكثرَ ذيوعًا ، والأوسع انتشارا في الأوساط الثقافية والاجتماعية . وتعد هذه الخطوة أنجح السبل في التوظيف الفني ؛ لأن الشاعر إذا أراد أن يكون لنظمه صدىً ، لا بد أن يتوجه إلى المتلقين بما في عقولهم وأفكارهم ، وبما يفهمون لتسهل عملية التلقي ، وهدم الغموض واللَّبس الذي قد يتوسط عملية التواصل ، باعتبار هذا المتلقي شريكا في هذه العملية الإبداعية .

ولا يعني هذا الكلام أن هناك سيطرةَ نوع على آخرَ ، وإنما قد تكون هذه الشهرة لصيقة بالاسم (أبرهة ، نعمان ،لقمان...) ،كما قد تكون لِلّقب (الخنساء ، المتنبي ، المعتصم...)

(1) محمد محي الدين عبد الحميد ، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ط6، 1974 ، 1/ 119 .

أو أن يكون للنظم ضرورةٌ ، اقتضت استعمال الاسم ، بدل اللقب ، أو العكس كما قال الشاعر [الرمل] :[1]

فلماذا عَظَّمُـوا " مُعتصِما "   وبِماذا فَضَّـلُوا " مُعتضدا "[2]

5 ـ توظيف الأمثال

كان اعتماد الشعراء الأندلسيين على مصادرَ تراثيةٍ متعددة ؛ ومن بين هذه الأصول العربية الأمثالُ السائرة ، التي جعلوا منها مَعينا يغترفون منه ما يتماشى وتجاربهم الشعرية إغناءً لِمعانيهم وإعطاء كلماتهم القوةَ التعبيرية ، فتمثلوا هذه الأمثال وضمّنوها أشعارهم .

وما ذلك في حقيقة الأمر إلا تعبير عن شدة الارتباط بتراث الأمة ، وضرورة الحفاظ عليه .

وقد نظر بعض النقاد إلى الأمثال نظراتٍ متنوعةً ؛ فهذا ابن الأثير يقول :

((فمَنْ ضَمَّنَ نصَّه مَثَلاً مِنَ الأمثالِ وأرادَ حَلَّهُ لزِمَ منهُ ألاَّ يَخْرُجَ عن اللَّفظِ ، إلاَّ أنْ يَعْكِسَ المعنَى.)) .[3]

---

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق 67 ، ص 161 .

(2) **المعتصم:** (179 ـ227هـ/ 795 ـ841م) محمد بن هارون الرشيدبن المهدي ،بن المنصور ،أبوإسحاق المعتصم بالله العباسي : خليفة من أعظم خلفاء هذه الدولة.بويع بالخلافة سنة 218هـ يوم وفاة أخيه المأمون.وهو فاتح عمورية من بلاد الروم الشرقية في خبر مشهور .وهو باني مدينة سامرا ، سنة222 حين ضاقت بغداد بجنده.وهو أول مَنْ أضاف إلى اسمه اسمَ الله تعالى مِن الخلفاء،فقيل "المعتصم بالله".خلافته 8سنين و8 أشهر،وخلّف 8بنين و8 بنات،وعمره 48 سنة .توفي بسامرا.(ينظر:تعريفهما: الزركلي، خير الدين ، الأعلام ،قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين،دار العلم للملايين ،بيروت ،لبنان،ط1،2006،15/ 128ـ129).

المعتضد:(242 ـ289هـ/ 857 ـ 902م)أحمد بن طلحة بن جعفر ، أبو العباس المعتضدبالله بن الموفق ابن المتوكل: خليفة عباسي، ولد ونشأ ومات في بغداد .كان عون أبيه في حياته أيام خلافة المعتمد.بويع له بالخلافة بعد موت عمه المعتمدسنة 279هـ .مدة خلافته 9سنواتو9أشهرو13يوما.كان نقش خاتمه "أحمد يؤمن بالله الواحد".

(ينظر:الزركلي ، الأعلام ،1/ 140) .

(3) ابن الأثير ، الوشي المرقوم في حلّ المنظوم ، تحقيق : جميل سعيد ، المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، دط

=

وكان تبرير شرط الناقد يعود إلى أن المثل شائع ، ومألوف لدى الناس ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ؛ لأن الأمثال لا ترِد إلا قليلة جدا .

أما صاحب " منهاج البلغاء " فيقول : ((**وقد يتصرّف في المثل بإبرازه في عبارة جديدة لا تشبه عبارته الأولى . وقد تختصر العبارات عن الأمثال فيُورَدُ منها في البيت الواحد المَثَلاَن والثلاثة وقد يُتَمَثَّلُ بالمَثَل على غيرِ ما تمَثَّلَ به الأولُ . فربما حسن موقعه من الكلام الثاني أكثرَ من حسنَه في الكلام الأول . فإنْ كان موقعه في الكلامِ الأول أحسنَ عُدَّ مورِدُهُ في الكلام الثاني مُسِيئًا مقصِّرًا**)).[1]

وفي سياق تضمين هذه الأمثال ، يقول الشاعر مادحا أبا زكريا ، ومهنئا له بمولوده" عثمان" مقدِّما لذلك بالنسيب شاكيا من " لُبْنَى " التي كثيرا ما تعِده (أسمع صوتا) ولكنها تُخلف وعدها (وأرى فَوتا) آخذا من المَثَل العربي المشهور: المثل : " **أسمعُ صوتا وأرى فَوْتاً** " .[2]

فيقول [مخلع البسيط]:[3]

زُخْرُفَــةُ العَذْلِ في هَواها   جَعْـجَعَةٌ لا تُفيدُ طِحْنا

وقال ابن الأبار في وصف رياض أبي فهر ، دون أن ينسى مدح صاحب الرياض ،الذي كان يدعو الشعراء للتغني برياضه البديعة ، والتي تعتبر من أعظم ما نسجتْه أيدي الحفصيين وكان الشعراء يتنافسون في وصفه ، وبيان مواطن جماله وروعته ؛ لأن لذلك سبيلا إلى قلب الممدوح الذي جلب نجاحُه حَسَد الحُسَّاد ، وحاول المغرضون أن يتطاولوا عليه ، علَّهم يبْلغون مداه مشبها إياهم بالنَّقد ـ وهم صغار الغنم ، قِباح الوجوه ، ليلة ـ أمام أَسْد الشّرى [مجزوء الوافر]:[4]

= 1989 ، ص 58 .

(1) حازم القرطاجنّي ، منهاج البلغاء ، ص 39 ـ 40 .

(2) الميداني ، أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري ، مجمع الأمثال ، تح: محمد محي الدين عبد الحميد المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، دط ، 2003 ، 1/ 344 .

(3) ابن الأبار ، الديوان ، ق 143 ، ص301 .

(4) نفسه ، ق 63 ، ص 145 .

مَـــدَاهُ يُؤَمِّـلُونَ وأيْـ ـنَ مِنْ أُسْدِ الشَّرَى النَّقَدُ

والمثل الذي استقى منه صورته هو : **" هوَ أذَلُّ مِن النَّقَدِ "** .[1]

و في باب التقرب إلى الحفصيين ، الذين لجأ إليهم الشاعر ، فارًّا من النصارى ، الذين سلبوه وطنه ، وجعلوه ـ بالقوة ـ يغادر بلنسية ، مرغَما لا مختارا . وبما أن تونس هي وجهته الوحيدة التي يؤمل فيها العيش الرغيد والطمأنينة ، التي افتقدها هناك ، فلا غروَ أن يجعل من هؤلاء الوافد عليهم أعظم الأمم ، التي تدين لها كل الأملاك ، فيفضّلهم عن الكل كما فُضِّل ما في جوف الفَرا عن باقي الصيد (الأرنب والظبي) ، فقال في ذلك [الرمل][2]:

سَلّم الأملاكُ لمّا عَلِـمُوا أَنَّ ((كُلّ الصيد في جوف الفرا))

والمثل هو : **" كلُّ الصيد في جوف الفرا "** [3].

---

(1) **أذل من النقد** : قال أهل اللغة :النقد جنس من الغنم ، قصار الأرجل ، قباح الوجوه، يكون بالبحرين . الواحد نقدة .قال الأصمعي :أجود الصوف صوف النقد .وقال:

عقيم باشر تميم محتـدا لو كنتم ضأناً لكنتم نقدا

أو كنتم ماء لكنتم زبداً أو كنتم صوفاً لكنتم قردا

(ينظر : الميداني ، مجمع الأمثال ، ص 284) .

(2) ابن الأبار ، الديوان ، ق 85 ، 186 .

(3) **كل الصيد في جوف الفرا** : قال ابن السكيت :الفرا الحمار الوحشي، وجمعه فراء .قالوا :وأصل المثل، أن ثلاثة نفرخرجوا متصيدين، فاصطاد أحدهم أرنباً، والآخر ظبياً، والثالث حماراً، فاستبشر صاحب الأرنب وصاحب الظبي بما نالاه وتطاولا عليه، فقال الثالث :**كل الصيد في جوف الفرا** : أي هذا الذي رزقت وظفرت به يشتمل على ما عندكما .وذلك أنه ليس مما يصيده الناس أعظم من الحمار الوحشي .وتألف النبي صلى الله عليه وسلم أبا سفيان بهذا القول حين استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم فحجب قليلاً ثم أذن له فلما دخل قال :ماكدت تأذن لي حتى تأذن لحجارة الجلهمتين ؛ قال أبو عبيدة :الصواب الجلهتين ، وهما جانبا الوادي ، فقال صلى الله عليه وسلم :يا أبا سفيان أنت كما قيل :كل الصيد في جوف الفرا ، يتألفه على الإسلام .وقال أبو علابس :معناه إذا حجبتك قنع كل محجوب .يضرب لمن يفضل على أقرانه (الميداني **مجمع الأمثال** ، 2/ 136) .

و في مناسبة رجوعه من بلاد النصارى ، الذين خرج إليهم طاعة لأمير بلنسية ـ آنئذ ـ أبي زيد وبعد أن فارقه ، مارًّا بصديقه القديم ؛ حاكم شاطبة الحسين بن يحي الخزرجي الذي آوى إليه وهو في الطريق إلى بلنسية ، فأتحفه بقصيدة ، يلطّف بها الأجواء، حتى يحسن وفادته ، ويتغافل عن عثرته ، التي حُسبتْ عليه ،مستغلا المناسبة ليشكو الحاكم سطوة الأيام التي كانت بانية مجدَه تنكرت له وصارت مِعْولَ هدمٍ لكل ما بُنِيَ ، محاولا منه الإصلاح من شأنه ،وجعل هذه الأيام تسرُّه ولا تضرُّه ، إلا أنها لا تُراوَغ ولا تُخْدَعُ وستظل تُؤذيه ، فقال الشاعر:[الوافر]:(1)

وقُـلْتُ أُخيفُهَا لِتكُفَّ عَـنِّي فقالتْ: لِـي يُقَـعْـقَعُ بِالشِّنَان

موظفا المثل العربي القائل: **" لا يُقَعْقَع له بالشِّنان "** .(2)

و من تشبيب ابن الأبار ، الذي وسم به شعره الغزلي ، نجده في قصيدة يستهلها بمقدمة غزلية يصف فيها نفسه بالضحية والفريسة ، التي قنصتْها ألحاظ معشوقته ، وأدمتْ قلبَه من غير سلاح وبعدما أطلقت له حبل الوداد والقرب ، قلبت عليه ظهر المجن ، وأرته ما يسوء وما لا ينتظر . وعلى الرغم من ذلك يبقى لها مُطيعا ، ولِحِبّها وفيًّا ، فقال : [الطويل] :(3)

لقدْ قَلَبَتْ لِلقلْبِ ظَـهْرَ مِجَـنِّهَا ولا ذنْبَ إلاّ أنْ أطاعَ فما يَعْصِي

مستفيدا من مثل العرب القائل : **" قَلَبَ لَهُ ظَهْرَ المِجَنّ "** :(4)

---

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق 152 ، ص 323 .

(2) **ما يقعقع له بالشنان** : القعقعة، تحريك الشيء اليابس الصلب مع صوت ، مثل السلاح وغيره .والشنان جمع شن ، وهو القربة البالية،إذا قُعْقع بها نفرت الإبل وهم يحركونها إذا أرادوا حثها على السير لتفزع فتسرع . قال النابغة: كأنك من جمال بني أقيش يقعقع خلف رجليه بشن .
وقال الحجاج على منبر الكوفة :((إنّي والله يا أهلَ العراق ما يُقَعْقَعُ لي بالشِّنان،ولا يُغْمزُ جانبي كتغْماز التين)) . ويضرب هذا مَثَلاً للرجُل الصّعب ، لا يُهَدَّدُ ولا يُفْزَع بالوعيد .(خير الدين شمسي باشا ،مركز الملك فيصل للبحوث والدراسا الإسلامية ، ط 1 ، 2002 ، 3/ 2051 .) .

(3) ابن الأبار ، الديوان ، ق 159 ، ص 330 .

(4) **قلب له ظهر المجن**: يضرب لمن كان لصاحبه على مودة ورعاية ثم حال عن العهد .كتب أمير المؤمنين علي ـ كرم الله وجهه ـ إلى ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ حين أخذ من مال البصرة ما أخذ :إني شركتك في أمانتي =

لم يكن ابن الأبار يغفل عن تراث الأمة المجيد ؛ فلم تكن الأمثال بمنأى عنه ، يوظفها ويستوحي معانيها المختلفة ليعطي نظمَه القوة والديمومة عبر التاريخ الأدبي العربي .

فعلى الرغم من اتكائه على عدد غير كبير من الأمثال العربية ، إلا أنه يبرهن في كل أنه مطلع واعٍ لما يفعل ، ومستوعب تراث أمته الطويل .

=

ولم يكن رجل من أهلي أوثق منك في نفسي ، فلما رأيت الزمان على ابن عمك قد كلب، والعدو قد حرب قلبت لابن عمك ظهر المجن لفراقه مع المفارقين وخذله مع الخاذلين، واختطفت ما قدرت عليه من أموال الأمة اختطاف الذئب الأزل رابية المعزى ، أصح رويداً فكأن قد بلغت المدى وعرضت عليك أعمالك بالمحل الذي ينادي به المغتر ويتمنى المضيع التوبة والظالم الرجعة. (الميداني / مجمع الأمثال 2/ 101 .) .

6 ـ توظيف مصطلحات العلوم

كان للحكام الموحدين دورٌ كبير في نشر العلم والثقافة المتنوعة بين أوساط الأندلسيين ؛ إذ يُحكى عن عبد المؤمن ، بأنه كان شديد الإيثار لأهل العلم والعلماء ، وكان يخصص للذين يقربهم منه رواتب ، تضمن لهم المعيشة المحترمة . ولم يبتعد ابنُه و وريثه أبو يعقوب يوسف عن سمت أبيه وسياسته مع هذه الفئة بخاصة.

وكان هذا الصنيع من مظاهر الاهتمام بطلاب العلم في هذا العصر ، لولا بعض الفترات التي ضُيِّقَ فيها الخناق على بعض الفلاسفة ، مثلما حصل لابن رشد على عهد أبي يوسف يعقوب (580 ـ 595هـ) أو ما حدث لابن حبيب القصري على يد أبي العلاء إدريس المأمون حينما اتُّهِم بالزندقة ، فأُعْدم وصُلب بسبب تهمته .

وكان من المصطلحات العلمية ، التي وظفها الشاعر ابن الأبار نذكر : العَروض والبلاغة والنحو ، وعلم الفلك ، وعلوم القرآن والحديث :

أ ـ العروض والبلاغة :

أنشأ الشاعر بمناسبة وصف رياض أبي فهر ، مادحا أبا زكريا الحفصي ، مشيدا بدولة الحفصيين ، التي لولاها لَعَمَّ الفساد واسْتشْرَى ، واضْطُهِدَت الآدابُ وانقرَضَ القريضُ وتغيّرت قوانينه ، فيقول [مجزوء الوافر]:[1]

وأَصْبَحَ دائِرُا مَغْنَــا ... هُ لا سَبَبٌ ولا وَتَـدُ

وقال يمدح المرتضى ، ويهجو السعيد لاستعانته بالنصرانيين [الطويل] :

فَكَامِلُها لا يدْخُلُ الخَزْلُ جَزْلَهُ ... و وافِرُهَا لا يَقْبَلُ العَقْلَ والعَقْصَا

ومن الإشارة العروضية المتعلقة بعيوب الشعر، يقول في الحُلَّة السيراء :

((...**وكقول الآخر ، ويستشهد به العروضيون:**

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق 63 ، ص 146 .

لِمَنِ الديارُ بِرَامَتَيْنِ فَعَاقِـلِ   دَرَسَتْ وغيَّرَ آيَهَا القَطْرُ

و هي مِن الضربِ الأحَذِّ المضمر من ضروب العروض الأول مِن أعاريض الكامل وعكسه وهو من الشّاذّ :

ولَنِعْمَ حشْوُ الدّرعِ أنتَ إذا   نَهِلَتْ مِن العَلَقِ الرِّمَاحُ وعَلَّتِ)). (1)

وفي سياق لمحاته النقدية ، يُذكَر له في تعريفه بابن سيد الجُراوي ، في كتابه " تحفة القادم " تعليقٌ على أبيات ذكرها بحرُ بن صفوان ، صاحب كتاب " زاد المسافر " ، وهي :

لَمَّـا رأيـتُكَ عينَ الزمـــان   وأَنَّ إليكَ تُحَـثُّ الخُطَـــا

بَكَرْتُ إليكَ بُكورَ الغُرابِ   ورُحْتُ عليكَ رَواحَ القَطَا

فقال ابن الأبار مُعلّقا: ((**هكذا أُنشِدَ الأولُ على الخرْم وعيوب الشعر الجائزة للعرب لا تجوز للمحدثين ومَنِ احتجّ بهم عندي ليس بِمُصِيب ، على أنه قد وَقعَ في شعر حبيب :**

هُنَّ عوادي يوسُف وصواحبُهْ(2)))(3) .

ولمّا قرأ أبياتًا لعباس بن ناصح الأندلسي ، ووجَد موافقة من الشاعر أبي الطيب المتنبي أبدى رأيه بعد التنقيح والتجويد منه ، فقال في ذلك : ((**...وحسْبُنَا اليومَ القَبولُ ، إذا نقَّحْنَا وجَوَّدْنَا ما نقولُ.))** . (4)

وقال ابن الأبار [الوافر] : (5)

عُداتُكَ في يديْكَ وإنْ تَناءَتْ   فلم تسْتنَّ في طُرقِ الغُرور

إليكَ تَفِـرُّ منكَ بِلا ارْتيـــابٍ   كأعْجازٍ تُردُّ على صُـــدور

---

(1) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، 1/ 195 ـ 196 .

(ينظر : الخطيب التبريزي ، شرح ديوان أبي تمام ، ص119 .) .

(2) وعجزُ بيت حبيب (أبي تمام) ، هو[الطويل] : فَعَزْمًا فَقِدْما أَدْرَكَ السُّؤْلَ طالبُهْ.

(3) ابن الأبار ، تحفة القادم ، ص 59 ـ 60 .

(4) نفسه ، ص 60 .

(5) نفسه ، ق 87 ، ص 198 .

وفي هذين البيتين يمدح زكريا ، ويصف قوته وجبروته ، مما جعل العدوَّ يَفر منه إليه ، فلا مفر لهم ، ولا مكان لهم إلا حضرته طائعين ، ناكسي رؤوسِهم ، ترهقهم ذِلَّةٌ ،فخضوع أول القوم يستتبع حتمًا خضوع الآخر ، مشبها حالهم كحال الأعجاز ،التي ترد على الصدور . وهذا باب في البلاغة يسمى بـ"التصدير " .

يقول ابن رشيق : ((**وهو أن يُردَّ أعجاز الكلام على صدوره ، فيدل بعضه على بعض ويسهل استخراج قوافي الشعر إذا كان كذلك وتقتضيها الصنعة ، ويكسب البيت الذي يكون فيه أبهة ويكسوه رونقا وديباجة ، ويزيده مائية وطُلاوة**)) .[1]

ب ـ النحو:

إن الاهتمام بعلم النحو، يندرج ضمن عناية الدارسين بأساسات التعلم والتلقي . فهو من مكملات الثقافة الأدبية والدينية ، التي يجب على المتعلم والشاعر والفقيه والمحدّث أن يَحُوزه ليستقيم لسانه . وقد نشطت حركة تأليف الكتب النحوية في هذا العصر نشاطا ملحوظا وحمل هذه المسؤوليةَ علماءٌ بارزون ؛ من مثل : ابن مضاء القرطبي (ت 592 هـ) وأبي محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي[2](521 هـ) ، وابن خروف ، أبي الحسن علي بن محمد بن يوسف (ت 609 هـ) والشلوبيني ، أبي علي عمر بن محمد بن عمر الإشبيلي (ت 645 هـ) وغيرِهم .

ولم يكن ابن الأبار بِمنأى عن هذا النشاط العلمي و اللغوي ؛لأنه كان : ((...**مُسْتبحِراً في علوم اللسانِ نحواً ولغةً وأدباً**...)) [3].

---

(1) ابن رشيق ، العمدة ، 2/ 3 .

(2) **البطليوسي** : (444 ـ 521هـ/ 1052 ـ 1127م) :عبد الله بن محمد بن السيد ،أبومحمد :من العلماء باللغة والأدب.ولد ونشأ في بطليوس في الأندلس.وانتقل إلى بلنسية وسكن بها وتوفي فيها.من كتبه : "الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، لابن قتيبة" و"المسائل والأجوبة"..(ينظر:الزركلي ، الأعلام 1/ 123).

(3) عبد الملك المراكشي ، الذيل والتكملة لكتابي الصلة والموصول ، 6/ 258 .

يقول الشاعر [الكامل]:[1]

جَرَّ الكتَائبَ رافِعًا رَاياتِهِ فتَكَافَأَ المرفُوعُ والمجْرورُ

وعدّد في ممدوحه صفاتِه العظيمةَ ، والتي منها أن الخير يبدأ من بابه ، الذي يصدق الخبر [الرمل] :[2]

بابُهُ مُبْتَدَأُ الخيرِ الذي صدّق الخبَرُ لديهِ الخَبَرَا

وقال في تأكيد أبي زكريا أقواله بأفعاله [الكامل]:[3]

كُلٌّ على التَّوكيدِ قَولَتُهُ مَقْصُورةٌ ما أعْوَزَ البَدَل

ويقول بعد ما غضب عليه أبو زكريا ، متوسلا بوليّ العهد محمد ، ومبيّنا أن محمدا المستشفَع به قِبْلتُه ، التي يُيَمِّمُ إليها وجهه ، متمنيا انتقال حال المغضوب عليه إلى ما هو أفضلُ ، فهو طامع ـ بلا شَكٍّ ـ في أن يعفوَ عنه ويناديه إلى جواره ، مثلما كان في سابق عهده [الطويل]:[4]

أليسَ ولـيُّ العهدِ قِبْلَـتِي التي أُوَجِّهُ وجْهِي نحوَهاوأُيَمِّـمُ

عَسَى لانتقالِ الحالِ نادَتْني المُنَى فلاَ مِرْيَةٌ أَنِّي مُنادًى مُرَخَّــمُ

---

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق 92 ، ص 202 .

(2) نفسه ، ق85، ص 188 .

(3) نفسه ، ق 110 ، ص 241 .

(4) نفسه ، ق 118 ، ص 259 .

ج ـ علم الفلك .

لم يكن خافيا على الشاعر ابن الأبار الموسوعي ما يدور حوله من الظواهر الفلكية ودوران الأجرام السماوية ؛ مثل النجوم والكواكب والمذنبات والمجرّات ، خاصة وهو الأديب الحافظ لكلام الله ، والمأمور بأن يتدبر هذه الآيات الكونية ، بصفته عالما متبحرا وبكونه شاعرا ، يلفت انتباهَه كلُّ ما يدور حوله . وهو إذ يوظف هذه المصطلحات العلمية في أشعاره إنما يبين عن غزارة فكر ، وحسن اطلاع .

قال الشاعر في الفرقدين [الوافر]:(1)

أَمَا إنَّ اللّيالـي غالباتٌ ولوْ يُغْرَى بِنصْرِي الفرقَدان

و" الفرقدان " : نجمان قريبان من القطب الشمالي ؛ أحدهما أكثر نورا ، يُهتدى به والذي يجانبه أخفى منه .

كما أنشأ الشاعر في مدح أبي زكريا وآله بيانا لعلوّ مكانتهم جميعا وعظيم قدرهم بين الأمم الأخرى ، فهم ثلاثتهم يمثلون شرف الأصل ،بأخلاقهم وأعمالهم . يقول الشاعر [البسيط]:(2)

وإنَّ يَحْيَ بْنَ عبدِ الوَاحِدِ بْنِ أبـي حفْصٍ لأنور مِن شمسِ الضّحى نسَبا

ثلاثةٌ هم نُجومُ الأرضِ قد عشَرُوا وعاشَرُوا في السَّماءِ السّبعةَ الشـــــّهُـبا

و يقول أيضا [الطويل]:(3)

إمامُ هُدى تقْـفُو الأئمَّةُ نهْـجَهُ فيَـأْتَمُّ منهم صالِحون بِصـالح

و تـغْزُو إذا يَغْزُو النُّجومُ عُداتَه فـمِنْ رامِحٍ يَقْضِي عليها وذابح

فقد عمَد الشاعر إلى التورية فجعل من النجوم " رامِحاً " و " ذابِحاً " .

(1) السابق ، ق 152 ، ص 324 .

(2) نفسه ، ق 23 ، ص 74 .

(3) نفسه ، ق 51 ،ص 126 .

و: رامح كـ " نجم و " سعد الذابح " : نجمان أيضا صغيران ، أحدهما مرتفع في الشمال، معه كوكب آخر ، يقال هو شاته التي تذبح ، والآخر هابط في الجنوب[1] .

وفي كل ذلك دلالة على القوة والمنعة ، التي كان عليها الممدوح .

وقال بمناسبة إسناد ولاية العهد لمحمد المستنصر ،وكان ذلك في شهر رجب ، بعد موت أخيه زكريا ،مستبشرا بالقادم الذي سيؤول إليه الأمر كلُّه ، وسيكون للشاعر معه شأن عظيم [الطويل]:[2]

وعندَ حُلُولِ الشَّمسِ بِالحملِ انتهَى   بِإِسْعَادِكَ الإِبْدارُ لِلقَمَرِ السّعد

والحَمْل : برج في السماء ، من البروج الربيعية .

وقال في محاذاة المشتري لِلَّدبران ـ والدبران منزل من منازل القمر ـ [الكامل]:[3]

أُنْظُـرْ إلى الدَّبَـرانِ فوقَ المُشْتـــري   قدْ ضُـمَّ أعْلاهُ وفُتِّحَ أسفلُه
فكأنّه قد هَابَ من شمسِ الضُّـحى   لفْحاً فألْقَـاهُ عليهِ يُظَلِّـلُهُ

---

(1) وهناك كواكب أخرى تسمت بالسعود ؛ مثل : "سعد بلع ، سعد السعود ، سعد الأخبية ". (ينظر : ابن رشيق العمدة ، 2/ 255) .

(2) ابن الأبار ، الديوان ، ق 68 ، ص 162 .

(3) نفسه ، ق 195 ، ص 414 .

د- علوم القرآن والحديث :

أما ثقافة الشاعر الدينية فقد بدأت معه من يوم حفظِه للقرآن الكريم ،صغيرا وملازمته أباه يتلقى منه كلام الله ، ويراجعه بين يديه ، ويتعرف على علومه منه وعلى يدي أستاذه الربيع الكلاعي ، الذي لازمه قرابة عشرين سنة بعد وفاة والده ، وشيوخ آخرين كُثرٍ ؛ ومن ذلك توظيفه لمصطلحين من مصطلحات القرآن في قوله [الطويل] :(1)

كَتَمْتُ الهَوَى عنها فَـمِنْ مَتَشَابِهٍ ... تَفَهَّمَتْهُ عندَ الوداعِ ومُحْكَمِ

وفي موضوع" المحكم " " والمتشابه " نقرأ الآيات الكريمات من قوله تعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾ . [آل عمران : 7] .

وقوله أيضاً: ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ ﴾ . [هود : 1] .

و(المحكم) و(المتشابه) لفظان متقابلان ، إذا ذُكِرَ أحدهما استدعى الآخر ضرورة .

وهما بحثان رئيسان من أبحاث علوم القرآن، أفاض العلماء القول فيهما، وتفاوتت آراؤهم في تعريفهما وحقيقتهما، وهما كذلك بحثان مهمان من أبحاث أصول الفقه .

أما تعريف (المتشابه) اصطلاحًا، فعرفه بعضهم بأنه: ما استأثر الله بعلمه، وعرفه آخرون بأنه: ما احتمل أكثر من وجه، وقال قوم:ما احتاج إلى بيان، بردِّه إلى غيره .
وبناءً على التعريف اللغوي لكلٍ من (المحكم) و(المتشابه) يتضح أنه لاتنافٍ بين (المحكم) و(المتشابه) من جهة المعنى اللغوي؛ فالقرآن كله محكم، بمعنى أنه متقن غاية الإتقان وهو

---

(1) السابق ، ق 130 ، ص289 .

كذلك متماثل ومتشابه، بمعنى أنه يصدِّق بعضه بعضًا .

وفي علوم الحديث يقول الشاعر [الكامل]:(1)

وحديثُ سُلْوانِي مَتَى أُسْمِعْـتُهُ فاحْكُمْ عليهِ بِـأَنَّهُ " موضوعُ "

والحديث الموضوع : في اصطلاح المُحدِّثين : هو ما نُسب إلى الرسول ﷺ اختلاقاً وكذِباً مما لم يقُـلْـه أو يُقـرَّه .

وهو الحديث المختلق المصنوع .

فهو إذاً : الحديث المكذوب على النبي ﷺ والتمسية مأخوذة من الوضع بمعنى الاختلاق يقال:

وضع الرجل الحديث: افتراه وكذبه واختلقه .

وقال الشاعر في إشارة إلى كتب الحديث [الرجز] :(2)

ورِفْـدُهُ لِقَاطِنٍ و وافِـدٍ شِنْشِـنَةٌ في ولَدٍ مِن والدٍ

تَأْثُرُهَا البحارُ في المَشَاهد تَحَدُّثَ الرّواةِ بالمسـانِدِ

والسند :هو طريق المتن أي سلسلة الرواة الذين نقلوا المتن من مصدره الأول.

وقد وظّف الشاعر مصطلح " الرواية " للحديث الشريف في أكثر من مناسبة ومنها [الطويل]:(3)

رَوَى أَنَس ما فيه أُنْسٌ مُجدّد بِمُستوحِشٍ فادحِ الوزرِ والذنْب

ويرجح محقق الديوان أن هذا إشارة إلى الحديث القدسي ، الذي رواه أَنَس عن الرسول ﷺ عن ربّه، قال: ((**يابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرتُ لك.. يابن آدم لو أنك أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتُك بقرابها مغفرة**)) .

---

(1) السابق ، ق 16 ، ص 358 .

(2) نفسه ، ق 58 ، ص 135 .

(3) نفسه ، ق 33 ، ص 91 .

قال ابن الأبار[الطويل] : [1]

خلافتُه ألوتْ بِكلِّ خلافـــةٍ   كذلكَ بُطلانُ القياسِ مع النَّـصِّ

تبين لنا من خلال هذا الفصل أن الشاعر ابن الأبار كان حافظا للقرآن الكريم ولعدد غيرِ قليل من الحديث النبوي الشريف ، وواسع الاطلاع ـ كما أسلفنا في غير مرة ـ على شعر الأقدمين بدءا بالشعراء الجاهليين فالإسلاميين ، فالأمويين فالعباسيين ، إلى غاية شعراء عصره .

كما يظهر جليا درجات الأخذ من هؤلاء الشعراء ، وبنسب متفاوتة ، يأتي في مقدمة مَنْ تأثر بإبداعهم الشاعر العباسي أبو تمام ، ثم يليه المتنبي .

ولعل التعالق النصي الوفير الذي كان مع شعر هذين الشاعرين يعود ـ فيما نزعم ـ إلى التقارب في الشخصية ؛ من الإحساس بالعظمة ، والتفوق على الأقران ، هذا من جانب ومن جانب آخر ، وهو الأهم ـ في رأينا ـ التقرب من السلطة ، وتذوق طعم الفرش الناعمة والرفاهية في العيش . يضاف إلى ذلك " المعارضات الشعرية " ، التي أراد من خلالها الشاعر الإبانة عن القدرة والكفاءة في النظم على طريقة مَنْ سبقوه ؛ كالمعري وغيره ، ولبيان التفوق في هذا المجال على الآخرين ، فضلا عن الإشارات التاريخية ، الدالة على الاهتمام والوعي بالأحداث التاريخية والوقائع المختلفة ، محاولة منه الربط بينها لضرب المثل ، واستيعاب الدروس ، آخذة (الإشارات)شكل استدعاء الشخصيات التاريخية والأدبية المشهورة عن طريق الإشارات المتضمنة .

أما توظيف الشاعر لبعض مصطلحات العلوم المختلفة من فقه ونحو وبلاغة ...إنما يتغيا من وراء ذلك التدليلَ على تمكّنه من هذه العلوم ؛لأنه يمتلك ثقافة موسوعاتية .

إن ابن الأبار يهدف من خلال توظيفه للنصوص واستدعائه للشخصيات إضافةَ دلالة جديدة إلى المعنى العام ، باستثناء الاقتباس القرآني الذي يحمل قداسته الإلهية الخاصة ، إذ ((**في العادة يكون المختار لتضمينه أو الاقتباس منه آية من آي البلاغة لِما فيه من اختيار لفظ أو قوة معنى وقد**

(1) السابق ، ق 159 ، ص 336 .

بلغ من النفوس مبلغا من الإعجاب صلح مع أن يجري على ألسنتهم ويصبح مثلا سائرا جديرا بالإعادة والتكرار ، في هذا دليل واضح على مهارة الأديب وسعة ثقافته ووفرة اطلاعه)).[1]

ومن خلال ما تقدم وجدنا أن " التعالق النصي " يكشف عن التفاعل (في علاقتي التأثير والتأثر) الحاصل بين نص لاحق (متعلِّق) وآخر سابق (مُتعلَّق به) ، وهي ظاهرة عامة ومعروفة في اللغات والثقافات المختلفة ، فلا حدود للنصّ ، ولا حدود بين نصّ وآخر. وإنما يأخذ النصّ من نصوص أخرى ويعطيها في الآن ذاته .

---

(1) بدوي طبانة، السرقات الأدبية ـ دراسة في ابتكار الأعمال الأدبية وتقليدها ، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ، ط 4 ، 1975 ، ص 168 .

الفصل الثالث

الصورة

1 ـ الصورة المباشرة.

2 ـ الصورة البيانية

3 ـ الصورة الرمزية

4 ـ الصورة النفسية

5 ـ الصورة الحركية

إن المتتبع للدراسات النقدية الحديثة يقف على حقيقة لا يختلف فيها اثنان ، تتعلّق بإشكالية المصطلح النقدي وهي ظاهرة يفسرها تعدد المذاهب الشعرية والاتجاهات النقدية المرتبط باختلاف المبادئ الفكرية الموجِّهة لتلك المذاهب والاتجاهات؛ ومن ذلك ، تلك الآراء التي كانت "الصورة الشعرية" محطّ اهتمامها، حتى غدتْ هذه الصورة محورًا خطير الأهمية في الدراسات الأدبية الحديثة، ولا غَرْوَ في ذلك ؛ لأن تباين التعريفات أمر عادي في حقول الدراسات الإنسانية.

ولقد سجّل مصطلح " **الصورة** " حضوره في مجالات متعددة ، واتخذ في كل منها مفهوما خاصا . كان قد حصرها " نعيم اليافي " في خمس دلالات : الدلالة اللغوية، الذهنية النفسية الرمزية ، والبلاغية (الفنية) .[1]

ولم تكن الصورة الشعرية أو (**الصورة الأدبية**)، أو(**الصورة الفنية**) أو (**التصوير الفني**) ـ كما يحلو للبعض أن يسميها ـ مصطلحا فنيا غريبا عن النقد الأدبي العربي القديم ؛ لأن عبارة الجاحظ (ت :255 .هـ) الشهيرة تعد أول استخدام معروف لمصطلح التصوير في صدد الحديث عن الشعر((**فإنما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير**))[2] وعنه أخذها "قدامة بن جعفر" (ت 326 هـ) في معرض حديثه عن معاني الشعر في قوله :

((إذْ كانت المعاني للشعر بمنزلة المادة الموضوعة، والشعر فيها كالصورة، كما يوجد في كل صناعة من أنه لابد فيها من شيء موضوع يقبل تأثير الصور منها مثل الخشب للنجارة والفضة للصياغة)).[3]

---

(1) نعيم اليافي ، مقدمة لدراسة الصورة الفنية ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق، دط 1982 ، ص 41 .

(2) – الجاحظ ، أبو عثمان بن عمروبن بحر ، الحيوان، تح وشرح عبد السلام محمد هارون، القاهرة ، 1948 3 / 131، 132.

(3) قدامة بن جعفر ، أبو الفرج ، نقد الشعر ، ص 19 .

ولعل الذي تعرض لمفهوم التصوير والصورة من النقاد العرب أكثر هو عبد **"عبد القاهر الجرجاني"(ت:471 .هـ)**والذي لم ينكر استفادته من الجاحظ بقوله:((**وليس العبارة عن ذلك بالصورة شيئا نحن ابتدأناه فينكره منكر،بل هو مستعمَل مشهور في كلام العلماء ويكفيك قول الجاحظ: وإنما الشعر صناعة وضرب من التصوير**)).[1]

وكان الجانب الأهم من المذهب النقدي الذي وضعه "عبد القاهر" هو ربطه "الصورة الشعرية" بالمجاز وبالنظم ، وتحليله الدقيق للمعاني الحقيقية والمجازية والمعاني العقلية والتمثيلية وتحديده بالأخص صورة "الاستعارة والتشبيه والتمثيل" .

كما يظهر في القرن السابع الناقد "حازم القرطاجني" ليعبّر عن الصورة في تضاعيف حديثه عن "المحاكاة التشبيهية" ، وفي سياق الكلام عن" أنحاء وجود المعاني " ، إذ يعتبر الصورة دالة على هيئة الشيئ في الذهن ، ويتولى التعبيرُ عنها دورَ إعادة رسمها خياليا في الأذهان، فهو يقول : ((**إن المعاني هي الحاصلة في الأذهان عن الأشياء الموجودة في الأعيان ، فكل شيئ له وجود خارج الذهن ، فإنه إذا أُدرك حصلتْ له صورة في الذهن تُطابق لِما أدرك منه ، فإذا عبّر عن تلك الصورة الذهنية الحاصلة عن الإدراك ، أقام اللفظ المعبر به هيئة تلك الصورة الذهنية في أفهام السامعين وأذهانهم...**)) .[2]

ويأتي الناقد ذاته ليؤكد ذلك في موضع " ما يحسن به موقع المحاكاة من النفس " بالقول: ((**ومحصول الأقاويل الشعرية تصوير الأشياء الحاصلة في الوجود وتمثيلها في الأذهان على ما هي عليه خارج الأذهان من حُسن أو قبح حقيقة ، أو على غير ماهي عليه تمْويهًا وإيهامًا.**)) .[3]

أما الصورة عن **العرب المحدثين** : فقد كان الاهتمام بها كبيرا ، ولا أدل على ذلك من تلك الدراسات المستفيضة ، التي تعرضت إلى هذا الموضوع ، وبتعدد هذه الدراسات والمدارس

---

(1) – عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، شرح وتعليق محمد التنجي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط3 1999 ، ص 369.

(2) حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء ، ص 18 ـ 19 .

(3) نفسه ، ص 120 .

والاتجاهات تعددت المفاهيم ؛ فاتفق الدارسون في زوايا ، واختلفوا في أخرى [1] لأنها تشكلت من منابع مختلفة ؛ كالفلسفة ،وعلم الجمال وعلم النفس وعلوم الأدب .

فهي (الصورة) عند عبد القادر القط : ((**الشكل الفني الذي تتخذه الألفاظ والعبارات ينْظِمُها الشاعر في سياق بياني خاص ليعبّر عن جانب من جوانب التجربة الشعرية الكامنة في القصيدة مستخدما طاقات اللغة وإمكاناتها في الدلالة والتراكيب والإيقاع والحقيقة والمجاز والترادف والتضاد والمقابلة والتجانس وغيرها من وسائل التعبير الفني ... والألفاظ والعبارات هي مادة الشاعر الأولى التي يَصُوغ منها ذلك الشكل الفني أو يرسم بها صوره الشعرية**)) [2] ، لتكون بذلك الصورة شكلا فنيا تتآزر فيه عناصرُ مختلفة ومتآلفة لتعبر عن التجربة الشعرية ، وكان رأس هذه العناصر الألفاظ والعبارات .

ولدى" علي البطل " : ((**فالصورة تشكيل لغوي ، يكوّنها خيال الفنان من معطيات متعددة يقف العالم المحسوس في مقدمتها. فأغلب الصور مستمدة من الحواس ، إلى جانب ما لايمكن إغفاله من الصور النفسية والعقلية وإن كانت لا تأتي بكثرة الصور الحسية ، أو يقدمها الشاعر**

---

(1) ينظر : (**مصطفى ناصف، الصورة الأدبية** ، دار الأندلس ، ط2 ، 1989 . و **جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي** ،دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، مصر ، دط ، دت. **وريتا عوض بنيةالقصيدةالجاهلية** ، **الصورة الشعرية لدى امرئ القيس** ، دار الآداب ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1992 **وعلي البطل الصورة في الشعر العربي حتى أواخر القرن الثاني الهجري**، دار الأندلس ، بيروت، الطبعة الثانية 1981 . **نعيم حسن اليافي مقدمة لدراسة الصورة الفنية**، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق 1982. **نعيم حسن اليافي، تطور الصورة الفنية في الشعر العربي الحديث**، منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق، 1983. **عبد الله الصائغ الصورة الفنية معياراً نقدياً مع منحى تطبيقي على شعر الأعشى الكبير**، دار القائدي، ليبيا، 1980 . **عبد القادر الرباعي الصورة الفنية في النقد الشعري دراسة في النظرية والتطبيق**، دار العلوم للطباعة والنشر الرياض ط1 1984 .) وغيرها من المراجع التي تناولت موضوع الصورة الشعرية .

(2) عبد القادر القط ، الاتجاه الوجداني في الشعرالعربي المعاصر، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ط2 1981 ، ص 391.

أحيانا في صور حسية)) .[1]

فالصورة الحسية هي عالم المبدع ، الذي يستمدها منه ، بالإضافة إلى الصور النفسية والعقلية التي تسهم هي الأخرى في هذه التشكيلة الإبداعية .

وعن الدلالة النفسية لهذه الصورة ، يقول نعيم اليافي : ((**تعني الصورة الشعرية بالدلالة النفسية الانطباعاتِ الحسّيةَ المسترجعة ، التي يبني بها الفنان عمله ويتلقاها المتلقي، ويتأثر بهاحين تنبهها كلمات القصيدة ، وكل فنان يختلف عن غيره في طبيعة صوره ، فبينما يرى واحد أنماطا معينة فإن الآخر يسمع أنماطا غيرها أو يلمسها ، في حين يشم الثالث أو الرابع أنماطا مباينة ، والوقوف على هذا الاختلاف أو دراسته هو وقوف عند طبيعة ذهن الشاعر ،ودراسة لجوهر تركيبه النفسي وبيان لرؤيته المبدعة وخصوصيتها))**[2] ، مُركّزًا على طبيعة صوركل فنان تجاه الانطباعات التي تختلف فيما بينهم اختلافا بينا ؛لأنها تمثل خصوصية كل واحد مهنم ، ومدى رؤيته إلى العالم المحيط به ، وأثر ذلك على نفسه .

وفي طبيعة تكوين الصورة الشعرية يقول علي البطل : ((**وتشكيل الصورة ـ وبخاصة الحسية منها ـ ليس تسجيلا فوتوغرافيا للطبيعة أو محاكاةً لها))** .[3] بل يكون للفنان دوره في نقل هذه الصورة كما يراها ويحسها هو: ((**لا ينقلها كما هي ، بل يخضعها لتشكيله ، فتأتي صوره لفكرته هو وليست صورة لذاتها، ولذلك ، ولأن الصورة ليست تسجيلا فوتوغرافيا للأشياء ، فإننا نجد في الصورة ربطا بين عوالم الحس المختلفة)) .**[4]

---

(1) علي البطل ، الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري ، دراسة في أصولها وتطورها ، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، ط1 ، 1980 ، ص 30 .

(2) نعيم حسن اليافي ، مقدمة لدراسة الصورة الفنية ، ص 69 .

(3) علي البطل ، الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري ، دراسة في أصولها وتطورها،ص31.

(4) نفسه ، ص31 ـ 32 .

ويسير عز الدين اسماعيل في الطرح ذاته ، فيقول : **((صحيح أن الشاعر يتغلغل من خلال أحاسيسه في الطبيعة فيقع على المشهد أو الحركة الخفية))** .[1]

وعن عمل الحواس ، التي تنتمي بدورها إلى الصورة الذهنية ، يقول محمد مندور: **((فليس صحيحا أن كل حاسّة من حواسنا قد ذهبت بطائفة من المدركات ، ولا أدل على ذلك من أننا نستطيع أن ندرك الفجر وأن نحس نداه بطرق شتى من حواسنا))** .[2]

ومهما يكن من مفاهيم متباينة، بشأن "الصورة"، فإنها لا تخرج عن مفهومين: **مفهوم قديم** لا يتعدى حدود التشبيه، المجاز والكناية.
ومفهوم جديد ، يضيف إلى الأول: الصورة الذهنية (بصرية ، سمعية ،شمية، ذوقية ، لمسية) بالإضافة إلى الحركية والعضوية ، والنفسية ، والصورة الرمزية .

وسنتناول في دراستنا هذه بعض الصور الشعرية ، التي تمكنا من الوقوف عليها ؛ من مثل (الصورة المباشرة ، البيانية ، الرمزية النفسية ، والحركية) ، من خلال أشعار ابن الأبار القضاعي:

(1) عز الدين إسماعيل ، التفسير النفسي للأدب ، دار العودة ، بيروت ، دط ، 1963 ، ص 105 .
(2) محمد مندور ، في الميزان الجديد ، مكتبة نهضة مصر وطبعتها ، ط 3 ، دت ، ص124 .

ـ الصورة المباشرة :

لم تعد الصورة ـ كما كانت بمفهومها القديم ـ مقصورة عل التشبيه والاستعارة فحسبُ وإنما صارت ـ حسب المفهوم الحديث أوسعَ . ويدخل في ذلك التلوين بعبارات حقيقية خالية من الخيال ، ويستدل النقاد بذلك من خلال قصائد عديدة ومتنوعة ، خالية من الخيال ولكنها غنية تصويرا ، وثرية تلوينا ؛ ومن تلك الأمثلة قصيدة "الخنساء" المشهورة في رثاء أخيها صخرٍ [الوافر] :(1)

يُذَكِّرُنِي طُلوعُ الشّمسِ صخْرا وأذْكُرُه لكلِّ مَغـيبِ شمسِ
ولولا كَثْرةُ الباكِينَ حَولِـــي على إخوانِهِم ، لقتلْتُ نفسِي
وما يبكون مثلَ أخي ،ولـكن أُعَـزِّي النَّفسَ عنه ..بالتأسِّي

يقول " علي البطل" في شأن هذه الأبيات : ((**فهي لا تلجأ إلى الوسائل المجازية المألوفة في التصوير ، ومع ذلك تبدع صورة ،تَموج بالحركة الدائبة ، يتواصل فيها السريان من العالم الخارجي إلى داخل النفس المحزونة، في طبقات من الصور الجزئية يتراكم بعضها فوق بعضٍ لتكون صورة كلية مؤثرة...**)) .(2)

والأمثلة عن الصور المباشرة كثيرة وعديدة ، تعرض إليها النقاد ،وأبانوا عن جماليات هذه المباشَرة ، دون اللجوء إلى الصور المجازية والخيال .

وعلى هذا اللون أنشأ الشاعر ابن الأبار يبكي وطنه عند التجائه إلى بلاد النصارى برفقة سيده أبي زيد ، الذي قيل عنه إنه ارتدَّ [الكامل] :(3)

لامَ الُمحـــبُّونَ الفـراقَ ولُمْتُـــــهُ لكنَّـهُم سئِـــمُوا ولَمّـا أسْـــــأَمِ

---

(1) الخنساء ، ديوان الخنساء ، اعتنى به وشرحه :حمدو طمّاس ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 2004 ص 72 .

(2) علي البطل ، الصورة في الشعر العربي حتى آحخر القرن الثاني الهجري ، دراسة في أصولها وتطورها ص26 .

(3) ابن الأبار ، الديوان ، ق 135 ، ص 292 .

ظعَنُوا وهُم قد ودَّعُوا أو سلَّـــمُوا وظعَـنْتُ غـيرَ مُـــودِّعٍ ومُسَلِّمِ
فعَلَيَّ فلْتَـــبْكِ البَواكِي إنَّـــنِـي أُخْرِجْتُ منْ وطنِي ولسْتُ بِمُجرِمِ
وأُضِعْتُ يومَ وُضِعْتُ في أرضٍ بها يَغْدُو الفصيحُ مُـعَظِّـــمًا لِلأعْـجَمِ
لا أسْتـريحُ بِغيْــرِ ليــلٍ ألْـــيَل أشْكُــو تطـــاولَهُ ويومٍ أيْـــوَم

وقال الشاعر وهو في بلاد الروم، مع سيده أبي زيد سنة 626 هـ [البسيط]:[1]

الحمدُ للهِّ لا أهلٌ ولا ولـدُ ولا قرارٌ ولا صبرٌ ولا جَلَدُ
كان الزمانُ لنا سِلْمًا إلى أمَدٍ فعادَ حرْبًا لَمَّا انْقَضَى الأمَدُ

ولَمَّا خرج الشاعر مع سيده أبي زيد، وهوالذي كان كاتبَه أثناء حكمه " لبلنسية " جرَّ عليه هذا الصنيع لوما وعتابا شديدَيْن، فأَخبَر بذلك، مبررًا التجاه مع الأمير إلى صاحب أراغون سنة 626. هـ بتعبير مباشر لا خيال فيه [البسيط]:[2]

قالوا: الخروجُ لأرضِ الرُّومِ مَنْقَصَةٌ فقُلتُ: كلاَّ ولكنْ صادُها باءُ
إذاَ خرجْتُ وفاءً ثـمَّ عُـدْتُ تُـقًى أثْنَتْ بِفِعْلِي عُدَاتِي والأحِبَّاءُ
وكانَ لــي في قُريشٍ أسْوةٌ وكَـفَى معَ النَّجاشِيِّ تَرْضَاهَا الألِبَّاءُ

ولو أن قياسَ الشاعر في هذا المعنى فاسدٌ؛لأنه خرج إلى بلاد الكفر والكفرة الأعداء، أما الذين أمرهم الرسول ﷺ بالخروج إليه،هو النجاشي؛ مَلِكُ الحبشة الذي لا يُظلَم عنده أحد، وهو الذي أسلم بعد ذلك. إلاَّ أن التشكيل اللغوي البسيط كان متكئا على العرض العقلي، الذي يهدف إلى الإقناع بالحجة والبرهان.

وقال ابن الأبار يمدح أبا زكريا عند احتلاله لتلمسان وفرار يغمراسن، وكان ذلك سنة 640 هـ [البسيط]:[3]

غزْوٌ على النَّصْرِ والتَّمكينُ مَنْشؤه الفتحُ غايتُهُ والنُّجحُ مَبْـــدَؤُهُ

(1) السابق، ق 80، ص 178.
(2) نفسه، ق 9، ص 55.
(3) نفسه، ق 2، ص 41.

....

الأمرُ أمرُكَ تُعطِيهِ وتـمَـنَـــــعُهُ والحُكمُ حُكمُكَ تُمْضِيهِ وتُرْجِئُهُ

فالبيتان يحملان معنى كبيرا في صورة مباشرة ، خالية من الصور البيانية والخيال المجنح فأما الأول فكان إشادة بسلطة الممدوح وتمكنه من الأمور كلها ، فهو الموفق في فتوحاته وانتصاراته لأن بيديه زمامَ الأمور ، يمنح ويمنع ، ويسرع في الشأن ويرجئه كيف يشاء . وفي ذلك اعتراف بقدرته ومُحكم سياسته .

وفي مقدمة غزلية ممزوجة بالفروسية ، لغرض مدحي ، ينقل صورة جميلة بتصوير مباشر لا شية فيه ولا إغراق في خيال ، يجمع فيه هيامه بين الظِّباء والظُّبى ؛ ليوجد العلاقة بينهما كون أن المقاتل العاشق ، من أجل الظفر بهن ، عليه أن يحمل السيف مطاعنا ومضاربا ولا يتأخر في ذلك لأن ذلك سبيل الوصول إليهن ؛ ولأن الموت عنده بين أحضانهن أوبين أسياف المقاتلين سواءٌ يقول [الكامل]:[1]

مَنْ راحَ بِالبِيضِ النَّواعمِ هائماً لمْ يَغْدُ لِلسُّــمْرِ الذَّوابلِ عائبا
والصَّبُّ مَنْ خاضَ الأسنَّةَ والظُّبَى نحوَ الظِّبَاءِ مُطَاعنا ومُضَارِبا

كما يقول الشاعر من خلاصة تجاربه في الحياة [الكامل]:[2]

الجُودُ ينفعُ في الوُجودِ ولنْ ترَى مَنْ يكفُرُ النَّعْمَى سِوَى الإنسانِ
فإذاَ رأيْتَ مِن الأكارمِ مُحْـسِنًا فاحْـرُزْ عليــــهِ آفـةَ الإحسانِ

و لا يرتضي بعد تجربته في الحياة أن يكون البخيل له خِلاًّ ، وإن بلغَ ببخله الذروة ؛لأن قناعتَه أكثر من ثروته [السريع]:[3]

لا أرتَضِي الباخلَ خِلاًّ وإنْ أحلَّهُ الإيسارُ في ذروتِه

(1) السابق ، ق 20 ، ص 67 ـ 68 .
(2) نفسه ، ق 155 ، ص326 .
(3) نفسه ، ق 40 ، ص 102 .

دعْـهُ يُكاثِرْ بالثَّراءِ الثَّرى   قنَاعَتِي أكثرُ مِن ثروتِهِ

كما استطاع ابن الأبار أن يجمع للممدوح ثمانية معان لمسميات عظيمة ،في بيت واحد وبتركيب بسيط مباشر ،فقال [الطويل]:(1)

لهُ الدِّينُ والدُّنْيا، لهُ المجْدُ والعُلَى   لهُ الصُّبحُ والبُقْيَا ، لهُ البِرُّ والتَّقْوى

ويقول الشاعر مادحا الحفصيين ، ومعزيا أحد أمرائهم بابنتهم[البسيط]:(2)

دعْ ما يَرِيبُ إلى ما ليسَ بِالرِّيب   فذا يُبَوِّئُكَ العَلْيا مِنَ الرُّتب

واعْمدْ إلى سبُلِ الخيراتِ مُنتَهِجًا   لَهَا لِتسْعَدَ في حالٍ ومُنْقَلَبِ

ومن جميل ما قاله الشاعر بعد أن أيقن أن قدر الله صائر إلى مَا قُدر له . ولعل ذلك كان نتيجة لمعاناة شديدة شرب كأسها مع الحكام في مرحلتي حياته ، بتعبير مباشر ، زانه الطباق وسهولة الألفاظ [الوافر]:(3)

عَلَتْ سِنِّي وقدْرِي في انخفاض   وحُكمُ الرَّبِّ في المربوبِ ماض

إلـى كمْ أُسْخِطُ الأقدارَ حتّى   كأنــــيّ لـمْ أكُنْ يوماً بِراض

وقال في مدح السلطان أبي زكريا ، وقد خرج في صبيحة عيد الأضحى قاصدا المصلى واصفا هيئته ، مهنئا إياه [مخلع البسيط] (4):

مَوْلايَ هُنِّئْتَ عيدَ أضحى   أضحَى بِميلادِهِ يُهــنَّا

....

وسِرْتَ تمشِي إلى المُصَلَّى   هَوْنًا يُغَشِّي العَـدَاةَ وهْنا

وأنشأ يستشفع بالأمير محمد [مخلع البسيط]:(5)

---

(1) السابق ، ق 201 ، ص 421 .

(2) نفسه ، ق 21 ، ص 72 .

(3) نفسه ، ق 18 ، ص 448 .

(4) نفسه ، ق 143 ، ص 304 .

(5) نفسه ، ق 73 ، ص 173 .

مولايَ دانتْ لكَ السعودُ أَخْطأْتُ أخطأت لا أعودُ
مالــي بَراحٌ ولا انتزاحٌ مَوتِي في أرضِكُم خُـلودُ
كُنْ لــي شفيعًا إلى إمام ليسَ على فضْلِه مَـزيدُ
عادتُهُ العفْوُ والموالــي تَعْفُـو إذا أخْطأَ العبـيدُ

وقال مُقرًّا بأخطائه التي ارتكبها من فرط تمسكه بالحكام و خدمته الملوك ، وكأنه يستدرك مع وزن"المتدارك" ما فاته من الأيام [المتدارك]:(1)

حُرِمْتُ الرَّشَادَ لأنّي سَفَاها خدمْتُ الْمُلوكَ وهم أعبدُ
وفي رغَبَاتِي لَهُم جئتُ إدًّا فهـــلاَّ رغِبْتُ لِمَنْ أعْـبُدُ

(1) السابق ، ق 82 ، ص 178 .

ـ الصورة البيانية:

يعتمد الشاعر في هذه الصورة على التصوير غير المباشر ، قوامه التشبيه والاستعارة والتمثيل والكناية والمجاز ، وكان هذا الميدان من اهتمام النقد والشعر القديمين .

وبالرجوع إلى مُدوّنة الشاعر ابن الأبار نجد أن لهذه الصورة الحظَّ الأوفر بين باقي الصور الأخرى . توزعت بدورها على أغراض شتى ؛ من مدح ووصف ، إلى غزل ورثاء ،إلى استنجاد واستعطاف وذكريات .

فقد أنشأ الشاعر بمناسبة صدور العفو عنه ، يمدح صاحب العفو والسماحة أبا زكريا [الطويل]:(1)

تحلَّتْ بِعَلْيَاكَ اللّيالـي العَواطـلُ ... ودانتْ لِسُقْياكَ السّحابُ الهواطلُ

وما زيـنَةُ الأزمانِ إلا مَنَاقب ... يُفَرِّعُهَا أصْلان : بَـأْسٌ ونــائلُ

إذا الصَّوْلُ والطَّوْلُ استَقَرَّا بِراحةٍ ... ترَقَّتْ لها نحوَ النُّجومِ أنامـــلُ

إذْ جعَل الشاعرُ الليالي كالنساء (العواطل) ؛ أي غير المتزينات ، وبفضل الممدوح ازينت وتجملت . أما السحب فقد تعلمت الكرم والعطاء مما يمنحه أبو زكريا ويعطيه بسخاء .

وهذه من أعمال وصنيع السلطان ؛ من شجاعة وكرم ، التي يتزين بها الزمان ، وما للزمان إلا مثل هذه المناقب التي تنسب إليه . فالصورة الاستعارية ،التي نقلها ابن الأبار استطاعت أن تجعل من الممدوح في أعلى الرتب كرما وشجاعة .

فجمال الاستعارة ـ هنا ـ تكمن في أن المسافة بين المشبه والمشبه به متباعدة ، وقد لعب الخيال فيها الدور الريادي ، الذي جعل من هذه الاستعارة صورة مدهشة ،حينما أسبغ على الليالي صفة آدمية ، فتتزين كما تتزين النساء في المناسبات ـ عادة ـ وهذه المسألة هي العامل التأثيري فيها .

وقال ابن الأبار بعد مقدمة غزلية مادحا [الرمل]:(2)

---

(1) السابق ، ق 108 ، ص 235 .

(2) نفسه ، ق 43 ، ص 107 .

يا شُمُوسَ اليومِ كمْ نرْعَى بكُم　　　أنْجُمَ اللَّيْلِ إذا اللَّيلُ سَجَا

وفيه استعارة تصريحية " يا شموس اليوم" مشبها أمراء الحفصيين بالشموس التي تبدد الظلام ظلامَ الصليبيين .

وفي تصويرآخر لموقف بسيط جعل منه الشاعر بفضل ما ساقه من التشابيه لوحةً بديعة الصنع تأخذنا إلى مظهر طبيعي ، فيه الماء والخضرة والراحة التامة ، وتُبين عن شموخ وأنفة وعزة كبيرة للقادم على جبل الفخر الثابت ، لترى مظهرا آخر يرسمه اليُمن والسّعد والإقبال في إسراعه إليه مهنئا ومرحّبا ، فقال بمناسبة زيارة الابن وليّ العهد إلى أبيه بتونس ، قادما إليه من بجاية الناصرية [الطويل]:(1)

ألاَ هُـو شِبْلُ البأْسِ زارَ هِــزَبــرَهُ　　　فـــقرَّ قــرارُ النّاسِ منه على الــزَّأْرِ
وسيلُ النَّدَى أفْضَى إلى البحرِ فيضُهُ　　　وما برِحتْ تُفْضِي السّيولُ إلى البحرِ
....　　　..............................
وحطَّ يفاعاً شامخَ الأنــفِ رحْلــَهُ　　　على الجبَلِ الرَّاسِي من الفخْرِ لا الصَّخْرِ
....　　　..............................
ترى السّعدَ والإقبالَ واليُــمْنَ حولَهُ　　　تراكبُــهُ سبــحاً إلى جيـــشِه المُجري

وفي قصيدة يمدح فيها أبا زكريا ،وكان ذلك حوالي سنة 645 هـ[الكامل]:(2)

مُتَبسِّمًا ورماحُهُ تبكِي دَمًا　　　في اليومِ تُحْجَبُ شمسُهُ بِكُعُوبِه
حيثَ المهنَّدُ مُسْمِعٌ بِصليلِه　　　والموتُ(سَاقٍ)لِلْكُما(ةِ) بِكُوبِه

وإن كانت هذه الاسعارات مألوفةً في الشعر العربي ، إلا أن ابن الأبار قد كثَّف منها لافتا للانتباه ، حينما جعل كلا من الرماح تبكي دما ، والسيف المهند يطرق الأسماع بصليله والموتَ ساقيا للكماة ؛ فقد أنسَنَ الشاعر هذه الأدوات الحربية وجعل منها قوة ضاربة للعدو تكون

---

(1) السابق، ق 86 ، ص 190 .

(2) نفسه ، ق 24 ، ص 79 .

نتائجها دماءً سيّالة وجماجم مترامية هنا وهناك .

فإثارة الدهشة في هذا التصوير هو الغاية المنشودة من قبل المبدع ؛ لأنه يربط بين أشياء متباعدة لا يمكن ـ في الواقع ـ الربط بينها ؛ لذلك يكون الانفعال أكبر ،والتأثير على المتلقي أعظم .

كما سجلت صورة الأفلاك والنجوم حضورها في شعر ابن الأبار ، الذي يقول[الطويل]:(1)

وتغزُو إذا يغْزُو النجومُ عُداتَه فمِنْ رامحٍ يَقضِي عليها وذابح

فالاستعارة تتضح من خلال جملة " تغزو النجوم " ؛ومنها " رامح" و "ذابح" ليحمّل عمل الممدوح ضد أعدائه دلالة القوة والكرّ ؛ لأن عداة أبي زكريا هم أنفسهم عداة الإسلام والمسلمين

وقد كان الشاعر يستفيد دوما من الكواكب (الشمس ، القمر، الشهب ، النجوم ...) فإن كان ذلك دالا على ثقافة ابن الأبار ودرايته بعلم الفلك ـ كما بينا سالفا ـ فإنه في الوقت ذاته يحمل دلالة القوة والمنعة ، وكذا الدفاع عن الدين الإسلامي الحنيف .

فحين الربط بين الكلمات كما هي ، نجد التنافر على أتمه بينها ، لكن سرعان ما تُستعاد هذه الملاءمة والمناسبَة عندما تتدخل الاستعارة بمعناها الثاني الجديد ، وهو المقصود لتنفيَ الانحراف والمنافرة المترتبين على المعنى (الحرفي) الأول ؛ لتسجل الاستعارة بهذا العمل خرقا لقانون اللغة .

وبصورة بيانية ، قوامها المشابهة الجميلة ، يعبّر من خلالها عن بكائه كالحَمام ،كُلّما ذُكر الشرقُ ومثل الغَمام كلما لَمَع البرقُ ، إلا أنه ـ كما ألِفَ ـ محسودٌ حتى على دموعه التي يسفكها لأنهما (الحَيَا و البرْق) لا يَعلمان بمدى حرقته وعظيم مصيبته ؛لأنه غريب الداريْن ، حتى وإن كان بين أهله وخلانه . وقد لعبت الصورة الاستعارية التجسيمية دورها في جعل المطر المتساقط يتصف بصفة " الغبْط " ـ وهو تمني النعمة التي أصابت أحدهم دون قصد زوالها عن صاحبها ـ وكلاهما يذرف الماء لأجل الإحياء ؛ ذلك أن المطر ينزل فيحيي موات الأرض بمشيئة الله ـ تعالى ـ والشاعر يبكي لأجل أن يسترجع ويُعيد ويُحيي الأيام الخوالي ،التي كانت تجمعه بالأهل في ربوع

---

(1) السابق ، ق 51 ، ص 126 .

الوطن ؛فالماء المسكوب من المصدرين دلالته النماء ، وبعث الحياة لذلك يقول [الطويل]:[1]

أَنُوحُ حَماماً كُلَّما ذُكِرَ الشَّرقُ وأبكِي غَمامًا كُلّما لمعَ البرقُ
(و) يَغْبِطُنِي في سكْبِ أدْمُعِي الحَيَا وتَحْسِدُنِي (في) نَدْبِ أربُعِي الوُرق

ومن الطبيعة استفاد الشاعر أيما استفادة . حمَل ذلك استعاراتُه عبْر أبيات مختلفة ومتنوعة ومنها قوله [المتقارب]:[2]

همُ القومُ قامُوا بِأمرِ الإمامِ وما نكلُوا عن دِفاعِ النَّكَال
يَعُدُّهُم خُلقُهُم في الأسُودِ وإنْ عدَّهُمْ خَلْقُهُم في الرِّجالِ
جبالٌ رواسٍ إذَا ما القراع قضَى بِانتسافِ رواسي الجبالِ

فالشاعر ها هنا في مقام الإشادة بجيوش الحفصيين المسلمة "فهم كالجبال " قوةً وثباتاً غيرَ أنهم آدميون في خِلقتهم وإن كانوا في أخلاقهم أسودا .

وإشادة بولي العهد محمدٍ يقول الشاعر[الكامل] [3]:

هُو زانَ إخوتَه وهمْ زانُوا الهُدَى فكأنَّهُ بيتُ القصيدِ مُجَوَّدَا
وُسْطَى قِلادَتِهم وزهرةُ رَوضِهم وأحَقُّ مَنْ حُبِيَ الجسيمَ وقُلِّدَا

فإلى جانب تشبيه الشاعر ممدوحَه ببيت القصيد المحكم ، المجوّد ، نجده يتكئ على استعارة تصريحية في " زهر روضهم" ، يقصد بذلك " محمدا " واسطة عقد إخوته وزينتهم وهو كالزهرة الفواحة بين أمراء بني حفص ، الذين يُعدُّون لدى الشاعر ربيعَ الفصول النضرَ والصباحَ الطلق المبتسم [الطويل]:[4]

مُباركةٌ أزمانُهُ وبَنَانُه تَسُحُّ نَعيمًا لا يَشُحُّ وأنعُما
فقُلْ في الرَّبيعِ النَّضر بشراً ومبسما وقُلْ في الصّباح الطّلقِ نشراً وميسما

---

(1) السابق ، ق 183 ، ص 392 .
(2) نفسه ، ق 105 ، ص 229 .
(3) نفسه ، ق 70 ، ص 168 .
(4) نفسه ، ق 122 ، ص 270 .

وفي إطار سوق الحيوانات المفترسة ، التي تنتمي إلى حقل الطبيعة المتحركة ، نجد ابن الأبار يوظف لفظة " ثعلب" ، المعروف بالمراوغة والخداع ؛ للتدليل على العدو المشبَّه به [الطويل]:[1]

تَخِيمُ [2]الأسُودُ الغُلْبُ عنهُ مَهابةً فما الثَّعلبُ الرَّوَّاغُ منها بأروَغا

ولمّا كان منزع ابن الأبار الاتكاء في تمثيله على الحيوانات ؛ ومنها الزواحف الضارة كالثعابين ـ وقد وردت قليلة بالقياس مع باقي الحيوانات الأخرى ـ التي تنسحب وسط الرمال ، وما بين الأعشاب للتدليل على السير خفية ودون إحداث الصوت .

والشاعر في هذا البيت يشيد بممدوحه ،الذي يثير هلع الأسود ويرعبها بما عُرف عنه من بَأس وقوة ، جعلت منه القائد ،الذي تنضوي تحت رايته قبائلُ وإماراتٌ .

وهو في البيت التالي يصف مذانبَ ، تصبُّ في غدير ، فتسقي بساتين "الرصافة" الأندلسية فيشبّه الجداول في انسيابها بثعابين يتزاورن . ولك أن تتصور طريق المياه إلى هذه النباتات كانسحاب هذه الأراقم [مجزوء الوافر]:[3]

تَجُولُ بهِ جـــداولُـــهُ وتَغشَى النهرَ أزمانا

فتحْسَبُهَا إذا انْسَابَتْ أراقِـمَ زُرْنَ ثُعبَانا

ومن الحيوانات الأليفة المستعان بها في أشعار ابن الأبار نجد " الخيل" ؛ رمز القوة والجبروت التي يقول عنها [البسيط]:[4]

أدْرِكْ بِخيلِكَ خيلِ الله أندلُسا إنَّ االسَّبيلَ إلى مَنْجَاتِها درَسا

حيث تبدو الاستعارة التصريحية جليةً في كلمة " خيلك" ،والمقصود بها جنود أبي زكريا الحفصي ، الذي جاءه مستصرخا مستنجدا للأندلسيين ؛ إخوانِه المحاصَرين من طرف العدو الصليبي . وهذه الكلمة تحمل معنى القوة والسرعة، التي يرجوها رسول ابن مردنيش (الشاعر)

(1) السابق ، ق 172 ، ص 369 .

(2) تَخِيم : تنكص . (ينظر: ابن منظور ، اللسان ، 4/ 264) .

(3) ابن الأبار ، الديوان ، ق 148 ، ص 319 .

(4) نفسه ، ق 67 ، ق 395 .

بالإضافة إلى "الطيور " نلفي الشاعر في همزيته المشهورة ،والتي مطلعها [الكامل]:[1]

نادتْكَ أنْدلُسٌ فَلَبِّ نِدَاءَهَا   واجْعَلْ طَواغيتَ الصَّليبِ فِداءَها

إلى أن يقول :

رِشْ أيُّها المَوْلَى الرَّحيمُ جَناحَها   واعْقُدْ بِأرْشيَةِ النَّجَاةِ رِشَاءَهَا[2]

يقف موقف المستنهض للسلطان الحفصي لنجدة الأندلس الجريحة ، المشبهة بطائر مكسور الجناح ، ويطلب من أبي زكريا أن يجعل لهذا الطائر المهيض جناحاه ريشًا ؛ ليعود إلى طيرانه وتعود الأندلس إلى عهدها الجميل.

---

(1) السابق ، ق 1 ، ص 33 .

(2) **رِشاء** : هو الحبل . والجمع : أرشية . (ينظر: ابن منظور ، اللسان ، 5/ 215) . **رِشْ** : من راشَ الجناح جعلَ لها ريشا . (ينظر: ابن منظور ، اللسان ، 5/ 375) .

- الصورة النفسية :

وهي التي تعبر عن التجربة الحسية ، التي تُنقَل بوساطة الحواس (البصرية والسمعية وغيرها) إلى الذهن ، فتلتصق به .(1)

قال الشاعر [الرمل]:(2)

قد خَلَعْتُ الصَّبْرَ في أثنائِها فَرْطَ جَهْدٍ ولَبِسْتُ الكَمَدَا

فالكمد والحزن كانا بمثابة الرداء ، الذي يلف الشاعر ،وعلى الرغم من ضرورة اللباس إلا أن الشاعر يعزم على خلعه والبقاء دون لباس ، وهذا أفضل عنده .

وقد احتل في شعر ابن الأبار لفظ " **المسكن**" ومعانيه حيزا معتبرا ؛ وذلك لأن الشاعر يعبر به عن حالة الاغتراب الفعلية والنفسية ، التي يحياها ، فهو ـ دوما ـ بحاجة إلى مسكن آمن يأوي إليه ؛ لذلك كانت أمداحه للأسرة الحفصية ،التي وفرت له هذا المطلوب ـ ولو إلى حين ـ قد غلبت على كل الأغراض الشعرية في ديوانه ؛ فهاهو ينقل لنا صورة قلبه المتصدع بعدما فقد الأهل والوطن [الكامل]:(3)

هذا فُؤادِي قدْ تَصَدَّعَ بعدهم مَنْ يَرْأَبُ القلبَ الصَّدِيعَ ويشعبُ؟

وبعد طول بحث عن سكن آمن أمْنًا دائما ، يدرك أن هذا لا يكون إلا في حضرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ في رحاب دينه الذي يوفر للعباد ما يفتقدون ،فيقول[المديد]:(4)

يَسْكُنُ الدّينُ لِأقوَى عِمادٍ منهُ والدُّنيا لأقوى جَنَاح

إن المتأمل في حياة ابن الأبار يجدها مليئة بالمأساة والأحزان ، عاشهما الشاعر في بلنسية موطنه ومرتع شبابه ، وفي تونس التي آوته بعدما استولى النصارى على وطنه ،فخرج بأهله يطلب حياة جديدة بعيدة عن العدو والمشركين . لذلك كان طبيعيا أن تستولي الدموع على أشعاره ، بعدما

---

(1) ينظر : نعيم اليافي ، مقدمة لدراسة الصورة الفنية ، ص 44 ـ 45 .

(2) ابن الأبار ، الديوان ، ق 67 ، ص 160 .

(3) نفسه ، ق 59 ، ص 62 .

(4) نفسه ، ق 50 ، ص 121 .

استولت الأحزان على قلبه ،وهو حينما يبكي ،فإنما يبكي أندلسَه ، التي استحالت مدارسها ومواطنُ عِلْمها إلى أطلال دارَسَة ، واستُبْدِلَ نداؤها بصوت النواقيس تملأ الآذان، كما غطّى الضلال على مصانعها فصيَّر صباحَها مساءً . وينقل هو بكاءَها ونحيبها عبر ورقاءَ نائحةٍ [الكامل]:[1]

بِأَبِي مــدارسُ كالطُّـلُولِ دوَارسٌ نسَخَتْ نواقيسُ الصَّليبِ نِداءَها
ومصَانِعُ كَسَفَ الضَّلالُ صباحَها فيخـــالُهُ الرَّائــي إليهِ مساءَها
رَاحَتْ بها الورقاءُ تُسْمِعُ شدْوَها وغـدَتْ تُرَجِّعُ نَوْحَها وبُكـاءَها

وقال الشاعر في مقدمة غزلية طويلة نسبيا [الطويل] :[2]

هَلِ العيشُ إلاَّ أن أُغازِلَ غادةً يُحَاسِنُ مَرآها الغزالةَ والبدْرَا[3]
وأسْكُنُ منها قاطِفًا ثمرَ المُنَى إلى سَكَنٍ كالرِّيمِ لمْ يَرِمِ االفِكَرَا[4]

ففي البيت الثاني صورة استعارية تمثلها جملة " **قاطفا ثمر المنى** " وهي تحمل في تركيبها دلالة الهدوء والاستقرار والطمأنينة ،التي افتقدها الشاعر مذ غادرأهله ووطنه إلى تونس الحفصية وهو إذ يعبّر عن هذا ، إنما يتطلع إلى يوم يعود فيه إلى هذا الحضن الحقيقي ليتدفأ ولوْ لِوَقْتٍ قليل لأن ذلك يؤرقه ويبعث في نفسه الحزنَ والأسى .

وتعبيرا عن الظمإ الروحي لصافي المنابع الأندلسية ، التي بات الشاعر يحلم بها ، ويتشوق إلى الارتواء من مائها ـ كما تعود ـ والتمتع بانهلال سلسبيلها. وابن الأبار كغيره من الشعراء في علاقته بالماء ، الذي يمثل الخصب والنماء ، فهو العنصر الأكثر تداولا في الأشعار المختلفة عبر العصور. وما توظيفه لدى الشاعر إلا دلالة على الظمإ إلى ربوع بلنسية الخصبة وإلى غدرانها ووديانها ،التي تسقي النباتات ، فتروي عطش الشاعر إلى الحياة الطلقة التي افتقدها هناك دون

(1) السابق ، ق 1 ، ص 34 .
(2) نفسه ، ق 93 ، ص 206 .
(3) **الغزالة** : الشمس . وقيل هي الشمس عند طلوعها . (ينظر: ابن منظور ، اللسان ، 10/ 61) .
(4) **لم يَرِم** : ـ بكسر الراء ـ أي لم يبرحْ .

أن نغفل ما يحمله هذان البيتان من دلالة نفسية وأخرى رمزية ممثلة في "الماء" [الطويل]:[1]

وَمَنْبَع سلسالٍ حَبَاهُ بِطِيبِهِ أغَــرُّ لِغاياتِ الأُلَى هوَ سابقُ[2]
تلاقَى انْهِلالٌ مِنْهما وتهلُّلٌ فيَا قُرْبَ مَا لاَحَ العُذَيْبُ وبارِقُ

ومن الصور النفسية ما يكون له صلة وطيدة بغرض الرثاء والبكاء على الأحبة ، ما أنشأه في رثاء صاحب النعمة عليه أبي زكريا الحفصي ـ بعد الله ـ متأثرا بهذا المصاب الجلل الذي يفقده قوته إلى درجة الهذيان ؛لأنه أراد من الطبيعة أن تشاركه ألمه وفقده السلطان ، ذَا اليد الممدودة إليه دوما . وما استعمال الاستفهام والتعجب في عباراته إلا دليل الحيرة والقلق النفسيين ، ها هو يقول [الكامل]:[3]

سيفُ الهُدى أوْدَى به سيفُ الرَّدَى قد يفتكُ الصّمصامُ بِالصمصامِ
ما لِلــنُّجومِ طوالِعًا ؟ ما لِلجـبـا لِ رَواسياً؟ ما لِلبـحارِ طَوامِيا؟
لِمَ لَمْ تَـــغُرْ، لِمَ لمْ تَغِبْ ،لِمَ لَمْ تَغِضْ مِنْ شِـدَّةِ الحـسَراتِ والآلامِ ؟

وتظهر لوعة الشاعر النفسية أكثر حينما يبكي رفيق دربه وأستاذه وشيخه الذي لازمه قرابة عشرين سنة ، فيذرف الدموع غزارا عليه وعلى شهداء الإسلام والمسلمين في وقعة " أنيشة" التي وقعت عام 634 هـ ، والتي خصّص منها واحدا وخمسين بيتا لرثاء " أبي الربيع سليمان الكلاعي " من مجموع بيت ومائة بيتٍ ، إذْ يقول[الطويل]:[4]

جَلائلُ دقَّ الصّبرُ فيها فلمْ نُطِــقْ سِوى غَضِّ أجفانٍ وعـضِّ أباهِمِ
أَبِيتُ لها تحتَ الظَّـلامِ كأنَّـــني رَمِـيُّ نِصَـــالٍ أو لَـديغُ أراقـمِ
أُغازِلُ مِنْ برْحِ الأَسَى غيرَ بارِحٍ وأَصْحَبُ من سَامِي البُكَا غيرَ سائمِ
وأَعْقِدُ بِالنَّجمِ المُشَرِّقِ ناظـرِي فيـــغْرُبُ عـنِّي ساهِـراً غيـرَ نائـم

---

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق 184 ، ص 393 .
(2) **أغرُّ** : كريم الأفعال . (ينظر: ابن منظور ، اللسان ، 10/ 39) .
(3) ابن الأبار ، الديوان ، ق 120 ، ص 263 .
(4) نفسه ، ق124 ، ص 278 .

وأَشْكُو إلى الأيَّامِ سُوءَ صنِيعِها ولكـنَّها شكْوى إلأى غيرِ راحِــــمِ
وهيهاتَ هيهاتَ العَزاءَ ودونَـهُ قولصِـمُ شَتَّى أُرْدِفَتْ بِقواصِـــــمِ
ولوْ يردُّ السّلوانُ حَـرَّ جوانِحي لآثَرْتُ عنْ طَوْعٍ سُلُـوَّ البــــهائمِ
ومَنْ لـي بِسُلْولنٍ يَحُـلُّ مُنَفِّراً بِجاثٍ مِنَ الأرزَاءِ حــــولـيَ جاثِمِ
وبينَ الثَّنايـا والمجارِمِ رِمَّـــةٌ سَرى في الثَّـنــــايا طِيبُها والمخارم
بكَتْهأ المعالـي والمعالـم جُهْدَها فلهْفَ المعــــــالـي بعدها والمعالـم

والقصيدة كلها مفعمة بأحاسيس الأسى ودقات القلوب الحزينة لهؤلاء الشهداء ، الذين كان أثرهم على الشاعر كبيرا ، كأنه لم يفقد قبلهم عزيزا ، ولم يودع يوما ما قريبا .

ـ الصورة الرمزية:

إن الرمز أو الترميز في الأدب بعامة سمةٌ أسلوبية ، وأحد عناصر النص الأدبي الجوهرية منذ عُرف هذا الأدبُ ، وما يمكن ملاحظته أنه قد تنوع وتعمق وسيطر عل القصيدة العربية بشكل عام في تراكيبها وصورها ، وبنياتها المختلفة .

والرمز بشتى صوره المختلفة (المجازية والبلاغية والإيحائية...) هو في الحقيقة تعميق للمعنى الشعري ، الذي يختلج في صدر الشاعر ، ومصدر الإدهاش والتأثير ، وهو في الوقت ذاته تجسيد وتمثيل لجماليات التشكيل الشعري . و إذا وُظف هذا الرمز بشكل جمالي منسجم واتساق فكري دقيق ومقنع ، استطاع بذلك أن يسهم في الارتقاء بشعرية القصيدة ، وتعميق دلالتها ، وبالتالي كان تأثيرها على المتلقي مضمونا .

ففي سياق هذه العملية (الرمز) نجد أنفسنا حيالَ مرحلتين ؛ الأولى هي الأصوات ، أو الكتابة (الكلمات) ،والأخرى هي الصورة المستحضرة من الذاكرة . وتعد الدلالة اللغوية هي الرابط بينها .

وقد غرف الشعراء الأندلسيون من مَعين الرمز بمختلف أشكاله وألوانه (الأسطوري التاريخي والثقافي) ، وغير ذلك ، فأعطوا بذلك صورا فنية ، نقلتْ تجاربهم الشعرية وأغنتْ نصوصهم الإبداعية ، وعمّقتْها فكريا وجماليا.

ومن الصور القائمة على استخدام الرمز ، يقول الشاعر في مدح السلطان ، الذي رفعه إلى مرتبة الكواكب رفعة وبُعْدَ آفاق ، وفي ذلك رمز لعلو المكانة ورفيع المستوى[البسيط]:(1)

على الكواكبِ مَضْروبٌ سُرَادِقُهُ بحيثُ يبلغُ أوجَ الشمسِ مَوْطِئُهُ

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق 2 ، ص 43 .

وفي قصيدة الاستنجاد الثانية ، التي نظمَها الشاعر ، طالبا المدد من الحفصيين ، يوظف " **الورقاء** " رمزا ـ ليس للسلام ـ ولكن للتعبير عن حال بلنسية ، الذي أبكاها ،وأبكى من خلالها كل القلوب النابضة بالإحساس،المفعمة بالحرارة ،حرارةِ الألم والكمد[الكامل] :[1]

راحَتْ بها الورقاءُ تُسْمِعُ شدْوَها ... وغدَتْ تُرَجِّعُ نَوْحَها وبُكـاءَها

وللتعبيرعن حال الأندلس بعامة ، وحال بلنسية بخاصة ها هو ابن الأبار المكلوم يستضيفنا إلى " مأتم " ـ والمأتم لا يستضاف إليه الناس ـ

اثنان أقاما ذلك على صورة الوطن المسلوب ، يشرك في ألمه حمامةً ؛لأنها الأنيس الوحيد الذي بقي يواسيه ويخفف عنه ـ ليس بالابتسامة ـ ولكن بالدموع ، كلاهما يبكي ، ولكن ليس لكليهما إعرابٌ وإفصاح عما أصابه ، وأصاب الوطن معه ؛ هذا يردد الزفراتِ ،وتلك تترنم هو يفصح ولكنها تعجم ، فهي خليَّة وهو متيم [الكامل]:

وحمامةٍ ناحَتْ فَنُحْتُ إزاءَهـا ... فلوِ اسْتمَعْتَ لَقُلْتَ : هذا المـأْتَمُ

أبكِي، وتبْكِي غيرَ أنِّي مُعْرِبٌ ... عمَّا أُكِنُّ مِــن الغرَامِ و تُعْـجِمُ

وأُرَدِّدُ الزَّفراتِ أثناءَ البُكا ... وتَظَلُّ فــــوقَ أرَاكِـها تَـتَـرَنَّـمُ

فإذاَ أصَاخَ لِشَدْوِها وتأوُّهِي ... واعٍ ، يقولُ : خلــــيَّةٌ ومُـتَـيَّـمُ

فاستخدام الشاعر لكلمة " حمامة " قديم في الشعرالعربي ، تكون على وفق حاجة المبدع الانفعالية ، الفنية . والشاعر وحده هو القادر على تحويل المفردة إلى طاقة شعرية معينة تنسجم وحالتَه النفسية ، ولقد استطاع ابن الأبار أن يقيم مأتما ، ولا يجد مَنْ يشركه أحاسيسَه إلا هذا المخلوق (الطائر) ؛لأنه ـ حسبَه ـ الوحيد الذي يقرأ مشاعره ، في حين لا يرى في أبناء جلدته في بلنسية أو في تونس مَنْ يستطيع فهمَ أحاسيسه وإدراك أفكاره .

---

(1) السابق ، ق 1، ص 34 .

ولما كان "البدر" من مصادر النور ، كما يُعدُّ العلامةَ الدلالية المتداولة بكثرة في الشعر العربي سجَّل حضوره ـ أيضا ـ في شعر ابن الأبار ؛ ومن ذلك قوله [الكامل]:[1]

بدْرُ الهدايةِ بَيْدَ أنَّ كمالَه لا يعتريهِ لِلمحاقِ لحاقُ

فالشاعر يمدح أبا زكريا الحفصي ويصفه بأنه بدر الهداية والرشاد المتصلة ،لا تنقص ولا تقل. فالممدوح لدى المادح هو نور الهداية ، الذي يستضاء به ،لا سيما حينما يكون جيشه رهن الطوع لمساعدة إخوانه المسلمين في الأندلس المحاصَرة ؛ ولأن هذا النور سيُظهر حقيقة الأمور ، التي لا بد أن تفرز ؛ بين ظالم مستبد (وهم النصارى) وبين مظلوم مقيَّد بالأغلال والأصفاد (وهم المسلمون) ، يتوق إلى فكاكها ، ولا يفعل ذلك إلا أمثال أبي زكريا (بدر الهداية) وحامل الراية .

وفي شعر الشاعر رموز نورانية مثل (الشمس ، القمر ، النجم ،والأفلاك بعامة ...) ذاتُ دلالات مختلفة ؛ منها الأخلاقية ، والدينية ، والنفسية وغيرُها .

كما تأتي صورة " الأسد " أحيانا بدلالات خُلُقية ، تحمل في طياتها صفاتِ الشجاعة والإقدام والبسالة في ميدان الحرب ، فيقول الشاعر [الوافر[2]]:

فمِنْ أسدٍ مُهَيَّجَةٍ ضَوارٍ على جُرْدٍ مَطهَّمَةٍ عِتاقِ

ليكون " الأسد" رمز القوة لدى الشاعر ؛ هذه القوة التي يتوق إليها توقا شديدا ؛ لأنه لو أمسك بها لما كان حاله كهذا الذي يحياه ، وخاصة وأنه نظَم هذه الأبيات مسترضيا متذللا بعدما نُفيَ إلى " بجاية " مغضوبا عليه مِن طرف مَنْ لُّموا شمله يوم أقدم عليهم طالبا الأمنَ والأمان . ومقابل هذا الطلب ينبغي عليه أن يرضخ ـ وهو الذي عُرف عنه بأْوُهُ وكبرُه ـ

وكان " الجواد" أيضا رمزا للقوة والسرعة في ميادين القتال ، وهذه دلالة تقليدية من الموروث الشعري العربي ، حين يقول [الوافر] :[3]

جيادٌ كالظِّبَاءِ العُفْرِ تَسْمُو سوَلِفَ حيثُ لا مَرْقًى لِرَاقِ

---

(1) السابق ، ق 178 ، ص388 .

(2) نفسه ، ق 179 ، ص389 .

(3) نفسه ، ق 179 ، ص389 .

إلا أن ابن الأبار قد أضفى على هذا الحيوان صفة القداسة الخاصة بها ، عندما يجعلها خيلَ الله لأنها مطلوبة في الذود عن حمى الدين الإسلامي وعن مقدساته ، التي دنَّسَها الكفار.
فهو يريدها أن تكون خيلا مباركة ؛ لأنها ستنصر أهلَه ودينه .

ويقابل عند ابن الأبار هذه الخيولَ المباركة ـ كما أسلفنا ـ حيواناتٌ أخرى ، تحمل دلالة عكسية للتي سبق ذكرها ، ويتعلق الأمر ـ هنا ـ بـ "الخنازير" وما تحملها هذه الللفظة بأصواتها وشكلها المتعارف عليه وصفتها المعروفة به ، ومكانتها الممجوجة في ديننا الإسلامي من الدلالة القميئة حين يقرنها الشاعر بالحديث عن الصليبيين ، تشنيعا بأعمالهم المنكرة فيقول[البسيط]:[1]

بينَ الخَنَا والخنازيرِ استَقَرَّ إلى　　أنْ زُلْزِلَ الدينُ أساسًا وأركانا

ولمّا أراد الشاعر أن يعبّر عن صورة الكبرياء والقوة والعزة ،التي يتصف بها ممدوحُه استعار لفظة " الجبل " لينقل لنا صورة البناء الصلب ، الشامخ ، التي لا يتزعزع فيقول[الوافر]:[2]

جِبالٌ رَوَاسٍ إذاَ ما القِراعُ　　قَضَى بِانْتِسافِ رواسِي الجِبالِ

فكلمة " جبال" في هذا البيت وظَّفها الشاعر لِوصف جيوش المسلمين الحفية .

ولم يكن ممدوح الشاعر ـ في هذه الكلمة ـ بهذا الوصف فحسبُ ، وإنما كان ـ أيضا ـ حليما حكيما ، سديد الرأي أثناء مواجهة الخواطر والأهوال ،ها هو يقول [الوافر]:[3]

ويَرْسُو لِلفوادحِ طَوْدَ حِلْم　　ويَهْفُو لِلمدائحِ غُصْنَ بَان

لذلك ، قد تتعدد دلالات اللفظة المستعملة ، وتتنوع بحسب المواقف ، وما يريده الشاعر أثناء التعبير عن تجربته الشعرية .

---

(1) السابق ، ق 144 ، ص 305 .

(2) نفسه ، ق 105 ، ص 229 .

(3) نفسه ، ق 152 ، ص324 .

ـ الصورة الحركية :

هي التي يلجأ إليها الشعراء في رسم صورهم الشعرية ؛ لإضافة عنصر الحركة إليها ، حتى توحي بأنها حية ؛ فيُجْرُون في الجمادات الدماءَ ، ويثيرون في الأجواء الحركاتِ ، التي تحقق للشاعر أكبر قدر ممكن من التأثير على نفسية المتلقي ؛ لأنها الغاية التي من أجلها أَنْسَنَ ما لا يُؤَنسن ، وبعث في الموات الحياةَ .

لذلك يعد عنصر الحركة أصعب ما في التصوير ؛ لأنه يعتمد على قريحة الشاعر وملكته ، لا على ما يراه بعينه أو يلمسه بحواسه ، فالحركة بارزة في الصورة البصرية ، ومن تلك الصور قول الشاعر في وصف السهر والسهاد بسبب بعد محبوبه عنه ، وبقائه وحيدا يقاسي الوحدة [البسيط]:(1)

أَقُولُ لِلنَّومِ والسُّمَّارُ قَدْ هَجَعُوا ... ولِي تـمَلْمُلٌ عاني القلبِ منزَعِجِ
لِلسّهدِ فوقَ جُفُونِي لا يفارقها ... مراقبٌ فإن اسطعْتَ الولوجَ لِجِ

فالشاعر يعقد حوارا مع النوم ، الذي يقف معه موقف المجابه ،فهو الصَّبُّ الولهان الذي سلب قلبَه غُنجُ فتاته ودلالُها ، فأذهب ذلك المنظر عنه النوم وأبعد عنه الراحة والخلود إلى فراشه وتبدو صورة الحركة في هذه اللوحة ،والتي طرفاها (الشاعر والنوم) ـ جلية ومعبرة وقصة أي شاعر مع النوم شأن ذو شجون ،لا سيما إذا كان الساهر متيما ،وحبيبه عنه بعيد أو صادٌّ ـ

هذه العملية يزيدها السهاد حركة أخرى حينما يمتطي الجفون ، منتصبا كالمراقب على حركاتها وسكناتها ، ويأبى ألا يفارقها إلا بعد أن يأخذ نصيبه منها ، إلا أنه لا يستطيع ؛لأن المطلوب إلى النوم (الشاعر) لن يستطيع ذلك حتى وإن أراد ؛ لأن فكره وقلبه وكلَّ جوارحه رهنُ حبيبه ، ولا يملك على كل ذلك سلطانا .

ونجد الشاعر في صورة أخرى يستعمل من أوصاف المرأة الحسية ما ألفه عند الشاعر العربي القديم ؛ من الخصر والردف ،وغير ذلك . وحتى يثير في المتلقي حواسه ويحرك مشاعره ، يرسم

---

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق 44 ، ص 109 .

لهذين الموصوفين (الخصر والردف) حركةً ، يكون للخصر سلطةُ إنهاض الفتاة ظمآن مندمجا وللردف المكتنز قوةُ شحنها بنبضات ريان متكبّرا ؛ لتكون فتاة الشاعر قد فاقت بجمالها كل أترابها حسنا و بهاءً ، فيقول [البسيط]:[1]

تَفُوتُ كلَّ فتــاةٍ في محاسنِها　　　بِمَا تَفُتُّ به الأرواحَ والمُهَجَا

فالخِصرُ يَنْهِضُها ظمْآنَ مُندَمِجَا　　　والرِّدْفُ يُنبِضُها ريَّانَ مُنتفِجَا

وفي رحاب الطبيعة الخلابة ، ينقل لنا الشاعر صورةً لحياة صاخبة ،فيها الحركة والوثوب أحدثها زيارةُ الحيَا لبستان ،وأثار جلبة ،ولكنها ممتعة ،كان شخصياتها آساً يلتـثم بنفسَجا وياسمينُ يغازل سوسانا ، والريح تركض سابقة غيرها في ميدان فسيح .

وقد استطاع ابن الأبار أن يبعث في هذه النباتات روحا جديدة لَّما لامستْ أوراقَها قطراتُ المطر ، وأسهمت الريح في نقل حبَّات الطلع فتنتج مسرّةً وأمانا ، مصورا هذا البستان بميدان معركة ، بعد أن أعطاها من صفات الإنسان (أنْسَنَها) ما يؤهلها للقيام بحركاته وتنقلاته من هنا وهناك ؛ ليسبل عليها الحركة ، وهنا تبدو المقدرة على الجمع بين المتناقضات ،أو بين غير المتساويات ؛ فالشاعر تمكّن من رسم لوحة البستان على صفحة الطبيعة ، كأنها حرب هوجاءُ ولكنَّ أسلحتَها مزاهرُ وأزاهرُ ، وعبّر عن جمالها وحسن منظر أزهارها ، فقال [البسيط] :[2]

زَارَ الحَيَا بِمزَارِهِ البُسْتانـــا　　　وأثـارَ مِنْ أزهارِهِ ألوانـــا

....　　　..........................

والآسُ يلتـثِمُ البَنفَسجَ عارِضًا　　　واليَاسَمينُ يُغَازِلُ السَّوْسَانـا

والرِّيحُ تُرْكِضُ سُبَّقًا مِنْ خَيْلِهَا　　　في رَوضَةٍ رَحُبَتْ لها مَيدَانـا

هَوْجَاءُ نسْتَشْرِي فيُلْقِحُ مَدُّها　　　هيجاءَ تُنْـتِجُ حَبْرَةً وأمانـا

حرباً عهِدْتُ أزاهراً ومَـزاهِراً　　　أوزارَهَا لا صارِماً وسِنانـا

(1) السابق ، ق 42 ، ص 103 .

(2) نفسه ، ق 144 ، ص 312 ـ 313 .

أو صورة " السوسن " ولأجله اشتهر ابن الأبار " **بالأديب المشهور بالسوسن**" ، حيث يقول [البسيط] :[1]

يا حُسْنَهَا سَوسنَاتٍ أَطْلَعَتْ عجَبا   مَداهِنًا مِنْ لُجَيْنٍ يَخْبَأُ الذَّهَبا

لـَمَّا سَقَاهَا الحَيَا ما شاءَ مُنْبِتُـهَا   لمْ تَعُدْ أنْ مزَّقَتْ أثوابَها طرَبا

فقد جعل هذه السوسنة تثير بطلعتها كل إعجاب ؛ لأنها أبدتْ ألوانا من فضة يخبئ الذهب ومجرد أن لامستها قطرات المطر تفتحت أكمامها ، ومَزّقت أثوابَها غبطة وسرورا. فهذه صورة حركية (تشخيصية) لنبات ، يضرب مثالا للإقبال على الحياة من جهة ، كما تحمل دلالة الملوكية والقوة ،معبرا عن الفترة التي كان الشاعر يحياها بالقرب من المستنصر الحفصي .

وفي ختام هذا الفصل ، الذي خصصناه لبناء الصورة في شعر ابن الأبار ، تبيّن لنا أن الشاعر قد طرق أنواعا متنوعة من هذه الصور ، التي تعاضد فيها اللفظ وخيال الفنان لإنتاج تشكيل لغوي ، من معطيات متعددة ، يمثل العالم المحسّ ،الذي يحيط به أبرز العناصر.

وقد كانت هذه الصور مباشرة ، وبيانية ، ونفسية ، ورمزية ، وحركية ، أسهمت كلها في بلورة أفكار الشاعر وأحاسيسه ، عبر أغراض متنوعة ؛ من مديح ووصف وغزل وزهد ورثاء وغيرها

---

(1) السابق ، ق 30 ، ص 89 .

الفصل الرابع

المـــوسيقى و الإيـــقاع

1 ـ الوزن

2 ـ القافية

3 ـ الروي

4 ـ التصريع

5 ـ التصدير والترديد

6 ـ الجناس

7 ـ الموازنة

8 ـ التقسيم

9 ـ الترصيع

يُعدُّ الوزن القيمةَ الفنية للشعر ، التي ساهمت في حفظه من الضياع على مدى العصور والأزمان ، بالإضافة إلى ذلك النغم الموسيقي ، الذي يشع فيه ،فيعين المتلقي على التذكر والاسترجاع ، لاسيما أن الشعر كان عِلمَ قومٍ ، لم يكن لهم عِلمٌ سواه . والعنصر الموسيقي هو الذي يميز الشعر من النثر ، والحاسة التي تدرك هذه النغمات هي الأذن لا سواها . وهي التي تنقلها بدورها إلى النفْس .

ونظرا لأهمية هذه الموسيقى الشعرية ينبّه الدارسون وعلماء العروض على ضرورة الحفاظ على قراءة الشعر قراءة سليمة ، خالية من الأخطاء النحوية والصرفية ،بما يتطلبه قانون الإعراب وحسن ضبط الكلمات المفردة بما يقتضيه علم الصرف ، مع الإلمام بما يُنطَق وما لايُنطَق من الرموز الكتابية .

وستتناول هذه الدراسة الموسيقية والإيقاعية محطاتٍ ، تتمثل في :الوزن و القافية و الروي والتصريع ،و التصدير والترديد ، الجناس والموازنة ، ووالتقسيم والترصيع :

1 ـ الوزن:

إن العلاقة بين الموسيقى والشعر علاقة عضوية ؛ فالشعر في صياغته الفنية يتكون من عدة تفعيلات ، تختلف من وزن إلى آخر ، وتكون صافية ،كما تكون مركبة ، وتمثل هذه التفعيلات وحداتٍ موسيقيةً ، تكسب القصيدة نغما آسرا ، مؤثرا ، وحين تفقد القصيدة هذا النغم السحري ينقطع الخيط الفني الدقيق ، الذي يشد المتلقي ، ويجعله يتتبع باهتمام بالغ لِما يسمع فيطرب وينتشي .

ولأهميته ، اعتبره ابن رشيق أهم خاصية للشعر ، فيقول : ((**الوزن أعظم أركان حد الشعر وأولاها به خصوصية ، وهو مشتمل على القافية ، وجالب لها ضرورة إلا أن تختلف القوافي فيكون ذلك عيبا في التقفية لا في الوزن...**))[1] .

(1) ابن رشيق ، العمدة ، 1/ 121 .

والشعر ـ كما يوضح شكري عياد ـ مرتبط بالغناء . والاثنان يصدران من نبع واحد وهو الشعور بالوزن ، أو الإيقاع .[1]

وثمة استعمال دأب عليه الدارسون والنقاد ، له علاقة حميمة بالوزن ، وهو" الإيقاع" .

ولسنا نتغيًّا من هذا الإشارةَ إلى علم الإيقاع عند الغرب ، ولدى العرب ، وإنما سنشير ـ مجرد إشارة ـ إلى التفرقة بينهما من خلال ما فعل" محمد غنيمي هلال "، الذي قال : ((**الإيقاع : ويقصد به وحدة النغمة التي تتكرر على نحو ما في الكلام أو في البيت أي توالي الحركات والسكنات على نحو منتظم في فقرتين أو أكثر من فِقر الكلام ، أو في أبيات القصيدة..))** .[2]

ولما انتقل الناقد ذاته إلى الوزن ، دون إغفال لضرورة وجودهما (الإيقاع والوزن) قال: ((**الوزن : وهو مجموع التفعيلات التي يتألف منها البيتُ . وقد كان البيت هو الوحدة الموسيقية للقصيدة العربية .**

وكان الذي يُراعَى في القصيدة هو المساواة بين أبياتها في الإيقاع والوزن بعامة ، بحيث تساوى الأبيات في حظها من عدد الحركات والسكنات المتوالية ، وفي نظام هذه الحركات والسكنات في تواليها)) .[3]

ولو عدنا قليلا إلى القرن الرابع الهجري ، لوجدنا " ابن طباطبا العلوي" قد جمع بين الوزن والإيقاع ،ثم أضاف إليه حسن التركيب ،واعتدال الأجزاء ، فقال:((**وللشعر الموزون إيقاع يَطرَب الفهمُ لصوابه وما يرِد عليه من حسن تركيبه واعتدال أجزائه))**[4].

وحتى يتوفر الإيقاع في الشعر ، لابد أن يتواجد حسنُ التركيب ، وصحة المعنى مع صوابه وعذوبة اللفظ : ((**فإذا اجتمع للفهمِ مع صحة وزن الشعر صحةُ المعنى وعذوبةُ اللفظ فصَفَا**

---

(1) شكري محمد عياد ، موسيقى الشعر العربي ، مشروع دراسة علمية ، دار المعرفة ، ط1 ، 1968 ، ص 53 .

(2) محمد غنيمي هلال ، النقد الأدبي الحديث ، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، مصر ، دط 2001 . ص 435 .

(3) محمد غنيمي هلال ، النقد الأدبي الحديث ، ص 436 .

(4) ابن طباطبا ، عيار الشعر ، ص 21 .

مسموعُه ومعقولُه من الكدر تَمَّ قَبولُه له ، واشتمالُه عليه ، وإن نقَصَ جزءٌ من أجزائه التي يكمُل بها ـ وهي اعتدالُ الوزن ، وصواب المعنى ، وحُسنُ الألفاظ ـ كان إنكارُ الفهم إياه على قدر نُقصانِ أجزائه)) [1].

والمتتبع لشعر ابن الأبار القضاعي ، في العدوتين (الأندلسية والإفريقية) يجد الشاعر قد نسج أشعاره على مختلف البحور الخليلية القديمة ، وإن كانت نسبة هذه الأوزان تتفاوت فيما بينها، فنظَم في كل البحور ، عدا بحريْن اثنين هما : (المضارع والمقتضب) .

(1) السابق ، ص 21 .

وهذا جدول يبين توزيع الأبيات والقطع على بحور الشعر :

البحور	القطع	نسبتها	الأبيات	نسبتها
الطويل	66	٪ 26.93	1667	٪ 34.18
الكامل	55	٪ 22.44	1086	٪ 22.27
الوافر	35	٪ 14.28	589	٪ 12.07
البسيط	27	٪ 11.02	650	٪ 13.33
الخفيف	09	٪ 03.67	57	٪ 01.68
الرمل	08	٪ 03.26	218	٪ 04.47
السريع	06	٪ 02.44	27	٪ 00.55
المتقارب	05	٪ 02.04	114	٪ 02.33
المنسرح	04	٪ 01.63	11	٪ 00.22
المديد	03	٪ 01.22	110	٪ 02.25
الرجز	03	٪ 01.22	71	٪ 01.45
المتدارك	03	٪ 01.22	92	٪ 01.88
المجتث	03	٪ 01.22	05	٪00.10
مخلع البسيط	08	٪03.26	96	٪ 01.96
مجزوء الوافر	03	٪ 01.22	73	٪ 01.49
مجزوء الكامل	03	٪ 01.22	11	٪ 00.22
مجزوء الرجز	03	٪ 01.22	13	٪ 00.26
مجزوء الرمل	01	٪ 00.40	02	٪ 00.04
المجموع	245 قطعةً	ـ	4876 بيتًا	ـ

إن هذا الجدول يُظهِر نسبة استخدام ابن الأبار للبحور ، من حيث عددُ القصائد وعددُ الأبيات ، والناظر فيه يستنبط مدى شيوع كل من بحر **الطويل** ، **فالكامل** ،**فالوافر**، ثم **البسيط**. وتأتي بقية الأوزان ، بدءًا ببحر **الخفيف** بنسب مختلفة ، ولكنها متقاربة على العموم بما في ذلك **المخلّع** منها **والمجزوء** .

فبالنسبة للوزن الأول ؛ وهو **الطويل** فقد جعله الدارسون ـ بعد استقراء واسع للأوزان العربية ـ في المرتبة الأولى ، بنسبة 26.93 ٪ ،وبلغ عدد الأبيات في هذا الوزن 1667 بيتًا وبنسبة 34.18٪ ،يقول إبراهيم أنيس:((**ليس بين بحور الشعر ما يضارع البحر الطويل في نسبة شيوعه فقد جاء ما يقرب من ثلث الشعر العربي القديم من هذا الوزن .**))(1)

وبالنسبة لتسمية هذا الوزن بالطويل ، يقول الخطيب التبريزي : ((**الطويل سُميَ طويلا لمعنيين، أحدهما أنه أطولُ الشعر ؛لأنه ليس في الشعر ما يبلغ عدد حروفه ثمانيةً وأربعين حرفا غيرُه والثاني أن الطويل يقع في أوائل أبياته الأوتادُ ، و الأسبابُ بعد ذلك ، والوتِدُ أطولُ من السبب فسُمِّيَ لذلك طويلا .**)) .(2)

ويقول صاحب " المرشد": ((**الطويل والبسيط أطول بحور الشعر العربي وأعظمهما أبهة وجلالا ، وإليهما يعمد أصحابُ الرصانة . وفيهما يُفتضح أهلُ الركاكة والهُجنة ... وهو أرحب صدراً من البسيط ، وأطلقُ عِنانا ،وألطف نغما.. . ومما يدلك على سعة الطويل ، أنه تقبّل من الشعر ضروبا عدة كاد ينفرد بها عن البسيط .مثال ذلك أن الشعراء الغَزليين على عهد بني أمية أكثروا من النظم فيه على أنهم أقلوا جدا من البسيط**))(3)

وقد نُظِمتْ على هذا البحر " معلّقةُ امرئ القيس " ، و " معلّقةُ زهير " ، و "معلقة طرفة بن

---

(1) إبراهيم أنيس ، موسيقى الشعر ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط6 ، 1988 ، ص 59 .

(2) الخطيب التبريزي ،كتاب الكافي في العَروض والقوافي ، تحقيق : الحساني حسن عبد الله ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ط3 ، 1994 ، ص 22 .

(3) عبد الله الطيب ، المرشد إلى أشعار العرب وصناعتها ، الكويت ، ط3 ، 1989 ، 1/ 443 .

العبد " .[1]

وفيما يخص الوزن الثاني ، الذي سيطر على قصائد الشاعر ، فيتمثل في " **بحر الكامل** " ((**وسُمي كاملا لتكامل حركاته وهي ثلاثون حركةً ، ليس في الشعر شيءٌ له ثلاثون حركة غيرُه...**)) .[2]

وقد تحدّث عبد الله الطيب المجذوب في كتابه " المرشد" عن موسيقى بحر الكامل فذكر بأنه : ((**أكثر بحور الشعر جلجلةً وحركاتٍ . وفيه لون خاص من الموسيقى يجعله ـ إن أُريدَ به الجدُّ ـ فخماً جليلاً مع عنصرٍ ترنّميٍّ ظاهرٍ ، ويجعله إن أريد به إلى الغزَل وما بمجراه من أبواب اللين والرقة ، حلواً مع صلصلة كصلصلة الأجراس ، ونوعٍ من الأبهة يمنعه أن يكون نَزِقًا أو خفيفا شهوانيا**)) .[3]

ونظرا لشيوعه وذيوعه أجرى "سيد البحراوي" دراسة في العروض وإيقاع الشعر العربي فوجد لهذا الوزن – الكامل- حضورا مميزا، فقال: ((**أما من حيث شيوعُه فكان رابعَ بحرٍ عند الجاهليين ، وارتفع عند الأمويين والعباسيين إلى المرتبة الثانية ثم الأولى واستمر هكذا في العصر الحديث، وربما كان كذلك في الشعر الحر أيضا**))[4].

وكانت نسبة القصائد فيه قريبة من الأول بـ : 22.44 ٪ وبلغ عدد الأبيات فيه 1086 أي بنسبة 22.27٪ .

وتحتل المراتب الأخيرة من الأوزان التامة : **الرجز ، المجتث ، و المتدارك** ،أما غيرها من (المجزوءة والمخلعة) ، فقد كانت نسبُها الدنيا متقاربة جدا ؛ بدءاً **بمخلع البسيط** بنسبة:

---

(1) ينظر : الزوزني ، أبو عبد الله الحسين بن أحمد ، شرح المعلقات السبع ، دار الجيل للنشر والتوزيع والإشهار بيروت ، لبنان ، دط ، دت . ، ص 7 ، 57 ، 98 ، ، وما يليها .

(2) الخطيب التبريزي ، كتاب الكافي في العروض والقوافي ، ص 58 .

(3) عبد الله الطيب ، المرشد ، ص 302 .

(4) - سيد البحراوي ، العروض وإيقاع الشعر العربي ـ محاولة لإنتاج معرفة علمية ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب 1993 ص 45.

03.26٪، وانتهاءً بمجزوء الرمل بنسبة : 00.40 ٪ .

ومن الملاحظات ، التي يخرج بها الناظر إلى الجدول السابق ـ أيضا ـ عدم نظم ابن الأبار على " **بحر المضارع** " و " **بحر المقتضب** " وكأن بالشاعر يذهب مذهب **الأخفش الأكبر**(ت. 177 هـ/ 793.م) الذي جاء بعد وفاة " الخليل "(ت .175 هـ) ، وأنكر وجود ثلاثة أوزان ؛ هي ما يسمى " بالمقتضب " ، وآخر يسمى" بالمضارع " ، والثالث بـ" الهزج " .

أما فيما يتعلق بعلاقة الأوزان بالأغراض ،فهذا أمر اختلف فيه الدارسون المحدثون بخاصة؛ فإبراهيم أنيس يجيب عن سؤال طرحه: ((**هل كان الشاعر القديم يتخير لشعره من الأوزان ما يلائم عاطفته؟........**))[1] وكان جوابه: ((**إن استعراض القصائد القديمة وموضوعاتها لا يكاد يشعرنا بمثل هذا التخيّر، أو الربط بين موضوع الشعر ووزنه ، فهم كانوا يمدحون ويفاخرون ويتغزلون في كل بحور الشعر التي شاعت عندهم**))[2].

ويؤكد عز الدين إسماعيل في سياق الحديث عن الخليل بن أحمد الفراهيدي وربطه الوزن بالحالة النفسية ، قائلا : ((**...فنجد أنه ربما توصل إلى هذه الفكرة نتيجة لعملية استقراء وجد فيها أن الشعراء حين يعبرون عن حالات الحزن إنما يعبرون عنها في الأوزان الطويلة ، وأنهم حين يعبرون عن حالات السرور والبهجة يختارون لذلك الأوزان القصيرة..**)) .[3]

أما ابن رشيق قبله فيرى : ((**أن الوزن كان مرتبطا بنوع العاطفة التي تستولي على الشاعر ساعة ينطلق لسانه يقول الشعر، ونحن نشهد أن لغة الفرد تتأثر بُطْئا وسُرعة وهدوءا أو عنفا بحالته الانفعالية التي تسوده عند الكلام......**))[4].

وفي ذات الموضوع ، يقول حازم القرطاجني : ((**ولمّا كانت أغراض الشعر شتى وكان منها ما يقصد به الجد والرصانة وما يقصد به الهزل والرشاقة ، ومنها ما يقصد به البهاء والتفخيم وما**

(1) إبراهيم أنيس ، موسيقى الشعر ، ص 176 .

(2) نفسه ، ص 176.

(3) عز الدين إسماعيل ، التفسير النفسي للأدب ، مكتبة غريب للطباعة ، القاهرة ، مصر ، ط4 ، دت ، 72 .

(4) ابن رشيق، العمدة ، ص 1/ 122

يقصد به الصغار والتحقير ، وجَب أن تحاكي تلك المقاصد بما يناسبها من الأوزان و يخيلها للنفوس . فإذا قصد الشاعر الفخر حاكى أغراضه بالأوزان الفخمة الباهية الرصينة وإذا قصد في موضع قصدا هزليا أو استخفافيا وقصد تحقير شيئ أو العبث به حاكى ذلك بما يناسبه من الأوزان الطائشة القليلة البهاء ، وكذلك في كل مقصد.)).(1)

كما يبين إبراهيم أنيس في سياق الحديث عن العاطفة والوزن وارتباط الحالة النفسية بأوقات نظمه : ((... **فحالة الشاعر النفسية في الفرح غيرُها في الحزن واليأس ونبضات قلبه حين يتملكه السرور سريعة ، يكثر عددها في الدقيقة ، ولكنها بسيطة حين يستولي عليه الهم والجزع. ولا بد أن تتغير نغمة الإنشاد تبعا للحالة النفسية ، فهي عند السرور متلهفة مرتفعة وهي في اليأس والحزن بطيئة حاسمة)) .**(2)

ويقول عز الدين إسماعيل في درجات الحزن والأسى : ((**ومع أننا قد نطمئن للوهلة الأولى إلى أن مثل هذا الوزن الطويل قد يناسب حالة الحزن والأسى إلا أن حالة الحزن فيما يبدو ليست من نوع واحد أو درجة واحدة . فهناك حزن هادئ وحزن ثائر وتختلف بعد ذلك درجات الهدوء والثورة .)) .**(3)

والناظر إلى هذه الآراء المختلفة ، والتي تنسب إلى فترتين متباينتين ، يلحظ شبه اتفاق بينها في أن الحالة النفسية ، والموضوع ،الذي يَنظِمُ فيه الشاعر ، إنما يكون له علاقة بالوزن.

كما نجد لدى الشاعر طول نفَسٍ في أغراض أخرى ، غير المدح ؛ من ذلك ما نظَمه في الرثاء وعلى الرغم من أن القِطع كانت أقل بكثير من قطع المدح إلا أن عدد الأبيات في البكاء على الأحبة والأصدقاء كان كبيرا ، ولا أدل على ذلك من القصائد الثلاث ،التي نظَمها في رثاء شيخه

---

(1) حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء ، ص 266 .

(2) إبراهيم أنيس ، موسيقى الشعر ، ص 175 .

(3) عز الدين إسماعيل ، التفسير النفسي للأدب ، ص 73 .

أبي الربيع الكلاعي[1] ، و الثانية في السلطان أبي زكريا الحفصي[2] والثالثة في حق شخص اسمُه " محمد "[3] ؛ حيث بلغت الأولى بيتا ومائة بيتٍ ، بينما بلغت الثانية ثمانية وخمسين بيتا ، أما الثالثة فكان عدد أبياتها خمسة وأربعين بيتا .

وليس هذا فحسب ، بل حتى تلك القصائد ،التي رثى بها أحد الأقارب ، فقد كانت متوسطة الطول باثنين وعشرين بيتا .

وهذا ما يقودنا إلى عقد مقارنة إحصائية ، نبين من خلالها **توزع موضوعات ابن الأبار على الأوزان الشعرية ، في هذا الجدول :**

	المديح	الأشواق	الوصف	الغزل	الزهد	الرثاء	الهجاء	الألغاز	المجموع
الطويل	27	11	08	10	07	05	-	-	68
الكامل	25	10	07	08	04	03	01	01	59
الوافر	16	10	05	02	03	01	-	-	37
البسيط	14	05	04	03	02	01	01	-	30
الخفيف	03	03	02	02		-	-	-	10
الرمل	05	-	01	01	01	-	-	-	08
السريع	02	01	01	-	01	-	-	-	05
المتقارب	02	01	02	02	-	-	01	-	08
المنسرح	02	01	01	-	01	-	-	-	04
المديد	02	01	-	-	-	-	-	-	03

(1) ينظر : ابن الأبار ، الديوان ، ق 124 ، ص 275 ، وما يليها .

(2) ينظر : ابن الأبار ، الديوان ، ق 120 ، ص 262 ، وما يليها .

(3) ينظر : ابن الأبار ، الديوان ، ق 156 ، ص 315 ، وما يليها .

الرجز	02	ـ	ـ	ـ	01	ـ	ـ	ـ	03
المجتث	ـ	01	01	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	02
المتدارك	02	ـ	ـ	ـ	01	ـ	ـ	ـ	03
مجزوء الوافر	01	ـ	04	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	05
مخلع البسيط	02	02	01	03	ـ	ـ	ـ	ـ	08
مجزوء الكامل	ـ	ـ	01	ـ	01	01	ـ	ـ	03
مجزو الرجز	01	01	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	02
مجزوء الرمل	ـ	ـ	ـ	01	ـ	ـ	ـ	01	02

فمن قراءتنا لها الجدول ، يتبين لنا أن وزن " الطويل " قد هَيْمن على كل الأغراض باستثناء موضوعي " الهجاء والألغاز " ، اللذين وردا بأقل الأبيات ؛ أي بثلاث قِطع في الهجاء ؛ الأولى يردّ فيها على " ابن شلبون " ببيتين . والثانية ببيت يتيم ،قيل إنه وُجد لديه بين مؤلفاته ، يعرّض فيه " بالمستنصر الحفصي " ، والذي كان من أسباب مقتله . أما الثالث فقد كان بيتا يتيما أيضا نُسب إليه ،ويتضمن هو الآخر التشهير بروح الانتقام الذي عُرف بها الحكم المستنصر [1]وقطعتين في الألغاز [2].

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق 13 ، 23 ، 39 ، ص 445 ، 452 ، 462 ، على التوالي .

(2) نفسه ، ق 198 ـ 199 ، ص 415 .

ولما كان المدح ـ كما يذهب إبراهيم أنيس ـ ليس من الموضوعات ، التي تنفعل لها النفوس وتتحرك لها القلوب ((**أجدر به أن يكون في قصائد طويلة وبحور كثيرة المقاطع كالطويل و البسيط والكامل ، ومثل هذا يمكن أن يقال في الوصف بوجه عام**)) .(1)

فإنه بالرجوع إلى ديوان الشاعر ابن الأبار نجد أن قصائدَ متعددةً ينطبق عليها هذا الرأي إذ نجد من أطول القصائد في هذا الشأن ما نظَمه الشاعر في مدح أبي زكريا بمناسبة بيعة بعض مدن الأندلس والمغرب ، وقد بلغت أبياتها تسعة وثلاثين بيتا، والتي يقول في أولها [الطويل]:(2)

أَلَمْ ترَهَا تسْمُو لأشرفِ غايةٍ وتسبق سبقَ المقربات الشوازب

أو ما أنشأه مادحا أبا زكريا كذلك في اثنين وأربعين بيتا ، مستهلا ذلك بقوله [الطويل] :(3)

قضَى صادقُ الآثارِ في أمرِكَ الأرضَى بأن تملِكَ الدُّنيا وأن ترِثَ الأرضَا

وكذلك الأمر مع بحر " الكامل " ، الذي عدَّه " إبراهيم أنيس " المناسب لغرض المدح. ففي هذا نظَم الشاعر قصيدة مطولة ، بلغت أبياتها ستين بيتا ، كانت بمناسبة تقليد أبي زكريا ولدَه أبا يحي إمارة بجاية ، وذلك سنة 630 هـ وهذا مطلعها [الكامل] : (4)

أهلاً بهِنَّ أهِلَّةً وكواكبا زحَفَتْ هلالُ دُونهنَّ مَواكبا

أما " بحر البسيط" فنمثل له بقصيدة في خمسين بيتا ، يمدح فيها الشاعر أبا زكريا الحفصي عند احتلاله لتلمسان ،وفرار يغمراسن ، وكان ذلك سنة 640هـ [البسيط] :(5)

غزْوٌ على النَّصر والتمكينُ مَنشَؤهُ الفتحُ غايتُه والنُّجْحُ مَبْدَؤهُ

وهذا لا يعني البتَّةَ أن الشاعر نظَم في غرض المدح أكثر قصائده على هذه الأوزان الثلاثة وإنما هناك مقطوعات متعددة في موضوعات متنوعة أُنشِئَتْ في هذه البحور وغيرها.

---

(1) إبراهيم أنيس ، موسيقى الشعر ، ص 178 .

(2) ابن الأبار ، الديوان ، ق 25 ، ص80 .

(3) نفسه ، ق 162 ، ص 345 .

(4) نفسه ، ق 20 ، ص 67 .

(5) نفسه ، ق 2 ، ص 41 .

ويلي " الطويلَ " وزنُ " الكامل " و " الوافر " و " البسيط " ، على التوالي ، أوزانٌ استطاعت كلها أن تغطي الأغراض الشعرية ،التي نظَم فيها ابن الأبار أشعاره ؛ من مدح وأشواق ووصف وغزل ، وزهد ، وغيرها .

أما أعلى حضور لهذه الأوزان ، فقد كان لوزن " الكامل " ، الذي سجّل تواجده مع كل الأغراض " الأبّاريَّة " قَلَّ عدد أبياتها ، أو كثر ، بما في ذلك الألغاز بقطعتيْها .

في الوقت ، الذي احتل المراتب الأخيرة كلٌّ من وزن " المنسرح " ، " المديد" ، "الرجز" " المجتث " و "المتدارك " .

ومما سبق نتبين أن الشاعر ابن الأبار قد نظَم قصائده على ثلاثة عشر بحرًا ، خلافا على ما عُرف عند "الخليل" بخمسة عشر بحرا ، ولدى جمهور الدارسين بستة عشر وزنًا .

أما الأوزان غير التامة (المخلع والمجزوء) ، فباستثناء " مخلع البسيط " بثماني قطع ، فقد كان التساوي في باقي الأوزان ؛ بين قطعتين وثلاث .

وآخر ملاحظة يمكن الإشارة إليها في سياق الحديث عن الأوزان (المخلّعة والمجزوءة) فأول ملاحظة أنها(الأوزان) سجلت حضورها مع أغراض مثل (المديح ، الأشواق الوصف الزهد الغزل الرثاء ، والألغاز)[1] ، بينما اختفتْ مع غرض وحيد فقط ؛ وهو (الهجاء) ؛ ذلك أن هذا الغرض نظَم فيه الشاعر ثلاث قِطع فحسب .

وثاني ملاحظة تلك التي كانت تتعلق بعدد أبيات الشاعر في هذه الأوزان المختارة فباستثناء قصيدة وحيدة ، تشكلت من خمسة وستين بيتا ، نظمها ابن الأبار على " مجزوء الوافر " في مدح

(1) ينظر : ابن الأبار ، الديوان ، القطع على التوالي : 8 ، 2 ، 35 ،36 ،71 ، 73 ، 76 ، 128 ، 143 147 ،150 ، 180 ،187 ،199 ، والملحق : 12 ، 453 ، 459 ، والصفحات بالترتيب:53 ، 90 94 ، 143 ، 169 ، 173 ، 175 ، 285 ، 301 ، 319 ، 322 ، 391 ، 401 ، 415 ، 445 453 ، 459 .

أبي زكريا ، متعرضا فيها إلى وصف رياض أبي فهر المشهورة ، يبدأها بمطلع غزلي [مجزوء الوافر]:[1]

نأتْ ومَزارُها صَدَدُ فهلْلكَ بالمَعَادِ يَدُ

وفي ختام الحديث عن الأوزان ، نسجل أنه ليس للشاعر صلةٌ بفن الأزجال والموشحات من قريب أو من بعيد على الرغم من أن الفن كان موجودا آنئذ ، ومنتشرا انتشارا واسعا. هذا ما يقف دليلا على أن الشاعر كان سائرا في فلك شعراء العرب القدامى.

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق 63 ، ص 143 ، وما يليها .

2 ـ القافـــية :

لقد اختلف القدماء والمحدثون في تعريف القافية، ومـن أشـهرها تعريـف الخليـل ابـن أحمـد الفراهيدي (ت .175هـ) الذي أورده"ابن رشيق" في "العمدة" قائلا : ((**القافية من آخر حرفٍ في البيت إلى أول ساكن يليه من قبله مع حركة الحرف الـذي قبـل السـاكن والقافيـة عـلى هـذا المذهب-وهو الصحيح- تكون مرة بعض كلمة ومرة كلمة ومرة كلمتين**))[1].

أما"إبراهيم أنيس" فيقول فيها : ((**ليست القافية إلا عدة أصوات تتكرر في أواخر الأشـطر أو الأبيات من القصيدة،وتكررها هذا يكون جزءًا هامًا من الموسيقى الشعرية**))[2].

ولم يكن الحصول على القافية ـ بعامة ـ أمرا ميسورا دائما لـدى الشـعراء ، وكثـيرا مـا صرّحـوا بذلك ؛ فهذا الشاعر " سويد بن كراع "[3] يقول [الطويل] :[4]

أَبِيتُ بأبوابِ القوافي كأنَّـما أُسَادِي بِها سِرباً مِنَ الوحْشِ نُزَّعَا[5]

أُكَالِئُهَا حتّى أُعَرِّسَ بعـدَما يكونُ سُحيراً أو بُعَيْدًا فأهْجَـعا[6]

عَواصِيَ إلاَّ ما جعَلْتُ أمامَها عَصَا مِرْبَدٍ تَغْشَى نُحُوراً وأذْرُعَـا[7]

---

(1) – ابن رشيق ، العمدة ، 1/ 135.

(2) – إبراهيم أنيس ، موسيقى الشعر ، ص 246.

(3) **سُويد بن كراع العكلي** : شاعر ، فارس ، من " عُكل" جاهليٌّ إسلاميٌّ ، وكان في آخر أيام " جرير" و"الفرزدق" (ينظر : ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ص 427 .) .

(4) ينظر : ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ص 427 . و الجاحظ ، البيان والتبيين ، 2/ 12 .) .

(5) كان مِن مناسبة هذا الشعر أنه هجا بني عبد الله بن دارم ، فاستعْدوا عليه عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ فطلبه ليضربه ويحبسه ، فهرب ولم يزل متواريا حتى كلّم فيه . فآمنه على ألا يعاود . و **أُصادِي** : من المصاداة ؛ أي المداجاةوالمخاتلة .و **النزع** ؛ كركّع ؛ أي جمع نازع ، وهو الغريب .

(6) **أُكالِئُهَا** : أراقبها . (ينظر: ابن منظور ، اللسان ، 12/ 128) . و **التعريس** : النزول في آخر الليل . (ينظر: ابن منظور ، اللسان ، 9/ 127) .

(7) **المربد** : كمنبر ، محبس الإبل . أراد عصا معترضة على باب المربد . (ينظر: ابن منظور ، اللسان، 5/ 102)

3 ـ الروي:

عرَّفه الخطيب التبريزي : ((**وهو الحرف الذي تُبنى عليه القصيدة، وتنسب إليه فيقال: قصيدة رائية ، أو دالية ويلزم في آخر كل بيت منها ، ولا بد لكل شعر قلَّ أو كثُر مِن رويٍّ**)).

فكل الحروف الهجائية يمكن أن تكون حرف رويّ ، إلا أن ورودها يقع بنسب مختلفة لذلك قسمها « إبراهيم أنيس » لشيوعها في الشعر العربي إلى أربعة أقسام:

((**(أ): حروف تجيء رويا بكثرة وإن اختلفتْ نسبة شيوعها في أشعار الشعراء، تلك هي: الراء، اللام، الميم ، النون، الباء، الدال، السين، العين.**

(ب): حروف متوسطة الشيوع، وتلك هي: القاف، الكاف، الهمزة، الحاء، الفاء الياء ، الجيم .

(جـ): حروف قليلة الشيوع: الضاد، الطاء، الهاء، التاء، الصاد،الثاء.

(د): حروف نادرة في مجيئها رويًّا: الذال، الغين، الخاء، الزاي، الظاء، الواو.)).[1]

وفي طبيعة القوافي ، نجد أن :

القوافي الذلل: هي ((**الباء والتاء والدال والراء والعين والميم والياء المتبوعة بألف الإطلاق**)) .[2]

وأما القوافي النّفر فهي : ((**الصاد ، والزاي ،والضاد ، والطاء ،والهاء الأصلية والواو**)) .[3]

وأما القوافي الحوش فهي : ((**الثاء ، والخاء ، والذال ، والشين ، والظاء ، و الغين**)) .[4]

---

(1) – إبراهيم أنيس ، موسيقى الشعر، ص 248.

(2) عبد الله الطيب ، المرشد ، 1/ 58 .

(3) نفسه، 1/ 75 .

(4) نفسه ، 1/ 79 .

وهذا جدول يبين توزيع الأبيات حسب القوافي :

القوافي	المتـــن	الملحق01	الملحق02	المجموع	النسبة
الهمزة	09	ـ	ـ	230	٪ 04.71
الباء	30	02	ـ	500	٪ 10.25
التاء	01	01	ـ	04	٪ 00.08
الثاء	01	ـ	ـ	02	٪ 00.04
الجيم	06	01	ـ	107	٪ 02.19
الحاء	10	ـ	ـ	236	٪ 04.84
الخاء	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ
الدال	26	03	01	668	٪ 13.69
الذال	01	ـ	ـ	42	٪ 00.86
الراء	13	10	ـ	496	٪ 10.17
الزاي	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ
السين	04	ـ	ـ	76	٪ 01.55
الشين	01	ـ	ـ	31	٪ 00.63
الصاد	03	ـ	ـ	132	٪ 02.70
الضاد	02	01	ـ	48	٪ 00.98
الظاء	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ
الطاء	ـ	03	ـ	07	٪ 00.14
العين	08	01	ـ	204	٪ 04.18
الغين	03	ـ	ـ	59	٪ 01.21
الفاء	01	01	ـ	75	٪ 01.53

القاف	09	03	ـ	221	٪04.53
الكاف	04	ـ	ـ	44	٪00.90
اللام	15	03	01	479	٪09.89
الميم	19	03	ـ	428	٪08.77
النون	23	07	ـ	467	٪09.57
الهاء	11	05	ـ	120	٪02.46
الواو	01	ـ	ـ	74	٪01.51
الياء	03	ـ	ـ	126	٪02.58

ومن الملاحظات ، التي تظهر للعيان من خلال هذا الجدول أن الشاعر قد نظَم أشعاره على جميع قوافي العربية ، ما عدا (**الخاء ، والزاي** ، و **الظاء**) ؛ وهي من القوافي الأوابد على الرغم من أنه نظَم على مثل هذه القوافي في أكثر من قطعة ؛ **كالثاء ، الذال ، الشين الضاد والطاء** .

وبترتيب ورود القوافي نجد : **الدَّال** ، الذي نظَم فيه ابن الأبار 668 بيتا ، من مجموع4893 بيتا، وبنسبة : 13.69٪ ، وكان حرف **البَاء** بـ : 500 بيتٍ ،وبنسبة: 25. 10 ٪ ، **والرّاء** بـ: 496 بيتا ، و بنسبة: 10.17 ٪ ، و أما **اللاَّم** بـ:479 **بيتا** ؛ أي بنسبة : 09.89 ٪ ؛ وهذه من القوافي ، التي يكثر نظم الأشعار العربية فيها .

ويوضح إبراهيم أنيس أن كثرة شيوع حروف الرويّ أو قلتها لا يعود إلى ثقل في الأصوات ولا إلى خفةٍ فيها ، بقدر ما تُعزى إلى نسبة ورودها في أواخر كلمات اللغة ، ممثلا في ذلك بصوت " الدال " ، الذي يجيء في أواخر كلمات العربية بكثرة ، في حين يقل وروده في اللغة عامة .[1]

و تكون القافية على نوعين: إما **مطلقة** ؛ وهي أن يكون فيها حرف الروي متحركا أي ما كانت موصولة. أو **مقيدة**، وهي ما كانت غير موصولة .

(1) ينظر : إبراهيم أنيس ، موسيقى الشعر ، ص 248 .

و الإطلاق أو التقييد يكون مرتبطا بسكون الرويّ أو حركته، ولها صفات خاصة يجب مراعاتها، فإذا تخلفت إحدى هذه الصفات نتج عيبٌ في القافية. وقد جمعها الخطيب التبريزي في مؤلفه .[1]

كما يرجع أحمد الشايب تمايز القوافي الشعرية وحظها من التقبل والرفض إلى الذائقة الشخصية فيقول : ((**وقوافي الشعر كبحوره يجود بعضها في موضع ويفضله غيره في موضع آخر ، وحسبُك دليلا على ذلك أن جميع قراء الشعر يطربون لبعض القوافي دون بعض ، وإذا نظَم شاعر واحد قصيدتين على بحر واحد بمعنى واحد ونفَس فلا ريب أن القافية الغناء تميل بالسامع إلى إيثارها على أختها ، ولا ريب أن اختيار قافية القصيدة أبعد منالا من اختيار بحرها بنسبة ما يربو عدد القوافي على عدد البحور ، والمرجع في ذلك إلى سلامة الذوق وغزارة المادة فالقريحة الجيدة في غنى عن أصول توضع لها بهذا المعنى ...**)).[2]

إلا أن هذا لم يمنع الناقدَ ذاتَه من نسبة بعض القوافي إلى أغراض معينة ـ على سبيل التعميم ـ فيقول : ((**ونذكر هنا أن رويّ القاف يجود في الشدة والحروب والدال في الفخر والحماسة ،والميم واللام في الوصف والخبر ،والباء والراء في الغزل والنسيب وهذا كلام غالبي إجمالي ونعود ونقول إن الذوق الأدبي خير مقياس في كل ذلك**)) .[3]

ولو أردنا أن نسقط هذا الكلام على أبيات الشاعر ، التي نظمها على حرف" **القاف** " لوجدنا تباينا واضحا ؛ ففي الوقت الذي نجد فيه شَبهَ تساوٍ في كمِّ القطع الطويلة والقصيرة أي نلفي

---

(1) يقول الخطيب التبريزي : ((إن القوافي تسعٌ ، ثلاث مقيدة وست مطلقة ، فالمقيد ما كان غيرَ موصولٍ والمطلقُ ما كان موصولاً . ثم المقيد على ثلاثة أضربٍ : مقيد مجرد ، ومقيد بردف ، ومقيد بتأسيس .والمطلق على ستة أضربٍ: مطلق مجرد ، ومطلق بخروج ، ومطلق بردف ، ومطلق بردف وخروج ومطلق بتأسيس ومطلق بتأسيس وخروج)) (ينظر : الخطيب التبريزي ، كتاب الكافي في العروض والقوافي ، ص 223 .) .

(2) سليمان البستاني ، مقدمة ترجمة الإلياذة ، دار المعرفة لطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ص 95 . ، نقلا عن : أحمد الشايب ، أصول النقد الأدبي ، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ، ط 10 ، 1994 ، ص 326 .

(3) نفسه ، ص 326 .

أربع قطع ، ذوات البيتين فقط ، مقابل خمس أخر قصائد طويلة تجاوزت في معظمها العشرين بيتا نجد في الوقت الآخر القصائد الطويلة فقط هي التي حافظت على موضوع " الشدة " ، ذكرها الشاعر في مقام مدح أبي زكريا الحفصي بخاصة والحفصيين بعامة . أما القطع القصيرة ، فقد تناولت موضوعات شتى ؛ من غزل وشوق ومدح كذلك .

هذا ما يجعلنا نحكم بأن قضية الموضوع لا تكون بأي حال منسوبة إلى قافية معينة ، أو أن القافية منسوبة إلى معنى محدد ، وهذا ما صرّح به الناقد "أحمد الشايب" بقوله : ((**...وهذا كلام غالبي إجمالي ، ونعود ونقول إن الذوق الأدبي خير مقياس في كل ذلك**)) .[1]

فحضور القافية في القصيدة العربية ليس مجرد إيقاع موسيقي في شكل ضربات نبرية تتكرر في أواخر الأبيات الشعرية في لحظات موسيقية متتابعة، أو نقرات رتيبة في الزمن، بل هي مكون أساسي في الشعر العربي القديم، تدخل في علاقات نسقية مع مكونات الشعر الأخرى: الوزن والمعنى واللفظ ، وتحتل مكانة رفيعة في هذه المكونات ، فهي شريكة الوزن في الاختصاص بالشعر، ولا يسمى شعرا حتى يكون له وزن وقافية .

فمن قوافي الشاعر **المطلقة** ، التي بلغت نسبتها : 96.73 ٪ ، نذكر للشاعر قافية موصولة[2] بالألف [البسيط] [3]:

حسْبُ الوُجودِ على التَّأْييدِ بُرْهَانا فتْحٌ أعَزَّ مِنَ التَّوحيدِ ما هَانَا

ومن المطلق الموصول بالواو ، قال الشاعر [الوافر] :[4]

وَنَتْ مِنْ دُونِ غايتِكَ العُقُولُ و عَيَّ بِفِعْلِ راحَتِكَ المَقُولُ

---

(1) السابق ، ص 326 .

(2) **الوصل** : هو حرف لين ، ناشئ عن إشباع حركة الرويّ ، أو هاء تليه . ويكون الوصل بالألف ، وبالياء وبالواو .

(3) ابن الأبار ، الديوان ، ق 144 ، ص 304 .

(4) نفسه ، ق 106 ، ص 230 .

ومن المطلق الموصول بالياء ، نذكر من أبيات الشاعر [الطويل] : (1)

رُوَيْدَ اللَّيَالِي كمْ تُصِرُّ على الغَدْرِ أتجْهَلُ إتلافَ النَّفَائسِ أمْ تَدْرِي

ومن المطلق الموصول بالهاء [المجتث] :(2)

طَغَا بِتُونسَ خُلْفٌ سَمَّوْهُ ظُلْماً خَلِيفَهْ

فالمطلق المجرد ، يظهر من خلال بيت لمقطوعة شعرية ، تبدأ [الكامل]:(3)

يا أهلَ وِدِّي لِمَ أَرُومُ تَدَانيًا مِنكُم ودارُكُمْ تَبِينُ وتنْزَحُ

أو قوله في سينيته المشهورة قافية مجردة من الردف والتأسيس (4)[البسيط] :(5)

أدْرِكْ بِخيلِكَ خَيلِ اللهِ أندلُسا إنَّ السَّبيلَ إلى مَنْجاتِها درَسَا

فقد اختار لهذه القصيدة رويًّا على حرف السين ، موصولا بحرف لين ، وهو " الألـف" النـاتج عن إشباع حرف الرويّ ، مما أكسـب القصـيدةَ لونـا موسـيقيا ممتعـا ، حمـل إحساسـاتِ الشـاعر ومشاعرَه ، وهو يلقي أمام الحفصيين خطابه ؛ يستصرخهم فيه لإنقاذ الأندلس الجريحة .

والقافية ـ هنا ـ خالية من الردف ؛ وهو عبارة عن حرف لـين ، يقـع قبـل الـروي ولا يفصـل بينهما فاصل ، وخالية أيضا من التأسيس ؛ وهو عبارة عن ألف أصلية يفصل بينهـا وبـين حـرف الروي حرفٌ متحرك .

أما في المطلق المردف فمن قول الشاعر [الكامل] :(6)

طلَعَتْ عليكَ مع المساءِ صبَاحا فوَشَى بِمِشْيَتِها النَّسيمُ وبَاحَا

---

(1) السابق ، ق 94 ، ص 209 .

(2) نفسه ، ق 23 ، ص 452 .

(3) نفسه ، ق 55 ، ص 130 .

(4) **الردف** : هو حرف مَدٍّ قبلَ الرويّ . **التأسيس** : هو ألف بينه وبينَ الرويّ حرفٌ . ويشترط في ألف التأسيس أن تكون مع الرويّ في كلمة واحدة .

(5) ابن الأبار ، الديوان ، ق 185 ، ص 395 .

(6) نفسه ، ق 49 ، ص116 .

والمطلق بخروج ، كقوله في ندب بلنسية [الكامل]:(1)

ملَكَتْ جَوارِحَهُ عليهِ جِراحُهُ   فَشِفَاؤُهُ لا يُرْتَجَى وسَراحُهُ

والمطلق بردف وخروج (2)، قال ابن الأبار [الكامل] :(3)

نادَتْكَ أَنْدلُسٌ فَلَبِّ نِدَاءَها   واجْعَلْ طوَغيتَ الصَّليبِ فِدَاءَها

فالقافية مردفة بألف المدّ ، قبل الرويِّ ؛ وهو "الهمزة" ، و" الهاء " بعد الهمـزة وصْـلٌ والألـف بعد الهاء " خُروجٌ " .

والمطلق بتأسيس وخروج ، مما قاله الشاعر في صباه [المنسرح] :(4)

إنْ ضَاعَ قلبِي فأينَ أطْلُبُهُ   أو ذَاعَ حُبِّي فأينَ مُوجِبُهُ

ومن المطلق المؤسس ما قاله في الزهد [الكامل] :(5)

دُنْياكَ لِلأُخرى سبيلٌ سابِلُ   فاعْمَلْ لها ، إنَّ المُوفَّقَ عامِلُ

والناظر إلى حركة الروي المطلق ، يفسر أحيانا نفسية الشاعر ، ويعلن عـن طبيعتـه ومزاجـه في الحياة ، وقد تجلت هذه الظاهرة بوضوح كبير في ديوان الشاعر ؛ ذلك أن ابن الأبار ـ كما سبق وأن أشرنا في مواضع مختلفة ـ لم ينعم في حياته قطُّ ،على الرغم من أنـه كـان أقـرب النـاس إلى الحكـام الذين يعيشون في رغد من العيش كبير ، فلمّا كان ببلنسية موطنِه عاش غريبا وهو بين أهله وكان خروجه إلى بلاد الروم مع سيده أبي زيد الذي ـ كما قيل ـ ارتدَّ ، وفضَّل النصارى ، عـلى الرجـوع مع كاتبه إلى أهله . وهي الفترة التي لم يخبرنا عنها الشاعر بشيء ، كان كـذلك . ولـمّـا غـادر موطنـه قاصدا تونس الحفصية وعلى الرغم من أن السلطان أبا زكريا الحفصي قد قرّبه من مجلسـه، وكلفـه

---

(1) السابق ، ق 57 ، ص 139 .

(2) **الخروج** : هو حرف ناشئ عن حركة هاء الوصل ، ويكون ألفا ، و واوا ، وياءً .

(3) ابن الأبار ، الديوان ، ق 1 ، ص 33 .

(4) نفسه ، ق 12 ، ص 59 .

(5) نفسه ، ق 115 ، ص 252 .

بالكتابة السلطانية ، إلا أن فترات الإقصاء والنفي طالته أكثر من مرة ، فظل أيضا غريبا ، لنصل في الأخير إلى نقطة النهاية ، التي طوت صفحة الشاعر والكاتب والفقيه والمؤرخ والمحدث الفاضل ، قَعْصًا بالرماح ، فأي موت هذه التي أُختيرت لمثل هذا الشاعر ؟ ! بعد أن سقطت بلنسية هي الأخرى في يد " أراغون " ، بعد أن حكمها المسلمون قرابة خمسة قرون.

أما فيما يتعلق بالقافية المقيدة ، فقد نظَم الشاعر ثماني قطعٍ ؛ تنوع عدد أبياتها ؛ حيث سجّلنا أربع قطع ببيتيْن اثنين ، وقطعة بخمسة أبيات ، ومثيلتها بستة أبيات ، وكانت الثامنة الأخيرة بأربعة عشر بيتا ، نُسجت على أوزان مختلفة ؛ على بحر الوافر والمجتث ، ومجزوء الرجز ومجزوء الكامل ، فالسريع ، ثم الخفيف .

كما تنوعت هذه القافية المقيدة ، من حيثُ التجريدُ والردفُ والتأسيسُ ؛ فكان من النوع المجرد قولُ ابن الأبار [مجزوء الرجز] :(1)

لَمْ يبْقَ رَسْمٌ لِلأدبْ أوْدَى ضَيَاعاً وذَهَبْ

ومن المقيّد المؤسس [الخفيف]:(2)

لا تَعِيبُوا السَّوادَ فهُوَ مُنَاكُمْ في فُرُوعٍ وأعْيُنٍ وحَواجِبْ

ومن المقيد المردف [السريع] :(3)

ثلاثَةٌ حَيَّتْكَ في الأربَعِينْ نَصْرٌ وتمْكِينٌ وفَتْحٌ مُبِينْ

ومن الملاحظ أن نسبة استخدام القوافي المقيّدة في ديوان ابن الأبار جاءت ضئيلة للغاية إذ بلغت : 03.26 ٪ ، مقابل ـ كما ذكرنا ـ 96.73 ٪ بالنسبة القافية المطلقة . ولم يكن هذا الشكل خاصا به هو فقط ، وإنما هو مظهر القصيدة العربية بشكل عام ذلك أن الوصل (المطلق) أكثر استعمالا من المقيد .

---

(1) السابق ، ق 31 ، ص 90 .

(2) نفسه ، ق 2 ، ص 483 .

(3) نفسه ، ق 140 ، ص 300 .

كما يلاحظ أيضا أن معظم شعره المقيد القافية قد وَرَدَ على شكل مقطوعات ، أنشـأها الشـاعر على الحروف ، التي يكثر نظم الشعراء العرب عليه ؛ كالباء ، والميم ، واللاّم، والحاء وغيرها .

وقد استعمل الشاعر هذه القافية المقيّـدة بعـد المـدِّ في قطعتـين ، حيـث قـال في الأولى مفضِّـلا السَّوادَ [الخفيف] :[1]

لا تَعِيبُوا السَّوادَ فهو مُناكُمْ   في فُروعٍ وأعيُنٍ وحَواجِبْ

و قال في الثانية ، بشأن أستاذه الربيع سالم الكلاعي بيتيْن في المُعمّى بأسماء الطير [المجتث] :[2]

إنْ شِئْتَ يا دَهْرُ حَارِبْ   أو شِئْتَ يا دهرُ سالِمْ

فصَـارِمِي ومِجَـنِّي   أبو الرَّبـيعُ بْنُ سـالم

يقول صاحب " المرشد" : ((**واستعمال القافية المقيّدة بعدَ المدِّ كثيرٌ جداً نحو :**

" غادر " و" ناصح " و " عليم " و" مَغْرِبان " .

ولكن استعمالها من غيرِ مَدٍّ غيرُ كثير ، وفيه عُسْر شديد في البحور الطوال ، إلاَّ بحريْ الرمل والمتقارب لخفتهما)).[3]

ومع شطرِ قوْل " عبد الله الطيب " الأخير ، يتفق الشاعر في نظْم باقي أبياته ، التي شكلت ست قطع ، متفاوتة في الطول ، ومتباينة في الوزن ؛ فمن ذلك ، ما أنشأه في رثاء صغير في بيتين [الوافر]:[4]

لقَدْ تَرِبَتْ يمِيني مِن شُخَيصٍ   إلأى التُّرْبِ اسْتقَلَّ مَنَ التَّرائِبْ

يُـ(قَرِّبُهُ) التّــــذَكُّرُ وهو ناءٍ   ويُـحْضِرُ(هُ) التَّفكُّرُ وهو غائِبْ

كما يقول في تحسّره على ضياع الأدب [مجزوء الرجز] :[5]

---

(1) السابق ، ق 2 ، ص 438 .

(2) نفسه ، ق 30 ، ص 458 .

(3) عبد الله الطيب ، المرشد ، ص 54 .

(4) ابن الأبار ، الديوان ، ق 29 ، ص 89 .

(5) نفسه ، ق 32 ، ص 90 .

لَمْ يَبْقَ رسْمٌ لِلأدبْ أوْدَى ضَياعاً وذَهَبْ
أَوْفَدْتُـهُ فلمْ يُـفِدْ مِنْ فِضَّةٍ ولا ذهَبْ

أو ما نظمه في رثاء أبي زكريا الحفصي [مجزوء الكامل] :[1]

عِشْنَا لِمَوْتِ إمامِنا أيْنَ الوفَاءُ ؟ لقد ذهَبْ
ما بالُنَا لمْ نَـفْدِهِ ونُـفُوسُنَا مِمَّا وَهَبْ ؟

والملاحظة التي يمكن أن نخرج بها من خلال تصفح قطع القافية المقيّدة ملاحظتان ؛ تكمن الأولى في أن الأوزان ، التي نُظِمت فيها هذه الأبيات جميعها ، قد كانت في أغلبها أوزانا مركّبة لا صافية : (الخفيف : فَاعِلَاتُنْ مُسْتَفْعِ لُنْ فاعلاتنْ) ، و (المجتث : مُسْتَفْع لنْ فاعلاتن فاعلاتن) و (الوافر : مُفاعلتن مفاعلتن فعولن) و (السريع : مستفعلن مستفعلن مفعولات).

أما الأوزان الصافية القليلة ، فيمثلها (مجزوء الكامل : متفاعلن متفاعلن) و(مجزوء الرجز: مستفعلن مستفعلن) ؛ أي أن الأوزان الموظفة كانت إما مركّبة أو مجزوءة ، غير تامة .

أما الملاحظة الثانية فهي تتعلق بالحروف ،التي اختارها الشاعر لأبياته في هذه القافية (المقيّدة) فقد كانت من القوافي الذلل ، التي يكثر نظم الشعراء فيها ؛ من مثل (الباء النون والميم) .

وأما تقسيم القافية في الشعر العربي ـ عموما ـ من حيث عددُ الحركات بين الساكنين في آخر البيت ، فكان إلى خمسة أنواع ، هي : المتكاوس[2] المتراكب[3] المتدارك[4]

---

(1) السابق ، ق 35 ، ص 94 .

(2) وسُمي **"المتكاوس"** ؛ للاضطراب ومخالفة المعتاد ، ومنه كاست الناقة إذا مشتْ على ثلاث قوائمَ وذلك غاية الاضطراب والبُعد عن الاعتدال . (ينظر : الخطيب التبريزي ، الكافي في العروض والقوافي ، ص 147 .) .

(3) وسُمي" متراكبا" ؛ لأن الحركاتِ توالتْ فركِبَ بعضُها بعضا ، وهذا دون المتكاوس لأن مجيئ الشيء بعضِه على إثر بعض دون الاضطراب . (ينظر : الخطيب التبريزي ، الكافي في العروض والقوافي ، ص 148 .) .

(4) والتدارُك دُونَ التراكُب ؛ لأن الخيلَ وغيرَها إذا جاءتْ متدارِكة كان أحسنَ مِن أن يركب بعضُها بعضا. (ينظر : الخطيب التبريزي ، الكافي في العروض والقوافي ، ص 148 .) .

المتواتر(1) والمترادف(2).

وكان حظ شعر ابن الأبار من هذه الأقسام متفاوتا في بعضها ، وغائبا في بعضها الآخر فمن ذلك أن القسم الأغلب على البقية كان " **المتواتر** " وهو ما جاء بيْن ساكنيه في آخر البيت حرفٌ متحرك (0/ 0) وقد أحصى الباحث " عدنان محمد غزال " القصائد ، التي نظَمها الشاعر في هذا القسم ، و وجد سبعين قطعة شعرية فيه(3) .

وللتمثيل لهذا القسم من القوافي ، نذكر مما قال الشاعر في إحدى همزياته [الوافر] : (4)

نُفوسُ العالَمِيَنَ لكَ الفِداءُ فكيفَ ألَمْ يُؤْلِمْكَ اشْتكاءُ

ومما قاله أيضا [الطويل] :

أَحِنُّ إلى تُربٍ ثوَى سَكَناً بهِ فألْثَمُهُ شَوقاً لِمَنْ وُسِّدَ التُّربَا

أو ماقاله في مدح أبي زكريا الحفصي [البسيط] :(5)

حسْبُ الوُجودِ على التَّأْييدِ بُرْهانا فَتْحٌ أعَزَّ مِنَ التَّوحيدِ ما هانَا

أو ما قاله [مخلع البسيط] :(6)

لُبَانةُ المُسْتَهام لُبْنَى لَوْ فَازَ قِدْماً بِمَا تَمَنَّى

ثم يليه قسم " **المتدارِك** " ـ بكسر الراء ـ : وهو ما كان بين ساكنيها الأخيرين حرفان متحركان

---

(1) وسُمي" **متواترا** " ؛ لأن المتحرك يليه الساكنُ ، وليس هناك مِن تتابع الحركات ، ما في المتدارك وما فوقه.يُقال تواترت الإبل إذا جاءَ شيء منها ثم انقطعَ ثم جاء شيء آخرُ منها كذلك .(ينظر : الخطيب التبريزي ، الكافي في العروض والقوافي ، ص 148 .) .

(2) وسُمي" **المترادف**" بذلك ؛ لأن أحد الساكنيْن رَدَفَ الآخرَ . (ينظر : الخطيب التبريزي ، الكافي في العروض والقوافي ، ص 148 .) .

3 ـ ينظر : عدنان محمد غزال ، ابن الأبار البلنسي ـ حياته وأدبه ـ جامعة دمشق ، سوريا ، أطروحة دكتوراه (مخطوط) ، 1997 ـ 1998 ، ص 376 .

(4) ابن الأبار ، الديوان ، ق 4 ، ص 54 .

(5) نفسه ، ق 144 ، ص 304 .

(6) نفسه ، ق 143 ، ص301 .

(0//0) ، و وجد الباحث ذاته من هذا النوع أربعًا وثلاثين قطعة . ومن أمثلة هذا القسم ما قاله ابن الأبار في مرثيته المشهورة لشهداء "أنيشة" [الطويل] :(1)

أَلَمَّا بِأَشْلاءِ العُلَى والمكارِمِ   تُقَدُّ بِأطرافِ القَنَا والصَّوارِمِ

كما قال في شمعةٍ [الطويل] :(2)

وصفْراءَ في لَونِ المُحبِّ وحالِهِ   تَقُومُ بأُنْسِ النَّفْسِ في وَحشَةِ الدُّجَى

وأنشأ بمناسبة تقليد أبي زكريا لابنه إمارة بجاية [الكامل] : (3)

أهْلاً بِهِنَّ أهِلَّةً وكواكِبا   زحَفَتْ هِلالٌ دُونَهُنَّ مَواكِبا

وقال بمناسبة حفلة سيرك حضرها [الطويل] :(4)

أُناسٌ مِنَ التَّوحيدِ صيغَتْ نُفُوسُهم   فَزُرْهُمْ تَرَ التَّوحيدَ شخصاً مُركبا

أما " **المتراكب** " فهو ما كان في قوافيه ثلاثة أحرف متحركة بين ساكنين (0///0) فقد سجل حضوره باثنتي عشر قطعة . ونمثل له بأبيات مقتطفة ، يقول ابن الأبار [البسيط] :(5)

أَدْرِكْ بِخيلِكَ خيلِ اللهِ أندَلُسا   إنَّ السَّبيلَ إلى مَنْجَاتِها درَسا

ومما قاله في الغزل [البسيط] : (6)

مَنْ لِي بِصَبْرٍ خَليِّ الفُؤادِ شجٍ   شَوْقاً إلى البَلَجِ الفتَّانِ والفَلَجِ

وقال يمدح المستنصر [البسيط] :(7)

ذكَرْتُ بَلْجَاءَ بِالإصباحِ مُنْبَلِجا   وقد تنفَّسَ عن أنفاسِها أرَجَا

---

(1) السابق ، ق 124 ، ص 275 .

(2) نفسه ، ق 45 ، ص 109 .

(3) نفسه ، ق 20 ، ص 67 .

(4) نفسه ، ق 38 ، ص 98 .

(5) نفسه ، ق 185 ، ص 395 .

(6) نفسه ، ق 44 ، ص 109 .

(7) نفسه ، ق 42 ، ص 103 .

وله أيضا ـ رحمه الله ـ في مدح أبي زكريا [البسيط] :[1]

لا أَعْصِرُ الخَمرَ بلْ لا أغْرِسُ العِنَبَا   حسبِي ثُغُورٌ تُبيحُ الظّلْمَ والشَّنَبَا

وقد غاب " **المترادف**" عند الشاعر ، وهو : ما كان ساكناه الأخيران غيرَ مفصولَيْن بحركة بل يجتمع فيه الساكنان وإنما سُمي بذلك لأن أحد الساكنين رِدفُ الآخر (00)

و" **المتكاوس**" وهو : ما كان فيه أربعة أحرف متحركة بين ساكنين في آخر البيت (0////0) .

ولابن الأبار قصائدُ نظَمَها في قوافٍ صعبة على حرف "الصاد" روياً ؛ كان مطلع الأولى منها [الطويل] :[2]

أتجحَدُ قتْلِي ربَّةُ الشَّنْف والخرصِ   وذاكَ نَجِيعِي في مُخضبِها الرَّخصِ

وكان مطلع الثانية [الطويل] :[3]

هوَ الفتحُ أدنىَ حَوْزِهِ المغربُ الأقصَى   عَنِ الصَّوْلِ يُسْتَقْضَي وبالِعدلِ يُسْتقْصَى

تقف هاتان القصيدتان دليلا على قدرة الشاعر على النظم في أصعب القوافي العربية ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية نسجل طُولَ نفَسه في كلتيهما ؛ إذ بلغت أبيات الأولى ـ التي أنشأها في مدح أبي زكريا ، معارضا بها الشاعر أبا بكر محمد الصابوني ـ سبعة وسبعين بيتا ، كما بلغت في الثانية ـ التي خصَّ بها المرتضي بالمدح ، والسعيد الموحدي الذي فضل النصارى على المسلمين بالهجاء ـ خمسين بيتا ، وفي ذلك دليل القدرة اللغوية والثروة اللفظية ،التي يتملكهما ابن الأبار ، إلى جانب المناسبة ،التي من أجلها نظم كل واحدة .

بالإضافة إلى قصيدة أخرى ، يصف فيها الورد الأبيض في أربعة أبيات ، يلاحظ قارئها أن الشاعر كان متعسفا في إيراد القافية ، ذات رويِّ " الصاد" بكلمات (يِبْيَضُّ ، المَحْضُ رَكْضُ بَعْضُ) ، حين يقول [الطويل] :[4]

---

(1) السابق ، ق 23 ، ص 73 .

(2) نفسه ، ق159 ، ص 329 .

(3) نفسه ، ق 160 ، 338 .

(4) نفسه ، ق 163 ، ص 350 .

سقَى اللهُ وَرْداً شَاقَنِي زَهرُهُ الغَضُّ   وقد لاحَ في أفنانِه الخُضْرِ يَبْيَضُّ

وعلى الرغم من القيود ، التي تُرهِق بها القافيةُ الشعراءَ ، وعلى الرغم من أن الكثيرين من هؤلاء الشعراء قد صرَّحوا بمعاناتهم في البحث عن القافية المناسبة عند النظم مشبهين تلك الصعوبة بقلع ضرس أهون من قول بيت شعر ؛ بوزنه وقافيته ، إلا أننا وجدنا الشاعر ابن الأبار قد أبان على قدرته في هذا الشأن ؛لأنه استطاع أن يلم بأنواع القوافي كلها تدليلا على طول باعه و معرفته باللغة ، وثقافته الموسوعية ، وكذا تمكنه من القافية ، التي لا تُخطئه السبيل .

4 ـ التـصريـع:

لقد بدأت الظواهر البديعية في البروز مع بداية العصر ـ العباسي ، وكان لظهورها أسباب متعددة ، أوجد بعضَها الانفتاحُ الحضاري ، والتلاقح الفكري ، والنشاط العلمي الذي شهده العصر .

وقد التفت النقاد في القصيدة العربية، وهم يبحثون في الوزن، إلى أهمية التصريع البالغة ، وهو ((**أن تقصد لتصيير مقطع المصراع الأول في البيت الأول من القصيدة مثْل قافيتها**))[1] .

ونظرا لأهميته تحدث عنه النقاد والدارسون، واختلفوا في تحديده بعض الاختلاف؛ فابن رشيق يقول ـ مثلا ـ ((**فأما التصريع فهو ما كانت عروض البيت فيه تابعة لضرب تنقص بنقصه وتزيد بزيادة**))[2] .

إلا أن الحديث في جماليته – التصريع – وموقعه من النفس بطلاوته كان قد عرض إليها "حازم القرطاجني " ، الذي بيّن ذلك في قوله ((**فإن للتصريع في أوائل القصائد طلاوةً وموقعًا من النفس لاستدلالها به على قافية القصيدة قبل الانتهاء إليها، ولمناسبة تحصل لها بازدواج صبغتي العروض والضرب، وتماثل مقطعيها، لا تحصل لها دون ذلك**))[3] .

ويعتبر التصريع ـ عند النقاد – دليل قدرة الشاعر، ومذهب الشعراء المطبوعين المجيدين وبه يتميز الشعر عن النثر، وأجازوا تكراره في القصيدة نفسها بعد البيت الأول إخبارًا بالخروج من قصة إلى قصة ، أو من وصف شيء إلى وصف شيء آخر، دون الإكثار من ذلك حتى لا يُعَدَّ تكلفًا ، إلا أن من الشعراء من أغفل التصريع في موضعه ، ثم استدركه في الآتي من الأبيات[4] .

---

(1) قدامة بن جعفر ، نقد الشعر ، ص 86 .

(2) ابن رشيق ، العمدة ، 1/ 156 .

(3) حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، ص 283 .

(4) ينظر: قدامة بن جعفر ، نقد الشعر ، ص 90 .

وعندما نتصفح ديوان ابن الأبار نجد التصريع متواجدا بقوة في شعره ؛ ومن ذلك ،ما قاله في قصيدة بسيطة [البسيط]:(1)

غزْوٌ على النَّصْرِ والتَّمكينُ مَنْشَؤُهُ   الفتْحُ غايتُهُ والنُّجْحُ مَبْدَؤُهُ

ومما قاله في مدح أبي زكريا ، مخاطبا إياه بالإمام [الكامل]:(2)

أَمَّتْكَ أبكارُ الفُتوحِ إماما   تَكْفِي المُلِمَّ ولا تَزورُ لِماما

وبعد العفو عنه ، قال الشاعر [الطويل]:(3)

هَنيئاً لهُ عادَى أعلدِي إمامِهِ   مُكاثَرَةً وَقْعَ الحيَا مِنْ غَمامِهِ

وقال ابن الأبار مادحا المرتضى ، ومسترضيا ،بعد أن نُفي إلى بجاية [الوافر] :(4)

مَنِ المَلِكُ المحيَّا في الرِّواقِ   ومَظْهرُهُ على السَّبْعِ الطِّباقِ

وأنشأ الشاعر في سينيته المشهورة ، يستنجد بالحفصيين [البسيط]:(5)

أَدْرِكْ خيلِكَ خيلِ اللهِ أندلُسا   إنَّ السَّبيلَ إلى مَنْجاتِها درَسا

وفي مبدئه في التخلي عن الوقوف على الأطلال ، والدعوة إلى ذلك ، يقول [الطويل]:(6)

أَشِدْ بِالقوافِي ذِكْرَ عَلْوةَ أو علْيَا   ودعْ لِلسَّوافِي دارَ مَيَّةَ بِالعلْيَا

والناظر في " التصريع " يلحظ إحكام النهايات في الأبيات ، وطبيعة الجرس الموسيقي الذي تحدثه هذه النهاية ،مما يجعل المتلقي يصغي أكثر ، وينتبه أفضل ؛لأن الأذن مفطورة على التلذذ بسماع كل ما هو متناغم ؛لأنه يخلق في نفسه نشوة وراحة ، بفضل الاعتدال الموسيقي والتوازي النغمي ، وهذا ما ستطاع أن يحققه ابن الأبار في قصائد متعددة .

---

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق 2 ، ص 41 .

(2) نفسه ، ق 117 ، ص 257 .

(3) نفسه ، ق 121 ، ص 266 .

(4) نفسه ، ق 179 ، ص 389 .

(5) نفسه ، ق 185 ، ص395 .

(6) نفسه ، ق 203 ، ص 429 .

5 ـ التصديـر والترديد:

يعرّف "ابن رشيق" التصدير بقوله ((**وهو أن يُردَّ أعجاز الكلام على صدوره فيدلّ بعضه على بعض ، ويَسْهُل استخراج قوافي الشعر إذا كان كذلك ، وتقتضيها الصنعة ويكسب البيت الذي يكون فيه أُبهّة ، ويكسوه رونقًا وديباجة ، ويزيده مائية وطلاوة**)).[1]

فالتصدير – إذًا – جنس من الأجناس الصوتية الخاصة بالمقطع، وتكون صورته الكلية بترديد لفظ من الألفاظ في البيت الشعري ، على أن يكون اللفظ الثاني مضبوط المرتبة؛ لأنه لايقع إلا في آخر البيت ، فهو مخصوص بالقوافي ، وهذا هو الفرق بينه وبين "الترديد"[2] .

لذلك الغرض قسم عبد الله بن المعتز التصدير إلى ثلاثة أقسام[3]:

- **أحدهما:** ما يوافق آخرُ كلمة من البيت آخرَ كلمة من النصف الآخر.
- **الآخر:** ما يوافق آخرُ كلمة من البيت أولَ كلمة منه .
- و**الثالث:** ماوافقَ آخرُ كلمة من البيت بعضَ ما فيه.

ويفرّق الناقد ذاته بين "التصدير" وبين " الترديد " فيقول: ((**والتصدير قريب من الترديد ، والفرق بينهما أن التصدير مخصوص بالقوافي ، تُردُّ على الصدور ، فلا تجد تصديرا إلا كذلك حيث وقعَ مِن كتب المؤلفين ، وإن لم يذكروا فيه فرقا ، والترديد يقع في أضعاف البيت .**)).[4]

فمن النوع الأول نقرأ للشاعر بيتا ، يقول فيه [الطويل]:[5]

عُنيتَ بِما يُعْنَى بِهِ كُلُّ خاشِعٍ فَلِلَّهِ بَرٌّ مِنكَ للهِ خاشِعُ

ومن ذلك ما قاله الشاعر [المتدارك]:[6]

---

(1) – ابن رشيق ، العمدة ، 2/ 3 .

(2) ينظر: ابن رشيق ، العمدة ، 2/ 3 .

(3) ينظر: ابن رشيق ، العمدة ، 2/ 3 .

(4) نفسه ، 2/ 3 .

(5) ابن الأبار ، الديوان ، ق 168 ، ص 360 .

(6) نفسه ، ق 34 ، ص 92 .

حسْبُ التَّقْريظِ حُلاكَ وما　　هي إلاَّ السُّؤْدَدُ والحسَبُ

....　　.......................

نُخَبٌ عَـيَّ البُلَـغاءُ بها　　عَجَزاً و مَآخِذُهُم نُخَبُ

وقوله أيضا [البسيط]:(1)

وما نَسيتُ بِإهْزاجِ الحمام ضُحىً　　جرسَ الحُليِّ ولا وسْوَاسَهُ الهَزِجا

....　　.......................

طَفِقْتُ أَلْهُجُ فيهِ بِالنَّسيبِ وإنْ　　عَهِدْتَهُ بِاجْتِنابِي مُولعاً لَهِـجا

فقد جاء التصدير في الأبيات السالفة قائما على التماثل الصوتي بين مصـراعي البيـت ، مما حقـق تفاعلا عضويا بين إيقاع القاقية ، الذي يمتد عموديا في نهايـات الأبيـات ، والإيغـال الـداخلي في حشو الأبيات ، فشكل بذلك امتدادا أفقيا ، متقاطعا مع الحركة العمودية ، مما أغنى الإيقاع العـام وغذَّاهُ ، ورفع أيضا وتيرته ، حين ولَّد ترجيعا صوتيا متجاوبا بين شطري كل بيت على حده .

وأما عن أمثلة الترديد ، التي تتواجد بقلة في شعر ابن الأبار ، فنذكر قوله [الطويل]:(2)

وتَغْزُو العِدَى في عقْرِها مُتَابِعا　　وحسْبُكَ غزْوٌ في العِدَى مُتَتَابِعُ

....　　.......................

ثُغورُ ثغورِ المسلمينَ بواسِـم　　بهِ ورِقابُ المشركينَ خَـواضِعُ

وفي أثناء القصيدة ؛(البيت والمائة بيت) في رثاء شهداء "أنيشة" ، يرد " الترديـد " في قوله [الطويل]:(3)

نُحَيِّي وُجُوهاً في الجِنانِ وَجيهَةً　　بِمَا لَقِيَتْ حُمْراً وُجوهَ الملاَحِمِ

---

(1) السابق ، ق 42 ، ص 103 .

(2) نفسه ، ق 168 ، ص 359 ، 361 .

(3) نفسه ، ق 124 ، ص 276 .

وتبرز خصيصة "التصدير والترديد " في قيام كل منهما على نـوع مـن التنـاظر أو المحـاذاة حيـث التركيب من جزءين ، يوافق كل منهما الآخر في المادة والمثال ، وجعل أحـد أجـزاء القـول متعلقـا بآخر في القول ذاته ، فيربط بهذا الخيط اللفظي بين شطري البيت .

وقد يرد "التصدير" على أوجه ثلاثة،يؤتَى كل منها بحسب ضرورة الوزن ، دون إغفال المعنى. بينما يكون "الترديد" متعلقا بالقافية شرطا .

6 ـ التجنيـس:

إن الجناس من أكثر الظواهر البديعية موسيقية ، وذلـك بـما يمتـاز بـه مـن خاصـية التكـرار والترجيع ، اللذين يسمحان بتكثيف جرس الأصـوات وإبرازهـا ، ولا يمكـن في أي حـال مـن الأحوال أن يكون ذلك الترجيع بمعزل عن إفادة المعنى . وقد أكّد على هذه الخاصية عبـد القـاهر الجرجاني بقوله : ((**فقد تبيّن لك أنَّ ما يُعطي " التجنيسُ " من الفضيلة أمرٌ لم يَـتمَّ إلا بنُصـرة المعنى ، إذْ لو كان باللفظ وحدَه لَمَا كان إلا مستحسَنٌ ، ولما وُجد فيه مَعيبٌ مُستهجَنٌ . ولذلك ذُمَّ الاستكثارُ منه والوَلوعُ به**)) .(1)

وهومن ألوان البديع اللفظية ، ويسمى «الجناس» و «المجـانس»، وقـد تناولـه علـماء البلاغـة والنقاد تناولا ، يختلفون حول مفهومه، وأنواعه اختلافا كبيرا، لكن الشائع في تعريـف الجنـاس: هو أنه تشابه اللفظيْن في النطق واختلافهما في المعنى. وهناك أنواع أخرى أشار إليها صاحب " معجم البلاغة العربية " من جناس لفظي وآخر معنوي ، وغيرها .(2)

والجناس نوعان رئيسان:

أ- الجناس التام:

ويسمى بالحقيقي، والمستوفي والكامل، وحقيقته أن يتفق فيه اللفظان في أربعة أشياء هي: نـوع الحروف، عددها، ترتيبها، ووزنها في الحركات والسكنات، مع اختلافهما في المعنى.

ب- الجناس الناقص (غير التام): وهو ما اختلف فيه اللفظان في أحد الوجـوه الأربعـة السـابقة. وهناك أشكال أخرى كثيرة، سنعرض إلى بعضها.

---

(1) عبد القاهر الجرجاني ، أسرارالبلاغة ، مطبعة المدني بالقاهرة ، ودار المدني بجدة ، قرأه وعلّق عليه : محمود محمد شاكر ، دط ، دت ، ص 8 .

(2) ينظر : بدوي طبانة ، معجم البلاغة العربية ، دار المنارة لنشر والتوزيع ، جدة ، ودار الرفاعي الطباعة والنشر والتوزيع ، الرياض ، ط3 ، 1988 ، ص 136 ، وما بعدها .

وعلى الرغم من عدم وضوح الرؤية الفنية لدى بعض الشعراء والبلاغيين بشأن وظيفة الجناس ، واختلاف آراء النقاد في قيمته البلاغية ومردوده الجمالي، إلا أن ذلك لم يقف حجر عثرة في طريق الشعراء لإظهار براعاتهم في التصرف الشكلي باللغة.

وإذا تصفّحنا ديوان ابن الأبار ،وجدنا الجناس في قصائد متعددة ، وبصور مختلفة ؛ منها ما في السينية المشهورة ، التي بدأها [البسيط] :[1]

أدْرِكْ بِخيلِكَ خَيلِ اللهِ أندلُسَا ... إنَّ السَّبيلَ إلى مَنْجَاتِها درَسَا
وهَبْ لها مِن عزيز النَّصرِ ما الْتَمسَتْ ... فلمْ يزَلْ منكَ عزُّ النَّصر مُلْتَمَسا
....
يا لَلْجزيرةِ أضْحَى أهلُها جَزَرا ... لِلحادِثاتِ وأمْسى جَدُّها تعَسا
وكُلِّ غاربةٍ إجْحافُ نائبةٍ ... تَثْنِي الأمَانَ حِذاراً والسّرُورَ أسى
تقاسمَ الرُّومُ لا نالَتْ مَقاسِمُهم ... إلاَّ عقائلَها المَحجوبةَ الأُنُسا
وفي بلنسيَّةَ منها وقُرطبة ... ما يَنْسِفُ النَّفْسَ أو ما يَنزِفُ النَّفَسَا
....
فَمِنْ دسَاكِرَ كانتْ دُونَها حرَسا ... ومِنْ كنائسَ كانتْ قبْلَها كُنُسا
يا لَلْمسَاجِدِ عادَتْ لِلعِدا بِيَعا ... ولِلنِّداءِ غَداً أثناءَها جَرَسا

ويظهر منذ الوهلة الأولى سيطرة حرف (السين) على الأبيات ، الذي يملأ الآذان ويغطي على المجلس ، الذي يحضره المقربون من السلطان ؛ ليسمعوا ما جاء به الأندلسيُّ إليهم بخاصة وأن سيطه ذائع ،وأخباره بلغت أسماعهم . يضاف إلى ذلك جانب آخر ، يتعلق بحرف روي القصيدة الذي يذكرنا بسينية "البحتري" وسينية "الخنساء" ؛ وهو من الأصوات الصفيرية الرخوة المهموسة.

---

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق 185 ، ص 395 .

إلا أن هذا النظم القليل بهذا الصوت ـ على قلته في المعاجم ، وقلة ورود القوافي على وقعه ـ قد أفرز شعرا جيدا ؛ من مثل سينيتي الخنساء و البحتري " ، وقبلهما " المهلهل ".

وقد أردف الشاعر هذا الحرفَ بالمد ،المسبوق بحركة الفتح ((**ليخفف من ذلك الانكسار ويعطي الفرصة لمد الصوت عاليا ، انسجاما مع المعاني والأساليب ،التي تتلاءمُ وموضوع الاستصراخ**)) .[1]

والإيقاعية في هذه الأبيات إنما تقوم على التشابه ، والتماثل والترجيع كما في (**ينسف النفْس وينزف النفَس**) مثلاً ، وما يؤديه هذا التركيب من معنى الحال المزرية ،التي ألمّت بالقرطبيين والبلنسيين على وجه التحديد ، مما يؤدي كل ذلك إلى استقطاب سمع الحفصيين وجذب خيال حكامهم بسبب تتابع التشابه الصوتي الموجود على مستوى الكلمات المجنّسة ، فيؤدي ذلك إلى تنشيط الخيال المعنوي المتكامل ، الذي يثيره هذا التماثل الصوتي ، فينال صاحب هذه التلوينات الإيقاعية مرادَه .

ومما يجب الانتباه إليه في هذه القصيدة السينية المشهوة ظاهرةُ المطابقة والمقابلة ، اللتين ساهمتا بشكل واضح في نقل المعنى على أحسن صوره ، حين يقول [البسيط]:[2]

لَهفِي عليها إلى استرجاع فائتِها　　　مدارِساً لِلمثاني أصبَحتْ دُرُسا

....　　　............................

كانتْ حدائقَ لِلأحداقِ مُؤنقةً　　　فصوَّحَ النَّضْرُ مِن أدواحِها وعسَا

إن كانت هذه الظاهرة غيركثيرة ، إلا أن قليلها استطاع أن ينقل إلينا عبر التطابق التركيبي المتناسق ، الذي يتقاطع في الوقت ذاته مع التطابق الدلالي ، الحسرة والألم ، اللذين سيطرا على الشاعر ، بعدما صارت مدارسُ العلم العامرةُ دُرُسا وأطلالا خالية ، والحدائق الغنّاء المؤنقةُ يابسةَ الأشجار ، جافة الثمار ، لا تُؤْتي أُكلَها ، إلا إذا سقتها دماء الأحرار، حين يرسل السلطان

(1) مصطفى الغديري ، قراءة في أعمال ابن الأبار البلنسي الأندلسي ،يومان دراسيان ـ مجلة ـ ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، وجدة ، المغرب ، 2002 ، ص 85 .

(2) ابن الأبار ، الديوان ، ق 185 ، ص 396 .

المستنجَد بعونه ومدده لإخوانه المسلمين في الأندلس .

وفي البيتين ما يثير الخيال ، بفضل الحركة الإيقاعية الخفية من خلال تركيبها بشكل عام ويترك للمتلقي أن يعقد مقارنة بسيطة لمدارسِ بلنسية في الحالين ، ولحدائقها ،التي تبدّل حالها بعدما جفَّ أخضرُها .

ولَمَّا كان الجناس من أبرز مولدات الإيقاع الصوتية الجزئية في البيت ، الذي تزخر قصيدته بمثل هذه الإيقاعات ، فقد كان تجاور الألفاظ يخلق جوارا صوتيا بينهما ،ويؤكد على جرس الأصوات المستعملة فيها ، ويرسخها في موقعها من البيت ، ويظهر ذلك من خلال قوله :

وأربَعًا نَمْنمَتْ يُمْنَى الرَّبيعِ لها　　ما شِئْتَ مِنْ خِلَعٍ موشيَّةٍ وكُسَى

فبين كلمتي (أربعا والربيع) ، وبين (نَمْنمَتْ ويُمْنى) تجاورٌ في الأصوات جعل في الشطر الوحيد المكثف بذلك نَغَميّةً معينة ،لم تتوفر في الشطر الثاني .

إلى جانب هذا التجاور الحرفي ، نلفي أيضا في الكلمات المشار إليها نوعا من الجناس القائم على توليد الألفاظ من بعضها ؛ (أربعا والربيع ، و نَمْنمَتْ ويُمْنى) مما جعل هذا الصنيع يساهم في بناء الإيقاع في شطر واحد ؛ليخلف تلوينا موسيقيا خاصا .

كما أن هذا التكرار للحروف ،والكلمات ،وإن كان لافتا للانتباه ، إلا أنه ليس قبيحا ؛ ذلك أننا لا نجد عسرا وصعوبة في النطق بها ، بل العكس ،يمكن أن نذهب إلى أن الشاعر أحسن توزيع الأصوات في بعض الكلمات ، مما أبعدها عن الاستثقال والنفور منها، ولا يتأتى مثلُ هذا الأمر لشعراء كثر ،مثلما أوتيَه ابن الأبار .

ولعل استعمال ابن الأبار للجناس بأنواعه ، بهذه الكثافة ، كان عن قصد ، والإسراف فيه كان أَمَارةَ تكلف ، فرضها الموقف ، الذي كان بصدده ؛ فقد ألقى هذه الأبيات أمام خاصة الحفصيين وكان من بينهم الأمراء والحكام والشعراء ، والكل كان لهذه الصنعة (الشعر) عارفا ، ولِحسن الكلام مُقَدِّرا ، وكان ابن الأبار رئيس هذا الوفد والناطقَ الرسمي ـ بلغة عصرنا ـ للقادمين معه فكان عليه أن يتباهى ويفخر ؛ ليُبِين عن مقدرة الأندلسيين ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ليحرك عطف الملك وينال رضاه ويبعث بالمدد لإخوانه المسلمين . وقد أجادَ وأصاب في مسعاه

ونال رغبته .

وهذا ما يجعلنا نغلّب الرأي القائل بأن الشاعر كان قد أعدَّ قصيدته سلفا ، قبل الوصول إلى تونس ولم تكن مُرتجَلة .

وفي إطار شعر الشوق والحنين ، ها هو الشاعر يعبّر عن ذلك بعد نزوحه عن أهله وغلبة نزوعه إلى وطنه، موظفا الجناس بين كلمتي (نزوحي ونزوعي) مستبدلا فقط الحرف ما قبل الأخير ، ((**وهذا النوعُ يسميه الرماني المشاكلة ،وهي عنده ضروب : هذا أحدها ، وهي المشاكلة في اللفظ خاصة...**))[1] ، فأحدث باللفظتين المتجانستين موسيقى متناغمةً ، وزادها عذوبةً حرفُ المدِّ ليزداد المعنى أكثر تعبيرا ، و أكبر تأثيرا بسبب معاناته الشديدة من غربته فيقول [الوافر]:[2]

يَشُقُّ عليَّ عنْ أهلِي نُزُوحِي ويَغْلِبُنِي إلى وطَنِي نُزُوعِي

ويقول في مدح أبي زيان بن مردنيش أمير بلنسية ، يومَ كان الشاعر كاتبا لهذا الأمير وبين أهله وخلانه [الطويل] :[3]

أميرَ العُلَى أرْجُو ومِثْلُكَ سامِحٌ أميرَ العُلى أدْعُو ومِثْلُكَ سامِعُ

فإلى جانب التقسيم المفرداتي المتساوي بين الشطرين ، نلفي جناسا في بيت مُصرَّع ناسبَ فيه السّماح لرجاء الشاعر ، و السماع لدعائه ، فازداد المعنى بذلك جلاءً ووضوحا بعدما ضمن جرسا موسيقيا مناسبا .

وفي السياق ذاته ، نجد ابن الأبار يبدل تارة ما بين الأصوات في الكلمة الواحدة ويسميه صاحب العمدة "بالتجنيس المضارعة" [4] التي عرَّفها ابن رشيق بالقول: ((**وأصلُ المضارَعة أن تتقاربَ مَخارج الحروفِ ، وفي كلام العرب منه كثير مُتكلَّفٌ ، والمحدثون إنما تكلّفوه فمِنَ المُعْجِزِ**

(1) ابن رشيق ، العمدة ، 1/ 326 .

(2) ابن الأبار ، الديوان ، ق 171 ، ص 365 .

(3) نفسه ، ق 168 ، ص 361 .

(4) ينظر : ابن رشيق ، العمدة ، 1/ 325 .

قولُ الله عزَّ وجلَّ : (وهُمْ يَنْهَوْنَ عنهُ ويَنْأَوْنَ) .)) [1] ، وتارة أخرى بإبدال الحركات مع الحفاظ على الاختلاف في المعنى ، الذي يعد أساسا في هذا التلوين الإيقاعي ، ويَظهرجليا في كلمتي (الجلاد والجدال) في الحالة الأولى ، و مابين (يَرُدُّونَ ويُرْدُونَ) في الحالة الثانية [المتقارب] :[2]

تَوَاصَوْا بِصبرِهم في الجِلادِ　　　وأَوْدَوْا بِخصْمِهم في الجِدالِ
يَرُدُّونَ حتَّى خُطوبَ الزَّمانِ　　　ويُرْدُونَ حتَّى صُروفَ اللَّيالي

والناظر إلى البيتين يقف على براعة توزيع الكلمات على قَدر واحد في شطري كل بيت على حده ، إلى جانب المعنى ، الذي يحمله البيتان كلاهما ؛ فالشاعر يمدح الحفصيين المعروفين بشجاعتهم واستبسالهم في ميدان المعركة ، يساعدهم في كل ذلك تواصيهُم أثناءها بالصبر حتى يُودوا بخصومهم في الجدال ، ولم تعُدْ خُطوب الزمان تقف وراء غايتهم لأنهم يردونها ولم تَعُدْ صروف الليالي تغلبهم ؛ لأنهم متغلبون عليها .

ومن الجناس الاشتقاقي ، الذي أُولع به الشاعر أيّما ولوع ، ما أنشده ، قائلا [المنسرح]:[3]

عَاجَ لَهُ دَهرهُ فَعاجَلَهُ　　　بِمُنكرٍ مِنْ خُطوبِه عَرَفَهْ

كما نجد للشاعر جناساتٍ تركيبيةً ؛ وهي أن يذكر فيها الطرف مفردا ؛أي كلمة واحدة بينما يَرِد الآخر مركبا من كلمتين أو من كلمة وجزء من أخرى . نذكر منها مِما قاله في ندب بلنسية [الخفيف] :[4]

لا تَصُدُوا فرُبَّما ماتَ صَدًّا　　　مُسْتَهامٌ لِسلْوةٍ ما تصدَّى

إذ استطاع الشاعر أن يجمع بين (لا تصُدُّوا و صدًّا) لينصح الآخرين بألاَّ يتعدوا عن مرابع الصبا ؛ لأنه منها اكتوى ، وبنار الشوق أُحرق فؤادُه ، لذلك يقف هنا ناصحا واعظا مرشدا حتى لا يُصابوا بِما أُصيبَ .

---

(1) السابق ، 1/ 326 .
(2) ابن الأبار ، الديوان ، ق 105 ، ص 229 .
(3) نفسه ، ق 20 ، ص 416 .
(4) نفسه ، ق 77 ، ص 175 .

وكذلك في قوله متغزلا ، مبينا من خلال البيت سلطة محبوبه عليه ، وقد برزَ الجناسُ المركب في لفظتي (تُسْكِرُني و سُكْراً) على الرغم من أن المعنى واحد ، إلا أن التركيب مختلف ذلك أنه ربط بين كلمة مركبة (جملة فعلية) وأخرى مفردة (مصدر) [البسيط] :(1)

لا تستطيعُ حُمَيَّا الكرْم تُسْكِرُنِي وقد تساقَطْتُ سُكراً مِن حُمياكِ

والمتصفح لديوان الشاعر يجده يعج بألوان التجنيس بأنواعه ، الذي كان ـ بعد الوقوف على بعضها ـ يوحي بظاهرة الصنعة البديعية اللفظية بخاصة ، سائدة على أشعار الشاعر ومتوزعة على مستوى أغراضه المتنوعة . كما كان إسرافه في ذلك عن وعي بدليل أن منهجه كان يقصد إليه قصدا ،ولا أدلَّ على ذلك من إقراره عبرَ قصيدة مطولة في مدح أبي زكريا الحفصي وهجاء السعيد الموحدي بمناسبة الحرب بينهما،قائلا[البسيط] :(2)

لَهُمْ أُواصِلُ بالتّعبيرِ مِنْ كَلِمِي ما لا يُقاطِعُ أسْمارا ورُكْبانا

بِدَعاً يَراهَا ، ولا فخْرَ البديعُ كما يَرُودُ مُهْرَقَها البُسْتيُّ بُسْتَانا(3)

أبى لِيَ الشّعرُ إلاَّ ما أُنَمِّقُهُ فَهَاكَ في آبَ منها زهْرَ نِسانَ

والدليل الثاني على أن الشاعر كان يحكك أبياتَه ، ويتخير للمعاني الألفاظَ المناسبة بكل وعي وإدراك لصنعته ، لا سيما في أمداحه ، حتى يبلغ بها ما يتغيّا قوله يسترضي أبا زكريا ويستشفع بوليّ العهد [الكامل] :(4)

ماذا أقُولُ وأيْنَ أبلُغُ مادِحًا وبِمدْحِهِم غَنَّى البليغُ المِصْقَعُ

دَعْنِي أعِدْ فيهِ وأُبْدِئُ جاهِداً فلَعلَ فِكريَ حينَ يُبْدِئُ يُبْدِعُ

إنْ سَالَ طبْعِي في ذراهُمْ سَلْسَلاً فالعذْبُ في الأرضِ الكريمةِ يَنْبُعُ

ليبرر بذلك نهجَه الذي انتهجَ ، وطريقَه التي سلك .

---

(1) السابق ، ق 100 ، ص 220 .

(2) نفسه ، ق 144 ، ص 311 .

(3) **البديع** : يقصد به : بديع الزمان الهمذاني . و **البُستيّ** : هو أبو الفتح البستي ؛ مِن شعراء الدولة الغزنوية توفي سنة 400 هـ .

(4) ابن الأبار ، الديوان ، ق 164 ، ص 354 .

7 ـ الموازنة :

يعرفها ابن الأثير في كتابه المشهور " المثل السائر " بقوله : ((**وهي أن تكون ألفاظ الفواصل من الكلام المنثور متساويةً في الوزن ، وأن يكون صدر البيت الشعري وعجُزُه متساويي الألفاظ وزنا.**)) .[1]

وفي بيان هذه الموازنة وموقعها في النفس موقع الاستحسان ، يقول : ((**وللكلام بذلك طلاوة ورونقٌ ، وسببه الاعتدال ؛ لأنه مطلوب في جميع الأشياء .**
وإذا كانت مقاطع الكلام معتدلة وقعتْ من النفس موقع الاستحسان ، وهذا لا مراء فيه لوضوحه .)) .[2]

وكما أن هناك علماءَ عَدُّوا بعض هذه الحالات البديعية في بعض الآيات القرآنية موازنة بينما عدَّها البعض منهم سجعا فقط [3]، لذلك يردف ابن الأثير في هذين الجنسين (الموازنة والجناس) بقوله : ((**وهذا النوع من الكلام هو أخو السجع في المعادلة دون المماثلة لأن في السجع اعتدالا وزيادةً على الاعتدال ، وهي تماثل أجزاء الفواصل لورودها على حرف واحد .**
وأما الموازنة ففيها الاعتدال الموجود في السجع ، ولا تماثل في فواصلها ، فيقال إذاً : كلُّ سجعٍ موازنةٌ ، وليس كلُّ موازنةٍ سجعاً .
وعلى هذا فالسجعُ أخصُّ من الموازنة .)) .[4]

كما يعرفها " بدوي طبانة " في كتابه " معجم البلاغة العربية" قائلا : ((**الموازنة هي تساوي الفاصلتين في الوزن دون التقفية**)) .[5]

---

(1) ابن الأثير ، المثل السائر ، 1/ 291 .

(2) نفسه ، 1/ 291 .

(3) ينظر : بدوي طبانة ، معجم البلاغة العربية ، ص 715 ـ 716 .

(4) ابن الأثير ، المثل السائر ، 1/ 291 .

(5) بدوي طبانة ، معجم البلاغة العربية ، ص 715 .

ولابن الأبار قصيدةٌ ، بلغت أبياتها خمسةً وخمسين بيتا ، وباستثناء البيت السابع والعشرين الذي يقول فيه الشاعر [المديد] :[1]

هامَهم أبْقَتْ وحدَّهُم رَهْنَ تَفْلِيقٍ وتضْليلِ

فإن الأبيات الأربعة والخمسين قد وردت كلُّها ممثِّلةً للموازنة بتماثل كلمتين في كل بيتٍ من مثل : (**تنكيب وتنكيل ، تعذيب وتعذيل ، تسبيح وتسبيل ، تسهيدي وتسهيلي ، تخييب وتخييل تسويف وتسويل ، الدين والديل ، تعطير وتعطيل ، تخويفي وتخويلي ، تمهيدي وتسهيلي ، ترتيبي وترتيلي** ، ...إلى آخر كلمتين متوازنتين وهما : (**تنوير وتنويل**) ، وفي ذلك يقول [المديد] :[2]

لَمْ يَخُـنْ في الحُبِّ تِأْوِيــــــلِي	هذه الحسناءُ تِأْوي لِـي
أَبْصَـرَتْ صبْرِي على كَلَــفِي	بَيْنَ تَنْكيـبٍ و تنكيـلِ
ودرَتْ أنْ ليـــــسَ يَـدْرَاُ بِي	طُـولَ تَعْذيبٍ وتَعْذِيـلِ
فَكَتْ وَكْفَ الجُـفُـــون دَماً	حـالَ تسْبيحٍ وتَسْبيـــلِ
وشَفَتْ ما شَـفَنـــــي فَـإذا	صَعْبُ تسْهيدي لِتسهيلي
مِـقَةٌ جـــــــادَتْ بِرِقَّتِـها	بَـعْدَ تَخْييبٍ وتَـخْيِــيلِ
....	....
كَلـَّفَ العِلْـــيَا وكَــلَّلَها	خـيْرَ تَكْليفٍ وتَــكْلِيلِ
فَهْوَ مِـنْ عُرْفٍ ومَعْـــرِفةٍ	رَبُّ تَعْـلِيمٍ وتعْليــــــلِ
جَــلَّ عنْ مَدحٍ يُجَــــلِّلُهُ	تِـلْوَ تنخِيبٍ وتَـنْخِيــلِ
أيْنَ مِن وصْفِ القَرِيضِ لهُ	وصْفُ تَنْـزِيهٍ وتنزيــــلِ
لا يَزَلْ بَدْراً وبَحْـرَ نَــــدَى	بينَ تَــنْوِيـرٍ وتنْـويــــلِ

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق 107 ، ص 234 .

(2) نفسه ، ق 107 ، ص 234 .

هذا إذا سلَّمنا مع القول القائل بحالة أخرى يرد فيها " التجنيس المنفصل "، الذي أحدثه المولدون .[1] كما أشار إلى ذلك ابن رشيق ، ممثلا ببعض الأبيات ، ذاكرا المعروفين بهذا اللون. فهذه الألفاظ الواردة في البيت (**الأول ، السابع ، الحادي عشر ، والرابع عشر**) بترتيب القصيدة ،كما وردت في الديوان ، وفي الصفحة المشار إليها في الهامش تدخل ضمن التجنيس المنفصل ،وهي [المديد]:[2]

لَمْ يَخُـنْ فِي الحُبِّ تِأْوِيلِي — هذه الحسناءُ تَـأْوي لِـي

....

لا مُبَـالاةٌ بِـــعاذِلَةٍ — حينَ تُفْضِـي لِي بِتَفْضِيلِي

....

هُـنَّ في شَكْوى الغَرامِ لِمَا — بِي خَلاَ خِيـمِ[3] الخَلاخيلِ

....

تِلْـوَ ما أَنْشَأْتُ أَنْشِـدُها — مَنْ بِهَا لِـي مِنْ بَهَالِـيل

وإنَّ تناوُلَ ابن الأبار لهذا اللون البديعي ، إنما استفاده من الشاعر " أبي الفتح البستي " الذي عُرف بهذه الموازنات .

إن الناظر إلى هذه الأمثلة الموازناتية ، التي غطت على أبيات على القصيدة باستثناء الأبيات الخمسة ، المشار إليها في الصنفين ،يقف على الطاقة اللغوية ، التي تمكّن الشاعر من رصدها ليعبّر عن إعجابه لممدوحه أبي زكريا الحفصي ، ووصفه إعانتَه للأندلس ضد النصارى .

وإن كان في هذه الألفاظ كبيرُ مبالغة ، وعظيم تكلّف ، إلاَّ أن ذلك كله لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يقدح في شاعرية ابن الأبار ، وتطويعه للفظة مهما كانت وردَ من أجل خدمة غرضه

---

(1) ينظر : ابن رشيق ، العمدة ، 1/ 328 .

(2) ابن الأبار ، الديوان ، ق 107 ، ص 232 ـ 233 .

(3) **خيم** : الخلق . (ينظر: ابن منظور ، اللسان ، 4/ 264) .

وحمل الصفات المعنوية ، التي أراد الشاعر أن يسبغها على "المُنجِد" لأهله ووطنهِ فازدانَ كلامه بالطلاوة في المعنى ، والحلاوة في اللفظ ، والرونق في تخيّر هذه الألفاظ ؛ ليجعل منها نسيجا محكما، وكل ذلك نتج عن براعة في الوصف ، وحسن تأتٍ لدلالات هذا اللفظ دون اللجوء إلى القافية ، التي جُعلتْ أساسا لإطراب الأسماع وإمالة الأنفس ، وانصياع العقول .

8 ـ التـقـسيـم :

لقد جعل العرب التقسيم الإيقاعي نوعا من المحسنات في داخل البيت نفسه.

ولم تكن نظرة النقاد إليه واحدة، فابن رشيق يقول: ((**اختلف الناس في التقسيم فبعضهم يرى أنه استقصاء الشاعر جميع أقسام ما ابتدأ به**)) [1]. ويورد في الصدد نفسه أمثلة من التقسيم الجيد وبعض أنواعه .

أما " أبو هلال العسكري " فيرى ((**التقسيم الصحيح أن تقسم الكلام قسمة مستوية تحتوي على جميع أنواعه ولا يخرج منها جنس من أجناسه**)) .[2]

و"لقدامة بن جعفر" رأي في ذلك، مشيرا إلى فساد التقسيم بقوله: ((**وذلك يكون إمّا بأن يكررها الشاعر، أو يأتي بقسمتين: أحدهما داخل تحت الآخر في الوقت الحاضر أو يجوز أن يدخل أحدهما تحت الآخر في المستأنف، أو أن يدع بعضها فلا يأتي به**))[3].

ومن أمثلة ذلك ، ما استطاع الشاعر ابن الأبار أن يجمع صفاتٍ سبعاً لممدوحه في بيت واحد ـ الثاني ـ [الطويل] : [4]

عُنيتَ بِما يُعْنَـى بهِ كُلُّ خاشِـعٍ　　　فَلِلَّهِ بَـرٌّ مِنـكَ للهِّ خـاشِعُ
صلاةٌ وصَوْمٌ واحْتسَابٌ وخَشْيَةٌ　　　وعدْلٌ وإحسانٌ لها الغزْوُ سابِعُ

وأنشأ الشاعر في مدح المستنصر الحفصي ، مقدما لذلك بأبيات من الغزل ، يصف فيها فتاته التي كانت عربية خالصة ؛ من " نجد" ، وكانت قد خرجت لقضاء مناسك الحج فسلبت بجمالها الفتّان عقول الحجاج ، الذين رأوها ، فقال [البسيط] :[5]

نَجْديةٌ أتْهَمَتْ تَقْضِي مَناسِكَها　　　فلمْ تَدَعْ يومَ طافَتْ لِلحجيجِ حِجَى

---

(1) ابن رشيق ، العمدة ، 2/ 20 .
(2) أبو هلال العسكري ، كتاب الصناعتين ، ص 375 .
(3) قدامة بن جعفر ، نقد الشعر ، ص 192 .
(4) ابن الأبار ، الديوان ، ق 168 ، ص 360 .
(5) نفسه ، ق 42 ، ص 103 .

وضَّاحةٌ بَلَجَا ، نفَّاحةٌ أرَجَـا حسّانةٌ فَلَجا ، فتّانـةٌ دَعَـــجَا

وقد لجأ الشاعر إلى القافية الداخلية (**بلجا** ، **أرجا** ، **فلجا** ، **دعجا**) ليخلق بهذه الألفاظ المقفاة نغمة موسيقية في كامل البيت ؛ للدلالة على جمال " النجدية " ؛ ذات الوجه الوضاح والعطر الفواح ، والأسنان الفلِجة والعينين الدّعِجة ، وتلك هي مواطن الحسن ،التي أغرم بها شعراء العرب . فبقراءتنا للبيت نقف على التعادل الصوتي والتوازن النغمي ، الذي أحدثته القافية الداخلية ، فصُيِّرت الأجزاء وألفاظها متناسبة الوضع ، متقاسمة النظم معتدلة الوزن وقد استطاع مع هذا الكم القليل من الكلمات أن يعبّر عن جمال المحبوبة في صفاتها الأربع المحببة لدى المرأة العربية بشكل عام .

ونظم ابن الأبار قصيدة يمدح فيها كذلك أبا زكريا الحفصي ، بمناسبة بيعة " سبتة " وبعض مدن الأندلس ، وكان ذلك سنة 640.هـ ، وقد سُمّيَ هذا العام " بعام الجماعة " ؛ لاجتماع الناس حوله وبيعته والانضواء تحت رايته ، فقال [البسيط] :[1]

لمْ يَخْلُ بالهندُوانياتِ مُـرْتَبِئاً إذاَ تخلَّت عن الأرواحِ أجسادُ[2]

زُهْـرٌ مَناقِبُهُ شُـمٌّ مَرَاتِـبُهُ لها على الشّهْبِ إيفاءٌ و إيفـادُ

فالشاعر في البيت الأول جمل المعنى ببيان ارتفاع مكانة ممدوحه بفضل سيفه ،وشجاعته وبسالته في ميدان المعارك ، فقويت شوكتُه ، وانضوى تحت رايته لذلك خلقٌ كثير. ثم جاء في البيت الثاني ليفصّل طبيعة هذه الرفعة ، مقسّما الشطر معنييْن متساويين ؛ (**زُهْـرٌ مَناقِبُهُ** ، **شُـمٌّ مَرَاتِبُهُ**) ، دالّيْن على ما ذهب إليه ، موفرا بذلك ، إلى جانب المعنى المقصود نغمةً متوازنة بفضل القافية ، التي اختارها في ذلك .

---

(1) السابق ، ق 62 ، ص 140 .

(2) **الهندُوانياتِ** : السيوف المهنّدة . (ينظر: ابن منظور ، اللسان ، 15/ 139) . **مُرْتَبِئاً** : ارتبأ أصلح وارتبا به : ارتفع ؛ والمراد أنه يستمر معلنا لشأن السلطان الحفصي ، و مهتما به .(ينظر:ابن منظور ، اللسان 5/ 90) .

9 ـ الــترصيع :

يمثل التشكيل الصوتي صدى للشعور القائم في النفس ؛يُبِينُ عنه ويجسّده ، وينْبئ عن صدق التجربة ، وحتى يكون ذلك أدخل إلى نفسية المتلقي ينبغي للجرس الموسيقي ، الذي سيحدثه هذا التشكيل أن يكون وقعُه ألذ ، ونوتتُه أعذب ، حتى يؤدي الغرض المطلوب منه لذلك كان الترصيع واحدا من هذه الأدوات ،التي تضمن المتعة وتعبر عن المعنى تعبيرا أدقّ بفضل التقفية الداخلية في البيت .

وعن هذا المصطلح الإيقاعي ، يقول ابن رشيق : ((**وإذا كان تقطيع الأجزاء مسجوعا أوشبيها بالمسجوع فذلك هو الترصيع عند قدامة ، وقد فضّله وأطنب في وصفه إطنابا عظيما..**)).[1]

و في ذات المصطلح ، يقول قدامة بن جعفر : ((**ومن نعوت الوزن الترصيعُ ، وهو أن يتوخّى فيه تصيير مقاطع الأجزاء في البيت على سجع أوشبيهٍ به أو من جنسٍ واحد في التصريف كما يوجد ذلك في أشعار كثير من القدماء المجيدين من الفحول وغيرهم وفي أشعار المحدثين المحسنين منهم ...**)) .[2]

أما ابن الأثير فيشبه ألفاظ فصليْ الكلام بجانبيْ العِقْد من اللآلئ المنثورة ، نافيا أن يكون مثل هذا النظم في القرآن الكريم ،عكس ما ذهب إليه البعضُ [3]، فيقول : ((**وهو مأخوذ من ترصيع العِقْد ، وذاك أن يكون في أحدِ جانبيْ العِقد من اللآلئ مِثْلُ ما في الجانبِ الآخرِ وكذلك نجعل هذا في الألفاظ المنثورة من الأسجاع ، وهو أن تكون كل لفظةٍ من ألفاظ الفصل الأول مُساويةً لكل لفظة من ألفاظ الفصل الثاني في الوزن والقافية ، وهذا لا يوجد في كتاب الله تعالى ، لِما هو عليه من زيادة التكلف .**)) .[4]

---

(1) ابن رشيق ، العمدة ، 2/ 26 .

(2) قدامة بن جعفر ، نقد الشعر ، ص 80 .

(3) ينظر : ابن الأثير ، المثل السائر ، 1/ 277 ـ 278 .

(4) نفسه ، 1/ 277 .

وتتبعا لهذا اللون الإيقاعي ، يقول ابن الأبار بمناسبة بيعة "سبتة" وبعض مدن الأندلس لأبي زكريا الحفصي ، وكان ذلك سنة 640. هـ ، وسمَّاهُ " عام الجماعة " ـ كما أسلفنا ـ ليبيِّن أصل الحفصيين الذين آووه ونصروه و أحسنوا وفادته [البسيط]:(1)

إنْ أمْلَكُوا أنْجَبُوا (أو) أُعْذِرُوا صَبَرُوا حلاَّهمُ السَّرْوُ آباءٌ وأجدادُ(2)

وأنشأ ابن الأبار قصيدة ؛ منها هذان البيتان عند التجائه إلى الحفصيين ببجاية في طريقه إلى تونس، وكان ذلك سنة 636.هـ يمدح زكريا أبا يحي ولي عهد أبي زكريا ، وأمير بجاية [الرمل]:(3)

ما رُسُوخُ الطَّوْدِ ؟ ما جَوْدُ الحَيَا؟ ما حُسَامُ الهِنْدِ ؟ ما ليثُ الشَّرَى؟
إنْ حَبَا في مجلِسٍ أوِ اجْـتَـبَـى أو يُـرَى في مَـأزِقٍ أوِ انْـبَـــرَى

ويقول [الكامل]: (4)

حسْبِي الأميرُ محمدٌ سَنَداً بِجلالِه يُسْتَدْفَعُ الجَـلَـلُ
بَدْرٌ سَنىً ، بحْرٌ نَدىً غَدَقًا رَوْضُ العُلَى خَضِرٌ بهِ خَضِلُ

ويقول بمناسبة ولاية العهد" محمد "، أواخر سنة 646.هـ [الطويل]:(5)

مُجِيبٌ إذاَ يُدْعَى ،مُجَابٌ إذاَ دَعَا كريمٌ إذا يُسمَى ، عظيمٌ إذا يُكنى
لَهُ العِلمُ سِيما والسُّموُّ علامـــةً فيُوتِيكَ مُفـتَرًّا ويُفـــتِيكَ مُفْتَنًّا

وقال مسترضيا أبا زكريا ، مستشفعا بوليّ العهد [الكامل]:(6)

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق 62 ، ص 142 .
(2) **أمْلَكوا أنجبُوا** : أي تزوجُوا ، و ولدُوا نُجَباءَ . **أعذروا** : أي ختنوه . **السَّرْو** : الشرف . (ينظر:ابن منظور اللسان ، 6/ 233) .
(3) ابن الأبار ، الديوان ، ق 85 ، ص187 .
(4) نفسه ، ق 110 ، ص 242 .
(5) نفسه ، ق 139 ، ص 298 .
(6) نفسه ، ق 164 ، ص 354 .

ضايقْتُ في العُذْرِ العُفاةَ وقُلتُ قدْ   يَمَّمْـتُمُ بَحرَ النَّدَى فَاسْتَوْسِعُوا
إنْ تَقْصُدُوا لا تُحْجَبُوا أو تَقْرَبُوا   لا تُبْعَدُوا أو تُسْأَلُوا لا تُمْنَـعُوا

ويقول مستصرخا أبا زكريا لإنقاذ الأندلس [الطويل]:(1)

لكَ الدِّينُ والدُّنيَا، لكَ المجدُ والعُلَى   تُعافِي مُنِيباً (أ) و تُعاقِبُ مُجرِما

وقال الشاعر يصف البستان المبارك [البسيط]:(2)

خُضْرٌ خَمائلُها زُرْقٌ جداوِلُها   فالحُسْنُ مُؤْتَلِفٌ فيها ومُختلِفُ

ويقول الشاعر في مناسبة عيد الفطر، بمناسبة العفو عنه، وكان ذلك سنة646هـ مشيدا بالخليفة [الوافر]:(3)

لاَ خَيْفَةٌ مَعَ سَيْفِهِ، لا ضِـــيقَةٌ   مَعَ سَيْبِهِ، وكَفَاكَ مِنْ عَلْياهُ
لِلشَّرْقِ والغربِ اسْتِبَاقٌ نحوَهُ   كُلٌّ قُبَيْلَ دُعائـهِ لَـبَّاهُ

وأنشأ ابن الأبار مادحا وليَّ العهدِ أبا لايحي وقد زارَ الحضرةَ [الوافر]:(4)

مُبَارَكُ مَوْلِدٍ مَـيْمُونُ سَـعْيٍ   مُـؤَيَّدُ عِزْمَةٍ مَعْـدُومُ سيٍّ (5)

كما لايمكن أن نتصفح سينيته المشهورة،دون أن ينبهنا بيتان منها، ورد فيها الترصيع المشوب بالجناس؛ليعطي صورة موسيقية أخّاذة للنفس، مائلة بأصواتها، مُميلة للآذان [البسيط]:(6)

في كُلِّ شارِقةٍ إلمــامُ بائــقةٍ   يَعُودُ مَأتمُها عنـــد العِـدَى عُرسا
وكُلِّ غارِبَةٍ، إجْحَافُ نائبَةٍ   تَثْنِي الأمَانَ حِذاراً والسُّرورَ أسى

---

(1) السابق، ق 122، ص 272.

(2) نفسه، ق 175، ص 376.

(3) نفسه، ق 191، ص 409.

(4) نفسه، ق 202، ص 426.

(5) **سيّ**: المثل.

(6) ابن الأبار، الديوان، ق 185، ص 395.

وصفوة القول ، إن هذه الظواهر الإيقاعية ،وفعاليتها ليست بسيطة أو عرَضية ،ولا هي نوافل يستطيع أي مبدع أن يسوقها في سياقها المخصص لها ، وإنما هي عملية فنية ، تحتاج إلى مهارة في التركيب ، ودراية بأصولها ، وحتى وإن كان مبالَغا في بعضها ، فليس ابن الأبار الشاعر الوحيد الذي أسرف في ذلك ، فقد سبقه إليها في العصر العباسي بخاصة شعراء نذكر منهم " أبا مسلم ابن الوليد " ،و" بشارا "و " أبا تمام " ، وغيرهم كثير .

ومهما يكن الأمر فإن هذه الظواهر الإيقاعية ؛ من جناس ،وتقسيم وتصريع وترصيع وغيرها تعتبر كلها أركانا هامة تسهم بشكل أو بآخر في بناء العمل الفني ، بوصفه كلا متكاملا ، ولا غرو أن لوظيفتها الإيقاعية شأنا كبيرًا ؛ إذ تُعد من أبرز خصائصها الفنية كونها تقوم في مجملها على التشابه والاختلاف ،والتقابل ،والتوازي ،والتوازن والتشابه وغير ذلك من العلاقات ، التي تربط ما بين الألفاظ وما بين التراكيب .

خاتمة

خاتمـــة

أما وقد خلصنا إلى نهاية البحث ، فهذه أهم النتائج ، التي تم التوصل إليها بحمد الله وفضله :

تمثل أغراض المدح والاستنجاد والاستعطاف الحظَّ الأوفر في ديوان الشاعر ابن الأبار قياسا بالأغراض الأخرى ؛ لأنها غطت قُرابة ثلثي المدونة ، بنسبة تقارب 65 ٪ من مجموع شعره .

- وظف الشاعر ابن الأبار نعوتا لمدوحِيه ، جريًا على عادة العرب من مثل : الأسد السيف الشمس ، القمر ، البدر، الغيث ، ... وجعلهم يتصفون في أخلاقهم بالسخاء والشجاعة والحِلْم والحَزم ، والعزم ، والوفاء ، والعفة والبِرّ والعقل والأمانة ... ، وما يتفرعُ عنها من النعوت التي كان الشاعر يُفضِّل إسباغَها على مَنْ يمدحهم .
- قلة شعر المدح في الأندلس ؛ لأن ابن الأبار كان مقبلا على العلم في مرحاته الأولى وكاتبا في ديوان الحاكمين أبي زيد وأبي جميل في مرحلته الثانية .أما في تونس فقد كان غزيرا ؛ لأنه بأمس الحاجة إلى ذلك حتى يضمن حياة هنيئة ومكانة مرموقة بين الحفصيين .
- للشاعر قصيدتان مشهورتان في غرض الاستصراخ هما (السينية والهمزية) ، تشتركان في: صدق العاطفة ، و طول النَّفَس ؛ إذ بلغت " **السينية** "سبعةً وستين بيتا ، بينما بلغت"**الهمزية**" تسعين بيتا ، وفي تشابه الأفكار ، ووحدة الغرض وفي المناسبة ، وغيرها من مواطن الشبه .
- كان ابن الأبار يذود عن سياسة الحفصيين ؛ لأنهم آووه وأكرموه مع باقي الأندلسيين الوافدين وكان أفضل المرحب بهم ، لا سيما بعدما ألقى سينيته التي دُهشجميع الناس عامتُهم وخاصتهم .
- إغراق الشاعر في المبالغات ، حينما يمدح الحفصيين ؛ فيجعل أحدهم كعبة ، يطاف حوله والآخر ملائكة نورانية ، لا يُخطئون ...

- لم يمنع ابنَ الأبار بَأْوُه وكبره ـ كما عُرف عنه ـ من التذلل والاستعطاف لأجل البقاء قريبا من الملوك والحكام مهما قسَوْا عليه .
- كانت عناية الشاعر بالدولاب الذي يستعمل لجلب المياه للحمامات والدور والمساجد ووصف البساتين والحدائق كبيرة .كما كان اهتمامه بوصف السفن والمراكب والأساطيل التي غَدَت وسيلتَه في الرحلة إلى ممدوحه ؛ طلبا للعون والمدد لوطنِه قليلا .
- تنوعت أغراض الشاعر ، وتعددت مناسباتها ،وتباين حجمها ، تبعا لطول النفَس في قصائد معينة كمرثية شيخه أبي الربيع الكلاعي و في السينية والهمزية ، وقِصَره في قصائد أخرى وردت في شكل مقطوعات ونتف ، حملت ـ فيما حملتْ ـ نزواتٍ عابرةً وأحاسيس ظرفية انْتابتْه في لحظات من حياته ، نظَمَ معظمَها في تونس .
- لم يكن الشاعر ابن الأبار هجّاءً ، على الرغم مما تعرض إليه من دسائس الحاسدين ومكر الماكرين في السر والعلن ، ومضايقة أولي الأمر .
- استهلال الشاعر قصائده المطولة بمطالع غزلية ، تنتسب إلى معجم التراث العربي القديم وكان لها الحظ الأوفر ، مقارنة بباقي المقدمات .
- كانت معشوقته (الحقيقية أو المتخيلة) بدوية ، عربية ، ذات نسب وشرف أصل ولم تكن في كل أشعاره جارية ، وهذا ما يتناسب مع بَأْوه وطبعه وأنفته .
- قلة المطالع غير الغزلية ؛ من مثل مطالع الوصف والشكوى ، والحكمة ، وغيرها .
- لم يفتتح ابن الأبار قصائده بالوقوف على الأطلال ، وإنما استبدل ذلك بموضوعات أخرى مناسبة نوعا ما لبيئته وعصره . أما المقدمة الغزلية عنده فقد سارت وفق ما رسمها ابن قتيبة للشعراء .
- تنوع مقدمات قصائد الشاعر بين الطول والقصر ، كما أنها جمعت ـ قبل الخلوص إلى غرض الشكوى من الدهر والأيام وكذا وصف الطبيعة.
- يفتتح الشاعر بعض قصائده بالتغني بالحروب ، فيوظف ألفاظا دالة على آلة الحرب ولعل مردّ ذلك إلى شوق ابن الأبار إلى القضاء على العدوّ ليعود إلى وطنه .

- الثورة على المقدمة الطللية المعهودة في القصيدة القديمة وكذلك المقدمة الخمرية .
- للشاعر قصائد بسيطة (غير مركّبة) متنوعة ، و في أغراض مختلفة ، فرضتها ظروف متعددة يأتي في مقدمتها الهمزية والسينية ، ومقطوعات ونتف ، وأبيات يتيمة ، أطلقها على البديهة ، أو ردًّا على أمْرٍ مُهمّ .
- كان الشاعر حافظا للقرآن الكريم ، ولعدد غير قليل من الأحاديث الشريفة واسع الاطلاع على شعر الأقدمين .
- لم يكن ابن الأبار يُعنَى بشعر فترة معينة فحسب ، وإنما كان ملما بشعر مَن سبقوه ، منذ الجاهلية ، متمثلا كل ذلك في وعي كبير لتجارب الشعراء السابقين الفردية والجماعية .
- تعبّر المعارضات الشعرية لدى ابن الأبار على ثقافته الواسعة .
- لقد استغل الشاعر ثقافته التاريخية من خلال استيحائه للوقائع المشهورة ومحاولة ربطها بواقع وطنه المتأزم .
- استدعاء الشخصيات التاريخية (العربية وغير العربية) ضربًا للمثل ، وأخذًا للعبرة وتعزيزا للمعنى وتقويته في إطار التواصل بين الأجيال .
- اعتماد الأمثال السائرة باع تباره مصدرا تراثيا ثريا ، يغرف منه بما يتماشى وتجربته الشعرية إغناءً للمعنى و إعطاءً لكلماته القوة التعبيرية الممكنة .
- تراوحت صور الشاعر ابن الأبار بين : المباشرة ، والبيانية ، والنفسية ، والرمزية والحركية ، أسهمت كلها في بلورة أفكار الشاعر وأحاسيسه ، عبر أغراض متنوعة من مديح ووصف وغزل وزهد ورثاء ، وغيرها .
- نظَمَ الشاعر على جميع الحروف الهجائية العربية ؛ كثيرة الشيوع ومتوسطها وقليلة الشيوع عدا (الخاء والزاي والظاء) وهي نادرة الشيوع . كما وقّع أشعاره على القافية المطلقة بنسبة أكثر من 96 بالمائة ،على حساب القافية المقيّدة

- يلاحظ أن معظم شعره المقيد قد ورد على شكل مقطوعات ، أنشأها الشاعر على الحروف التي نظم عليها شعراء العرب ؛ مثل (الباب والدال واللام والميم والنون) .
- الاعتماد على التلوين الإيقاعي ، الذي أكسب النص الشعري (أو النصوص) جرسا موسيقيا ممتعا .
- نسج الشاعر أبياته على الأوزان الصافية والمركّبة .
- إن الظواهر الإيقاعية ؛ من جناس ،وتقسيم وتصريع وترصيع وغيرها تعتبر كلها أركانا هامة أسهمت بشكل أو بآخر في بناء العمل الفني في شعر الشاعر ابن الأبار ، وإن كان قد بالغ في بعضها ، إلا أن ذلك لا يعتبر أمارة ضعف أو تكلف في كل الأحوال ، وإنما يعد دليل القدرة ـ أيضا ـ وحسن التصرف .

ملحق

1 ـ سيرة الشاعر ابن الأبار

2 ـ ديوان الشاعــــر

أ ـ مولده ونشأته :

هو أبو عبد الله محمد[1] بن أبي بكر بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أحمد بن أبي بكر القضـاعي[2] المعروف بابن الأبار ، من قبيلة قضاعة اليمنيـة ، التـي سـكنت أنـدة (Onda) إحـدى ضـواحي بلنسية (Valencia) . وبها ولد سنة 595.هـ / 1199.م ، وتوفي في شهر المحـرم سـنة (658.هــ / 1260.م).

واشـــتهر بلقـــب ((ابـــن الأبـــار)) ، وفي ذلـــك يـــذهب إبـــراهيم الأبيـــاري محقـــق ((المقتضب من كتاب تحفة القادم)) إلى أن الرجـل ((**كـان خبيـث اللسـان إذا هجـا لا يعـرض لخصمه في وضح النهـار، ولكـن يـدب لـه الضـراء ويمشـي الخَمَـر، أشبه شـيء بالفـأر إيـذاءً واستخفاءً...**)).[3]

---

(1) ينظر : ترجمته في : الصفدي ، الوافي بالوفيات ،3/ 355ـ356 . محمد بن شاكر الكتبي ، فوات الوفيات تح: محمد محي الدين عبد الحميد ،ج2 ، دار الثقافة،بيروت ، 1974 ، 3/ 4404 ـ 407.
ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، 6/ 652 ـ655. المقري ، نفح الطيب ، 2 / 589 ـ 594
الغبريني احمد ، عنوان الدراية ، تح رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر، 1970 . 309 ـ 313. محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين والموحدين ، 2/ 705.
ابن القنفذ القسنطيني ، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ، تح محمد الشاذلي وعبد المجيد التركي الدار التونسية للنشر تونس ، 1968 ، ص 126 ـ 127 . الزركشي ، تاريخ الدولتين الحفصية والموحدية ، تح محمد ماضور المكتبة العتيقة ، تونس 1966 ، ص 28 ـ 35 ـ 36 .
جرجي زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية مطبعة الهلال ، مصر ،1913 3/ 77 ـ 78 .
أحمد أمين ، ظهر الإسلام ، 3/ 279 ـ 280 .

(2) القضاعي : نسبة إلى بني قضاعة ، قيل من حميرمن القحطانية ،وقيل من عدنان؛ فمَن قال من حمير بن الكلبي وابن اسحاق وغيرهما ، فقالوا:قضاعة بن مالك بن عمرو بن مرّة بن زيد بن مالك من حمير.ومَن قال مِن عدنان ذكروا أنه قضاعة بن معد بن عدنان ، قال ابن عبد البر وعليه أكثر .
ابن حزم،جمهرة أنساب العرب (تح عبد السلام هارون،دار المعارف،القاهرة،ط3 ، 1971) ص440ـ460.والقلقشندي، نهاية الأرب ، تح علي الخاقاني،بغداد،1958،ص 366.

(3) إبراهيم الأبياري ، المقتضب من كتاب تحفة القادم ، دار الكتب الإسلامية ، القاهرة ـ بيروت ، ط2 1982 ص14.

وبسبب هذه الصفات هجاه أبو الحسن علي بن شلبون المعافري البلنسي بقوله [الكامل]: [1]

لاَ تَعْجَبُوا لِمَضَرَّةٍ نَالَتْ جَميـ ـعَ النَّاسِ صَادِرَةٍ عنِ الأَبَّـارِ
أَوَلَيْسَ فَأْرًا خِلْقَةً وخَلِيقَـةً والفَأْرُ مَجْبُولٌ علىَ الإِضْـرَارِ

فأجابه ابن الأبار [الكامل]: [2]

قُلْ لِابْنِ شَلْبُونَ مَقَالَ تَنَـزُّهٍ غَيْرِي يُجَارِيكَ الهِجَاءَ فَجَـارِ
(إِنَّا اقْتَسَمْنَا خُطَّتَيْنَا بَيْنَنَـا فَحملْتُ بَرَّةَ وَاحْتَمَلْتَ فَـجَارِ)

غير أن محقق الديوان " عبد السلام الهراس " ينفي هذا الزعم القائل برد الاسم إلى هذه الصفات التي ذكرها ابن شلبون .

عاش ابن الأبار ثلاثا وستين سنة في بيت علم ودين ، ومركز اجتماعي مرموق في بلنسية إذ كان والده من علماء هذه البلدة ووُجهائها ، ومنه استقى مادته الخام في شتى العلوم ومختلف المعارف إلى جانب اختلاطه بمعارف أبيه الذين كانوا من المشايخ ، وأهل التقى ؛ نذكر منهم على سبيل المثال : محمد بن خلف بن مرزوق بن أبي الأحوص ، أبا عبد الله بن نسع (509 هـ ـ 599 هـ) ومحمد بن أيوب بن نوح الغانقي (530 ـ 608 هـ)وأحمد بن علي بن يحي بن عون الله الأنصاري (530 ـ 609 هـ) ، وعتيق بن علي بن خلف بن أحمد ابن عمر الأموي أبو بكر بن قنترال (526هـ ـ 612 هـ)و الحسين بن يوسف بن أحمد الأنصاري المعروف بابن زلاّل أبو علي الضرير(ـ 613هـ) وعبد الله ابن أحمد بن محمد المعروف بالسبطير(ـ 601هـ) وآخرين ، كلهم من وجهاء القوم وأعيان البلاد .

وكان ابن الأبار قد وصف أباه بأجلّ الصفات قائلا :((**وكان رحمه الله ـ ولا أزكّيه ـ مقبلا على ما يعنيه ، شديد الانقباض ، بعيدا عن التصنع ، حريصا على التخلص مقدّما في حَمَلة القرآن كثير التلاوة له والتهجد به ، صاحبَ وردٍ ، لا يكاد يهمله ذاكرا للقراءات ، مشاركا في حفظ المسائل**

(1) ابن الأبار ، الديوان ، قراءة وتعليق عبد السلام الهراس ، الدار التونسية للنشر، ط2 ، 1986 ص445.

(2) نفسه، (الملحق الأول) ، ق 13 ، ص 445.

آخذا فيما يستحسن من الآداب معدلا عند الحكام ...)) .[1]

و إلى آفاق رحبة رافق الابن أباه ، وكُلُّه ثقة بأنه بالغ هدفَه ، مادامت سبل العلم ميسّرة وطرق التعلم متاحة ؛لأنه سيكون في أمان بصحبة الأب الرحيم والسند العظيم إلى حلقات الدرس ومجالس العلماء . فتوسم فيه كلُّ مَنْ رآه علاماتِ النباهة وأمارات النبوغ ، الأمر الذي جعل أحد رجالات العلم وهو القاضي أبو بكر بن أبي جمرة (518هـ - 599هـ) يجيزه مرتين ، وهو ابن عامين ، وفي ذلك شيئ من التشريف ، يُختص به - عادةً - أولاد السادة والعلماء . وهذه شهادة في حد ذاتها تضاف إلى الأب - استنهاضا لهممهم وإذكاءً لعزائمهم حتى لا تخور ، بخاصة وأنهم في مقتبل العمر .

جلس الابن إلى جانب أبيه ، يتلو عليه القرآن بقراءة نافع ويسمع منه الأخبار والأشعار.[2]

وكان ابن الأبار - إلى جانب ذلك - معروفا بالجد وسرعة التحصيل ، والمثابرة ((**وأوتي من الذكاء وبُعدَ الفهم وقوةَ الذاكرة وبلاغةَ اللسان ما كان كفيلا بأن يُهَيِّئَ له حياةً سعيدةً أو مستقرة على أقلِّ تقدير**)).[3]

ولقد أرجع عبد السلام الهراس هذه الرعاية من قبل الأب إلى كون الابن كان - فيما يبدو - وحيدَ أبيه .

كما يذكر المؤرخون أن " محمدا " لم يكن محل رعاية الوالد فحسب ، وإنما هناك شيخ عصره وأستاذه الذي كان ذا أثر كبير على حياة ابن الأبار ، والمسمى بأبي الربيع سليمان بن موسى بن سالم ابن حسان الحميدي الكلاعي(565هـ-624هـ/ 1169- 1227م) الذي كان محل إعجاب من طرف التلميذ ، الذي كان من واجبه أن يستطرد في التعريف بشيخه وأستاذه فيقول :((**...وعُني**

---

(1) عبد المالك الأنصاري الأوسي المراكشي ، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة تح: محمد بنشريفة و إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، دط، دت - 4/ 179 .

(2) ينظر :ابن الأبار، التكملة ، تح : حسن العطار الحسيني ، مكتبة الثقافة الإسلامية ، القاهرة 1956، 2 / 889.

(3) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، تح حسين مؤنس ، دار المعارف ، القاهرة ، ط2 ، 1985 ، 1/ 7.

أتم عناية بالتقليد والرواية ، وكان إماما في صناعة الحديث بصيرا به حافظا ، حافلا، عارفا بالجرح والتعديل ...يتقدم أهل زمانه في ذلك ،..وهو آخر الحفاظ والبلغاء المترسلين بالأندلس))[1] .

ولم يكتف التلميذ بذكر صفات أستاذه ، وأخلاقه ، ولكن تعداها إلى مؤلفاته المتعددة ومواهبه المتنوعة ، بيانا لمكانته عنده بخاصة بعد وفاة أبيه ولدى غيره من المتعلمين .

ولما استشهد أبو الربيع سليمان الكلاعي في وقعة (أنيشة) ، رثاه ابن الأبار بقصيدة مطولة[2] بلغت بيتا ومئة بيت ؛ جعل منها خمسين بيتا في بكاء شهداء أنيشة وواحدا وخمسين أخرى أرسلها زفراتٍ حارةً إلى روح فقيد العلم والأدب الذي بِمَوتِه خَبا الكوكب الوقّاد فيقول في المطلع [الطويل]:[3]

أَلِمَّا بِأَشْلاَءِ العُلَىَ والمَكارِمِ تُقَدُّ بأَطْرَافِ القنَا والصَّوارِمِ

كما تطرق الشاعر في القصيدة إلى ذكر مكان وزمان هذه المعركة التاريخية قائلا [الطويل] :[4]

سَقىَ اللهُ أَشْلاَءً بِسَفْحِ أَنِيشَةٍ سَوَافِحَ تُزْجِيهَا ثِقَالُ الغَمَائِمِ
أَضَاعَهُمْ يَوْمَ الخَمِيسِ حِفَاظُهُمْ وَكَرُّهُمْ في المَأزَقِ المُتلاَحِمِ

وإلى جانب شيخه المبجل أبي الربيع سليمان الكلاعي ، نذكر من شيوخه الذين تتلمذ على أيديهم : أبا عبد الله بنَ محمد بن عبد العزيز بن سعادة (ـ 614.هـ) ، داود بن سليمان بن داود بن عبد الرحمن بن سليمان بن عمر بن خلف بن عبد الله الرؤوف بن حوط الله الأنصاري الحارثي(621.هـ) ، محمد بن إبراهيم بن مسلم البكري (627.هـ) ، ومحمد بن محمد بن عبد الله ابن محمد بن أبي زاهر المكتب (633.هـ).

(1) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، ص 17.
(2) ينظر : ابن الأبار، الديوان ، ص 275...284.
(3) نفسه، ق 124 ، ص 275 .
(4) نفسه ، ق 124 ، ص 277 .

ب ـ مراحل حياته :

- في الأندلس :

وُجد ابن الأبار في بيئة أندلسية، ذات طبيعة خلابة ، عاش في أحضانها طفولته التي تميزت بالاستقرار والهدوء ، وبخاصة بعد الخروج من موقعة الأرك*(Alarkos) التي دارت رحاها في شعبان من سنة 591هـ/ 1195م بين الموحدين والأذفونش (Alphons)الثامن أين عاد الانتصار للمسلمين ، ومُني العدو بشرّ هزيمة **((وكانت الدائرة على الأذفنش ـ لعنه الله ـ وأصحابه ولم ينج إلا هو في نحو من ثلاثين من وجوه قواده ، واستشهد من المسلمين جماعة من أعيان الموحدين وغيرهم))** .[1]

استمر الطفل في طلب العلم ، وشارك أباه في الرواية ، ولازم شيخه الأكبر أبا الربيع سليمان الكلاعي أزيد من عشرين عاما ؛ أي منذ ما يقارب خمس عشرة سنة من عمره فازداد علما وثقافة وقد ساعده في ذلك وسهّل الطريق إليه رحلاتُه المتعددة داخل الأندلس ـ أول الأمر ـ لطلب العلم ولدواع سياسية شغلت باله بعد ذلك **((ولم يقتصر في الأخذ عن شيوخ بلنسية وشرقي الأندلس ، بل نراه يقوم برحلة علمية عبر بعض المدن الأندلسية للدراسة والأخذ ، وذلك أثناء حياة والده))** .[2]

ومن المدن التي زارها ابن الأبار (إشبيلية) بصحبة السيد أبي عبد الله بن أبي حفص مارًّا بـ (مرسية) وسمع بها في شهر رمضان من سنة 616.هـ .

كما تمكن من التجول في أنحاء شتى من الأندلس، إلى أن بلغه نبأ وفاة والده ، وهو في بطليوس وكان ذلك في ربيع الأول من عام 619.هـ/ 1222م ، فأقفل راجعا إلى بلنسية وهو الذي أرخ عن أبيه هذه المناسبة **((توفي ببلنسية ـ وأنا حينئذ بثغر بطليوس ـ عند الظهر من يوم الثلاثاء لخمس خلون من شهر ربيع الأول سنة تسع عشرة وستمائة ، ودفن لصلاة العصر من يوم الأربعاء**

---

(1) عبد الواحد علي المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ، ط1 ،1998 ، ص 201.

(2) ابن الأبار ، الديوان (مقدمة التحقيق) ، ص 9.

بعده بمقربة باب بيطالة ، وحضر غسلَه أبو الحسن بن واجب وجماعة معه ، وكانت جنازته مشهودة والثناء عليه جميلا)).[1]

وخلَف الابن أباه لدى أبي الربيع الكلاعي، الذي أعجب به أيما إعجاب ، ودفعه إلى تأليف الكتب . كما ألحقه كاتبا بدار حاكم بلنسية ، وكتب للسيد أبي زيد عبد الرحمن بن أبي عبد الله أبي حفص وكان ذلك سنة 620.هـ / 1223م ، و في هذه الفترة نظَم أبياتا يمدح بها السيد أبا زيد عند انقياد أهل (بيران) لابنه السيد أبي يحي أبي بكر سنة 622.هـ [البسيط][2] :

للهِّ قلعةُ بـــيرانٍ وعزَّتِها ... على الأعاصيرِ في ماضي الأعاصير
عنَتْ ودانَتْ على حكمِ المنى فَرَقًا ... من سيّدٍ قد هوَتْ من أرفعِ السورِ

....

إلى أن يقول [البسيط] [3] :

ولوْ أصَرَّتْ على الإعراضِ ثانيةً ... لأصبَحَتْ بين تخريبٍ وتدمير
فَجُدْتَ جودَكَ بالنُّعْمَى بنا سألتْ ... من الأمَانِ لها طَلْقُ الأساريرِ

إلا أن أبا زيد لم يصمد طويلا أمام حملات المعتدين على بلنسية في هذه الفترة فاضطر إلى دخول دار الحرب ومعه ابن الأبار ، فارتفعت الألسن بحملتها عالية بسبب الخروج إلى أرض الروم ، فحاول ابن الأبار تبرير فعلته، دافعا عن نفسه جريمة الخيانة في أبيات يقول فيها [البسيط] :[4]

قالُوا: الخروجُ لأرضِ الرومِ مَنْقصَةٌ ... فقلْتُ:كلاَّ ولكنْ صادُهَا باءُ
إذا خرجْتُ وفاءً ثم عُدْتُ تـــقًى ... أثْنَتْ بِفعْلِي عُدَاتي والأحِبَّاءُ

---

(1) ابن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة ، دار الثقافة، بيروت لبنان ، تحقيق :محمد بنشريفة وإحسان عباس دط ، دت ، ص 180 .

(2) ابن الأبار ، الديوان ، ق8 ، ص 442 .

(3) نفسه ، ق 8 ، ص 442

(4) نفسه ، ق 8 ، ص 55.

وكنَ لي في قُريشٍ أسوةٌ وكــفَى   مع النجاشيّ ترضاها الألبّاءُ

كما يؤكد أن لجوءه مع سيده إلى بلاد الروم ـ الـذي كـان طاعـة ووفـاءً ـ لم يشـعر فيـه بالراحـة والأمان اللذين يتصورهما الناس ؛ فالصبر نفد ، والسلم ولَّى ، فها هو يقول [البسيط]: (1)

الحمدُ لله لا أهــلٌ ولا ولـد   ولا قرارٌ ولاصبرٌ ولا جـلَد

كان الزمان لنا سلمًا إلى أمَـدٍ   فعادَ حرباً لنا لمّا انقضى الأمـدُ

وزاد الحنين في نفس الشاعر ، وبدأ يشعر بغربـة جسـدية وروحيـة ، أثقلـت كاهلـه وبـات لا يتحمل هذا السجن القسري الذي لا يطيق تحمل آلامه أحدٌ ، وكان ذلـك بسـبب الوفـاء لخادمـه الذي اضطره إلى الخروج معه، وهو غير راغب [الكامل]: (2)

لو أن ثهلاناً تحَمَّلَ بعضَ ما   حُمِّلْتُهُ خَرَّتْ ذُرَى ثهلان

فقرّر المغادرة ـ غيرَ آسفٍ ـ لمملكة الكفر ، والانتقال إلى أرض الإسـلام، ولم يتجـه إلى بلنسـية موطنِه مباشرة ، وإنما إلى شاطبة(Jativa) حيث صديقُه القديم أبو الحسين يحي الخزرجي الـذي كان يحكم المدينة باسم ابن هود ، ومدحه بقصيدتين(3) .

وكان الشاعر قد تعرض ـ وهو في طريقه إلى شاطبة ـ إلى السـلب والنهـب مـن طـرف عصـابة كانت قد أحكمت قبضتها في تلك المناطــق ، فأضافت إلى نفس ابـن الأبـار حسرـاتٍ وأحزانـًا فوق أحزان ، فأنشأ يقول بين يدي مضيّفه [الكامل]: (4)

لاقىَ بيَ الجَدُّ العَثورُ عِصَـابةً   ذهبَتْ بمالِي كيْ يَسُوءَ مآلي

فاسْتَأْنَفَتْ نفسي بحُكْمِ شقائِها   خَوْضًا لأهوالٍ على أهوالِ

---

(1) السابق ، ق49 ، ص 118.

(2) نفسه ، ق 158 ، ص 327.

(3) ينظر : ابن الأبار ، الديوان ، ق 152 ، ص 324 ـ 325.

(4) نفسه ، ق113 ، ص 250.

وبعد وفاة صديقه الخزرجي ـ الذي آواه فترةً ـ في شعبان من سنة 634.هـ/ 1237.م ترك ابن الأبار شاطبة متوجها إلى بلنسية ؛ مرتعِ الصبا ، ليجد أبا جميل زيان بن مردنيش قد أخذ البيعة لنفسه ، فيصير العائد كاتبا عنده مع أبي المطرف بن عميرة ، ومدافعا عن سياسة الحاكم تحت قبة بني العباس فيقول بين يديه راجيا العفوَ ومقدما العذرَ [الطويل] :[1]

أميرَ العُلَى أرجُو ومِثْلُكَ سامح   أميرَ العُلى أَدْعوُ ومِثْلُكَ سامع

وفي الحقيقة لم يكن أبو جميل ينوي الفتك به ، ولا الانتقام منه ، بل العكس في كل ذلك تماما إذ ((**استقبله أبو جميل زيان بن مردنيش استقبالا حسنا ، إذ لم يتنكر لصداقته وعشرته القديمة في بلاط الحاكم الموحدي، حيث كانا يعملان جنبا إلى جنب في خدمته**)).[2]

- **ابن الأبار وسقوط بلنسية:**

لم يكن خايمة الأول (Jaime 1) مِلِك أرغون الذي استولى على ميورقة، وهزم المسلمين شر هزيمة في موقعة (أنيشة) ينام عن تحقيق حلمه الأسمى الذي طالما راوده ؛ وهو الاستيلاء على عاصمة شرقي الأندلس " بلنسية " ، خاصة وأن مدنا كثيرة كانت تمثل حصونا ودروعا واقية لهذه المدينة العظيمة والمنشودة، قد أصبحت تعج بالسكان الوافدين والفارين إليها .

فبدأ بحصارها في 5 رمضان635هـ/ 21 أفريل1138م ،ودارت إثر ذلك معاركُ بين الطرفين أبدى فيها البلنسيون استبسالا في القتال كبيرا ، إلا أن العدو كان أكثر قوة واستعدادا ، متيقنا في ذلك أن الذين يواجههم اليوم أضعف بكثير من أولئك الذين قاتلهم وانتصر عليهم في أنيشة لأن هذه المعركة لا تزال تلقي بظلالها على نفوسهم المنهارة فأضعفت هزيمتهم ، وأثّرت في معنوياتهم . يضاف إلى ذلك قوة العدو التي تزايدت بفضل الإمدادات المختلفة من حلفائهم ، في مقابل ضعف البلنسيين ، بعدما بلغ التفتيت الداخلي والخارجي في الشرق الأندلسي برمته مبلغا

(1) السابق ، ق 168 ، ص 361.

(2) نفسه ، ص 10 ـ 11.

عظيما ، بسبب الحروب الأهلية المتواصلة والجزية الباهظة المفروضة عنوة على الأهالي والمدفوعة إلى خايمة وفرداناند.

كما أنزل العدو قواته تخريبا لِمَا تفنّن البلنسيون في إنشائه من عمران في الدور والقصورمدة من الزمن ، وبسط في الحدائق والرياض ، تسر الناظرين ، فمحَوا محاسنها ، بعدما عاثوا فيها فسادا يقول ابن الأبار [البسيط] : (1)

وأربعًا نَمْنَمَتْ يُمْنَى الربيعِ لهَا ... ما شِئْتَ مِنْ خِلَعٍ مَوْشِيَّةٍ وكُسَى
كانتْ حدائقَ للأحداقِ مُؤْنِقَةٍ ... فَصَوَّحَ النَّضْرُ مِنْ أدواحِها وعسَا
سُرْعانَ ما عاثَ جيشُ الكُفْرِواحَرَبا ... عيْثَ الدَّبَى في مغانيهَا التي كسبَا
وابْتَزَّ بَزَّتَهَا مما تَحَيَّفَهَا ... تَحَيُّفَ الأسَدِ الضَّاري لِما افْتَرَسَا

لقد صوّر ابن الأبار بعد ذلك ما حلّ ببلنسية موطن صباه تصويرا مفجعا في سينيته المشهورة التي يبدؤها بـ [البسيط]: (2)

أَدْرِكْ بِخَيْلِكَ خَيْلِ اللهِ أَنْدَلُسا ... إِنَّ السَّبيلَ إلى مَنْجاتِهَا دَرَسَا

ولكنه لم يذكر أنه حضر الموقعةَ ؛ لأنه كان ـ فيما يذكر المؤرخون ـ لا يزال على قضاء (دانية) إلا أنه رثى أستاذه وشيخه أبا الربيع الكلاعي الذي استشهد في المعركة بقصيدة بلغت بيتا ومئةً وهذا مطلعها [الطويل]: (3)

أَلَمّا بِأَشْلاءِ العُلى والمكارِمِ ... تُقَدُّ بأطرافِ القَنَا والصَّوَارِمِ

وكان الحصار على بلنسية شديدا ، ومسؤولية الحاكم زيان بن مردنيش تتزايد وتقتضي منه فعل شيئ ما ، يُنقذ الأهالي ، الذين طالَ معظمَهم الأسرُ ، في وقت قلّتْ فيه المؤنُ ونفد الصبرُ بعدما

(1) السابق ، 185، ص 396.
(2) نفسه ، 185 ، ص 395 .
(3) نفسه ، ق 124 ، ص 275.

صار الكل تحت رحمة الطاغية ((**ومع اشتداد الحصار أخذ زيان يرسل الرسل والوفود إلى الممالك المجاورة لاستنهاض الهمم واستمداد العون ...))**.[1]

وحاول الحاكم محاولاتٍ عدةً لفك الحصار ودفع ظلم العدو ، لكنه فشل في كل خطواته ولم يبق أمامه سوى الاستنجادِ بالدولة الحفصية الفتية ، بعد أن خبَا كل أمل في دولة الموحدين بمراكش ، يقول ابن خلدون ((**وكان بنو عبد المؤمن بمراكش قد فشل ريحهم وظهر أمر بني أبي حفص بإفريقية فأمل ابن مردنيش وأهل شرق الأندلس الأمير أبي زكريا للكرة وبعثوا إليه بيعتهم وأوفد عليه ابن مردنيش كاتبه الفقيه أبا عبد الله ابن الأبار صريخا فوفد وأدى بيعتهم في يوم مشهود بالحضرة وأنشد في ذلك المحفل قصيدته على رويّ السين يستصرخه فيها للمسلمين ...))**.[2]

ألقى الشاعر بين يدي أبي زكريا الحفصي قصيدته السينية التي سجلها التاريخ لروعتها مبنىً ومعنىً ، بالإضافة إلى المناسبة التي قيلت فيها ((**وكان أهم وتر عزف عليه ابن الأبار لحنَ الاستغاثةِ الوترَ الدينيَّ ، فهو على يقين أن الدولة الحفصية الفتية تتوق إلى أن تحل محل الدولة الموحدية المحتضرة في دورها الدفاعي عن الإسلام والمسلمين))**.[3]

كان لهذه القصيدة الاستصراخية صداها الكبيرُ على مستويين ؛ على مستوى الحضور من الشعراء الذين طربوا لها أيما طرب ((**فهزّتْ هذه القصيدة من الملِك عطفَ ارتياح وحرّكت من جناحه أخفض جناح، ولشغفه بها وحُسْن موقعها أمر شعراءَ حضرته بمجاوبتها))**.[4]

فتسارع الحفَظة لحفظها ، والشعراء لمعارضتها ومجاوبتها ، فأصاب مَنْ أصاب وأخطأ الطريق مَنْ أخطأَ.

---

(1) ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، 2/ 651.

(2) ابن خلدون ، كتاب العبر وتاريخ المبتدإ والخبر ،دار الكتاب اللبناني، بيروت،1960، 6/ 601.

(3) جمعة شيخة، مجلة دراسات أندلسية ، العدد الثاني ،1989،مطبعة المغاربية للطباعة والنشر و الإشهار ، تونس ، ص 45.

(4) المقري ، نفح الطيب ، 4/ 460.

أما على مستوى المِلِك ـ وهو المقصود والمنشـود ـ إلى جانـب إعجابـه بالقصـيدة ؛ لأن الشـاعر جعل منه حامي الحمى ومخلص البلاد ومنقذ العباد ، فقد أسرع إلى تلبية النداء وإجابة المسـتغيث بمعونة من (الأسلحة) والأقوات والألبسة ، إلا أن إحكام الحصار على المدينة حال دون المدد إلى المستغيثين الذين فتك بهم الجوع والعري، وتسلط المعتدي عليهم صباحَ مساءَ .

وبعد محاولات حثيثة ، باءت كلها بالفشل الذريع ، أُفرغت الحمولات في ثغـر (دانيـة) بعيـدا عن أرض المعركة ، وكانت بذلك مدة سبعة أشهر حصارا مطبقـا عـلى المدينـة كافيـةً بـاللجوء إلى التفكير في حفظ وأمن وسلامة مَنْ بقي حياًّ ، واضطر المستضـعف عـلى الجلـوس إلى مفاوضـات التسليم .

وبعد إجراءات الاتفاق المبرم أعلن (خايمة) عن المفاوضات التي كانـت ـ أول الأمـر ـ سريـة بينه وبين الحاكم في حضور بعض الفرسان والنبلاء من القوم .

وكان ابن الأبار قد اختير مرة أخرى نائبا مفاوضا لتسليم وتوقيع وثيقة الهزيمـة ، وذلـك في 17 صفر636.هـ/ 28 ـ 09 ـ 1238.م .

ولنا أن نتصور موقف الشاعر المفاوض هاهنا مِن حظه الذي يسوقه في كل مرة إلى الأسوإ فقد اختير قبلُ من طرف سيده أبي زيد للخروج إلى أرض النصارى ، فخرج معه طائعا وفيا . وقد جرَّ عليه ذلك الخروج نقمة كبيرة من لدن أهله ، واتهموه في دينه وحاول الرد للإقناع وهـا هـو الآن يُختار مرة أخرى لإمضاء وثيقة العار الذي لم يكن له فيه يدٌ من قريب أو من بعيد وموثـق تسـليم موطنه ومرتع صباه ، وهو الحظ نفسه ونذير الشؤم الذي سيطارده ليلقـى حتفـه قعصـا بالرمـاح وإحراقا لجسده وكُتبه على يد سيده ووليّ نعمته .

فأي حظّ هذا الذي كُتب لمثل ابن الأبار؟ .

ولابن الأبار رسائلُ بَعث بها إلى صديقه وزميله أبي المطرف بن عميرة بعد سقوط بلنسية ـ وقد كانت بيـنهما مكاتبـات عديـدة ، وفي شـؤون شـتى ـ يقـول فيهـا ((**درجَـت اللـذاتُ والأتـرابُ وخَرجت الرومُ بنا حيثُ الأعرابُ ، أيامَ دُفِعْنا لأعظـمِ الأخطـارِ ، وفُجعْنـا بالأوطـانِ والأوتـارِ فإلامَ نُداري بَوْحَ الألمِ وحَتَّامَ نُساوِي النجمَ في الظُّلَمِ... وأمـا الأوطـانُ المُحَبَّـبَ عهـدُها بحُكْـمِ**

الشبابِ المشيبِ فيها بمحاسنِ الأحبابِ ، فقد ودَّعْنَا معاهدَها وداعَ الأبدِ ، وأخْنىَ الـذي أخْنى على لبَدِ ، أسْلَمَهَا الإسلامُ وانتظمها الانتثار والاصطدام، حينَ وقَعَتْ أنْسُرُها الطـائرةُ وطلعـتْ أَنْحُسُها الغائرةُ فغلبَ على الجذلِ الحُزْنُ وذهبَ مع المسكينِ السَّكَنُ [البسيط]:

كَزَعْزَعِ الرِّيحِ صكَّ الدَّوْحَ عاصِفُها فلمْ يَدَعْ مِنْ جناً فيها ولا غُصُنِ
وَاهاً وآهاً يموتُ الصبرُ بينهمـا مَوْتَ المحَامِدِ بينَ البُخْلِ والجُبُنِ)).[1]

ثم استطرد الشاعر المكلوم في رسالته بذكر محاسن بلنسية ومغانيها التي فنيت ، وأغاريد وُرْقها وأغانيها التي أُسْكتتْ ، وجمال رصافتها وجسرها ونضارتها وندى غضارتها التي طُمِستْ موظفا في وصفه أسلوب الاستفهام (أين) متسائلا عن سر هذا الأفول .

فأجابه صديقه ابن عميرة متأثرا بما قرأ ، وبالذي حلَّ بالمدينة التي جمعتهما كاتبيْن لأبي زيان ابن مردنيش .[2]

وأواخر سنة 636.هـ ، أو أوائل سنة637.هـ / 1240.م قرّر ابن الأبار مغادرة الأندلس والالتحاق بالحفصيين في تونس ، بعد أن أصبح يربطه بهم علاقة وطيدة.

- **في إفريقيا:**

غادر ابن الأبار الجريح مرفوقا بأسرته المكلومة الأندلسَ (بلنسية) . وما كان لهم في يوم من الأيام أن يفكروا مجرد التفكير في هجرة الوطن والأحباب ؛ مسقط الرأس ومرتع الصبا ودرب الطفولة والشباب ، ومطمح الآمال والأنفس ، ولكن هي الأيام لا تضرب لما تُقْدِمُ عليه موعدا وخاصة أن المهاجر كان مُرغَما على ذلك ؛ لأن بلنسية سقطت في أيدي الأعداء. اتجه إلى تونس حيث بلاط الحفصيين ، وكانت ((بجاية)) أول محطة حطّ فيها الشاعر رحاله . ويتضح من أشعار في الديوان أن رحلته هذه كانت بحرا ، انطلاقا من بلنسية .[3]

---

(1) السابق ، 4/ 496 ـ 499.

(2) ينظر : المقري، نفح الطيب ، 4/ 490 ـ 496.

(3) ينظر : ابن الأبار ، الديوان ، ص 113ـ185.

لم يُقِمِ المهاجر في بجاية إلا بضعة أشهر ، ودرس بها وأقرأ ، وروى وسمع وصنَّف وألّف .

وسبق وأن لقي لدى أميرها ترحيبا كبيرا لمّا جاءه مبعوثا من ابن مردنيش مستصرخا ومستنجدا.

وفَد ابن الأبار ـ هذه المرة ـ كواحد من تلك الجالية الأندلسية التي فرّت بجلدها بعدما تركت موطنها مخربا بأيدي الكفرة ، الذين أحرقوا الزرع ، وتسببوا في جفاف الضرع نتيجة الغزوات والحروب المتوالية ، إلا أن شاعرنا كان أحد أعلام هذه الفئة البارزين ؛ فاسمُه اللامعُ سبق حضورَه ، وقد كان يأمل في أيام أحسن من تلك التي عاشها ، وجوٍّ أنسبَ للحياة في ظل الدولة الحفصية الفتية التي ستعيد للشاعر أمله المغيّب ؛ تدفع عنه غربته التي كان يحياها وهو بين أهله .

فبعد أن استقر مقامُه لدى الأمير الحفصي أبي زكريا ، الذي أحسن وفادته وقدَّرَ مواهبَه الأمر الذي حعله يعهد إليه بكتابة الإنشاء والعلامة ـ والعلامة هي عبارة التوقيع التي تضاف إلى المكاتبات السلطانية ، وتُرفَع إلى السلطان ليضعَ عليها خاتَمه ـ

وكان ابن الأبار يكتب هذه العلامة بخطه المغربي ، في الوقت الذي كان السلطان يفضلها بالخط المشرقي، ومع تمادي الكاتب في توقيعه المغربي ، أُمر بأن يكتفي بإنشاء المكاتبات ، وترْك العلامة المشرقية المختارة لأحمد بن إبراهيم الغسّاني (417هـ ـ 498 هـ/ 1026 م) فسخط لذلك ابن الأبار ورمى بالقلم وأنشد قائلا[الخفيف]: [1]

أُطْلبِ العِزَّ في لظىً وذَرِ الذُّلّ ولوْ كانَ في جِنَانِ الخُلُود

فبلغ ذلك السلطانَ ، فأمره بلزوم بيته . ومن هنا تبدأ رحلة معاناة الشاعر مع الحفصيين ـ وهو لا يعلم ، وإلا ما كان ليُقْدِم على ذلك ـ التي شرع يفتل خيوطَها الحسّادُ والغيورون من الوافدين على تونس ، وكان جلّهم من بيوتات عربية عريقة وذوي جاه وعلم في وطنهم ؛ من

---

(1) هذا البيت للمتنبي ، ورد ضمن قصيدة أنشدها في صباه ، وأولها :

كَمْ قتيلٍ كمَا قُتِلْتُ شهيدٍ لبياضِ الطُّلَى و وَرْدِ الخُدودِ

حتى يقول : فاطْلُبِ العِزَّ في لَظىً و ذَرِ الذّ لَّ ولوْ كانَ في جِنانِ الخُلودِ

(يُنظر :المتنبي ، ديوان المتنبي ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، دط ، 1983 ، ص 21 .)

أمثال الرئيس أبي عبد الله بن الحسين العنسي الذي كان له دور لا يستهان به في تغريب ابن الأبار إلى بجاية ، إلى جانب الحفصيين المقربين من السلطان الذين كانوا يرون في نباهة الشاعر تهديدا لمصالحهم وخطرا على مكانتهم .

فبعد قرار السلطان بالإبعاد ، استشعر الكاتب المستقدَمُ خطورة المرحلة ، وتوجس خيفة من مغبة الأمر، فندم وأحس بنوع من التسرع في تصرفه فكتبَ رسالة كانت كتابا يستشفع فيها بأبي زكريا الحفصي ، سُمّي هذا المؤلَّفُ ((إعتاب الكُتَّاب)) رفعه إليه واستشفع فيه بابنه المستنصر بالله ، فأقال السلطان عثرته ، وأعاده إلى الكتابة .

ويُقال إن هذه الرسالةَ (الكتابَ) قد بدأ في تأليفها في الأيام الأخيرة من حياة أبي يحي وليّ العهد ، وحينما وافته المنيةُ بعدئذ قبل أبيه بسنة واحدة (646هـ/ 1248م) صار الأمر بعد ذلك إلى محمد ، المعروف "بالمستنصر" ؛ وليّ العهد الجديد ، الذي أبقى على ابن الأبار في عمله لأن المذنبَ نزلَ عن بَأْوِهِ وأنفته التي أفسدت مكانته لدى أبي زكريا الأبِ وقَبِلَ طلبَ العزّ في اللظى مع الذّلّ ، واعترف بجريرته ، نادما على ما نَدَّ منه ، وجاء عبداً آيباً مطيعا لِمولاه ، بعدما استطعم غضب السلاطين ، فوجده مُرَّ المذاق ، وطاله من جرّاء فعلته بؤسٌ طويل، فيقول نادما مستعتبا [الكامل]:[1]

نَدَمِي على مَا نَدَّ مِنِّي دائمٌ　　　وعلامَةُ الأوَّابِ أنْ يَتَنَدَّمَا
يا طُولَ بُؤْسِي مُبْسَلاً بجَريرةٍ　　　إنْ لمْ تُجِرْنِي بالتَّجَاوُزِ مُنْعِماَ
مَولايَ رُحْمَاكَ التي عَوَّدْتَنِي　　　إنِّي اعْتَمَدْتُكَ خاضعًا مُسْتَرْحِمَا
فَأَحَقُّ مَنْ تُولِي الإقالَةَ عاثِرٌ　　　لم يسْتَحِبَّ على الهُدَى قَطُّ العمَى

وما كاد ابن الأبار المذنبُ المسترحِمُ يهنأ ببشائر العفو، الذي ملأ بيته فرحا وسرورا حتى عاد من جديد الكدرُ والنحس مع وليّ العهد الجديد المستنصر ، الذي سرعان ما أقاله ثم نفاه إلى

(1) ابن الأبار، الديوان ، ق 123 ، ص 274.

بجاية لأسباب ، أرجعها محققُ الديوان ((**لخُلقه الصعب وتآمرِ حسّاده عليه ولطيش أمير المؤمنين**)).[1]

وستكون هذه الأسباب مجتمعةً كافية بأن تكون مقنعة لدى الخليفة ذاته بقتله، خاصة وأن هذا السلطان المستنصر كان ((**شديدا جدا مع خصومه ومناوئيه ؛ فقد قتل عمَّه اللحياني سنة 648هـ ومعه جماعة كبيرة من الأعيان والأقارب ، وكان المستنصر يتربص خيفة من أي تحرك ولهذا كان الجوُّ مهيأً للسعاية ضد ابن الأبار الذي كثُر حاسدوه**)).[2]

أما مرحلة النفي ـ وللمرة الثالثة إلى بجاية ـ كانت أكثر اختلافا من سابقتها، وأفضل منها لأنها تصدق عليها مقولة ((رُبَّ ضارةٍ نافعةٌ)) ؛ لأن ابن الأبار أتاحت له إقامته الجديدة بهذه المدينة المباركة ، التي لم يضايقه فيها أحد ، والتي امتدت إلى أكثر من سبع سنوات(من سنة650هـ إلى غاية سنة 657هـ) ، ويجعلها بعضهم أكثر من ذلك فرصةَ العطاء الجمِّ والإنتاج الغزير ففيها أنهى تأليف كتابيه " التكملة لكتاب الصلة " الذي كان قد بدأه بالأندلس ، و" الحلّة السيراء " الذي بدأ في تأليفه بتونس عقب استقراره فيها .

فكان المنفيُّ في هذه الفترة بعيدا عن السياسة والسياسيين قريبا من التصنيف والتدوين ساعده في كل ذلك حُظوتُه لدى أمير بجاية ، الذي قدّر مواهبَه ـ هو أيضا ـ وأبعده عن أسباب الشكوى من الضياع والفقر ، وكثرة الإلحاح والشفاعات بإكرامه والإغداق عليه.

تفرّغ ابن الأبار في هذا الجوّ المناسب إلى التأليف ونشر العلم وحمله من كل مَنْ يتوسم فيه الفائدة والاستزادة ، وحَمَلَ علمَه الكثيرُ من أهل بجاية ، قال عنه الغبريني ((**رحلَ إلى العدوة واستوطن بجاية ، ودرَّسَ بها وأقْرأَ وروَى وأسْمع وصنّفَ ، وألّف وهو مِمَّنْ لايُنكَرُ فضلُه ولا**

---

(1) السابق ، (المقدمة) ، ص 13.

(2) ماهر زهير جرار ، ابن الأبار الأندلسي الأديب ، الجامعة الأمريكية ، بيروت ، حزيران،1983 رسالة ماجستير ـ مخطوط ـ ص 117.

يُجْهَلُ نبْلُهُ ، لهُ تآليفُ حسنةٌ ، ونزعاتٌ في علمِ الأدبِ بارعةٌ مستحسَنَةٌ)).[1]

(1) الغبريني ، أبو العباس أحمد بن أحمد ، عنوان الدراية فيمَنْ عُرف مِن العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق رابح بونار ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر، 1970،ص311.

ج ـ عودته إلى تونس ومقتله:

لم يكن ابن الأبار المبعَدُ يتخلف عن فرصة ، تُعيده إلى بلاط الحفصيين ، فلقد سعى من أجل تحقيق أمنيته ابنُ عميرةَ ؛ صديقُه وشيخه ـ الذي يفوقه بثلاثَ عشرةَ سنة ـ ورفيقُه في طلب العلم على الشيخ الجليل أبي الربيع الكلاعي ، وفي الكتابة لدى أبي زيد الموحدي بإرجاعه ـ كما يتوق ـ إلى خدمة الأمير الحفصي بتونس ، فكتب إلي ابن الأبار في سنة 657 هـ بالعزم على الحركة والسفر نحو الحضرة مكرّما مبرورا ، فالتحق مرة أخرى بحاشية أمير المؤمنين وخليفة المسلمين المستنصر بالله ، وأنشد بين يديه [الكامل]:[1]

بُشْرَايَ باشَرْتُ الهُدَى والنورَا بِلِقائِيَ المستنصَر المنصُورا
وإذاَ أميرُ المؤمنينَ لَقِيـــــتُهُ لم أَلْقَ إلاَّ نصْرةً وسُرورا

يذكر المؤرخون أنه جرى في بعض الأيام ذِكرُ مولد الواثق وليّ العهد وطالعه ، وساءل عنه السلطان بعضَ مَن حضر فاستبهم ، فغدا عليه ابن الأبار بتاريخ الولادة وطالعها فاتُّهِمَ بتوقّعِ المكروه للدولة الحفصية والتربص بها .

ولكن هذه المرة لم ينْفِهِ السلطانُ ، نظرا إلى تقدّمه في السنّ ، وإنما احتقره وأهمله فآلَمَ ذلك الشاعرَ المغضوبَ عليه كثيرا ، فقال [الوافر]:[2]

علتْ سِنِّي وقَدْرِي في انخفاضِ وحُكْمُ الرَّبِّ في المربوبِ ماضِ
إلى كمْ أُسْخِطُ الأقدارَ حــــتى كأنِّي لم أكنْ يَوْمـــاً بـــراضِ

وحاول ابن الأبار ـ على الرُّغم من ذلك ـ التقربَ إلى السلطان ، عساه يصفح عنه ويُقِيلُ عثراتِه ويَفهم تعاملاته وتصرفاتِه ؛ كتهنئةٍ بإبلال[3] ، أو طلبِ عفوٍ من جفوة وإهمال[4] .

(1) ابن الأبار، الديوان ،ق 17 ، ص 447.

(2) نفسه ، ق 18 ، ص 448.

(3) يُنظَر: ابن الأبار، الديوان ق 165 ، ص 356.

(4) ينظر: ابن الأبار، الديوان ق165 ، ص 355.

بقي الرجل في انتظار العفو ـ كما أَلِف ـ إلا أن الحاسدين هذه المرة كانوا له بالمرصاد واستغلوا هذه الجفوة بين السلطان والشاعر في ظل التنافس الكبير الذي تشهده الساحة السياسية بين البلدين من جهة باعتبارهم الأولى في أي استحقاق ، وبين الأندلسيين بحكم مؤهلاتهم العلمية وتفوقهم على غيرهم في احتكارهم المناصب الهامة في البلاط الحفصي فأوغروا صدر المستنصرِ ـ شديدِ المراس والبطش على ابن الأبار ، حادِّ المزاج وضيق الخلق فدسُّوا ـ على ما يذكر بعض المؤرخين ـ على لسانه بيتا من الشعر يقول [المجتث]:[1]

طَغَـا بِتونُسَ خُلْفٌ　　سَمَّوْهُ ظُلْمـًا خليفة

فاستشاط لها السلطانُ ، وأمَرَ بامتحانه ، ثم بقتْله ، فقُتِل قعصًا بالرماح ، وكان ذلك يوم الثلاثاء :20 محرم سنة 658.هـ/ 6ـ1ـ1260.م ، ثم أُحرِقَ شلوُه ومجلداتُ كتبه وأوراقُ سماعه ودواوينه .

وقد قال محقق الديوان " عبد السلام الهراس " في نهاية مقدمة الديوان كلمة جليلة ، ترتعد لها الفرائس((**وقد سجَّل التاريخُ أنَّ مَلِكًا ظالما فَتَكَ بعالمٍ جليلٍ ظلما وعدوانا ، وأحرقَهُ كما أحرقَ إنتاجَه العلميَّ الضخمَ وذلك يوم الثلاثاء20محرم سنة 658/ 6 ـ 1 ـ 1260 ، وربما كان يدرك ابن الأبار مصيره فاستسلم للأقدار ، قائلا** [الطويل]:

أَمَا إنَّهُ قد خُطَّ في اللوحِ ما خُطَّـا　　فلاَ تعْتقِدْ لِلدهرِ جَوْراً ولا قِسْطا
ولا تُسْخِطِ المقدورَ وارْضَ بما جرى　　عليكَ به إنَّ الرضاَ يَفْضُلُ السُّخْطَا)).[2]

هكذا كانت نهاية عالِمٍ وأديب وفقيهٍ ، ومؤرّخ جليل ، عاش ثلاثا وستين سنة هجرية اثنتان وأربعون منها في الأندلس ؛ موطنِ صباه ونشأتِه ، وإحدى وعشرون الباقيةُ في المغرب .

لم يسعدْ في الأولى ، ولم يهنأ في الأخيرة ، وانتهى به الأمر مقتولا على يَدِ مَن كان له مُغيثا ومستشفِعا في كثير من المرات ومعينا ـ رحمه الله ـ

(1) ابن الأبار ، الديوان ، ق23 ، ص452.

(2) نفسه ، (المقدمة) ، ص14.

د ـ مؤلفـــاته:

إن الناظر في حياة ابن الأبار في كل مراحلها من جهة وإلى ما تركه مـن إنتـاج مـن جهـة ثانيـة يُصاب بالدهشة والإعجـاب ؛ فكيـف بِرَجُـلٍ عـاش هـذه الحيـاة المتـدهورة بسـبب جرْيـه وراء السياسة وحرصه الشديد على بلوغ المراتب ؛ بين النفي تارة والإهمال والحط من قدره تارة أخرى ، إلى أن أبلغه ذلك حتفَه ، كيف له أن لا ينثني عن التأليف والإبداع ـ والظروف التي مـر بهـا كـما عرفنا ـ في شتى الفنون ، ومختلف العلوم لعدد يفوق خمسة وأربعين كتابا ؟!..

فهذا لا يعني إلا أمرا واحدا ، وهو أن وقت الفراغ والراحة بالنسبة إلى هذا الرجل لم يكـن مـن اهتمامه ولا حريصا عليه حرصَه غيره عليه ، بل كان ـ فيما يُعتقـدُ ـ عَمَلُـه جِـداً وكَـدًّا واجتهـاداً حتى وإن كانت السياسة شغلَه الشاغل .

ولم تكن المؤامرات والدسائس التي تحاك ضده في كـل حـين لتُثنـي مـن عزيمتـه ، ولا كانـت الظروف السياسية والاجتماعية المتدهورة ، ولا الفتن السـائدة في بلنسـية ، ولا الأحـوال القاسـية التي عاناها في تونس لتُقْعِد ابن الأبار عن عمله الذي ارتضى ، ومهنته التـي تعلمهـا مـن مشـايخه وعلماء عصره .

ولايزال على عادته يتلقى العلم على الصغير كما الكبير ، ويحرص عليه إلى منتهى عمره .

ولعل التنويه بجليل أعمال الرجل الموسوعي لا تكون له قيمة إلا إذا كانت مـن عـالم جليـل مثلِـه كابن عبد الملك المراكشي ، الذي كان أكـبر النقـاد تحـاملا وقسـوة عـلى شـاعرنا وأكثـرهم تتبعـا لأخطائه وسقطاته في مؤلَّفِه " التكملة لكتاب الصلة " ، بل وصـل الأمـر بهـذا الناقـد أن يرمـي صاحبَ الكتاب بالتعصب المقيت ، والتحيز السافر ، فهذا العالِمُ والناقد ذاته هو الذي يقـيّم بكـل موضوعية ابن الأبار، فيقول عنه ((**وكان آخِرَ رجالِ الأندلس براعةً وإتقاناً ، وتوسُّعًا في المعارفِ وافتناناً ، مُحدِّثًا مُكْثِراً ،ضابطاً عدلاً ثقةً ، ناقداً يقظاً ذاكراً للتواريخ على تبايُنِ أغراضِها مُسْـتبحِراً في علوم اللسانِ نحواً ولغةً وأدباً ، كاتباً بليغاً ، شاعراً مُفْلِقـاً مُجِيـداً ، عُنِـيَ بالتـأليفِ وبَحَـثَ فيـه**

وأُعِينَ عليه بِوُفُورِ مادتِه وحسْن التهدي إلى سلوكِ جادتِه ، فَصَنَّفَ في مَا كانَ ينتحلُه مُصَنَّفاتٍ بَرَّزَ في إجادتِها ، وأعْجَزَ عن الوفاءِ بِشُكْرِ إفادتِها...)).[1]

ورجُلٌ هذه هي صفاتُه أحقُّ بأن يسمى بـ ((شيخ الأندلس)) أو ((سراج العلوم)) كما لقبه ابن الأحمر ، ويستحق هذه المكانة ؛ لأن تقييمه من قبل ابن عبد الملك المراكشي ـ كما مرَّ بنا ـ كاف بأن يتبوأ الريادة والسيادة ، بخاصة وأنه رجل علم ودين .

أما نتاج هذا الموسوعي فيتمثل في أكثر من خمسة وأربعين مؤلفا في شتى العلوم ، وقد تربُو على الخمسين ، كما يؤكد ذلك محقق ديوانه " عبد السلام الهراس " ، وله في ذلك أكثر من دليل تعرض إليه في رسالته للدكتوراه إلى إنتاج ابن الأبار البلنسي[2] .

وسنحاول الآن عرض قائمة مؤلفاته مستعينين في تقسيمها إلى مجموعات ، بما بينه الباحث ماهر زهير جرار في بحثه الموسوم بـ ((ابن الأبار الأندلسي الأديب))مع إضافة ما أمكن من التعريف والفائدة الخاصة بكل مؤلَّف ، قصد التيسير في التناول و التفريق بينها لتشعبها . وهذه عناوينها :

أ ـ مؤلفاته في الحديث:

1ـ **الأربعون حديثا** عن أربعين شيخا من أربعين مصنفا لأربعين عالما من أربعين طريقا إلى أربعين تابعا عن أربعين صاحبا بأربعين اسما من أربعين قبيلا في أربعين باباً.

2 ـ **الاستدراك على أبي محمد القرطبي** بما أغفله من طرق روايات الموطإ. (والقرطبي وهو عبد الله بن الحسن بن أحمد بن يحي بن عبد الله الأنصاري مالقي قرطبي الأصل، شيخ كبير من شيوخ الحديث في الأندلس (611هـ/ 1214م).

---

(1) عبد الملك الأنصاري الأنصاري الأوسي المراكشي ، أبو عبد الله محمد بن محمد ، الذيل والتكملة لكتابي الصلة والموصول دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ـ تحقيق : إحسان عباس ، ط1 ، 1973 ، 6/ 258 .

(2) ينظر: عبد السلام الهراس، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد ، المجلد22 مدريد1984،1983 ، ص 106 ـ 107 .

3 ـ **شرح البخاري**(غير تام) ؛ لأن الجلادين عاجلوه قبل إتمامه له.

4ـ **المأخذ الصالح في حديث معاوية بن صالح،** جمع فيه ابن الأبار أخبار ابن صالح وما اجتمع من رواياته عنده ، توفي حوالي 185هـ .

5 ـ **المورد السلسل في حديث الرحمة المسلسل**، وهو المعروف بالحديث المسلسل.

6 ـ **هداية المعتسف في المؤتلف والمختلف** ، قصره ابن الأبار على أهل الأندلس وموضوعه رفع الارتياب عن الأسماء والكُنى والأنساب.

7ـ **الشفا في تمييز الثقات من الضعفا،** والمؤلَّف في الجرح والتعديل، وقد خصَّه صاحبه على رواة الحديث الأندلسيين ، وتكلم على أحوالهم وصفاتهم...

ب ـ المعاجم:

8ـ **معجم أصحاب أبي علي الصدفي**(مطبوع) ، جمع فيه الرواة عن القاضي الشهيد أبي علي الصدفي .

9 ـ **معجم أصحاب أبي عمرو الداني المقرئ** (وهو عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمرو بن الصيرفي:371هـ ت444هـ/ 981م ـ 1052م) .

10ـ **معجم أصحاب أبي عمرو بن عبد البر**(وهو ابن عبد الله يوسف بن عبد الله بن محمد ابن عبد الله بن عاصم النمري:368هـ463هـ/ 978مـ1070م)

11ـ **معجم أصحاب أبي داود الهشامي** (وهو أبو داود سليمان بن نجاح:(413هـ 496هـ)

12ـ **معجم أصحاب أبي علي الغسّاني**(وهو الحسين بن محمد بن أحمد أبو علي المعروف بالجيّاني:417هـ ـ 498هـ/ 1026م ـ1104م).

13 ـ **معجم أصحاب أبي بكر بن العربي المعافري** (وهو القاضي محمد بن عبد الله ابن محمد ابن أحمد المعافري 468هـ ـ 543هـ/ 1075م ـ 1148م).

14ـ **معجم شيوخ أبي الحسن أحمد بن محمد بن السراج**(وهو أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن قاسم الأنصاري : 560هـ 657هـ/ 1164م ـ1258م

15 ـ **معجم شيوخه** من الأندلسيين والمشارقة ،وقد ذكر ابن عبد الملك المراكشي نحو مئة وثلاثة وخمسين شيخا .

16ـ **برنامج رواياته** بعد وفاة شيخه أبي الربيع بن سالم الكلاعي ، حمَلَ ابنُ الأبار بعده المشعلَ فحُمِلَتْ عنه رواياتُه.

<u>ج ـ مؤلفـاته في الفقه:</u>

17 ـ **مختصر أحكام ابن أبي زمنين** (وهو محمد بن عبد الله بن عيسى بن أبي زمنين (324هـ 399هـ/ 935م ـ 1008م.

<u>د ـ التراجم والتاريخ:</u>

18ـ **التكملة لكتاب الصلة** (مجلدان ضخمان مطبوعان) .

19ـ **الحُلّة السيراء في أشعار الأمراء**(مطبوع).

20ـ **الوشي القسيّ في اختصار الفتح القسيّ** ؛ و اختصار لكتاب عماد الدين الكاتب الأصبهاني (519هـ ـ 579 هـ / 1125م ـ 1201م) ، الموسوم بـ : ((الفتح القسي في الفتح القدسي)) أي فتح بيت المقدس على يد صلاح الدين الأيوبي سنة (583هـ / 1187م).

21ـ **كتاب التاريخ** ، الذي كان تأليفه ـ فيما يُقال ـ في مساوئ السلطان وكان من أسباب قتله.

هـ ـ مؤلفاته في الأدب واللغة :

22 ـ **إحضار المُرهج في مضمار المبهج**(والمرهج: الفرس الذي يجري فيثير الغبار وإحضاره:يعني جريه ، والمضمار :حلبة الجري).

23 ـ **إعتاب الكُتّاب**(مطبوع) ، وقد رفعه إلى الأمير أبي زكريا يحي(647هـ/ 1249م)

24 ـ **أعصار الهبوب في ذكر الوطن المحبوب.**

25 ـ **إفادة الوفادة** ، ولعله يتصل بوفادته إلى تونس قادما من بلنسية مستصرخا ومستنجدا من الحفصيي .

26 ـ **الانتداب للتنبيه على زهر الآداب**(التنبيه على بعض الأوهام التي وقع فيها الحصري (وهو إبراهيم بن علي بن تميم الأنصاري: 453هـ/ 1061م في كتابه زهر الآداب.

27 ـ **الإيماء إلى المنجبين من العلماء** ؛ جمع فيه ابن الأبار أخبار العلماء الذين أنجبوا أولادا خَلَفُوهم في علمهم.

28 ـ **إيماض البرق في شعراء الشرق** (شرق الأندلس).

29 ـ **تُحفة القادم**(مطبوع) ، عارض به كتابَ((زاد المسافر)) لأبي بحر صفوان ابن إدريس التجيبي.

30 ـ **خضراء السندس في شعراء الأندلس** من أول فتحها إلى آخر عمره. جمعَ فيه المتخيَّرَ من شعر شعراء الأندلس .

31 ـ **درر السمط في خبر السبط**(مطبوع) ؛ وهو رسالة تناول فيها محنة آل البيت ـ عليهم السلام ـ ويبدو أنه ألفه في فترة متأخرة وببجاية.

32 ـ **فضالة العباب ونفاضة العياب** (أرجوزة) لغوية ـ في الأرجح ـ على شاكلة أرجوزة ابن سيده.

33 ـ **قطع الرياض في بدع الأغراض**(مختارات شعرية في مجلدين ضخمين) وهو في متخير الأشعار بحسب الأغراض الشعرية

34 ـ **قصد السبيل وورد السلسبيل** في المواعظ والزهد(أربعة مجلدات) وهو كتاب في

الرقائق والزهد والمواعظ .

35 ـ **مجموع رسائله** لولاة الموحدين بالأندلس ، ثم عن الأمراء الحفصيين.

36 ـ **الكتاب المحمدي** في كل مَنْ اسمه محمد مِن شعرا الأندلس .

37 ـ **مظاهرة المسعى الجميل ومحاذرة المرعى الوبيل**(مطبوع) في معارضة ملقى السبيل على طريقة أبي العلاء المعري في رسالته ملقى السبيل (وهذا من علامات تأثير المعري على أدباء الأندلس) .

38 ـ **معدن اللجين في مراثي الحسين**،ألَّفه ابن الأبار قبل سنة 633هـ / 1235م .قال عنه الغبريني((**ولو لم يكن له من التأليف إلا الكتاب المسمى بكتاب اللجين في مراثي الحسين لكفاه في ارتفاع درجتِه وعلوّ منصبه وسمورتبته**))[1]

39 ـ **أنيس الجليس ونديم الرئيس**.

40 ـ **إعالة الحقير في شرح زاد الفقير**.

41ـ **ديوان شعره**(مطبوع).

لقد كان ابن الأبار كثيرَ التأليف ـ كما ألمعنا إلى ذلك ـ وفي ميادين متنوعة ، أحصى معظمَ هذه المؤلفات المستشرقُ الألماني كارل بروكلمان ، والمرحوم عبد العزيز عبد المجيد ، الذي كان اهتمامه بالأدب الأندلسي كبيرا ، كما كتب عن شاعرنا ابن الأبار وحياته ، وابن الأبار وكتبه وكذا الأستاذ الأبياري في مقدمته للمقتضب من تحفة القادم ، وصالح الأشتر في مقدمة تحقيقه لإعتاب الكُتَّاب .

كما كان للأديب رسائلُ متعددةٌ ؛ بحكم تكليفه من قبل الحكام سواء في الأندلس في عهد أبي زيد أو في تونس في بلاط الحفصيين ، أشار إلى معظمها المقري في " نفح الطيب" وفي " أزهار الرياض " ، وكان الغبريني أيضا من الذين عرضوا لمؤلفات ابن الأبار.

---

(1) الغبريني ، عنوان الدراية ، ص312.

إلا أن هذه العناوين ـ على كثرتها وتنوعها ـ لم يسلم جُلُّها من التلف ؛ بحيث لم يبق منها سوى ثمانية مؤلفات ، طُبعت جميعها ، بما فيها الديوان ، الذي طبعته الدار التونسية ووزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية سنة1420هـ/ 1999م، وهي كالآتي:

1 ـ إعتاب الكُتَّاب.

2 ـ المقتضب من كتاب تحفة القادم.

3 ـ التكملة لكتاب الصلة.

4 ـ الحلة السيراء في أشعار الأمراء.

5 ـ مظاهرة المسعى الجميل.

6 ـ معجم أصحاب أبي علي الصدفي.

7 ـ درر السمط في خبر السبط.

8 ـ ديوان شعره.

2 ـ ديـــوان ابن الأبـــار

يعد ديوان ابن الأبار أحد الآثار القيمة التي تركها بعد مقتله من قبل جلادين خافوا على المنصب ، لمّا أحسّوا بالتفوق الذي كان عليه هذا الموسوعي القادم إليهم من شرقي الأندلس وعلى الرغم من أن نيرانهم ، التي أضرموها في جسده وشِلوه وكتبه وأوراق سماعه ليطفئوا بالنار نور هذا العالم من الوجود ، إلاّ أن إشعاعات عبقـــرية ((الشهيد)) تبقى تبعث بنورها ، حتى ولو كُتِمت الأنفاس .

وعُثِرَ ـ فيما عُثر ـ على ديوان الشاعر ، على الرغم من أن دارسين ؛ كعبد المجيد " في مؤلَّفه الذي لم يذكره المحقق الموسوم بـ (ابن الأبار) ، الذي ينفي عن الشاعر تركَه د يوان شعر مجموع . فيورد المحقق عبد السلام الهراس [1]قولَ عبد المجيد : ((**فإن صاحبنا (يعني ابن الأبار) لم يترك ديوان شعر مجموع**)).

والدارسُ ذاته هو الذي ترجم لابن الأبار بكتاب كامل ، وأولى حياته عناية فائقة والأمر نفسه يبينه المحقق ، يخص " عبد الله أنيس الطباع " الذي قال ((**لم يترك ابن الأبار ديوان شعر أو مجموعة من القصائد ،وكل ما ترك لنا أبيات متفرقة جمعها بعضُ مَن اهتم بترجمته ونجد أكثر هذا الشعر متفرقا في كتب نفح الطيب وفي أزهار الرياض ، وفي الوافي بالوفيات . وأما شعره الغزلي فقليل جدا لا يتجاوز عدة مقطوعات.**))[2].

ويردّ عبد السلام الهراس ـ صاحب الفضل الكبير في الحفاظ على تراث الشاعر ـ هذين الحُكميْن السابقين إلى عدم استقصاء المصادر المتصلة بابن الأبار وعصره .

أما المؤرخ عبد الملك المراكشي فيذكر أن لابن الأبار ديوانَ شعرٍ على الحروف ، كما دعّم هذا الرأيَ عبدُ الواحد بن الطواح في كتاب (سبك المقال في فكّ العقال) بوجود ديوان للشاعر .

وثمة نسخة من هذا الديوان في الخزانة الملكية بالرباط تحت (رقم 4602) ، مخطوط متوسط الحجم ، عدد صفحاته 222، وفي الصفحة 21 سطراً ، ومقياسه 20× 25 سم والإطار المكتوب

---

(1) ينظر: ابن الأبار، الديوان (المقدمة) ، ص 21.

(2) نفسه ، ص 21.

19.5×10 سم ، وفيه بَتْرٌ في صفحاته الأولى حوالي 16 بيتاً من القصيدة الهمزية التي أوردها المقّري في النفح ، ولم ينسبها إلى الشاعر ، ويبتدئ الموجود منها بالبيت التالي:[1]

كَيفَ السَّبِيلُ إلى احْتِلالِ معَاهدَ شَبَّ الأعَاجِمُ دُونَهَا هَيْجَاءَها

وثمة بيت في صفحات قليلة أخرى.

والديوان مرتبٌ على الحروف الهجائية حسب الترتيب المغربي الأندلسي وهو: أ ، ب ، ت ث، ج، ح، خ، د، ذ، ر، ز، ط، ظ، ك، ل، م، ن ، ص ، ض ، ع ، غ ، ف ، ق س ، ش ، هـ ، و ي.

ومن هذه النسخة صورة في معهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية بالقاهرة تحت رقم:1306. [2]

ويبتدئ الديوان بالهمزة ، وينتهي بالياء ، و خَطُّه أندلسي- حسَن ، به كثير من التصحيف والتحريف ، كما يخلو من صفحة الختام ، ومن اسم الناسخ وتاريخ نسخه .

وقد لوحظ على هذا المخطوط الأخطاءُ اللغويةُ والإملائية ، التي تغيّر من المعنى ومن دقة الوزن ، وقَلَّمَا تُذْكَر مناسبة القصيدة ، وأكثر ما يفتتح القصائد بقوله : (وقال أيضا) و(وقال أيضا ـ رحمه الله ـ) ، فأمام هذا المخطوط (الوحيد) فقد انبرى الأستاذ عبد السلام الهراس ـ جزاه الله خيرا ـ إلى تحقيقه ، وهو يعلم ويعترف بـ : ((**أن الإقدامَ على التحقيق على نسخة وحيدة محفوفة بالمخاطر والمزالق خصوصا وهي حافلة بالتصحيف والخروم**)).[3]

---

(1) السابق ، ق1 ، ص 34.

(2) ينظر : ابن الأبار، ديوان الأبار ، المقدمة ، ص 21 ، وما يليها .

(3) نفسه ، (المقدمة) ، ص 24.

الديوان وطبْعاتهُ:

يحسن بنا ـ قبل الإشارة إلى طبعات الديوان ـ أن نبين أن هذا الديوان المحقّق من قبل الأستاذ الهراس ـ أستاذ الأدب الأندلسي ـ كلية الآداب ـ جامعة الملك سيد محمد بن عبد الله ـ فاس ـ المغرب ـ يُعَدُّ القسمَ الثاني من الرسالة التي تقدم بها الباحث المحقق لنيل شهادة الدكتوراه الدولية من كلية الفلسفة والآداب ، بجامعة مدريد ، وقد نوقشت الرسالة في : 16 يونيو سنة 1966 بقاعة كلية الآداب بمدريد ، أمام لجنة مكونة من خمسة أساتذة مستشرقين من جامعات مختلفة _ (مدريد) ، (غرناطة) ، (سرقسطة) ، ونال بها صاحبُها درجة الدكتوراه بامتياز بالإجماع .

طُبع الديوان ـ أولَ مرة ـ ونُشِرَ من طرف الدَار التونسية للنشر ، وكان ذلك سنة 1405هـ/ 1985م .

ونظرا لأهميته أُعيد طبعُه مرة ثانية سنة 1406هـ/ 1986م ، من طرف الدار التونسية ذاتها باشتراك ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر ، وسُجِلَ سحبُ 1500 نسخة من هذه الطبعة الثانية، وكانت صفحةُ غلافه الأولى ملوّنة بالأبيض والأخضر، تملأها صورة ريشة ساقطة وفي هذا الرسم دلالة سيميائية ، معبّرة على كثير من الدلالات الخاصة بالشاعر والمعبّرة عن العصر والأندلس ،وبلنسية ؛ موطنِ ابن الأبار. وهي النسخة ،التي اعتمدناها في البحث .

وهذا وصف كامل لهذه الطبعة ، التي بين أيدينا ، وكانت محط الدراسة ، بحجمها المتوسط وعدد صفحاتها 496 صفحة ، مقسَّمة على النحو التالي :

أولا:

التقديم: (ص5) :وفيه أُشير إلى طبيعة هذا الديوان ـ باعتباره بحثاً مقدّما لنيل المحقق درجة دكتوراه الدولة ،كما أسلفنا ـ ثم تقديم الشكر والامتنان الكبيرين إلى كل مَن ساعد وساند هذا المشروعَ ؛ خصَّ الأستاذ المحقق بذلك أسماء علماء بررةٍ وشيوخٍ أجلاّءَ وفقهاءَ وبحّاثة عظماءَ عربا كانوا ومستشرقين .

ثانيا:

المقدمة: (من ص 7 إلى ص 30) التي بدأها بالتنويه بشخصية ابن الأبـار الموسـوعية بإنتاجـه العلمي الذي ـ وإنْ دُرِسَ بعضُهُ ـ إلا أن كثيره بحاجة إلى دراسات أخرى كالتي نجدها في ميـدان (الحديث والأدب والشعر) مبينا أهمية هذا الموضوع الذي لقي ترحابا وتشجيعا من طرف أسـتاذ المحقق " الدكتور إلياس تـيرس صـاديا " ، ومشـيرا إلى أن القسـم الأول مـن هـذا البحـث قـد خصصه صاحبه لدراسة الديوان ، وحياة صاحبه وشاعريته ـ ولعل هذا القسم لم يُطبَعْ ـ ثم انتقل المحقق بعد ذلك إلى عرضٍ لحياة الشاعر ابن الأبار البلنسي- متوخّيـا الإيجـازَ ؛ لأن التفصـيل في ذلك كان قد عرضه في القسم الأول من بحثه

كما تطرّق إلى إنتاج الشاعر العلمي ، بادئاً بتلامذته باعتبارهم من نتـاج الشـاعر وعجينتـه التـي صنعَ ـ ويذكر من هؤلاء خمسةً فقط ، ثم إنتاجِه من المؤلفات والكتب المتنوعة ، وذكر منها واحـدا وأربعين مؤلَّفاً ـ دون فرزٍ ولا تبويب ـ مشيرا إلى ثمانية منها مطبوعـة و محققـة مـن طرفـه أو مـن غيره _ بما فيه الديوان _ .

وبعد ذلك انتقل المحقق إلى الحديث عن الديوان و ظروف وجوده الذي نفاه بعض الدارسـين وأثبته آخرون ، واصفا المخطـوط الوحيـد المتواجـد في الخزانـة الملكيـة ، والمسـجّل تحـت رقـم : 4602، ومشيرا إلى بعض الصعوبات التي لقيها أثناء عمله ، بخاصـة فـيما يتعلـق بنسـب بعـض الأشعار ، والتي اعتمدها في تحقيق بعضها عـلى مصـادر هامـة ، وردَ فيهـا شـعر الشـاعر ، ذاكـرا أهمها، ومختتما بكل تواضع ذكر مقدار ما بذل من جهد المُقِـلِّ في سـبيل الإسـهام في بعـث الـتراث الأدبي الذي لقي إهمالا كبيرا خلال حقب طويلة ، موقعـا ذلـك بتـاريخ: فـاس في فـاتح رجـب 1389هـ/ 13ـ9ـ1969.

ثالثا:

عرض لأهم المراجع اللغوية التي اعتمد عليها في تحقيقه ، ثم بيان للرمـوز المسـتعملة تسـهيلا للدارس أثناء العودة إلى هذه النسخة من الديوان .

رابعا:

النص المحقّق (من ص 33 إلى ص 469) ، و يشتمل على :

أ ـ **القصائد** مرتبة ترتيبا هجائيا ، وفق الترتيب المغـربي الأندلسي ـ باستثناء حـروف أربعـة هـي: الخاءو الزاي ،و الطاء و الظاء.(من ص 33 إلى ص 433) .

ب ـ الملحق الأول:

(من ص 437إلى ص 463) وفيه مجموع لشعر ابن لأبار ، لم يـوردْه المحقـق في الـديوان ، ولم يلتزم فيه الترتيب الأبجدي الوارد فيه ، كانت فيه القصائد في مصادر مختلفـة عـلى حـروف هـي : الباء (قصيدة ومقطوعة) ، الثـاء (نتفـة) ، الجـيم (بيـت يتـيم) الـــدال(قصـيدة وبيتـان يتـيمان متفرقان)، الراء (أربع قصائد ومقطوعة وخمس نتف) الطاء (ثـلاث نتـف) العـين (مقطوعـة) الفاء (بيت يتيم) ، القاف (قصيدتان ونتفة) اللاّم (قصيدة ومقطوعة ونتفتـان) ، المـيم (قصـيدة ونتفة وبيت يتيم) ، النـــون (قصيدة ومقطوعة) الهاء (قصيدة ومقطوعة و نتفـة و بيتـان يتـيمان متفرقان).

ج ـ الملحق الثاني:

وفيه قصيدتان مضافتان لمخطوطة الديوان ، يغلّب المحقق أنهما ليستا منه ـ الديوان ـ جاءتـا في حرفي: الدال (قصيدة طويلة في 82 بيتاً،على بالرغم من أنها مبتورة الأول) ، واللاّم في 13 بيتاً).

ليبلغ عدد القصائد والمقطوعات والنتف الشعرية ـ في هذه النسخة ـ 245؛ موزعة عـلى أغـراض تقليدية معروفة ، وفي شكليها المركّب والبسيط ، وقد تعرضـنا إلى كـل هـذه التفاصـيل في البـاب الثاني والخاص بلبناء الفني في شعر الشاعر .

د ـ **الفهارس** : وتتضمن:

1 ـ فهرس القصائد حسبي القوافي (وحسـب ورودهـا في الـديوان ، وبملحقيهـا) (مـن : ص 473 إلى ص 480).

2 ـ فهرس القصائد حسب الأغراض الشعرية (من ص 481 إلى ص 493).

3 ـ فهرس القصائد حسب البحور(من ص 494 إلى ص 496).

هذا كل ما يتعلق بالطبعة الثانية للديوان ،التي نُشرت بشـراكة الـدار التونسـية للنشرـ وديـوان المطبوعات الجامعية بالجزائر سنة 1406.هـ/ 1986.م .

وعلى الرغم من هذا الجهد الذي قام به المحقق عبد السلام الهراس ، حفاظا على هـذا الـتراث العظيم لشاعر وعالِمٍ موسوعي كبير ، إلا أن هناك بعضَ الملاحظات نبّهَنا إلى بعضها صاحبُ مجلـة (دراسات أندلسية) في عددها الثاني ، الذي خُصِّصَ للشاعر ابن الأبار" الدكتور جمعـة شـيخة " بكلية الآداب ـ منوبة ـ تونس ، في مقال تحت عنـــوان((القيمة الوثائقيـة لـديوان ابـن الأبـار)) عندما قدّم ديوان الشاعر ، فوقف على ملاحظات منهجية، تتعلق أكثر بميدام التحقيق ، عَنَّـتْ لـه بعد اطّلاعه على هذا العمل الجيد ، والتي من بينها : [1]

- الإشارة إلى بعض المؤلفات كمخطوطات ، ولكنها محققة ومطبوعة .
- إيراد المحقق أسماء بعض المؤلفين ، دون ذكر عناوين كتبهم .
- عدم التدقيق في بعض المعلومات (كالأسماء)،ونقص في بعضها (منهجية ذكر المصادر).
- إهمال ترقيم أبيات القصائد ، وكذا عدم وضع فهارس الأماكن والأعلام (وهذا من روح التحقيق.
- شرح بعض الكلمات الصعبة مع إغفال الأصعب منها .
- ضبط بعض كلمات الأبيات بالشكل ضبطا خاطئاً.

إلاّ أن صاحب المقال (جمعة شيخة)لا يجعل من هذه الملاحظات ، التي وقف عليها سببا لإنقاص ـ بأي حال ـ ((من **قيمة عمل المحقق الهراس ـ وقد ذكر الهراس صعوبات ومخـاطر الاعـتماد عـلى نسخة واحدة في التحقيق ـ ، فبخبرته العميقة بمناهج التحقيق ومعرفتـه الشـاملة بعصرـ الشـاعر وضع بين أيدينا ديوانا على غاية كبيرة من الأهمية، فهو زيادة على أنه يكشف عـن بعـض جوانـب**

(1) يُنظَرُ: جمعة شيخة، مجلة دراسات أندلسية (المقال) ، العدد الثاني ، مطبعة المغاربية للطباعة والنشر والإشهار ، 1409هـ/ 1989م،تونس ، ص 35...38.

من حياة الشاعر الشخصية ويدققها ، يعطينا صورة عن القرن السابع الخطِر والخطير في نفس الوقت...)).[1]

هذا كل ما يتعلق بالطبعة الثانية للديوان، التي نُشرت بشراكة الدار التونسية للنشر وديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر سنة 1406هـ/ 1986م.

أما آخر طبعة ـ فيما نعلم ـ فقد كانت سنة 1420هـ/ 1999م من قِبل وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية ، طُبع الديوان بأمر من صاحب الجلالة الملك محمد السادس في 538صفحة؛ أي أكثر من الطبعة السابقة بـ 42 صفحة ، أما الحجم فأكبر بقليل من السابقة .

قَدَّم لهذه الطبعة المغربية وزيرُ الأوقاف والشؤون الإسلامية " الدكتور عبد الكريم العلوي المدغري " بتقديمٍ موجزٍ ، مع إضافة عبارات الترحم على الدكتور صالح الأشتر والشكر للدكتور المفضال محمود علي مكي ، الذي يَعتبره الوزيرُ من كبار الباحثين والرائدين في الدراسات الأندلسية وشيخ العربية في هذا العصر ـ كما يقول المقدِّم ـ الدكتور عبد اللطيف الطيب ، وكذا الدكتور فخر الدين قباوة ، وعبارات التأسف على وفاة إلياس (تيرس صادبا) المشرف على هذا العمل ، والذي رأى في وفاته خسارة كبيرة للعربية والدراسات الإسلامية بإسبانيا ، كما وقَّع تقديمه هذا أخيرا بـ : فاس ـ محرم 1420.هـ .

وأما المقدمة فقد مُزج فيها بين مقدمة الطبعة الأولى والثانية السالفتين، مع ملاحظتين :

تخصّ الأولى ـ بعد المقدمة ـ عنوان ((إنتاج ابن الأبار)) ، واقتصار هذه الطبعة على مؤلفات الشاعر ، دون التعرض إلى تلامذته ـ كما وجدناه في الطبعتين السابقتين ـ

وأما الملاحظة الثانية ، فتتعلق بحذف التنصيص على حياة ابن الأبار ، وعدم التطرق إليها في هذه الطبعة المغربية.

---

(1) السابق ، ص38 .

أمـا الفهـارس المختلفـة فهـي نفسـها ، التـي اعتُمـدت في الطبعتـين ، مـع اخـتلاف في أرقـام الصفحات بسبب عدد صفحات الديوان المشار إليها في بداية التعريف في هذه الطبعة التي كانـت بالرقم الإيداعي القانوني التالي : 1337/ 1999، عن مطبعة فضالة ـ زنقة ابن زيدون ـ المحمديـة (المغرب).

الفهارس

فهرس الآيات القرآنـــــية.

فهرس الأحاديث النبـــوية.

فهرس المصادر والمراجـــع.

فهرس الموضـــوعــــــات.

فهرس الآيات القرآنية

رقمها	الآيـــــة	الصفحة
	سورة البقرة	
256	﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾	228
	سورة آل عمران	
197	﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧﴾	225
200	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٢٠٠﴾	230
	سورة النساء	
129	﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٢٩﴾	225
	سورة المائدة	
66	﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ سَآءَ مَا يَعۡمَلُونَ ٦٦﴾	227
	سورة الأنعام	
76	﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦﴾	223
	سورة الأعراف	
128	:﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ١٢٨﴾217	228
	سورة الأنفال	

61 ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦١ ﴾ 229

65 ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ٦٥ ﴾ 219

سورة التوبة

03 ﴿ وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٣ ﴾ 222

51 ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٥١ ﴾ 234

سورة هود

43 ﴿ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ٤٣ ﴾ 221

69 ﴿ وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ٦٩ ﴾ 224

سورة الرعد

41 ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٤١ ﴾ . 235

سورة الإسراء

64 ﴿ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ 236

وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ ﴾.

سورة مريم

25	﴿ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾	231

سورة طه

31	﴿ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ ﴾	217
36	﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾	218
63	﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾	213
77	﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ ﴾	226

سورة الأنبياء

37	﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾	233
105	﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾	228

سورة السجدة

16	﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾	234

سورة فاطر

08	﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾.	238

سورة الصافات

10	﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ ﴾	231

سورة الرحمن

22	﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ ﴾ .	227-226

سورة الدخان

24	﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾	219

سورة الحديد

13	﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ ﴾	230

سورة المطففين

7-8	﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ ﴾ .	220

سورة الملك

04	﴿ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾	223

سورة القارعة

04	﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ ﴾	232

سورة العصر

03	﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ .	230

فهرس الأحاديث النبوية

طرف الحديث	الصفحة
❊ أُعْطيتُ خَمْسًا لمْ يُعْطَهُنَّ أحَدٌ قَبْلِي .	241
❊ اطلبوا الحوائجَ عند حِسان الوجوه .	241
❊ أَكْثِرُوا هَاذِمَ اللَّذَّاتِ .	246
❊ إنَّ للهِ تبارك وتعالى ملائكةً سَيَّارةً ، فُضُلاً يَتتَبَّعون مجالسَ الذكر	243
❊ إنَّ اللهَ زَوَى لِي الأرضَ ، فرأيْتُ مَشَارقَها ومغَاربَها .	243
❊ مَنْ سَكَنَ الْبَادِيَةَ جَفَا ، وَمَنْ أَتَى السُّلْطَانَ افْتُتِنَ ، وَمَنِ اتَّبَعَ الصَّيْدَ غَفُلَ .	244
❊ يَا أَنْجَشَةُ ! رُوَيْدَكَ ، سَوْقًا بِالقَوَارِيرِ .	240
❊ يَقُولُ أَلَا إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ .	245

فهرس المصادر والمراجع

*** القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم .**

أولا : المصادر :

كتب الحديث الشريف :

1 ـ البخاري ، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل ، صحيح البخاري ، اعتنى به : حسان عبد المنّان بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع ، الأردن ، دط ، طبعة جديدة، 1998

2 ـ البيهقي ، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، السنن الكبرى ، دار الفكر، بيروت لبنان دط ، دت.

3 ـ الترمذي ، محمد عيسى الترمذي، سنن الترمذي، ت: ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف الرياض ، المملكة العربية السعودية، ط1.

4 ـ أبو داود ، سليمان بن الأشعث السجستاني ، سنن أبي داود ، ت: ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض ، المملكة العربية السعودية، ط1 ، دت.

5 ـ مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ، أبو الحسين ، صحيح مسلم ، اعتنى به : أبو صُهيب الكرمي بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع ، دط ، 1998 .

6 ـ النسائي ، أحمد بن شعيب النسائي، سنن النسائي، ت: ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف الرياض المملكة العربية السعودية، ط1.

7 ـ ابن ماجة (محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه، ت: ناصر الدين الألباني ، مكتبة المعارف، الرياض المملكة العربية السعودية، ط1، دت .

كتب اللغة والأدب :

8 ـ ابن الأبار ، إعتاب الكتاب ، تح: صالح الأشتر،دار الأوزاعي، بيروت، ط2، 1986.

9 ـ ابن الأبار ، ديوان ابن الأبار، قراءة وتعليق عبد السلام الهراس،الدار التونسية للنشر ود.م.ج، الجزائر .ط ، 2 1956 .

10 ـ ابن الأبار، التكملة ، الجزء الثاني ، تح: حسن العطار الحسيني ، مكتبة الثقافة الإسلامية القاهرة .1956

11 ـ ابن الأبار ، المقتضب من كتاب تحفة القادم ، تح : إبراهيم الأبياري ، دار الكتب الإسلامية دار الكتاب المصري ، القاهرة ، دار الكتاب اللبناني ،بيروت ، ط2 1982 .

12 ـ ابن الأبار ، الحلة السيراء ، تح : حسين مؤنس ، دار المعارف ، القاهرة ، ط2 ، 1985 .

13 ـ ابن أبي الخصال ، رسائله ، تح : محمد رضوان الداية ، دار الفكر ، دمشق ، ط1 1987 .

14 ـ ابن أبي الدنيا ، مجموعة رسائل ابن أبي الدنيا ، كتاب قضاء الحوائج ، دراسة وتحقيق : محمد عبد القادر أحمد عطا ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت، لبنان ط1 ، 1993 .

15 ـ ابن الأثير ، ضياء الدين ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، قدّمه وحقَّقه وعلّق عليه : أحمد الحوفي وبدوي طبانه ، دار نهضة مصر للطبع والنشر الفجالة القاهرة ، دط ، دت .

16 ـ أوس بن حجر ، ديوان أوس بن حجر ، دار صادر ـ بيروت ، لبنان ، تحقيق وشرح:محمد يوسف نجم ، ط3 ، 1979.

16 ـ إبراهيم الأبياري ، المقتضب من كتاب تحفة القادم ، دار الكتب الإسلامية ، القاهرة ـ بيروت، ط2 ،1982.

17 ـ البحتري ، ديوان البحتري ، المجلد الأول ، شرح وتقديم : حنا الفاخوري ، دار الجيل بيروت ، دت .

18 ـ بروكلمان ، كارل ،تاريخ الأدب العربي ، الجزء الأول ، ترجمة : عبد الحليم النجار، دار المعارف، مصر ، ط2 ، 1959 .

19 ـ بشار بن برد ، ديوان بشار بن برد ، جمع وتحقيق وشرح : محمد الطاهر بن عاشور وزارة الثقافة ، الجزائر ، دط ، 2007

20 ـ بشار بن برد ، ديوان بشار بن برد ، الجزء الأول ، قدّم له وشرحه :صلاح الدين الهواري، دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر ، بيروت ، ط1 ، 1998 .

21 ـ التجاني ، أبوعبد الله بن محمد بن أحمد ، رحلة التجاني ، تقديم : حسن حسني عبد الوهاب الدار العربية للكتاب ، ليبيا ، تونس ، دط ، 1981.

22 ـ الجاحظ ، البيان والتبيين ، الجزء الرابع ، تحقيق : عبد السلام هارون ، طبع مكتبة الخانجي بمصر، ط2 ، 1960 ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط 7 ، 1998

23 ـ جلال الدين محمدبن أحمد المحلي وجلال الدين السيوطي ، تفسير الجلالين ، تعليق:خالد الحمصي الجوجا ، مكتبة أرسلان ، استانبول ، تركيا ، دط ، دت .

24 ـ حاتم الطائي ، ديوان حاتم الطائي ، دار صادر ، بيروت ، دط ، 1981 .

25 ـ حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء وسراج الأدباء ،تقديم وتحقيق : محمد الحبيب بن الخوجة دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ،ط2 ،1981 .

26 ـ ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، تحقيق : عبد السلام هارون،دار المعارف ، القاهرة،ط3 1971 .

27 ـ حسان بن ثابت ، ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ، شرحه وكتب هوامشه وقدّم له : عبد.أ مَهنّا ، دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1994 .

28 ـ أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد الأندلسي ، رايات المبرزين وغايات المميزين حققه وعلّق عليه إبراهيم الأبياري وحامد عبد المجيد وأحمد أحمد بدوي راجعه: طه حسين ، دط 1955 .

29 ـ الحموي ، تقي الدين أبو بكر علي ، خزانة الأدب وغاية الأرب ، المطبعة الخيرية مصر ، د.ط 1394.

30 ـ الخطيب التبريزي ، شرح ديوان أبي تمام ، الجزء الثاني ، قدّم له ووضع هوامشه وفهارسه: راجي الأسمر دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط2 ، 1994 .

31 ـ الخطيب التبريزي ،كتاب الكافي في العَروض والقوافي ، تحقيق : الحساني حسن عبد الله مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ط3 ، 1994 .

32 ـ ابن خلكان، وفيات الأعيان لأنباء أبناء الزمان ، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر بيروت لبنان ، دط ، دت .

33 ـ ابن خلدون ، عبد الرحمن ،ديوان المبتدإ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومَنْ عاصرهم مِن ذوي الشأن الأكبر ، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهرس:خليل شحادة ،مراجعة:سهيل زكار دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان دط، 2000 ، 2001 .

34 ـ الخنساء ، ديوان الخنساء ، اعتنى به وشرحه :حمدو طمّاس ، دار المعرفة ، بيروتلبنان ، ط2 . 2004

35 ـ خير الدين شمسي باشا ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية،الجزء الثالث ط 1 ، 2002 .

36 ـ ابن دحية ، المطرب في أشعار أهل المغرب دار العلم للجميع ، سوريا ، مطبعة الأميرية تحقيق: محمد رضوان الداية ، دار طلاس للدراسات و الترجمة والنشر ط1 ، 1987 .

37 ـ الذهبي ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ، سير أعلام النبلاء ، حقّقه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه : شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ط 1 ، 1984 ، 19/ 134 .

38 ـ ابن رشيق القيرواني ، أبو علي الحسن، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده الجزء الأول تحقيق:عبد الحميد هنداوي ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ط1 ، 2001

39 ـ الرصافي البلنسي ، ديوان الرصافي البلنسي ، جمعه :إحسان عباس ، دار الثقافة بيروت ، دط . 1960

40 ـ الرصافي ، ديوان الرصافي البلنسي ، أبي عبد الله محمد بن غالب ، جمعه وقدّم له:إحسان عباس ، دار الشروق، بيروت و القاهرة ،ط2 ، 1983 .

41 ـ الزوزني ، أبو عبد الله الحسين بن أحمد ، شرح المعلقات السبع ، دار الجيل للنشر والتوزيع والإشهار ، بيروت ، لبنان ، دط ، دت .

42 ـ ابن زيدون ، مقدمة الديوان ، تح :علي عبد العظيم ، نهضة مصر للطباعة والنشر والقاهرة دط ،1957 .

43 ـ ابن سلام الجمحي ، طبقات الشعراء ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت لبنان إعداد اللجنة الجامعية للنشر التراث العربي ، دط ، 1968 .

44 ـ الصفدي ، الوافي بالوفيات، تحقيق واعتناء : أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 2000 .

45 ـ ابن طباطبا العلوي ، أبو الحسن محمد بن أحمد ، عيار الشعر، تحقيق:عبد العزيز بن ناصر المانع ، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ،2005 .

46 ـ ابن الطواح ، عبد الواحد محمد ، سبك المقال لفك العقال تح : محمد مسعود حبران ، دار الغرب الإسلامي ، دط ، .1995

47 ـ عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة ، مطبعة المدني بالقاهرة ، ودار المدني بجدة قرأه وعلَّق عليه : محمود محمد شاكر ، دط ، دت .

48 ـ عبد المالك المراكشي : الذيل والتكملة ، الجزء الرابع ، ، تح : إحسان عباس ، دار الثقافة بيروت ، لبنان والجزء السادس ، ط1 ، 1973 .

49 ـ عبد المالك المراكشي : الذيل والتكملة ، الجزء الرابع ، ، تح : محمد بنشريفة وإحسان عباس دار الثقافة بيروت ، لبنان ، دط ، 1964 .

50ـ عبد الواحد علي المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، منشورات دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان ، ط1 ،1998 .

51 ـ الغبريني أحمد ، عنوان الدراية فيمَنْ عُرف مِن العلماء في المائة السابعة ببجاية تحقيق : رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر، .1970

52 ـ المقري ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تح : إحسان عباس ، دار صادر بيروت دت ،1988 ، 2/ 589

53 ـ ابن عذارى المراكشي ، البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمَغرب ـ قسم الموحدين ـ تح:محمد: إبراهيم الكتّاني وآخرون ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، الدار البيضاء ، ودار الغرب الإسلامي ، ط1 ، 1985 .

54 ـ أبو فراس الحمداني ، ديوان أبي فراس الحمداني ، شرح : خليل الدويهي ، دار الكتاب العربي بيروت ،لبنان ، ط5 ، 2003 .

55 ـ الفرزدق ، ديوان الفرزدق ، شرحه وضبطه وقدَّم له : علي فاعور ، دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان ،ط1 ، 1987 .

56 ـ ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم ، الشعر والشعراء ، قدم له : حسن تميم وراجعه وأعد فهارسه:محمد عبد المنعم العريان ، دار إحياء العلوم ، بيروت لبنان ، ط2، 1986 .

57 ـ قدامة بن جعفر، أبو الفرج ، نقد الشعر، تح : كمال مصطفى ، مكتبة الخانجي للطبع والنشر والتوزيع ، القاهرة، ط3 ، 1978 .

58 ـ القلقشندي ، نهاية الأرب ، تحقيق : علي الخاقاني ، بغداد ، دط ،1958.

60 ـ الكتبي ، محمد بن شاكر ، فوات الوفيات ، الجزء الثاني ، تح : محمد محي الدين عبد الحميد دار الثقافة ، بيروت ، 1974 .

61 ـ لسان الدين بن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق:محمد عبد الله عنان الشركة المصرية للطباعة والنشر ، القاهرة ، المجلد الرابع ، ط1 ، 1977 .

62 ـ المتنبي ، ديوان المتنبي ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، دط ، 1983 .

63 ـ المتنبي شرح ديوان المتنبي ، تعليق : يحي شامي ، دار الفكر العربي ، بيروت لبنان ، ط 1 1997

64 ـ المراكشي ، عبد الواحد بن علي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تح: محمد سعيد العريان ، القاهرة ،.1963

65 ـ المعتمد بن عباد ، ديوان المعتمد بن عباد ، تح:رضا الحبيب السويسي ، الدار التونسية للنشر دط ، 1975.

66 ـ محمد يحي الدين عبد الحميد ، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزء الأول ، ط6 ، 1974

67 ـ الميداني ، أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري ، مجمع الأمثال ، الجزء الأول تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت دط ، 2003 .

68 ـ النابغة الذبياني ، ديوان النابغة الذبياني، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف القاهرة ، ط2 ، دت .

69 ـ النابغة الذبياني ، ديوان النابغة الذبياني ، شرح :حنا نصر الحتّي ، دار الكتاب العربي بيروت لبنان ، دط ، 2004

70ـ أبو نواس ، ديوان أبي نواس ، حققه وشرحه وفهرسه : سليم خليل قهوجي ، دار الجيل بيروت ، لبنان ، دط ،2003 .

ثانيا : المراجع العربية :

71 ـ إبراهيم أنيس ، الأصوات اللغوية ، مطبعة نهضة مصر ، دط ، دت .

72 ـ إبراهيم أنيس ، موسيقى الشعر، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط6 ، 1988.

73 ـ أحمد الشايب ، أصول النقد الأدبي ، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ، ط 10 1994 .

75 ـ إحسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي ،عصر الطوائف والمرابطين ، دار الشروق عمان دط 1997 .

76 ـ إحسان عباس ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، دار الثقافة ، بيروت،ط3 1983 .

77 ـ أشرف محمود نجا ، قصيدة المديح في الأندلس ، قضاياها الموضوعية والفنية ،عصر الطوائف، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، مصر ، ط1 ،2003.

78 ـ إيمان السيد ، أحمد الجمل ، المعارضات في الشعر الأندلسي ، جدارا للكتاب العالمي وعالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع ، ط1 ، 2006 .

79 ـ بدوي طبانة، السرقات الأدبية ـ دراسة في ابتكار الأعمال الأدبية وتقليدها مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط4 ، 1975 .

80 ـ بدوي طبانة ، معجم البلاغة العربية ، دار المنارة لنشر والتوزيع ، جدة ، ودار الرفاعي الطباعة والنشر والتوزيع ، الرياض ، ط3 ، 1988 .

81 ـ بكار ، يوسف حسين ، بناء القصيدة في النقد العربي (في ضوء النقد الحديث) دار الأندلس للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان، ط2 ، 1982.

82 ـ جرجي زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، الجزء الثالث، مطبعة الهلال ، مصر 1913.

83 ـ حسن عباس ، التيار المشرقي في الأدب الأندلسي ، مطبعة الشاعر ، طنطا ، دط، دت .

84 ـ حسين عطوان ، مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الأول ،دار الجيل بيروت ، دط 1981 .

85 ـ الحصري القيرواني ، معارضات قصيدة " يا ليل الصب" للحصري القيرواني ، جمع عيسى اسكندر المعلوف اللبناني ، مطبعة الهلال ، لبنان ، دط ،1921 .

86 ـ الخواص ، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عباد بن شعيب القنائي ، الكافي في علمي العروض والقوافي ، تحقيق : عبد المقصود محمد عبد المقصود ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ط1 ، 2006

87 ـ الربعي ، ابن سلامة ، تطور البناء الفني في القصيدة العربية ، دارالهدى ، عين مليلة، الجزائر د.ط ، 2006.

88 ـ رومية ، وهب : قصيدة المدح حتى نهاية العصر الأموي بين الأصول والإحياء والتجديد منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ، دط ، 1981 .

89 ـ الزركشي ، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللولوي تاريخ الدولتين المودية والحفصية مطبعة الدولة التونسية ، ط1 ، 1289 هـ .

90 ـ سيد البحراوي، العروض وإيقاع الشعر العربي ـ محاولة لإنتاج معرفة علمية ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب 1993 .

91 ـ شكري محمد عياد ، موسيقى الشعر العربي ، مشروع دراسة علمية ، دار المعرفة ط1 1968

92 ـ شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ـ العصر الجاهلي ـ دار المعارف بمصر، ط 8 د ت .

93 ـ صلاح الدين المنجد ، رسائل ونصوص ، دار الكتاب الجديد ،بيروت ، ط2 1980 .

94 ـ الطاهر أحمد مكي ، دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة ، دار المعارف القاهرة ط 3 ،1987

95 ـ إحسان عباس ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، دار الثقافة ، بيروت،ط3 .1983

96 ـ عبد الله الطيب ، المرشد إلى أشعار العرب وصناعتها ، الكويت ، ط3 ، الجزء الأول 1989 .97 ـ عبد الرحمن إسماعيل ، المعارضات الشعرية ، دراسة تاريخية ونقدية ، النادي الأدبي جدة دط ، 1994 .

98 ـ عز الدين إسماعيل،التفسير النفسي للأدب،دار العودة ،بيروت،دط ، 1963بيروت،1960

99 ـ فوزي عيسى، تجليات الشعرية ، قراءة في الشعر المعاصر، منشأة المعارف بالإسكندرية، دط . 1977

100 ـ فوزي عيسى ، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين ،دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر الإسكندرية ، مصر، ط1 ، .2007

101 ـ ابن القنفذ القسنطيني ، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ، تح محمد الشاذلي وعبد المجيد التركي الدار التونسية للنشر ، تونس ، 1968 .

102 ـ عبد العزيز عتيق ، الأدب العربي في الأندلس ، دار النهضة العربية ، بيروت لبنان، دط . 1974

103 ـ عبد القادر القط ، الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ط2 ، 1981 .

104 ـ علي البطل ، الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري ، دراسة في أصولها وتطورها ، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، ط1 ، 1980 .

105 ـ علي عشري زايد ، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر ، دار الفكر العربي القاهرة ، ط1 ،1997 .

106 ـ كامل الفقي ، في الأدب الأندلسي ، في الأدلسي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ،مصر ، دط 1975.

107 ـ محمد ، إبراهيم عبد الرحمن ، قضايا الشعر في النقد العربي، دار العودة، بيروت،ط2 1981

108 ـ محمد بنشريفة ، أبو تمام وأبو الطيب في أدب المغاربة ، دار الغرب الإسلامي بيروت ، دط دت .

109 ـ محمد العروسي المطوي ، السلطنة الحفصية ، تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي دار الغرب الإسلامي ، بيرروت ، لبنان ، دط ، 1986 .

110 ـ محمد كامل الفقي ، في الأدب الأندلسي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، مصر ، دط ،1975

110 ـ محمد مجيد السعيد ، الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس ، الدار العربية للموسوعات ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1985.

111 ـ محمد مفتاح ، تحليل الخطاب الشعري (استرا تيجية التناص) ، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء ، المغرب ، ط 3 ، 1992 .

112 ـ محمد كرد علي ، رسائل البلغاء ، دار الكتب العربية الكبرى ، ط2 ، 1913.113 ـ محمد مندور ، في الميزان الجديد ، مكتبة نهضة مصر وطبعتها ، ط 3 ، دت .

114 ـ نعيم حسن اليافي ، مقدمة لدراسة الصورة الفنية ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ، دط ، 1982 .

115 ـ يونس طركي سلوم البجاري ، المعارضات في الشعر الأندلسي ، دراسة نقدية موازنة دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 2008 .

ثالثا : المعاجم :

116 ـ أحمد مطلوب ، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، مكتبة لبنان ناشرون بيروت لبنان ط2 ،2007 .

117 ـ عبد النور ، جبور : المعجم الأدبي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ط2 1984 .

118 ـ الزبيدي ، محمد مرتضى: تاج العروس ممن جواهر القاموس ، دار مكتبة الحياة مصر ، ط1 1306هـ مادة (مدح) .

119 ـ ابن منظور ، جمال الدين أبو الفضل الأنصاري الإفريقي ، لسان العرب ، الجزء الحادي عشر ، ضبط نصه وعلّق حواشيه:خالد رشيد القاضي ، دار صبح ـإديسوفت ، بيروت ، لبنان ـ الدار البيضاء ، ط1 ، 2006.

120 ـ مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، المنجد في اللغة والأعلام ،دار المشرق بيروت ، لبنان ط26 1973 .

رابعا : المراجع المترجمة :

121 ـ غرسيه غومث (Garcia Gomez) ، مع شعراء الأندلس والمتنبي ، سير ودراسات تعريب : الطاهر أحمد مكي ، دراسات أندلسية ، دار المعارف القاهرة ، مصر ، ط3 ، 1983 .

خامسا : المخطوطات والأطروحات الجامعية :

122 ـ ابن بدرون ، شرح قصيدة ابن عبدون لابن بدرون ، اعتنى بتصحيحه وطبعه: رينهرت دوزي(مخطوط رقم النسخة: 310465 ، مصدر المخطوط :مخطوطات الأزهر الشريف ، مصر) مطبعة الأخوين لختمنس ، ليدن1846هـ.

123 ـ الربعي بن سلامة ، أدب المحنة الإسلامية في الأندلس ، أطروحة دكتوراه ـ مخطوط ـ جامعة الجزائر ، 1991 ـ 1992 .

124 ـ عدنان محمد غزال ، ابن الأبار البلنسي ـ حياته وأدبه ـ جامعة دمشق سوريا ،أطروحة دكتوراه ، (مخطوط) ، 1997 ـ 1998

125 ـ أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري ،كتاب ملقى السبيل ، موقع مخطوطات مكتبة الأزهر ، نقل من نسخة بالكتنجانة بمصر ، 1304 ، قم النسخة : 325592 / أدب (مخطوط)

126 ـ علي عالية ، شعر الفلاسفة في الأندلس في القرنين الخامس والسادس الهجريين جامعة الحاج لخضر ، باتنة ، أطروحة دكتوراه ، (مخطوط)، 2004،2005

127 ـ ماهر، زهيرجرار ، ابن الأبار الأندلسي الأديب ، الجامعة الأمريكية، بيروت أطروحة دكتوراه، مخطوط ، حزيران 1983 .

سادسا : المجلات والدوريات :

128 ـ أبو ديب ، كمال ، نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي، مجلة المعرفة.....العدد 195،1978.

129 ـ جيلدر فان (Gilder Vanne) في القصيدة ، ترجمة: عصام بهي ، مجلة فصول الهيئة المصرية العامة للكتاب المجلد السادس العدد الثاني ، 1986.

130 ـ براونة ، فالتر ،Walter Braouna) ، الوجودية في الجاهلية (مقال)
مجلة المعرفة السورية ، السنة الثانية ، العدد الرابع حزيران، 1963 .

131 ـ جمعة شيخة ، مجلة دراسات أندلسية ، مطبعة المغاربة للطباعة والنشر والإشهار تونس العدد الثاني، 1989.

132 ـ صلاح فضل ، بلاغة الخطاب وعلم النص ، عالم المعرفة ـ مجلة ـ المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، العدد 164، 1992 .

133 ـ مصطفى الغديري ، قراءة في أعمال ابن الأبار البلنسي الأندلسي ،يومان دراسيان ـ مجلة ـ منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، وجدة ،المغرب،2002

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة.	أ- ي
الباب الأول: في الموضـــــوعـــات	11
الفصل الأول: المدح والاستـنجاد والاسـتعطاف :	12
1 ـ المدح :	15
• المرحلة الأندلسية	17
• المرحلة الإفريقية	30
• صفات الممدوح	43
2 ـ الاستنجاد	46
3 ـ الاستعطاف	58
الفصل الثاني: الـــــوصـــف :	63
1 ـ وصف المائيات	64
2 ـ وصف الورود والأزهار والرياض	69
3 ـ موصوفات أخرى	76
الفصل الثالث: الــــغـزل	79
الفصل الرابع: أغـــــراض أخـرى :	89
1 ـ ذكريات و أشواق وشؤون	89
2 ـ حكم وزهد و نبويات	99
3 ـ رثاء	106

4 ـ هجاء 116

5 ـ ألغاز. 119

الباب الثاني:
في البنـــــاء الفـــــني 121

الفصل الأول: هــيكل القـــــصيدة : 123

1 ـ القصيدة المركبة : 123

- المطلع 124

- المقدمة : 136

أ ـ المقدمةالغزلية 142

ب ـ مقدمة في الشكوى من الدهر والأيام 151

ج ـ المقدمة الطللية 153

د ـ المقدمة البحرية 155

هـ ـ المقدمة الخمرية 160

و ـ المقدمة الحماسية 162

- التخلص 169

- الخاتمــة 179

2 ـ القصيدة البسيطة 186

3 ـ المقطوعة 200

4 ـ النتفة والبيت اليتيم 206

الفصل الثاني: التعـــــالق النـــــصي : 212

1 ـ الاقتباس : 216

أ ـ من القرآن الكريم 216

ب ـ من الحديث الشريف 238

2 ـ التضمين من الشعر 247

3 ـ المعارضات الشعرية 277

4 ـ الإشارات التاريخية 300

5 ـ توظيف الأمثال 316

6 ـ توظيف مصطلحات العلوم 321

الفصل الثالث: الصـــــــــورة : 331

1 ـ الصورة المباشرة 317

2 ـ الصورة البيانية 342

3 ـ الصورة النفسية 348

4 ـ الصورة الرمزية 352

5 ـ الصورة الحركية 356

الفصل الرابع: الموســــيقى و الإيــقاع: 359

1 ـ الوزن 360

2 ـ القافية 363

3 ـ الروي 373

4 ـ التصريع 388

5 ـ التصدير والترديد 390

6 ـ التجنيس 393

7 ـ الموازنة 400

8 ـ التقسيم 404

9 ـ الترصيع 406

خـــاتمـة. 410

ملحـــق 415

1 ـ سيرة الشاعر ابن الأبار	416
2 ـ ديوان الشـاعــــر	441
الفهارس.	449
فهرس الآيات القرآنية.	450
فهرس الأحــاديث النبوية.	454
فهرس المـصادر والمــراجع.	455
فهرس المـوضـــــوعـات.	467

ملخصا البحث

ملخص باللغة العربية.

ملخص باللغة الإنجليزية.

الملخص باللغة العربية

يهدف هذا البحث إلى دراسة شعر الشاعر ابن الأبار القضاعي بقصد الكشف عن خصائصه وبُناه الفكرية والفنية ، عسانا نضيف ولو لبنة إلى صرح الدراسات السابقة .

وحتى يتحقق ذلك حددنا إشكالية ، يتغيّا البحث الإجابة عن أسئلتها ، وتتمثل في :

ـ كيف بنى الشاعر ابنُ الأبّار موضوعاتِه ؟ وما هي الكيفية التي نقل بها تجربته الشعرية ؟

ـ كيف تمكّن الشاعر من أن يتمثل الواقع التاريخي المتأزم ، الذي عايشه في العدوتين (الأندلسية والإفريقية) شعرًا ، وبهذا القدر الذي نجده في ديوانه ، في حين أن ميدانه الحقيقي هو التاريخ والتراجم بصورة خاصة ؟ بل كيف استطاع أن يوفق فيبدع في مرحلة قضاها مُهجّرًا ومنفيا تارة ومشغولا بمهمات رسمية بجنب الحكام ورجال السياسة تارة أخرى ؟

ـ وإلى أي مدى بلغت شهرته الواسعة في العصر الحاضر ، على الرغم مما كُتب حوله ؟

ـ و إلى أي حدٍّ يصل الأمر بأن تكون نهايتُه مأساويةً ، وهو الرجل الذي قضى حياته خادما للحكام الذين أزهقوا في النهاية روحه ، وأحرقوا كتبه ؟

ولم يكن اختياري لهذا الموضوع الموسوم بـ : **بناء القصيدة في شعر ابن الأبّار القُضَاعي** (595.هـ ـ 658. هـ) حدثا عارضا ، اقتضته ضرورة البحث فحسبُ ، وإنما يعود ذلك إلى اهتمامي بموضوع الأدب الأندلسي بعامة ، وبإبداع الأندلسيين في شتى

المجالات بخاصة منذ دراستي بالجامعة في مرحلة الليسانس ، أين اطلعت على حقيقة هذا الأدب ومعرفة مراحل تكونه و خصائص تشكله وعلاقته بالأدب المشرقي .

كما زاد من إصراري على اختيار موضوعي الاطلاعُ على حياة الشاعر البلنسي ابن الأبّار ومعرفة مأساته مع الحفْصيين ، الذين وَقّعُوا شهادة وفاته قعْصًا بالرماح ، حتى لا تقوم له عندهم قائمة ، فضلا عن قراءة شعره الغزير والمتنوع ، و بعض الدراسات المتعددة والمتعلقة بهذه الشخصية الموسوعية .

من هنا كانت رغبتي شديدة في دراسة شعره ، ومعرفة ملابسات هذه النهاية المأساوية لرجل علم وأدب وتاريخ ، في محاولة مني الإلمام قدر المستطاع بكل ما يتعلق بهذا الموضوع وبإبداعه الغزير الذي أفرزته ظروف معينة خلال ثلاث وستين سنة الذي ضمّنْه دفتاَ ديوانٍ بلغ عدد صفحاته ستًّا وتسعين وأربعَمائة صفحة .

ولأجل أن يتحقق هذا الهدف سارت خطة هذا البحث مجملا في بابيْن ، وضمَّ كل باب أربعةَ فصول ، ثم خاتمة وفهارس للآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، وأخرى للأعلام المترجم لهم وفهرسا للمصادر والمراجع المعتمدة ، وأخيرا فهرس الموضوعات.

تناولت في الباب الأول موضوعاتِ شعر ابن الأبار وأغراضَه المختلفة الموزعة على أربعة فصول من مدح واستنجاد واستعطاف ، ثم وصف وغزل وأغراض أخرى .

أما الباب الثاني فقد خصص للبناء الفني في شعر الشاعر ، قسمته أيضا إلى أربعة فصول توزعت عليها ـ بالتوالي ـ موضوعاتٌ هي : هيكل القصيدة ، فالتعالق النصي ثم الصورة وأخيرا الموسيقى والإيقاع .

ومن أجل الكشف عن بُنَى النص المختلفة اتكأ البحث على أكثر من منهج فاستعنت بالمنهج التاريخي لمعرفة المهاد التاريخي لصاحب المدونة ، والوقوف ـ بخاصة ـ على

ظروف ومناسبات بعض النصوص الشعرية التي تمثّل علامة فارقة في حياة الشاعر التي لم تكن عادية .

والمنهج الفني : للكشف عن جماليات النص الإبداعي للشاعر من خلال تشكل هذا البناء الفني كمرجعية المبدع ، وتَكَوّن صُوَره ، وتشكل موسيقاه ، وكذلك المنهج الإحصائي الذي تتبعت من خلاله سيطرة غرض على آخر ، و،تواتر مقاطع موسيقية معينة ، وغلبة بعضها على بعض للتمكن من تفسيرها ومعرفة حقيقتها .

وقد أعانني في كل ذلك الرجوعُ إلى مصادر ومراجع أساسية ، تناول بعضُها حياة الشاعر وشعره تناولا مستقلا ، وأشار بعضها الآخر إلى جانب أو جوانب من حياته أو شعره .

وفي الأخير تم التوصل ـ بحمد الله ـ إلى نتائج البحث التي كان من أهمها :

ـ قلة شعر المدح في الأندلس لانشغال الشاعر بالتعلم وبمهمة الكتابة في دواوين حكام بلنسية وغزارته في تونس لحاجته إلى التقرب أكثر من سلاطين الحفصيين ؛ لأنه كان وافدا عليهم .

ـ نزول الشاعر ابن الأبار عن بَأوه وكِبره من أجل الحفاظ على مكانته بقرب الحكام .

ـ تنوع أغراض الشاعر وتعدد مناسباتها مع تباين حجمها ، تبعا لطول النّفَس أو قصره .

ـ للشاعر قصيدتان مشهورتان في غرض الاستصراخ ؛ هما السينية والهمزية ، تشتركان في العاطفة وطول النّفَس ، وفي الغرض والمناسبة .

ـ استهلال ابن الأبار قصائده المطولة بمطالع غزلية .

ـ وقلة مطالع الوصف والشكوى والحكمة وغيرها .

ـ الثورة على المقدمة الطللية .

- يرجع اقتباس الشاعر من القرآن الكريم ، ومن الأحاديث النبوية الشريفة إلى تربيته الدينية وحافظته القوية .

- يدل التضمين في شعر ابن الأبار على موسوعية واطلاع كبيرين على تراث القدامى .

- يعبّر استيحاء الشاعر لأحداث تاريخية وشخصيات تراثية عن وعيه وحسن تمثله لها

- تنَوّعُ صُور ابن الأبار من مباشرة وبيانية ونفسية ورمزية وحركية .

- إسهام الظواهر الإيقاعية في نقل تجارب الشاعر وأحاسيسه إلى المتلقي .

Summary in English

The aim of this research is to study the poetry of the poet "**Ibn al-Abbar al Alcodai**" in order to show its characters, intellectual and technical structures, so that we can add, at least, a brick to the tower of the previous studies. To fulfill this goal we should answer the problematic question which consists of: How did "**Ibn Al Abar**" build his topics? In which way did he transmit his experience as a poet? How did he represent the historical tensioned actuality in which he lived with poetry during both Andalusia and African eras as mentioned in his collection, however his main field was history and translations? How did he succeed to be creative while he was under exile in one hand, and busy with official missions beside the rulers and politicians in the other hand? To which limit he became famous during that era, although what was written about him? To what extent did his end become tragic, even so he was the servant man of the rulers who took away his soul later on, and who burnt his books?

My choice of this topic which is marked as: **the poem building in Ibn Al Abar Al Alcodai poetry** (595A.im-658A.im) is not on purpose of the research necessity only, but it is also due to my interest in Andalusia literature in general, and ingenuity of Andalusia's people in all domains specifically, since my bachelor's degree studies where I had a look at this literature and to its development phases, its characteristics and its relationship with the oriental literature. And what made me insist more on this choice is to know more

about the life of this Balansiya's poet "**Ibn Al Abar**" and to learn also about his tragedy with Hafsids who signed for his death certificate with spears, so that he will never appear over them again, in addition to read his diverse, profuse poems, and to read as well some researches which are concerned with this encyclopedic personality.

From this came my desire to study his poems, with the circumstances which led to a tragic end of a man of science, literature and history. Perhaps, for more familiarity about the topic and about the plentiful creativity which was the consequence of certain conditions during sixty three years contained in a collection of four hundred ninety six (496) pages, to reach this target ,this research is planned in: two rubrics under which there are four chapters ,then the conclusion with indexes of Quran verses, Hadith and other translations, in addition to the sources and approved references as well, finally the index of topics.

I took in the first rubric different purposes of "**Ibn Al Abar**" poetry; they are distributed in four chapters through praise, appeal, propitiation then description and flirtation with other purposes…

Moreover the second rubric is allocated to the technical structure of the poems, I divided it into four chapters in which come-respectively- many topics such as: the structure of the poem, the hypertextuality , then comes the image and the rhythm at the end.

To detect the text structure, this research is reclined on more than one method, so, I sought help from, firstly, the historical approach in order to know the historical hypothalamus of the blogger and to stand-especially-on the

conditions and occasions of some political texts that make the distinctions in the poet's life which was not normal.

Secondly, the political approach; in order to detect about the aesthetics creative text through technical structures as a creator reference to form its images and harmony; Thirdly, the statistical approach, in which there is a dominance of an aim over another, and the recurrence of specific, harmonic pieces, besides the predominance of one another in order to interpret them, consequently to know what do they consist of! I found help when going back to the essential references and sources that dealt with the biography of the poet independently, some suggested one side whereas others suggested many sides of this latter's poems and life. Finally-Praise the Lord- this research reached many results such as:

-The rareness of praise in the poet's poems is due to his preoccupation with studying and writing in Valencia rulers palaces, however in Tunisia it wasn't the case because of his need to be near the Hafsids Sultans since he was a new comer there.

- -the descent of the poet "**Ibn Al Abar**" from his vanity and arrogance to maintain his status near the rulers.
- -the diversity of the poet's purposes and the multiplicity of events with variation and length.
- - The poet wrote two famous poems in scream purpose "**siniah**" and "**hamziah**", they are the same in length, appropriateness and purpose.
- - The initiation with flirtation onset in his long poems.
- - The rareness of description, complaint, wisdom and other arts.
- - The revolution against the
- - The quotation from Quran and Sunnah by the poet is due to his religious background and education.

Modulating by the poet represents the big acquaintance of the ancient heritage.

- - The poet’s expressions and inspirations of the historical events and figures show his consciousness and good presentation.
- - The multi kinds of images used by “**Ibn Al Abar**” are direct, imaginable, psychological and symbolic ones.
- - The contribution of the rhythmic phenomena in transferring experiences and feelings to the recipient